

دكتور/ جمال الدين فالح الكيلاني

التاريخ الإسلامي

قراءة ثانية

تقديم
دكتور/ صالح أحمد العلي

بسم الله الرحمن الرحيم

□ وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ

الْعِلْمِ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ يَتْلُونَ

صدق الله العظيم

سورة الاسراء : من الآية 8

شكر وتقدير

الحمد لله الأول بلا أول كان قبله ، والآخر بلا آخر بعده ، الذي قصرت عن رؤيته أبصار الناظرين وعجزت عن نعته أوهام الواصفين والصلاة و السلام على خير الأنام والمرسلين سيدنا محمد واله وصحبه الطيبين . لا يسعني بعد أن أتممت بعون الله تعالى وضع اللمسات الأخيرة على هذه الدراسة الا أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من :

* الاستاذ الفاضل الدكتور صالح أحمد العلي (رحمه الله) لتفضله بكتابة مقدمة للبواكير الاولى من الكتاب ، ودوره في إرشادي إلى الكثير من المصادر والمراجع ، وامدادي ببعض الكتب القيمة وتوجيهاته السديدة و التي كانت لي نبراسا ودليلا .

* كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى أستاذي الدكتور عماد عبد السلام رؤوف ، لدعمه

المعنوي والعلمي المتواصل وحثه على المتابعة والاستمرار ، والصبر وطول النفس ، وتقديره الملاحظات المهمة و التي كان لها دور كبير في أعداد هذه الدراسة .

* وشكري الجزيل إلى الأساتذة في معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا الدكتور محي هلال السرحان لما ابداه من ملاحظات مهمة على كل مراحل العمل ، والدكتورة نبيلة عبد المنعم داوود مديرة مركز دراسات جامعة بغداد لامدادي ببعض الكتب التاريخية النادرة ومساندتها وتشجيعها المستمرين ، والدكتور حمدان الكبيسي لتوجيهي في رسم خطة الكتاب والدكتور طارق الحمداني لإرشادي إلى بعض الكتب المفيدة .

* واتوجه بشكري وتقديري الى الدكتور ماجد عرسان الكيلاني
والذي اطلع على المسودات الاولى وعلق عليها بملاحظات مفيدة ، رغم مرضه
وارسلها لي بالبريد .

* واتقدم بشكري إلى موظفي مكتبة المجمع العلمي العراقي ومكتبة
المتحف العراقي والمكتبة المركزية في بغداد ومكتبة جامعة الموصل والمكتبة
القادرية الشريفة،

وجزيل شكري وتقديري إلى عمي عبد الستار هاشم سعيد
الكيلاني الذي كان يناقشني في اغلب موضوعات الدراسة بروح علمية ورؤية
تاريخية معاصرة .
لهؤلاء جميعاً أقول بارك الله تعالى فيكم ، وجزاكم خيراً ، ووفقكم لكل
ما يحبه ويرضاه .

"جمال الدين "

بسم الله الرحمن الرحيم
مقدمة

تعريف علم التاريخ:

يقول صديق بن حسن القنوجي في كتابه (أبجد العلوم):
علم التاريخ هو معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم
وعاداتهم وصنائع أشخاصهم وأنسابهم ووفياتهم إلى غير
ذلك.

وموضوعه: أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء والأولياء
والعلماء والحكماء والملوك والشعراء وغيرهم.

والغرض منه: الوقوف على الأحوال الماضية.

وفائدته: العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن، ليحترز عن أمثال ما نقل من المضار، ويستجلب نظائرها من المنافع - كذا في (مدينة العلوم) - وهذا العلم كما قيل عمر آخر للمناظرين، والانتفاع في مصره بمنافع تحصل للمسافرين. كذا في (مفتاح السعادة).

الأسلوب العلمي لكتابة التاريخ:

من أفضل من وضع للناس الأسلوب العلمي لكتابه التاريخ، وضرورة أن تسجل الحقيقة فيه، وأن يبحث المؤرخ عنها ليظفر بها وإن كان في ذلك بذل الجهد، والتشمير عن ساعد الجد، ذلك المؤرخ العظيم الذي سبق غيره بنظراته التحليلية الرائعة للتاريخ والحياة، والتي أودعها في مقدمة تاريخه الشهيرة باسم (مقدمة ابن خلدون) التي أفتتح بها كتابه الهام (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر).

يقول ابن خلدون بأسلوبه البليغ وقلمه السيلال: أما بعد: فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسموا إلى معرفته السوق والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال (أي الرؤساء) ويتساوى في فهمه العلماء والجهال. إذ هو في ظاهره لا

يزيد على إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون
الأول، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها
الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليفة كيف
تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال،
وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال وحن منهم
الزوال.

وفي باطنه (أي باطن علم التاريخ للمتبحرين) نظر
وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات
الوقائع أسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق،
وجدير بأن يعد في علومها وخليق.

ثم ينتقل ابن خلدون رحمه الله إلى ما كتبه الكثير دون
تمحيص واحتراز أو ما دسه بعض المغرضين من كذب
وافتراء فيقول:

وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام
وجمعوها، وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها،
وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهَمَمُوا فِيهَا أَوْ
ابْتَدَعُوهَا، وَزَخَّارَفَ مِنَ الرِّوَايَاتِ الْمِضْعَفَةَ لِفَقْوَهَا
وَوَضَعُوهَا، وَاقْتَفَى تِلْكَ الْآثَارَ الْكَثِيرَ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ
وَاتَّبَعُوهَا، وَأَدَوْهَا إِلَيْنَا كَمَا سَمِعُوهَا، وَلَمْ يَلَاظُوا أَسْبَابَ
الْوَقَائِعِ وَالْأَحْوَالِ وَلَمْ يِرَاعُوهَا، وَلَا رَفَضُوا تَرَهَاتِ
الْأَحَادِيثِ وَلَا دَفَعُوهَا، فَالْتَحَقِيقُ قَلِيلٌ، وَطَرَفُ التَّنْقِيحِ فِي
الْغَالِبِ كَلِيلٌ، وَالْغُلَطُ وَالْوَهْمُ نَسِيبٌ لِلْأَخْبَارِ خَلِيلٌ.

من طرائف المؤرخين:

ولعل من الطرائف المناسبة - بعد استعراض كلمة ابن خلدون في فن التاريخ وعلمه - أن نذكر ما ذكره صاحب أبجد العلوم عن ابن خلدون نفسه، حيث قال :

ومن الكتب النفيسة المعتبرة في هذا تاريخ القاضي عبد الرحمن بن محمد الأشبيلي الحضرمي المالكي المتوفى سنة ثمان وثمانمائة، وهو كبير عظيم النفع والفائدة، رتب على السنين. وروي أنه كان في وقعة تيمور قاضياً بحلب فحصل في قبضته أسيراً سميراً (أي وقع ابن خلدون في قبضة تيمور واضطر لملازمته) فكان يصاحبه، وسافر معه إلى سمرقند فقال له يوماً: لي تاريخ كبير جمعت فيه الوقائع بأسرها، وخلصته بمصر، وسيظفر به المجنون - يشير إلى برقوق - فقال له تيمور: هل يمكن تلافي هذا الأمر واستخلاص الكتاب، فاستأذنه في أن يعود إلى مصر ليحیی به فأذن له.

ولعل ذلك الكتاب الذي أشار إليه هو كتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر) وقد اشتهر نحو ثلثه بالمقدمة، ودون مفرداً.

منهج المسلمين في تدوين التاريخ:

ولئن لم يكن أمام المؤرخين المسلمين سبيل سوى الاعتماد على كتب الإسرائيليات وغيرها من الأخبار والمدونات القديمة، فيما تنقله لهم من أخبار الأنبياء والرسل والشعوب السابقين والجيوش والبلدان، فإنهم قد تسلحوا في تدوينهم لأخبار التاريخ بعدة أسلحة تعينهم على الوصول إلى الحقيقة، وتبين منهجهم في هذا العلم الواسع، وتبرهن على أنهم كانوا محققين كما كانوا نقلة، وكانوا بصراء كما كانوا أمناء.

1- عرض الأخبار المتعلقة بالأمم السابقة على الكتاب والسنة أولاً، فإن كانت مما تحدث عنه القرآن، أو بلغ عنه النبي صلى الله عليه وسلم بشيء فلا بد من الموافقة للموحي المعصوم عن الخطأ بادئ ذي بدء، وإلا فإنها ترد.

يقول الإمام ابن كثير في تاريخه الشهير (البداية والنهاية):
ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله، مما لا يخالف كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم...
وما ذلك إلا لأن القرآن الكريم والسنة النبوية من أدق وأصدق مصادر التاريخ.

2- المحاكمة العقلية للحوادث المدونة، حتى تكون منضبطة بضوابط الواقع، مقيدة بقيد العقل، مسايرة لأحوال الخلق وطبيعة الكون.

وفي هذا المجال يقول ابن خلدون: فهو (أي علم التاريخ) محتاج إلى مأخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت، يفضيان بصاحبهما إلى الحق... لأن الأخبار إذا اعتمد

فيها على مجرد النقل، ولم تحكّم أصول العادة، وقواعد السياسة، وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق..

ثم يستعرض أمثلة رائعة لما وقع فيه بعض المؤرخين من أخطاء في تقدير أعداد وجيوش بني إسرائيل مثلاً، أو ما تناقله الناس من قيام أهل اليمن بغزو أفريقية والمغرب العربي، أو ما يسطره بعض المؤرخين في قصة قوم عاد ومدينتهم المزعومة (إرم)، أو ما دسه الداسون من روايات باطلة عن سلوك العباسية أخت هارون الرشيد مع جعفر بن يحيى البرمكي مما أدى إلى نكبتهم - زعموا -، وغير ذلك وهو يحاكم كل تلك الأمثلة محاكمة عقلية وواقعية وعلمية رائعة.

3- أما أخبار الإسلام وأهله ودوله، فلقد حظيت باهتمام من المؤرخين شديد، سواء في تفصيلاتها الدقيقة، أو في المحافظة على سلسلة روايتها للتأكد من صدقهم، وهذا ما نجده واضحاً في أخبار سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وأخبار الخلفاء الراشدين، بل وأخبار الدولة الأموية والدولة العباسية كذلك، مما جعل هذا الجزء من التاريخ أصدق أجزاء التاريخ القديم، بل والحديث أيضاً.

4- اهتمام المؤرخين المسلمين بضبط الأسماء الواردة في التاريخ حتى ولو كانت غير عربية. وهذا أمر مهم حتى يخدم المتعلم ويحفظ الأصل.

وقد أفرد ابن خلدون في مقدمته كلامًا خاصًا في ذلك،
يقول: وقد بقي علينا أن نقدم مقدمة في كيفية وضع
الحروف التي ليست من لغات العرب إذا عرضت في
كتابنا.. الخ.

أهم كتب التاريخ:

وكتب التاريخ التي خاضت غماره كثيرة العدد جدا، حتى
قال حاجي خليفة في كشف الظنون: قد استقصيناها إلى
ألف وثلاثمائة .. وهي أنواع فمنها ما يتناول فترة معينة،
ومنها ما يشمل تاريخ العالم كله، ومنها ما يتحدث عن بلد
معين، ومنها ما صدره مؤلفه بمقدمة عن أمور مهمة تتعلق
بالتاريخ أو العمران أو الشعوب، ومنها ما تناول أعلام مائة
من السنين معينة، إلى غير ذلك من الأنواع والأصناف.

وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر من تلك الكتب ما يلي:
(البداية والنهاية) لابن كثير، و(تاريخ أبي جعفر الطبري)
وتاريخه أصح التواريخ وأثبتها، و(الكامل) لابن الأثير
الجزري، و(مرآة الزمان) لسبط ابن الجوزي. و(تاريخ بغداد)
للخطيب البغدادي، و(شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام)
للإمام الفاسي، و(التاريخ الكبير) للإمام الذهبي، و(الدرر
الكامنة في أعيان المائة الثامنة) لابن حجر، و(يتمية الدهر)
للثعالبي، و(تاريخ دمشق) لابن عساكر، و(تاريخ الخلفاء
الراشدين) للسيوطي، وغير ذلك كثير وكثير جداً..

و في عصرنا هذا برزت الدراسات الاكاديمية المتعددة والتي كان لها الدور الكبير في البحث في التاريخ والتراث العربي الاسلامي و منها ماكتبه ولدنا النجيب السيد جمال الدين فالج الكيلاني ، بطريقة موجزة وميسرة وبروح أكاديمية ، متمنين له ولكل المخلصين ، السداد في القول والفكر والعمل ، والله الموفق .

دكتور/صالح أحمد العلي
بغداد 1999

على سبيل التمهيد تفسير التاريخ عبر العصور

التاريخ قديم قدم البشرية ويعنى الاعتقاد بوجود قوى ثابتة مستقرة وراء التغيرات التي تحدث في المجتمع. وهي إرادة الالهة في العصور ما قبل الأديان، الابراهيمية، ثم قوة الاله الواحد بعدها. وهذه القوة تفرض سلطانها على شئون البشر، وإرادتها كاسحة، وسلطتها المشروعة تخلق قانوناً معيناً يحرك شئون البشر في كل مجال.

ففي الزمن القديم كانت الشعوب تعيش في ظلّ حكومات تشرّع قوانينها بما تعتقد أنه مشيئة الالهة، وذلك عن طريق الرؤساء الدينيين أو من وحي الكهّان، فكان ما يقع في ذهن المشرع، يُنسب إلى الالهة، سواء إله الخير، أو إله الشرّ، أو إله البحار، أو إله الشمس، أو ما أشبه ذلك.

ويكون لحكم هؤلاء الرؤساء الدينيين أو وحي الكهّان، قداسة خاصة لا يمكن تخطيها، فمن تخطاها يرون أنه يعاند المشيئة الإلهية، فيستحق العقاب التكويني كالزلازل، والفيضانات، أو العقاب التشريعي مثل الإلقاء في النار، أو في البحر، أو في غابة لتأكله السباع، أو في بئر عميق، أو يستحق القتل بالجلد، أو الرجم، أو الذبح، أو قطع الأعضاء.

والاتجاه الديني في جوهره يعنى الاعتقاد بوجود قوى ثابتة مستقرة وراء التغيرات التي تحدث في المجتمع، وهي إرادة ومشيئة الاله.

ولا يأخذ هذا المفهوم بالمصادفة، لأن المصادفة تعنى الفوضى والعبث والأيمان
بالعناية الإلهية في التاريخ يقتضى إيماناً بالإله، ومن ثم فإن المفهوم الدينى في
التاريخ ليس نظرية، ولكنه مستوى من الإيمان والاعتقاد في وجود تدخل محكم
من الأله الحكيم ليخطط للإنسان العاجز عن فعل الخير لنفسه (المقدر
والمكتوب) ولولا هذا التدخل الإلهى، لأصبح التاريخ كومة مضطربة من عصور
متراكمة في عبث أو مأساة رهيبة دون بداية معقولة أو نهاية مقبولة.

ويسيطر هذا المفهوم على القصص التاريخي الوارد في ما يعرف بالنصوص
الإلهية المقدسة أو الكتب السماوية حيث يخرج القارئ بنتيجة مؤداها أن حركة
التاريخ الحقّة ليست سوى خطة الهيّة لخلّاص العالم، مقررة سلفاً في خطوطها
العامة على الأقل منذ بدء الخليقة وحتى يوم الحساب. ومهمة المؤرخ هنا
عبارة عن تتبع خطوات تنفيذ هذه الخطة. وفي ضوء هذا، قرأ القديس
أوجسطين التاريخ القديم ليستخلص منه ما يؤكد فكرة غرق الجنس البشرى في
الخطيئة والمعصية، وأستحقاقه ما أصابه من حروب وما أحاط به من كوارث
ففي الحالات التي لم يستطع فيها المؤرخون تقديم بعض التفسيرات البطولية
للتاريخ قدموا تفسيرات دينية نتيجة لاعتقادهم بوجود قوى خارقة تهيمن
وتسيطر على العالم وتوجهه

فعد اليونان القدماء ولدى شعوب الشرق القديم ولا بلاد الرافدين وبلاد
الشام ومصر تم ذكر مثل هذه الألهة وأحياناً اعتبروا الملك على أنه هو الاله أو
ممثّل الاله على وجه الأرض ونسبوا إليه الحوادث التاريخية. فحركة التاريخ
ليست سوى الخطة الإلهية لخلّاص العالم، وهذه الخطة مقررة في خطوطها
العامة منذ بدء الخليقة وحتى يوم القيامة وهذا التفسير ساد تواريخ التوراة كما
أنه يتجاوب مع المنهج التاريخي للكنيسة المسيحية ولكن بصورة أعمق، وأما
التفسير الإسلامي للتاريخ فإنه يدعو أيضاً إلى الاعتقاد بوجود الإله المسيطر
على كل شيء والموجه لكل شيء ووفقاً لهذا التفسير تغدو حركة التاريخ التي
يتبع لها الكون حركة واحدة تبدأ يوم خلق الله السموات والأرض وتتجه نحو
يوم القيامة. إذا هنالك فريق من المؤرخين وهم من أصحاب النظرات الدينية في
الزمان وفي التاريخ وهؤلاء ربطوا الزمان بالخلق الأول وبمصير الإنسانية في
الدنيا، وبالنهاية يرتبط بها حساب وعقاب وثواب، ومن أبرز ممثلي هذا الاتجاه
(فيلون حوالي 25 ق. م - 50 م) بالنسبة إلى اليهودية والقديس أغسطينس)

354-430 م) بالنسبة إلى المسيحية وابن خلدون المتوفى (808هـ) بالنسبة إلى الإسلام.

ويلاحظ أن التاريخ الذي كتب على أساس ديني سواء في العصور القديمة أو الوسطى، اتخذ له صفات خاصة، فهو مثلا يكون تاريخاً عاماً، أو تاريخاً للعمل يرجع إلى أصل الإنسان منذ بدء الخليقة ويعرض للكيفية التي نشأت بها الأجناس البشرية. وهو أيضا لا ينسب الأحداث لحكمة البشر ولكن لأعمال القدر. وهو من ناحية ثالثة يدور حول محور رئيسي مثل ظهور الأنبياء فيصبح التاريخ دائرا كله حول ظهور الأنبياء. وهو أيضا من ناحية رابعة يجعل المؤرخ يعتمد على المصادر التقليدية لتمده بالحقائق. ولما لم تكن لديه الأدلة الكفيلة بنقد هذه المصادر التقليدية، فلم يكن أمام المؤرخ الا تصديق ما تمده به هذه المصادر حيث يعتمد عليها دون مناقشة عميقة.

وبتأثير هذا التفكير، وهو أغفال الإرادة الإنسانية في توجيه الأحداث انصرف مؤرخوا العصور الوسطى إلى البحث عن جوهر التاريخ في خارج نطاق التاريخ نفسه. وبمعنى آخر الانصراف عن أعمال الإنسان والبحث عن الخطة التي رسمتها المقادير لتوجيه أحداث التاريخ. وكان هذا هو السبب في أن تدوين التاريخ في العصور الوسطى اتسم بالضعف من حيث النقد والتحليل، وهو ضعف ليس ناتجا لقلّة المصادر التاريخية والمادة العلمية، وإنما كان بسبب القيود التي فرضت على المنهج الذي رسموه لأنفسهم والتركيز على دراسة خصائص الذات العليا القدسية، أكثر من دراسة دقيقة علمية للحقائق التاريخية وكان هؤلاء المؤرخون أميل إلى سرعة الاعتقاد والتصديق منهم إلى التحرى والتدقيق في قبول الأخبار ورواية الأحداث، ولم يكن هناك تفريق بين الواقعي والمثالي، أو الحق التاريخي والحق الشعري، وكانت الملاحم الشعرية تعد مراجع تاريخية، ولم يكن هناك ما يحول دون تزيف الأخبار وتزوير الوثائق والأسانيد، ولم تكن هناك عناية بكشف الحقائق وبحض الأباطيل، ما دامت الوثائق والأخبار المزيفة تخدم قضية من قضايا العصر، وتؤيد معتقدا من المعتقدات الشائعة.

ولاستخدام هذا المفهوم في كتابة التاريخ مظاهر شتى، فنجد أن أنصاره هم الذين أطلقوا صفة " الصليبية " على الحروب التي تمت بين المشرق والغرب خلال العصور الوسطى، لا شيء سوى اختلاف عقيدة المتحاربين بين المسيحية والإسلام، وأيضا تفسيرهم خروج العرب من الأندلس في أواخر القرن الخامس عشر، عل أنه استمرار للصراع بين المسلمين والمسيحيين، مع أن الخلاف

الدينى المذهبى بين الطرفين أقدم من هذا بكثير بسبعة أو ثمانية قرون على الأقل، ويتضح أيضاً في تفسير الصراع بين اليهود والعرب على أنه صراع دينى، مع أن الخلاف الدينى ثابت وقديم، وتحريك الصراع في تاريخ معين لابد وأن يبعث في ذهن الباحث محاولة تعليل غير مثالية، كالاختلاف على طرق التجارة بين الشام واليمن منذ القدم بين قريش ويهود الجزيرة. والذي أخذ بعدا دينيا بنزول الإسلام

التفسير الإسلامى للتاريخ

أما التفسير الإسلامى للتاريخ يعد التفسير العلمى القائم على البرهان والدليل وكذلك التأكيد على العبرة والدرس من أحداث التاريخ الذى يسير وفق منهج وناموس إلهى عميق مع التأكيد على حرية الإنسان وإرادته التى تجعل منه مسئولاً عن جميع أفعاله فى الدنيا والآخرة.

وهو يؤكد على وجود الإله الحكيم المسيطر على كل شيء والموجه لكل شيء فهو المهيمن ولكن ليس بظلام للعبيد وبالتالي رغم هيمنته ترك للإنسان النجدين (أى الطريقتين، طريق الخير وطريق الغي) وعليه الاختيار.

ووفقاً لهذا التفسير تصبح للحياة معنى وهدف والتاريخ يصبح شاهداً والقضاء والقدر ذاتها لم تقف عائقا ولا هي تحول دون إبراز نشاط الإنسان، والتاريخ شاهد أمين على صدق هذا القول فى كثير من الحالات، فقد كان المسلمون يعرفون أن الله سبحانه وتعالى قد قدر كل شيء فى سابق علمه ومن الأزل، وان ما قدر يكون، مع هذا اندفعوا لتحطيم الفرس والروم فى فترة لا مثيل لها فى القصر، وبذلوا جهداً خارقاً فى سبيل نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية حيثما استطاعوا، وانصرفوا يجرون ورائهم رزقهم ومعاشهم وأمورهم الدنيوية، لأنهم كانوا يدركون فى نفس الوقت أن لكل امرئ ما سعى وان السماء لا تمطر ذهباً أو فضة

توينبى والتاريخ

قدم أرنولد توينبى { ت- 1975 م } (1) تصورا فلسفياً للدراسات الحضارية مؤسساً على نظرة تاريخية موثقة بالأسانيد والشواهد ، وتعد نظريته إحدى

النظريات التي يعتد بها كثير من المفكرين وكتاب التاريخ , فالى جانب زميليه فيكو واشبنجلر يعد من أشهر أعلام فكرة التعاقب الدوري للحضارات في فلسفة التاريخ .

تعد نظريته في حركة التاريخ {التحدي والاستجابة} من أهم النظريات في فلسفة التاريخ , إذ عكف على دراسة حضارات العالم طوال نصف قرن تقريبا , وقد قوّم هذه الحضارات بعد دراسة طويلة تقويما موضوعيا , فقد ذهب لإحصائها ومقارنتها قصد الوقوف على ثوابتها , وقد كان لنظرية ابن خلدون الأثر في نظريته الحضارية , ولاسيما فيما يتعلق بفكرة التعاقب الدوري , ودور الأديان في نشأة الحضارات وارتقائها , ويعد كتاب توينبي هذا اهم انجازاته اذ أجرى فيه مسحا وتحليلا للحضارات الإنسانية شتى , ووضع فيه نظريته الخاصة بنشوء الحضارات واندثارها , ويعتقد ان للتاريخ أشكالا تتكرر إذ يقول : " وهو ما يسميه العلماء بـ {القوانين} وبعض المؤرخين ينكرون تماما مثل هذا التكرار والتوحيد في الامور الانسانية . وهم يقولون – أي العلماء - ... : ان التاريخ لا يكرر نفسه , ولكني متعصب , الى حد ما , لهذه النقطة , واعتقد ان التاريخ يكرر نفسه الى حد ما . واعتقد ان في مقدورك اكتشاف عدد معين من الاشكال . (الموحدة في التاريخ القديم " 2)

تقوم نظريته على قانون التحدي والاستجابة , وقد استبعد تماما من مجال بحثه النظرة العرقية التي تعد الجنس الآري النوردي أسمى الأجناس , لذا يقول : " انني اكتشفت منذ البداية انني لا استطيع ان اتناول الامم كوححدات في دراستي التاريخية . معظم مؤرخينا يكتبون التاريخ على انه تاريخ امم , غير انني وجدت ان الامم اصغر من ان تتناسب مع الدراسة التاريخية , واحسست بانها شذرات من شيء اضخم , شيء كان على ان اسعى وراءه , وهكذا سعيت وراء

المدنيات . مثال هذا انني لم انظر الى الامور على اعتبار انها مجرد تاريخ امريكي او تاريخ فرنسي او تاريخ ايطالي , وانما على انها تاريخ غربي , او تاريخ اغريقي , او تاريخ هندي , وهكذا وحدات ضخمة , حوالي عشرين منها . وشرعت ادرس تشريح هذه الوحدات ولقد انتهيت , في اجزائي الاخيرة – أي كتاب دراسة للتاريخ - بوجه خاص , الى ان الديانات الكبرى هي . (الانماط الكبرى للتاريخ " 3)

ويقول عن نظريته في التحدي والاستجابة : " اعتقد انه في كل لحظة من حياة كل فرد فينا , وفي كل لحظة من حياة مدنية من المدنيات , يتحدانا على الدوام موقف جديد , موقف علينا ان نواجهه , فاما نجحنا او فشلنا . وقد نفشل في أي لحظة ونبدأ في الانحدار , وقد ننجح ونستمر في العيش " (4) . فمفهوم تحد ومفهوم استجابة ، هما مفتاح فهم وشرح تاريخ توينبي في تحديد مصير كل حضارة ، من حيث النمو والولادة ، أو من حيث الأفول والسقوط

ويعني التحدي وجود ظروف صعبة تواجه الإنسان في بناء حضارته وتكون استجابته إما ناجحة إذا تغلب الإنسان على هذه المصاعب ، أو استجابة فاشلة إذا عجز الإنسان على مواجهة هذه المصاعب ، فالتغلب على هذه المصاعب هو واقعة نمو حضاري ، والرضوخ تحت وطأتها عند الانطلاق علامة على الانحلال والسقوط ، والتحدي إما يكون ناتجا عن الظروف الطبيعية الصعبة والقاسية أو يكون تحديا بشريا في شكل عدوان خارجي من طرف دولة أو جماعة بشرية .أخري معادية

وسأتناول في دراستي نشوء الحضارات وارتقاءها , وأسباب الارتقاء أولا , ثم انهيار الحضارات وأسباب الانهيار ثانياً .

: نشوء الحضارات وارتقاؤها

إن الحضارة في رأي توينبي تواجه أنماطاً مختلفة من التحديات , فإذا ما استطاعت ان تجيب على هذا التحدي , استطاعت ان تعيش وتنمو وتزدهر وإلا فإن مآلها الى الزوال والاندثار (5) , فالحضارة عند توينبي " قامت مدفوعة بقانون { التحدي والاستجابة } القائل ان الظروف الصعبة هي التي تستثير . (الامم على اقامة الحضارات . في سياق توافقي مادي - معنوي " (6)

وعن نشوء الحضارات ينكر توينبي وجود حضارة واحدة قديمة , مثلا القول ان مصر هي اصل جميع الحضارات , فعند توينبي خمس عشرة حضارة تصل بصلة البنوة بحضارات سابقة , وستة مجتمعات فقط قد انبعثت من الحياة البدائية مباشرة . تلك هي : { المصرية - السومرية - الصينية - المايانية - الانديانية } والاخيرتان نشأتا بأمريكا الجنوبية . " ولا يمكن ان يُعزى قيام الحضارات الى صفات معينة في جنس من الاجناس , إذ لا يمكن ان يرتبط التفوق الروحي والذهني بلون البشرة فالواقع ان جميع الاجناس قد ساهمت في . (انبعاث الحضارة " (7)

ويرى توينبي أن الصراع والصدام بين الحضارات ناتج من مخيلة الانسان على مدى تطوره الاجتماعي والحضاري , فهناك اللقاء المتناقض بين الخير المطلق وهو الله وبين الشر المطلق وهو الشيطان , هذا اللقاء التراجيدي الرهيب الذي توارثته مخيلة الانسان على مدى التاريخ نجده يتكرر في معظم الحضارات الغربية والشرقية , ونجدها في مصر وبلاد ما بين النهرين , والهند , والاغريق فالألم والعذاب وصور النضال ضد الطبيعة والكون هي قصة ماساة الانسان

, كما انها هي نفسها قصة الانسان وقصة فدائه , وما لقاء آدم وحواء الا صورة من صور الابداع الاجتماعي الذي انتهى بمولد حضارتين متباينتين , حضارة الخصب عن طريق رعي الغنم التي يمثلها هابيل وحضارة الارض التي يمثلها قابيل . . هكذا باختصار بدأت الاسطورة المعبرة عن اعرق حقائق صراع (الانسان مع الطبيعة والكون من اجل ايجاد مجتمعه وحضارته 8)

والتناوب بين التحدي والاستجابة او بين الركود والاندفاع قد ادركه سابقاً حكماء الصين فأسموه {ين و يانغ} فين هو الركود و يانغ هي حركة الاندفاع . (في طريق الابتكار والإبداع 9)

ونشوء الحضارة يتكون عندما يتوافر لهذه الحضارة ميزات خاصة في بيئة ممكن انبعث الحضارة فيها, فلم يكن نشوء الحضارات في رأي المؤرخ البريطاني توينبي ناتج عن تأثير العوامل البيولوجية وحدها ، أو تأثير العوامل الجغرافية الطبيعية والبيئية ، وإنما تنشأ الحضارات نتيجة التحدي الذي تفرضه الطبيعة التي تضع الإنسان دائماً أمام تحديات جديدة غير متوقعة تخلقها خلقاً ، مثل الهجرات التي كان سببها الجفاف ، وقد يكون التحدي في صورة غزو أو حرب أو تهديد بالاسترقاق ، وإلى هذه الأشكال من التحدي يرجع توينبي الظروف العامة التي تتشكل في ضمنها الحضارات ، وهي نسبية من بيئة لأخرى ومن مجتمع لآخر ، فهل تعدّ - مثلاً - البيئة الخاصة التي اتاحها النيل لمصر ، ميزة ايجابية ، لها وحدها ، ويُعزى بدء الحضارة المصرية ؟ هنا تصد النظرية للاختبار في منطقة مجاورة تتوافر فيها الشروط المطلوبة ، تلك هي المنطقة الدنيا من وادي الرافدين { دجلة والفرات } ، اذ نجد ظروفاً طبيعية مماثلة ومجتمعاً مماثلاً هو المجتمع السومري ، لكن النظرية تنهار في وادٍ أصغر وان كان مشابهاً هو وادي الاردن الذي لم يكن يوماً مركزاً لاي حضارة .

. ولعلها تنهار في وادي السند

ومن الامثلة على التحديات الطبيعية المادية , المجموعة البشرية التي استجابت لتحديات الجفاف الذي تركه ارتداد الاعصار الاطلسي والذي كان بداية الابداع في الحضارتين المصرية والسومرية , وهكذا نجد ان اصحاب البأس والإقدام هم الذين استطاعوا ان يخترقوا اعماق وادي النيل وارض شنعار في وادي . (الرافدين فابدعوا تلك الحضارتين المزدهرة 10)

اما التحديات البشرية التي يتحدث عنها توينبي فهي " التي تتم عن طريق انفصام في جسد الحضارة , هذا الانفصال يتمثل في ان الحضارة التي يصيبها الاعتلال تعجز الاقلية المسيطرة بعده عن ان تمسك بمقاليد السلطة , وعندئذ . (يحصل الانفصام في الجسد الحضاري " 11)

فالحضارة تتألق بازدياد التحدي , وهذا ما يريد إيضاحه لنا توينبي , ويعطي أمثلة لذلك كثيرة مثل الحضارة الهلينية , واليابانية , والسومرية , والمصرية , . (والإغريقية 12)

ومن الامثلة التي يذكرها توينبي عن التحدي ضد الطبيعة " ان النهر الأصفر قد طرح تحديات هائلة للانسان فهو لم يكن صالحاً للملاحة ولا في أي موسم من المواسم .. فيضانات هائلة مدمرة ومواسم تسودها فوضى الاجواء والاعاصير , ولكن الانسان قد واجه تحديات هذا النهر فحاول ان يغير اتجاهه طوال ما لا يقل عن اربعة الاف عام , وفي عام 1852 استطاع سكان هذه المنطقة ان يغيروا اتجاه هذا النهر صوب الشمال على بعد مائة ميل تقريبا من مصبه القديم ..") . (13)

ووفقاً لرأي توينبي فإن ارتقاء الحضارات يحدث حيثما تصبح الاستجابات لتحدي معين , لا ناجحة في نفسها فحسب , لكنها تستثير تحدياً اضافياً , تُقابل : باستجابة ناجحة , فالارتقاء يكون وفقاً لسيطرة متزايدة

- 1 . سيطرة على البيئة البشرية التي تتخذ عادة شكل غزو الشعوب المجاورة -
- 2- سيطرة على البيئة المادية , تتكشف عن تحسينات في الاسلوب التكنولوجي -
(المادي (14).

ولا يعد توينبي التوسع السياسي والحربي , وتحسين الاسلوب الفني والتكنولوجي , هو الارتقاء الصحيح , فالارتقاء وقوامه الحقيقي " عملية يطلق عليها توينبي { التسامي } ويعني به التغلب على الحواجز المادية , وتعمل عملية التسامي على اطلاق طاقات المجتمع من عقالها , لتستجيب للتحديات التي تبدو بعد ذلك داخل النفس اكثر منها خارجها , أي انها روحانية الطابع ")
(15).

رفض توينبي ارتقاء المجتمع من خلال فرد ما , بل ان الافراد هم مصدر الفعل , ذلك لان جميع اسباب الارتقاء تنبعث عن افراد مُبدعين او اقلية صغيرة من الافراد , ويتكون عملهم من جزئين :

- 1 . تحقيق إلهامهم او كشفهم , مهما يكن امره -
- 2 هداية المجتمع الذي ينتمون اليه , الى سبيل الحياة الجديدة , هذا ويأتي -

من الناحية النظرية حدوث هذه الهداية بطريق او باخر , اما بتعرض الجميع للتجربة الواقعية التي حولت الأفراد الى مبدعين , واما تقليد الناس لمظاهر الهداية الخارجية , وبعبارة أخرى الهداية بفضل المحاكاة .

ويُعد طريق المحاكاة من الناحية العملية , مجال الاختيار الوحيد المفتوح امام جميع الأفراد , ماخلا أقلية بسيطة من الجنس البشري , وان المحاكاة هي {طريق مختصر} لكنه طريق في وسع عامة الناس جميعا سلوكه في اثر زعمائهم , ليصلوا الى مرتبة الارتقاء (16) , ويذكر توينبي مثلاً عن ان الناس لا الأفراد مسؤولون عن تغير التاريخ فيقول : " إنني افكر الآن في المستر تشرشل عام 1940 , عندما كتب يقول انه يشعر بأنه يسير مع القدر . وكان يقصد بذلك : انه مسؤل شخصياً عن صياغة مجرى الأمور , ولكني أومن بأن الناس جميعاً هم اللذين يصنعون التاريخ . وربما كان المستر تشرشل قد قام بدور الزعيم , ولكن لو لم يتبعه خمسون مليوناً من الرجال , والنساء , (والأطفال البريطانيين , لما كان لهذه الزعامة وزن يذكر " (17)

: انهيار الحضارات

يرجع توينبي سبب انحطاط الحضارات إلى عوامل داخلية ، فهو يرفض الآراء التي ترد السقوط إلى أسباب حتمية خارجة عن قدرة الإنسان ، فالسقوط والانهيار سببه داخلي وليس ناتجاً عن غزو خارجي ، والعامل الرئيس في انهيار الحضارات يكمن في فقدان الأقلية الحاكمة للطاقة المبدعة ، إذ تفشل في الاستجابة المناسبة للتحدي القائم .

وهكذا يفسر توينبي انهيار الحضارات بتحلل المجتمعات من الداخل قبل أن يأتيه

غزو من الخارج ليجهز عليه ، ذلك أن الغزو الخارجي في مثل هذه الحالة يمثل الضربة القاضية في مجتمع يلفظ أنفاسه الأخيرة ، لذا يمكن القول : إن أية حضارة لا يمكن أن تنهار من الخارج من دون أن تكون قد تآكلت من الداخل ، إذ لا يمكن بحال من الأحوال قهر أية إمبراطورية من الخارج إذا لم تكن قد انتحرت من الداخل .

تقوم نظرية توينبي في انهيار الحضارات على اساس استمرار التحدي وتكراره على حضارة من الحضارات ثم ينتهي بغزو تلك الحضارة ، وهنا يقول : " اما فكرة انحلال الحضارات ، فإن قوامها بالمثل ، تكرار التحدي هذا او تواتره. لكن الاستجابات تفشل هنا . عكس نجاحها في حالة ارتقاء الحضارة . ويترتب على ذلك بروز التحدي المرة بعد الاخرى ، عوضاً عن نشوء سلسلة من التحديات يختلف احدهما في طابعه عن سلفه ، الذي سبق مجابهته بنجاح التاريخ " (18).

ولا سيما دور عنصر التكرار في انهيار الحضارة إذ" تقتضي طبيعة الموقف ، وجود عنصر التكرار في نفس التحدي فان حدث ان ترتب الهزيمة عوضاً عن احراز النصر في الاصطدام تلو الاصطدام ، لن يتيسر التخلص قط من التحدي . ويرتبط الموقف بمسألة عرض التحدي نفسه المرة بعد الاخرى ، الى ان يقيض له ان يتلقى : اما نوعاً من الرد البطيء والقاصر ، واما ان يقود الاصطدام الى دمار ذلك المجتمع الذي يُبدي عجزه التام عن الاستجابة له (استجابة فعالة " 19).

التحدي اذا كان ضئيلاً ، فانه عندئذ لا يكون حافزاً ارتقائياً ، وان كان التحدي عنيفاً هائلاً في وطأته فإن الحضارة عندئذ قد تعجز عن تحقيق استجابة ملائمة

له فيصيبها الانحلال ثم الدثور, فتوينبي يدعو الى ما يسميه بـ { الوسط الذهبي } أي الوسط بين الطرفين , طرف الافراط وطرف التفريط , فهذا الوسط هو الذي يضمن دفع الحضارات المستجيبة في طريق الارتقاء والابداع والبقاء (20) , وانه يؤكد أن بعض المدنيات أمتد عمرها لمئات السنين وبعضها عاش (الف سنة ومنها امتد خمسة عشر الف سنة 21) .

ويشير توينبي الى ما يسمى بالانشقاقات الاجتماعية في انهيار الحضارات , إذ يقول : " وتمزق الانشقاقات الاجتماعية التي يتبدى فيها هذا الخلاف , والمجتمع المنهار بصفة جزئية , في بعدين يختلف احدهما في وقت الحدوث عن الآخر .

. اولا : الانشقاقات الرأسية بين الجماعات المتمازجة جغرافياً

ثانياً : الانشقاقات الافقية بين الجماعات المتمازجة جغرافياً لكنها منعزلة اجتماعياً .

فالنوع الاول { الراسي } او العمودي يكون في الحروب الداخلية وهذا الانشطار هو الذي يمهد الى انهيار الحضارة ويقصد به الاضطرابات الكبرى التي شهدتها المجتمعات القديمة كالحضارة الهيلينية , إذ كانت انشطارات عمودية افرزت عوامل الانهيار والاندثار لتلك الحضارات , اما الانشطارات او الانشقاقات الافقية فمن شأنها ان تحدث تمزقاً في جسد المجتمع ينتهي بقيام دولة دنيوية ونظام ديني عنيف مع وجود افرزات بربرية من جسد المجتمع , كما حصل (انهيار الحضارات القديمة " 22) .

: ويقسم توينبي الانشقاقات في الكيان الاجتماعي الى ثلاثة

الاقليات المسيطرة : هي تلك الطبقة المبدعة التي كانت أغلبية المجتمع - 1
تقتدي بها وتحاكيها وتقتفي أثرها في طريق الارتقاء , لكنها تحولت الى اقلية
مسيطرة بعد ان فقدت طاقاتها الإبداعية , ومثال ذلك الحضارة الهيلينية " التي
اخرجت الاسكندر الاكبر كمنوذج لمحارب عظيم لكنها انتجت ايضاً اولئك الذين
هاجمهم شيشرون واعتبرهم انماطاً دنيا في المجتمع الروماني ... ومضي
توينبي فيضع في قمة هذه الحضارات صفوة تتمثل في حلقات عالية المواهب ,
كما شهدنا في حلقات الفلاسفة التي بدأت بسقراط المبدع وانتهت في آخر
ومضاتها الإبداعية بأفلوطين . وكان هذه الحلقات كانت طوال هذه الفترة تبحث
(بفلاسفتها ومفكريها عن فردوس ارضي افلاطوني " (23)

البروليتاريا الداخلية : نشأت عن طريقها الاديان السامية التي تطورت الى - 2
عقائد دينية عالمية ., وافضل امثلة البروتاريا الداخلية ما يذكره توينبي عن "
الحروب الطبقيّة التي بدأت في العالم الهيليني وفي بقعة معينة هي بقعة
كورسيرا التي انتشرت فيما بعد في جميع بقاع العالم الهيليني , ففي عصر
الاسكندر الاكبر تعرض العالم الهيليني الى طوفان جائع من الهجرات الغربية
. التي اشاعت الفرع والذعر في جميع ارجاء العالم الهيليني آنذاك

وقد عجز الاسكندر الاكبر عن الوقوف في وجه هذا الطوفان البشري الطاعي ,
وهنا تولد من خلال هذا الطوفان البشري الجائع عنصر البروليتاريا التي تؤلف
(كائنا في جسد المجتمع ولكنها ليست جزءاً عضويّاً منه " (24)

فهذه البروليتاريا بصورة عامة {الداخلية} تتكون من حشود تأتي من سكان
مهاجرين , عديمي الجنسية , إذ يقول توينبي في هذا ومثاله هو الاسكندر :

وفي مثل هذه الاوضاع تمثلت اولى النتائج الاجتماعية , في ابراز طوفان ضخم واخذ في التضخم , من السكان المهاجرين عديمي الجنسية , وهذه مشكلة لم تعرفها فترة ارتفاع التاريخ الهيليني , وكانت تعتبر شيئاً شاذاً مفرعاً . ولم توافق جهود الاسكندر الصادقة في القضاء على هذه الآفة عن طريق اقتناع الجماعة الحاكمة وقتئذ في كل دولة , بالسماح لمعارضيه المطرودين بالعودة الى ديارهم بسلام , فكان ان هيات النار لنفسها وقوداً جديداً , لان الشيء الذي وجدته المنفيون متاحاً لهم لعمله كان التطوع جنوداً مرتزقة , وترتب على اتساع مجال الطاقة البشرية العسكرية هذا ما ولد ازدياد قوة الاندفاع في الحرب , نشأ عنها بدورها منفيون جدد , فتعاضم بالتالي تعدد الجنود المرتزقة .

هذه الاقلية الضعيفة تتعرض دائماً لانواع من الظلم والقهر ولكنها لا تستطيع ان تقاوم , فنجدها تذهب اخيراً الى الدين وهو تصرف للسيطرة كما فعله اليهود في فلسطين . فتوينبي يقول ان إسرائيل جسم غريب لا يلبث أن يزول، كذلك فإن قوانين التحولات التاريخية تقول ان الدول التي تولد من رحم الحروب ستعيش دائماً على الحروب، وإذا صمت سلاحها وتوقفت حروبها، فإن قلب هذه الدول (سيتوقف وتصبح في خبر كان 25).

: البروليتاريا الخارجية - 3

هي الشعوب التي تحيط بالدولة والتي تتربص بها , وتسعى الى الانقضاض عليها ان ألمّ بها ضعف , وتنشئ مكان المجتمع القديم مجتمعاً حديثاً , وتؤلف هذه البروليتاريا الخارجية عصابات حربية بربرية تبتكر اشعار الملاحم مثل الالياذة والاوديسة لهوميروس وهذه البروليتاريا تبرز الى الوجود " بفعل انشقاق عن الأقلية المسيطرة لحضارة اصابها الانهيار , وهنا يصبح الانقسام

الديني الذي نجم عن الانشقاق مما يسهل ادراكه , ذلك لانه بينما تستمر البروليتاريا الداخلية في تمازجها الجغرافي مع الاقلية المسيطرة التي يفصلها عنها هوة أدبية , لا يقتصر الحال بالنسبة للبروليتاريا الخارجية على استبعادها من الناحية الادبية عن الاقلية المسيطرة , إذ يفصلها عنها خط حدود يمكن (رسمه على الخارطة " 26).

اما البروليتاريا الخارجية " التي تبرز مع بدئ انهيار الحضارات فهي تختلف جغرافيا عن جسد المجتمع الاصيل , اذ تفصل الحدود الجغرافية بين هذا الجسد وبين تلك البروليتاريا التي هي من النمط الخارجي والتي تنشأ اول الامر عن تخطي حضارة ذلك المجتمع الاصيل لجدران الحدود والفواصل نحو مجتمعات بدائية لتقيم علاقات بفعل قوة الحضارة المنطلقة وسيطرتها على تلك المجتمعات (البدائية نسبياً " 27).

واضافة لذلك " تقوم التأثيرات الحضارية بامتدادات اشعاعية على ثلاث مستويات : سياسية , واقتصادية , وثقافية , فتتأثر المجتمعات البدائية بالحضارات ذات التأثير الطاعي من هذه المستويات الثلاثة بصورة متساوية من حيث الحدة تقريباً , كما ان هذه المجتمعات البدائية تعمل على اجراء بعض التحويلات في العناصر الحضارية الوافدة عليها , فتبدأ عندئذ عملية {المحاكاة} . (التي تقوم بها المجتمعات البدائية للمجتمعات المتحضرة " 28).

ومن الامثلة على هذا النوع من البروليتاريا , " تأثيرات الحضارة الهيلينية في الامتدادات الجغرافية التي احاطت بجوهر حضارة هيلاس , فان الحضارة الهيلينية قد ضعف اشعاعها باتجاه اوربا كما ضعف هذا الاشعاع باتجاه غرب دلفي . واما المناطق الواقعة فيما وراء المدن اليونانية على الشاطي الاسيوي

لاسيما الصغرى فان التأثيرات الهيلينية قد تقلصت كثيرا . وهنا برز صراع حاد بين انصار الهيلينية واعدائها , في اوائل القرن السادس {ق . م } انتهى بأذعان العناصر المادية للاتجاه الهيليني والمناهضة لإشعاع حضارة هيلاس . فامتد الإشعاع الهيليني بعد ذلك بشكل خاطف في جنوب شبه جزيرة ايطاليا التي كتب عنها هيراقليدس بوتيكوس وهو احد تلاميذ افلاطون بان هذه المنطقة اللاتينية هي جزء من هيلاس , وهكذا افتتنت القبائل والأقوام المحيطة بهيلاس بالقارة الهيلينية , فبقيت شبه الجزيرة الايطالية باسرها تقريبا تحت تاثير سحر (الحضارة الهيلينية " 29).

ان الكلام السالف الذكر عن الأقلية المبدعة والبروليتاريا الداخلية والخارجية هو تحلل الحضارات من منظور فلسفة توينبي , أما أسباب انهيار الحضارات : فيوجزها في ثلاث نقاط هي :

1 إخفاق الطاقة الإبداعية في الأقلية المبدعة , وعندئذ تحول تلك الأقلية التي – كانت تفتن بها الاغلبية فتحاكيها , فتسير في طريق الارتقاء بفضل هذه المحاكاة . , ثم تتحول الى أقلية مسيطرة .

2 ترد اغلبية المجتمع على طغيان اقلية , بسحبها ولائها , والعدول عن – محاكاتها .

3 يستتبع فقدان الثقة بين أقلية المجتمع الحاكمة والاغلبية المحكومة , – ضياع وحدة المجتمع الاجتماعية , فانهاره .

فهذه هي أسباب انهيار الإحدى والعشرين حضارة التي لم يبق منها إلا خمس

(حضارات 30).

: الخاتمة

وضع توينبي دراسة للتاريخ، وهي وصف للتاريخ البشري كله ومناقشة نقدية للعديد من فلاسفة التاريخ وعظمائه، و حركة الحضارات عند توينبي بين الازدهار والذبول تخضع لنظرية التحدي والاستجابة، وقد استبعد المنهج القديم في دراسته، ولجأ إلى معرفة التاريخ من خلال الحضارات، وأعتد الطريقة المقارنة في البحث التاريخي ولا شك في أنّ هذه الطريقة قد اتبعها إشبجلر من قبل، وأفضل من أخذ بهذا الاعتقاد من بعده هو توينبي، وقد لجأ إلى طريقة المقارنة بين الحضارات، إذ لاحظ أن الحضارات الإنسانية تجمعها أطوار حضارية متشابهة تجعلها صالحة للدراسة المقارنة، على افتراض أنها معاصرة ومتعادلة في القيمة، وقد أنكر توينبي البعد الحيوي للحضارات، فضلاً عن أنّ توينبي قد فضل {الحضارة} او المدنيات كما يسميها بوصفها وحدة لدراسة التاريخ لأنّ الدولة لا تصلح في نظره أساساً للدراسة التاريخية.

وقد كشف أن النظرية القائلة بوحدة الحضارة الإنسانية، هي نظرية خاطئة، وهي إحدى نتائج الفكر الغربي الذي ينكر على المجتمعات الأخرى، قدرتها على العطاء الحضاري.

أحوال العرب قبل الاسلام
يقسم علماء الأنساب العرب إلى قسمين : الأول : عرب بائدة وهم الذين هلكوا ولم يبق من نسلهم أحد مثل "عاد" و"ثمود". الثاني : عرب باقية وهم بدورهم : ينقسمون إلى قسمين :

1. " عرب عاربة وهم أهل اليمن الذين ينتسبون إلى " يعرب بن قحطان -
وعرب مستعربة وهم الذين ينتسبون إلى "عدنان" الذى يتصل نسبة -2
بإسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام . وسموا مستعربة لأن أباهم غير عربى
" وهو "إسماعيل"- عليه السلام- بينما أمهم عربية من "جرهم

: أحوال العرب السياسية .

عرفت بلاد العرب الحياة السياسية المنظمة قبل الإسلام وبخاصة فى "اليمن"
:حيث الزراعة والاستقرار فقامت فيها دول كثيرة متعاقبة مثل
دولة "معين" ودولة "قتبان" ودولة "سبأ" التى سميت بها سورة من سور
القرآن الكريم ، ودولة "حمير" التى ظلت قائمة حتى احتلتها الحبشة فى بداية
القرن السادس الميلادى ، ثم استولى عليها الفرس ، وظلت كذلك إلى أن
حررها الإسلام من الاحتلال الفارسى وأسلم أهلها، وقامت فى "اليمن" حضارة
عظيمة، واشتهرت ببناء السدود كسد مأرب لخزن مياه الأمطار؛ لاستخدامها فى
الزراعة، وازدهرت فيها التجارة بسبب موقعها الجغرافى المتميز على المدخل
الجنوبى للبحر الأحمر؛ مما جعلها مركزاً تجارياً كبيراً بين الشرق الأقصى
"وشرقى "إفريقيا" بل و"أوربا

وبعد انهيار سد مأرب وتدهور الحياة الاقتصادية، هاجر العرب من "اليمن" إلى
أطراف شبه الجزيرة العربية فى الشمال ، وأقاموا إمارات عربية ظلت قائمة
إلى ما بعد ظهور الإسلام، فنشأت إمارة "المناذرة" فى "العراق" وكانت
عاصمتها مدينة "الحيرة" وإمارة "الغساسنة" فى جنوب "الشام" ، وكانت
هناك إمارات عربية أخرى فى شرقى شبه الجزيرة العربية فى "البحرين"
و"اليمن" وفى جنوبها الشرقى فى "عمان" ، وكلها أسلمت فى عهد الرسول-
وأصبحت جزءاً من الدولة الإسلامية ، وأما بقية شبه الجزيرة فكان يعيش
أهلها حياة قبلية؛ حيث يحكم كل قبيلة شيخ هو صاحب الكلمة النافذة والأمر
والنهي فيها

: أحوال العرب الاجتماعية .

اختلفت الحياة الاجتماعية فى بلاد العرب من مكان إلى آخر باختلاف حياة
الحضر والبدو، فالأجزاء الحضرية التى تتمتع بحياة مستقرة وبنظم سياسية

: يقسم المجتمع فيها إلى طبقات

طبقة الملوك والحكام والأمراء وهم يمثلون أعلى فئة فى المجتمع، وينعمون
: بحياة الترف والنعيم، ثم تليهم طبقة التجار والأثرياء، ثم تأتى طبقة الفقراء

. وهم أدنى فئة فى المجتمع

: أما البدو فيتألفون من طبقتين

طبقة السادة : وهم في الواقع كل العرب البدو سواء أكانوا أغنياء أم فقراء، -
فالفقر لم يكن يحد من حرية الإنسان العربي وسيادته، فمهما يكن فقيراً فهو
مالك لزمان نفسه معتز بحريته .
وطبقة العبيد والخدم، وكان يمتلكهم الأغنياء، وعلى عاتق هذه الطبقة قامت -
الحياة الاقتصادية .

واتسمت حياة البدو بعادات، بعضها جميل محمود، أبقى الإسلام عليها وشجعها
كالكرم والنجدة وإغاثة الملهوف، وبعضها الآخر قبيح، حاربه الإسلام حتى
قضى عليه، كوأد البنات خوفاً من العار، وهذه العادة كانت في واقع الأمر في
قبائل معينة ولا تمثل نظرة العرب كلها إلى المرأة .
: أحوال العرب الدينية -

عرفت بلاد العرب التوحيد قبل الإسلام بزمن طويل، فقد نزلت فيها رسالات
سماوية، كرسالة "هود" - عليه السلام- في جنوبي شرقي الجزيرة العربية،
ورسالة "صالح" - عليه السلام- في شماليها الغربي ، كما عرفوا التوحيد من
رسالة إسماعيل- عليه السلام- ، ولكن بمرور الزمن نسوا هذه الرسالات
وتحولوا إلى الوثنية وعبادة الأصنام، وأصبح لهم آلهة كثيرة مثل "هبل"
و"المالات" و"العزى" .

وعلى الرغم من انتشار عبادة الأصنام انتشاراً واسعاً في بلاد العرب، فإن هناك
ما يدل على أنهم لم يكونوا يعتقدون اعتقاداً حقيقياً فيها، فيحكي القرآن الكريم
: على لسانهم قولهم

وكان منهم من رفض عبادة الأصنام رفضاً قاطعاً وهم الذين سمو بالحنفاء
"كورقة بن نوفل"، و"زيد بن عمرو بن نفيل"، و"عثمان بن الحويرث"،
و"عبيد الله بن جحش"، و"قس بن ساعدة"، وهؤلاء لم تقبل أذهانهم عبادة
الأصنام، فاعتنق بعضهم المسيحية، وترقب بعضهم الآخر ظهور الدين الحق
وإذا كانت الوثنية قد سادت بلاد العرب، فإن اليهودية والمسيحية عرفت طريقها
إليها، فتركزت المسيحية في "نجران" التي كانت وقتئذ من أرض "اليمن" ،
في حين استقرت اليهودية شمال "الحجاز" في "يثرب" و"خيبر" ووادي
"الري" و"تيماء" .

ومن العجيب أن اليهودية والنصرانية لم تنتشر على نطاق واسع في بلاد
العرب، ولعل ذلك راجع إلى أن اليهودية تعد ديانة مغلقة، فأهلها كانوا
يعتبرونها ديانة خاصة بهم .

: أحوال العرب الثقافية -

كان العرب قبل الإسلام أمة أمية، لا تعرف القراءة والكتابة إلا في نطاق ضيق،
ولم يكن الذين يعرفونها في "مكة" - مثلاً- يزيدون على عشرين شخصاً، ومع

ذلك فإنهم امتلكوا قدرًا لا بأس به من المعرفة، واتصلوا بالعالم الخارجي من خلال رحلاتهم التجارية، فعرفوا الثقافة الفارسية عن طريق إمارة "الحيرة" العربية، والثقافة اليونانية عن طريق الإمارات العربية في "الشام"، واكتسب العرب أيضًا قدرًا كبيرًا من المعارف العلمية بالخبرة وبدافع الحاجة، كالمعلومات الفلكية والجغرافية، دفعهم إلى معرفتها تنقلاتهم الكثيرة، وارتحالهم من مكان إلى آخر، وحاجتهم إلى معرفة مواسم نزول الأمطار وهبوب الرياح وتفوق العرب على غيرهم من الأمم في مجال علم الأنساب؛ وذلك لاعتزازهم بانتسابهم إلى قبائلهم، وبلغ من شدة اهتمامهم بعلم الأنساب أن اعتنوا بأنساب الخيل غير مكتفين بأنساب البشر .

أما الميدان الثقافي الذي برع فيه العرب فهو البلاغة والفصاحة، فالعربي كان فصيحًا بطبعه بليغًا بفطرته، ودليل ذلك فهمهم للقرآن الكريم الذي نزل بلغتهم وهو ذروة البلاغة والفصاحة .

وبرع العرب في ميدان الشعر براعة واضحة فهو ديوان حياتهم، وشعراؤهم يعدون بالمئات .

والشعر العربي- إلى جانب كونه لونا راقيا من ألوان الأدب- يعد بعد القرآن الكريم مصدرا من مصادر معرفة الحياة العربية بكل خصائصها ومظاهرها وكما تفوق العرب في الشعر تفوقا في الخطابة، وكانوا يقيمون الأسواق الأدبية، التي تشبه مهرجانات المسابقات الأدبية في الوقت الحاضر، ومن أشهر تلك الأسواق سوق "عكاظ"، وكانت تعقد فيها لجان للتحكيم بين الشعراء والخطباء، والقصيدة أو الخطبة التي يفوز صاحبها، يتناقلها الناس، ويحفظونها، ويشيدون بقائلها، ومن القصائد الرائعة ما كان يعلق في الكعبة وهي التي عرفت باسم المعلقة مثل معلقة "امرئ القيس" ومعلقة "زهير بن أبي سلمى" .

أديان العرب قبل الاسلام

كان معظم العرب يدينون دين إبراهيم عليه السلام منذ أن نشأت ذريته في مكة وانتشرت في جزيرة العرب، فكانوا يعبدون الله ويوحدونه ويلتزمون بشعائر دينه الحنيف، حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظا مما ذكروا به، إلا أنهم بقى فيهم التوحيد وعدة شعائر من هذا الدين، حتى جاء عمرو بن لحيّ رئيس خزاعة، وكان قد نشأ على أمر عظيم من المعروف والصدقة والحرص على أمور الدين، فأحبه الناس ودانوا له، ظلّا منهم أنه من أكابر العلماء وأفاضل الأولياء. ثم إنه رحل إلى الشام، فرآهم يعبدون الأوثان، فاستحسن ذلك وظنه

حقاً؛ لأن الشام محل الرسل والكتب، فقدم معه بهبل وجعله في جوف الكعبة، ودعا أهل مكة إلى الشرك بالله فأجابوه، ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة؛ لأنهم ولاية البيت وأهل الحرم. وكان هبل من العقيق الأحمر على صورة إنسان، مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يداً من ذهب، وكان أول صنم للمشركين وأعظمه وأقدسهم. ومن أقدم أصنامهم مناة، كانت لهذيل وخزاعة، وكانت بالمشلل على ساحل البحر الأحمر حذو قديد، والمشلل: ثنية جبل يهبط منها إلى قديد. ثم اتخذوا اللات في الطائف، وكانت لتقيف، وكانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى، ثم اتخذوا العزى بوادي نخلة الشامية فوق ذات عرق، وكانت لقريش وبني كنانة مع كثير من القبائل الأخرى. وكانت هذه الأصنام الثلاثة أكبر أوثان العرب، ثم كثر فيهم الشرك، وكثرت الأوثان في كل بقعة. ويذكر أن عمرو بن لحي كان له ربي من الجن، فأخبره أن أصنام قوم نوح - وداً وسواغاً ويعوث ويعوق ونسراً - مدفونة بجدة، فأتاها فاستثارها، ثم أورها إلى تهامة، فلما جاء الحج دفعها إلى القبائل، فذهبت بها إلى أوطانها. فأما ود: فكانت لكلب، بجرش بدومة الجندل من أرض الشام مما يلي العراق، وأما سواع: فكانت لهذيل بن مدركة بمكان يقال له: رهاط من أرض الحجاز، من جهة الساحل بقرب مكة، وأما يعوث: فكانت لبني عطيف من بني مراد، بالجرف عند سبأ، وأما يعوق: فكانت لهمدان في قرية خيوان من أرض اليمن، وخيوان: بطن من همدان، وأما نسر: فكانت لحمير لآل ذي الكلاع في أرض حمير. وقد اتخذوا لهذه الطواغيت بيوتاً كانوا يعظمونها كتعظيم الكعبة، وكانت لها سدنة وحجاب، وكانت تهدي لها كما يهدى للكعبة، مع اعترافهم بفضل الكعبة عليها. وقد سارت قبائل أخرى على نفس الطريق، فاتخذت لها أصناماً آلهة وبنت لها بيوتاً مثلها، فكان منها ذو الخلصة لدؤس وختعم وبجيلة، ببلادهم من أرض اليمن، بتبالة بين مكة واليمن، وكانت فليس لبني طيئ ومن يليها بين جبلى طيئ سلمى وأجأ. وكان منها ريام، بيت بصنعاء لأهل اليمن وحمير، وكانت منها رضاء، بيت لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد، مناة بن تميم، وكان منها الكعبات لبكر وتغلب ابني وائل، وإلياد بسنداد. وكان لدؤس أيضاً صنم يقال له: ذو الكفين، ولبني بكر ومالك وملكان أبناء كنانة صنم يقال له: سعد، وكان لقوم من عذرة صنم يقال له: شمس، وكان لخولان صنم يقال له: عميانس. وهكذا انتشرت الأصنام ودور الأصنام في جزيرة العرب، حتى صار لكل قبيلة ثم في كل بيت منها صنم، أما المسجد الحرام فكانوا قد ملأوه بالأصنام، ولما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً، فجعل يطعنها بعود في يده حتى تساقطت، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت، وكان في جوف الكعبة أيضاً أصنام وصور، منها صنم على صورة إبراهيم،

وصنم على صورة إسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - وببيدهما الأزام، وقد أزيلت هذه الأصنام ومحيت هذه الصور أيضًا يوم الفتح. وقد تمادى الناس في غيهم هذا حتى يقول أبو رجاء العطاردي رضي الله عنه: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جثوةً من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه، ثم طفنا به. وجملة القول: إن الشرك وعبادة الأصنام كانا أكبر مظهر من مظاهر دين أهل الجاهلية الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم عليه والسلام. أما فكرة الشرك وعبادة الأصنام فقد نشأت فيهم على أساس أنهم لما رأوا الملائكة والرسل والنبیین وعباد الله الصالحين من الأولياء والأتقياء والقائمين بأعمال الخير - لما رأوهم أنهم أقرب خلق الله إليه، وأكرمهم درجة وأعظمهم منزلة عنده، وأنهم قد ظهرت على أيديهم بعض الخوارق والكرامات، ظنوا أن الله أعطاهم شيئًا من القدرة والتصرف في بعض الأمور التي تختص بالله سبحانه وتعالى، وأنهم لأجل تصرفهم هذا ولأجل جاههم ومنزلتهم عند الله يستحقون أن يكونوا وسطاء بين الله سبحانه وتعالى وبين عامة عباده، فلا ينبغي لأحد أن يعرض حاجته على الله إلا بواسطة هؤلاء؛ لأنهم يشفعون له عند الله، وأن الله لا يرد شفاعتهم لأجل جاههم، كذلك لا ينبغي القيام بعبادة الله إلا بواسطة هؤلاء؛ لأنهم بفضل مرتبتهم سوف يقربونه إلى الله زلفي. ولما تمكن منهم هذا الظن ورسخ فيهم هذا الاعتقاد اتخذوهم أولياء، وجعلوهم وسيلة فيما بينهم وبين الله سبحانه وتعالى، وحاولوا التقرب إليهم بكل ما رأوه من أسباب التقرب؛ فنحتوا لمعظمهم صورًا وتمائيل، إما حقيقية تطابق صورهم التي كانوا عليها، وإما خيالية تطابق ما تخيلوا لهم من الصور في أذهانهم - وهذه الصور والتماثيل هي التي تسمى بالأصنام. وربما لم ينحتوا لهم صورًا ولا تماثيل، بل جعلوا قبورهم وأضرحتهم وبعض مقراتهم ومواضع نزولهم واستراحتهم أماكن مقدسة، وقدموا إليها النذور والقرابين، وأتوا لها بأعمال الخضوع والطاعات، وهذه الأضرحة والمقرات والمواضع هي التي تسمى بالأوثان. أما عبادتهم لهذه الأصنام والأوثان فكانت لهم فيها تقاليد وأعمال ابتدع أكثرها عمرو بن لحي، وكانوا يظنون أن ما أحدثه عمرو بن لحي فهو بدعة حسنة، وليس بتغيير لدين إبراهيم// فكان من جملة عبادتهم للأصنام والأوثان أنهم: 1 - كانوا يعكفون عليها ويلتجئون إليها.. ويهتفون بها، ويستغيثونها في الشدائد، ويدعونها لحاجاتهم، معتقدين أنها تشفع عند الله، وتحقق لهم ما يريدون.// 2 - وكانوا يحجون إليها ويطوفون حولها، ويتذللون عندها، ويسجدون لها// 3 - وكانوا يتقربون إليها بأنواع من القرابين، فكانوا يذبحون وينحرون لها على أنصابها، كما كانوا يذبحون بأسمائها في أي مكان// وهذان النوعان من الذبح ذكرهما الله تعالى في قوله:

{وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ} [المائدة: 3]، وفي قوله: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ} [الأنعام: 121]

- وكان من أنواع التقرب إلى هذه الأصنام والأوثان أنهم كانوا يخصون لها 4 شيئاً من مآكلهم ومشاربهم حسبما يبدو لهم، وكذلك كانوا يخصون لها نصيباً من حرثهم وأنعامهم، ومن الطرائف: أنهم كانوا يخصون من ذلك جزءاً لله أيضاً. وكانت عندهم عدة أسباب ينقلون لأجلها إلى الأصنام ما كان لله، ولكن لم يكونوا ينقلون إلى الله ما كان لأصنامهم بحال، قال تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا دَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [الأنعام: 136]// 5- وكان من أنواع التقرب إليها النذر في الحرث والأنعام قال تعالى: {وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حَجْرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءَ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [الأنعام: 138]// 6- وكانت منها البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى. قال سعيد بن المسيب: البحيرة: التي يمنع درها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس والسائبة: كانوا يسيبونها لألهتهم، فلا يحمل عليها شيء والوصيلة: الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل بأنثى، ثم تنثى بعد بأنثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداها بالأخرى، ليس بينهما ذكر. والحامى: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود [العشر من الإبل] فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت، وأعفوه من الحمل، فلم يحمل عليه شيء وسموه الحامى// وقال ابن إسحاق: البحيرة بنت السائبة، هي الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهم ذكر، سببت فلم يركب ظهرها، ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقت أذنها، ثم خلى سبيلها مع أمها فلم يركب ظهرها، ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف، كما فعل بأمها، فهي البحيرة بنت السائبة. والوصيلة: الشاة إذا أتمت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهم ذكر جعلت وصيلة. قالوا: قد وصلت، فكان ما ولد بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم إلا أن يموت شيء فيشترك في أكله ذكورهم وإناثهم. والحامى: الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهم ذكر حمى ظهره، فلم يركب، ولم يجز وبره، وخلى في إبله يضرب فيها، لا ينتفع منه بغير ذلك، وفي ذلك أنزل الله تعالى: {مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [المائدة: 103]، وأنزل: {وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لُدُّورُنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى

أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ} [الأنعام:139]، وقيل في تفسير هذه الأنعام غير ذلك//وقد مر عن سعيد بن المسيب أن هذه الأنعام كانت لطواغيتهم. وفي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبه [أي أمعاه] في النار)؛ لأنه أول من غير دين إبراهيم، فنصب الأوثان وسيب السائبة، وبحر البحيرة، ووصل الوصيعة، وحمى الحامى//كانت العرب تفعل كل ذلك بأصنامهم معتقدين أنها تقربهم إلى الله وتوصلهم إليه، وتشفع لديه، كما في القرآن: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: 3] ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: 81] وكانت العرب تستقسم بالأزلام، والزلم: القدح الذي لا ريش له، وكانت الأزلام ثلاثة أنواع: 1 - نوع فيه ثلاثة أسهم، أحدها: [نعم]، وثانيها: [لا]، وثالثها: [عُفْل]، كانوا يستقسمون بها فيما يريدون من العمل؛ من نحو السفر والنكاح وأمثالهما. فإن خرج [نعم] عملوا به، وإن خرج [لا] أخروه عامه ذلك حتى يأتوه مرة أخرى، وإن طلع [عُفْل] أعادوا الضرب حتى يخرج واحد من الأولين. 2 - نوع فيه المياه والعقول والديات//3- نوع فيه [منكم] أو [من غيركم] أو [ملصق]، فكانوا إذا شكوا في نسب أحدهم ذهبوا به إلى هبل، وبمائة درهم وجزور، فأعطوها صاحب القداح، فإن خرج [منكم] كان منهم وسيطاً، وإن خرج عليه [من غيركم] كان حليفاً، وإن خرج عليه [ملصق] كان على منزلته فيهم، لا نسب ولا حلف. ويقرب من هذا الميسر والقداح، وهو ضرب من القمار، كانوا يقتسمون به لحم الجزور التي كانوا يتقارون عليها؛ وذلك أنهم كانوا يشترون الجزور نسيئة فينحرونها ويقسمونها ثمانية وعشرين قسماً، أو عشرة أقسام، ثم يضربون عليها بالقداح، وفيها [الرابح] و[الغفل]، فمن خرج له قدح [الرابح] فاز، وأخذ نصيبه من الجزور، ومن خرج له [الغفل] خاب وغرم ثمنها//وكانوا يؤمنون بأخبار الكهنة والعرافين والمنجمين، والكاهن: هو من يتعاطى الأخبار عن الكوائن في المستقبل، ويدعى معرفة الأسرار ومن الكهنة من يزعم أن له تابعا من الجن، ومنهم من يدعى إدراك الغيب بفهم أعطيه، ومنهم من يدعى معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله، وهذا القسم يسمى عرافاً، كمن يدعى معرفة المسروق ومكان السرقة والضالة ونحوهما. والمنجم: من ينظر في النجوم أي الكواكب، ويحسب سيرها ومواقيتها، ليعلم بها أحوال العالم وحوادثه التي تقع في المستقبل//والتصديق بأخبار المنجمين هو في الحقيقة إيمان بالنجوم، وكان من إيمانهم بالنجوم الإيمان بالأنواء، فكانوا يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا. وكانت فيهم الطيرة [بكسر ففتح] وهي التشاؤم بالشيء، وأصله أنهم كانوا يأتون الطير أو الظبي فينفرونه، فإن

أخذ ذات اليمين مضوا إلى ما قصدوا وعدوه حسناً، وإن أخذ ذات الشمال انتهوا عن ذلك وتشاءموا، وكانوا يتشاءمون كذلك إن عرض الطير أو الحيوان في طريقهم//ويقرب من هذا تعليقهم كعب الأرنب، والتشاؤم ببعض الأيام والشهور والحيوانات والدور والنساء، والاعتقاد بالعدوى والهامة، فكانوا يعتقدون أن المقتول لا يسكن جأشه ما لم يؤخذ بثأره، وتصير روحه هامة أي بومة تطير في الفلوات، وتقول:صدى صدى أو اسقوني اسقوني، فإذا أخذ بثأره سكن واستراح.كان أهل الجاهلية على ذلك وفيهم بقايا من دين إبراهيم، لم يكونوا قد تركوه كله - مثل تعظيم البيت، والطواف به، والحج، والعمرة، والوقوف بعرفة والمزدلفة، وإهداء البدن - وإنما كانوا قد ابتدعوا في ذلك بدعاً منها: أن قريشاً كانوا يقولون:نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم، وولاية البيت وقاطنو مكة، وليس لأحد من العرب مثل حقنا ومنزلتنا - وكانوا يسمون أنفسهم الخمس - فلا ينبغي لنا أن نخرج من الحرم إلى الحل، فكانوا لا يقفون بعرفة، ولا يفيضون منها، وإنما كانوا يفيضون من المزدلفة وفيهم أنزل الله تعالى: {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} [البقرة:199]//ومنها: أنهم قالوا: لا ينبغي للحمس أن يأقظوا الأقط ولا يسألوا السمن وهم حرم، ولا يدخلوا بيتاً من شعر، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الأدم ما داموا حرماً.ومنها: أنهم قالوا: لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل إلى الحرم، إذا جاءوا حجاجاً أو عماراً//ومنها:أنهم أمروا أهل الحل ألا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس، وكانت الحمس يحتسبون على الناس، يعطى الرجل الرجل الثياب يطوف فيها، وتعطى المرأة المرأة الثياب، تطوف فيها، فإن لم يجدوا شيئاً فكان الرجال يطوفون عراة، وكانت المرأة تضع ثيابها كلها إلا درعاً مفرجاً ثم تطوف فيه، وتقول:اليوم يبدو بعضه أو كله ** وما بدا منه فلا أحله//وأنزل الله في ذلك: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ} [الأعراف:31] فإن تكرم أحد من الرجل والمرأة فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها بعد الطواف ولا ينتفع بها هو ولا أحد غيره//ومنها: أنهم كانوا لا يأتون بيوتهم من أبوابها في حال الإحرام، بل كانوا ينقبون في ظهور البيوت نقباً يدخلون ويخرجون منه، وكانوا يحسبون ذلك الجفاء براً، وقد نهي عنه القرآن، قال الله تعالى: {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَاتَّقَى الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [البقرة:189]//كانت هذه الديانة - ديانة الشرك وعبادة الأوثان، والاعتقاد بالأوهام والخرافات - هي الديانة السائدة في جزيرة العرب، وقد وجدت اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئية سبلاً للدخول في ربوعها//ولليهود دوران - على الأقل - مثلوهما في جزيرة العرب: الأول: هجرتهم في عهد الفتوح البابلية والآشورية في فلسطين،

فقد نشأ عن الضغط على اليهود، وعن تخريب بلادهم وتدمير هيكلهم على يد الملك بُحْتَنَصْر سنة 587 ق.م، وسبى أكثرهم إلى بابل أن قسماً منهم هجر البلاد الفلسطينية إلى الحجاز، وتوطن في ربوعها الشمالية//الدور الثاني: يبدأ من احتلال الرومان لفلسطين بقيادة تيطس الروماني سنة 70م، فقد نشأ عن ضغط الرومان على اليهود وعن تخريب الهيكل وتدميره أن قبائل عديدة من اليهود رحلت إلى الحجاز، واستقرت في يثرب وخيبر وتيماء، وأنشأت فيها القرى والآطام والقلاع، وانتشرت الديانة اليهودية بين قسم من العرب عن طريق هؤلاء المهاجرين، وأصبح لها شأن يذكر في الحوادث السياسية التي سبقت ظهور الإسلام، والتي حدثت في صدره. وحينما جاء الإسلام كانت القبائل اليهودية المشهورة هي: خيبر والنضير والمُصْطَلِق وقريظة وقينقاع، وذكر السمهودي أن عدد القبائل اليهودية التي نزلت بيثرب بين حين وآخر: يزيد على عشرين//ودخلت اليهودية في اليمن من قبل تَبَّان أسعد أبي كَرَب، فإنه ذهب مقاتلاً إلى يثرب واعتنق هناك اليهودية وجاء بحبرين من بني قريظة إلى اليمن، فأخذت اليهودية إلى التوسع والانتشار فيها، ولما ولى اليمن بعده ابنه يوسف ذو نُوَاس هجم على النصارى من أهل نجران ودعاهم إلى اعتناق اليهودية، فلما أبوا خد لهم الأخدود وأحرقهم بالنار، ولم يفرق بين الرجل والمرأة والأطفال الصغار والشيوخ الكبار، ويقال: إن عدد المقتولين ما بين عشرين ألفاً إلى أربعين ألفاً. وقع ذلك في شهر أكتوبر سنة 523 م. وقد ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم في سورة البروج؛ إذ يقول: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج: 4: 7]//أما الديانة النصرانية، فقد جاءت إلى بلاد العرب عن طريق احتلال الحبشة وبعض البعثات الرومانية، وكان أول احتلال الأحباش لليمن سنة 340 م، ولكن لم يطل أمد هذا الاحتلال، فقد طردوا منها ما بين عامي 370-378 م، إلا أنهم شجعوا على نشر النصرانية وتشجعوا لها، وقد وصل أثناء هذا الاحتلال رجل زاهد مستجاب الدعوات وصاحب كرامات - اسمه فيميون - إلى نجران، ودعاهم إلى دين النصرانية فلبوا دعوته واعتنقوا النصرانية؛ لما رأوا من آيات صدقه وصدق دينه//ولما احتلت الأحباش اليمن مرة أخرى عام 525م - كرد فعل على ما أتاه ذو نواس من تحريق نصارى نجران في الأخدود، وتمكن أبرهة الأشرم من حكومة اليمن - أخذ ينشر الديانة النصرانية بأوفر نشاط وأوسع نطاق، حتى بلغ من نشاطه أنه بني كعبة باليمن، وأراد أن يصرف حج العرب إليها ويهدم بيت الله الذي بمكة، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى//وقد اعتنق النصرانية العرب الغساسنة وقبائل تغلب وطيئ وغيرهما لمجاورة الرومان، بل قد اعتنقها بعض ملوك الحيرة أيضاً.//أما المجوسية، فكان ما كان

منها في العرب المجاورين للفرس، فكانت في عراق العرب وفي البحرين -
 الأحسا - وهجر وما جاورها من منطقة سواحل الخليج العربي، ودان لها رجال
 من اليمن في زمن الاحتلال الفارسي. // أما الصابئية - وهي ديانة تمتاز بعبادة
 الكواكب وبالاعتقاد في أنواع المنازل وتأثير النجوم وأنها هي المدبرة للكون -
 فقد دلت الحفريات والتنقيبات في بلاد العراق وغيرها أنها كانت ديانة قوم
 إبراهيم الكلدانيين، وقد دان بها كثير من أهل الشام وأهل اليمن في غابر
 الزمان، وبعد تتابع الديانات الجديدة من اليهودية والنصرانية، تضعف بنيان
 الصابئية وحمد نشاطها، ولكن لم يزل في الناس بقايا من أهل هذه الديانة
 مختلطين مع المجوس أو مجاورين لهم في عراق العرب وعلى شواطئ الخليج
 العربي. وقد وجد شيء من الزندقة في بعض العرب، وكانت وصلت إليهم عن
 طريق الحيرة، كما وجدت في بعض قریش لاحتكاكهم بالفرس عن طريق
 التجارة. // الحالة الدينية // كانت هذه الديانات هي ديانات العرب حين جاء الإسلام،
 وقد أصاب هذه الديانات الانحلال والبوار، فالمشركون الذين كانوا يدعون أنهم
 على دين إبراهيم كانوا بعيدين عن أوامر ونواهي شريعة إبراهيم، مهملين ما
 أتت به من مكارم الأخلاق. وكثرت فيهم المعاصي، ونشأ فيهم على توالى
 الزمان ما ينشأ في الوثنيين من عادات وتقاليد تجرى مجرى الخرافات الدينية،
 وأثرت في الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية تأثيراً بالغاً جداً. // أما اليهودية،
 فقد انقلبت رياء وتحكماً، وصار رؤساؤها أرباباً من دون الله، يتحكمون في
 الناس ويحاسبونهم حتى على خطرات النفس وهمسات الشفاه، وجعلوا همهم
 الحظوة بالمال والرياسة وإن ضاع الدين وانتشر الإلحاد والكفر، والتهاون
 بالتعاليم التي حض الله عليها وأمر كل فرد بتقديسها. // وأما النصرانية، فقد
 عادت وثنية عسرة الفهم، وأوجدت خلطاً عجيباً بين الله والإنسان، ولم يكن لها
 في نفوس العرب المتدينين بهذا الدين تأثير حقيقي؛ لبعد تعاليمها عن طراز
 المعيشة التي ألفوها، ولم يكونوا يستطيعون الابتعاد عنها. // وأما سائر أديان
 العرب: فكانت أحوال أهلها كأحوال المشركين، فقد تشابهت قلوبهم، وتواردت
 عقائدهم، وتوافقت تقاليدهم وعوائدهم. // صور من المجتمع العربي
 الجاهلي // // بعد البحث عن سياسة الجزيرة وأديانها يجمل بنا أن نلقى شيئاً من
 الضوء على أحوالها الاجتماعية والاقتصادية والخلقية، وفيما يلي بيانها
 بإيجاز: الحالة الاجتماعية: كانت في العرب أوساط متنوعة تختلف أحوال بعضها
 عن بعض، فكانت علاقة الرجل مع أهله في الأشراف على درجة كبيرة من
 الرقي والتقدم، وكان لها من حرية الإرادة ونفاذ القول القسط الأوفر، وكانت
 محترمة مصونة تُسلُّ دونها السيوف، وتراق الدماء، وكان الرجل إذا أراد أن
 يمتدح بما له في نظر العرب المقام السامي من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب

في معظم أوقاته إلا المرأة، وربما كانت المرأة إذا شاءت جمعت القبائل للسلام، وإن شاءت أشعلت بينهم نار الحرب والقتال، ومع هذا كله فقد كان الرجل يعتبر بلا نزاع رئيس الأسرة وصاحب الكلمة فيها، وكان ارتباط الرجل بالمرأة بعقد الزواج تحت إشراف أوليائها، ولم يكن من حقها أن تفتت عليهم. //بينما هذه حال الأشراف، كان هناك في الأوساط الأخرى أنواع من الاختلاط بين الرجل والمرأة، لا نستطيع أن نعبر عنه إلا بالدعارة والمجون والسفاح والفاحشة. روى البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها. //إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم؛ يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبدًا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح [يسمى] نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر: يجتمع الرهط دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت، ووضعت ومر [ت] ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، [ف] تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، [ف] تسمى من أحبت [منهم] باسمه، فيلحق به ولدها. لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل، ونكاح رابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علمًا، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاطته به، ودعى ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلما بعث [الله] محمدًا صلى الله عليه وسلم بالحق هدم نكاح [أهل] الجاهلية كله إلا نكاح الإسلام اليوم. وكانت عندهم اجتماعات بين الرجل والمرأة تعقدتها سفار السيوف، وأسنة الرماح، فكان المتغلب في حروب القبائل يسبي نساء المهزوم فيستحلها، ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار مدة حياتهم. //وكان من المعروف في أهل الجاهلية أنهم كانوا يعددون بين الزوجات من غير حد معروف ينتهي إليه، حتى حددها القرآن في أربع. وكانوا يجمعون بين الأختين، وكانوا يتزوجون بزوجة آبائهم إذا طلقوها أو ماتوا عنها حتى نهى عنهما القرآن {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن

تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [سورة النساء: 22، 23] وكان الطلاق والرجعة بيد الرجال، ولم يكن لهما حد معين حتى حددهما الإسلام. وكانت فاحشة الزنا سائدة في جميع الأوساط، لا نستطيع أن نخص منها وسطاً دون وسط، أو صنفاً دون صنف إلا أفراداً من الرجال والنساء ممن كان تعاضم نفوسهم يأبى الوقوع في هذه الرذيلة، وكانت الحرائر أحسن حالاً من الإماء، والطامة الكبرى هي الإماء، ويبدو أن الأغلبية الساحقة من أهل الجاهلية لم تكن تحس بعار في الانتساب إلى هذه الفاحشة، روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قام رجل فقال: يا رسول الله، إن فلاناً ابني، عاهرت بأمه في الجاهلية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا دعوة في الإسلام، ذهب أمر الجاهلية، الولد للفراش وللعاهر الحجر)، وقصة اختصام سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة في ابن أمة زمعة - وهو عبد الرحمن بن زمعة - معروفة. // وكانت علاقة الرجل مع أولاده على أنواع شتى، فمنهم من يقول: إنما أولادنا بيننا ** أكبادنا تمشي على الأرض، ومنهم من كان يند البنات خشية العار والانفاق، ويقتل الأولاد خشية الفقر والإملاق: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ إِلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٌ نَحْنُ نُرْزِقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطْنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الأنعام: 151] ولكن لا يمكن لنا أن نعد هذا من الأخلاق المنتشرة السائدة، فقد كانوا أشد الناس احتياجاً إلى البنين ليتقوا بهم العدو. // أما معاملة الرجل مع أخيه وأبناء عمه وعشيرته فقد كانت موطدة قوية، فقد كانوا يحيون للعصبية القبلية ويموتون لها، وكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها العصبية، وكان أساس النظام الاجتماعي هو العصبية الجنسية والرحم، وكانوا يسيرون على المثل السائر: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) على المعنى الحقيقي من غير التعديل الذي جاء به الإسلام؛ من أن نصر الظالم كفه عن ظلمه، إلا أن التنافس في الشرف والسؤدد كثيراً ما كان يفضي إلى الحروب بين القبائل التي كان يجمعها أب واحد، كما نرى ذلك بين الأوس والخزرج، وعَبَسَ وَذُبْيَانَ، وَبَكْرَ وَتَغْلِبَ وَغَيْرَهَا. // أما العلاقة بين القبائل المختلفة فقد كانت مفككة الأوصال تماماً، وكانت قواهم متفانية في الحروب، إلا أن الرهبة والوجل من بعض التقاليد والعادات المشتركة بين الدين والخرافة ربما كان يخفف من حدتها وصرامتها. وأحياناً كانت الموالاتة والحلف والتبعية تفضي إلى اجتماع القبائل المتغايرة. وكانت الأشهر الحرم رحمة ووعناً لهم على حياتهم وحصول معاشهم. فقد كانوا يأمنون فيها تمام الأمن؛ لشدة التزامهم بحرمتها، يقول أبو رجاء العطاردي: إذا دخل شهر رجب قلنا: مُنْصَلُّ الْأَسِنَّةِ؛ فلا ندع رمحاً فيه

حديدة ولا سهماً فيه حديدة إلا نزعناه، وألقيناه شهر رجب. وكذلك في بقية الأشهر الحرم. //وقصارى الكلام أن الحالة الاجتماعية كانت في الحضيض من الضعف والعماية، فالجهل ضارب أطنايه، والخرافات لها جولة وصوله، والناس يعيشون كالأنعام، والمرأة تباع وتشتري وتعامل كالجمادات أحياناً، والعلاقة بين الأمة واهية مبتوتة، وما كان من الحكومات فجلاً همتهام ملء الخزائن من رعيتهام أو جر الحروب على مناوئيهام. //الحالة الاقتصادية

أما الحالة الاقتصادية، فتبعت الحالة الاجتماعية، ويتضح ذلك إذا نظرنا في طرق معاش العرب. فالتجارة كانت أكبر وسيلة للحصول على حوائج الحياة، والجولة التجارية لا تتيسر إلا إذا ساد الأمن والسلام، وكان ذلك مفقوداً في جزيرة العرب إلا في الأشهر الحرم، وهذه هي الشهور التي كانت تعقد فيها أسواق العرب الشهيرة من عكاظ وذي المجاز ومجنة وغيرها. //وأما الصناعات فكانوا أبعد الأمم عنها، ومعظم الصناعات التي كانت توجد في العرب من الحياكة والدباغة وغيرها كانت في أهل اليمن والحيرة ومشارف الشام، نعم، كان في داخل الجزيرة شيء من الزراعة والحراث واقتناء الأنعام، وكانت نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل، لكن كانت الأمتعة عرضة للحروب، وكان الفقر والجوع والعري عاماً في المجتمع. //الأخلاق: لا شك أن أهل الجاهلية كانت فيهم دنايا وردائل وأمور ينكرها العقل السليم ويأبأها الوجدان، ولكن كانت فيهم من الأخلاق الفاضلة المحمودة ما يروع الإنسان ويفضى به إلى الدهشة والعجب، فمن تلك الأخلاق: 1 - الكرم: وكانوا يتبارون في ذلك ويفتخرون به، وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم بين ممتدح به ومثنى على غيره، كان الرجل يأتيه الضيف في شدة البرد والجوع وليس عنده من المال إلا ناقتة التي هي حياته وحياة أسرته، فتأخذه هزة الكرم فيقوم إليها، فيذبحها لضيفه. ومن آثار كرمهم أنهم كانوا يتحملون الديات الهائلة والحملات المدهشة، يكفون بذلك سفك الدماء، وضياع الإنسان، ويمتدحون بها مفتخرين على غيرهم من الرؤساء والسادات. وكان من نتائج كرمهم أنهم كانوا يتمدحون بشرب الخمر، لا لأنها مفخرة في ذاتها؛ بل لأنها سبيل من سبل الكرم، ومما يسهل السرف على النفس، ولأجل ذلك كانوا يسمون شجر العنب بالكرم، وحمره ببنت الكرم. وإذا نظرت إلى دواوين أشعار الجاهلية تجد ذلك باباً من أبواب المديح والفخر، يقول عنتره بن شداد العبسي في معلقته: ولقد شربت من المدامة بعد ما ** ركد الهواجر بالمشوف المعلم //بزجاجة صفراء ذات أسيرة ** قرنت بأزهر بالشمال متمدّم //فإذا شربت فإننى مستهلك ** مالى وعرضى وإفر لم

يُكَلِّم // وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصَرُ عَنْ نَدَى ** وكما عَلِمْتَ شمائلي
وَتَكْرَمِي // ومن نتائج كرمهم اشتغالهم بالميسر، فإنهم كانوا يرون أنه سبيل من
سبيل الكرم؛ لأنهم كانوا يطعمون المساكين ما ربحوه أو ما كان يفضل عن سهام
الرابحين؛ ولذلك ترى القرآن لا ينكر نفع الخمر والميسر وإنما يقول: {وَإِثْمُهُمَا
أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} [البقرة:219]// 2 - الوفاء بالعهد: فقد كان العهد عندهم ديناً
يتمسكون به، ويستهيئون في سبيله قتل أولادهم، وتخريب ديارهم، وتكفي في
معرفة ذلك قصة هاني بن مسعود الشيباني، والسَّمَوَال بن عادي، وحاجب بن
زرارة التميمي. // 3 - عزة النفس والإباء عن قبول الخسف والضميم: وكان من
نتائج هذا فرط الشجاعة وشدة الغيرة، وسرعة الانفعال، فكانوا لا يسمعون كلمة
يشمون منها رائحة الذل والهوان إلا قاموا إلى السيف والسنان، وأثاروا
الحروب العوان، وكانوا لا يبالون بتضحية أنفسهم في هذا السبيل. // 4 - المضي
في العزائم: فإذا عزموا على شيء يرون فيه المجد والافتخار، لا يصرفهم عنه
صارف، بل كانوا يخاطرون بأنفسهم في سبيله. // 5 - الحلم، والأناة، والتؤدة:
كانوا يتمدحون بها إلا أنها كانت فيهم عزيزة الوجود؛ لفرط شجاعتهم وسرعة
إقدامهم على القتال.

- السذاجة البدوية، وعدم التلوث بلوثات الحضارة ومكائدها: وكان من 6
نتائجها الصدق والأمانة، والنفور عن الخداع والغدر. نرى أن هذه الأخلاق
التمينية - مع ما كان لجزيرة العرب من الموقع الجغرافي بالنسبة إلى العالم -
كانت سبباً في اختيار الله عز وجل إياهم لحمل عبء الرسالة العامة، وقيادة
الأمة الإنسانية، وإصلاح المجتمع البشري؛ لأن هذه الأخلاق وإن كان بعضها
يفضي إلى الشر، ويجلب الحوادث المؤلمة إلا أنها كانت في نفسها أخلاقاً ثمينية،
تدر بالمنافع العامة للمجتمع البشري بعد شيء من الإصلاح، وهذا الذي فعله
الإسلام. ولعل أعلى ما عندهم من هذه الأخلاق وأعظمها نفعاً - بعد الوفاء
بالعهد - هو عزة النفس والمضي في العزائم؛ إذ لا يمكن قمع الشر والفساد
وإقامة نظام العدل والخير إلا بهذه القوة القاهرة وبهذا العزم الصميم. ولهم
أخلاق فاضلة أخرى دون هذه التي ذكرناها، وليس قصدنا استقصاءها. // النسب
والمولد والنشأة: **نسب النبي صلى الله عليه وسلم وأسرته: نسب النبي صلى
الله عليه وسلم: نسب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ينقسم إلى ثلاثة أجزاء:
جزء اتفق عليه كافة أهل السير والأنساب، وهو الجزء الذي يبدأ منه صلى الله
عليه وسلم وينتهي إلى عدنان. وجزء آخر كثر فيه الاختلاف، حتى جاوز حد
الجمع والانتلاف، وهو الجزء الذي يبدأ بعد عدنان وينتهي إلى إبراهيم عليه

السلام فقد توقف فيه قوم، وقالوا: لا يجوز سرده، بينما جوزه آخرون وساقوه. ثم اختلف هؤلاء المجوزون في عدد الآباء وأسمائهم، فاشتد اختلافهم وكثرت أقوالهم حتى جاوزت ثلاثين قولاً، إلا أن الجميع متفقون على أن عدنان من صريح ولد إسماعيل عليه السلام. أما الجزء الثالث فهو يبدأ من بعد إبراهيم عليه السلام وينتهي إلى آدم عليه السلام، وجل الاعتماد فيه على نقل أهل الكتاب، وعندهم فيه من بعض تفاصيل الأعمار وغيرها ما لا نشك في بطلانه، بينما نتوقف في البقية الباقية. وفيما يلي الأجزاء الثلاثة من نسبه الزكي صلى الله عليه وسلم بالترتيب: الجزء الأول: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - واسمه شَيْبَةَ - بن هاشم - واسمه عمرو - بن عبد مناف - واسمه المغيرة - بن قُصَيٍّ - واسمه زيد - بن كلاب بن مَرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهْر - وهو الملقب بقريش وإليه تنتسب القبيلة - بن مالك بن النَّضْر - واسمه قيس - بن كِنَانَةَ بن خُزَيْمَةَ بن مُدْرِكَةَ - واسمه عامر - بن إلياس بن مُضَر بن نِزَار بن مَعَد بن عدنان. الجزء الثاني: ما فوق عدنان، وعدنان هو ابن أدد بن الهَمَيْسَع بن سلامان بن عَوْص بن بوز بن قموال بن أبي بن عوام بن ناشد بن حزا بن بلداس بن يدلاف بن طابخ بن جاحم بن ناحش بن ماخي بن عيضم بن عبقر بن عبيد بن الدعا بن حَمْدَان بن سنبر بن يثربي بن يحزن بن يلحن بن أرعوى بن عيضم بن ديشان بن عيصر بن أفناد ابن أيهام بن مقصر بن ناحث بن زارح بن سمي بن مزى بن عوضة بن عرام بن قيذار ابن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. // الجزء الثالث: ما فوق إبراهيم عليه السلام، وهو ابن تَارِح - واسمه آزر - بن ناحور بن ساروع - أو ساروغ - بن رَاعُو بن فَالْخ بن عابر بن شَالْخ بن أَرْفُخْشَد بن سام بن نوح عليه السلام بن لامك بن مَتَوْشَلْخ بن أَخْنُوخ - يقال: هو إدريس النبي عليه السلام - بن يَرْد بن مَهْلَانِيل بن قِينَان بن أَنُوش بن شِيث بن آدم - عليهما السلام. // الأسرة النبوية: تعرف أسرته صلى الله عليه وسلم والأسرة الهاشمية - نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف - وإذن فلنذكر شيئاً من أحوال هاشم ومن بعده: 1 - هاشم قد أسلفنا أن هاشمًا هو الذي تولى السقاية والرفادة من بني عبد مناف حين تصالح بنو عبد مناف وبنو عبد الدار على اقتسام المناصب فيما بينهما، وكان هاشم موسراً ذا شرف كبير، وهو أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة، وكان اسمه عمرو فما سمي هاشمًا إلا لهشمه الخبز، وهو أول من سن الرحلتين لقريش، رحلة الشتاء والصيف، وفيه يقول الشاعر: عمرو الذي هَشَمَ الثريدَ لقومه * قوم بمكة مُسْنَتَيْنِ عِجَافٍ سُنَّتْ إِلَيْهِ الرحلتان كلاهما * سَفَرُ الشتاء ورحلة الأضياف، ومن حديثه أنه خرج إلى الشام تاجرًا، فلما قدم المدينة تزوج سلمى بنت عمرو أحد بني عدى بن النجار وأقام عندها، ثم خرج إلى الشام - وهي عند أهلها قد حملت بعبد المطلب - فمات

هاشم بغزة من أرض فلسطين، وولدت امرأته سلمى عبد المطلب سنة 497 م، وسمته شيبية؛ لشيبية كانت في رأسه، وجعلت تربيته في بيت أبيها في يثرب، ولم يشعر به أحد من أسرته بمكة، وكان لهاشم أربعة بنين وهم: أسد وأبو صيفي ونضلة وعبد المطلب. وخمس بنات وهن: الشفاء، وخالدة، وضعيفة، ورقية، وجنة. 2 - عبد المطلب: قد علمنا مما سبق أن السقاية والرفادة بعد هاشم صارت إلى أخيه المطلب بن عبد مناف [وكان شريفاً مطاعاً ذا فضل في قومه، كانت قريش تسميه الفياض لسخائه] لما صار شيبية - عبد المطلب - وصيفاً أو فوق ذلك ابن سبع سنين أو ثماني سنين سمع به المطلب - فرحل في طلبه، فلما رآه فاضت عيناه، وضمه، وأردفه على راحلته فامتنع حتى تأذن له أمه، فسألها المطلب أن ترسله معه، فامتنت، فقال: إنما يمضي إلى ملك أبيه وإلى حرم الله فأذنت له، فقدم به مكة مردفه على بعيره، فقال الناس: هذا عبد المطلب، فقال: ويحكم، إنما هو ابن أخي هاشم، فأقام عنده حتى ترعرع، ثم إن المطلب هلك بـ [دمان] من أرض اليمن، فولى بعده عبد المطلب، فأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون لقومهم، وشرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه وعظم خطرهم فيهم. ولما مات المطلب وثب نوفل على أركاح بد المطلب فغصبه إياها، فسأل رجالاً من قريش النصرة على عمه، فقالوا: لا ندخل بينك وبين عمك، فكتب إلى أخواله من بني النجار أبياتاً يستجدهم، فسار خاله أبو سعد بن عدى في ثمانين راكباً، حتى نزل بالأبطح من مكة، فلتقاه عبد المطلب، فقال: المنزل يا خال، فقال: لا والله حتى ألقى نوفلاً، ثم أقبل فوقف على نوفل، وهو جالس في الحجر مع مشايخ قريش، فسل أبو سعد سيفه وقال: ورب البيت، لئن لم ترد على ابن أختي أركاحه لأمكنن منك هذا السيف، فقال: رددتها عليه، فأشهد عليه مشايخ قريش، ثم نزل على عبد المطلب، فأقام عنده ثلاثاً، ثم اعتمر ورجع إلى المدينة. فلما جرى ذلك حالف نوفل بني عبد شمس بن عبد مناف على بني هاشم. ولما رأت خزاعة نصر بني النجار لعبد المطلب قالوا: نحن ولدناه كما ولدتموه، فنحن أحق بنصره - وذلك أن أم عبد مناف منهم - فدخلوا دار الندوة وحالفوا بني هاشم على بني عبد شمس ونوفل، وهذا الحلف هو الذي صار سبباً لفتح مكة كما سيأتي. ومن أهم ما وقع لعبد المطلب من أمور البيت شيان: حفر بئر زمزم ووقعة الفيل، وخلاصة الأول: أنه أمر في المنام بحفر زمزم ووصف له موضعها، فقام يحفر، فوجد فيه الأشياء التي دفنها الجراهمة حين لجأوا إلى الجلاء، أي السيوف والدروع والغزاليين من الذهب، فضرب الأسياف باباً للكعبة، وضرب في الباب الغزاليين صفائح من ذهب، وأقام سقاية زمزم للحجاج. ولما بدت بئر زمزم نازعت قريش عبد المطلب، وقالوا له: أشركنا. قال: ما أنا بفاعل، هذا أمر خصصت به، فلم يتركوه

حتى خرجوا به للمحاكمة إلى كاهنة بني سعد هُذَيم، وكانت بأشراف الشام، فلما كانوا في الطريق، ونفذ الماء سقى الله عبد المطلب مطراً، م ينزل عليهم قطرة، فعرفوا تخصيص عبد المطلب بزمزم ورجعوا، وحينئذ نذر عبد المطلب لئن آتاه الله عشرة أبناء، وبلغوا أن يمنعه لينحرن أحدهم عند الكعبة. وخلاصة الثاني: أن أبرهة بن الصباح الحبشي، النائب العام عن النجاشي على اليمن، لما رأى العرب يحجون الكعبة بني كنيسة كبيرة بصنعاء، وأراد أن يصرف حج العرب إليها، وسمع بذلك رجل من بني كنانة، فدخلها ليلاً فلطخ قبلتها بالعدرة. ولما علم أبرهة بذلك ثار غيظه، وسار بجيش عرمرم - عدده ستون ألف جندي - إلى الكعبة ليهدمها، واختار لنفسه فيلاً من أكبر الفيلة، وكان في الجيش 9 فيلة أو 13 فيلاً، وواصل سيره حتى بلغ المُعَمَّس، وهناك عبأ جيشه وهياً فيله، وتهباً لدخول مكة، فلما كان في وادي مُحَسَّر بين المزدلفة ومنى برك الفيل، ولم يقم ليقدم إلى الكعبة، وكانوا كلما وجهوه إلى الجنوب أو الشمال أو الشرق يقوم يهرول، وإذا صرفوه إلى الكعبة برك، فبيناهم كذلك إذ أرسل الله عليهم طيراً أو أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول. وكانت الطير أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر ثلاثة أحجار؛ حجر في منقاره، وحجران في رجليه أمثال الحمص، لا تصيب منهم أحداً إلا صارت تتقطع أعضاؤه وهلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يموج بعضهم في بعض، فتساقطوا بكل طريق وهلكوا على كل منهل، وأما أبرهة فبعث الله عليه داء تساقطت بسببه أنامله، ولم يصل إلى صنعاء إلا وهو مثل الفرخ، وانصدع صدره عن قلبه ثم هلك. وأما قريش فكانوا قد تفرقوا في الشعاب، وتحرزوا في رءوس الجبال خوفاً على أنفسهم من معرفة الجيش، فلما نزل بالجيش ما نزل رجعوا إلى بيوتهم آمنين. وكانت هذه الواقعة في شهر المحرم قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم بخمسين يوماً أو بخمسة وخمسين يوماً - عند الأكثر - وهو يطابق أواخر فبراير أو أوائل مارس سنة 571 م، وكانت تقدمة قدمها الله لنبيه وبيته؛ لأننا حين ننظر إلى بيت المقدس نرى أن المشركين من أعداء الله استولوا على هذه القبلة مرتين بينما كان أهلها مسلمين، كما وقع لبُخْتَنَصْر سنة 587 ق.م، والرومان سنة 70 م، ولكن لم يتم استيلاء نصارى الحبشة على الكعبة وهم المسلمون إذ ذاك، وأهل الكعبة كانوا مشركين. وقد وقعت هذه الواقعة في الظروف التي يبلغ نبؤها إلى معظم المعمورة المتحضرة إذ ذاك. فالحبشة كانت لها صلة قوية بالرومان، والفرس لا يزالون لهم بالمرصاد، يترقبون ما نزل بالرومان وحلفائهم؛ ولذلك سرعان ما جاءت الفرس إلى اليمن بعد هذه الواقعة، وهاتان الدولتان كانتا تمثلان العالم المتحضر في ذلك الوقت. فهذه الواقعة لفتت أنظار العالم ودلته على شرف بيت الله، وأنه هو الذي اصطفاه الله للتقديس، فإذن لو

قام أحد من أهله بدعوى النبوة كان ذلك هو عين ما تقتضيه هذه الواقعة، وكان تفسيراً للحكمة الخفية التي كانت في نصرة الله للمشركين ضد أهل الإيمان بطريق يفوق عالم الأسباب. وكان لعبد المطلب عشرة بنين، وهم: الحارث، والزبير، وأبو طالب، وعبد الله، وحمزة، وأبو لهب، والغيداق، والمقوم، وضرار، والعباس. وقيل: كانوا أحد عشر، فزادوا ولداً اسمه: قثم، وقيل: كانوا ثلاثة عشر، فزادوا: عبد الكعبة وحجلاً، وقيل: إن عبد الكعبة هو المقوم، وحجلاً هو الغيداق، ولم يكن من أولاده رجل اسمه قثم، وأما البنات فست وهن: أم الحكيم - وهي البيضاء - وبرّة، وعاتكة، وصفية، وأروى، وأميمة - 3. عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمه فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة، وكان عبد الله أحسن أولاد عبد المطلب وأعفهم وأحبهم إليه، وهو الذبيح؛ وذلك أن عبد المطلب لما تم أبناؤه عشرة، وعرف أنهم يمنعونهم أخبرهم بنذره فأطاعوه، فقيل: إنه أقرع بينهم أيهم ينحر؟ فطارت القرعة على عبد الله، وكان أحب الناس إليه. فقال: الله م هو أو مائة من الإبل. ثم أقرع بينه وبين الإبل فطارت القرعة على المائة من الإبل، وقيل: إنه كتب أسماءهم في القداح، وأعطاهم قيم هبل، فضرب القداح فخرج القدح على عبد الله، فأخذ عبد المطلب، وأخذ الشفرة، ثم أقبل به إلى الكعبة ليذبحه، فمنعته قريش، ولاسيما أخواله من بني مخزوم وأخوه أبو طالب. فقال عبد المطلب: فكيف أصنع بنذري؟ فأشاروا عليه أن يأتي عرافة فيستأمرها، فأتاها، فأمرت أن يضرب القداح على عبد الله وعلى عشر من الإبل، فإن خرجت على عبد الله يزيد عشرًا من الإبل حتى يرضى ربه، فإن خرجت على الإبل نحرها، فرجع وأقرع بين عبد الله وبين عشر من الإبل، فوقعت القرعة على عبد الله، فلم يزل يزيد من الإبل عشرًا عشرًا ولا تقع القرعة إلا عليه إلى أن بلغت الإبل مائة فوقعت القرعة عليها، فنحرت ثم تركت، لا يرد عنها إنسان ولا سبع، وكانت الدية في قريش وفي العرب عشرًا من الإبل، فجرت بعد هذه الواقعة مائة من الإبل، وأقرها الإسلام، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [أنا ابن الذبيحين] يعني إسماعيل، وأباه عبد الله. واختار عبد المطلب لولده عبد الله أمانة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وهي يومئذ تعد أفضل امرأة في قريش نسبًا وموضعًا، وأبوها سيد بني زهرة نسبًا وشرفًا، فزوجه بها، فبني بها عبد الله في مكة، وبعد قليل أرسله عبد المطلب إلى المدينة يمتار لهم تمرًا، فمات بها، وقيل: بل خرج تاجرًا إلى الشام، فأقبل في غير قريش، فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفي بها، ودفن في دار النابغة الجعدي، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة، وكانت وفاته قبل أن يولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبه يقول أكثر المؤرخين، وقيل: بل

توفي بعد مولده بشهرين أو أكثر. ولما بلغ نعيه إلى مكة رثته آمنة بأروع المراثي، قالت: عَفَا جَانِبُ الْبَطْحَاءِ مِنْ ابْنِ هَاشِمٍ ** وَجَاوِرٌ لَحْدًا خَارِجًا فِي الْغَمَاغِمِ // دَعَتْهُ الْمَنَائِيَا دَعْوَةً فَأَجَابَهَا ** وَمَا تَرَكْتُ فِي النَّاسِ مِثْلَ ابْنِ هَاشِمٍ // عَشِيَّةً رَاحُوا يَحْمِلُونَ سَرِيرَهُ ** تَعَاوَرَهُ أَصْحَابُهُ فِي التَّرَاحِمِ // فَإِنْ تَكَ غَالَتَهُ الْمَنَائِيَا وَرَيْبَهَا ** فَقَدْ كَانَ مِعْطَاءً كَثِيرًا التَّرَاحِمِ // وَجَمِيعَ مَا خَلْفَهُ عَبْدُ اللَّهِ خَمْسَةٌ أَجْمَالٌ، وَقِطْعَةٌ غَنَمٌ، وَجَارِيَةٌ حَبَشِيَّةٌ اسْمُهَا بَرَكَةٌ وَكُنِيَّتُهَا أُمُّ أَيْمَنَ، وَهِيَ حَاضِنَةٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. // المولد وأربعون عامًا قبل النبوة // المولد: ولد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم بشعب بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان، ويوافق ذلك عشرين أو اثنين وعشرين من شهر أبريل سنة 571 م حسبما حققه العالم الكبير محمد سليمان - المنصورفوري - رحمه الله. وروى ابن سعد أن أم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: لما ولدته خرج من فرجى نور أضاعت له قصور الشام. وروى أحمد والدارمي وغيرهما قريبًا من ذلك. // وقد روى أن إرهابات بالبعثة وقعت عند الميلاد، فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى، وخمدت النار التي يعبدها المجوس، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاضت، روى ذلك الطبري والبيهقي وغيرهما. وليس له إسناد ثابت، ولم يشهد له تاريخ تلك الأمم مع قوة دواعي التسجيل. ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشيره بحفيده، فجاء مستبشرًا ودخل به الكعبة، ودعا الله وشكر له. واختار له اسم محمد - وهذا الاسم لم يكن معروفًا في العرب - وَخَتَنَهُ يَوْمَ سَابِعِهِ كَمَا كَانَ الْعَرَبُ يَفْعَلُونَ. وأول من أرضعته من المراضع - وذلك بعد أمه صلى الله عليه وسلم بأسبوع - ثُوَيْبَةُ مَوْلَاةُ أَبِي لَهَبٍ بَلْبِنُ ابْنِ لَهَابٍ يُقَالُ لَهُ: مَسْرُوحٌ، وَكَانَتْ قَدْ أَرْضَعَتْ قَبْلَهُ حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، وَأَرْضَعَتْ بَعْدَهُ أَبَا سَلْمَةَ بْنَ عَبْدِ الْأَسَدِ الْمَخْزُومِيَّ. فِي بَنِي سَعْدٍ، وَكَانَتْ الْعَادَةُ عِنْدَ الْحَاضِرِينَ مِنَ الْعَرَبِ أَنْ يَلْتَمِسُوا الْمَرَضِعَ لِأَوْلَادِهِمْ ابْتِعَادًا لَهُمْ عَنِ أَمْرَاضِ الْحَوَاضِرِ؛ وَلِتَقْوَى أَجْسَامِهِمْ، وَتَشْتَدَّ أَعْصَابُهُمْ، وَيَتَّقِنُوا اللِّسَانَ الْعَرَبِيَّ فِي مَهْدِهِمْ، فَالْتَمَسَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَرَضِعَ، وَاسْتَرْضَعَ لَهُ امْرَأَةً مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرِ، وَهِيَ حَلِيمَةُ بِنْتُ أَبِي ذُوَيْبِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ، وَزَوْجُهَا الْحَارِثُ ابْنُ عَبْدِ الْعَزَى الْمَكْنَى بِأَبِي كَبْشَةَ مِنْ نَفْسِ الْقَبِيلَةِ. وَإِخْوَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُنَاكَ مِنَ الرِّضَاعَةِ: عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ، وَأَنْبَيْسَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ، وَحَذَافَةُ أَوْ جَذَامَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ [وهي الشيماء؛ لقب غلب على اسمها] وكانت تحضن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله صلى

الله عليه وسلم وكان عمه حمزة بن عبد المطلب مسترضعاً في بني سعد بن بكر، فأرضعت أمه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً وهو عند أمه حليلة، فكان حمزة رضيع رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهتين، من جهة ثوية ومن جهة السعدية. ورأت حليلة من بركته صلى الله عليه وسلم ما قضت منه العجب، ولنتركها تروى ذلك مفصلاً: قال ابن إسحاق: كانت حليلة تحدث: أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء. قالت: وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئاً، قالت: فخرجت على أتان لي قمراء، ومعنا شارف لنا، والله ما تبضُّ بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا، من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه، ولكن كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك، فلقد أدمت بالركب حتى شق ذلك عليهم، ضعفاً وعجفاً، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه، إذا قيل لها: إنه يتيم، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجده، فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله، إنى لأكره أن أرجع من بين صواحي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاخذنه. قال: لا عليك أن تفعل، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه وأخذته، وما حملني على أخذه إلا أنى لم أجد غيره، قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، فلما وضعت في حجرى أقبل عليه ثدياً بما شاء من لبن، فشرب حتى روى، وشرب معه أخوه حتى روى، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا هي حافل، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ربا وشبعا، فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليلة، لقد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت: والله إنى لأرجو ذلك. قالت: ثم خرجنا وركبت أنا أتاني، وحملته عليها معي، فوالله لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه شيء من حمرهم، حتى إن صواحي ليقطن لي: يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك! أربعي علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله، إنها لهي هي، فيقطن: والله إن لها شأنًا، قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها، فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم، اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياً ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعاً لبناً. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشب شباباً لا يشبه

الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جفراً. قالت: فقدمنا به على أمه ونحن أحرص على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه، وقلت لها: لو تركت ابني عندي حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وباء مكة، قالت: فلم نزل بها حتى ردتته معنا.

شق الصدر، وهكذا رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني سعد، حتى إذا كان بعده بأشهر على قول ابن إسحاق، وفي السنة الرابعة من مولده على قول المحققين وقع حادث شق صدره، روى مسلم عن أنس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه - أي جمعه وضم بعضه إلى بعض - ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظنره - فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو مُنتقع اللون - أي متغير اللون - قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره. إلى أمه الحنون وخشيت عليه حليلة بعد هذه الواقعة حتى ردتته إلى أمه، فكان عند أمه إلى أن بلغ ست سنين. ورأت أمنة - وفاء لذكرى زوجها الراحل - أن تزور قبره بيثرب، فخرجت من مكة قاطعة رحلة تبلغ نحو خمسمائة كيلو متر ومعها ولدها اليتيم - محمد صلى الله عليه وسلم - وخادمتها أم أيمن، وقيمها عبد المطلب، فمكثت شهراً ثم قفلت، وبينما هي راجعة إذ لحقها المرض في أوائل الطريق، ثم اشتد حتى ماتت بالأبواء بين مكة والمدينة. إلى جده العطوف، وعاد به عبد المطلب إلى مكة، وكانت مشاعر الحنو في فؤاده تربو نحو حفيده اليتيم الذي أصيب بمصاب جديد نكأ الجروح القديمة، ففرق عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده، فكان لا يدعه لوحدته المفروضة، بل يؤثره على أولاده، قال ابن هشام: كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأي ذلك منهم: دعوا ابني هذا، فوالله إن له لثأناً، ثم يجلس معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع. ولثمانى سنوات وشهرين وعشرة أيام من عمره صلى الله عليه وسلم توفي جده عبد المطلب بمكة، ورأي قبل وفاته أن يعهد بكفالة حفيده إلى عمه أبي طالب شقيق أبيه. إلى عمه الشقيق: ونهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه، وضمه إلى ولده وقدمه عليهم واختصه بفضل احترام وتقدير، وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه،

ويبسط عليه حمايته، ويصادق ويخاصم من أجله، وستأتي نبذ من ذلك في مواضعها. يستسقى الغمام بوجهه: أخرج ابن عساكر عن جُلُهْمَة بن عُرْفُطَة قال: قدمت مكة وهم في قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب، أقحط الوادي، وأجدب العيال، فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام، كأنه شمس دُجْنَة، تجلت عنه سحابة فتماء، حوله أُعْيَلَمَة، فأخذه أبو طالب، فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ بأضبعه الغلام، وما في السماء قرعة، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا وأغدق وأغدوق، وانفجر الوادي، وأخصب النادي والبادي، وإلى هذا أشار أبو طالب حين قال: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ** ثمالُ اليتامى عصمة للأرامل // بحيرى الراهب: ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرة سنة - قيل: وشهرين وعشرة أيام - ارتحل به أبو طالب تاجرًا إلى الشام، حتى وصل إلى بصرى - وهي معدودة من الشام، وقصبة لحوران، وكانت في ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التي كانت تحت حكم الرومان. وكان في هذا البلد راهب عرف ببجيرى، واسمه - فيما يقال: جرجيس، فلما نزل الراكب خرج إليهم، وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك، فجعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين. فقال له [أبو طالب و] أشياخ قريش: [و] ما علمك [بذلك]؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خر ساجدًا، ولا يسجدان إلا لنبي، وإنى أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، [وإننا نجد في كتبنا]، ثم أكرمهم بالضيافة، وسأل أبا طالب أن يرده، ولا يقدم به إلى الشام؛ خوفًا عليه من الروم واليهود، فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى مكة. // حرب الفجار: وفي السنة العشرين من عمره صلى الله عليه وسلم وقعت في سوق عكاظ حرب بين قريش - ومعهم كنانة - وبين قيس عيلان، تعرف بحرب الفجار وسببها: أن أحد بني كنانة، واسمه البراض، اغتال ثلاثة رجال من قيس عيلان، ووصل الخبر إلى عكاظ فثار الطرفان، وكان قائد قريش وكنانة كلها حرب بن أمية؛ لمكانته فيهم سنا وشرقًا، وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة، حتى إذا كان في وسط النهار كادت الدائرة تدور على قيس. ثم تداعى بعض قريش إلى الصلح على أن يحصوا قتلى الفريقين، فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد. فاصطلحوا على ذلك، ووضعوا الحرب، وهدموا ما كان بينهم من العداوة والشر. وسميت بحرب الفجار؛ لانتهاك حرمة الشهر الحرام فيها، وقد حضر هذه الحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ينبذ على عمومته؛ أي يجهز لهم النبل للرمي. ول إلى حرب ضروس في أرض الحرم، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي عرض عليهم أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه، وشاء الله أن يكون

ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر طلب رداء فوضع الحجر وسطه وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعاً بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذ به فوضعه في مكانه، وهذا حل حصيف رضى به القوم. وقصرت بقريش النفقة الطيبة فأخرجوا من الجهة الشمالية نحواً من ستة أذرع، وهي التي تسمى بالحجر والحطيم، ورفعوا بابها من الأرض؛ لئلا يدخلها إلا من أرادوا، ولما بلغ البناء خمسة عشر ذراعاً سقوه على ستة أعمدة. وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريباً، يبلغ ارتفاعه 15 متراً، وطول ضلعه الذي فيه الحجر الأسود والمقابل له 10 أمتار، والحجر موضوع على ارتفاع 50.1 متر من أرضية المطاف. والضلع الذي فيه الباب والمقابل له 12 متراً، وبابها على ارتفاع مترين من الأرض، ويحيط بها من الخارج قسبة من البناء أسفلها، متوسط ارتفاعها 25.0 متراً ومتوسط عرضها 30.0 متراً وتسمى بالشاذروان، وهي من أصل البيت لكن قريشاً تركتها. حلف الفضول وعلى أثر هذه الحرب وقع حلف الفضول في ذى القعدة في شهر حرام تداعت إليه قبائل من قريش: بنو هاشم، وبنو المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان التيمي؛ لسنه وشرفه، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، وشهد هذا الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة: (لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت). وهذا الحلف روحه تنافي الحمية الجاهلية التي كانت العصبية تثيرها، ويقال في سبب هذا الحلف: إن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة، واشتراها منه العاص بن وائل السهمي، وحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الأحلاف عبد الدار ومخزوماً، وجُمحاً وسَهَمًا وعَدِيًّا فلم يكثرثوا له، فعلا جبل أبي قُبَيْس، ونادى بأشعار يصف فيها ظلامته رافعاً صوته، فمشى في ذلك الزبير بن عبد المطلب، وقال: ما لهذا مترك؟ حتى اجتمع الذين مضى ذكرهم في حلف الفضول، فعدوا الحلف ثم قاموا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه حق الزبيدي. حياة الكدح: ولم يكن له صلى الله عليه وسلم عمل معين في أول شبابه، إلا أن الروايات تواتت أنه كان يرعى غنماً، رعاها في بني سعد، وفي مكة لأهلها على قراريط، ويبدو أنه انتقل إلى عمل التجارة حين شب، فقد ورد أنه كان يتجر مع السائب بن أبي السائب المخزومي فكان خير شريك له، لا يدارى ولا يمارى، وجاءه يوم الفتح فرحب به، وقال: مرحباً بأخي وشريكي. وفي الخامسة والعشرين من سنة خرج تاجراً إلى الشام

في مال خديجة رضي الله عنها قال ابن إسحاق: كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قومًا تجارًا، فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار، مع غلام لها يقال له: ميسرة، فقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم منها، وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام. زواجه بخديجة // ولما رجع إلى مكة، ورأت خديجة في مالها من الأمانة والبركة ما لم تر قبل هذا، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأي فيه صلى الله عليه وسلم من خلال عذبة، وشمائل كريمة، وفكر راجح، ومنطق صادق، ونهج أمين، وجدت ضالتها المنشودة - وكان السادات والرؤساء يحرصون على زواجها فتأبى عليهم ذلك - فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبه، وهذه ذهبت إليه صلى الله عليه وسلم تفاتحه أن يتزوج خديجة، فرضى بذلك، وكلم أعمامه، فذهبوا إلى عم خديجة وخطبوا إليه، وعلى إثر ذلك تم الزواج، وحضر العقد بنو هاشم ورؤساء مضر، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين، وأصدقها عشرين بكرة. وكانت سنها إذ ذاك أربعين سنة، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسبًا وثروة وعقلًا، وهي أول امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت. وكل أولاده صلى الله عليه وسلم منها سوى إبراهيم، ولدت له: أولا القاسم - وبه كان يكنى - ثم زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وعبد الله - وكان عبد الله يلقب بالطيب والظاهر، ومات بنوه كلهم في صغرهم، أما البنات فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن، إلا أنهن أدركتهن الوفاة في حياته صلى الله عليه وسلم سوى فاطمة رضي الله عنها، فقد تأخرت بعده ستة أشهر ثم لحقت به ببناء الكعبة وقضية التحكيم ولخمس وثلاثين سنة من مولده صلى الله عليه وسلم قامت قريش ببناء الكعبة؛ وذلك لأن الكعبة كانت رَضْمًا فوق القامة، ارتفاعها تسعة أذرع من عهد إسماعيل عليه السلام، ولم يكن لها سقف، فسرق نفر من اللصوص كنزها الذي كان في جوفها، وكانت مع ذلك قد تعرضت - باعتبارها أثرًا قديمًا - للعواذي التي أدهت بنياتها، وصدعت جدرانها، وقبل بعثته صلى الله عليه وسلم بخمس سنين جرف مكة سيل عرم انحدر إلى البيت الحرام، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصًا على مكانتها.

في صدر الاسلام

عندما نريد دراسة الإدارة في الدولة العربية الإسلامية لا بد من البدء من اللبنة الأولى لهذه الدراسة و التي وضعها الرسول الكريم محمد صلى الله عليه و آله و صحبه و سلم، و أن هذه البداية للتنظيم الإداري للدولة العربية الإسلامية الجديد هي مع وصول النبي الكريم إلى المدينة.

بدأ الرسول ﷺ عند وصوله للمدينة بالإتصال و مودعة أي حل و معالجة مسألة اليهود في المدينة، كذلك

جمع ﷺ بيده السلطتين الدينية و السياسية، أكد ﷺ على سيادة الدولة و حدودها التي يفترض أن تكون محروسة، فضلاً عن لزام الأطراف جميعاً بالدفاع عن المدينة إذا تعرضت لخطر، ولأجل ذلك وضع الرسول محمد ﷺ نظام المواخاة بين المهاجرين والأنصار وذلك في أول خطوة بعد دخوله المدينة.

لأن المهاجرين الذين جاءوا من مكة المكرمة لم يكن معهم أي شيء أي لا يملكون شيء لأنهم هربوا سراً من مكة نحو المدينة وأطلق عليهم اسم المهاجرين أما المسلمين الذين استقبلوهم في المدينة أطلق عليهم الأنصار وأصبحت تسميتي الأنصار والمهاجرين تسميتين جديدتين في الإسلام بدل الأسماء أو الألقاب القبلية التي كانت يعرف بها هؤلاء المسلمون من الأنصار والمهاجرين وهو مبدأ إسلامي للنظام العربي القديم وهو نظام الحلف يقول بن سعد في طبقاته ((الرسول لما قدم المدينة، آخى بين المهاجرين لبعض و آخى بين المهاجرين والأنصار، آخى بينهم على الحلف والمواساة ويتوارثون بعد ملاحظة دون

نوي الرحم، وكانوا تسعين رجلاً))، لكن هذا الحال تغير بعد معركة بدر الكبرى وذلك مع انسجامه مع

قوله تعالى ((وأولوا الأرحام بعضهم أولى بعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين))، (سورة الأحزاب آية 6).

وكان قصد الرسول من ذلك هو قيام تكوين اجتماعي جديد أساسه العقيدة الإسلامية، وإلغاء الانتماء القبلي والتعصب له، بل تكوين حضاري قومي إنساني ينسجم مع ما يهدف إليه الدين الإسلامي من عملية تغير شمولي لواقع

العرب هذا من جانب أما في الجانب الآخر فهو حل الأزمة الاقتصادية والسكنية للمهاجرين وتوفير مصدر رزق لهم بعد أن فقدوا مساكنهم وآمالهم في مكة، وكذلك إيجاد مكان يلجئوا إليه بشكل مشروع وصحيح.

أما الخطوة التالية لعملية التنظيم فكانت إصدار الصحيفة حيث عمد الرسول محمد صلى الله عليه و سلم إلى تنظيم العلاقة بين المسلمين و بين حلفائهم من القبائل العربية و التي لم تدخل في الدين الإسلامي بعد، و قد تجلت أولى محاولات التنظيم في وثيقة عرفت باسم الكتاب أو الصحيفة، فكانت بداية لتنظيم لنواة الدولة العربية الإسلامية، و يرى البعض في الوثيقة أو الصحيفة على أنها تشبه الدستور الذي تسير عليه الدولة ، أو أنها وثيقة بهذا الاتجاه .

و عند التآني في قراءة هذه الوثيقة و مضمونها نجد:

- 1- أنها سعت لأضعاف العصبية القبلية و إبراز الرابطة الجديدة و هي الرابطة الدينية، حيث أنها جعلت المسلمين من المهاجرين و الأنصار و من تبعهم و لحق بهم و جاهد معهم، أمة واحدة أي جماعة واحدة من دون الناس.
- 2- التكافئ بين المسلمين في هذه الوثيقة و ينصرون المظلوم على الظالم و يرفعون حقوق القرابة و الصحبة و الجوار.
- 3- نظمت حق الأخذ بالثأر فنصت على ((أن المؤمنين من بغن منهم أو أبغن (سيرة عظيمة) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين و أن أيديهم عليه جميعهم و لو كان ولد أحدهم)) .
- 4- لا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر و لا ينصر كافر على مؤمن.
- 5- و قد تركت الوثيقة حرية أداء العبادات لليهود أية العقيدة لهم، و لمن يرغب منهم الإنتماء إلى الإسلام لا إعتراض عليه، لكن لمن لا يرغب دخول الإسلام من اليهود ((فمن تبعنا من يهود فإن له النصر و الأسوة غير مظلومين و لا متناصر عليهم، و بهذه الطريقة دخلوا في إطار الأمة، و لكن ليس عليهم واجبات الأنصار و المهاجرين و لا حقوق له.

إن هذه البدايات التنظيمية هي التي وضعت الأسس الأولى للنظام الإداري في دولة الإسلام و كما سنوضح ذلك في المحاضرات القادمة.

بعد أن حظ الرسول رحاله نزل في بادئ الأمر في دار أيوب الأنصاري، ثم بنى المسجد ثم أخذ الرسول محمد صلى الله عليه و آله و صحبه و سلم يرسل إلى القبائل العربية من ينظمها في الدين الجديد و يعلمها القرآن الكريم، ثم أخذ

التنظيم الأول يتسع في حياة الرسول ٢ حيث أخذ ينسب بعض العمال في المدن و القبائل الكبيرة في كل من الحجاز و اليمن و طلب من العمال التعامل مع الناس خيرا و مشاركة الناس في كل شيء و العمل بالحق و العدل، أما أهم واجبات أولئك العمال فإنها كانت تتلخص في:

- 1- تعليم المسلمين القرآن.
- 2- تعلم المسلمين الصلاة.
- 3- و إصدار الأوامر في جمع الزكاة و جبايتها.

و تشير المصادر إلى أن الرسول محمد ٢ كتب إلى عمر بن حريش عامله على نجران كتابا في الفرائض و السنن و الصدقات و الهبات.

و قد ذكر خليفة بن خياط المتوفى 240هـ قائمة بأسماء عمال الرسول محمد صلى الله عليه و آله و صحبه و سلم و قائمة أخرى بأسماء عماله صلى الله عليه و آله و سلم على الصدقات، لكن ابن هشام المتوفى سنة (213هـ) الذي سبق خليفة بالقدم ذكر لنا قائمة أخرى بأسماء الأمراء و العمال على الصدقات ملاحظة أنظر ابن هشام، كتاب خروج الأمراء و العمال على الصدقات ج 4 من صفحة 264، 247 ، و قد جاءت قائمة خليفة بن خياط في معظمها متطابقة مع قائمة ابن هشام و لكن في زيادة أكثر.

ويمكن أن ندون بعض الملاحظات على أولئك العمال

1- كان الرسول ٢ يختار عماله من أولى عمله و أولى دينه و نجدهم على الأغلب من العرب لكي يكون لهم سلطان على المسلمين و غيرهم و هؤلاء يحسنون العمل فيما يتولون ، و كان يوجد من يوصل المعلومات للرسول صلى الله عليه و آله و سلم عن عماله و أخبارهم من ذلك أنه عزل عامله على البحرين العلاء بن الحضرمي و ذلك لكون نفر من عبد القيس شكى الحضرمي لرسول الله صلى الله عليه و آله و صحبه و سلم .

وولى بدل عنه إبان بن سعيد و أوصاه أن يكرم سراتهم أي رؤسائهم.

2- محاسبة العمال و استخراج المفروض و قد أستعمل مرة رجلا على الصدقات فلما رجع حاسبه، فقال الرجل هذا لكم و هذا اهدي إليه فقال ٢ ما بال الرجل فتستعمله على المال فيحاذر من الله، فيقول هذا لكم و هذا اهدي إليه أفلا مقعد في بيت أبيه و أمه فنظر يهدي إليه أم لا.

3- خصص رواتب للعمال في ذلك أنه فرض لعتاب بن أسيد و أهله على مكة درهم واحدا في كل يوم، فقام عتاب بخطب و يقول أيها الناس أجاج الله كيد من جاع على درهم فقد رزقتي رسول الله درهماً في كل يوم فليس بي حاجة إلى أحد.

4- يأمر رسول الله محمد ﷺ عماله أن يسيروا في الناس سرّة حسنة وأن يعدلوا نقل ابن هشام عن ابن إسحاق عن عبدا لله ابن أبي بكر رضي الله عنهم، قول رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل عندما بعثه إلى اليمن ((يسر ولا تعسر وبشر ولا تنفر وإنك ستقدم على قوماً أهل كتاب يسألونك ما مفتاح الجنة فقل شهادة لا إله إلا الله.

ووجه رسول الله محمد ﷺ علياً ابن أبي طالب كرم الله وجهه وعليه السلام إلى بعض الوجوه ((فأوصاه لقد بعثتك وأنا بك ضنين فأبرز للناس، وقدم الوضيع على الشريف، والضعيف على القوي، والنساء قبل الرجال ولا تدخلن أحد بقلبك على أمرك وشاور القرآن خاصة أمامك)).

5- كان الرسول محمد ﷺ يستشر أهل الرأي والبصيرة والمشهود لهم بالعقل والعدل وقوة الإيمان والتفاني في سبيل الإسلام وهؤلاء سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار ومنهم:- حمزة، جعفر، أبو بكر، علي، عمر بن الخطاب، ابن مسعود، عمار بن ياسر، حذيفة بن اليمان، أبو ذر الغفاري، بلال الحبشي، المقداد بن أسود الكندي.

وهؤلاء القوم سموا النقباء لأنهم ضمنوا للرسول محمد صلى الله عليه وسلم إسلام قومهم، والنقيب هنا بمعنى الضمين وكان الرسول محمد ﷺ قد استعان بنفر من الصحابة أطلق عليهم الكملة ((أو الكمل)) والكملة فيما قبل الإسلام وأول الإسلام هم الذين كانوا يجيدون الكتابة بالعربية ويحسنون العوم ((السياسة)) والرماية.

كما استعان الرسول محمد ﷺ بأحد القضاة وهو عبد الله بن نوفل، أما بيت المال فلم يخصص له مكان خاص وإن كان في بيت الرسول محمد ﷺ، أو في بيوت بعض الصحابة، وإن سبب هو عدم الاحتفاظ بالأموال مدة طويلة لكونها تفرق على المسلمين أي الأموال تعطى للمسلمين حسب الاستحقاق أراد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مرة إحصاء المسلمين فقال □ ﴿أكتبوا إلي من تلفظ

بالإسلام من الناس فكتبوا له 1500 رجل فلم يكن أول الأمر ديوان كتاب حافظ أي سجل يجمع أسماء الناس.

ال خليفة الأول: أبو بكر رضي الله عنه

لما ولي أبو بكر الصديق □ و أرضاه الخلافة وجد لزام عليه أن يقرر عمال الرسول محمد ﷺ على أعمالهم ، أضاف عمال جدد أو مسؤوليات جديدة، فجعل أبو عبيدة على بيت المال وترك لعمر بن الخطاب أمر القضاء ولعلي ابن أبي طالب أمر الفتاوى في المشكلات.

وفي عهد الخليفة الأول أبو بكر الصديق أخذ العمال يختارون القضاة ويعينونهم في المناطق المختلفة التي كانوا يولون أمرها، ويذكر بعض المؤرخين أن مشاكل الناس وقت ذلك لا تكاد تذكر إذا قضت سنة لم يأتي رجل إلى عمر ولم يشكوا إليه أحد وتفسير ذلك أن الناس رأوا طبيعياً أن يعطي الإنسان الحق ويقفوا عند حدود الله تعالى، ولا يقترفوا منكر ولا يأكل أموال الناس بالباطل في عهد الخليفة أبو بكر الصديق t، وفي عهده تجاوزت الدولة حدود جزيرة العرب فقسمت على ولايات والولايات إلى عمالات وهي مكة، الطائف، صنعاء، حضرموت، خولان، زبيد، نجران، جرش، البحرين، وهذا يعني أن الحجاز قسم إلى ثلاث ولايات واليمن إلى ثمان، والبحرين وما إليها ولاية.

أما في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب t

أما في عهد عمر بن الخطاب t فعلياً أن نربط نظام الولاية وتطورها ما يلي:-
1- سعة الدولة العربية الإسلامية.

2- إدخال التقاليد الجديدة.

ويمكن أن نذكر المبادئ الأساسية التي أُسِّتد إليها نظام الولاية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ؓ إلى ما يلي:-

- 1- كان الخليفة عمر بن الخطاب ؓ يؤمن بالنظام المركزي أي أنه أراد أن يكون على علم بكل ما يحدث في الدولة لذلك عمل بالمركزية الصارمة على الولايات فأستحدث نظام المشاطرة لمعرفة أخبار الوالي وسيرة في الرعية وربما أستدعى آلية بعض الولايات وأخذهم بالمحاسبة فيستعيد جميع الأموال التي جمعوها بعضهم وبخاصة من الهدايا أو غيرها لتذهب إلى بيت المال.
- 2- مبدأ الاعتماد على العنصر العربي إذا اعتبر عمر بن الخطاب العرب مادة الإسلام فأعزهم ورفض أي إذلال للعرب ومنع ضربهم وأهانتهم لأنه اعتبرهم مادة التحرير والفتوحات، لذلك قام عمر ببرد السبايا من أهل الردة إلى أهاليهم وقال "إني كرهت أن يعبر السبي سنة العرب" وقال "لا تجلدوا العرب فتذكوهم" وهذا ليس تعصب بقدر ما هو فهم لواقع ومكانة وتقديراً لهم في الإسلام وواقع عربي يفرض نفسه.
- 3- راعى الخليفة عمر بن الخطاب ؓ اعتبارات تملئها الظروف المحلية للمناطق فمثلاً ما ينطبق على اليمامة قد لا ينطبق على الشام أو مصر كذلك سمح لبعض الولايات بتصرفات تتيح لهم أداء حياتهم بصورة تامة.
- 4- إقرار الولاية وإعطائهم حرية للعمل واسعة مع (رقابة وتشديد وفرض عليهم واجبات دينية ودنيوية وجعل على كل منهم عين تراقبه وطالما أكد عليهم الحرص على إقامة الصلاة والعدل والزهد في العيش وعدم قبول الهدايا.
- 5- كان الخليفة عمر بن الخطاب ؓ يجمع بين الشدة واللين في إقامة الحدود وكان ؓ يقيمها على أقرب الناس إليه فقد حد في الخمر أبنه وعاقب ابن عمر بن العاص عامله على مصر.

أما الإدارة في عهد الخليفة عثمان بن عفان t

فقد حافظ عثمان بن عفان على الأوضاع التي وضعها عمر بن الخطاب t وكان أول كتبة إلى أمرائه ما قاله لهم "خير وضع لكم عمر فلا يغيب عن بال أحدكم حق ولا ينطلي عن أحدكم تغير ولا تبديل في غير الله ويحكم ويتبدل لكم غيركم".

وأمر عماله أن يعدلوا في السيرة ويعطوا المحتاجين ما لهم ويأخذوا ما عليهم من ذلك ما قاله لعمال الخراج خذوا الحق وأعطوا الحق والأمانة تقوم عليها ولا تكونوا أول من يسلبها الوفاء وأكثر من هذا فإنه كتب إلى الأمصار أن يوافقوه كل موسم هم ومن يشكوهم وحق الناس بأن يأمر بالمعروف وينهوا عن المنكر وألا بذل المسلم نفسه.

وكانت فلسفة عثمان أن صح التعبير في إدارة الدولة هي الأخذ بمبادئ الاعتماد على الأكثر ولاء وإخلاصا لعهد، فظن أن ذلك يتحقق بالاعتماد على ذوي القربى. وهذا الأمر جلب الوبال.

أما الخليفة الرابع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

فكانت طريقته بالإدارة غير مختلفة عن طريق من سبقوه من الخلفاء الراشدين □ أجمعين وكان الإمام علي عليه السلام يولى العامل ويطلق يده في الأمور على الجملة ويتتبع سيرته، وطالما حث عماله على العيش بالميسور والرفق بالرعية وكان عليه السلام يضع المنهاج الذي يسيرون عليه وقد انطوت وصايا الإمام علي الكثيرة لعماله على هذا الجانب فقال لأحد عماله "ولا تضرب أحد منهم في سوطاً في درهم ولا تقمه على رجلة في درهم" وكتب إلى عامله الأشر النخعي قائلاً له "وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإنه في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم... وليكن نظرك في عمارة الأرض وأبلغ من نظرك في استجلاب الخراج... ومن طلب الخراج قبل عمارة الأرض أضرب البلاد وهلك العباد" وكان كرم الله وجهه يدعو عماله إلى اللين في معاملة الرعية وفي الوقت نفسه كان يبدي شدة على من تناول من عماله على الرعية أو مد يده إلى أموال الدولة بغير وجه حق وكان كرم الله وجهه في أثر عنه إن كان يختار عماله من الصحابة الكرام لشقه بهم.

وكان عليه السلام يطبق القيم والمبادئ الإسلامية بحذافيرها وبأسلوب الفروسية العربية.

تاريخ الوزارة

نتحدث هنا عن الوزارة في الدولة الإسلامية وأهميتها ودورها في عمل دولة الإسلام، ولربما من يسأل لماذا لم نتحدث عن النظم أو نظام الخلافة وكيف عملها في زمن الأمويين قبل القفز إلى موضوع الوزارة، وذلك من ناقلة القول أن الاعتقاد السائد عند المؤرخين الذين بحثوا في شخصية معاوية السياسية أنه كان على درجة عالية من الذكاء وبعد النظر بترك حركة كل إقليم من أقاليم الدولة من خلال المؤثرات الداخلية والخارجية المتداخلة في السلوك العام فعمل معاوية على استيعاب الولايات المختلفة وبالطريقة نفسها التي استوعبت فيها القبائل العربية كان على معاوية أن يبادل المتشجنين من النظام الأموي الجديد هؤلاء عكرمة ابن شعبة ت 50 هـ وزياد ابن أبيه تاريخ 53 هـ وقد وقف كلا الرجلين إلى جانبه ولهذا وهذا كان له أثر كبير في تسكين العراق الذي يعد من أهم أقاليم الدولة العربية الإسلامية.

وفي مستهل العصر الأموي يبرز أمامنا دور الجيش العربي الإسلامي والذي تقع عليه مسئولية مواصلة نشر الإسلام وحماية من أعدائه وحماية الدولة من الأخطار الخارجية وبخاصة الروم فلا عجب إذا ما رأينا بروز ولاية جمعوا في شخوصهم القابليات العسكرية والإدارية، وشهدت التنظيمات الإدارية في العهد الأموي تطوراً مهماً فظهرت نظم جديدة مثل الوزارة وقيام الدواوين وعملها والتي أنيطت بها مهمات مختلفة حسب التغيير الذي طرأ على نظام الحكم وهذا سوف ما نتحدث عنه في سياق هذه المحاضرة وسوف تكون البداية هو الحديث نظام الوزارة ودورها في إدارة الدولة العربية الإسلامية، وكذلك نتطرق عن كيفية نشوء الوزارة ولماذا أوجدت وما هو أصل هذه التسمية وهل هناك صفات يتصف بها الوزير وأنواع الوزارة وكيفية اختيار الوزير وما هي علاقة مؤسسة الوزارة بمؤسسة الخلافة وكيف تسير الأمور بينهما.

الوزارة

قدم الكثير من المؤرخين القدماء اجتهاداً في تعريف الوزارة، الوزير كلمة مشتقة من الوزر وهو الثقل، لأن الوزير يحمل أعباء الدولة أو من الوزر وهو الملجأ والمعتم، بمعنى أنه يلجأ إليه ويرجع إلى رأيه وتدبيره، قال ابن خلدون في مقدمة "أعلم أن السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمراً ثقيلاً، فلا بد من الاستعانة بأبناء جنسه وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنة، فما منك بسياسة نوعه ومن استرعاه من خلقه وعبد، وقد طلب موسى (ﷺ) من الله سبحانه وتعالى أن يمدّه برجل من أهله يستعين به على القيام بأعباء الحكم فقال "وأجعل لي وزيراً من أهلي هرون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري" سورة طه/آية 31.

أما إذا أريد بالوزارة أستعانه السلطان أو الأمير بمن يشد أزره أو يعاونه في الحكم، فهي تتصل بصدر الإسلام، لأن الرسول الكريم محمد ﷺ كان يشاور أصحابه في الأمور العامة والخاصة ويخص أبا بكر ؓ ببعض الأمور، حتى أن العرب كانوا يسمون أبا بكر وزير النبي، كذلك كان حال عمر بن الخطاب مع أبي بكر ؓ، فقد كان يشرف على القضاء ويقوم بتوزيع الزكاة، وكذلك كان شأن عثمان وعلي مع عمر رضي الله عنهم فإنه كان يستعين بهما أو يستشير بأرائهما ويعهد إليهما في القيام بالكثير من أمور الدولة والنظر في أحوال الرعية.

وكان علي كرم الله وجهه يقوم بالقضاء بين الناس وبكتابة الرسائل وفداء أسرى المسلمين.

وكان هؤلاء الأعوان يعملون عمل الوزير، وأن كان اسم الوزير لم يطلق عليهم، لأنهم لم يكونوا في حاجة في تلك الفترة لهذا المنصب أو لهذا النظام لبساطة الإسلام وبعده عن أيلة الملوك.

وكان الخليفة يستعين في إدارة شئون الدولة بمجلس يتألف بمجموعة من الصحابة، وكان لا يقطع أمراً دونهم لذلك كان نظام الحكم في ذلك العصر نظامي ما يسمى اليوم ديمقراطي جمهوري.

ولما انتقلت الخلافة إلى بني أمية وتحولت إلى ملك وراثي، أخذ الخلفاء الأمويون يختارون بعض ذوي الرأي ليستعينوا بهم وبأرائهم، فكان هؤلاء يقومون بعمل الوزير وإن لم يلقبوا بلقب الوزير، ومع ذلك أننا نجد، زياد بن أبيه يلقب بلقب الوزير في عهد معاوية بن أبي سفيان، ورواح بن زباب الجذامي في عهد عبد الملك بن مروان.

والوزارة تأتي بالدرجة بعد الخلافة من حيث الأهمية في إدارة الدولة ونظامها، وكما أشرنا في هذه المحاضرة إلى تعريفات الوزارة وتقول أن التعريفات التي

قيلت عن الوزارة، فهي تستند في مجملها أما من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف أو اللغة وغير ذلك.

ومهما يكن اشتقاق كلمة الوزارة التي اختلف بشأن لفظها سواء كان ذلك من الوزراء أو الموازرة فهي في جميع الأحوال بغض النظر عن الأصل اللغوي فإنها تدل على المساعدة والمشاورة باعتبار أن الوزير هو الساعد الأيمن للخليفة.

ولأهمية ما ذهب إليه بعضهم في نسبة أصل الوزارة إلى الآرامية أو الفارسية أو غير ذلك إذ أن اللفظة عربية وردت في القرآن الكريم وإن كانت تعني شيء آخر يختلف عن الوزارة بتطورها اللاحق، أما كون وظيفة الوزير عرفت في الحضارات القديمة وبخاصة في حضارتي وادي الرافدين ووادي النيل فإن الوزراء لم يكونوا وزراء بالمعنى الذي نقصده وإنما كانوا معاونين أو مستشارين للملوك وقت ذلك.

ويمكن القول أيضاً أن الوزارة لم تظهر إلى حيز العمل إلا في العصر العباسي، أما قبل ذلك لم يكن المنصب موجوداً، فالمسعودي يشير إلى عدم وجود الوزارة عند الأمويين ويضيف ابن خلكان عند الكلام عن أول وزير عباس فيقول ولم يكن قبله من يعرف بهذا المنصب لا في دولة بني أمية ولا غيرها، وجاء في الفخري أن الوزارة لم تتمهد قواعدا وتتقرب قوانينها إلا في دولة بني العباس. وأول وزير عند نشأة الدولة العباسية هو أبو سلمة الخلال والذي سمي وزير آل محمد.

ومهما يكن في شيء، فقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم كما أسلفنا حيث يقول جل وعلى على لسان موسى u "وأجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمر" سورة طه/31 وكذلك قوله تعالى "ولقد أتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً" سورة الفرقان

بيد أن الظروف كانت مواتية لاستحداث منصب الوزير الذي ظهر بظهور دولة بني العباس، حيث كان أبو سلمة الخلال أول وزير وسمي وزير آل محمد وكانت الخلافة الأموية قد خصت بعض ممن حولها وميزة بالكاتب وقد أختص الكاتب بشقه الخليفة كما هو حال عبد الحميد الكاتب.

إنما تولي أول وزير عباس من الفرس أي في عصر العباسيين الأول وهو أبو سلمة الخلال المورياني ثم البرامكة، بنو سهل، فإنما محاولاتهم تجاوز سلطة الخليفة وحاولوا السيطرة على أجهزة الدولة الإدارية والمالية في وقت كان فيه السلطان أو الخليفة العربي قوياً لا يسمح لأي عنصر أجنبي أن يتناول على الخلافة.

ونود أن نؤكد على الفكرة الأساسية التي يجب أن نضعها أمامنا دائماً في دراستنا وهي أن الوزارة أن استحدثت أساساً لمعاونة الخليفة وتطورت بتطور النظام الإداري والمالي وصار لها على مر السنين تقاليد راسخة ومراسيم معقدة.

فكلما تعقدت الدولة وزادت مرافقها نمواً وتطوراً نجد أن ذلك ينعكس على مصب الوزارة ليزداد تعقيداً وأهميةً وبغض النظر عن التفاصيل فإن الصراع حول السلطات الإدارية والمالية وغيرها، هو الذي دعا الخلفاء الأقوياء، إلى أخذ المبادرة قبل أن تفلت الأمور من أيديهم، وهذا يعزل لنا اتخاذهم المواقف المتشددة من الوزراء الأعاجم الذين حاولوا سلب صلاحيات وهو ليس من صميم اختصاصهم.

صفات الوزير

لما كان منصب الوزير يتطلب صفات تليق بالشخص الثاني في الدولة باعتباره المنفذ للسياسات المالية والإدارية والمشاور الأول للخليفة، والمرجع الفعلي لجميع ما يتصل بحفظ أو سلامة سير الأمور خاصة حيث كثرت واجبات الخلافة وتعقدت المسؤوليات وازدادت حاجات المركز والأقاليم عند أن تعدى الكتاب إلى وضع تقييم وصفات وسجايا ومثل عليا، افترض إنها يجب أن تتوفر في الوزير، لكننا يجب أن نقر أن هذه الصفات أقرب للخيال منه إلى الواقع، فالمثل العليا التي وضعوها وأرتى توفرها جميعاً في شخص يختار لمنصب الوزراء يكاد يكون أمراً متعذراً.

ومهما يكن فيمكن أن نقول أن الصفات الواقعية التي يجب أن تتوفر في الوزير.

- 1- أن يكون خبيراً بشئون المالية وجباية الضرائب والشؤون الإدارية.
- 2- أن يكون له إطلاع واسع على ما يجري في أرجاء الدولة.
- 3- يجب أن يكون عفيفاً نزيهاً يرفض الرشاوي ويتعفف عن مد يده إلى أموال الدولة – أو على أموال الآخرين، شرط النزاهة هذا أكد عليه جميع المهتمين بدراسة السير الواقعي لتاريخ الوزارة في العصر العباسي منطلق من عدم النزاهة في العصور المختلفة.

4- أستند الوزارة إلى تقاليد الكتابة إذ أن الكتابة هي التي قدمت الرصيد للوزارة، أي أفترض في الوزارة أن يكونوا كتاب في الأصل حسني الخط

وسليمي المعرفة والخطابة، أي أنهم يستطيعون أن يخطوا ويكتبوا ويصيغوا القوانين والوثائق والتقارير بشكل دقيق.

5- وأضافوا صفات أخرى تركز على الصفات الخلقية كصدق الذاكرة القوية والظهور بالمظهر اللائق في مجلس الخليفة، وهذا ما يسمى اليوم بالعبادات الاجتماعية الراقية.

والوزارة نوعان:

1- وزارة التفويض وهي: أن يفوض الوزير من قبل الخليفة في تمشية أمور الدولة بدون العودة إلى الخليفة إلا في بعض قليل منها أي يمكن القول عن هذه الوزارة أنها مطلقة.

2- وزارة التنفيذ: وهي وزارة مقيدة وصلاحياتها محددة.

حكى عن المأمون عندما أختار وزير تفويض أنه قال "أني التمسيت لأموري رجلاً جامعاً لخصال الخير ذا عفة واستقامة في طرائقه وقد هذبته الآداب وأحكمته التجارب، ان أوتمن على الأسرار قام بها وأن قلد مهمات الأمور نهض بها يسكنه الحلم وينطقه العلم وتكفيه اللحظة وتغنيه اللمحة، له صولة الأمرء وآناة الحكماء وتواضع العلماء وفهم الفقهاء أن أحسن إليه شكر، وأن ابتلى بالإساءة صبر، لا يبيع نصيب يومه بجرمان غيره، يسترق قلوب الرجال بخلافة لسانه وحسن بيانه" هذه صورة نافعة جامعة لما يجب أن يتصف به وزير التفويض.

وعلى الوزير المفوض أن يطلع الخليفة على شئين يقوم بهما الأول: يبلغ الخليفة عن حركته اليومية وخصوصاً في مجال المراسيم والأوامر التي يصدرها.

والثاني: لا يتدخل بما يقم به الخليفة.

أما وزارة التنفيذ (فحكماً أضف وشروطها أقل لأن النظر فيها مقصور على رأي الإمام ((الخليفة)) أنظر الأحكام السلطانية صفحة 44.

ومهمة هذه الوزارة

1- الوساطة بين الخليفة والرعية أي أنه حلقة الوصل بين جماهير الناس والخليفة ينقل ما يحتاجون وما يردون من الدولة ويبلغ بأوامر وقرارات الخليفة.

2- إبلاغ العمال وحكام الأقاليم وقادة الجند والولاة بما يرغب ويريد الخليفة، وكذلك إعلام الخليفة بسير وعمل الولاة والعمال وحكام الأقاليم وقادة الجند وغيرهم.

وفي هذه الوزارة يجوز تكليف غير المسلم، وذلك لكون هذه الوزارة وزارة تنفيذ أنها تقوم بتنفيذ أوامر الخليفة فقط ولا تمتلك أية صلاحيات مثل وزارة التفويض.

وقد حدد الماوردي أربعة فروقات بين الوزارتين " أحدهما أن الحرية مقيدة في وزارة التفويض وغير مقيدة في وزارة التنفيذ، والثاني أن الإسلام مقيد في وزارة التفويض وغير مقيد في وزارة التنفيذ والثالث العلم بالأحكام الشرعية مقيد في وزارة التفويض وغير مقيد في وزارة التنفيذ والرابع أن المعرفة بأمرى الحرب والخراج مقيدة في وزارة التفويض وغير مقيدة في وزارة التنفيذ"

الوزارة في العصر العباسي الأول،

أن الملاحظة التي تسترعى النظر في الوزارة في العصر العباسي الأول أنها بين مد وجزر ويتوقف مصير الوزير على مدى التزامه بالواجبات المنوطة به وأنه كلما كان الخليفة قوي، كلما كان أستطاع أن يحدد مركز الوزير في عهد الخليفتين العباسيين أبو العباس وأبو جعفر المنصور مثلاً، كان الوزراء أشبه بكتاب أو بالأحرى وزراء تنفيذ يخشون الخليفة القوي ويلزمون بهدي الواجبات المحددة خاصة وأن مصير أبي سلمة خلال ارتسم في أذهان من جاء بعده من الوزراء وبغض النظر عن التفاصيل، فإن المنصور لم يسمح بإعطاء صلاحيات واسعة للوزارة.

وكما تقدم الزمن كلما استقرت الخلافة العباسية وتنظيماتها وأمرها الإدارية تقدماً، فإذا بلغنا عن عهد الخليفة العباسي المهدي 158 - 169 هـ كانت الدواوين قد نظمت واحتاجت إلى خبراء إداريين وكتبة كثيرين ومن ثم تكون هذه كلها تحت إشراف الوزير ومن هنا أختار المهدي وزراء متضلعين في الحسابات والأمور المالية وكانت وزارته أيضاً وزارة تنفيذ.

تشغل قضية البرامكة والإيقاع بهم حيزاً في التاريخ العباسي ولكنه حيز مبالغ فيه كثيراً فقد كانت غير واقعية تحاول الإقلال من شأن الخليفة هارون الرشيد، مثله ناقشها المؤرخون القدامى، وينسوا سبب الإطاحة بالبرامكة، وهو تجاوزهم المالي والإداري الذي انعكس في جملة أمور خرجت عن الوزارة وهي محاولة تدخلهم في بعض واجبات الخليفة الشرعية مثل ديوان الخاتم وفي سك

العملة هذا إلى جانب استحوادهم على الدعاية وإحاطة أنفسهم بهالة من الشهرة بذخهم الواسع وتبذيرهم الأموال وأستجلبهم للمؤيدين، كل ذلك أقع الخليفة هارون الرشيد ذلك الخليفة الصالح القوي والمحارب الشجاع أن يسترجع صلاحياته، فكأنه جرب وزارة كانت وزارة كانت قد أعطيت السلطة المطلقة، ثم أكتشف النتائج السيئة لذلك فعاد وقرر استرجاع هذه الصلاحيات.

وقد تكررت التجربة في عهد المأمون فقد أدى له آل سهل خدمات كثيرة خلال صراعه مع أخيه الأمين فكافئهم بتفويض الوزارة إليهم وأطلق أيديهم فيها ثم أكتشف بعد أن استقرت الأوضاع وتطلع لمعرفة سكانه تمرس بالتيارات السياسية السائدة في عهده.

فأوقفهم عند حدهم، فعاد فعلة أبيه بالبرامكة وإعادة الصلاحيات لسلطة الخليفة وقصر العمل الوزاري على وزارة التنفيذ محدودة الصلاحيات.

ومن هذا التوجه فإننا نقف عند حقيقة مهمة وهي: لم يكن يبرز وزير في العصر العباسي الأول يطغى على سلطة وشخصية الخليفة العباس في تلك الفترة إلا ولقي مصيراً سيئاً، فقد قتل أبو سلمة الخلال وحل محله خالد البرامكي الذي لم يتلق بلقب وزيراً تشائماً. وحينما حاول أبو أيوب المورياتي أن يسيء فتعرض رغم أنه من أبرز الإداريين والكتاب القديرين فقد لقي مصيراً سيئاً كذلك، ولأن الخليفة أبو جعفر المنصور كان قوياً فقد جعل الوزارة والمحيطين به أشبه بالكتاب لديه وكان من حوله وزراء قديرين، لكنهم كانوا من طراز وزارة التنفيذ ولعل أبرزهم عبد الله بن يسار والذي يعبر فذاً بالكتابة والإدارة ويعقوب ابن أبي داود والحسين بن الصباح الذي حظي بثقة الخليفة أن الفترة القائمة بين (247هـ إلى 334هـ هي فترة سيطرة الأتراك العسكرية، وفي هذه الفترة تولى الوزارة أسر أكثر من مرة بحيث أصبحت فيهم شبه وراثية لخبرته وتفضلهم مثل آل الفرات. وآل الجراح وآل خاقان وغيرهم.

وفي هذه الفترة أو في هذا العصر ضعف أكثر الخلفاء وكثر عبث الوزراء فالعباس ابن الحسن مثلاً والذي عرف بسوء سيرته هو الذي أختار المقتدر العباس للخلافة وذلك سنة 269هـ وهو الذي أدى إلى عزله عين ابن المقتدر في نفس السنة، وفي عصر المقتدر القلق الذي أمتد قرابة ربع قرن م 295هـ إلى 320هـ نجد أن أربع عشر وزيراً فيهم الأفذاذ القادرون وفيهم التافهون المرتشون حيث تولى الحسن ابن الفرات وهو من أكفاء الإداريين والماليين ومن كبار المثقفين فقد تولى الوزارة ثلاثة مرات عام 304هـ وعام 306هـ و 311هـ ولم يزح الأمين لكنه أتهم بأنه متآمر على الخلافة وهناك علي بن عيسى الجراح الوزير الصالح النزيهة العالم المتواضع الذي شهدت الدولة في أيامه أعظم الإصلاحات وقد رفض أن يستلم راتباً وحين قلل مصروفات الحاشية

وإيقاف البذخ عند حده صيانة للمصلحة العامة أصطدم بالحاشية وصُودرت أمواله وسجن في سنة 314هـ ثم عاد ثانية المقتدر في 316هـ ولكنه نكب في المرة الثالثة.

ويمكن القول بأنه في أوائل القرن الرابع الهجري قد شهد انتقاص صلاحيات الوزير ففي عهد أمره الأمراء توليهم واجبات الوزير ومن جهة أخرى تعقدت مراسيم الوزارة فكان لباس خاص في عمله وهو السواد خاصة أيام المواكب والاحتفالات حيث كان يلبس قياد وسيف بمنطقة وعمامة سوداء.

وكان يحيط بكل وزير حاشية من الخبراء والمحاسبين تنتعش في استيزاره وتبتعد عند عزله وكان الوزير يقول عند استبعاده عن الوزير لقد كتبوا متطلقاً.

ونستطيع القول أن أكثر الوزراء الذين تقلبوا في الوزارة في القرن الرابع الهجري وما بعده صودروا وإنما فشلوا بسبب الصعوبات المالية والإثراء غير المشروع وكانت الأموال المصادرة تعاد إلى بيت المال ونلاحظ كثرة المصادرات حيث يصادر الوزير المتهم عادة من خليفة من الوزراء من نظام المصادرة له نواحي إيجابية لأنه أعاد إلى بيت المال الأموال التي أخذت بغير وجه حق وإذا كانت فترة العشر سنوات طويلة التي تطلق على الفترة الواقعة بين سنوا 324هـ و 334هـ وهي فترة أمير الأمراء كانت فترة اضطراب عسكري

واختلال انعكس على نظام الوزارة وحطم تقاليد المرعية بحيث أن أمير الأمراء العسكري سلب صلاحيات وواجبات الوزير، فإن سنة 334 تعد حاسمة تاريخ الوزارة لأن الأمير البويهى قام مقام الوزير، وبطل رسم الوزارة حتى قال الصعابي في وصف هذه الظاهرة (وزراء الدولة العباسية وكتاب الأيام الدبلوماسية) مشيراً إلى ظاهرة تحويل صلاحيات الوزير إلى كاتب عضد الدولة البويهى.

وبلغت الوزارة حداً كبيراً من الاستهانة عندما اختار بختار الدولة البويهى سنة 364هـ صاحب مطبخة ابن بقية لمنصب الوزارة، وتم ظاهرة أخرى في هذا

القرن أيضاً وهي أن عضد الدولة البويهى أتخذ وزيرين في وقت واحد، كان أحدهما نصرانياً وزير تنفيذ وفي القرن الرابع الهجري وما بعده أتخذ الوزراء ألقاب دنيوية مثل علم الدين، أمين الملة، شرق الملك وهذه الألقاب تختلف عن ألقاب الخلفاء ذات الطابع الديني وفي القرن الرابع الهجري وما بعده عظمت

ثروة الوزراء فكان ابن الفرات ملك عشرة ملايين دينار وكان كريماً مسرفاً أما علي بن عيسى رغم مزاياه الشخصية الإدارية العالية فكان يملك (17) مليون

دينار كما تقول المصادر في نفس الوقت كان بعض الوزراء غير كفؤيين ف(حامد بن عباس كان تاجراً وليس من الكتاب أما ابن مقله فهو من أصل اجتماعي متواضع، لكنه كان أعظم خطأ في عصره، أما الخصيب فكان سيء

السيرة مهملًا بترك الكتب والرسائل متراكمة ويقوم ابنه بفضها ووضع حلول لها.

ولكن الوزراء العظام كانوا كثيرين أيضاً وتركوا رصيد يعتد به بالتنظيم والتقدم الإداري والمالي وفي رسوم الوزارة اعتبرت نوافذ مشرفة في الحضارة العربية ويكفي أن نذكر منهم على سبيل المثال علي بن عيسى وابن الفرات وكذلك صاحب بن عابد وابن العميد وكافة الآخرين من الأدباء المشهورين ومن الوزراء القديرين.

الدواوين 1- ديوان العطاء

كان المسلمون يحاربون ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى ولا يردون على ذلك مالاً ولا جزاء إلا من عند الله، وقد بذل بعضهم كثيراً من ماله في وجوه البر والإحسان ولم يفرض لهم النبي محمد ﷺ ولا الخليفة الأول أبو بكر الصديق □ عطاء مقررًا للمقاتلة من الجنود، لكن جرت العادة أنهم إذا ما زوغ بلدًا من البلدان وأخذوا نصيبهم من الغنائم بحسب ما تقره الشريعة الإسلامية الحنيفة، وإذا ورد إلى المدينة شيء قسمه النبي محمد ﷺ في المسجد وجرى الأمر على هذه الشاكلة إلى سنة 15 هـ ولما توالى حروب التحرير والفتوحات العربية الإسلامية، وأصبحت الدولة العربية تملك ثروة وقدرات مالية حصلت عليها بعد تحرير العراق من الفرس وفتح بلاد فارس.

رأى عمر بن الخطاب ؓ بعد أن أصبح خليفة توزيع هذه الأموال على المسلمين ابتداءً من المقاتلة مراعيًا في هذا مراتبهم ومبلغ استحقاقهم، ولهذا قرر العرب إقامة الديوان وكتابة أسماء الجند فيه، والديوان هو السجل أو الدفتر الذي تحفظ فيه أسماء الناس وأطلق اسم الديوان من باب المجاز على المكان الذي يحفظ فيه الديوان يقول الماوردي "الديوان موضع الحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال"

الماوردي/الأحكام السلطانية صفحة 307.

ومن المعلوم أن الديوان قد أستحدث أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب t بعد أن ازدادت الواردات المالية وغيرها إلى بيت المال تتطلب الأمر أن تنظم عملية توزيع الأموال على المسلمين ويقول ابن خلدون عن الديوان "وظيفة الديوان بأنها تعني القيام على الجبايات وحفظ حقوق الدولة والداخل والخرج وإحصاء العسكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم في أوقاتها" الدواوين مثل ديوان العطاء وديوان الجند.

ولما أصبح الخليفة عمر بن الخطاب هو على رأس الدولة العربية الإسلامية، تجاوز الخليفة عمر بن الخطاب t حدود سلطة الخليفة الأول أبو بكر الصديق t بإخاذه برأيه الشكل المؤسس للدولة متجاوزاً مع تحديات المرحلة وظروفها الجديدة فقد أصبحت المدينة عاصمة دولة واسعة الأطراف تدار منها آلة الحكم بصورة مركزية فجاء ظهور الديوان استجابة لاتساع مواردها ومراقبة أموالها وتحركات جنودها ومؤشراً للانتقال من القاعدة البسيطة للمعاملات القائمة على التوزيع المباشر للدولة إلى قاعدة منظورة في تنظيم عائدات الخلافة أو الدولة وطريقة توزيعها حسب جداول وإحصاءات دقيقة بأشراف صاحب بيت المال الذي كان يتمتع بسلطة واسعة وقد أشار ابن تيمية في كتاب السياسة الشرعية إلى ذلك حيث ذكر بأنه لم يكن للأموال المقبوضة والمقسومة ديوان جامع على عهد رسول الله محمد r وأبي بكر الصديق t بل كان يقسم المال شيئاً فشيئاً. فلما كان زمن الخليفة عمر بن الخطاب t كثر المال واتسعت البلاد وكثر الناس فجعل ديوان العطاء للمقاتلين، وكان المسلمون هم الجند وكان قتالهم لأجل الدين لا لأجل الدنيا وكانوا لا يريدون على إسلامهم ونصرة نبيهم جزاء وبسبب تتابع وصول الأموال رأى عمر بن الخطاب التوسيع على المسلمين وتوزيع تلك الأموال وقد أكد الطبري ذلك فقال "أن عمر بن الخطاب فرض الفرض للمسلمين ودون الديوان في العام الخامس عشر للهجرة أما عن سبب وضع ديوان العطاء "أن أبا هيبيرة قدم إلى الخليفة عمر بن الخطاب بمال من البحرين فقال له عمر لماذا جئت به فقال خمسمائة ألف درهم فأستكثره عمر فقال له أتدري ما تقول؟ قال نعم مائة ألف خمس مرات فقال عمر أطيب هو، فقال لا أدري فصعد عمر المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلنا لكم كيلاً وإن شئتم عدنا لكم عداً" وروي عابدين يحيى عن الحارث بن نفيل أن عمر t أستشار المسلمين في تدوين الديوان فقال له علي ابن أبي طالب رضي الله عنه تقسيم كل سنة ما أجمع إليه من المال ولا تمسك منه شيئاً وقال عثمان ابن عفان t أرى مالاً فإن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر، فقال خالد بن الوليد t قد كنت بالشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً وجندوا جنوداً فدون ديواناً وجند جنوداً فأخذ يقوله "عن

عقيل ابن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من شبان قريش وقال أكتبوا الناس على منازلهم فبدعوا ببني هاشم فكتبوهم ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه ثم عمر وقومه وكتبوا القبائل ووضعوها على الخلافة ثم رفعوه إلى عمر، فلما نظر فيه قال لا: ما وددت أنه كان هكذا ولكن ابدعوا بقرابة رسول الله ﷺ الأقرب فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله فشكره العباس رضوان الله عليه على ذلك وقال وصلتكم رحم وروى زيد بن أسلم عن أبيه أن بني عدي جاءوا إلى عمر فقال أنك خليفة رسول الله، فلو جعلت نفسك حيث جعلك الله سبحانه وتعالى وجعلك هؤلاء القوم الذين كتبوا فقال بخ بخ يا بني عدي أردتم الأكل على ظهري وأن أذهب حسناتي لكم لا" الماوري الأحكام السلطانية صفحة 307 - 308.

ثم أمر الخليفة عمر بن الخطاب دفع ديوان العطاء أو ديوان الجند ونظم من حيث الترتيب العام إلى ثلاثة أقسام أو أسس :

- 1- أساس النسب والقرابة من رسول الله ﷺ □ قبيلة بعد قبيلة.
- 2- أساس السبق في الإسلام وحسن الأثر في الدين.
- 3- أساس التفاضل عند انقراض أهل السيف بالتقدم بالشجاعة والبلاء والجهاد.

أما من حيث الترتيب الخاص هو ترتيب الواحد بعد الواحد حسب السابقة في الإسلام فإن تقاربوا في الدين فإن تقاربوا فيه فإن السن فإن تقاربوا فيها فالشجاعة فإن تقاربوا فيها فإن الخيار من القرعة والاجتهاد، ولم يغفل الديوان من أسلم من غير العرب في العطاء فقد فرض لهم الخليفة مقدار معلوم من المال.

وديوان الجند أو العطاء خصص لعطاء الجود، أما ديوان الخراج أو الجباية لتدوين ما يرد إلى بيت المال وما يفرض لكل مسلم من العطاء، وانحصرت الأعمال الإدارية في عهد بني أمية في أربعة دواوين أو إدارات رئيسية هي:

- 1- ديوان الخراج.
- 2- ديوان الرسائل ويشرف صاحبه على الولايات، والرسائل التي ترد من الولاية.

3- ديوان المستغلات أو الإيرادات المتنوعة.

4- ديوان الخاتم، وقد أنشأه معاوية بن أبي سفيان وكان أكبر دواوين الدولة العربية الإسلامية، ويقوم موظفوه بنسخ أوامر الخليفة وإيداعها هذا الديوان بعد أن تحزم بخيط وتختم بالشمع ثم تختم بخاتم صاحب هذا الديوان، ويرجع السبب في إنشاء هذا الديوان إلى أن معاوية ابن أبي سفيان أحال رجلاً على زياد ابن أبيه عامله على العراق بمائة ألف درهم فمضى ذلك

الرجل وقرأ الكتاب وكانت توقيعاتهم غير مختومة وجعل المائة مائتين فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر هذا العدد وقال "ما أئلته إلا بمائة ألف" ثم أستعاد المائة ألف من الرجل ووضع ديوان الخاتم، فصارت التوقيعات تصدر مختومة لا يعلم أحد ما تشتمل عليه ولا هو يستطيع أن يغيرها في شيء" أنظر الفخري صفحة 102.

على أن ختم الرسائل والصكوك كان قبل ذلك، فقد روى أن النبي ﷺ لما أراد أن يكتب إلى هرقل إمبراطور الروم، قيل له إن العجم لا يقبلون كتاباً إلا إذا كان مختوماً، فأتخذ الرسول محمد ﷺ خاتماً من فضة ونقش فيه "محمد رسول الله"، ثم ختم به أبو بكر وعمر وعثمان إلى أن سقط من يد عثمان في بئر اريس، فصنع آخر على مثاله. وكان ديوان الخاتم يعد من الدواوين الكبرى منذ خلافة معاوية إلى أواسط عهد العباسيين، ثم الغي لتحول الأعمال إلى الأمراء والوزراء والولاة وغيرهم.

وكان بجانب هذه الدواوين الأربعة مصالح أخرى أقل أهمية من هذه. منها ما هو خاص بصرف نفقات الشرطة وما هو خاص بنفقات الجند.

يقول سيد أمير علي: إن النظام الإداري والسياسي في الدولة العربية الإسلامية على عهد دولة الأمويين لم تكن من عمل معاوية بل إن عبد الملك هو الذي وضع هذا النظام فقد صبغ الإدارة المالية بالصبغة العربية وبتحويلة الدواوين إلى العربية تقلص نفوذ أهل الذمة والمسلمين من غير العرب بعد أن انتقلت مناصب هؤلاء إلى أيدي المسلمين العرب وقام الحجاج بن يوسف الثقفي بتنفيذ سياسة عبد الملك.

ويعتبر إصلاح العملية من أهم الأعمال والإنجازات العربية الإسلامية وقد تحقق ذلك في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وهي تدل عن حسن سياسته وبعد نظره، إذ لم تكن في الدولة العربية عملة مقررّة إلى ذلك الحين، حيث كانت كل ولاية تقوم بضرب العملة داخلياً في دار الضرب التي لديها، على أنها لم تفي بالغرض المطلوب لعدم ضبط معيار هذه النقود وظهور تزيفها، ولأجل ذلك بنى عبد الملك داراً للضرب، وأمر بسحب العملة في جميع أنحاء الدولة العربية الإسلامية وضرب بدلها عملة جديدة من الذهب والفضة، وكان يعاقب كل من يزيف العملة عقاباً صارماً، وكذلك تحول ديوان الخراج في مصر إلى العربية في عهد الملك الوليد بن عبد الملك حيث حذى حذو أبيه في هذا المجال.

تعريب الدواوين و أهمية ذلك للدولة العربية الإسلامية والتي تعتبر من الأمور المهمة من الأمور المهمة التي قامت بها الدولة الأموية حيث كانت تكتب بالرومية في بلاد الشام و الفارسية في العراق و القبطية و اليونانية في مصر و قد استوجب هذا التعريب سياسة الدولة التي سار عليها بني أمية و استقرار الدولة و تثبيت كيانها و سيادة اللغة العربية إن التعريب هو عبارة عن استكمال للسيادة السياسية والاقتصادية للدولة العربية الإسلامية و باستكمال التعريب الذي استغرق لأكثر من عشرون سنة استقلت الدولة العربية الإسلامية عن أي تبعية أجنبية، و تعريب الدواوين تبعه عمل آخر و قد أشرنا إليه في هذه المحاضرة و هو تعريب الدواوين و أن تعليل الدوافع للتعريب تكمن في عدة أمور وهي:

1- الدولة البيزنطية تستطيع متى تشاء أن الورق و القطامي و الطوابير و العملة الذهبية عن الدولة العربية الإسلامية و الواقع أن العرب ضحوا بيدهم لأول مرة على عدة موارد جديدة من الذهب بينما كانت مناجم الذهب تحت السيادة البيزنطية و قد أدت حركة الفتوحات إلى تحويل هذه المناجم إلى السيادة العربية فلم يعد هنالك من داعي للاعتماد على النقد البيزنطي بل أن الميزان التجاري قد تحول لصالح العرب و صارت العملة الإسلامية هي العملة العالمية في التجارة.

كانت حكومة الدول التي قامت في بلاد العرب قبل الإسلام ذات منهج ديمقراطي كما يسمى و هذا متأتي من كون القبيلة في البلاد العربية أو القبيلة العربية قبل الإسلام كانت كل قبيلة تشكل وحدة إدارية مستقلة عن القبائل الأخرى، و كانت العلاقات بين شيخ القبيلة و أفرادها علاقات ديمقراطية، و لن يحل أي أمر إلا بالمناورة و الإتفاق بين رؤساء العشائر في أية قبيلة عربية يحدث في مشكلة سواء كانت تلك المشكلة داخلية أو خارجية مع قبيلة أو قبائل أخرى، حيث يدعو كبير القبيلة أو شيخها الأعلى إلى إجتماع لهؤلاء الرؤساء لتدارس الأمر، و في كل الأحوال لم يكن هناك قانون مكتوب يحل النزاعات أو أي شيء ينشب داخل القبيلة بل كانت المشاكل تحل حسب ما هو متعارف عليه أو العرف و الذي هو بدوره يقيم مقام القانون.

و لما ظهر الإسلام أحل الوحدة الدينية القومية محل العصبية القبلية، و أصبح العرب المسلمون عند ظهور الإسلام متساوون في كل شيء إمتزجوا في تلك البودقية الإلهية العظيمة و التي لم تبتعد كثيرا عن القيم و التقاليد العربية الأصيلة حيث أكد الإسلام على التساوي بين الخلق و خصوصا تلك الأمة التي جاء بها الإسلام لكي يجعل منها أمة عظيمة وهي أمتنا العربية و جاء قوله بالمساواة بين الناس و ترك العصبية القبلية و الانتقال إلى الوحدة الدينية القومية و من ثم الموقع الذي يحتله الإنسان هو بالإيمان و العمل الجيد لوجه الله و ذلك قوله تعالى ((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى و جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)) .

سورة الحجرات / آية 13

و كذلك تأكيده على الوحدة في قوله تعالى ((و أعتصموا بحبل الله. جميعا و لا تفرقوا و أذكروا نعمة الله عليكم إذا كنتم أعداء فألف بين قلوبكم و أصبحتم بنعمه أخوانا)) .

أل عمران / آية 103

و كذلك قوله تعالى ((و ألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم و لكن الله ألف بينهم أنه عزيز حكيم)) .

سورة الأنفال / آية 62

أما أتخذ الجانب الديمقراطي أو الشورى كما هو معروف في الإسلام، لم يكن كذلك بعيدا عن حياة العرب و في رد بلقيس حول ما جاء برسالة سليمان حيث قالت كما جاء في الذكر الحكيم ((قالت يا أيها الملأوا أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون))

سورة النمل / آية 32

لم تكن حكومة الرسول في المدينة المنورة حكومة دينية و حسب بل كانت حكومة سياسية كذلك، فقد كان ٣ يقود الجيوش الإسلامية و يفصل في الخصومات و يجيب الأموال، و من ثم جمع بيديه السلطتين الدينية و السياسية معا على أن السلطة السياسية جاءت عرضا، لأن الفرض الأول الذي بعث الرسول ٣ من أجله إنما كان نشر الدين الإسلامي الدعوة إليه.

ولما هاجر الرسول ٣ إلى المدينة وضع نظام للدولة العربية الإسلامية، كما أشرنا و كان ينيب عمالا على القبائل و على المدن، و كان على كل مدينة كبيرة أو قبيلة في الحجاز و اليمن عامل من قبله، يقوم بإمامة المسلمين في الصلاة و جمع الزكاة.

و من ثم لم يكن لهؤلاء العمال صفة سياسية، و قد فرض الرسول ٢ العامل الذي يعينه على مكة و هو عتاب ابن أسيد راتباً مقداره درهما كل يوم، فكان هذا الراتب أول ما وضع من الرواتب للعمال في الإسلام و في عموم الدولة العربية الإسلامية و التي كانت تحت قيادة الرسول ٢.

أما كبار الصحابة فكانوا يعطون نصيبهم من الغنائم و غيرها و لما ولي أبو بكر الصديق ١ الخلافة أمر عمال الرسول على أعمالهم و قسمت بلاد العرب إلى عدة ولايات و هي مكة، المدينة، و الطائف، و حضرموت، و حولان، و زبيد و رمح أو الجبل في اليمن، و الجند، و نجران، و جرش، و البحرين.

و لما إتسعت الدولة العربية الإسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ٢ ، قسم البلاد إلى أقسام إدارية كبيرة ليسهل حكمها و الإشراف عليها و على مواردها و ثرواتها وهي :

ولاية الأهواز، ولاية البحرين، و ولاية سجستان و مكران و كرمان، و ولاية طبرستان و ولاية خراسان و جعل بلاد فارس ثلاث ولايات، أما العراق فقسّمه قسماً أحدهما حضارته الكوفى و الأخرى حضارته البصرة، و قسم بلاد الشام إلى قسمين أحدهما قاعدته حمص و الثانية قاعدة دمشق، و جعل فلسطين قسماً قائماً بذاته و قسم أفريقية إلى ثلاث ولايات هي ، ولاية مصر العليا و ولاية مصر السفلى و ولاية غرب مصر و صحراء ليبيا .

و عين عمر بن الخطاب ٢ على هذه عمالاً أو ولاة يستمدون سلطتهم من الخليفة نفسه و الذي كان يجمع بيده السلطتين التنفيذية و القضائية، و كان أمراء الأقاليم يسمون عمالاً و معنى عامل يفيد أن صاحبه ليس مطلق السلطة، و قد أستعملت كلمة والى فيما بعد، و هذا يشعر بأن العامل قد أصبح له النفوذ و السلطان كما كانت الحال مع الحجاج بين يوسف الثقفي و الذي ولى العراق من قبل الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان و ابنه الوليد بن عبد الملك من بعده، كذلك أطلقت عليه كلمة أمير و إن تطور هذا اللفظ على هذا النحو يدل على السلطة أستبدادية التي كان يتمتع بها الولاة على عهد بني أمية.

كما أصبحت كلمة عامل في عهد بني أمية تطلق على رئيس الناحية الإدارية و كان حكام الولايات يلقبون بلقب أمير، ذلك اللقب الذي يطلق على أمراء بيت الملك، و لم تكن ثمة صلة أو رابطة بين لقب أمير و لقب عامل و لقب أمير

الأمراء الذي أدخله الخلفاء العباسيون في سنة 324 هـ، و تلقب به قائد القواد مؤنس الخادم الذي لم يعتبر نفسه أميراً قط، ثم جاء كافور الإخشيدي فرض بأن يلقب بلقب أستاذ.

و كان في كل إقليم عامل (أو وال أو أمير) يقوم بإمامة الناس في الصلاة و الفصل في النزاع و قيادة الجند و جمع المال و ما إلى ذلك و كان عامل الخراج أهم هؤلاء العمال، و كان يعمل مع الوالي جنباً إلى جنب، هذا يدير دفة السياسة و ذلك يتولى شؤون الدولة المالية، و كان بمثابة الرقيب على أعمال الوالي مما أدى إلى تنازع السلطة و قيام المنافسة بينهما الأمر الذي يعطل قصر عهد الولاية و عمال الخراج و كان عامل الخراج يعين من قبل الخليفة مباشرة و لكن الأمير كان يتمتع بالسلطة المطلقة، و قد ذكر الطبري أسماء ولاية الأقاليم في الدولة العربية الإسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب t ، ثم في عهد الخليفة عثمان بن عفان الذي إتسعت رقعة الدولة في عهده بشكل كبير.

و الخليفة عمر بن الخطاب t هو أول من وضع النظام السياسي للدولة العربية الإسلامية و كذلك نظام الإدارة، و كانت سياسة الخليفة عمر بن الخطاب t تهدف فيما تهدف إليه هو تماسك بلاد العرب و إدخال القبائل بعضها في بعض لتكون أمة و واحدة هي الأمة العربية ، و كانت تهدف سياسته إلى عدم إختلاط العرب مع شعوب الأقاليم التي فتحها ، لكي لا تضع قوميتهم و يذكر البعض عن دور الخليفة عمر بن الخطاب حيث يقول أحدهم في تاريخه لو أن عمر بن الخطاب t عاش أطول مما عاش لاستطاع وهبه الله قوة الشكيمة و الحنكة و الشخصية البارزة القوية أن يقوي من شأن الوحدة العربية و يحول دون قيام هذه الحروب الأهلية الطاحنة و التي هددت كيان الدولة العربية الإسلامية و الإسلام .

و قد أختار الخليفة عمر بن الخطاب t الولاية من العرب، و سار على هذه السياسة من جاء من بعده من الخلفاء الراشدين و الأمويين.

روي عن الطبري، أن الخليفة عمر بن الخطاب t خطب الناس يوماً فقال: أيها الناس إني و الله ما أرسل لكم عمالاً ليضربوا أبتاركم ((و يقصد بها جلودكم)) ولا ليأخذوا أعشاركم ((و يقصد بها أموالكم))، و لكن أرسلهم ليعلموكم دينكم و سنتكم، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلي، فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه، فوثب عمرو بن العاص و قال: رأيتك يا أمير

المؤمنين كان رجل من أمراء المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته إنك
لتقصه !

قال عمر بن الخطاب t أي و الذي نفس عمر بيده لأقصنه منه، و قد رأيت
رسول الله

□ يقص من نفسه، ثم بين لعمر ما يخشاه على الرعية من عنف الأمراء و
ظلم الولاية فقال:

((ألا لا تضربوا المسلمين فتذلّوهم، ولا تجمهروهم، فتفتنّوهم، و لا تمنعوهم
حقوقهم فتكفروهم)).

ناهيك بما فعله عمر بن الخطاب t بولد عمرو بن العاص و بجيلة بن الأيهم
حين حكم بالقصاص لكل منهما لواحد من السوقة.

و كان عمر بن الخطاب t يسأل الرعية إذا وفدت عليه في موسم الحج أو في
غير موسمه عن حال أمرائهم و سيرتهم فيهم روي عن الأسود بن أبي زيد
قال:

كان الوفد إذا قدموا على عمر، مألهم عن أميرهم فيقولون خيرا فيقول:

هل يعود مرضاكم فيقولون نعم فيقول: هل يعود العبد !

فيقولون نعم، فيقول كيف صنيعه بالضعيف ! هل يجلس على بابه، فإن قالوا
لخصلة منها لا، عزله.

و كان عمر بن الخطاب t لا يولي عاملا إلا إذا كتب له عهدا و أشهد عليه رهطا
من المهاجرين و الأنصار، و أشترط عليه ألا يركب برذ و ناقة ((أي حمارا))
و لا يأكل نقيا و لا يلبس رقيقا و لا يتخذ بابا دون حاجات الناس.

الامارة على الاقاليم

كان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتفقد أحوال الرعية بنفسه،
ويطوف في الأسواق وهو يقرأ القرآن ويقضي بين الناس حيث أدركه الخصوم،
بل أنه قد عزم الطوائف في الولايات في الدولة العربية الإسلامية.

ليقف بنفسه على أحوال الرعية فيها فقد روى أنه قال: لئن عشت أن شاء الله
لأسيرن في الرعية حولاً، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني أما عمالهم
فلا يرفعونها إلي، وأما هم فلا يصلون إلي فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين،

ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين، والله لنعم الحول هذا.

كما رسم الخليفة عثمان بن عفان السياسة التي يسير عليها عماله في الولايات والأقاليم في الدولة وفي هذه العبارة التي أوردها الطبري في حوادث سنة 24هـ فقد كتب إلى عماله أي عثمان بن عفان رضي الله عنه ((أما بعد، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وإن صدر هذه الأمانة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة، فإذا عادوا كذلك أنقطع الحياء والأمانة والوفاء، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تحنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تتباون فاستفتحوا عليهم بالوفاء.

والأمانة على البلدان نوعان:

- 1- إمارة عامة.
- 2- وأمانة خاصة.

والعامة أي الإمارة العامة نوعان:

- أ- إمارة استكفاء بعقد عن اختيار.
 - ب- إمارة استيلاء بعقد عن اضطرار.
- أما إمارة الاختيار فتشمل على سبعة أمور أوردها الماوردي وهي:

- 1- النظر في تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي وتقدير أرزاقهم.
- 2- النظر في الأحكام وتقليد القضاة والحكام.
- 3- جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيها وتفريق ما استحق منهما.
- 4- حماية الدين والذب عن الحريم ومراعاة الدين في تغير أو تبديل.
- 5- إقامة الحدود من حق الله وحق الأدميين.
- 6- الإمامة في الجمع والجماعات حتى يوم بها أو يتخلف عليها.
- 7- تسير الحجيج من عمله ومن سلكه من غير أهله حتى يتواجهوا معاونين عليه.

8- ((فإن كان هذا الإقليم ثغراً ملاحظة للعدو أقترن بها ثامن، وهو جهاد من يليه من الأعداء وقسم غنائمهم في المقاتلة وأخذ خمسها لأهل الخمس)).

أما الإمارة عن الاضطرار فهي التي يأخذها الوالي ويقرها الخليفة وفيها يكون الوالي مستبداً في السياسة والتدبير، ولكن المسائل المتعلقة بالدين تكون من اختصاص الخليفة، ولا يمكنه أن يغض النظر عن لدعه أو إهمال.

وأما عن الإمارة الخاصة فيقول الماوردي ((يكون الأمير مقصور الإمارة على تدبير الجيش وسياسة الرعية وحماية البيضة)) البيضة ويقصد بها المجتمع وموضع السلطات ومستقر الدعوة)) والذب عن الحرم وليس له أيتعرض للقضاء والأحكام والجباية الخراج والصدقات)).

وكانت إمارة العمال على إماراتهم في العهد الأول عامة، ثم روى أن تخصص، فكانت إمرة عمرو بن العاص على مصر عامة، إذ كان يقود الجيوش ويقضي في الخصومات ويجبي الأموال، ثم عين الخليفة الثاني عمر بن الخطاب عبد الله بن سعد بن أبي سرح على الخراج، وبذلك أصبحت ولاية عمرو خاصة بعد أن كانت عامة وبعد مدة قليلة تقلد قضاة مصر قاض للفصل في الخصومات، فصارت سلطة الوالي مقصورة على قيادة الجند أو الجيوش وإمامة الصلاة. وقد بلغ من اهتمام الخلفاء باختيار الولاة أن كان بعضهم يسند هذا المنصب الكبير إلى أفراد من البيت المالك.

ولو عدنا إلى هذا التوجه أي أفراد أو إعطاء الولاية لأحد أفراد البيت المالك لا نجد أنه ترك أثراً كبيراً على سير الأوضاع في الدولة العربية الإسلامية في العهد الأموي وكانت أضرارها بليغة جداً حيث يقول سيد أمير علي في ذلك، أن هناك نقصاً تطرق إلى النظام الإداري في عهد بني أمية وجر إلى أسوأ العواقب فيما بعد، وذلك أنه كان يفرض على ولاة الأقاليم الإقامة في حواضر ولاياتهم أما في عهد الأمويين فقد أصبحت ولاية الولايات تسند إلى بعض أفراد البيت المالك وإلى كبار رجال البلاط الذين كانوا يقيمون في دمشق ويعينون من قبلهم رجالاً يحكمون الولايات نيابة عنهم، على عكس الفترة الراشدية تماماً حيث كان الوالي يقيم في ولاية ولا يخرجها إلا بالإقالة أو للقاء الخليفة أو الحج أو الحرب أو غيرها، وهذا الواقع إن دل على شيء فإنما يدل على اهتمام الخلافة العربية الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين لرضا الله عنهم أجمعين بالرعية أما في العهد الأموي وعلى ضوء ما تقدم نرى أن هذا الأسلوب من الإدارة هو إن دل على شيء فإنما يدل على إهمال هذا المنصب المهم وبدوره أي إلى عدم الاهتمام بالرعية.

وكانت الولاية عامة للخليفة على جميع أجزاء الدولة العربية الإسلامية، ومن ثم كان من حق الخليفة تعيين القضاة والولاة ليحكموا نيابة عنه وباسمه تلك الولايات والأقاليم التابعة للدولة، وكان الخليفة يستعين في إدارة البلاد بطائفة من كبار الموظفين. منهم:

* عامل الخراج أو صاحب بيت المال.

* القاضي.

* والقائد.

* وصاحب الشرطة.

وفي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد عين عمالاً للصلاة وبشكل خاص في فلسطين ودمشق وحمص وقنسرين. وهذا الإجراء من الخليفة عمر بن الخطاب يدل على حرص الخليفة على الاهتمام بالصلاة في مواعيدها هذا أولاً ورغبة في تقوية العقيدة الإسلامية ثانياً، وذلك لوجود عقائد وأديان سماوية أخرى ولها أتباع كثر في هذه المناطق ولا يحق لأين كان إجبارهم على ترك عقائدهم أو الانتقال إلى الإسلام إلا بالرغبة والطوع، فكان هذا الاهتمام من قبل الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب ولكي يأخذ الدين الإسلامي دورة الفاعل والرائد عند أبناء تلك الولايات والأقاليم.

وفي العهد الأموي بلغت الدولة العربية الإسلامية أقصى اتساع لها، وكانت تقسم إلى خمس ولايات كبرى هي:

1- الحجاز واليمن وأواسط بلاد العرب.

2- مصر بقسميها السفلي والعليا.

3- العراقات:

أ- العراق العربي (بلاد بابل وأشور واكد القديمة أي حدود العراق الطبيعية).

ب- العراق العجمي ((ويقصد بها (بلاد فارس نفسها).

وعمان والبحرين وكرمان وسجستان، وكابل وخراسان وبلاد ما وراء النهر والسند، وبعض أجزاء بلاد البنجاب. وكانت كل هذه الأقطار تكون ولاية كبيرة يتولى أمرها وإلى العراق وحاضرتة الكوفة، ويلى خراسان وبلاد ما وراء النهر عامل من قبل العراق ومركزه مدينة مرو عادة. وكانت بلاد البحرين وعمان تحت إشراف أو تدار من قبل عامل البصرة من قبل وإلى العراق.

4- بلاد الجزيرة وتشيعها أرمينية وأذربيجان وبعض بلاد أسيا الصغرى.

5- الولاية الخامسة وهي أهم الولايات، وتشمل كل إفريقية الشمالية وتصل حدود هذه الولاية

حتى غرب مصر، وكذلك بلاد الأندلس وجزر صقلية وسردينية والبليار، مركزها القيروان، قد كان ينوب والي آخر يقيه عنه ولاية لحكم طنجة وجزر البحر المتوسط وبلاد الأندلس.

حيث كان تدار هكذا هذه الدولة الشاسعة المترامية الأطراف الكبيرة السكان ومن خلال هذا التقسيم تمكن العرب المسلمين من تحقيق الاستقرار والأمن وخصوصاً في القرون الأولى من الهجرة وهذا أن دل على شيء إنما يدل على تلك العقلية الإدارية الراجحة والتي تمكنت من خبط الدولة.

ليس هناك تمييز بين إنسان وآخر ضمن مواطن أو رعايا الدولة العربية الإسلامية في هذا العصر فلا تمييز على أساس الجنس أو كلغة وأن كانت اللغة العربية هي السائدة في جميع ولايات الدولة والقومية أو اللون أو المعتقد الديني فكان جميع الناس سواسية في الوظائف وفعلاً هذا الأمر يتقدم على كثير من الأنظمة التي تدعى التحضر والحداثة وهي تضع قوانين صارمة أم رعاياها في كثير من مواقع السلطة والعمل وفي أحيان كثيرة القوانين تكون مانعة وعلى رغم ليس مجال حديثنا أو محاضرتنا هذا الكلام الذي قلناه لكن إشارة مهمة ضمن سياق المحاضرة.

وعليه نعود إلى موضعنا في المحاضرة، كان الخليفة العباس في هذا العصر يختار عمال الأقاليم بنفسه لإدارة شؤونها، لكن سلطاتهم المدنية والقضائية كانت تخضع لبعض القيود، فلم يترك العامل في ولايته زمناً طويلاً، وإذا عزل عن منصبه طلب منه، يقدم كشفاً مفصلاً عن شؤون ولايته وكان أقل شك في صدقه كافيّاً لمصادرة أملاكه جميعها المنقولة وغير المنقولة، وفي زمن المنصور العباسي لم تكن مهمة الوالي بأي حال أكثر من وظيفة صورية.

كانت الإدارة في العصر العباسي الأول مركزية وبهذا أصبح العمال على الأقاليم مجرد عمال لا ولاية مطلقى السلطة، بعكس ولاية الأمويين، كالحجاج بن يوسف الثقفي وزياد ابن أبيه، كما أنهم لم يكونوا من الشخصيات البارزة لذلك استحالَت الإدارة اللامركزية إلى إدارة مركزية مما يشعر بتقليص نفوذ العمال، ومن أهم الموظفين في ولايات الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي الأول هو صاحب المال، وصاحب البريد، والقاضي أما عمل الوالي في هذه الفترة فقد اقتصر على الصلاة وقيادة الجند.

ويقول سيد أمير علي في ذلك أما الإدارة فكانت قائمة على قواعد محدد مماثلة للنظم الحديثة في الأمم المتحضرة، بل قد يمكن القول إنها كانت متقدمة في بعض

الوجه مما عليه في أيامنا هذه، فكانت كل مناصب الدولة، مفتوحة أمام جميع من يسكن ضمن حدود الدولة العربية الإسلامية.

تطور بعض الأجهزة الإدارية في الدولة الإسلامية

الأجهزة الإدارية في الدولة العربية الإسلامية والتي اقتضتها ظروف تطور البلاد الحضاري والاجتماعي والسياسي وتقدمها وهذا أمر طبيعي أن تتطور الإدارات في مؤسسات الدولة حسب تطور جوانب الحياة من جهة وتطور البلد من جهة أخرى وظهور حاجات ومتطلبات سياسية وإدارية جديدة مختلفة. ومن هذه الأجهزة الإدارية أن صح التعبير ونسئها بأجهزة وهي فعلاً هكذا.

1- الشرطة.

2- الكتابة.

3- البريد.

4- الحسبة.

وسوف نبدأ بمعرفة مفهوم الشرطة وكيف تطورت إدارتها في الدولة العربية الإسلامية تطلق كلمة شرطة على الجند الذين يعملون على حفظ النظام وإقرار الأمن البلاد ليلاً ونهاراً، ويقال أن الاسم مشتق من شرط أي وضع علامة، بمعنى الشرطة هم الذين اشترطوا أو عملوا بعلامات خاصة تميزهم عن غيرهم، ويقال كذلك إن هذا النظام مأخوذ من الأمن عند البيزنطيين، لكن لم يصمد هذا الرأي أمام الحقائق وهي أن الشرطة وقيامها في الدولة العربية

الإسلامية هو جزء من متطلبات الإدارة الراقية الجديدة للدولة في عصر الإسلام وكانت الشرطة في الدولة العربية الإسلامية في بداية أمرها تابعة للقضاء وعملها يقوم على إقامة الحدود أي تنفيذ العقوبات والأحكام التي يصدرها القاضي، ثم ما لبثت أن انفصلت واستقلت عن القضاء وأصبح صاحب الشرطة هو الذي ينظر في الجرائم وهكذا أصبح هناك نوعان من القضاء:

1- قضاء شرعي يتناول الأمور الشرعية والأصول الشخصية مثل الزواج وانطلاق المواريث والوصايا والأحباس إلى غير ذلك من الأمور التي تتصل بالشرع والتي وردت فيها الأحكام الشرعية، ويتولاه قاض القضاة في المشرق أو قاضي الجماعة في المغرب من الدولة العربية الإسلامية.

2- قضاء مدني يفصل في الجرائم الخاصة بالقضايا الجنائية والسياسية ويتولاه صاحب الشرطة.

وهذه التفرقة بين القضاء الشرعي وبين القضاء المدني أوجدتها وأستلزمها المصلحة العامة، لأن القاضي الشرعي مجبر على تطبيق الشرع وإقامة الحدود التي وردت صريحة في القرآن الكريم، مثل القاتل يقتل والزاني والزانية يجرمان والسارق تقطع يده... الخ، حتى يقال أن أحد الصحابة نصح امرأة قدمت إليه بتهمة السرقة بأن تنكر التهمة عن نفسها حتى لا يضطر إلى إقامة الحد عليها والأمر بقطع يدها، أما القاضي المدني أو صاحب الشرطة، فإنه يفصل بين القضايا وفق الشعور المعاصر إذ إنه يقيس الجرائم بمقاييسها ويدخل في حيثيات حكمه الظروف والملابسات والاعتبارات التي وقعت فيها الجريمة أو التي أحاطت بمرتكب الجريمة فيجعلها أساساً لحكمه دون التعقيد بحكم الشرع تماماً ولهذا روي من باب السياسة كما يقول ابن خلدون في مقدمة تنزيه القاضي عن هذه السلطة ووضعها في أيدي أناس آخرين يكونون عادة من كبار القادة وعظماء الخاصة، وهذه السلطة المدنية الواسعة كانت تسمى بخطة الشرطة "إدارة الشرطة" ويسمى الذي يتولاها بصاحب الشرطة. إذن فصاحب الشرطة هو الذي ينظر ويحقق ويفصل في الجرائم السياسية والمدنية وكل ما يتعلق بحفظ الأمن والنظام ويجعل الأمور تسير بشكل طبيعي فهو بمثابة قاضي الجنايات، وكثيراً ما كان يرشح للوزارة أو الحجابة لأهمية مركزه عند السلطان وبشر ابن خلدون حول شرطة الأندلس، فيقول الشرطة في الأندلس، كانت مقسمة إلى قسمين شرطة عليا وشرطة صغرى، فصاحب الشرطة العليا أو الكبرى، كان ينظر إلى الجرائم التي يرتكبها كبار القوم من الخاصة وأهل الجاه، وكان يتولاها رجل من كبار رجال الدولة وكانت جلساته تعقد بباب قصر السلطان.

أما صاحب الشرطة الصغرى، فكان ينظر في الجرائم التي يرتكبها العامة.

وإذا نظرنا إلى هذا التقسيم الطبقي للشرطة فنجد أنه يتنامى مع روح الإسلام وتعاليمه التي لا تفرق بين مسلم وآخر، وخير مثال على ذلك عمر بن الخطاب □ والذي كان يقاض الصحابة مع عامة الناس على قدم المساواة. ومما يجب الإشارة له في هذا الجانب هو أن هذا التقسيم وجد في مصر أيضاً ولكنه على أساس مناطق أو إقليمي وليس على أساس طبقي، فوجدت الشرطة العليا في شمال الفسطاط، والشرطة السفلى في جنوب الفسطاط. وكيف كان الأمر، فإن صاحب يعتبر رأس السلطة التنفيذية القضائية أو كان يعاونه رجال الشرطة والعس الذين يطوفون بالليل للحراسة وكانوا يعرفون في الأندلس بالدرابين، لأن بلاد الأندلس كانت لها دروب تغلق في أول الليل بواسطة الدرايين، وكان كل واحد منهم معه سلاح وكلب وسراج، ومن الطريف أن عادة غلق الأبواب ما زالت متبعة في أسبانيا منذ الساعة العاشرة ليلاً وبواسطة درابين يعرفون باسم سيرينوس.

2- الكتابة

كانت مهنة الكتابة مهمة في الدولة العربية الإسلامية وظهرت هذه الإدارة في زمن الرسول عندما كتب رسائله للحكام والملوك الأجانب وكذلك تواصلت في عهد الراشدين وعرفنا أن بعض الصحابة يقوم بالكتابة وتمير بعض الكتب للخليفة ولما انتقلت الخلافة على بني أمية تطورت الكتابة بعض الشيء وظهرت شخصيات لامعة في هذا الجانب، لكن الأمر اختلف في عصر العباسيين.

لما كثرت أعمال الوزراء في العصر العباسي الأول، وأصبح من الضروري تعيين موظفين يعاونون الوزراء للأشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شؤونها ومن أشهر الكتاب في هذا العصر كان كاتب الرسائل، وكاتب الخراج وكاتب الجند، وكاتب الشرطة، وكاتب القاضي ومهنة كاتب الرسائل إذاعة المراسيم والبراءات وتمير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة، وكذلك مراجعة الرسائل الرسمية ووضعها في الصيغة النهائية وختمها بخاتمها، كما كان يجلس مع الخليفة في مجلس القضاء للنظر في المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة وكان كاتب الرسائل يتولى مكاتب الملوك والأمراء عن الخليفة وكثيراً ما كان الخليفة يتولى ذلك بنفسه فقد أثر عن الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور أنه لما جاءه كتاب محمد النفس الذكية هم كاتبه أن يجبه فقال له أبو جعفر المنصور "لا بل أنا أجيبه إذ تقارن على الأحساب فدعني وإياه".

وقد زخرت الدولة العربية الإسلامية بطائفة من الكتاب لم يسمح الدهر بمثلهم
فقد أشتهر عبد الحميد الكاتب وابن العميد وكذلك يحيى البرمكي والفضل بن
الربيع وكذلك الفضل والحسن ابنا سهل وأحمد بن يوسف، وعبد الملك الزيات
وغير "ولا بد من القول لماذا يقصد بكلمة كاتب أنها تعادل وزير اليوم ولا زالت
مستعملة كلمة كاتب في المغرب العربي وخصوصاً تونس والمغرب تطلق على
الوزير المعين".

وقد حرص الخلفاء على أن تدون الرسائل بأسلوب شائق بليغ، كما حرصوا
على اختيار كتابهم من رجال الأدب من أعرق الأسر، وممن عرفوا بسعة العلم
ورصانة الأسلوب.

3- البريد

من المعروف أن معاوية ابن أبي سفيان هو أول من أدخل نظام البريد في الدولة العربية الإسلامية ثم جاء عبد الملك بن مروان فأدخل عليه تحسينات، ولم يكن البريد في ذلك الوقت بريداً عاماً للجمهور كما هو الحال عندنا اليوم، بل بريداً خاصاً بأعمال الدولة وسلامتها وكانت مهمته مراقبة عمال الدولة وإبلاغ العاصمة أو المركز في أقرب وقت مستطاع بما يجري في الولايات من أحداث سياسية واقتصادية وغيرها، أي أنه يشبه ما يسمى اليوم بإدارة الأمن العام. وكان المشرف على هذه الإدارة يسمى صاحب البريد، وجرت العادة أن يكون رجلاً أميناً يكتب الأخبار بدقة وأمانة، وقد أهتم العباسيون بهذا النظام لا سيما في عهد الخليفة هارون الرشيد الذي أحاط الدولة العربية الإسلامية بشبكة دقيقة من خطوط البريد كي يتوخى السرعة في تلقي الأخبار وإصدار الأوامر. وقد قسمت الخطوط أو المسافات هذه إلى محطات وفي كل محطة يوجد عدد من العمال والخيول والجمال وكل ما يحتاج إليه عامل البريد من زاد وعلف ومياه. وتقدر مسافة البريد بين كل محطة وأخرى بنحو أربعة فراسخ والفرسخ ثلاثة أميال، أي أن مسافة البريد اثنا عشر ميلاً.

وكذلك كان هناك ما يمكن أن نسميه اليوم بالبريد الجوي ونعني بهذا الحمام الزاجل الذي كان يستخدم في الحالات المستعجلة وكان لهذا الحمام أبراج خاصة في جميع أنحاء الدولة العربية الإسلامية في ذلك الوقت مثل محطات البريد البري ولكنها تزيد عنها في المسافة، فإذا نزل الحمام في مركز من هذه المراكز أو المحطات، نقل البرج الرسالة التي بجناحه إلى طائر آخر كي يصل بها إلى المرحلة التي تليها وهكذا.

وكان الإيجاز والتركيز من أهم مميزات الرسائل التي يقلها الحمام الزاجل، إذ يستغني فيها عن البسمة والمقدمات والألقاب ويكتفي بذكر التاريخ والساعة والمطلوب، في صيغة مختصرة، وبخط دقيق عرف باسم الغبار، لأنه مثل ذرات الغبار، كذلك كان حجم هذه الرسائل الجوية صغيراً جداً قد يقدر بحجم سلاميات الأصابع وهكذا نرى مما تقدم أن إدارة البريد كانت إدارة دقيقة، تربط الدولة بقائدها، وخلالها يطلع على كل مستجد أول بأول.

4- الحسبة

كانت هذه في بادئ الأمر تعتبر من توابع القضاء الشرعي ومتممة له، وأن كانت فيما بعد انتقلت إلى القضاء المدني ويشير إلى ذلك ابن خلدون في قوله "كانت الحسبة في كثير من الدول الإسلامية قبل؟؟؟ بمصر والمغرب بمصر والمغرب والأمويين بالأندلس داخلة في عموم ولاية القاضي يولى فيها باختياره، ثم انفردت في وظائف الملك وأفردت بالولاية وأصبح تعيين المحتسب من وحي الإدارة المدنية لا من حق القاضي".

وتعتبر الحسبة من أوائل المؤسسات الإدارية التي ظهرت في الدولة العربية الإسلامية، لهذا كانت لها صفة دينية في أساسها الأول وتقوم على تنفيذ النصيحة التي وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر" فوظيفة المحتسب إذن، هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنع حدوثه وخصوصاً في المشاكل اليومية الواضحة التي لا نزاع فيها والتي لا تحتاج إلى حلف يمين أو سماع شهود أو إقامة حدود، فهذه كلها من اختصاص القاضي، ولا دخل للمحتسب فيها، أما التعزيزات أو الأحكام التأديبية السريعة كالتوبيخ والتشهير فهي من اختصاص المحتسب، لهذا كانت وظيفة المحتسب تتولى الأشراف على العمال والتجار والصناع وكل من يصح أن يخدع عملاءه بأي صفة كانت مما يؤدي بالأضرار بالمسلمين وغير من سكنه الدولة العربية الإسلامية ويسمى المحتسب في أحيان كثيرة بصاحب السوق.

حيث كانت الرقابة على الأسواق ومنذ أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب t، بيد هذا العامل أو صاحب السوق والذي عليه واجبات ومهام في هذا الإطار منها مراقبة الأوزان والمكاييل، وفحص المواد المعروضة خوفاً أن يوجد فيها تلاعب أو غش، وكذلك التحكيم في الخلافات التي تنشأ بين أصحاب المهن، وفي بعض الأحيان يقوم بجمع ضريبة السوق، وهذه الوظيفة في الواقع هي أصل وظيفة المحتسب والتي ذكرت لأول مرة في التاريخ العربي الإسلام في ولاية يزيد بن هبيرة عامل مدينة واسط بحدود 103هـ حيث كان مهدي بن عبد الرحمن ومن ثم إياس بن معاوية محتسبين في واسط، ثم كان عاصم الأحول على الحسبة في الكوفة ثم اكتسبت الحسبة أهمية كبيرة في العصر العباسي وأصبحت هذه الوظيفة تعمل في عموم الدولة العربية الإسلامية، بحيث صار المحتسب هو المنظم الحقيقي للحياة الاقتصادية في المدن الإسلامية كافة لما أصبح لها من دور حيوي اقتصادي في ذلك الوقت.

الجيش وادارته في المشرق في الدولة الاسلامية

أرتبطت نشأة الجيش في الإسلام بفكرة الجهاد أو القتال في سبيل الله والذي يعتبر ركناً من أركان الدين، وفرضاً فرضه الله على المسلمين للدفاع عن النفس وعن أرض الإسلام من جهة، ولتأمين الدعوة الإسلامية ضد من يقف في سبيلها من جهة أخرى.

مما يتكون الجيش العربي الإسلامي

كان الجيش في عصر الرسول محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم والخلفاء الراشدين ؑ جميعاً وحتى في عهد الأمويين، أي في عصر الدولة العربية الإسلامية، يتكون في أساسه من العنصر العربي بحكم أن العرب هم مادة الإسلام، وإن كان هذا لم يمنع من اشتراك العناصر غير العربية والتي دخلت إلى الإسلام كالفرس والروم والذين كانوا يسمون بالحمراء، مثال ذلك عمرو بن العاص حينما بنى مدينة القسطنطينية في مصر، أختط لكل قبيلة من القبائل العربية خطة (بكسر الخاء) أو حياً لتتنزل فيه كما أفرد خطاً أو أحياء للعناصر من غير العرب في جيشه مثل خطط الفارسيين والحمراوات ويعني بذلك الروم وهؤلاء كانوا أقلية ضئيلة بالنسبة للعرب.

ولما كانت حروب التحرير والفتوحات الأولى قد تمت في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ؑ، فقد تطلب الأمر سرعة اتخاذ تشكيل أو تنظيم عسكري لهذه الجيوش العربية المنتشرة في البلاد المفتوحة، لهذا اتخذ الخليفة عمر بن الخطاب ؑ في هذا السبيل خطوات حاسمة تشهد ببراعة كقائد حربي ممتاز مثال ذلك أنه أوجد ما عرف بديوان الجند أو الجيش أو العساكر، للإشراف عليهم بتقييد أسمائهم وإحصاء أعمالهم والأنفاق عليهم وعلى أسرهم بما عرف بالعطاء أو الرزق فديوان الجند هو أول ديوان في الإسلام، كذلك يرجع الفضل إلى عمر بن الخطاب ؑ في إقامة الحصون والمعسكرات في البلاد المحررة

والمفتوحة لإقامة المقاتلين العرب، ومن أهم تلك المراكز البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان والتي ما لبثت أن تحولت إلى عواصم وأمصار أي مدن كبرى.

ولما ولي الأمويون، ساروا على نفس هذه السياسة العربية من حيث تنظيم ديوان الجند وإقامة القواعد والحصون وإدخال التجنيد الإجباري، لأول مرة في تاريخ الدولة العربية الإسلامية، وذلك لمواصلة عملية حروب التحرير والفتوحات الكبرى، ومحاربة أعداء الدولة وفي المقدم من هؤلاء الأعداء الروم البيزنطيين.

أما في العهد العباسي، فقد حدثت تطورات كبيرة في الجيش العربي الإسلامي، أصبح أعداد الجنود من غير العرب ليس بقليل وبشكل خاص الجنود الفرس أو العجم، والذين كانوا قد ساهموا في إسقاط النظام الأموي وإقامة النظام العباسي. وذلك بقيادة الفارسي أبو مسلم الخراساني والذي لقي حتفه على يدي خلفاء بني العباس بعد أن أخذ يتأمر على الدولة العربية الإسلامية تمت قيادة بني العباس.

وهذا المتغير الجديد في تركيبة الجيش العربي الإسلامي في عصر العباسيين أي دخول الأعاجم إلى الجيش، كانت له آثار سلبية عليّة حيث برز تنافس بيت العرب والفرس داخل هذه المؤسسة العسكرية وهذا التنافس تحول إلى صراع بين الطرفين أي بين العرب والأعاجم وتلمس نتائجه وآثاره في مقتل أبو مسلم الخراساني كما ذكرنا، وكذلك ظهرت بوادر هذا الصراع عندما قام الرشيد بالتخلص من البرامكة لما حس منهم بتعصبهم وأتجاههم الفارسي المجوسي وذلك عندما أراد وحرف طريق سيرة الدولة العربية الإسلامية بتجاه آخر والسيطرة عليها من قبلهم، ثم صورة الصراع في تلك الفتنة التي قامت بين الرشيد الأمين والمأمون، "ورأيت الدولة نفسها في هذا الصراع مثل الفارسي الذي يركب جواد بن في آن واحد، فهو على حافة السقوط مهما مهر في الركوب" سعيد عبد الفتاح/ تاريخ الحضارة صفحة 172.

ولهذا أضطر خلفاء بني العباس الأوائل إلى استخدام عنصر محارب جديد في الدولة العربية الإسلامية وهو العنصر التركي، وذلك للحد من نفوذ الفرس والعرب، وهذا العمل الذي قام بها الخلفاء العباسيين في العصر الأول هو عمل كمن يهرب من الرمضاء بالنار، وذلك لما ظهر من تأثير على بنية الدولة العربية الإسلامية.

وكانت أقاليم ما وراء النهر (أي نهر جيحون) مثل خوارزم والشاش (طشقند) وأشروسته وفرغانه وسمرقند وبخارى، تعتبر في ذلك الوقت مراكز هامة

للرقيق التركيين إعداده وتربيته تربية عسكرية إسلامية ثم إرساله أو بالأصح تصديره إلى كافة أنحاء الدولة الإسلامية.

وقد جرت العادة أن ولاية هذه الأقاليم، كانوا يرسلون بعض الرقيق على شكل هدايا إلى الخليفة أو الوزير، حتى صار انقطاع ذلك النوع من الهدايا علامة من علامات الثورة أو العصيان أو التمرد في ذلك الإقليم، وتشير المراجع إلى أن هؤلاء الأتراك الذين جاءوا إلى المجتمع العربي الإسلامي الأول عن طريق الحرب أو الشراء ولم يعاملوا معاملة سائر الرقيق كما هو متعارف عليه في ذلك الوقت بالخدمة في الأعمال الحقة مثل كنس الدار وخدمة الدواب وما شابه ذلك. بل كانوا يتولون مناصب الحكم والقيادة في الدولة الإسلامية وقد أشار إلى ذلك المؤرخ ابن حول ت 450هـ تفضيل الأتراك على سائر الأجناد. بقوله "ولا يرضى التركي إذا خرج من وثاقه إلا بزعامة جيش أو التوسم بحجابه أو الرياسة على فرقة" كما أنه لا يرضى إلا بأن يساويه سيده في مطعمه ومشربه وملبسه ومركبه".

وكان استخدام المماليك الأتراك في الوظائف الكبرى في الدولة العربية الإسلامية آنذاك يرجع إلى بداية العصر العباسي الأول، مثال ذلك الخليفة العباسي المأمون الذي أستخدم في حرسه عدداً من المماليك الأتراك مثل طولون التركي الذي صار قائداً للحرس الخلافة العباسية الخاص أو الحرس الخاص للخليفة العباس وهو والد أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية في مصر والشام.

وفي عصر الخليفة العباسي المعتصم بالله والذي هو ??? كانت أمه تركية لذلك أخذ يتوسع في استخدام المماليك الأتراك كجنود في الجيش في ذلك الوقت حتى يقال أن هؤلاء الجنود قد بلغ عددهم بضعة عشر ألفاً وبنى لهم عاصمة جديدة في شمال مدينة بغداد وهي مدينة سامراء، بعدما أضاق أهل بغداد ذراعاً بهؤلاء الجنود الأتراك وقد فعل المعتصم فعلة أتت بالنهاية على الدولة العربية الإسلامية وعلى الخلافة العباسية وهيبتها عندما اتخذ قراراً غير سليماً وهو أنه أمر بإسقاط العرب من ديوان الجيش وقطع أعطياتهم وأرزاقهم منه وإحلال الترك محلهم.

وبفعلته هذه أي المعتصم ومما يؤسف له إذا فعل ذلك عن دراية أو من دون دراية كمن يوجه طلقة الرحمة كما يقال في الوقت الحاضر فإن الخليفة العباس المعتصم قد وجه هذه الطلقة إلى الدولة العربية الإسلامية وكيانها، وكانت الخطوة الأولى بالخلافة قد بدأت كما عرفنا ذلك من التاريخ. وكان من الطبيعي أن يزداد نفوذ الأتراك بعد أن صاروا عنصر هاماً في المجتمع والجيش الإسلامي، فلماذا ضعف نفوذ الخلافة العباسية في الولايات والأقاليم

أخذ عمال الأطراف يجنحون إلى الاستقلال بولايتهم، صار هذا العنصر التركي هو عماد تلك الحركات الانفصالية وقاعدة لها.

لذلك نرى أن جميع الدول التي قامت في المشرق الإسلامي منذ أواخر القرن الثالث الهجري، اعتمدت على الرقيق أو المماليك الأتراك في جيوشها، وتبعت نظاماً تربوياً وعسكرياً إسلامياً دقيقاً في تربيتهم وتدريبهم وأعدادهم، ولعل من أبرز هذه الدول، الدولة السامانية التي قامت في بلاد ما وراء النهر وذلك سنة 290 هجرية واتخذت من مدينة بخارى عاصمة لها، فقد حرص ملوك هذه الدولة، رغم من أصلهم الفارسي، على الجهاد في وسط آسيا وجذب المماليك من أجل هذا المشروع أي مشروع الجهاد وهم المماليك الأتراك والقيام عليهم والاهتمام بهم وبتربيتهم حتى صار معظم جيوش السامانيين من رقيق الترك المماليك.

وقد أعطانا الوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي توفي سنة 485 هجرية في كتابه سياسة نامه وصفاً دقيقاً لهذا النظام التربوي العسكري الذي وضعه السامانيون لمماليكهم ومن ذلك قوله ما معناه "إن ممالك السامانيين يرقون تدريجياً بناء على خدماتهم وشجاعتهم وليس اعتماداً على المحسوبية أو الجاه، فالمملوك عند شرائه يخدم عاماً على قدميه فيسير مركوباً قباء من القطن بجوار سيده الممتطي سهوة جواده ولا يسمح للمملوك في عامه الأول من الخدمة أن يركب الخيل إطلاقاً وألا عوقب أشد العقاب فإذا ما أتم عامه الأول، يسمح له بركوب فرس بدون سرج ولجام. ثم يمنح في العام الخامس من خدمته سرجاً وسروالاً من القطن المخلوط بالحرير وبعض الأسلحة، وفي العام السادس يمنح المملوك ملابس أفخر من ملابسه السابقة، وفي العام السابع يمنح خباءً وثلاثة من الرقيق ليقوموا بخدمته، وعندئذ يستحق المملوك لقب عريف الدار، ويضع على رأسه طاقية من الجوخ الأسود الموشاه بالفضة كما يرتدي قباءً حريراً ثم يأخذ مملوك في الترقى عاماً بعد عام وتزداد حاشية تدريجياً على أن يصل إلى أن يصل إلى مرتبة صاحب الخيل ثم حاجب الحاجب، ولا يأخذ المملوك لقب أمير ولا يتولى عملاً كبيراً مثل القيام على ولاية من الولاية أو فرقة من الفرق العسكرية إلا بعد أن ينضج وسن النضوج في العادة هو سن الخامسة والثلاثين"

الجيش وادارة الاسلام (المغرب والاندلس)

و إكمالاً لما ذكرناه في المحاضرة السابقة عن إدارة الجيش في الدولة الإسلامية ، حيث يضيف الوزير نظام الملك في كتابه مسار الذكر أن هذا النظام العسكري التربوي الساماني قد طبق على أيامه في القرن الخامس الهجري في دولة الأتراك السلاجقة و الذين أكثروا من جلب المماليك من بلاد القفجان شمالي البحر الأسود واهتموا بتربيتهم وتدريبهم ثم أطلقوا على كبارهم أسم الأتابكة وهي جمع أتابك ومعناها الوالد الأمير لأنهم جعلوهم مربين لأولادهم القصر ومنحهم الإقطاعات الكبيرة مقابل قيامهم على شؤون هؤلاء الأبناء وتاديتهم الخدمة العسكرية وقت الحرب، ولكن سرعان ما صار هؤلاء الأتابكة أصحاب النفوذ الفعلي في تلك الإقطاعات، وانتهزوا ضعف الدولة السلجوقية فيما بينهم ما عدا الفرع الرومي في آسيا الصغرى. فإنه ظل في حوزة السلاجقة أنفسهم حتى أتى العثمانيون واحتلوا تلك البلاد في القرن الثامن الهجري والدول الأتابكية كثيرة العدد وبيوتها لا تنتهي إلى نسب واحد، إلا أنها يجمعها صفة المملوكية والاتصال بالبيت السلجوقي، والنظام الإقطاعي الإسلامي، ومن ممالك السلاجقة الذين صاروا أتابكة، الأمير عماد الدين زنكي مؤسس أتابكية الموصل وحلب، وهو ابن قسيم الدولة أقي سنقر أحد ممالك السلطان السلجوقي ملكشاه، وعن طريق زنكي وأبنة نور الدين زنكي، كان ظهور صلاح الدين الأيوبي الذي تأثر بالنظم السلجوقية وإليه يرجع الفضل في انتقال تلك النظم والإدارة العسكرية إلى مصر حيث بقيت عدة قرون زمن الأيوبيين، ثم بعد ذلك دولة المماليك الأتراك التي تبلورت فيها خلاصة وحصيلة هذه النظم التربوية العسكرية الإسلامية السابقة، ولهذا استطاعت هذه الدولة أن تقهر المغول شرقاً وتطرد الصليبيين من فلسطين وأجزاء أخرى من بلاد العرب والمسلمين غرباً وفي آن واحد.

وإذا كان العنصر التركي قد سيطر على جيوش الدول التي قامت في الجزء الشرقي من الخلافة العربية الإسلامية والتي كان يمثلها العباسيون فإن هناك عنصراً آخر من المماليك وهم الصقالبة قد لعبوا دوراً هاماً في جيوش الجزء الغربي أو مغرب الدولة العربية الإسلامية آنذاك ونقصد به المغرب والأندلس. وكلمة صقلب وصقالبة أطلقها الجغرافيون العرب في العصور الوسطى على الشعوب السلاقية، لأن الجرمان دأبوا على سبي تلك الشعوب وبيع رجالها ونسائها إلى عرب أسبانيا، ولذا أطلق عليهم العرب أسم الصقالبة وهو تعريب لكلمة أوروبية أسكلاف **Esclave** أو سلاف **Slave** ومعناها عبد أو رقيق وهي الكلمة التي سميت بها الشعوب السلافية، ثم توسع العرب في استعمال هذا الاسم فأطلقوه على أرقائهم الذين جلبوا صغاراً من مختلف نواحي أوروبا بصفة عامة ومن شمال أسبانيا بصفة خاصة ثم ربوهم تربية عسكرية إسلامية

ووضعوهم في معسكرات خاصة بجوار قصر الإمارة ومنعوهم من الاختلاط بالأهالي شأنهم في ذلك شأن المماليك الأتراك في الشرق الإسلامي. كانت جيوش المغرب والأندلس في بادئ الأمر تقوم على أساس النظام القبلي والعشائري وكان يتكون من العرب والبربر، وكانت الدولة تستمد منهم القوة الحربية العسكرية على أساس النظام الإقطاعي العسكري المعروف في العصور الوسطى في مشرق ديار الإسلام وفي مغربها، فقبائل العرب والبريد التي حلت بالأندلس مثلاً قد وزعي على القرى والمدن الأندلسية وأعطى لها حق الأراضي في تلك القرى أو المدن وكذلك جباية الأموال من أهلها، فكانت تأخذ عطاءها من هذه الأموال وترسل الفائض إلى خزانة الدول، وفي مقابل هذا الإقطاع كان على كل قبيلة أو عشيرة تساهم بعدد من أبنائها في حالة الحرب وظل هذا النظام العسكري هو النظام المتبع في الأندلس حتى أيام الأمير الأموي الحكم بن هشام والملقب بالربضي وهو حفيد عبد الرحمن الرحيم الداخل، فقد رأى هذا الأمير أن يقيم إلى جانب النظام الإقطاعي نظاماً عسكرياً دائماً يعتمد عليه في كل وقت ويتقاضى جنوده مرتباً ثابتاً من الدولة وقد جاء هذا التغير نتيجة لثورة خطيرة قامت في ريبض من أرباض قرطبة "أي ضواحيها" كادت تطيع بعرض هذا الأمير، ولكنه تمكن من القضاء عليها قضاءً مبرماً لدرجة أن أسمه صار مقترناً بها فقيل "الحكم الربض" وقد رأى هذا الأمير عقب ذلك أن يتخذ لنفسه فرقة من الحرس الإشارة إليهم، وهم في الأصل كانوا مسيحيين وجلبوا صغاراً واعتنقوا الإسلام وربوا تربية عسكرية إسلامية، وأستطاع بعضهم أن يصل إلى منصب القيادة والرئاسة في الدولة، وهكذا وجد في الدولة الأموية في الأندلس نظام الدائم أو المحترف كما يسمى وكان مقر ذلك الجيش العاصمة قرطبة، أما نظام القبائل والعشائر التي كانت تقيم في البوادي والولايات.

ولكن يبدو أن هذا الوضع الجديد قد أثار الحسد والتنافس بين هذه العناصر المختلفة، ونلاحظ ذلك بوضوح في الهزيمة التي مني بها الخليفة الأموي في الأندلس عبد الرحمن الناصر أمام الأسبان في موقعة شمنقة وذلك سنة 27 هـ في شمال مدريد، والسبب في هذه الهزيمة أن الخليفة الناصر منح قيادة جيوشه لمملوكه نجدة الصقلبي، فأثار بذلك غضب القواد العرب، فتخلوا عنه أبان المعركة مما أدى إلى هزيمته وقتل قائده نجدة الصقلبي. ولما جاء الحاجب المنصور بن أبي عامر وقبض على زمام الأمور في الأندلس سنة 371 هجرية، رأى أن إدارة الجيش بهذه الطريقة كفيل بأن يخلق الحزازات والفتن بين عناصر الجيش وقواده، ولهذا عدل لقيادته، فألغى العنصرية في ترتيب الجيش كما ألغى النظام الإقطاعي العسكري، بمعنى أنه جعل الجيش نظامياً دائماً يتكون من فرق متعددة، وكل فرقة تتألف من جميع هذه العناصر المختلفة كعرب،

والبربر والصقالبة، وكل جندي من هؤلاء يتقاضى مرتباً شهرياً من الدولة حسب رتبته بدلاً من استغلاله للإقطاع كما كان الحال سابقاً، ولقد أفاد هذا النظام الإداري الجديد في بادئ الأمر إذ زالت العصبية العنصرية بين فرق الجيش وأستطاع المنصور بن أبي عامر يفرض على الجيش نفوذه وسلطانه وأن يحرز انتصاراته الحربية المشهورة ضد الأسيان.

- إلا أن هذا لم يدم طويلاً إذ بعد موت المنصور سنة 392 وأبنة عبد الملك المظفر سنة 399 هـ دب الفساد في جسم الدولة، فلم تستطيع الحكومة دفع رواتب الجند فكثر شغبهم، وانتقل الفساد إليهم فضعفوا وهزموا أمام العدو وظل الحال على هذا الوضع إلى أن جاء المرابطون في القرن الخامس الهجري فأرأوا أن خير وسيلة لإصلاح الجيش هو إعادة النظام الإقطاعي العسكري من جديد وفي ذلك يقول المؤرخ الأندلسي المعاصر أبو بكر الطرطوشي توفي سنة 520 هـ في كتابه سراج الملوك "سمعت بعض شيوخ الأندلس من الأجناد وغيرهم يقولون: ما زال أهل الإسلام ظاهر بن علي عدوهم، وأمر العدو في ضعف وانتقاص، كما كانت الأرض مقطعة في أيدي الأجناد، فكانوا يستغلونها ويرفقون بالفلاحين ويربونهم كما يربي التاجر تجارته وكانت الأرض عامرة والأموال وافرة والأجناد متوافرين والكرام والسلاح فوق ما يحتاج إليه، إلى أن كان الأمر في آخر أيام بن أبي عامر، فرد عطايا الجند مشاهرة بقبض الأموال، وقدم على الأرض حياة يحبونها فأكلوا الرعايا، واجتاحوا أموالهم واستضعفهم فتهاربت الرعايا وضعفوا في العمارة، فقلت الجبايات المرتفعة إلى السلطان، وضعف الأجناد وقوي العدد على بلاد المسلمين نقص وأمر العدو ظهور إلى أن دخلها المثلثون "ويقعد هنا المرابطون" فردوا الإقطاعيات كما كانت في الزمان القديم".

ولا بد من الإشارة إلى أن ما حدث في الأندلس حدث أيضاً في المغرب الأقصى، من حيث أعماد الحكام على قبائل وعشائر العرب والبربر في تكوين الجيش هناك، وكذلك عملوا على نفس النظام الإقطاعي العسكري من حيث استخدام أولئك في البوادي، وكذلك استخدموا حكام أهل المغرب الصقالبة كحرس في الحواض والعواصم التابعة لهم.

والمصادر التاريخية تقول لنا أن هؤلاء الصقالبة جاءوا إلى المغرب أطفالاً من سبي إيطاليا وسواحل دالماسا وأنه كانت توجد في مدينة بلرم في شمال جزيرة صقلية العربية حارة الصقالبة وصفها الرحالة ابن حوقل كمدينة عامر مما يرجع أنها كانت نقطة تجمع وأعداد للرقيق الصقلبي قبل إرساله إلى المغرب. ويشير المؤرخ لسان الدين بن الخطيب إلى أن الأغالبة والفاطميين من بعدهم، اعتمدوا على الصقالبة في جيوشهم، ويضرب مثلاً على ذلك بزيادة الله الأغلبي

حينما فر إلى مصر بعد زوال ملكه على يد الفاطميين، بأنه أنتخب من مماليكه الصقالبة ألف خادم وجعل على وسط كل واحد منهم ألف دينار، كذلك يرجح المستشرق التشكوسلوفافي هربك أن القائد الفاطمي المعروف ب جوه الصقلبي كان صقلبياً وليس صقلياً، ويدلل على ذلك، بأن جزيرة صقلية كانت وقتئذٍ في يد المسلمين وأهلها أهل ذمة لا يخضعون للرق ويفترض أن جوهراً جاء إلى المغرب عن طريق صقلية ، حيث توجد حارة الصقالبة كما أشرنا لذلك فنسب إليها رغم كونه صقلبياً.

ومن الطرائف التي يذكرها التاريخ أن الدولة الفاطمية حينما استقرت في مصر، استخدمت في جيوشها عناصر من المماليك الأتراك إلى جانب عناصر من المماليك الصقالبة، فهي بهذا الجمع بين الطرفين من المماليك تعتبر الدولة الإسلامية الوحيدة التي جمعت وعلى نطاق واسع بين الأتراك والصقالبة أي بين مماليك المشرق والمغرب، أي بين الرقيق الذي جيء به من الشرق والرقيق الذي جيء به من الغرب.

ادارة القضاء

القضاء منصب رفيع قد يأتي بعد الخلافة مباشرة، لأن صاحبه يمثل اشرع وأحكام الدين، حقيقة أن الوزارة كانت أوسع سلطة ونفوذاً، غلا أنها كانت تعتبر من توابع الخلافة أي أنها لم تكن مستقلة تمام الاستقلال أما القضاء فكان مستقلاً في إدارته ولا يقبل أي تدخل من جانب السلطة التنفيذية، ولهاذ كان كثيراً من العلماء يمتنعون عن قبول منصب القضاء خوفاً من تدخل السلطة الحاكمة في شؤونهم وقد نال بعض هؤلاء العلماء أذى كبير جراء رفضهم منصب القضاء، مثال على ذلك الإمام أبو حنيفة النعمان توفي سنة 150 هجرية، والذي اعتذر عن تولي منصب القضاء في عهد الخليفة أبو جعفر المنصور، وذلك لكونه يخش أن يحمله الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور على الإفتاء بما يخالف الشريعة الإسلامية وبما لا يتفق مع ذمته وضميره، ونتيجة لهذا الرفض عاقبة الخليفة أبو جعفر المنصور بالسجن ثم عفا عنه الخليفة بعد ذلك وإلى جانب استقلال القضاء عن السلطة التنفيذية، فإن القاضي كان يتمتع بمكانة كبيرة بين جمهور الناس من أنه المنفذ لأحكام الشريعة والدين.

كيف تطور القضاء في الإسلام

على الرغم من أن العرب قبل الإسلام، لم تكن لهم سلطة تشريعية تسن لهم القوانين، إلا أنه يمكن القول بأن فكرة القضاء نبتت عند العرب قبل الإسلام وكانوا يعتمدون في أحكامهم على مصادر مختلفة ونذكر منها الآتي:-

1- الأعراف والتقاليد المستمدة من تجاربهم.

2- الأحتكام إلى العرافين والكهان.

3- الأحتكام بالقرعة.

4- النظر في المظالم ورد حقوق المظلومين، وقد شهد الرسول محمد □ في صباه مجلساً من هذا النوع، تحالف فيها القرشيون على نصره المظلوم من الظالم وهو ذلك الحلف المعروف حلف الفضول.

5- وجد عند العرب قديماً ما يسمى بالحكومة، وهي لا تعني جهاز الحكم كما هو معروف حالياً وإنما كانت بمثابة مجلس قضائي لتقدير الضرر والتعويض عنه وكانوا بنو سهم هم أصحاب الحكومة في قريش، وإليهم كان يحتكم القرشيون وغيرهم من العرب الذين يغدون إلى مكة فيما كان يقع بينهم من خصومات. ولما جاء الإسلام، احتكم المسلمون الأوائل إلى الرسول محمد ٢ ، وأعتبر حكمه ملزماً حين نزلت الآية (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً).

وبذلك يعتبر الرسول محمد ٢ أول قاضي في الإسلام. وكان يحكم بين الناس بما ينزله الله عليه من الوحي، كما يستشير أصحابه، ويجتهد في بعض الأحيان، أما طرق الإثبات عند الرسول ٢ البينة واليمين وشهادة الشهود وكان ٢ يقول في هذا الصدد "البينة على من أدعى واليمين على من أنكر".

ولما أنتشر الإسلام وتوسعت رقعة داخل الجزيرة العربية سمح الرسول ٢ لبعض أصحابه بالقضاء بين الناس بالكتاب والسنة والاجتهاد، ولما ولي الخلافة أبو بكر الصديق □ أسند منصب القضاء إلى عمر بن الخطاب، فمكث عمر سنتين لا يأتيه متخاصمان لشدة وحزمه، ولم يتخذ عمر بن الخطاب لقب قاضي.

ولما ولي عمر بن الخطاب t الخلافة أوكل مهمة القضاء في المرحلة الأولى للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ولعثمان بن عفان t ولما توسعت الدولة في زمانه وقامت حروب التحرير والفتوح وأصبحت بعض الناطق بعيدة جداً عن المدينة وانشغال الخليفة وأصحاب رسول الله بأمر نشر الإسلام والأمور السياسية، أصبحت الحاجة ماسة إلى أفصل بين السلطتين القضائية

والتنفيذية، لتتسع رقعة الإسلام وانتشاره وعدم قدرة الخليفة والولاة في الجمع بين السلطتين، فالخليفة عمر بن الخطاب يعتبر أول من عين القضاة في ولايات الدولة العربية الإسلامية للفصل في الخصومات طبقاً لأحكام القرآن والسنة والاجتهاد وكان الخليفة الفاروق يراعي عند اختيار القاضي، غزارة العلم والتقوى والعدل وأستمر القضاء مستقلاً عن السلطة التنفيذية وبعيداً عن المؤثرات السياسية في عصر الدولة الأموية حيث كان القضاة يحكمون بالكتاب والسنة وما يوحيه إليهم اجتهادهم إذ لم تكن المذاهب الفقهية موجودة آنذاك، والتي أخذ القضاة التقيد بها بعد ذلك والتي ظهرت فيما بعد، ولم يكن فرق بين قاض وآخر إلا من ناحية اتساع دائرته.

أما في عصر الدولة العباسية، تطور نظام القضاة نتيجة لظهور المذاهب الفقهية المعروفة في عهدها، فأصبح القاضي ملزماً بأن يصدر حكمه وفق أحد هذه المذاهب، فكان القاضي في العراق يحكم وفق مذهب أبي حنيفة النعمان في الشام والمغرب والأندلس وفق مذهب مالك بن أنس، وفي مصر وخلق مذهب الشافعي وهكذا، وقد نتج عن ذلك ضعف روح الاجتهاد في الأحكام. هذا ويلاحظ أن الدولة العربية الإسلامية في زمن بني العباس قد تطورت إدارتها فأستحدث منصب قاضي القضاة أو رئيس القضاة، وهو أعلى الوظائف الدينية قدراً ورتبة، فهو قاضي الدولة كلها ومن سواه من القضاة في الولايات والأقاليم والأمصار نواب عنه فهو الذي يتصرف بالقضاة تعيين وعزلاً ويمثل وزير العدل اليوم، وأنه لتطور إداري مهم ينم على المستوى الذي وصلت إليه الدولة العربية الإسلامية آنذاك.

ولهذا كان يلقب بقاضي القضاة تفريقاً عن عاداه من القضاة والذي يلقب بالقاضي فقط أو قاض بلد كذا.

وأول من لقب بهذا اللقب أي قاضي القضاة في بغداد وهو القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب كتاب الخراج وكان هذا الرجل حجة في الفقه الحنفي، وتم ذلك في عهد الخليفة هارون الرشيد ولم يلبث هذا النظام أن انتقل إلى القاهرة أيام الفاطميين حيث كان كبيراً القضاة يسمى أيضاً بقاضي القضاة. وفي الأندلس كان كبير القضاة يسمى أول الأمر بقاض الجند، لأن العرب والمسلمين في الفترة الأولى من فتح الأندلس كانوا تقريباً كلهم جنود، وعندما استقرت الدولة على عهد عبد الرحمن الداخل الأمير الأموي الذي دخل الأندلس هرباً من المشرق الإسلامي بعد سقوط دولة بني أمية واعتلاء الخلافة من قبل العباسيين، وصارت قرطبة هي العاصمة سمي بقاضي الجماعة أي قاض الحضر أو العاصمة وكان مقره الدائم في قرطبة، ويقصد بالجماعة الجماعة الإسلامية التي استقرت في العاصمة الجديدة قرطبة.

وهناك ملاحظة لا بد من الإشارة إليها وهو ودود فرقا كبيرا بين منصب قاضي القضاة في المشرق ومنصب قاضي الجماعة في الأندلس، فقاضي القضاة في بغداد أو القاهرة هو قاضي الدولة كلها، ومن سواه من القضاة في الولايات فهم نواب عنه ويتم تعيينهم وعزلهم على يديه وبأمر منه.

أما قاضي الجماعة في الأندلس فإن سلطة تقتصر على العاصمة قرطبة والمناطق المحيطة بها أي ضواحيها فقط، ومن هذا يتضح أنه لم يكن له سلطان على بقية القضاة في الأندلس أي ولايات أو أقاليم الأندلس، فالقضاة في المناطق الأخرى من بلاد الأندلس، هم مستقلون عن قاض قرطبة وليس نواب عنه، وبمعنى أوضح أن قاضي الجماعة لا يتميز عن بقية القضاة إلا من الناحية الأدبية فقط بحكم كونه قاضياً للعاصمة ومستشاراً وإماماً للصلاة في يوم الجمعة وأيام الأعياد.

وهنا يمكن القول بشكل واضح أن القضاء في المشرق اتسم بطابع المركزية بينما أتبع في الأندلس الإدارة اللامركزية في القضاء، وكانت جلسات القاضي إما في المسجد الجامع أو في أي مسجد من المساجد، لأن المساجد في ذلك الوقت لم تكن قاصرة على الصلاة فقط، وإنما كانت بمثابة المحكمة للفصل في أمور الناس، وكذلك مدرسة للتعليم، والجمعية الوطنية أو المجلس الوطني الذي يناقش فيه قادة الأمة والجمهور مشاكلهم وقضاياهم وفي أحيان كثيرة كان المسجد هو مكان بيت المال الذي تحفظ فيه أموال الدولة.

كيفية حل الخلاف بين المسلم وغير المسلم

أما في القضايا التي تقع بين المسلمين وغير المسلمين "أهل الذمة" فكان ينظر فيها قضاة مسلمين ويحكمون فيها بشريعة الإسلام، ومنعاً للحرص الذي قد يقع فيه غير المسلم، كان القاضي يعقد جلسة القضاء وذلك بجلوسه في رحبات المسجد الخارجية كي يستطيع النصراني أو اليهودي أو غيرهما أن يصل إلى القاضي.

أما كيف تحل القضايا بين غير المسلمين

أما القضايا التي تقع بين "أهل الذمة" أي الصراعات التي تحصل فيما بينهم، فكان ينظر فيها قضاة منهم يسمون بقضاة العجم ونظراً لكثرة هؤلاء في الأندلس وخصوصاً المسيحيين فقد دخلت كلمة قاضي إلى اللغة الأسبانية **Alcalde** وإن كان مدلولها آخذاً استعماله يقع قبل مرور الزمن وقد تغير مفهوماً فهي تعني اليوم العمدة أو شيخ القرية.

ويذكر المؤرخ محمد بن حارث الحنشني توفي سنة 360هـ في كتابه الموسوم القضاء بقرطبة، إلى أن معظم قضاة الأندلس كانوا يتكلمون اللغة الأعجمية أو الرومانية أي الأسبانية القديمة، ويناقشون بها المتهمين الأسباب المسيحيين، وهذه ظاهرة اجتماعية هامة ترينا إلى أي حد انتشرت اللغة الأسبانية بين مسلمين الأندلس.

أما من أين يتقاضى القضاة رواتبهم، فهي من الدولة وكانت مرتفعة سواء في المشرق الإسلامي أو المغرب الإسلامي، وذلك لكي يستفتي القاضي عن الناس وصيانة كرامته.

هذا وكان يوجد في الأندلس حق الأستناف فالخصم الذي لا يرضيه حكم القاضي يستطيع أن يتظلم أمام قاضي آخر يسمى صاحب الرد كان ينظر بالقضية مرة ثانية، فإذا وجد فيها مظلمة ردها للقاضي أو رفعها للسلطات كي يصدر فيها حكمه بعد استشارة مجلس المشورة أو الشورى الذي كان يضم قضاة للفتوى، ويبدو أن ولاية الرد لم تكن موجودة إلا في المغرب والأندلس فقط إذا إن فقهاء المشرق ولا سيما أبا الحسن الماوردي لم يذكر في كتابه الأحكام السلطانية، لقد وجد بالمشرق ما يسمى بديوان المظالم ولك لم تكن له فيما يبدو صفة دائمة.

الإدارة المالية في الدولة الإسلامية

تعمل السياسة المالية لكل دولة على تحقيق التوازن بين مواردها ومصارفها، وقد سارت الدولة العربية الإسلامية على هذه السياسة منذ نشأتها، فأنشأت بيتاً للمال والذي يقوم على صيانته وحفظه والتصرف فيه للمصالح العامة للمسلمين، وهو بهذا يشبه وزارة المالية في عصرنا الحالي وصاحبه يقوم بمهمة وزير المالية.

والمال الوارد إلى بيت المال، إما أن يكون ضريبة عن الأرض أو عن أشياء أخرى من غير الأرض كأن تكون موارد مالية من الفياء والغنائم والركاز، أو كجزية الرؤوس التي يدفعها أهل الكتاب عن أشخاصهم، والعشر الذي يدفعه

المشركون عن متاجرهم وسفنهم التي تدخل بلاد الإسلام والمسلمين وموائمهم، ويسمى العشور كما كانت ترد إلى بيت المال التي لم يعلم لها مستحق كاللقطة وتركة من لا يرث وارث له، والأموال التي يصلح عليها المسلمون أعدائهم ونحو ذلك، وسوف نعطي إيجاز عن كل مورد من الموارد المالية التي ترفد بيت المال بالأموال.

أولاً : الخراج

والخراج هو مقدار معين من المال أو المنتجات الزراعية وغيرها، يفرض على الأراضي التي تم فتحها عنوة من قبل المسلمين، إذا عدل الخليفة عن تقسيمها على المحاربين ووقفها على مصالح المسلمين بعد ن يعوض المحاربين عن نصيبهم فيها أو يسترضيهم كما فعل الخليفة عر بن الخطاب □ ويؤخذ كذلك عن الأراضي التي أفاء الله بها على المسلمين فملكوها وصالحوا أهلها على أن يتركوهم فيها بخراج معلوم يؤدونه إلى بيت المال. وكانت هناك ثلاثة أنواع من الأراضي لا يفرض عليها الخراج وإنما يدفع عنها أصحابها عشر ثمارها وغلاتها، وهذه الأراضي تسمى العشرية، وقد ذكر الماوردي، هذه الأنواع فقال:

1- الأراضي التي أسلم أهلها وهم باقون على زراعتها وإدامتها بدون حرب، فهذه كانت تترك لهم على أن يدفعوا عنها ضريبة العشر زكاة، ولا يجوز بعد ذلك أن يوضع عليها خراج.

2- الأراضي التي ملكها المسلمون عنوة إذا قسمها الخليفة عليهم فهذه تعتبر أرض عشر ولا يجوز أن يوضع عليها خراج.

3- الأراضي التي كانت تؤخذ من المشركين عنوة، وهذا تعتبر غنيمة تقسم بين المقاتلين فيملكونها ويدفعون عنها العشر من غلاتها، وحينئذ تكون أرض عشر لا يوضع عليها خراج.

وكان الخراج إما شيئاً مقدراً من المال أو غلة كما صنع الخليفة عمر بن الخطاب ؓ في أرض العراق، وإما حصة معينة مما خرج من الأرض، ويطلق على ذلك المعاملة أو المزارعة، كما عامل النبي محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، أخل خيبر على نصف ما يخرج من الأراضي العائدة لهم قليلاً

كان أو كثيراً وقد مسحت أرض العراق في زمن عمر بن الخطاب t فبلغت 36.000.000 جريباً، فوضع عليها مقادير معينة من الدراهم تختلف باختلاف مقدار الأرض من درهمين إلى عشرة دراهم عن كل جريب وبلغ ما جمع من خراج العراق في عهد الخليفة عمر بن الخطاب 18.000.000 درهم، وعليه يكون متوسط جباية الجريب 3.555 درهم فإذا كان الفدان يساوي 315 من الأجرية فتكون ضريبة المزرع قمحاً 14 درهماً.

وقد اختلف المؤرخون في تقدير الخراج، فقصره بعضهم على جزية الرؤوس التي فرضت على أهل الذمة، وقصره غيرهم وكل منها يخالف ما جرى به عرف الرواة الذين تحدثوا عن مقدار الخراج في الولايات، فهم يعنون بالخراج المال الذي يأتي من إحدى ناحيتين:

1- الضرائب الشخصية المعروفة بالجزية أو جزية الرؤوس.

2- ضرائب الأطيان

ولهذا نجد أن المؤرخون قد اختلفوا في تقدير الخراج ولم يكن الخراج إيراداً ثابتاً للدولة، إذ كانت ضريبة الأطيان تقل وتكثر حسب الاهتمام بالتعمير وإصلاح الجسور والخلجان وتحسين وسائل الري، كما أن جزية الرؤوس كانت تتناقص بالتوالي لدخول أهل الولايات ضمن الدولة العربية الإسلامية في الإسلام.

وقد تناول المارودي الكلام عن الخراج فقال "فأما الخراج فهو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدي عنها، وفيه من نص الكتاب بينة خالفت نص الجزية، فلذلك كان موقوفاً على اجتهاد الأئمة" والماوردي أشار إلى تمييز أرض الخراج عن أرض العشر في الملك والحكم وإلى ذلك.

يقول المارودي "أما الأرضون إذا استولى عليها المسلمون فتنقسم ثلاثة أقسام أحدها ما ملكت عنوة وقهراً حتى فارقوها بقتل أو أسر أو جلاء، فقد اختلف الفقهاء في حكمها بعد استيلاء المسلمين عليها، فذهب الشافعي على أنها تكون غنيمة كالأموال، تقسم بين المقاتلين إلا أن يطيّبوا نفساً بتركها فتوقف على مصالح المسلمين.

وكان الخلفاء يعينون عمالاً مستقلين عن الولاية والقواد لجباية الخراج، فيدفعون منه أرزاق الجند وما تحتاج إليه المصالح العامة، ويرسلون الباقي إلى بيت المال ليصرف فيما خصص له.

وذكر قاضي القضاة أبو يوسف في كتابه الخراج الصفات التي تتوافر فيمن يتولى جباية الخراج فقال، إنه يجب أن يكون فقيهاً، عالماً، مشاوراً لأهل الرأي، عفيفاً لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يخاف منه جور في حكم إن حكم"

وفي ناقلة القول أن العهد الراشدي للخلفاء الأربعة صحابة رسول الله محمد ، □
□ عهد عدل وتسامح لم يشدد فيه الولاية في جمع الجزية، وكانت الضرائب على الأرض تقدر على حسب مساحة الأرض ومبلغ جودتها ونوع المحصول، ولم تكن تدفع نقداً بل كان بعضها يدفع عيناً، وقد عني الولاية بأمر الري لضمان جباية الخراج، فعنوا بمراقبة السدود وإنشاء الترع والجسور والعمل على صيانتها وكريها (أي تطهيرها)، وكانت الضريبة تخفض إذا قل المحصول لسبب من الأسباب.

وكان لجباية الخراج نوعان أو نظامان:

1- نوع أو نظام المقاسمة

2- نوع أو نظام الألتزام.

في الحالة الأولى ترى الخلفاء يشرفون بأنفسهم على جباية الخراج ويحاسبون الولاية وعمال الخراج حساباً عسيراً. وبلغ من شدة مراقبة الخليفة عمر بن الخطاب لعماله أنه كان يحصي أموالهم قبل توليتهم، فإذا أنتهت ولايتهم أحصى ثروتهم من جديد وما زاد صادرهم فيه كله أو بعضه ورده إلى بيت المال، إلا إذا أتضح له أن هذه الزيادة أتت إلى العامل بطرق مشروعة.

أما النظام الثاني أو النوع الثاني فإنه يرجع إلى عهد الرسول محمد □، فقد أقطع أناساً من مزينة أو جهينة أرضاً بقصد تعميرها فلم يعمروها، وجاء آخرون فعمروها، فأختصم الجهنيون والمزنيون إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال ((من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها)).

وأقطع عثمان بن عفان رضي الله عنه عبد الله بن مسعود النهرين وأقطع سعد بن أبي وقاص قرية هرمز.

ويقول المقرئزي، إن الخلفاء الأمويين والعباسيين كانوا يقطعون أرض مصر لنفر من خوصهم، ومن خراج مصر تصرف أعطيات الجند وما تتطلبه مرافق الدولة وما بقي يرسل إلى بيت المال وما أقطع من الأراضي يبقى بيد من آل إليه.

وقد ذكر الماوردي في الأحكام السلطانية، نوعي الإقطاع فقال إنه ضربان، أقطاع أستغلال و

أقطاع تمليك، والثاني ينقسم إلى موات وعامر، والثاني ضربان، أحدهما ما يتعين مالكة ولا نظر للسلطان فيه إلا بتلك الأراضي في حق لبيت المال إذا كانت

في دار الإسلام، فإن كانت في دار الحرب ولم يثبت المسلمين عليها يد فإنه يجوز أن يقطعها الإمام المقطع ليمتلكها.

وقد أوضح السيرجروهان طريقة تأجير أرض الدولة في العهد العربي الإسلامي، أو قبالة (أي كفالة) فقال ((إن ذلك كان يحصل على طريقة المزاد على يد متولي خراج مصر بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط ينادي على الأرض جزءاً أو كورة ((مجموعة)) ويعطى لمن يرسو عليه المزاد لمدة أربع سنوات)) وإلى ذلك يشير المقرئ حيث يقول ((إن متولي خراج مصر كان يجلس في جامع عمرو بن العاص في الفسطاط في الوقت الذي تنهياً فيه قبالة الأراضي (أي من يريد تأجير الأراضي)، وقد أجمع الناس من القرى والمدن، فيقوم رجل ينادي على البلاد صفقات صفقات، وكتاب الخراج بين يدي متولي الخراج يكتبون ما أنتهي إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس، وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الضمان أو الأستئجار وغير ذلك، فإذا أنقض ذلك الأمر خرج كل من كان تقبل أرضاً وضمها إلى ناحيته، فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك، ويجعل من عليه من الخراج في إبانة على أقساط ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الأراضي ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجانها بضريرة مقدرة في الخراج، ويتأخر من مبلغ الخراج في كل سنة في جهات الضمان والمتقبلين)).

ثانياً العشور :

يرجع نظام العشور إلى عهد الخليفة الثاني عمر الفاروق رضي الله عنه، فقد كتب إليه أبو موسى الأشعري، أن تجاراً من المسلمين يأتون أرض الحرب (أي بلاد الكفار والذين ليس بينهم وبين المسلمين عهد) فيأخذون منهم العشر. فكتب عمر بن الخطاب (رضي) خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين، وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين درهماً من كل أربعين درهماً، ولا تأخذ منهم قيماً دون المائتين شيئاً، فإذا بلغت مائتين ففيها خمسة دراهم. وقد نص الشرع على أخذ العشر من سلع تجار الكفار التي يقدمون بها من دار الحرب إلى دار السلام إذا شرط ذلك عليهم، وقد أفتن الإمام الشافعي بأن للإمام أن يزيد عن الشعر وأن ينقص منه إلى نصف العشر، وأن يرفع ذلك عنهم إذا رأى في ذلك مصلحة، ولا يزيد أخذ العشر على مرة من كل قادم في التجارة في السنة الواحدة ولو تكرر قدومه، كانت هذه الضريبة لا تؤخذ من التاجر إلا إذا أنتقل من بلاده إلى بلاد أخرى.

الإدارة المالية في الدولة الإسلامية

ومن مصادر بيت المال الأخرى إضافة لما ذكرناه في المحاضرة السابقة هناك مصادر أخرى لبيت المال ذات أهمية في رقد الأموال عند الدولة العربية الإسلامية.

ثالثاً: الزكاة

الزكاة والصدقة شيء واحد من أركى الشيء يزيكه إذا نماه، أو من زكاه تزكية إذا طهره، وإنما سميت بذلك للإشارة إلى أن إخراج شيء من مال الإنسان والتصدق به كفيل بتنمية هذا المال وإنزال البركة فيه، وأيضاً لأن إخراج شيء من المال يطهره ويبعد عن صاحبه نظرة الحقد والحسد ويذهب عن نفس صاحبه الشح والأثرة، قال تعالى "خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم" سورة البقرة/آية 261.

والزكاة هي كل ما يؤخذ من أموال الأغنياء ويوزع بين فقراء المسلمين، وكان للصدقة ديوان خاص بها في دار الخلافة العربية الإسلامية وله فروع في سائر

الولايات الإسلامية، فكان على المسلمين أن يؤدوا الزكاة بمقدار ربع الشعر وهذا يعني (2.5%) عما يمتلكونه من المال، وهذه هي زكاة النقد أو النقدين (أي الذهب والفضة).

أما زكاة السوائم وهي الإبل والغنم ويلتحق بها الماعز وبقية المواش، فكانت تؤخذ بمقدار واحدة من أربعين فما فوق إلى مائة، ثم يبتدئ من 101 إلى 200 بمقدار واحدة في كل مائة، وإلا بل عن كل خمس شاة إلى أربع وعشرين) فإن كانت خمساً وعشرين فعليها بنت مخاض (ناقة صغيرة بنت سنة أو أقل). أما الجاموس والبقر كل ثلاثين عليها واحدة بنت سنة، فإذا بلغ العدد ستين كانت بمقدار واحدة بنت سنتين، والخيل إذا أعتبرت آلة من آلات الحرب فلا زكاة عليها، كل ذلك إذا كانت الحيوانات تأكل من الكلاً المباح، فإن علفها صاحبها فلا زكاة فيها، وإذا دخلت في التجارة فنقوم ويدفع عنها زكاة التجارة. أما زكاة عروض التجارة فهي ربع العشر بشرط أن تبلغ قيمتها نصاباً من الذهب أو الفضة، وأن يحول عليها الحول.

أما زكاة المعادن والركاز، وهو مال وجد تمت الأرض سواء كان معدناً خلقه الله تعالى بدون أن بضعة أحد فيها أو كان كنزاً دفنه الكفار، فقد قال في ذلك الحسن البصري: ما ان من ركاز في أرض الحرب ففيه الخمس، وما كان في أرض السلم ففيه الزكاة وهو ربع العشر.

وأما زكاة الزرع والثمار فيجب فيها الشعر إذا كانت خارجة عن أرض تسقى بالمطر أو السيح ونصف العشر إذا كانا خارجة من أرض تسقى بالدلاء ونحوها، وأن يكونا خارجا منهما مما يقصد بزراعته استغلال الأرض ونماؤها. وكانت الزكاة تقسم على الأشخاص المذكورين في قوله تعالى "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم" سورة التوبة آية

.60

رابعاً : الجزية

وهي من موارد بيت المال المهمة، وهي مبلغ من المال يحدد بدفعه من توافرت فيه شروط خاصة. وهي تشبه الخراج في أن كل منهما جزء من الفيء يجيء في أوقات معينة من كل سنة، ولكنهما يختلفان في أن الجزية موضوعة على الرؤوس وتسقط بإسلام الشخص الذي كانت عليه جزية، وفي أنها قد تثبت في نص في القرآن الكريم في قوله تعالى "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون" سورة التوبة/ آية 29.

في قول عن زيد أي عن قدرة وهذا يعني في قوله تعالى أن الذين تأخذ عنهم الجزية يمكن أن تجري عليهم أحكام الإسلام أي تسقط عنهم في حالة إسلامهم، عكس الخراج تماماً لا يسقط بإسلام صاحب الملك أو المالك هذا من جانب ومن جانب آخر إنما تثبت الخراج بالأجتهد.

وإنما وجبت الجزية على أهل الكتاب كما وجبت الزكاة على المسلمين حتى يتكافأ الفريقان، وهما رعية لدولة واحدة في المسؤولية، كما تكافأ في التمتع بالحقوق وتساوياً في الأنتفاع بالمرافق العامة للدولة العربية الإسلامية لكون ليس في واشي أهل الذمة من الإبل والبقر والغنم والماعز... الخ زكاة سواء، فليت الجزية ديناً على الذمي يستوفي منه بالوسائل التي تستوفي بها الديون، فمن وجبت عليه الجزية ومات أو أسلم قبل دفعها لم تأخذ من تركته ولم يطالب بها ورثته.

أما من هم الذين تجب عليهم الجزية فهم:

- 1- الرجال الأحرار العقلاء الأصحاء القادرين على الدفع.
- 2- من أغنياء المترهبين في الأديرة وأهل الصوامع.

أما الذين لم تأخذ منهم الجزية أو المعفيين وهم:

- 1- لا تؤخذ من المسكين الذي يتصدق عليه.
 - 2- من ليس له القدرة على العمل.
 - 3- من العمى أو المعقد أو المجنون وغيرهم من ذوي العاهات.
 - 4- الرهبان في الأديرة وأهل الصوامع من غير الأغنياء.
- ونلاحظ هنا أن الشرع لم يفرض الجزية إلا على الأشخاص الذين يجب عليهم الجهاد لو كان مسلمين، وأنه أبقى منها الأشخاص الذين يعفيهم من القتال. وفي ذلك يقول أبو الحسن الماوردي "وأسمها مشتق من الخبراء، فيجب على أولي الأمر أن يضعوا الجزية على رقاب من دخل الذمة من أهل الكتاب ليقرأوا (يستقروا) بها في دار الإسلام ويلتزم لهم ببذلها بحقين: أحدهما الكف عنهم، والثاني الحماية لهم، ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين" ويقدر بعض الفقهاء مقدار الجزية ومنهم أبو حنيفة النعمان ثلاثة أقسام:
- 1- أغنياء يؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهماً
 - 2- ومتوسطون يؤخذ منهم أربعة وعشرون درهماً.
 - 3- فقراء يكسبون ويؤخذ منهم اثنا عشر درهماً.

أما الكيفية التي كانت تتم بها جباية الجزية فقد أوصى صاحب الشرع وقادة الإسلام بالرفق والأنصاف وجباتها من أهل الكتاب وصيانة أرواحهم وأموالهم من عبث الجباة والولاة وتقضي القاعدة الفقهية أو دستور الإسلام في طريقه أخذ الجزية من دافعيها بأنه "لا يضرب أحد من أهل الذمة في استيلائهم الجزية أي لحملهم على أدائها ولا يقاموا في الشمس ولا غيرها، ولا يجعل عليهم في أبدانهم شيء من المكاره، ولكن برفق بهم ويحبون حتى يؤدوا ما عليهم.

خامساً: الفية والغنمة

وهذا مصدر آخر من مصادر بيت المال وهما الفية والغنمة فإذا ما هو الفية. هو كل مال وصل من المشركين للمسلمين عفواً من غير قتال ولا بإيجاف خيل ولا ركاب وهذا يعني (الإيجاف للخيل أي سرعة السير، والركاب للأيل التي يسافر عليها لا واحد لها من لفظها، أي لم يكن هناك أعداد للخيل والإبل لكي يحصلوا عليه بل حصلوا عليه بلا قتال).

وكان النبي محمد □ خمس الفية بقسم خمسة أسهم متساوية: كل سم منها لأربابه عملاً بقوله تعالى "ما أفاء الله على رسوله من أهل القربولله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل" سورة الحشر/آية 7 . وبعد انتقال الرسول محمد ٢ إلى الرفيق الأعلى رد نصيبه إلى بيت المال وأما أربعة الأخماس الباقية فكانت تقسم بين الجند حتى دون الخليفة عمر بن الخطاب الديوان وقدر أرزاق الجند.

أما الغنمة:

وهي كل ما أصابها المسلمون من عساكر أهل الشرك بالقتال وتشمل على أربعة أقسام، هي:

الأسرى والسبي والأراضي والأموال.

فالأسرى: هم الرجال المقاتلون من الكفار والذين يقعون في الأسر.
والسبي: هم النساء والأطفال الذين يقعون في أيدي المسلمين، فلا يجوز قتالهم وإنما يقسمون من جملة الغنائم.
والأرض: التي تؤخذ في الحرب عنوة بخرج أهلها عنها لأنها غنمة كالأموال.

وأما الأموال المنقولة

وهي ما يمكن نقله كالماشية والمال فكانت تقسم بين المقاتلة، وكذلك الحال بالنسبة للإسلامي كثياب القتلى وأسلحتهم ودوابهم وكان الرسول محمد ٢ يقسمها حسبما يرى.

ولما اختلف الصحابة في تقسيم غنائم معركة بدر الكبرى شرح القرآن الكريم طريقة تقسيمها في قلله تعالى "وأعلموا إنما غنمتم من شيء، فإنه لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل" سورة الأنفال/آية 41

هذه أهم المصادر المالية لبيت المال في الدولة العربية الإسلامية وكانت تلك المصادر هي التي كونت تلك القوة المادية والمعنوية للدولة ووفرت العدالة بين أبناء الأمة بالأمانة والحرص على مال المسلمين من حقوق كل شيء.

ادارة العلاقات الخارجية للدولة في عصر الاسلام

لقد بلغت الدولة الإسلامية من القوة والعظمة مكانة لم تبلغها أية دولة في العالم قبلها فأصبحت القوة العظمى الأولى في العصور الوسطى، أن صح التعبير، ولما بلغت هذه الدولة تلك المكانة فلا بد أن تكون لها علاقات دولية مع الدول المجاورة لها أو البعيدة عنها سواء كانت تلك العلاقات صراع وتصادم أو علاقات حسن جوار وكذا الحال مع الدول البعيدة، فلا بد وأن تكون لنا معرفة حول الموضوع، وعن الكيفية التي تدار بها تلك العلاقات الدولية وعليه.

عندما نهض العرب كنهوض المار وتكامل حراكهم بظهور الرسول العربي محمد ٣ ونزل القرآن الكريم عليه وولادة دين الحق الإسلام، هبوا لنشر هذا الدين العظيم في مشارق الأرض ومغاربها حاملين رايات الله وأكبر ملتحة ومذبحة مع القيم والأخلاق والفضائل العربية التي يحملها أولئك العرب والتي جاء القرآن الكريم وعززها وأعطاهما بعدها القومي الإنساني بالإسلام وعقيدة الحق التي نقلت العرب والعالم نقلة نوعية لا مثيل لها في تاريخ البشرية.

كانت أخبار العرب المحررين تسبق سنابك خيولهم بالرحمة والعدل و والانعاف. ومع هذا ذهل العالم وصعق أهله بالقوة العربية فتحوا وهروا بلدان مختلفة من الكرة الأرضية وخصوصاً في القارات الثلاثة والكبرى المعروفة في ذلك الوقت آسيا وأفريقيا وأوروبا في بضع عشرة سنة على أسلوب لم يسبق له مثيل، أدت إلى خمول وتضعض سكان العالم، فلما أفاقوا أرادوا ردهم فعجزوا عنه، وما لبثوا أن شاهدوا تمدنهم وعمران دولتهم واشتغالهم بالعلوم والفنون والصناعة والتجارة والرحلة والسياحة، فهابوهم وأخذوا يتقربوا إليهم بالوفود والهدايا إلى المدينة المنورة فدمشق، ثم بغداد مجتمع الوفود القادمين من أطراف الدنيا من الهند والصين شرقاً إلى أعالي آسيا وأواسط أوروبا شمالاً إلى أقصى أفريقيا غرباً والبحر الهندي جنوباً، وصارت البصرة مركز التجارة البحرية في الشرق وملتقى السفن القادمة من أقاصي البحور، وعليه سوف نطلع على هذه العلاقات.

ونبدوها أولاً باستقبال الوفود

أما استقبال الوفود فقد كان فخيماً يظهر به عز الإسلام ولا سيما تلك الوفود التي من مناطق لم يصل إليها الإسلام بعد والاحتفال في ذلك مختلف باختلاف الأحوال، نذكر من أمثله احتفال المقتدر العباس برسل جأوه من ملك الروم سنة 305هـ فإنه أستقبلهم في دار الشجرة وعين لهم الجيوش، وصف الدار بالأسلحة وأنواع الزينة، وكانت جملة العناصر المصفوفة حينئذ 000,160 رجل بين راكب وواقف ووقف الغلمان الحجرية، بالزينة والمناطق المملاة وكانوا اثنين وعشرين ألفاً، ووقف الخدم والخصيان كذلك وعددهم سبعة آلاف، منهم 4000 خادم أبيض و 3000 خادم أسود ووقف الحجاب وكانوا سبعمائة حاجب، وزينت المراكب والزوارق في دجلة أعظم زينة، وزينت دار الخلافة وكانت جملة الستور المعلقة عليها 000,38 سترأ منها ديباج مذهب 500,12 ستر، وكانت جملة البسط 000,22 بساط، واستعرضوا مائة سبع مع مائة سبع، وكان من جملة الزينة الشجرة الذهب والفضة التي تشمل على ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة، فكانت أغصانها تتمايل بحركات موضوعة وعلى الأغصان طيور وعصافير مختلفة من الذهب والفضة تصفر بحركات مرتبة، فتشاهد الرسل من العظمة ما يطول به الكلام.

ثانياً العلاقة مع الصين

المشهور أن الإسلام لم يذكر ظهوره وأنتشاره غير أصحابه ولم يدون أخباره غير أهله، حتى الروم مع ما كان لهم من نصيب في التحضر والمدنية، لم يكتب المعاصرون منهم شيئاً عن الإسلام والمسلمين، ولكن الباحثين عثروا في الكتب الصينية عن خبر الإسلام وأنتشاره إلى استقلال معاوية ابن أبي سفيان بالخلافة لنفسه وكذلك ذكروا أبو مسلم الخراساني وقيام دولة العباسيين إلى غير ذلك، فقرأوا أسماء محمد وقريش ومعاوية وأبي العباس وأبي جعفر وغيرها من رجال الإسلام مكتوبة بالأحرف الصينية، ومما جاء هناك أن أبا جعفر المنصور أرسل سنة 756هـ وفداً إلى إمبراطور الصين التقى عنده بوفد قادم من ((هوى هو)) من مغول الشمال فأختصم الوفدان فيمن يتقدم بالدخول على الإمبراطور، فأنصف الحاجب بينهما وأدخل كل وفد من باب. ذكروا ذلك بكتاب طنج شو الفصل العاشر في أثناء سيرة الإمبراطور سو تسونغ قالوا ((ثم تولى المهدي وخلفه هرون الرشيد وفي أيامه أي من) سنة 785م – 804م) جرد العرب أصحاب الجبة السوداء على تونان (تيببت) ثم صار أهل تونان يتجددون لقتالهم كل سنة، وفي عام (798م) جاء ثلاثة سفراء من العرب إلى بلاط الإمبراطور.....الخ.

ووقفوا في تاريخ الصين أيضاً على نصوص تشير إلى ما كان من العلائق التجارية بين الصينيين والعرب من أواسط القرن العاشر للميلاد القرن الثالث للهجرة النبوية الشريفة، فذكروا سفناً تجارية عربية كانت ترسو على شواطئ الصين يحملون فيها الزجاج والسكر وغيرها، وإن تجار العرب وريان سفنهم كثيراً ما كانوا يقدون على البلاط ويدخلون على الإمبراطور فيخاطبهم ويسألهم عن بلادهم وحكامهم وسائر أحوالهم، ووقفوا على نصوص أخرى تدل على علائق مثل هذه بين الصين والعرب والمسلمون من غير العرب.

أما العرب فقد ذكر مؤرخوهم وأهل الرحلة منهم كثيراً من أخبار نزولهم شواطئ الصين والهند ودخولهم على ملوكها ومخاطبتهم في بعض الشؤون التجارية، وأقدم ما وصل إلينا من الكتب العربية والتي ذكرت فيها تجارة العرب مع الصين والهند وكذلك العلاقات مع تلك الدولتين ونزول تجار العرب إلى شواطئ تلك البلاد كتاب (سلسلة التواريخ) وهو يشمل على السباحات البحرية التي أجرتها العرب مع شواطئ الخليج العربي إلى بلاد الهند والصين. ويقال بالأجمال إن في الكتب التاريخية ذكراً لتلك العلاقات التجارية والسياسة بين العباسيين وملوك المشرق من هنود وصين، وإن المهاداة كانت متواصلة بينهما ((أي قبل الهدايا وإرسالها بين الطرفين)) فكانت وفود ملوك الهند تؤم بغداد من أواخر القرن الثاني الهجري تحمل الهدايا أو كتب المخابرة وهناك وفود كانت من الصين تأتي إلى بغداد، لأن العرب المسلمين وهذا هو الواقع أقاموا علاقات ود واحترام متبادل مع من يحترمهم ويبادلهم نفس العلاقة وهم أول الشعوب والأمم الذين يقيمون سفارات لهم في الدول الأخرى.

ثالثاً العلاقة مع الأوروبيين

على الرغم من أن علاقات المسلمين مع ملوك أوروبا ودولها وأن أعظم الدول والممالك يومئذ هم الروم الجرمان والإفرنج والأسبان وكانت علاقات المسلمين قوية مع تلك الممالك والدول، واثق من سواها.

أما الروم وهم ملوك القسطنطينية، فكانت الاتصالات متواصلة بينهم وبين المسلمين من أيام دولة بني أمية أما لصلح أو مهادنة أو مهاداة أو مضادة والحروب كانت سجلاً بين العرب المسلمين والروم البيزنطيين على الحدود أو في البحار وقد حاصر الأمويون القسطنطينية، غير مرة ولم يفتحوها ولكنهم فتحوا بلاد أخرى في أوروبا وأوقعوا الرعب في دول الأفرنج، وكذلك فعل العباسيون، فإن الرشيد أخذ الجزية من أيريني ملك الروم البيزنطيين. وأما من ناحية المهاداة فهدية الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا أشهر من أن تذكر، على أن هدايا ملوك الروم إلى دار الخلافة العباسية كانت متواصلة وأكثرها من السيوف والشباب والأطياب والذهب والكلاب منها هدية كان قد

بعثها قيصر الروم (ربما أن يكون ميخائيل الثاني) إلى الخليفة العباسي المأمون وفيها تحف سنوية من جملتها مائة رطل مسك ومائة حلة سمور. وأهدت ثريا بنت الأوياري (ملكة الأفرنج) إلى المكتفي بالله سنة 293هـ خمسين سيفاً و 50 رمحاً و 30 ثوباً منسوجاً بالذهب و 20 خادماً صقليياً و 20 جارية و 10 كلاب كبار لا تغلبها السباع وستة بازات وسبعة صقور ومغرب حرير ملون كقوس القرح وغيرها.

وكان الخلفاء أيضاً يوجهون وفوداً من عندهم في مراسلة أو مخابرة، وممن سار في ذلك الوقت القاضي الأشعري المعروف بابن الباقلاني، أنفذه عضد الدولة سنة 371هـ إلى قيصر الروم ياسيل الثاني في جواب رسالة فأظهر هذا الرجل أي الباقلاني في بلاط القيصر أنفة زادت مقام المسلمين عندهم.

رابعاً علاقة عرب الأندلس مع الفرنج

على أن العلاقات كانت أكثر وثوقاً بين ملوك أوروبا والعرب المسلمين في الأندلس، لأن قياصرة القسطنطينة كانوا يقتربون من الأمويين في الأندلس لغاية هو محاولة الوقوف معهم ضد العباسيين أعداء الطرفين حتى أن ملك الروم ثيو فيلوس المعاصر لعبد الرحمن الأوسط حاداه سنة 325هـ وكتب إليه يرغبه في ملك المشرق من أجل ما ضيق عليه به المأمون والمعتصم أبنا هارون الرشيد، وقد ذكرهما ثيو فيلوس في كتابه باسمي أمهما بابن مراجل وابن مارده تحقيراً لهما بالانتساب إلى أمهات من الجوارى، فكافأه عبد الرحمن عن الهدية وبعث إليه يحيي الغزال شاعره واحد كبار دولته فأحكم الصلة بينهما، لكن هذا الود لم يدم طويلاً، فلما تقلد الخليفة الناصر عبد الرحمن الثالث مقاليد الحكم في الأندلس وأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الأفرنج ما لم يطأه أحد من أسلافه، تقدم إليه ملوكهم بالطاعة وتقربوا بالهدايا فأفدوا رسلهم

وهداياهم من رومية والقيطنينية وغيرهما على سبيل المهادنة والسلم والعمل على كسب مرضاته ووصل إلى بابه الملوك من الأسبان المتأخمين لبلاده بجهات قشتالة وبنبلونة وما ينسب إليها من الثغور الشمالية فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزهم وأمتطو مركبه.

وتواليته الهدايا على عبد الرحمن الناصر من كل حدب وصوب وطلب وده جميع الملوك الأوروبيين ولما أراد بناء الزهراء أهده أولئك الملوك من أصناف الحجارة والرخام على اختلاف ألوانه وأشكاله شيئاً كثيراً.

أحوال خراسان في أواخر العصر الأموي :

بدأت الولايات الشرقية ، في الخروج على سلطان الخلافة ، في بلاد الشام منذ عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وذلك عندما ظهرت مشكلة الدخول في الإسلام ودفع الجزية . فكما يفهم من الروايات كان من سياسة عمر بن عبد العزيز رفع الجزية عن أسلم ، ونجح عماله في نشر الإسلام . ولكن نقص الموارد المالية دفع الدولة إلى اتخاذ إجراءات شديدة كانت ترمي إلى إثبات الدخول في الإسلام ثبوتاً قاطعاً ، كما أنها لم تعف الكثيرين من الداخلين في الإسلام من دفع الجزية وبصفة خاصة على عهد والي خراسان هشام بن عبد الملك اشرس بن عبد الله السلمي (109 - 111هـ / 727 - 728م) .

في ظل هذه الظروف كانت الفرصة مواتية لقيام حركة مناهضة للأمويين رغم أن رواية الطبري تذكر أن الدعوة العباسية بدأت في خراسان منذ أيام خلافة عمر بن عبد العزيز في سنة مائة للهجرة .

ولكن هناك رواية أخرى للطبري نعرف منها أن أول من لبس السودان في خراسان - وعا إلى كتاب الله وسنة نبيه والبيعة للرضا في سنة 116هـ / 734 هو الحارث بن سريج . وقبل الحارث عرض والي خراسان عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي أن يكتب إلى هشام يسألانه العمل بكتاب الله وسنة نبيه □ "فإن أبي اجتمعا عليه" وكان رد الخليفة هو خلع عاصم الهلالي وتقليد ولاية خراسان إلى أسد بن عبد الله القسري "وضمها إلى العراق لتكون موادها ومعونتها من قريب لتباعد أمير المؤمنين وتباطئ غياثه" .

وظل إدارته في الولاية من سنة 117هـ حتى سنة 121هـ (735 - 738م) وبعودة أسد من جديد عادت سياسة الشدة والقمع فقبض أسد على جماعة من دعاة بني العباس فقتل بعضهم ، ومثل ببعضهم وحبس بعضهم ، وواصل القتال ضد الحارث بن سريج وبعد موت أسد ولي خراسان نصر بن سيار الكناني الذي كان يعرف "بشيخ مضر في خراسان" و "على أيامه عمرت

خراسان عمارة لم تعمر قبلها وأحسن الولاية والجباية" فقد عمل نصر على رفع الجزية التي كان يدفعها المسلمون إلى غير المسلمين .

ولكن نصر لم ينجح في إيقاف العداء التقليدي بين العصبية المضرية والعصبية اليمينية . ولما كان نصر من العصبية المضرية على عكس أسد الوالي السابق - فإنه حابى المضرية في بداية أمرته وقلدهم الأعمال فالنص يقول :
" فلم يستعمل أربع سنين إلا مضرباً" .

ولكنه عاد وحاول نهج سياسة متزنة حتى يتألف اليمينية . ولكن اليمانية ثاروا بزعامة الكرمانى جديع بن علي الأزدي) "الذي أظهر الخلاف لنصر بن سيار" في سنة (126هـ / 744م) . وكان الكرمانى كما تقول الرواية قد أحسن إلى نصر في ولاية أسد بن عبدالله ، ولكن بعد أن تقلد نصر أمرة خراسان ، عزل الكرمانى عن الرياسة وولاها غيره" . ولذلك فقد حدثت جفوة بينهما . وقد اغتتم الكرمانى الموقف الذي حدث بين نصر ابن سيار وبين خلافة دمشق بعد قتل الوليد الثاني ونستشف من الرواية أن الكرمانى كان لا يتورع عن سلوك أى السبل من أجل تحقيق أطماعه فالنص يقول: "لو لم يقدر على السلطان والملك إلا بالنصرانية واليهودية لتنصر وتهود" وقد قام نصر باعتقال الكرمانى وحبسه ولكن الكرمانى تمكن من الهرب من الحبس بمساعدة أنصاره والتفت حوله الأزدي .

أما عن العراق فقد عزل الخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك واليها منصور بن جمهور . وكان نصر بن سيار قد امتنع من تسليم عمله إليه من قبل واستعمل عليهم عبد الله بن عمر بن عبد العزيز . وقد أقر ابن عمر نصرًا عن خراسان . فغضب الكرمانى لابن جمهور ، وكان نصر قد عرض به في خطبته وأعلن خلافه لنصر .

وفي حاضرة الخلافة مات يزيد بن الوليد بن عبد الملك (يزيد الثالث) وحدثت فتن وقلقل في البلاد إلى أن خلع الأمر لمروان بن محمد (سنة 127هـ / 744م) . فأقر نصر بن سيار على خراسان وبذلك أضفى عليه صفة الشرعية وأعلن نصر بيعته للخليفة مروان . ولكن الحارث بن سريح الذى كان قد سبق أن حصل له نصر على الأمان من الخليفة يزيد بن الوليد ، وعاد من بلاد ما وراء النهر - وكان متحالفاً مع الترك إلى خراسان حيث استقر من اتباعه في منطقة مرو - رفض مبايعة مروان وخرج على نصر الذى أرسل إليه "يعوه الى الجماعة وينهاه عن الفرقة وأطماع العدو" . وطلب الحارث من نصر

أن يعمل بكتاب الله وسنة نبيه وأن يعزل عماله ويقتل عمالاً نزهاء وتمكن داعيته جهم بن صفوان (رأس الجهمية) من لم الجموع حوله .

وفي نفس الوقت كان الكرمانى يدعو إلى عزل نصر وتعيين والى آخر عوضه ، فالتقت مصالحهما واتفقا أى الحارث والكرمانى - على حرب نصر وقد حاقت الهزيمة بالحارث إلا أن نصراً اضطر بعد تقدم أنصار الكرمانى إلى الانسحاب إلى نيسابور ، ودخل الكرمانى والحارث مدينة مرو . ولكن وقع الخلاف بينهما وقتل الكرمانى الحارث فى سنة 128هـ / 746م وصفت مرو لليمن . إلا أن الكرمانى لم يهنأ طويلاً بانتصاره ، فقد بدأ نصر يجمع قواته لإعادة استخلاص مرو من منافسة الكرمانى والقضاء عليه . ولقد كانت كل هذه الظروف فى صالح الدعوة العباسية .

الدعوة العباسية :

المعروف أن الدعوة العباسية عربية الأصل ، وأن الدعوة العباسية التى قامت باسم آل البيت والتى نادت بأن العلويين هم الورثة الطبيعيون لخلافة النبى وجدت فى خراسان أرضاً صالحة لبذر بذورها .

والحقيقة أن عرب الفتوح الأولى الذين توغلوا فى خراسان التى تمثل كل الهضبة الإيرانية حتى بلاد ما وراء النهر ، كانوا منعزلين فى هذا المشرق البعيد ، مما جعلهم يتميزون عن عرب الأمصار الأخرى بصفات خاصة . ولم يكن المتزوجين منهم قد عبروا الجبال التى تحد إيران بل كان غير المتزوجين منهم ، هم الذين وصلوا إلى هناك فى جماعات وتزوجوا من نساء أهل البلاد .

ويقدر فلهزون أن الحد الأقصى لعدد هؤلاء كان لا يتجاوز المائتي ألف رجل
إبان الثورة العباسية .

وكان الإدماج تاماً بين سكان خراسان حتى يصعب التمييز في كتب
التالية إلا بصعوبة بين العرب الذين انصبغوا بالصبغة الإيرانية وبين أهل البلاد
الذين دخلوا في الإسلام والذين عرفوا بالموالي وكانوا يحتفظون بذكريات
حضارتهم القديمة ، وتراث الأسرة السابقة . وكان هؤلاء الموالي يشعرون
بالمساواة مع العرب ، وسنرى أنهم عملوا في القرن التالي على أيام العباسيين
على إثبات تفوقهم الفكري في كل العلوم التي عرفها العرب .

وكان الخراسانية ، منذ العصر الأموي ، يحاربون في صفوف الجيش
الإسلامي للدفاع عن البلاد ضد الترك ، وكان جميع أهل الإقليم يعيشون في وئام
: من العرب الفاتحين إلى الموالي الذين دخلوا في الإسلام بل وأهل البلاد الذين
بقوا على ديانتهم المزدكية . وعلى أيام زياد بن أبيه بدأ تهجير أعداد كبيرة من
شيعة العلويين من مدينتي العراق الكبيرتين : الكوفة والبصرة ، إلى منطقة بلخ
في أقصى خراسان ، على حدود ما وراء النهر . واستمرت سياسة نفى العناصر
العلوية إلى الشرق على أيام الحجاج بن يوسف . وفي نفس الوقت أوقفت
هجرة أهل الشام إلى المشرق حيث لم يكونوا يشعرون بالأمن هناك . ولا شك
أن العلويين وشيعتهم وجدوا في الأقليم الإيرانية أرضاً صالحة لنشر أفكارهم
عن الإمام المنتظر ، وهو المهدي وذلك أن الموالي من الفرس كانوا لا يزالون
يشعرون بالحاجة إلى حاكم مطلق يمتلك من الصفات ما هو فوق مستوى البشر
بحيث يكون له التحكم في توزيع الأرزاق فهو الذي ينشر السعادة بين الناس أو
التعاسة ، وعن طريقه يكون انتشار الخصب في الأرض أو القحط .

وكانت العلاقات الوثيقة بين خراسان من جهة وبين البصرة والكوفة
وهما مركز الاضطراب العلوي من جهة أخرى سبباً في أن اعتنق كل أهل إيران
الآراء المعادية للدولة العربية التي كان الأمويون يحاولون تنظيمها وقرار
ترتيبها ، والتي رغم تحولها إلى ملكية وراثية فإنها ظلت محافظة على طابعها
العربي أو البدوي .

كل هذا يفسر النجاح الذي صادفته الدعاية العلوية منذ بدء تنظيمها في
العراق ، وارسال دعائها إلى خراسان . ومنذ مطلع القرن الثاني الهجري كان
دعاة العباسيين يظهرون في خراسان ، ما بين الحين والحين وبشكل منتظم
حسب أوامر الكوفة ، ودون أن يعرف لحساب من يعملون .

عهد أبي هاشم إلى محمد بن علي :

تكاد تجمع المصادر التاريخية علان مطالبة العباسيين بالخلافة وادعائهم لها قد انتقل إليهم من أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية (أحد أبناء علي رضي الله عنه) . فرواية صاحب "أخبار الدولة العباسية" تقول: "وكان تشيع العباسية أصله من قبل محمد ابن الحنفية وإلى ذلك دعا أبو مسلم .." وتذكر أيضاً أن محمداً بن علي أخذ العلم على يدي أبي هاشم وكان محمد يبجله ويجله فكان إذا قام أبو هاشم يركب أخذ له الركاب "فلما مرض أبي هاشم مرضه الذي مات فيه وكان بأرض الشراة من بلاد الشام وذلك عند قفوله من لقاء سليمان بدمشق عدل إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وكان بالحميمة ، وعهد له بحقوقه في الإمامة في سنة 98 هـ / 717م ز وألقى إليه بأسراره وقال له : أوصيك بتقوى الله فإنها خير ما توأصى بها العباد ، ومن بعد ذلك فإن هذا الأمر الذي نطلبه ونسعى فيه وطلبه آخرون وسعوا فيه فيك وفي ولدك .

هذا ما تقوله الرواية العباسية ، أما الشيعة فإنهم قالوا : ن أبا هاشم أوصى إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طال وهو الذي نادى به الشيعة في الكوفة إماماً على عهد مروان بن محمد ، وبعد انهزامه أمام المروانية اتجه إلى فارس وأصفهان واصطخر ، وانتهى الأمر بمقتله على يدي الداعية العباسي أبي مسلم الخراساني كما سبق القول .

تنظيم الدعوة :

يعتبر محمد بن علي العباسي أول منظم للدعوة العباسية السرية أما ابنه إبراهيم الإمام فكان المفجر لهذه الدعوة حيث نقلها من دعوة سريعة إلى علنية ولكنه لم يجن ثمار عمله حيث قتل قبل أن يحقق العباسيون الانتصار فكان أبو العباس عبد الله بن محمد العباسي أول خليفة لبني العباس .

ويمكن تقسيم الأدوار التي مرت بها الدعوة إلى :

1 - الدور السري التحضيري ويبدأ من سنة 97هـ / أو سنة 100هـ على اختلاف الروايات التاريخية وكان مقر الدعوة الحميمة ونشاطها في الكوفة ثم مرو . ولم تكن تنظيماتها قد تبلورت في بادئ الأمر وجابهت انتكاسة قوية هزتها مثل حركة خدّاش والقبض على بعض الدعاة العباسيين .

2 - الدور العلني الثوري ويبدأ بإرسال الإمام إبراهيم أبا مسلم الخراساني إلى مرو سنة 128 هـ / 745 - 746 حيث أعلن الثورة ضد الأمويين سنة 129 هـ بعد أن اختمرت الحركة السرية العباسية . وينتهي هذا الدور

بإعلان أبا العباس عبد الله نفسه خليفة في مسجد الكوفة سنة 132 هـ .
749م وعندئذ أعلنت الحركة السرية عن صبغتها العباسية .

ويفهم من النصوص أنه عندما ألت مقاليد قيادة الحركة الهاشمية (نسبة إلى أبي هاشم) إلى محمد بن علي العباسي . الإمام الجديد بدأت مرحلة أكثر تنظيماً من سابقتها فتعرف على حامة أبي هاشم . عرفه عليهم سلمة بن بجير ، وطلب منه أن يثبت أسمائهم ، ليعرفهم ، ويستظهر بهم على أمره ، فكتب محمد بن علي العباسي فيهم سجلاً . ومن هؤلاء كما تنص الرواية : سالم بن بجير - حفص ابن سليمان وهو أبو سلمة الخلال حفص الأسير - ميسرة الرجال - موسى بن سريج السراج ، زياد بن درهم الهمداني ، معن بن يزيد الهمداني ، المنذر بن سعيد الهمداني .

وكما تذكر الرواية فإن الاتباع الأوائل كانوا ينتمون إلى قبيلة بنى مسيلمة ومواليها وكذلك من قبيلة همدان (أى من اليمانية) وقال لهم الإمام امسكوا عن الجد فى أمركم حتى يهلك أشج بنى أمية (عمر بن عبد العزيز) ولا تكثروا من أهل الكوفة ، ولا تقبلوا منهم إلا أهل النيات الصحيحة " .

وكان لا يعرف محمد بن علي بنسبه واسمه إلا شيعة الكوفة وهم حوالى ثلاثين رجلاً ن فإذا سئلوا عن اسمه قالوا : أمرنا بكتمان اسمه حتى لا يظهر وكانت دعوتهم إلى الرضا من آل محمد .

ثم قرر الإمام عملاً بنصيحة كبار ثقافته نقل مركز النشاط للدعوة إلى خراسان مع الاحتفاظ بالكوفة نقطة ارتباط بين مرو وخراسان والحميمة مقر الإمام .

وأرسل الإمام أبا عكرمة زياد بن درهم السراج إلى خراسان وطلب منه السير على نهج بكير بن ماهان في تأليف الأتباع ، وأوصاه بقوله : وإن دعوت أحداً من العامة فلتكن دعوتك إلى الرضا من آل محمد ، فإذا وثقت الرجل في عقله وبصيرته فاشرح له أمركم ، وقل بحجتك التى لا يعقلها إلا أولو الألباب ، وليكن اسمى مستوراً عن كل أحد إلا عن رجل عدلك في نفسك في ثققتك به ، وقد وكدت عليه وتوثقت منه وأخذ بيعته وتقدم بمثل ذلك إلى من توجه من رسلك ، فإن سئلتهم عن اسمى فقولوا نحن في تقية وقد أمرنا بكتمان اسم إمامنا ، وإذا قدمت مرو فأحلل فى أهل اليمن وتآلف ربيعه ، وتوق مضر ، وخذ بنصيبك من ثقاتهم واستكثر من الأعاجم ، فإنهم أهل دعوتنا وبهم يؤيدها الله .

هذا وقد كان اختيار محمد بن علي العباسي لخراسان كمقر للدعوة موفقاً لأنها تنفرد بموقف خاص ، دون غيرها من أمصار الدولة العربية الإسلامية .

يتضح ذلك من وصيته لاتباعه حين تباينت الآراء حول المكان المناسب
للدعوة .

"أم الكوفة وسوادها فهناك شيعة على وولده ، وأما البصرة وسوادها
فعثمانية تدين بالكف وتقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل وأما
الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كاعلاج ومسلمون في أخلاق النصارى وأما
أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بنى مروان وعداوة لنا
راسخة .. وأما أهل مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر ، ولكن عليكم
بخراسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سالمة وقلوب
فارغة لم تقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل ولم تشغلها ديانة ، ولم يقدر فيها
فساد ، وليست لهم اليوم همم العرب ولا فيهم كتحارب الأتباع للسادات
وكتحالف القبائل وعصبية العشائر وبعد فكأنى اتفاعل إلى المشرق وإلى مطلع
سراج الدنيا ومصباح هذا الخلق .

ونظم بكير بن ماهان - الذى قال عنه الإمام : اسمعوا منه واطيعوا
وافهموا هو لسانى إليكم وأمينى فيكم فلا تخالفوه ولا تقضوا الأمور إلا برأيه
وقد أثرتكم به على نفسى لثقتي به في النصيحة لكم واجتهاده في إظهار نور الله
فيكم - اتباعه السبعين فقسّمهم إلى اثنا عشر نقيباً يرأسهم سليمان بن كثير
الخراعى وذلك سنة 118هـ . وأكد على وجوب مناصحته أمامهم فى السر
والعلانية ، إلا يطلعوا على أمرهم أحد فخلوا ناحيته ولم يثقوا به .

والنقباء الأثنا عشر هم :

- 1 - أبو نصر مالك بن الهيثم .
- 2 - أبو محمد سليمان بن كثير الخراعى ثم الأسلمى .
- 3 - أبو منصور طلحة بن زريق مولى طلحة الطلحات .
- 4 - زياد بن صالح (مولى خراعة) .
- 5 - موسى بن كعب (أبو عيينة) .
- 6 - عيسى بن كعب .
- 7 - لاهز بن قريظة .
- 8 - أبو سهل بن مجاشع .
- 9 - أبو عبد الحميد قحطبة بن شبيب الطائى .
- 10 - أبو داود خالد بن إبراهيم الذهلى .

من بجيلة 11 - أسلم بن سلام .

ومولى بن أسد 12 - أبو على شبل بن طهمان .

وفكرة النقباء الأثني عشر - ونلاحظ أن أكثريتهم كانوا عرباً - والدعاة السبعين فيها اقتداء بنقباء بنى اسرائيل وبنقباء الرسول □ بعد بيعة العقبة فالنص يقول "بسم الله الرحمن الرحيم" إن السنة في الأولين والمثل في الآخرين ، وأن الله يقول : "واختار موسى قومة سبعين رجلاً لميقاتنا" ، ثم قال في آية أخرى : "وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً" وأن رسول الله □ وافاه ليلة العقبة سبعون رجلاً من الأوس والخزرج فبايعوه فجعل منهم اثني عشر نقيباً . وهناك (نظراء النقباء) وقد روى أن عددهم أحد وعشرون وهناك الدعاة ودعاة الدعاة .

ويفهم من الرواية أن أهل الدعوة وشيعة الإمام كانوا يرسلون إليه الأموال والحلى حتى يتقوى بها في "إحياء الحق وإماتة الباطل" .
موت محمد بن على وولايته ابنة إبراهيم الإمامة :

إعلان الثورة :

مات محمد بن على العباسي في سنة 125 هـ بالشرارة من أرض الشام وكان قد أوصى لابنه إبراهيم بالإمامة من بعده إذا قال لخاصته : فلکم فيه خلف صدق منى كما أوصى بكير بن ماهان بأن يعهد برياسة الدعوة في الكوفة إلى أبى سلمة حفص بن سليمان الخلال .

وتنسب الرواية إلى إبراهيم أنه قام باتخاذ السوار شعاراً للعباسيين وذلك لأن راية الرسول □ كانت سوداء وكانت راية على ابن أبى طالب سوداء وهو اختيار يتفق مع ما تورده الملاحم والنبؤات على أن لون الرايات المقبلة من الشرق للقضاء على ظلم الأمويين وإنهاء دولتهم .
ومن هذا سميت الدولة العباسية بدولة المسودة .

وأمر إبراهيم بكير بن ماهان بالمضى إلى خراسان وأن يأمر الشيعة بتسويد الثياب والرايات ، وكتب معه كتاباً إلى الشيعة . نعى إليهم فيه أباه

ووعظهم ، فبايع الجميع الإمام الجديد ، ثم قفل بكير وبرفقته بعض الشيعة العباسية الذين التقوا بالإمام إبراهيم وتعرفوا عليه وطلبوا منه التعجيل بالثورة وقالوا له : "حتى متى تأكل الطير لحم أهل بيتك وتسفك دماءهم تركناً زيداً مصلوباً بالكناسة وابنه مطرداً في البلاد وقد شملكم الخوف وطالبت عليكم مدة أهل بيت السوء .

ظهور أبو مسلم في خراسان :

قرر الإمام إبراهيم في سنة 128 هـ اختيار مولاه أبا مسلم الخراساني وذلك بعد أن عرض الأمر على سليمان بن كثير وعلى قحطبة فرفضاً ليمثله في خراسان . وكتب معه إلى شيعته كتاباً قال فيه : "بسم الله الرحمن الرحيم صدق وعد الله لأوليائه وحقت كلمة الله على أعدائه ولا تبديل لكلمات الله ، ولن يخلف الله الميعاد . إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين أما بعد فقد وجهت إليكم مجد الدهر عبد الرحمن بن مسلم مولاي فألقوا إليه أزمة أمورك ، وحملوه أعباء الوزر لها والصدر في محاربة عدوكم وعاهدوا الله على الطاعة وكونوا بحبله معتصمين . وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون" .

وكان تعرف أبي مسلم للمرة الأولى على الدعوة العباسية حينما التقى ببعض النقباء العباسيين الذين زاروا بعض العجليين في سجن الكوفة وهم في طريقهم إلى أداء فريضة الحج ، وكان أبو مسلم يخدم هؤلاء العجليين (من بني معقل) في السجن ، فتوسموا فيه نجابة وعقل وأدب فضموه إلى دعوتهم واصطحبوه معهم إلى إبراهيم الإمام بعد أن استأذن مولاه عيسى بن إبراهيم السراج وأعجب الإمام أخلاقه ومنطقه ورأيه وعقله وغير اسمه إلى عبد الرحمن وكناه بأبي مسلم وظل في خدمته يستعمله في حمل رسائله إلى الكوفة وخراسان حتى سنة 128 هـ حين أشخصه إلى خراسان .

وكان أبو مسلم على معرفة بأحوال خراسان - التي كانت الفتنة قد طالبت فيها بين نصر بين سيار وعلى بن الكرماني ومن كان بها من العرب حتى أضجر ذلك كثير من أصحابهما وجعلت نفوسهم تطلع إلى غير ما هم فيه وإلى

أمر يجمعهم فتحركت الدعوة يدعو اليماني من الشيعة اليماني والربعي الربعي ، والمضري المضري حتى كثر من استجار وكفوا بك عن القتال في العصبية حيث اتلف إليها قبل ذلك بأمر من الإمام إبراهيم وكانت إحدها مع أبي سلمة الخلال الذي التقى بالشيعة وقال لهم قد حضرو أمركم فأعدوا واستعدوا كما تقول رواية صاحب اخبار الدولة العباسية على لسان أبي مسلم "أمرني الإمام أن أنزل في أهل اليمن واتألف ربيعه ، ولا أدع نصيبي من صالحى مضر واحذر أكثرهم من اتباع بنى أمية وأجمع إلى العجم واختصهم .

ووصية إبراهيم الإمام لأبي مسلم تتخلص في الاعتماد على قبائل العرب من اليمنية في خراسان ، وكان هؤلاء يمثلون على أواخر أيام الأمويين حزب المعارضة لعرب الدولة ، وأن يتألف ربيعه ، ويحذر ويشك في العرب من المضرية وهم عصبية والى خراسان ، نصر بن سيار إلا ما صلح منهم .

والحقيقة ان انقسام العرب على أنفسهم في خراسان كان السبب في نجاح أبي مسلم فإثناء الصراع بين نصر بن سيار المضري والكرماني اليماني انضم أبو مسلم إلى الكرماني ، وعندما حذر نصر زعيم اليمنية الكرماني من خطورة الداعية العباسي وطلب إليه الاتفاق ووافق الكرماني كان جزاؤه أن قتله نصر .

إعلان الثورة :

لما فشا خبر أبي مسلم أقبل اتباع العباسيين من كل ناحية وقدم الدعاة بمن وافقهم من إخوانهم ، وتكاثر عددهم يوماً بعد يوم وكان أبو مسلم قد نزل في منطقة مرو ، لأنها أصلح مكان لإعلان الثورة ومن هناك أخذ يرسل النقباء إلى مختلف الأقاليم في طخارستان ومرو الروذ والطاقان وخوارزم ، وحدد أبو مسلم شهر رمضان لإظهار الدعوة ، ولكنه ترك للنقباء حرية التصرف فمن أعجله العدو منهم دون الوقت بالأذى والمكروه ، فقد حل لهم أن يدفعوا عن أنفسهم ويجردوا السيوف "وكذلك من شغله منهم عدوهم عن الوقت فلا حرج عليهم أن يظهروا بعد الوقت" .

وترك أبو مسلم مكانه في فنين ونزل في قرية سفيننج "وبث دعاية في الناس وأظهر أمره" فسارعت الأعاجم ، وكثير من أهل اليمن وربيعه إلى الدعوة من بين متدين بك أو طالب بدخل (تأره) أو موتور يرجو أن يدرك به ثار ، وأتاه عدة من ذوى البصائر من مضر .

وتقول الرواية أن أبا مسلم بعث إلى نصر وفداً ... وكتب معهم إلى نصر كتاباً يدعو فيه إلى الطاعة والدخول فيما دخل فيه أهل الدعوة ويعلمه أن هذه الرايات السود التي أظهرها هي التي لم يزل يسمع بها ويحذره من أن يكون من صرعاها .

واستعمل نصر ضد شيعة العباسيين دعاية دينية قوية حيث قال هذه المسودة وهي تدعو إلى غير ملتنا ، وقد أظهروا غير سنتنا وليسوا من أهل قبلتنا ، يعبدون السنانير ، ويعبدون الرؤوس علوج وأغنام وعبيد وسقاط العرب والموالي .

وأجابه الناس وظاهروه على حرب أبي مسلم وكتب نصر إلى ابن هبيرة والى العراق يستمده فلما استنبط به الأمور ، كتب إلى مروان الحمار يشكو له ابن هبيرة ويخبره بعظم المر من قبل أبي مسلم ، وكتب إليه :

أرى خلل الرماد وميض نار	يوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكى	وأن الحرب يبدوها الكلام
فقلت من التعجب ليت شعري	أيقاظ أمية أم نيام
فإن يك قومنا أضحوا نياما	فقل قوموا فقد حان القيام
فصرى عن رحالك ثم قولى	على الإسلام والعرب السلام

وكتب يصف له أمر أبي مسلم ، وكثرة الدعوة وميل اليمانية وربيعه إليه ، ثم بعث للخليفة رسولا . وظل نصر ينتظر المدد أن يأتيه ، وقد فسد عليه أهل خراسان إلا نم كان معه من مضر خاصة وكتب نصر إلى ابن هبيرة يستمده فلم يمهده فكتب إلى الخليفة مروان ثانية يستجد به بقوله " كتبت إلى أمير المؤمنين لم يبق منى شيء استعين به على عدو أمير المؤمنين لافى رجالي ولا فى مالى ولا فى مكيدتى ولو كنت أمددتنى بألف فارس من أهل الشام لأكتفيت بهم ، ولقطعت دابر القوم الظالمين إنى حين كتبت إلى أمير المؤمنين قد أخرجت من جميع سلطانى ، فأنا واقف على باب دارى ، وإن لم تأتنى مواد أمير المؤمنين ووكلنا إلى ابن هبيرة طردت عن باب دارى ، ثم لا رجوع إليها إلى ملتقى الحشر .

ثم أن نصرأ كما يقول صاحب أخبار الدولة العباسية "جمع وجوه أصحابه وأهل الرأي والمشورة منهم ولم يجتمعوا على شئ وهنا اضطر نصر إلى الاستنجاد بالخليفة مروان ثانية يحثه على إمداده يستحثه على إمداده ويستنفره بقوله "أما بعد فإنى ومن معى من عشيرة أمير المؤمنين في موضع من مرو على مجمع الطريق ومحجة الناس العظمى من مختلف القوافل والرسل والجنود من العراق في حائط قد خندقت فيه على نفسى ومن معى ، وعن يمينى وشمالى قرى بنى تميم وسائر أحياء مضر ليس يشويهم غيرهم إلا قرى على حدهم خاملة فيها خزاعة فيها حل طاغيتهم أبو مسلم ، فنحن حين كتبت إلى أمير المؤمنين فى أمر هائل يتكفأ بنا تكفو السفينة عند هبوب العواصف ونحن من أخواتنا اليمانية وأغنامهم ورعاعهم ، فيما نتوقع من سفهم ، ولما قد شملهم من ورائهم الخبيث .. وأنا معتصم بطاعة أمير المؤمنين . وقد أملنا غياث أمير المؤمنين وورود خيله وفرسانه ليقمع الله بهم كل مصر على غشه وساع فى خلفه فلا يكونن مثلنا يا أمير المؤمنين قول الأول .

لا أعرفنك بعد اليوم تندبنى وفي حياتى ما زودتني زادى

ثم قال نصر شعراً يحرض فيه العرب على الهاشمية :

ليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب	أبلغ ربيعه في مرو وأخوتهم
كأن أهل الحجى عن رأيكم غيب	ما بالكم تنصبون الحرب بينكم
فاين غاب الحجى والرأى والأدب	وتتركون عدوا قد أطاف بكم
ليوصل الحبل والأصهار والنسب	ذروا التفرق والأحقاد واجتمعوا
او تدن نحمدهم يوماً إذا اقتربوا	أن تبعدوا الازدمننا لا نقر بها
لبنس والله ما ظنوا وما حسبوا	اتخذلون إذا احتجنا ونصرهم

وظهر أبو مسلم وأعلن اسم الإمام من أعلى المنبر فى صلاة الجمعة وأسفل المنبر علق علما سودان كان قد بعث بهما الإمام من الكوفة وأحدهما

سمى الظل والآخ السحاب . وكان أبو مسلم وهو يعقد اللواعين يتلو "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير وتأول الظل والسحاب قال : أن السحاب يطبق الأرض وأن الأرض كما لا تخلو من الظل كذلك لا تخلو من خليفة عباسي إلى آخر الدهر .

وكذلك لبس أبو مسلم السواد هو واتباعه ، كما أنه غير فى بعض الشعائر لما حضر عيد الفطر أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلى بالشيعية وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير إذن وإلا أقامه ، وكان بنو أمية يبدأون بالخطبة قبل الصلاة ، وبالآذن والإقامة .

وهكذا بدأ أبو مسلم نشاطه فى منطقة قبائل خزاعة - كما تقول النصوص ولكنه عندما اصطدم باتحاد قبائل العرب ضده خرج الى قرية الماخوان وخذق بها. ثم عاد إلى نشاطه ورغم أنه أصبح من المشكوك فى أمرهم من جانب العرب ، إلا أن هؤلاء كانوا مشغولين بنزعاتهم ، فلم يستمر اتحادهم طويلاً بل ان عرب اليمينية تحالفوا معه عندما أرسل إلى ابن الكرماني واستماله إلى جانبه . أما عن أنصار أبي مسلم فكانوا خاضعين له تماماً ، كما كان جنده مطيعين لقوادهم أحسن الطاعة .

سقوط مرو :

وبفضل انقسام العرب على أنفسهم وتماسك حزب أبي مسلم ، نجح هذا الأخير في الاستيلاء على مدينة مرو عاصمة الإقليم الواقعة على نهر المرغوب وكان دخولها بفضل ممالة اليمينية وعلى رأسهم ابن الكرماني .

ودخل أبو مسلم مرو من باب قنوشير فتلا هذه الآية : "ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها" إلى آخر الآية ، ثم سار إلى دار الإمارة فنزلها وعلى بن الكرماني معه ، ثم دعوا الناس للبيعة فلم يتخلف عنها أحد من أهل مرو . ثم خرج على بن الكرماني وأبو مسلم إلى المسجد فصعد على المنبر وجعل أبو مسلم يبايع الناس ، وأقام أبو مسلم ثلاثة أيام يأخذ البيعة عنأهل مرو ، وهرب نصر من المدينة يوم الجمعة 10 جمادى الأولى سنة 130 هـ وبصحبه امرأته المرزبانة ، التي اضطر إلى تركها فى الطريق ، واتجه إلى مدينة سرخس ومنها إلى طوس ثم إلى نيسابور .

فتح طوس :

مقتل تميم بن نصر :

ومن مرو أخذ أبو مسلم يدير الحرب ضد نصر . وكان يدير العمليات العسكرية فى جانب المسودة عدد من كبار القادة العرب فأول من قام بمهاجمة القوات الأموية فى خراسان كان قحطبة بن صالح ، وهو من قبيلة طى العربية . فلقد بدأ قحطبة بهزيمة تميم بن نصر بن سيار فى طوس وكان اتباع الضحاك الشيبانى ، من الخوارج قد لحقوا بابن نصر هناك وانتهت المعركة بمقتل تميم بن نصر واستباحة عسكره .

ويذكر صاحب "أخبار الدولة العباسية" أن نصر بن سيار قال يرثى ابنة تميم لما بلغه نبأ مصرعه :

نقى عنى العزاء وكنت جلدا	نكوب فجائع الحدث العظيم
وهم أورث الأحشاء وجدا	لإجلاء الفوارس عن تميم
ومصرعه على قضب الأعدى	يذب عن الجماعة والحريم
وفاء للخليفة وابتذالا	لنفس من أذى ثقة كريم
فإن يك دهرنا أودى مداه	بفارسنا المقاتل فى الصميم
وأن يشمت بنكبتنا عدو	فما أنا بالضعيف ولا السنوم

فتح نيسابور :

أما عن نصر فإنه هرب من نيسابور لى جرجان ، وتمكن بذلك أبو مسلم من دخول مدينة نيسابور فى شوال سنة 130 هـ / يونيه 748م . وبعد أن تحقق لأبى مسلم هذا النجاح الكبير تخلص من زعيمى اليمينية من العرب وهما : على بن الكرماني وأخوه عثمان إذ قتلها غدرًا .

فتح جرجان (واخذ الرى) :

وعندما استغاث نصر بن سيار بوالى العراق ، وابن هبيرة ، أرسل إليه هذا جيشاً بجرجان ، ولكن قحطبة خرج إليه وهزم فى ذى الحجة من نفس السنة ، بعد أن فتح جرجان وأوقع الهزيمة بأهل الذين حاولوا الثورة حتى قيل أنه قتل منهم ما يزيد على ثلاثين ألفاً وبسبب تردد والى العراق ابن هبيرة ساء موقف نصر الذى مات وهو يفر أمام قحطبة بالقرب من الرى "وكان مريضاً يحمل حملاً" وبعد وفاة نصر أخذت مدينة الرى وصادر أبو مسلم أملاكهم لأنهم كانوا سفليانية كما تقول النصوص وأحاط الحسن بن قحطبة ببقية جيوش أهل الشام فى نهاوند . وعندما خرج جيش شامى كبير لفك حصارهم بقيادة عامر

المرى والى كرمان وداود بن يزيد بن هبيرة ، فى أواخر سنة 131 هـ / 749م هزمه قحطبة وهو يتقدم قرب أصفهان . وتقول النصوص "أمر قحطبة بمصحف فنصب على رمح ونادى يا أهل الشام أنا ندعوكم إلى ما فى هذا المصحف . فشتموه وافحشوه فى القول "وأنه هزم داود بن هبيرة ، وأصابوا عسكره وأخذوا منه مالا يعلم قدره من السلاح والمتاع والرقيق والخيل ، وما روى عسكر قط كان فيه من أصناف الأشياء ما فى هذا العسكر كأنه مدينة من البرابط والطنابير والمزامير والحرر ما لا يحصى" .

حصار نهاوند :

واستراح قحطبة بعض الوقت بأصفهان ثم قدم على ابنه الحسن بنهاوند وبعد عدة أشهر من القتال استسلم الشاميون بنهاوند دون أن يفكروا فى مصير أخوانهم بخراسان ، هؤلاء قضى عليهم دون شفقة أو رحمة وبذلك انفتح طريق العراق أمام الخراسانية .

مسير قحطبة إلى ابن هبيرة بالعراق :

وخرج قحطبة من نهاوند وتوجه إلى العراق واضطر فى أول الأمر إلى الإنسحاب أمام يزيد بن هبيرة والى الإقليم . الذى خرج للقاءه وراء دجلة ولكنه عاد واتجه نحو الكوفة . وتبعه ابن هبيرة وتمكن من مفاجأته فى ذى الحجة سنى 136 هـ : أغسطس 749م واسط . وأثناء اقتال الذى كان يدور ليلاً سقط قحطبة فى النهر الفرات ومات غرقاً . فى ليلة الأربعاء 8 من محرم سنة 132 هـ . ولكن القوم اجتمعوا واجمعوا على الرضا بحميد (الحسن) بن قحطبة فى رواية ابن الأثير فبايعوه وسلموا له الأمر" .

فتح الكوفة :

تقدم الحسن بن قحطبة إلى الكوفة فى الجنود واستولى جيشه عليها بعد أن هزم ابن هبيرة ويفهم من النصوص أن الكوفة أخذت بسهولة ، إذ كان محمد بن خالد القسرى قد خرج فيها على الأمويين الذين انسحبوا و "سود" أى أعلن دخوله فى دعوة العباسيين وكتب بذلك إلى قحطبة .

ظهور أبى سلمة بالكوفة :

وأرسل أبو سلمة إلى حميد بن قحطبة أن يدخل الكوفة بأحسن هيئة وأن يظهرها زينتهم ، ويشهروا سلاحهم وأعلامهم وقوتهم ، ففعل وظهر أبو سلمة

وأعلن أمره وكان ظهور أبي سلمة وتوليه للأمر يوم الجمعة 10 من محرم سنة 132 هـ تولى إدارة مقاليد الأمور .

موت إبراهيم الإمام :

وتقول النصوص أن الخليفة مروان بن محمد (الحمار) كان قبل ذلك بقليل قد أمر بالقبض على الإمام إبراهيم الذي أخذ وأنفذ إلى حران وحبس والظاهر أنه قتل هناك وتختلف الروايات فيما يتعلق بنهايته ، إذ يقال أن مروان وجه قوماً فدخلوا السجن ليلاً فغمروا إبراهيم ، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، فلما أصبحوا وجدوهما ميتين .

وفي رواية أخرى "هدم مروان على إبراهيم بيتاً فقتله" وخرج أبو العباس الذي كان إبراهيم قد أوصى له وعهد إليه بالإمامة إلى الكوفة هو وأخوه أبو جعفر فوصلوها في ربيع الأول من سنة 132 هـ/ أكتوبر 749م ، حيث أعلنت إمامة أبي العباس .

وقعة الزاب ونهاية مروان بن محمد :

كان مروان بن محمد حتى ذلك الوقت يدافع عن خلافته ، كما أن يزيد بن هبيرة لم يكن قد استسلم بعد وكان لا بد للمسودة من القضاء عليهما .

وكانت الجيوش السياسية التي تعمل في أعالي دجلة تحت قيادة أبي عون عبد الملك بن يزيد الأزدي الذي عينه قحطبة ، ولكنه بعد سقوط الكوفة أعفى من القيادة التي أعطيت إلى عم الخليفة ، أبي العباس عبد الله بن علي بن عباس ، وتقدم مروان بن محمد على رأس جيش قوى للقاء الخرسانية الذي وصلتهم الإمدادات من أبي سلمة الخلال ، ومن أبي العباس ، والتقى بهم على الضفة اليسرى لنهر الزاب ، ودام القتال بين الطرفين تسعة أيام أحرز مروان خلالها بعض الانتصارات ، ولكن الأمر انتهى بوقوع الاضطراب في جيشه إذ كانت كل عصبية تريد أن تتقدم العصبية الأخرى وأعقب ذلك هزيمة مروان نتيجة لخطأ استراتيجي ، إذ عقد جسراً على النهر عبره رغم معارضة وزرائه في ذلك وترتب على هذا الخطأ أن انقطع الجسر عند الانهزام "وكان من غرق يومئذ أكثر ممن قتل" وذلك في 11 جمادى الثانية من سنة 132 - 26 يناير 750م .

وفر مروان إلى الموصل بعد هزيمة الزاب ، ولكنه استقبل استقبالاً سيئاً ، فسار إلى حران ، وأقام بها أكثر من عشرين يوماً ، عندما تبعه عبد الله بن علي إلى هناك مضى إلى حمص . ولكن مدن الشام كانت قد بدأت تخلع طاعتها بالنسبة للأمويين وتسقط بين أيدي العباسيين ، مدينة بعد أخرى ، مثل : قنسرين وحمص وبعلبك ولم تدافع إلا دمشق بعض الوقت فدخلت عنوة

في 5 رمضان سنة 132 هـ / 7 نوفمبر سنة 750 م . بعد أن حوصرت وضيق عليها الخناق .

وتابع العباسيون مطاردة مروان ، إذ سار في أثره صالح بن علي من أبي فطرس إلى العريش إلى النيل ثم واصل سيره إلى صعيد مصر . وفي بلدة بوصير من قرى الفيوم حاول مروان الاختفاء في إحدى الكنائس . ولكنهم بايتوه وهجموا على عسكره وضربوا بالطبول وكبروا ونادوا بالثارات إبراهيم "فظن من بعسكر مروان أن قد أحاط بهم سائر المسودة" .

فقتل مروان في 17 من ذي الحجة سنة 132 هـ / 17 أغسطس سنة 750 م .. واحتز رأس آخر خلفاء الأمويين ، وأرسل إلى صالح بن علي الذي مثل به فقطع لسانه وسيره إلى أبي العباس الذي كان بالكوفة .

استسلام ابن هبيرة في واسط ومقتله :

بالقضاء على مروان بن محمد لم يبق للأمويين من قوة ولا حول إلا قوات ابن هبيرة التي لجأت بعد انهزامها أمام ابن قحطبة إلى واسط ، المدينة الاستراتيجية التي بناها الحجاج في مستنقعات ودافعت عن نفسها ما يقرب من العام . بدأ بمناوشات خارج المدينة بين أهل الشام وجيوش الحسن بن قحطبة وانتهت بانهزام أهل الشام والتجائهم إلى المدينة وتحصنهم بها وأصبح القتال رمياً وتراشقاً من بعيد .

ورغم الانقسامات بين اليمانية والقيسية ، في صفوف ابن هبيرة ، بعد أن كاتب أبو العباس السفاح اليمانية من أصحاب ابن هبيرة ، فإن هذا الأخير لم يدخل في مفاوضات مع العباسيين إلا عندما علم بموت مروان وفي هذه الأثناء كانت قيادة القوات العباسية المحاصرة بواسطة قد انتقلت من يد الحسن بن قحطبة إلى أبي جعفر أخي الخليفة وهذا يبين أن الخليفة بدأ ينهج سياسة جديدة تهدف إلى وضع مقاليد الأمور وخاصة القيادات العسكرية بين يدي أفراد أسرته . وكتب السفاح إلى الحسن بن قحطبة "أن العسكر عسكرك والقواد قوادك ولكن أحببت أن يكون أخي حاضراً فاسمع له وأطلع وأحسن مؤازرته" . وبعد أن علم المحاصرون بمقتل مروان طلبوا الصلح ، وجرت السفراء بين أبي جعفر وابن هبيرة وطالت المفاوضات بين الطرفين وكتب أبو جعفر كتاباً لابن هبيرة ، لبث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء أربعين يوماً حتى ارتضاه وأرسله إلى أبي جعفر الذي أنفذه أخيه السفاح فأمره بإمضائه السفاح المعاهدة ولكنه لم يحترمها، بعد أن اعترض أبو مسلم على نصوصها وكتب إلى السفاح "أن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة" .

وانتهى الأمر بقتل أفراد الحامية المستسلمة واغتيال ابن هبيرة باستسلام واسط ثم القضاء على القوات الأموية النظامية ونهج العباسيون سياسة ترمى إلى استئصال شافة الأمويين واستخدام العنت والقسوة ضد أفراد الأسرة التعسة ، ولم يتورعوا في ذلك عن استعمال الغدر والخيانة .

مذبحة أبي فطرس

من أهم المذابح التي غدر فيها عبد الله بن علي عم الخليفة وقائد القوات العباسية في الشام ، بعدد كبير من أفراد الأسرة الأموية التي تسمى بمذبحة أبي فطرس ، وذلك بعد أن أمنهم ودعاهم إلى الطعام ويقال أنه بعد قتلهم غيلة مر بالبسط ففرشت على جثثهم فأكل عليها وهو يسمع أنين بعضهم .

وطارد العباسيون الأمويين في الشام وفي فلسطين والعراق وبعد مطاردة الأحياء انتهكوا حرمة الأموات فنبشت قبور الخلفاء في دمشق بأمر عبد الله بن علي ونثر تراب جثثهم في الهواء ، ولم يستثن إلا قبل عمر بن عبد العزيز ، ولم ينج من الأمويين إلا حفيد الخليفة هشام وهو عبد الرحمن بن معاوية الذي هرب إلى الأندلس حيث أنشأ دولة أموية جديدة كما سنرى فيما بعد "واستصفيت أموال الأمويين وهدمت قصورهم ، وضربت مصانع المياه التي كانوا قد أقاموها حتى لا يبقى لذكرهم أثر .

ابتداء الدولة العباسية وبيعة أبي العباس

132 – 136 هـ

بويج أبو العباس عبد الله بن محمد علي بن عبد الله بن عباس بالخلافة في 13 ربيع الأول سنة 132 هـ ، في الكوفة .

وكان إبراهيم الإمام لما حبس بحران ، وتوقع نهايته ، قد عهد لأخيه أبي العباس "وأوصاه بالقيام بالدولة والجد والحركة، وإلا يكون له بعد بالحميمة لبث ولا عرجة حتى يتوجه إلى الكوفة ..."

وخرج أبو العباس ومعه أقاربه من العباسيين فيهم أخوه أبو جعفر (المنصور) وعبد الوهاب ومحمد ابن أخيه وأعمامه : داود وعيسى وصالح واسماعيل وعبد الله وعبد الصمد بنو علي بن عبد الله بن عباس ، وابن عمه داود وابن أخيه عيسى بن موسى حتى قدموا الكوفة في صفر .

ونستشف من الروايات أن "وزير آل محمد" وهو أبو سلمة الخلال كانت له نوايا خاصة وأنه كان يميل إلى العلويين فأظهر أنه لم يبايع شخصياً إلا إبراهيم الإمام وهذا يفسر كيف أنه أخفى وصول العباسيين إلى الكوفة لمدة تزيد على أربعين يوماً . وحاول في هذه الفترة أن يتصل بالعلويين فأرسل رسالتين من نسخة واحدة إلى الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . وعبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب يدعو كل أحد منهما إلى القدوم إليه ليصرف الدعوة إليه ويأخذ بيعة أهل خراسان له ولقد كان جواب جعفر بن محمد احراق الرسالة وأنكر معرفته بأبي سلمة . أما عبد الله فقد شاور جعفر الصادق فحذره الصادق من نتيجة الأنقياد وراء الخلال قائلاً له : "ومتى كان أهل خراسان شيعة لك أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان أنت أمرته بلبس السواد؟ ولكن عبد الله استاء من كلام جعفر واعتبره حسداً منه" . أما الدوافع التي دفعت الخلال للقيام بهذا العمل فمن ذلك خوفه بعد مقتل إبراهيم الإمام من انتقاض الأمر وفساده .

ولقد فشلت محاولات الخلال . وأخيراً عرف أحد كبار اتباع أبي مسلم بوجود الخليفة الجديد فذهب إليه ومعه عدد من زعماء الخراسانية والقواد وبايعوا أبا العباس ، وسلموا عليه بالخلافة ، وعزوه في إبراهيم الإمام واضطر أبو سلمة إلى الذهاب ومبايعة أبي العباس .

وفي يوم الجمعة 12 ربيع الأول ، خرج أبو العباس إلى دار الإمارة ومنها ذهب إلى المسجد الجامع بالكوفة حيث أخذ البيعة له ، وبعد الخطبة والصلاة صعد المنبر وخطب قائلاً "الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه وكرمه وشرفه وعظمه واختاره لنا فأيده بنا وجعلنا أهله ، وكهفه وحصنه والقوام به والذابين عنه والناصرين له ، فألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها وخصنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته .. جعله من أنفسنا عزيزاً عليه ما عنتنا حريصاً علينا بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم فقال تبارك

وتعالى فيما أنزل من محكم كتابه : "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً" وقال تعالى : "قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى .. فاعلمهم جل وثناؤه فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من الفئ والغنيمة نصيباً تكرمه لنا وفضلاً علينا والله ذو الفضل العظيم وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا فشاهت وجوههم بم ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم وبصرهم بعد جهالتهم وانقذهم بعد هلكتهم وأظهر بنا الحق ورخص الباطل . أصلح بنا منهم ما كان فاسداً ... فتح الله ذلك منه وبهجة لمحمد □ . فلما قبضه الله إليه وقام بالأمر بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم حووا مواريث الأمم فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها .. ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فأنبذوها وتداولوها فجاوروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها بما ملأ الله لهم حيناً حتى أسفوا فلما أسفوه انتقم منهم بأيدينا ورد علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا وولى نصرنا والقيام بأمرنا ليمن بنا على الذين استضعفوا فى الأرض وختم بنا كما افتتح بنا .

يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يبتكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا وأتاكم الله بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدكم فى أعطيائكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير .

وأثناء الخطبة تملكته الحمى فاضطر أن يقطع أول خطبة له فوق المنبر . ولكن عمه داود بن على تكلم نيابة عنه ، ومن بين ما قاله فى خطبته "لقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا وتشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم واستنزأهم بكم واستنثارهم بفيئكم صدقاتكم ومغانمكم عليكم لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله □ وذمة العباس رحمه الله علينا أن نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فى العامة والخاصة بسيرة رسول الله □ . تبا تبا لبنى لبنى حرب بن أمية وبنى مروان أثروا فى مدتهم العاجلة على الآجلة والدار الفانية على الدار الباقية ، فركبوا الآثام وظلموا الأنام . ثم قال يا أهل الكوفة إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أباح الله لنا شيعتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا ... وأظهر بهم دولتنا وأراكم الله ما كنتم تنتظرون فأظهر فيكم الخليفة من هاشم واداكم على أهل الشام ونقل إليكم السلطان وأعز الإسلام .. وأن لكل أهل بيت مصراً وأنتم مصرنا إلا وأنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله □ إلا أمير المؤمنين على بن أبى طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد وأشار بيده إلى أبى العباس السفاح ثم قال "واعلموا أن هذا المر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم عليه السلام" .

- يتضح من الخطبتان السمات المميزة للعصر الجديد ومنها :
- إن الدعوة العباسية قامت من أجل إحلال الإسلام الذي فشل بنو مروان في تطبيق مبادئه .
- وأن لبني العباس الحق في الخلافة لأنهم أقرباء الرسول □ من جهة عمه العباس بن عبد المطلب الذي مات بعد موت الرسول .
- تحقيق العدالة للمظلومين والمستضعفين من الناس .
 - التأكيد على نقل مركز الثقل السياسي من الشام إلى العراق .
 - زيادة الأعطيات (اعطيات الجند) إلى مائة درهم .
 - ولكن الخليفة حذرهم من أية حركة قائلًا بأنه الثائر المبير .
 - أكد على وضع آل العباس من الإسلام وأهله وأنهم بنو هاشم وأهل البيت .
 - فند الخليفة رأى السبئية في قولهم بأن الخلافة من حق آل علي وبين أثر العباسيين في احقاق الحق وازهاق الباطل .
- ندد أبو العباس بسياسة الأمويين وظلمهم الناس وكيف أن العباسيين هم الذين ادلوا دولتهم وأعلن حلول عهد العدل والإصلاح .
- وهكذا قامت الأسرة الخلافية الجديدة وهي أسرة العباسيين بالكوفة وأول خلفائها هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .
- والظاهر أن الخليفة كان يشك في موقف وزيره أبي سلمة الخلال ولذلك نجد أنه لا يقيم في الكوفة . ولكن انتقل إلى حيث يوجد العسكر العباسي الخراساني في حمام أعين ثم بعد ذلك ينتقل إلى الحيرة وينزل في الهاشمية العاصمة الجديدة ثم أنه بعد ذلك تخلص من أبي سلمة الخلال على يدى بعض اتباع أبي مسلم .
- وعلى أيام السفاح تم القضاء على مروان بن محمد – كما سبق القول حدث كل هذا ، وأهل الشام – الذين كانوا يكنون العداء لمروان يقفون موقف المتفرج على نهاية الدولة التي كانوا يدينون لها بكل شئ . هذا ولو أنهم بعد ذلك حاولوا القيام برد فعل فنقضوا وخلعوا في بعض المدن مثل : حران وقنسرين ودمشق .
- وأهم تلك الثورات ثورة قنسرين ، إذ قامت القيسية بها ونادت بأبي محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية ودعوا إليه وقالوا : هذا السفيناني المنتظر . ولكن عبد الله بن علي تمكن من تشتيت شمل الثوار في أواخر سنة 133 هـ .

ووقع أبو محمد بين أيدي العباسيين وهو يفر إلى الحجاز وذلك على أيام المنصور .

وعصر أبو العباس لم يبلغ خمس سنوات ، وعمل السفاح بمعاونه أخيه أبي جعفر على أن يتقلد الهاشميون مقاليد الأمور في الدولة ، فعهد إلى إخوته وأبنائه وأبناء عمومته بالقيادات العسكرية وولايات الأقاليم كما بدأ سياسة غريبة تهدف إلى التخلص من كبار الأتباع والعمال الذين يحس بخطورتهم .

الثورات على عهد أبي العباس :

وعلى عهد أبي العباس قامت بعض الثورات في خراسان ، وفي إقليم ما وراء النهر ولكن الجيوش العباسية الخراسانية استطاعت أن تقضى عليها بسهولة ، وكذلك استطاعت جيوش الدولة أن تحرز انتصارات في المشرق وأن تدفع بحدود الدولة نحو أواسط آسية .

ثورة بخارى :

ثورة بخارى هذه خطيرة إذا تزعمها رجل اسمه شريك المهري من قبيلة مهرة . هذا الرجل كان يؤيد آل البيت في أول الأمر ، ولكنه نقم على السياسة التي انتهجها أبو مسلم عندما توسع في استحلال سفك الدماء . والتف حوله أكثر من 30 ألف رجل من منطقة بخارى ومنطقة خوارزم وأرسل أبو مسلم جيشاً لقتال هذا الثائر على رأسه زياد بن صالح الخزاعي ، وعاون ابن صالح ملك بخارى وأخمدت الثورة بكثير من العنف والقسوة ويقال أن المدينة تركت طعمة للنيران لمدة ثلاثة أيام ، كما صلب الأسرى على أبوابها .

وظهر على أطراف الدولة خطر جديد ، ذلك أن الصين بدأت تتدخل في شئون ما وراء النهر . ولكن زياد بن صالح بعد أن قضى على ثورة بخارى استطاع أن يحرز نصراً عظيماً على القوات الصينية في وقعة تسمى طراز وتبالغ الروايات العربية في ذلك النصر فتقول أن المسلمين قتلوا حوالي خمسين ألفاً وأسروا نحو عشرين ألفاً ، وهرب باقي الجيش إلى الصين .

واستمرت الصين في سياستها التي تهدف إلى مساعدة الحكام الوطنيين ، على الخروج على الحكم العربي . ولكن عامل بلخ الذي عينه أبو مسلم هو أبا داود خالد بن إبراهيم نجح في قمع ثورة الختل التي فر أميرها إلى بلاد الصين ، وكذلك قتل دهقان كش ونسف .

وهكذا استطاع أبو مسلم أن يحرز نجاحاً كبيراً في سياسته الخارجية بتأمينه لحدود الدولة الخارجية كما نجح في سياسته الداخلية . وهذا النجاح

الكبير زاد بطبيعة الحال من هيبة الداعي الهاشمي وأثار الخوف في نفوس العباسيين .

خروج زياد بن صالح :

ففي سنة 135 هـ قامت ثورة في أرض ما وراء النهر ، بقيادة زياد ابن صالح ومعه سباع بن النعمان الأزدي - وهو الذي كان قد أرسله السفاح إلى زياد بن صالح وأمره أن رأى فرصة أن يثب على أبي مسلم فيقتله . وكان أبو مسلم قد عينهما واليين لام وراء النهر . والظاهر أنهما رفعاً راية العصيان بتحريض من السفاح ، ولكنهما لم ينجحا في ثورتهم تلك فقتل سباع بمدينة أمل . أما عن زياد بن صالح فقد انفض عنه جنده وهرب إلى دهقاز قريبة باركت فقتله وبعث رأسه إلى أبي مسلم .

ولم يكن هذا يعنى انتهاء محاولات الخليفة ضد عامله الكبير وذلك أنه ربما قرر أبو العباس السفاح بالاتفاق مع أخيه أبي جعفر التخلص من ذلك المنافس الخطير . ولكن المنية وافت أبا العباس فتوفى في 13 من ذى الحجة سنة 136 هـ / يونيه 754 وهو في ريعان شبابه في الأنبار وقد راح ضحية الحمى التي ألت به ، أوفى وباء الجدري .

القضاء على أبي سلمة الخلال :

كان أبو مسلم شديد الحسد لتزايد نفوذ أبي سلمة في العراق وتذكر الروايات أنه اقترح على الخليفة التخلص منه وأنه كتب إليه يقول له "قد أحل الله يا أمير المؤمنين دمه لأنه قد نكث وغير وبدل" ولكن السفاح رد على ذلك بأنه لا يريد أن يبدأ عهده بقتل رجل من شيعته مثل أبي سلمة لجهوده في نشر الدعوة . كما كلمه أيضاً أبو جعفر (المنصور) أخوه وداود بن علي عمه في ذلك . وكان أبو مسلم قد راسلها طلب منهما أن يشيرا على السفاح بقتله .

ولكن أبو مسلم كما نستشف من الروايات أرسل جماعة من ثقاته لقتل أبي سلمة وانتهاز فرصة انصرافه من عند السفاح من الأنبار وليس معه أحد . "فوثب عليه أصحاب أبي مسلم فقتلوه" واشيع أن أبا سلمة قتله الخوارج . وكان مقتله في رجب سنة 132 هـ .

خلافة المنصور

136 – 158 هـ

بعد أبي العباس تبوأ عرش الخلافة أخوه أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الملقب بالمنصور بالله .

ويعتبر أبو جعفر المؤسس الحقيقي للدولة العباسية .

وأول المشاكل التي واجهها المنصور هي أحقية ولايته لعهد أبي العباس إذ تذكر الرواية أنه في سنة 136 هـ أخذ أبو العباس البيعة بولاية عهد المسلمين وبالخلافة من بعده لأخيه أبي جعفر عبد الله بن محمد ، ومن بعد أبي جعفر ولد أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي وأنه "جعل العهد في ثوب وختمه بخاتمه وخواتيم أهل بيته .

رغم كل هذا فإن اعتلاؤه العرش لم يتم دون نزاع فعندما توفي أبو العباس السفاح، كان أخوه أبو جعفر أميراً للحج ، وبصحبه أبو مسلم وقام بأخذ البيعة لأبي جعفر ، عيسى بن موسى ولي العهد الثاني الذي كان والياً للكوفة . وكتب عيسى إلى أبي جعفر يعلمه بموت السفاح والبيعة له ، كما كتب إلى الأمصار يطلب البيعة للخليفة الجديد .

ثورة عبد الله بن علي العباسي :

وفي ذلك الوقت كان عم الخليفة عبد الله بن علي ، بطل وقعة الزاب والذى كان والياً على بلاد الشام ، وكان قد سار على رأس قواته من الشاميين والخراسانية على الصائفة وهو يقصد بيزنطة . وعندما وصله خبر وفاة أبو العباس وولاية المنصور توقف عن المسير ودعا قواده ورجاله على مبيعاته ، وكان لا بد أن يبرر موقفه هذا ويظهر أحقيته في المطالبة بالخلافة فقال : أن السفاح حين أراد أن يوجه الجنود إلى مروان بن محمد لم ينتدب غيرى وعلى هذا خرجت من عنده وهذا يعنى أنه كان يرى أن قتال الخليفة الأموى حقاً للخليفة الذى سيحل مكانه وأن انتداب الخليفة له للقيام بهذا الأمر معناه نيابته عنه وأنه لا يتنازل عن هذه النيابة ولا يعترف بما حدث بعد ذلك من التغيير والتبديل والعهد لغيره . ووقف إلى جانب عبد الله عدد من القواد وبايعوه بالفعل . والذى لا شك فيه أن تشجيع أهل الشام عصبية الدولة الأموية - كان نم الأسباب التى قوت عبد الله وجرأته على الثورة .

سار عبد الله بن علي ونزل حران . وقفل أبو جعفر من الحج ليجد نفسه أمام ثورة عمه ولم يجد مفرأ من الاستنجد بأبى مسلم رغم ما كان يكنه له من الحقد ، رغم ما كان يظهره الخراسانى من تعال وما كان يشعر به فى قرارة نفسه من الأفضال والخدمات الكبيرة التى أداها للدولة حتى أنه غلب على أبى جعفر ، الذى كان أميراً للحج ، "فكان أبو مسلم يكسو الأعراب ويصلح الآبار ، والطريق ، وكان الذكر له" .

أمر المنصور أبا مسلم بالمسير لحرب عبد الله بن علي ، والظاهر أن عبد الله خشى غدر جنده من الخرسانية الذين كانوا يدينون بالطاعة والولاء ، لأبى مسلم لتخلص منهم وقتل منهم الكثيرين ولم يبق له إلا أهل الشام .

سار أبو مسلم إلى حران وانسحب عبد الله بن علي من حران إلى نصيبين وتحصن هناك ، ولم يرد المنصور أن ينفرد أبو مسلم بالقيادة فاستدعى القائد المشهور الحسن بن قحطبة من ارمينية ، وكان والياً عليها وأمره أن يوافى أبو مسلم فلحق به فى الموصل . وتقدم أبو مسلم حتى نزل قريباً من عبد الله من ناحية نصيبين . والظاهر أن مراكز أهل الشام كانت حصينة منيعة فلجأ أبو مسلم إلى خطة سليمة لزعزعتهم عن مراكزهم الاستراتيجية فكتب إلى عبدالله بأنه لم يأت لقتاله وإنما ولى الشام بأمر من الخليفة وأنه متوجه لتقليد ولايته وعندئذ خشى أهل الشام من الخراسانية أصحاب أبى مسلم على ديارهم وطلبوا أن يسيروا إلى بلادهم لحمايتها . وكان عبد الله يعلم أن ما أعلنه أبو مسلم لم يكن إلا خدعة . وأنه لا بد أن يناصبه القتال ولكن أهل الشام لم يقتنعوا بذلك فقرر عبد الله الرحيل معهم نحو الشام وعندئذ تحول أبو مسلم فنزل فى

معسكر عبد الله بن علي في الموضع الحصين . "وغور ما حوله من المياه وألقى فيها الجيف" واضطر عبد الله والشاميون إلى النزول في موضع عسكر أبي مسلم ، واستمر الصراع بين الفريقين مدة طويلة زادت إلى أكثر من خمسة أشهر . وكان أهل الشام أكثر فرساناً ، ورغم حصانة المواقع التي احتلها أبو مسلم ، فإن الشاميين استطاعوا بعد شهر من المناوشات من توجيه هجمة قوية نحو المعسكر العباسي وتمكنوا من زحزحته عن مواضعه .

وتشير النصوص إلى مهارة أبي مسلم في تسيير دفعة القتال فقد أقام عريش كان يجلس عليه فينظر إلى رجاله فإذا رأى خللاً في بضع صفوفه أرسل الرسل إلى مختلف القواد لاتخاذ الموقف المناسب .

ولم يستطع أهل الشام أن يستفيدوا من ذلك النجاح المحقق الذي أحرزوه ، وفي شهر جمادى الثاني سنة 137 هـ دارت المعركة الحاسمة يتلخص تكتيك هذه الموقعة في أن أبا مسلم أمر الحسن بن قحطبة أن يعبئ الميمنة أكثرها إلى اليسرة وأن يترك في الميمنة جماعة أصحابه وأشداءهم ولما رأى ذلك أهل الشام كشفوا ميسرتهم وانضموا إلى ميمنتهم بإزاء ميسرة أبي مسلم وهنا أمر أبو مسلم أهل القلب والميمنة أن يهجموا على ميسرة أهل الشام . ونجحت هذه الخطة وانهزم أصحاب عبد الله وتركوا عسكرهم .

اكتفى أبو مسلم بالانتصار فأعلن الأمان في الناس وأمر بعدم الانتقام من المنهزمين ولما كتب إلى المنصور يعلمه بالنصر وبالاستيلاء على معسكر عبد الله أرسل المنصور مولاه ليحصى الغنائم . وكان ذلك من الأسباب التي أثارت غضب أو مسلم ، وعملت على زيادة الجفوة بينه وبين الخليفة . تقول رواية أن أبا مسلم قال : أنا أمين في الدماء خائن في الأموال .

أما عبد الله بن علي وأخوه عبد الصمد بن علي الذي كان معه فلجأ عبد الله إلى أخيه سليمان الذي كان والياً على البصرة وتواري عنده حتى سنة 139 هـ وعندما عزل سليمان وطلب إليه المنصور أن يبعث بعبد الله بعد أن أمنه ولكنه سجن وانتهى الأمر بقتله فيما بعد .

لجأ عبد الصمد إلى موسى بن عيسى ولي العهد في الكوفة وطلب إليه الأمان وانتهى هو الآخر نهاية شبيهة بعبد الله .

وهكذا تغلب المنصور على أولى الصعاب التي اعترضته بعد خلافته وهي ثورة أهل الشام بزعامة عمه عبد الله وذلك بفضل رجل الدولة أبي مسلم الخراساني الذي لم يلبث أن يلقى مصرعه بدوره على يدي الخليفة .

مقتل أبي مسلم الخراساني :

مما سبق يتضح لنا أن سلطان أبي مسلم في خراسان كان قد توطد بعد تخلصه من العرب الذين كانوا يتوقفون إلى تقلد الأمور في ولاية خراسان وازدادت سلطة أبو مسلم .

والحقيقة أن النزاع بين أبي جعفر وأبو مسلم يرجع إلى سنة 132 هـ إلى أوائل أيام السفاح وذلك بعد مقتل أبي سلمة الخلا وعندما أرسل السفاح أخاه أبا جعفر إلى أبي مسلم بخراسان ومعه العهد لأبي مسلم بولاية خراسان وبالبيعة للسفاح ولأبي جعفر من بعده فلم يهتم الزعيم الخراساني بولى العهد أى بأبي جعفر الذى كان يقول لأخيه اطعنى واقتل أبا مسلم فوالله إن فى رأسه لغدره .

وحاول أبو العباس التقليل من نفوذ أبي مسلم واغتياله عدة مرات من ذلك ما تقول الرواية من أنه أمره باسقاط من لم يكن من أهل خراسان من جنده ليقتل من نفوذه ولكن أبا مسلم ادرك الحيلة وتجلت قوة أبي مسلم فى نفس الوقت عندما أرسل السفاح عمه عيسى بن على والياً بفارس وتقول الرواية أن عمال أبي مسلم هناك تصدوا له بل وبلغ الأمر أن بعضهم أراد قتل عيسى بن على ، وعلى ذلك كان من الطبيعى أن يفكر السفاح وأبو جعفر فى التخلص من "أمين آل محمد" بعد أن تخلصوا من "وزير آل محمد" وذلك حسب السياسة التى رسمها والتى كانت ترمى إلى تأكيد سلطان الهاشميين . ويظن أن السفاح وافق على التخلص من أبي مسلم ولكنه عاد وأجل ذلك لفرصة أخرى . وأخيراً فى نهاية سنة 136 هـ طلب أبو مسلم من السفاح أن يوليه إمرة الحج وأن يكون نائبه يوم عرفة ولكن السفاح جعله تحت أمره أخيه أبا جعفر الذى أخذ إمرة الحج لنفسه وحضر من ولايته ارمينية من أجل ذلك وتأثر أبو مسلم وأسرها لأبي جعفر وعمد إلى الظهور بجانبه . ثم أنه عندما وصله نبأ موت السفاح وهم فى طريق العودة لم يسارع أبا مسلم ببيعة المنصور إلا بعد أن لفت الأخير نظرة إلى ذلك فى كتاب أرسله إليه . وأثناء قتال عبد الله بن على لاحظ الحسن بن قحطبة أن أبا مسلم يهزأ ويستخف بالكتب التى كانت تصله من أمير المؤمنين فكتب بذلك إلى الوزير أبو أيوب . وأخيراً زاد التوتر عندما أرسل المنصور مولاه ليحصى الغنائم التى استولى عليها فى معسكر أهل الشام .

وأحس المنصور خطورة الرجل وحاول إبعاده عن خراسان معقله وموطن سلطانه ، فعرض عليه أن يوليه بلاد الشام ومصر ، وطلب إليه أن يسير إلى ولايته الجديدة ، وشعر بو مسلم بما يضمرة الخليفة فلم يقبل ما عرض عليه . وقرر العودة إلى ولايته خراسان . ولكن المنصور رغبه ورهبه واتصل بنائب أبي مسلم فى خراسان الذى هدد أبا مسلم وجعله يخضع لأوامر الخليفة . وبفضل إغراء بعض أصحابه سار أبو مسلم إلى المنصور ليعتذر له

عما بدر منه ، وكان المنصور فى ذلك الوقت قد سار من الأنبار إلى المدائن "لينظر مكان العاصمة الجديدة" وقابل رجال المنصور أبا مسلم قبولا حسنا ، واطهروا له آيات الإجلال وطمأنوه ثم دخل أبو مسلم على المنصور ، فأقبل عليه الخليفة يعاتبه ويعدد له هفوته وسقطاته . واعتذر أبو مسلم عن ذلك ببلائه وما كان منه ، وما قام به فكان رد المنصور . "يا ابن الخبيثة والله لو كانت أمه مكانك لأجزأت إنما عملت فى دولتنا وبريحننا فلو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلاً" . وأمر به فقتل تحت ناظريه فى 25 شعبان سنة 137 هـ .

وتقول النصوص أن جعفر بن حنظلة لما نظر إلى أبى مسلم مقتولا قال للمنصور يا أمير المؤمنين عد من هذا اليوم خلافتك" .

وبعد مقتل المنصور لأبى مسلم خطب الناس وحذرهم من الخروج من أنس الطاعة إلى حشة المعصية وبرر موقفه من الرجل الذى أبلى فى سبيلهم أحسن البلاد بقوله ، ولم يمنعنا الحق له من امضاء الحق فيه" .

الموقف فى خراسان عقب مقتل أبى مسلم :

ثورة سنباد :

لم يمر موت أبى مسلم بسلام وذلك أنه قامت بخراسان ثورة تطالب بدم أبى مسلم هذه الحركة تزعمها رجل من إحدى قرى مدينة نيسابور اسمه "سنباد" واستجاب لدعوة هذا الرجل التى قالت بعودة أبى مسلم "وأنه لم يمت ولن يموت حتى يظهر فيملاء الأرض عدلاً" كثير من الناس .

واستطاع سنباد أن يستولى على نيسابور وقومس والرى . وأتى بالكثير من أعمال العنف والتخريب والنهب ولكن جيوش الخليفة تمكنت من هزيمته

بين همدان والرى . وأتى بالكثير من أعمال العنف والتخريب والنهب ولكن جيوش الخليفة تمكنت من هزيمته بين همدان والرى وانتهى الأمر بقتله .

ولكن هذا لا يعنى خضوع خراسان إذ ستظل البلاد أرضاً خصبة صالحة لقيام الحركات المعادية للدولة إذ تقول الرواية أنه فى سنة 141 هـ قام الرواندية من أهل خراسان ممن يدينون بأفكار أبى مسلم ويعتقدون بتناسخ الأرواح . ونادوا بألوهية المنصور وساروا من خراسان إلى الهاشمية وحاول الخليفة أن يستعمل معهم اللين والسياسة ولكنه لم يوفق فى ذلك مما اضطره إلى التشدد معهم واستعمال العنف والقوة فحبس زعماءهم ولكن الأمر تطور إلى أن قاموا بثورة هددت المنصور نفسه إذ كسروا السجن وأخرجوا أصحابهم واتجهوا نحو الخليفة الذى أظهر شجاعة نادرة فى قتلهم والتنكيل بهم .

وسيظل حزب أبى مسلم هذا قائماً وسيضم إليه كثير من أهل البلاد واتخذ هذا الحزب المناوى للدولة شعاراً مضاداً لشعار الدولة ألا وهو اللون الأبيض وعلى ذلك أصبحوا يسمون بالمبيضة .

هذا عن ثورات المشرق ذات الأفكار الخارجية .

كذلك عرفت الدولة بعض الثورات مثل : ثورة الخوارج فى الجزيرة تلك الثورة التى أخدمتها الدولة .

والثورة التى قام بها القائد - الذى هزم سبناذ فى سنة 138 هـ وهو جمهور بن مرار العجلى . هذا الرجل بعد أن هزم سبناذ واستولى على خزائنه ، رفع راية العصيان ، ولكن انتهى الأمر بهزيمة جمهور ، ومقتل الكثير من أصحابه . وهرب جمهور إلى اذربيجان ولكن أصحابه قتلوه وحملوا رأسه إلى المنصور .

ثورة عبد الجبار بخراسان :

فى سنة 141 هـ قام والى خراسان عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي بثورة وسير إليه الخليفة ابنه ولى عهده المهدي الذى تمكن من القضاء على

الثورة بسهولة . ولكن المنصور حرص على ألا يضيع نفقات الحملة التي كان قد جهد في تجهيزها فوجهها إلى بلاد طبرستان .

وفي سنة 142 هـ قام والى السند عيينة بن موسى بن كعب ، الذي كان بعيداً في أقصى المشرق بالثورة ولكن الدولة استطاعت أن تقضى عليه ، كما أنها أقرت الأمور وقصت على الثورة التي قامت في بلاد الديلم وهذه الحملات حمت حدود الدولة وصانتها .

موقف العلويين :

أن العباسيين كما نعرف - عندما قاموا بثورتهم إنما قاموا بها باسم آل البيت وانتقاماً وثاراً لمقتل العلويين واستغلوا عطف الناس على العلويين خاصة في بلاد الحجاز . وحين بدأ محمد بن علي بن عبد الله بن العباس دعوته السرية كان حذراً واستند في ادعائه بالخلافة إلى وصية أبي هاشم عبد الله ، كما كان شعار الدعوة إلى "الرضا من آل محمد" واستطاع ابنه إبراهيم الإمام الذي خلفه في زعامة الدعوة أن يوجه جهوده إلى خراسان حيث توجد القبائل العربية المتدمرة من الإدارة الأموية . وكللت جهوده بالنجاح إلا أنه قتل قبل وصول الشيعة العباسية إلى العراق واحتلالها الكوفة .

وقد بايع زعماء الدعوة أبا العباس عبد الله بن محمد خليفة للدولة العباسية وما أن تسلم العباسيون مقاليد السلطة حتى نظروا إلى العلويين نظرة ريبة باعتبارهم المنافسين لهم على الخلافة ويشكلون مصدر خطر على الدولة الجديدة . أما الشيعة العلويين فقد نظروا إلى العباسيين كمغتصبين للسلطة من أصحابها الشرعيين . وهكذا دخل النزاع حول الخلافة مرحلة جديدة حيث أصبح نزاعاً بين الهاشميين أنفسهم . بين العباسيين والعلويين .

على أن العلويين لم يكونوا متحدين أو متفقين على زعامة واحدة تظم كفاحهم المسلح وغير المسلح تجاه العباسيين . ثم أن كثرة القيادات العلوية يعنى بالتالى أن ولاء الشيعة فى تلك الفترة لم يكن باتجاه واحد واضح نحو فرع علوى معين .

قامت حركة العلويين ضد أسرة بنى العباس فى المدينة، وكانت المدينة مركز الأسرة العلوية الكبيرة ، وكان المنصور ، يعتقد أن للعلويين سلطاناً كبيراً هناك ولذلك فهو شديد الحرص على قمع حركتهم وعلى بسط سلطانه على الحرمين بصفته الإمام . واجتهد المنصور فى طلب مديري الثورة وهما : محمد بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن الذى يلقب "بالنفس الزكية" (وكان يدعى بالنفس الزكية لزهده ونسكه كما يقول المسعودى) وأخوه إبراهيم . وكانت الدعوة للنفس الزكية والسبب فى مطالبة محمد بن عبد الله بن الحسن بالخلافة

أنه كان يرى أحقيته في الملك وذلك من قبل أن يلي المنصور وربما قبل أخيه أبي العباس . وتقول الروايات أن أبا مسلم كان قد راسل عبد الله بن الحسن أبو محمد هذا وأنه عرض عليه الخلافة وان عبد الله قبلاه . وكان يرأسل جعفر الصادق ولم يقبلها ولولا تأخر الرسول في العودة لربما انتقلت الإمامة فعلاً إلى الفرع العلوي .

وتقول الرواية أن عبدالله عندما عرض عليه هذا الأمر قال إنما يريد القوم ابني محمد لأنه مهدي هذه الأمة .

وكان محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم قد تخلفا عن الحضور مع من حضر عنده من بنى هاشم مع من حج على أيام السفاح . والظاهر أن محمد ادعى أن المنصور كان قد بايعه في مكة في أواخر أيام مروان بن محمد وعلى هذا الأساس قام هو بالدعوة لنفسه . وهناك تفاصيل عن مطالبة المنصور لمحمد ولأخيه إبراهيم منذ سنة 136 هـ إلى سنة 140 هـ حينما أعلن الثورة .

في هذه الفترة تجشم العلوي الكثير من المشاق واضطر إلى التنقل بين البصرة والمدينة والسند والكوفة كما أرسل محمد أخوته وأبناءه في سائر الأمصار والبلدان للدعوة له ، فأرسل ابنه علياً إلى مصر يدعو إليه ولكنه قتل بها .

وحاول العلويين أن يدبروا مؤامرة لقتل المنصور في موسم الحج في سنة 140 هـ ولكن هذه المؤامرة فشلت وراح ضحيتها بعض أصحاب محمد الذي كان قد عاد إلى المدينة وتمكن بفضل تساهل واليها من الخروج عنها . وعزل المنصور هذا الوالي وعين مكانه محمد ابن خالد بن عبد الله القسري وأمد بالأموال وفوض إليه سلطات واسعة في كشف "تفتيش" المدينة ولكنه لم ينجح في مهمته . فعين المنصور عاملاً آخر مكانه اسمه رياح بن عثمان بن حيان المري وذلك في سنة 144 هـ وجد الوالي الجديد في طلب محمد ولكنه لم ينجح فلجأ إلى سجن كل العلويين من أبناء الحسن من الفرع الحسنى وليس من الفرع الحسينى فقيدوا بالحديد والسلاسل وعذب بعضهم بقسوة في حضرة المنصور ، بل قتل البعض . ويسير بعدد منهم إلى الكوفة حيث حبسوا . وإزاء هذه الإجراءات التعسفية اضطر محمد أن يضع حداً لهذه المأساة وذلك بأن أعلن الثورة في سنة 145 هـ وعلم الوالي بما يدبره محمد فحاول تلافى الثورة وحمل أهل المدينة المسؤولية الجماعية . وكان يساند الحركة العلوية من الناحية الشرعية القانونية الفقيه مالك بن أنس صاحب المذهب المالكي . من ذلك أن مالك بن أنس حلل الناس من البيعة ومن يمين الولاء للمنصور فقال لهم "إنما بايعتهم مكرهين وليس على مكره يمين ولذلك لم يفلح التهديد وتشاور

العلويون وكسروا السجن وحرروا أقاربهم ممن كانوا قد سجنوا وتوجهوا إلى دار الإمارة واستولوا عليها وسروا الوالى .

وبعد أن استولى محمد على المدينة بدأ فى تنظيمها الإدارى فاستعمل والياً وقاضياً وصاحب بيت السلاح وصاحب الشرط ، وكذلك أنشأ ديواناً للعطاء وسجل فى الديوان أسماء أعوانه وأتباعه .

وبدأ محمد يرسل الولاة إلى الأقاليم المختلفة ، لدولته الناشئة ، فأرسل والياً إلى مكة هزم واليها العباسى وبعث بآخر إلى اليمن ، وبثالث إلى بلاد الشام . ولكن هذا الأخير لم يستطع أن ينجح فى مهمته .

ويمكننا أن ننظر إلى اختيار محمد للمدينة كمركز لثورته على أنه عمل لا يدل على بعد النظر السياسى ، والظاهر أن محمد نفسه كان يعرف ذلك إذ تقول الرواية أنه قال فى خطبته فى المسجد : " أن أحق الناس بالقيام فى هذا الدين أبناء المهاجرين والأنصار " وقال : إني والله بين أظهركم وأنتم عندى أهل قوة ولا شدة ولكنى اخترتكم لنفسى هذا يعنى أن المسألة فى نظرة كانت مسألة تقليد وسنة لا تقوم على اعتبارات اقتصادية أو بشرية وهذا لا يكفى بطبيعة الحال لأن الظروف كانت قد تغيرت عما كانت عليه فى الفترة الأولى فى بداية الإسلام .

وعندما بلغ المنصور خبر الثورة جزع وطلب النصح من كل ما يمكنه نصحه رغم علمه بعدم خطورة ثورة محمد فى المدينة فإنه لجأ إلى استعمال السياسة والمداراة وكتب إلى محمد يطلب إليه العودة إلى الطاعة ويعطيه الأمان المطلق له ولأهله ولكل من بايعه مع الوعد بالرزق والعطاء الجزيل كما أنه سوغه ما أصاب من دم أو مال . ورد محمد بالرفض بطبيعة الحال .

وهذه المراسلات التى دارت بين المنصور وبين محمد النفس الزكية تبين الأسانيد الشرعية والجدل الفقهى الذى اكن يستند إليه كل من الفريقين فمحمد يقول : " فإن الحق حقنا وإنما أذعيتم هذا الأمر بنا وخرجتم له بشيعتنا " ، كما يقول " أن أبانا علياً كان الوصى وكان الإمام فكيف ورثتم ولايته وولده إحياء؟ ثم يقول : " وأنا بنوام رسول الله □ فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية وبنو بنته فاطمة فى الإسلام " .

ثم هو بعد ذلك يؤمن المنصور أن دخل فى طاعته وأجاب دعوته على نفسه وماله وعلى كل أمر أحدثت إلا حداً من حدود الله أو حقاً لمسلم أو معاهد فقد علمت ما يلزمنى من ذلك .

وهذا الشرط الأخير يدل على صلابة فى الرأى فيما يتعلق بالأمور الدينية وهو يدل فى نفس الوقت على عدم بعد النظر السياسى . كما أنه يلاحظ أن أمان

المنصور لا يعتدي به ويذكر بالأمان الذي أعطاه لابن هبيرة ولعمه عبد الله بن علي والأمان الذي أعطى لأبي مسلم .

ولم يكن من العسير على الخليفة العباسي أن يفند ادعاءات العلوي فهو يلفت نظره إلى أنه فخر بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء ولم يجعل النساء كالعوممة لأن الله جعل العم أبا . يحتج أن العباس من أعمام النبي □ أسلم تبعاً لما تقوله الآية : "وانذر عشيرتك الأقربين" بينما لم يسلم أبو طالب ثم هو يفد حقوق علي بن أبي طالب في الخلافة ويدفع بعدم كفاءته فإنه رغم سابقته في الإسلام دعا النبي عندما مرض غيره للصلاة بالناس ثم أنه لم ينتخب يوم السقيفة . ولما كان في الستة الذين عينهم عمر تركوه كلهم دفعا ولم يروا حقاً له فيها .

وبعد أن يروي له قصة جهاد العلويين وفشلهم على أيام علي الذي اجتمع الحكمان على خلعه وحسن الذي باعها من معاوية وحسين الذي قتل ثم تقتيل الأمويين لهم . ويقول أن العباسيين هم الذين طلبوا ثأرهم وادركوا بدمائهم وأنه لا يجوز له أن يأخذ ذلك حجة عليهم .

هذا عن دفع العلويين وتفنيدهم ثم هو بعد ذلك يبين ادعاءات العباسيين في مطالبتهم بوارثة خلافة النبي فيقول أن العباس كانت له سقاية الحج . وولاية زمزم في الجاهلية والإسلام ثم يذكر حقوق العباس التي لا تنازع في هذا الميراث وهو أنه لم يبق من بني عبد المطلب بعد النبي غيره بمعنى أنه يريد أن يجعل الخلافة تركه يرثها أقرب الناس إلى النبي وهذه هي وجهة نظر أقارب النبي والشيعية . وهي في الحقيقة بعيدة عن السنة وعن روح الإسلام . تلك كانت حجج كل من الفريقين . وكان على القوة أن تقرر لمن تكون الخلافة . وندب المنصور عيسى بن موسى ولي العهد لمحاربة العلوي وأرسل معه ابنه محمد واقترب عيسى من المدينة ، واستشار محمد النفس الزكية اتباعه فأشار عليه البعض بالخروج من المدينة ولكنه أخذ برأى القائلين بالمقام ثم أنهم بتفكيرهم المثالي التقليدي الساذج فكروا كما فعل النبي في حفر خندق يحميهم من المهاجمين . هذا مع أن بعضهم لم يرغب عنه ضعف هذا الموقف من الناحية العسكرية الاستراتيجية .

ولم يكن تأييد أهل المدينة لمحمد قوياً ، كما خرج إناس من أهل المدينة بذرائعهم وأهلهم إلى الأعراس والجبال وبقي محمد في شردمة يسيره وأمر المنصور نائبه ألا يقاتل أهل المدينة إلا فيما ندر وأن يتسامح معهم ، ولكنه ألح عليه في القبض على محمد وعدم تمكينه من الهرب وأن يعلن مسئولية جميع القبائل إذا تمكن النفس الزكية من الفرار . وعرف محمد خنوع المدنيين واتخذ

معهم بعض الاجراءات العنيفة ولكنه سمح في آخر الأمر لمن يريد الخروج منهم أن يخرج . وحاصر عيسى المدينة وسد منافذاه وتمكن جنده من الوصول إلى الخندق فردموه وتفرق معظم اتباع محمد النفس الزكية الذي سقط قتيلاً بعد قتال سريع مجيد وذلك في منتصف رمضان سنة 145 هـ كانون أول "ديسمبر" 762 م .

ولم يكن للثورة العلوية من رد فعل في المدينة لا اضطراب السودان في البلد الذين استولوا على بعض أمتعة الوالي الجديد ولكن أمرهم انتهى الى الهدوء .

وهكذا قضى المنصور على محمد النفس الزكية ولكن بقي أخوه إبراهيم الذي خرج في البصرة والتي كانت ثورته أشد خطراً على المنصور .

ثورة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن أخى محمد بالبصرة :

كان إبراهيم يدعو - كما سبق القول - لأخيه محمد ، وأغلب الظن أن الأخوين كانا قد اتفقا على أن يعملوا منفصلين ، وذلك حتى تتم المباغثة للدولة وحتى إذا ما انهزم أحدهما نجا الآخر ولو عرف إبراهيم كيف يستغل الظروف ويسير بجيوشه ضد المنصور وقت أن كان المنصور في ضعف نتيجة لانتشار قواته في أطراف الدولة لربما انتهت ثورته في البصرة بالنجاح .

وكما تقول الروايات اتخذ إبراهيم المشرق مجالاً لنشاطه وذلك في فارس وكرمان والأهواز وذلك قبل قدومه البصرة واستقراره به .

وبدأ إبراهيم حركته في البصرة في شهر رمضان سنة 145 هـ بداية طيبة وكانت الظروف مواتية له إذ تقول رواية خليفة بن خياط ، التي ترجع إلى شهود عيان للأحداث أن الولي سفيان بن معوية بن يزيد بن المهلب سلم دار الإمارة إلى إبراهيم من غير قتال ثم قوى أمره بما استولى عليه من دواب الجند وما أخذه من الأموال بعد الاستيلاء على دار الإمارة ، واستطاعت طلائع قواته أن حرز بعض النصر على القوات العباسية فاستولت على الأهواز بعد أن ألحقت الهزيمة بواليتها ، كما نجحت في دخول فارس وتمكنت من تملك مدينة واسط ، وهي المركز الاستراتيجي الممتاز في ذلك الوقت .

ولم يكن لدى المنصور ، إلا قلة من العسكر ، إذ كانت جيوش الدولة موزعة في الحجاز وفي خراسان وفي افريقية التي كانت مضطربة أيضاً . وأحس المنصور بحرج موقفه فأظهر الزهد والتنسك والتقشف . ولكن سرعان ما استعاد رباطة جأشه فاستدعى عيسى بن موسى من المدينة وطلب بعض جيوشه التي كانت بالرى وكتب إلى المهدي ابنه يأمره بإرسال القوات لاستعادة

الأهواز ووجه عيسى بن موسى إلى قتال إبراهيم وطلب أهل الكوفة من إبراهيم المسير ليستعين بهم ولكن النصوص تقول أنه كان مثالياً فخشى أن خرج أهل الكوفة إليه أن تفتك خيل المنصور بنسائهم وأطفالهم .

وأخيراً خرج إبراهيم من البصرة للقاء عيسى ونزل في موضع يعرف باسم باخمراء " على بعد 16 فرسخ من الكوفة" وحسب تقاليد هؤلاء الثوار المثاليين ، وكما حدث في المدينة رفضوا أن يقاتلوا فرقة حتى إذا ما انهزمت فرقة خرجت فرقة غيرها للقتال وأصروا على أن يقاتلوا صفا مثل أهل الإسلام رغم ما قيل لهم من أن الصف إذا انهزم تداعى سائره واقتتل الناس قتالاً شديداً ، وانتصر أصحاب إبراهيم في البداية ولكن الأمر انتهى بهزيمتهم وبمقتل إبراهيم في 25 من ذي القعدة سنة 145 هـ .

وبذلك اندحرت الثورة العلوية وخلص الأمر للعباسيين .

بناء مدينة بغداد :

انصرف اهتمام المنصور إلى تشييد حضره جديدة للدولة ، وكان قد شرع في ذلك ، عقب توليه الخلافة مباشرة . فتقول النصوص أنه كان يبحث عن موضع مناسب لتلك العاصمة . وكان السفاح قد استقر في الأنبار في الهاشمية وهي التي استقر فيها المنصور في أول عهده – ولما كانت الهاشمية على الضفة اليسرى للفرات فإنها كانت قريبة من الكوفة . والكوفة كانت مركز العلويين وهي التي سببت الكثير من القلاقل للدولة الأموية ربما كان هذا هو السبب في عدم اختيار ذلك الموضع لبناء العاصمة الكبرى .

وتجمع الروايات على أن المنصور لم يبن مدينته الجديدة في مكان قفر خال من السكان بل أن الكتاب يذكرون عدداً من الأماكن العامرة بالقرب منها ويذكرون من بين هذه الأماكن بغداد على الضفة الغربية لنهر دجلة وربما كانت هذه القرية نواة عاصمة المنصور المستديرة .

واسم بغداد يعنى "عطية الله" وتقول النصوص أيضاً أن المنصور عندما بناها سماها "مدينة السلام" وكان يطلق على المدينة أيضاً اسم المنصورية وذلك نسبة إلى بانيها وكذلك عرفت باسم الزوراء .

وكان اختيار المنصور لذلك الموضع موفقاً وذلك أن ازدهار المنطقة يرجع إلى مركزها الممتاز من نواحي كثيرة . فالأرض فى هذا المكان خصبة جيدة بسبب وقوعها بين دجلة الفرات فى ذلك الموضع الذى تضيق به المسافة بين النهرين ، فكان يمكن تهيئة وسائل الرى فيها بسهولة عن طريق القنوات التى تصل بين النهرين والتى كانت صالحة للملاحة . ووجود هذه القنوات كان يجعل المدينة فى موضع استراتيجى حصين فتقول الرواية أنه قيل للمنصور عندما اختار هذا الموضع : "أنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة فإذا قطعت الجسر وأخربت القنطرة لم يصل إليك . ودجلة والفرات والصرارة خنادق هذه المدينة ، وأنت متوسط للبصرة والكوفة وواسط الموصل والسواد وأنت قريب من البر والبحر والجبل .

ووضع المنصور بيده أول لبنة فى بناء المدينة فى سنة 145 هـ وقال "بسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ثم قال ابنوا على بركة الله" .

وبعد تخطيط المدينة ، وبلوغ السور مقدار قامة ، قامت الثورة العلوية فى المدينة والبصرة فصرف المنصور كل همه إليها وترك البناء حتى تم له القضاء على النفس الزكية وأخيه إبراهيم .

واستلزم البناء جمع عدد كبير من الصناع والفعلة من مختلف الجهات وهناك تفصيلات عن العمال ومراتبهم من : الأستاذ إلى الروزكارى . وأشرف على البناء وحساب النفقات قوم من ذوى الفضل والعدالة والفقه وذوى الأمانة والمعروفة بالهندسة من هؤلاء الفقيه الشهير أبو حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفى .

وقسمت المدينة إلى أربعة مناطق تسمى أرباع وذلك تحت إشراف أربعة من القواد يسهرون على العمل الذى استمر طوال أربع سنوات . وخطت المدينة ورسمت حسب خطة جعلتها تتسع فى شكل دائرى . فالنص يقول "وجعل المدينة مدورة لئلا يكون بعض الناس أقرب إلى السلطان من بعض" وبدء ببناء قصر الخليفة فى وسطها ، أقرب وإلى جانب القصر بنى المسجد الجامع . ويفهم من النصوص أن مدينة المدائن القديمة أمدت بغداد بكثير من مواد البناء الكبيرة التى قامت عليها وحول نواة المدينة أى حول القصر والجامع تجمعت بغداد فى شكل دائرى وقسمت إلى أحياء منفصلة تخرق هذه

الأحياء طرق عريضة مستقيمة كان يبلغ عرض الطريق منها 40 ذراعاً واتسعت المدينة وعملت فيها مجارى المياه ، وأقيمت فوقها القناطر وانشئت الصهاريج ، وحصنت المدينة تحصيناً قوياً حتى تكون الإقامة فيها مأمونة ثم أحيطت بسورين أحدهما من الداخل والآخر خارجي ، وكان السور الداخلى أعلى من السور الخارجى . وكانت المنطقة بين السورين تسمى الفصيل . وجعل للمدينة أربعة أبواب المسافة بين كل باب من أبوابها والباب الذى يليه تقدر بميل . ومن هذه الأبواب باب خراسان وكان يسمى باب الدولة لإقبال الدولة العباسية من خراسان وهو فى الشرق وباب الكوفة الذى يسمى أيضاً باب الكرخ اتجاه الكوفة وفى اتجاه الحجاز وفى الغرب باب الشام ، وفى اتجاه الجنوب باب البصرة ، وهو يوصل إلى منطقة الأهواز وفارس وخوزستان . ويقال أن المنصور لم يصنع للمدينة أبواباً جديدة ولكنه استجلب لها الأبواب من مدينة واسط باستثناء باب الشام الذى صنعه المنصور . وشعر المنصور بضيق قصره وسط المدينة التى تموج بالسكان ، وبنى بعد الإنتهاء من المدينة المسورة وخارج أسوارها الشرقية قصراً ثانياً هو قصر الخلد . وحدث شغب بين أهل السوق فاضطر الخليفة أن يخرج أهل الأسواق من المدينة وأن يسكنهم فى منطقة الكرخ فى الجنوب . وبنى أيضاً المنصور الجزء الشرقى من بغداد وأنشأ فى هذا المكان الجديد وشمال القصر الذى خصص ليكون معسكراً لولى العهد المهدي قصر "الرصافة" ووزعت الأراضى المحيطة بالمدينة كاقطاعات لأقارب المنصور ولمواليه ولكبار رجال الحاشية

ومن هذا الوصف يمكن أن نرجح أن المنصور عندما بنى مدينته كان يهدف إلى بناء معسكر لجنده الخراسانية بعيداً عن مدينة الكوفة بمعنى أن نشأة بغداد كانت أشبه ما تكون بنشأة المدن التى بنيت فى صدر الإسلام مثل : البصرة والفسطاط والقيروان التى أسست لتكون قواعد عسكرية للجند العربى فى تلك الأقاليم .

بعض مظاهر نظر الدولة :

وظهرت المدينة الجديدة بمظهر يختلف عن مدينة دمشق حاضرة الأمويين فالخليفة العباسي ظهر بمظهر الإمام أولاً وقبل كل شئ أولاً وقبل كل شئ وكلمة الإمام هنا لها معنى دينياً أكثر من كلمة الخليفة أو كلمة أمير المؤمنين فالإمام هنا مشتقة من إمامة الصلاة .

وعمل العباسيون على تأكيد صفتهم الدينية هذه فكانوا يرتدون البردة التي كان يلبسها الرسول □ هذا في الوقت الذي عهدوا فيه بجزء كبير من سلطانتهم الزمى إلى الوزير ، ووظيفة الوزير تعتبر تجديداً عباسياً فيما يتعلق بإدارة الدولة وذلك أن اللقب لم يعرف عند الأمويين قبل ذلك . كان اللقب عند الأمويين هو لقب الكاتب .

وأحاط الخليفة العباسي نفسه بمظاهر الأبهة والعظمة .

أما عن البلاط العباسي ، فكان يظهر فيه إلى جانب أفراد الأسرة وأل النبي □ ، وهؤلاء كانوا يكونوا طبقة الأعيان ، إلى جانبهم كان يظهر كبار رجال الدولة والموالي ، كما كان هناك القراء والفقهاء والأطباء وعلماء الفلك والشعراء والموسيقيون والمضحكون والخصيان . كل هذا يعنى أن خليفة بغداد لم يعد شيخ قبيلة بل أصبح وريث ملوك فارس .

ولم تعد الوظائف الكبيرة فى الدولة وفقاً على النبلاء بل أصبحت تمنح وكذلك أصبحت الملابس الرسمية التي تعرف بالخلع هى السمة المميزة لأصحاب الرتب الكبيرة ، وكذلك القلائس الطويلة التي أمر المنصور كبار موظفيه بلبسها .

وإذا كان الأمويون قد عرفوا وظيفة الحاجب وهو الرجل الذى ينظم مقابلات الخليفة فإن الخليفة العباسي أصبح بعيداً كل البعد عن العامة بفضل عدد كبير من الحجاب والموظفين ورجال الدولة الذين كانوا يزدادون عدداً مع مرور الوقت .

والى المنصور يرجع الفضل فى وضع نظم الدولة العباسية فقد حافظ على النظام الساسانى البيزنطى الذى كان معمولاً به على أيام الأمويين كما أنه جدد بناء هذا التنظيم فأصبح على كل ولاية عامل أو وال وكان لأفراد الأسرة نصيب كبير فى هذه الولايات .

البريد :

وبفضل نظام البريد الذى عرفه الأمويون والذى توسع فيه المنصور استطاع الخليفة أن يفرض رقابة شديدة على إدارة الولايات المختلفة .

وكان على أصحاب البريد أن يقوموا بكل الاستعمالات رغم أن عملهم كان يتركز في إمداد الخليفة بالمعلومات المتعلقة بقيام الولاة باداء مهام وظائفهم في أعمالهم ، وكانت تقارير أصحاب البريد لها أهمية خاص فعن طريق هذه التقارير كانت تعرف حالة المحاصيل فتتخذ الاجراءات المناسبة في الوقت المناسب عندما يكون الوقت وقت جذب . وكانت احصاءات البريد هذه المصدر الذى استقى منه الجيل التالى علم الجغرافية الذى ازدهر عند العرب .

وتقول النصوص أن المنصور قال : "ما احوجنى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم هم أركان الدولة ولا يصح الملك إلا بهم . أما أحدهم فقاظ لا تأخذه فى الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى وصاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فإنى عن ظلمها غنى ثم عص على أصبعه السبابة ثلاثة مرات يقول فى كل مرة أه قيل : ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة .

الفقه :

ضم المنصور إلى بلاطه كبار الفقهاء وأصحاب المعرفة بعلم الحديث والفقه ، وكان تقريب الفقهاء يعنى أن الدولة المثالية التى تعنى بنشر العدل والشرع أصبحت حقيقة واقعة .

وفى ذلك الوقت كان مؤسساً المذهبين الكبيرين ألا وهما : المذهب الحنفى والمذهب المالكى على قيد الحياة كانا يميلان إلى العلويين يقال أن أبا حنيفة كان يميل إلى ابراهيم بن عبدالله عندما قام بثورته فى البصرة . وعاش أبو حنيفة فى الكوفة (وهو من عرب العراق الذين استوطنوا قبل الاسلام) وكان يشتغل بتجارة الحرير ، وتوفى أبو حنيفة فى سنة 150 هـ / 767م فى بغداد . كان قد قام بإلقاء الدروس فى الكوفة وكانت له آراؤه الفقهية وفتاويه . وتتميز مدرسة أبو حنيفة فى التوسع فى استعمال "الرأى" وكذلك القياس .

أما عن مالك بن أنس مؤسس المذهب المالكى بالمدينة فقد عرف بميله للعلويين أيضاً ، والظاهر أنه عوقب وضرب بالسياط لهذا السبب وذلك بعد أن فشلت ثورة النفس الزكية . ولكن الخلفاء سيقدرون مالك فيما بعد وسيزوره هارون الرشيد عند أدائه فريضة الحج وذلك قبل موته بقليل . وبينما كان اتباع

مالك ينشرون مذهبهم في بلاد العرب خاصة وفي الأندلس ، دخل الحنفيون في خدمة الدولة وعملوا على نشر مذهبهم وخاصة بعد أن شغل أبو يوسف "أحد تلاميذ أبو حنيفة" منصب قاضي القضاة ، فأصبح المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي .

ومدرسة مالك بن أنس مبنية على الأحاديث وذلك بسبب وجوده في مدينة الرسول □ وهو يهتم بالمتن أكثر من اهتمامه بالإسناد وهو علاوة على اتخاذه القرآن والسنة كأصلين للتشريع يضيف إليهما ما تعارف عليه أهل المدينة أي أنه يرى أن الإجماع هو إجماع أهل المدينة .

فتنة الموصل سنة 158 هـ :

وبتأسيس العاصمة الجديدة بغداد أصبحت سياسة الدولة شرقية ورغم أن المنصور اهتم اهتماماً كبيراً بتأمين وصيانة حدود دولته فعمل على تعقب الخارجين والقضاء عليهم فإن هذه السياسة الحازمة لم تمنع قيام الثورات في كثير من الجهات من ذلك ثورة الخوارج بالموصل سنة 158 هـ والفاصل التي أثارها الأكراد بهذه الجهات مما جعل المنصور يستعمل خالد بن برمك على الموصل فقهر خالد المفسدين وكانت له هيبة في نفوس الناس .

ثورة أستاذ سيبس :

قامت بخراسان ثورة بقيادة رجل يعرف باسم استاذ سيبس وذلك في سنة 150 هـ ، وكانت هذه الثورة خطيرة مثلها في ذلك مثل الثورات المذهبية التي قامت بإيران . فيقال أن هذا الرجل كثير من الاتباع "وغلّب على عامة خراسان" . واستطاع أن يوقع الهزيمة بعدد من الجيوش العباسية ، ولكن أمره انتهى بالهزيمة بعد أن سبب للدولة متاعب شديدة .

السياسة الخارجية :

الحرب ضد بيزنطة :

أما عن السياسة الخارجية فإنها كانت تتخلص في الصراع الذي أصبح تقليداً بين الإسلام وبين الدولة البيزنطية ، ولقد طال الصراع ضد بيزنطة لمدة زادت على أربع قرون هي التي بدأت بالتوسع الإسلامي وانتهت سنة 1195م بالحروب الصليبية . ورغم طول هذه الفترة كانت هذه الحرب سقيمة لم يستطع أحد طرفيها أن يحرز أثناءها انتصاراً حاسماً وخلال هذه الفترة عرفت بيزنطة

عصراً من القوة على أيام الأباطرة الأيسوريين وكان هذا من أسباب رجحان كفة بيزنطة ولكن اتت مسألة النزاع الداخلى في بيزنطة من أجل عبادة الصور ثم الاضطرابات التى تلتها فاضعت من قوة بيزنطة هكذا كانت الفرصة مواتية للمنصور فى سنة 149 هـ لى يوجهه جوماً ضد البيزنطيين .

والحقيقة أن الامبراطورية البيزنطية لم تكن مهددة تماماً من جانب الخلافة كما أن الخلافة كانت أقل عرضة للخطر من جانب البيزنطيين ولهذا السبب يطلق بعض الكتاب الأفرنج على هذه الحرب اسم "حرب العظمة" فهو يرى أن هذه الحرب لم تكن ضرورية ولكن الإسلام كان عليه أن يشعر دولة الكفار بسطوته وهيبته ولهذا كانت تقوم القوات الإسلامية بتلك الحملات التى تعرف باسم "الصوائف والشواتى" وهو يرى أن المصالح الاقتصادية بين بيزنطة وبين الإسلام كانت توجب قيام اتاق ودى بين الطرفين .

وعلى أية حال كان مجال العمليات العسكرية ضد بيزنطة فى المنطقة المحاذية لجبال طوروس فى الشرق وهى المنطقة التى عرفت عند الكاب باسم "العواصم" أو "الثغور" ومعناها الحد الذى يفصل بين دولة الإسلام وبين دولة الكفر خلف هذه المنطقة كانت توجد الممرات والمنافذ فى الجبال وكانت هذه الممرات محمية بالقواعد والقلاع ، وهذه القواعد كانت مدنا اغريقية قديمة جدها العرب وأعادوا بناءها وحولوها إلى حصون وأهم هذه الحصون أذنة طرطوس والمصيصة وسميساط وملطية ، ومرج دابق ، وخلف هذه القلاع كانت تمتد أقاليم أسية الصغرى وهى أرض الروم وهذه الأرض كانت هدف القوات الإسلامية خلال الصوائف والشواتى ترهب بها الأعداء وترجع بالسبب والمغانم أما عن الهدف الحقيقى للجيوش الإسلامية فكان هو عاصمة الدولة البيزنطية . ولكن قوات الاسلام لم تستطع تحقيق الاستيلاء على القسطنطينية .

والذى يلاحظ هو أن الصوائف لم تكن تذهب على أيام المنصور إلى بيزنطة إلا إذا كان العسكر غير منشغلين فى اخماد ثورة . تقول الرواية فى سنة 137 هـ " لم يكن للناس فى هذه السنة صائفة لشغل السلطان بحرب سنباذ" .

ولهذا السبب نجد أن فى السنة التالية يتمكن الامبراطور قسطنطين من أخذ ملطية ويهدم أسوارها ولكن المسلمين استطاعوا أن يستعيدوها وأعادوا بناءها وعمرها .

وبعد ذلك عقدت معاهدة فى سنة 139 هـ بين المنصور وبين الامبراطور قسطنطين وعلى ذلك فلم تعد الغارات إلا فى سنة 146 هـ بعد أن انتهى المنصور من حرب العلويين .

خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة للمهدى :

اضطر عيسى فى سنة 147 هـ أن يحل الناس من البيعة له وذلك بعد ضغط شديد من المنصور استعمل فيه الكثير من الأساليب العنيفة وأخذ المنصور البيعة لابنه المهدى بدلاً من عيسى الذى أصبح يلى المهدى فى ولاية العهد - وتقول الرواية أن عيسى قال "أنا ذا أشهد أن نسائى طوالق ومماليكى أحرار وما أملك فى سبيل الله تصرف ذلك فيمن رأيت يا أمير المؤمنين" . ويقال أن الناس تندرروا بعد ذلك بقولهم : "هذا الذى كان غداً فصار بعد غد" .

وفاة المنصور :

وفى شهر ذى الحجة من سنة 158 هـ توفى المنصور وكان فى طريقه إلى الحج بالقرب من مكة .

وكان المنصور كما تصفه الروايات من الحزم وصواب التدبير وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف فقد كان يشغل صدر نهاره بالأمر والنهى

والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل ، والنظر في الخراج
والنفقات ، ومصلحة معاش الرعية .. فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته فإذا
صلى العشاء الأخيرة جلس ينظر فيما ورد من كتب الثغور والأطراف .. وشاور
سماره فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سماره ، وإذا مضى الثلث
الثاني قام فتوضأ وصلى حتى يطلع الفجر ثم يخرج فيصلي بالناس ، ثم يدخل
فيجلس في أيوانه .

خلافة المهدي 158 - 169 هـ

مات المنصور - كما سبق القول - بالقرب من مكة وهو في طريقه لأداء الحج ، واحتفل بتأبينه وأخذ البيعة لأبنه .

ويفهم من النصوص أن الذي أخذ البيعة للمهدي هو ابنه موسى "الهادي" وكان من بين الحاضرين عدد من كبار رجال الدولة ، وبعض عمومه الهادي بل وتذكر الرواية أن عيسى بن موسى ، ولي العهد الثاني ، كان حاضراً بدوره كان متردداً ، والنص يقول : "أبي من البيعة" ولكنه بايع .

ووصل نبأ وفاة المنصور إلى المهدي الذي كان ببغداد في منتصف شهر ذي الحجة وأرسلت إليه اشارات الملك وهي : بردة النبي □ ، والقضيب وخاتم الخلافة .

وفي بغداد تمت البيعة الثانية للخليفة الجديد وهي "بيعة العامة" وأولى المشاكل التي اعترضت المهدي هي ولاية العهد ، فقد كان عيسى بن موسى هو ولي العهد الثاني . ومر عيسى بن موسى بنفس المحنة التي عرفها في عهد المنصور ن فقد تعرض للاضطهاد والتهديد والترغيب ومحاولة اقناعه عن طريق الفقهاء والقضاة خلع نفسه في أوائل سنة 160 هـ ، وبايع للمهدي ، كما بايع ابنه موسى الهادي بولاية العهد . ثم جلس المهدي في الغد ، وأحضر أهل بيته وأخذ بيعتهم ، ومخرج إلى الجامع ومعه عيسى بن موسى فخطب الناس وأخبرهم بخلع عيسى والبيعة للهادي فأسرع الناس لمبيعاته .

أما عن العلويين فلا تذكر الروايات أنه قام بأعمال عنيفة ضدهم وكان المهدي كما تقول الرواية محبباً إلى الخاص والعام . لأنه افتتح أمره برد المظالم وكف عن القتل وأمن الخائف وانصف المظلوم . إلا أن المهدي كما يفهم من النصوص استثنى بعض العلويين من التمتع بالعفو ، وهو الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي مما اضطره إلى الهرب من سجنه واقتل ذلك الخليفة ولكن الأمر انتهى بطلب العلوي الأمان من الخليفة فأمنه المهدي ووصله .

وأطلق المهدي كما تقول الرواية ابني داود بن طهمان ، الذي اكن يناصر إبراهيم في البصرة وقرب ابنة يعقوب - بن داود - تقريباً شديداً واستوزره وقرب داود بدوره الزيدية من العلويين "فجمعهم وولاهم أمور الخلافة في

الشرق والغرب" وكان ذلك من الأسباب التي دفعت الشاعر بشار بن برد إلى أن يقول بيتيه المشهورين :

بنى أمية هبوا طال نومكم	إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا	خليفة الله بين الناي والعود

والظاهر أن الخليفة أدرك خطورة أمر ترك مقاليد أمور الدولة إلى وزيره فتخلص منه ، سجنه ، وذهب بصره في السجن ، وبقي محبوساً حتى عهد هارون الرشيد ، إذ شفع إليه فيه يحيى بن خالد بن برمك ، فأمر الرشيد باخراجه من سجنه ، وأحسن إليه ورد إليه ماله ، وأختار يعقوب الإقامة في مكة فأقام بها حتى مات في سنة 187 هـ .

موقف الخوارج :

كان الخوارج يلجأون كعادتهم إلى القيام بأعمال العنف والشدة من ذلك ما تذكره النصوص من قيام ثورة خارجية بخراسان في سنة 160 هـ تزعمها رجل يعرب باسم يوسف بن إبراهيم ويلقب "بالبرم" وقد قيل أنه كان حرورياً واستطاع التغلب على بوشنج ومرو الروذ والجوزجان ، ولكن جيوش الخليفة استطاعت القضاء على الثوار والقبض على يوسف هذا الذي سيق إلى الرصافة حيث قطعت يداه بها ورجلاه وقتل هو وأصحابه وصلبوا على الجسر .

وفي أواخر هذه السنة قامت ثورة خارجية أخرى بنواحي الموصل ، ينفرد بذكر تفاصيل دقيقة عنها خليفة بن خياط في تاريخه ، كما ينفرد بإيراد نص الرسائل المتبادلة بين الثائر الخارجي عبد السلام اليشكري والخليفة المهدي وقد سببت حركة اليشكري - الذي استولى على معظم ديار ربيعة - الكثير من المتاعب للدولة ، وذلك قبل أن يقضى عليها ويقتل زعيمها .

الحركات المذهبية :

حركة المقتع :

أما عن الحركات المذهبية التي اشتهرت بها خراسان منذ مقتل أبي مسلم فإنها انتجت على أيام المهدي ثورة كبيرة قام بها رجل يعرفه الكتاب بلقب "المقنع" وهذا الرجل كان يؤمن بالتناسخ ، واسم هذا الرجل هاشم وهو من مرو الروذ ، واعتنق هاشم فكرة التناسخ والحلول فقال : "أن الله خلق آدم فتحول في صورته ، ثم في صورة نوح وهلم جرا إلى أبي مسلم الخراساني ثم تحول إلى هاشم ، وكان هذا يعني أن روح الله قد تقمصته وعلى ذلك يقول بعض الكتاب أنه ادعى الألوهية . وبدأت الدعوة التي قام بها المقنع في منطقة كش ونسف - من أرض ما وراء النهر - والتف حوله جمع كثير وأيده أعداء الدولة من أتباع مذهب أبي مسلم الذين عرفوا بالمبيضة ببخارى والصغد ، وساعد هذه الثورة قيام الثورة الخارجية في خراسان "ثورة البرم" وكذلك أعانة الترك الذين استنجد بهم فتمكن المقنع من السيطرة على الإقليم في وقت قليل ، كما استطاع أن يحقق عدداً م الانتصارات على قوات الخلافة التي سارت ضده وكان الرجل يظهر أمام الناس مرتدياً قناعاً ، هذا القناع منسوج بخيوط الذهب حتى يبهر الأبصار عن طريق إشراق الأنوار الإلهية كما كان يدعى . وتقول النصوص أن أتباعه كانوا يسجدون له ، ولهذا السبب عرف بالمقنع وربما كان السبب في ارتدائه ذلك القناع هو محاولته إخفاء تشويه وجهه . إذ تقول الرواية "أنه كان أعور" .

وبعد عدة حملات كللت بالظفر استطاعت الجيوش العباسية هزيمة الثوار في منطقة بخارى بعد أن ضيقوا عليهم الخناق وحاصروهم حوالي أربعة أشهر ولكن المنهزمين لم يستسلموا إذ لحقوا بالقوات الرئيسية للمقنع وطالبت المناوشات طوال سنة 160 هـ دون جدوى في السنة التالية وهي سنة 161 هـ تجمعت قوات الخلافة وتقدمت نحو الثائر ، وشدت عليه الحصار حتى اضطر كثير من أتباعه إلى الاستسلام وذلك بعد أخذ الأمان سراً منه وبقي المقنع في قلة من أصحابه زهاء الفين ، وعندما أيقن بالهلاك اضطر إلى إلقاء نفسه هو وأهله ونسائه وخواصه في النار وذلك بعد أن أحرق كل ما في قلعه . ومن دابة وثوب غير ذلك ، وتقول الرواية أنه قال : من أحب أن يرتفع معي إلى السماء فليلق نفسه معي في هذه النار .

ورغم القضاء على الفتنة ، وقتل أمير بخارى ، فإن ذلك المذهب ظل باقياً في كش وبعض قرى بخارى ونهاية هاشم الغربية هذه كانت سبباً في افتتان من بقي من أصحابه كما تقول النصوص .

وتقول النصوص أن المهدي "جد في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم" كما تقول الرواية أنه قال لولى عهد الهادي وقد قدم إليه زنديقاً

فقتله وأمر بصلبه يا بنى إذا صار الأمر إليك فتجرد لهذه العصابة يعنى أصحاب ماني - فإنها تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا ، والعمل للأخرة ثم تخرجها من هذا إلى تحريم اللحوم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تخرجاً ، ثم تخرجها إلى عبادة اثنين ، أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والأغتسال بالبول وسرقة الأطفال من المهدي لينقذوهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور . فارفع فيها الخشب وجرده السيف فيها وتقرب بأمرها إلى الله .

وحوالى ذلك الوقت عهد المهدي بالتفتيش على الزنادقة إلى موظف خاص يعرف باسم المتولى لأمر الزنادقة أو صاحب الزنادقة .

وتذكر الرواية أن أول من تقلد هنا لمنصب الحديد هو عمر الكلوانانى الذى توفى 168 هـ ، فولى مكانة محمد بن عيسى ابن حمدوية الذى كان عنيفاً "فقتل من الزنادقة خلقاً كثيراً" .

ولا شك فى أن تهمة الزندقة هذه كانت تحقق للخليفة ولعماله هدفين فى وقت واحد أول هذين الهدفين هو التخلص من الأعداء السياسيين والثاني كسب حب الشعب . وهناك نصوص نستشف منها ذلك فعندما يود الخليفة التخلص من وزيره برمييه بالزندقة وتذكر الرواية أن المهدي عندما تجهز لغزو الروم فى سنة 163 هـ ، أرسل وهو بحلب - فجمع من بتلك الناحية من الزنادقة فجمعوا فقتلهم وقطع كتبهم بالسكاكين .

المهدي

ونهج خلفاء المهدي نفس السياسة فوجهوا تهمة الزندقة إلى كل من أرادوا التخلص منه بل وإلى كل أصحاب الآراء التى لا ترضى الخليفة .

أما عهد المهدي فهو عهد ازدهار ورخاء . وقد قصد بابه الشعراء فأكرمهم وأغدق عليهم . ويرجع الفضل إلى المهدي فى إنشاء شبكة من الطرق وكذلك تحسين نظام البريد . وعلى أيام المهدي غدت مدينة بغداد المحطة

الرئيسية لتجارة الهند ، وبفضل اهتمام الخليفة ازدهرت الصناعة واهتم المهدي اهتماماً خاصة كما تقول النصوص بالحرمين ، فأمر ببناء المحطات للقوافل على طول الطريق إلى مكة ، وأمر ببناء المصانع "الصهاريج" لخرن المياه ، وحفر الآبار ، وقلد هذا العمل لموظف خاص أطلق عليه "صاحب الصانع" . كما أمر المهدي كما تقول الرواية في سنة 167 هـ بإقامة البريد بين مكة والمدينة وكذلك بينهما وبين اليمن "ولم يكن هناك بريد قبل ذلك" وعلى أيامه جددت كسوة الكعبة ، كما أمر بالزيادة في المسجد الحرام ومسجد النبي □ (سنة 167 هـ) فدخلت فيه دور كثيرة .

وعلى عهده أيضاً تم بناء مسجد الرصافة وسورها وخذقها ، كما زاد في مسجدى البصرة والموصل .

وتنسب إليه النصوص أنه وضع في سنة 162 هـ ديوان الأزمة كما "أجرى على المجذمين وأهل السجون الأرزاق في جميع الآفاق"
السياسة نحو بيزنطة :

وكانت سياسة المهدي إزاء بيزنطة ، نفس السياسة التقليدية للدولة العربية الإسلامية ، وينسب للمهدي تجهيز حملات قوية ضد بيزنطة ولكنها لم تحرز انتصارات حاسمة .

ففي سنة 163 هـ تذكر الرواية أن المهدي تجهز بنفسه وأعد عدة عظيمة وجمع الأجناد من خراسان وغيرها ، وخرج على رأس قوات كبيرة ، وكان بصحبته ابنه هارون "الرشيد" بينما استخلف على بغداد ابنه موسى "الهادي" ، وسار إلى الموصل والجزيرة ومن هناك عبر الفرات إلى حلب ، ثم رافق ابنه هارون حتى جاز الدرب "أى الممر" المؤدى إلى أرض الروم ، وهناك ودعه وعاد ادراجه ليزور بيت المقدس .

وسار الرشيد بأرض لعدو وكان بصحبته عدد من كبار القواد منهم عيسى بن موسى والحسن بن قحطبة ، كما كانت أمانة الحملة من أمور العساكر والنفقات والكتابة موكولة إلى يحيى بن خالد الذى كان كاتب الرشيد وأغلب الظن أن هذه الحملة لم تأت بنتائج كبيرة وذلك أنها تمكنت من تفح أحد الحصون فقط بعد حصار استمر أكثر من شهر ، وفي سنة 164 هـ أى السنة التالية ردت بيزنطة بأن تقدم البطريق ميخائيل وتحدى الصائفة الإسلامية التي اضطرت إلى الانسحاب وعادت مما أثار سخط المهدي على قائد الصائفة حتى أنه رغب فى قتله .

وترتب على ذلك أنه في سنة 165 هـ سير المهدي ابنه هارون "الرشيد: على رأس حملة عظيمة بلغت حوالى 95 ألف رجل كما تقول الرواية والظاهر أنها لاقت نجاحاً إذ أن القائد البيزنطى اضطر إلى الانسحاب امام هارون الذى توغل هو والخراسانية فى أرض الروم إلى أن وصلوا إلى خليج البوسفور . وخافت ايرين "امراة اليون كما يقول ابن الأثير" الوصية على ابنها قسطنطين السادس واضطرت إلى عقد الصلح أو الهدنة لمدة ثلاث سنوات على أن تدفع الجزية السنوية ، وسينقض البيزنطيون هذه الهدنة قبل حلول أجلها وذلك فى أواخر سنة 168 هـ أى قبل وفاة المهدي .

أما من جهة المشرق فتقول النصوص أن المهدي أهتم بالمشرق حتى بلاد الهند وذلك أنه أرسل حملة بحرية إلى هذه البلاد 169 هـ وكانت هذه الحملة تحوى كثيراً من الجند النظامى والمتطوعة ، وهاجمت هذه الحملة إحدى المدن الساحلية الهندية ، وخربت معبد المدينة البوذى "البد" وأخذت المدينة ، وعاد المسلمون محملين بالأسرى والمغانم ولكن الحملة انتهت نهاية اليمة قرب ساحل فارس إذ عصفت بها الرياح فتكسرت معظم المراكب .

موت المهدي :

وفي سنة 169 هـ مات المهدي في منطقة قرب مندلي ، بعد خلافة دامت عشر سنين ، وترك الخلافة لأبنة موسى الذى تلقب بالهادى .

خلافة الهادى

169 – 170 هـ

بويح لموسى "الهادى" بالخلافة ، فى بغداد فى نفس اليوم الذى مات فيه المهدي وكان مقيماً بجرجان ، يحارب أهل طبرستان وكتب الرشيد إلى الآفاق بوفاة المهدي وأخذ البيعة للهادى ونستشف من الروايات قيام نزاع خفى بين ابني المهدي وهما : موسى "الهادى" الذى تنازل له عيسى بن موسى "الذى مات سنة 167 هـ" عن ولاية العهد، وهارون الرشيد ، الذى أخذت له البيعة كولى ثان للعهد فى سنة 166 هـ والذى كانت أمه الخيزران تهتم بشئون الحكم منذ عهد زوجها المهدي وأغلب الظن أنه مما ساعد على دقة الموقف أن

المهدى أشرك الأخوين فى الحكم على يامه فعهد بمشرق الدولة إلى ولى العهد موسى كما عهد بمغربها إلى ولى العهد الثانى هارون وكان لكل منهما ديوانه الخاص . ففي سنة 163 هـ ولى المهدى هارون الرشيد المغرب كله من الأنبار حتى افريقية ، واطاف إلى ذلك اذربيجان وأرمينية وجعل لهارون كاتب على الخراج هو ثابت بن موسى ، وعلى ديوان رسائله يحيى بن خالد بن برمك . وزاد فى حرج الموقف أن المهدى كما تقول الروايات مال فى آخر أيامه إلى عزل ابنه موسى الهادى البيعة للرشيد بولاية العهد وتقديمه عليه ، ويقال أن المهدى مات وهو خارج للهادى وهو بمنطقة جرجان ليخلعه بعد أن بعث إليه فى القدوم عليه لهذا الغرض وامتنع الهادى ولهذا تحاول بعض الروايات أن تفسر موت المهدى فتقول أنه لم يمته مיתה طبيعية وأنه مات فى حالة صيد أو مات مسموماً .

ولن تطول خلافة الهادى أكثر من سنة وثلاثة أشهر أرقته "شغلته" فيها مسألة ولاية العهد ، وذلك أن الهادى شعر بخطر أخيه هارون الذى كانت تؤيده أمه "الخيزران" وكانت تتدخل فى شئون الحكم . فعمل على الحد من سلطانها كما حاول أن يحمل الرشيد على التنازل عن ولاية العهد وبدأ يتخذ اجراءات متشددة ضد أخيه ، وسلبه امتيازاته كولى للعهد فالتص يقول : "أمر الهادى أن لا يسار بين يدي هارون بالحربة فاجتنبه الناس وتركوا السلام عليه"

ونستبين من النصوص أن الرشيد كان مستعداً للتنازل عن ولاية العهد لابن أخيه جعفر وربما تم لك لولا صغر سن ابن الهادى ونصح يحيى بن خالد بن برمك للرشيد بعدم الاستجابة لطلب أخيه الخليفة ، وعرف الهادى تأثير يحيى على الرشيد ، فبعث إليه وتهدهد ورماه بالكفر ، ولكن ابن برمك تمكن من اقناع الخليفة بترك هذه المسألة بعض الوقت ، ونصحه بالألا يحمل الناس على نكث الإيمان أى حنث الإيمان أى تحللهم من البيعة وبين له أن ابنه جعفر لم يزل صغيراً وسأله "أتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر - وهو لم يبلغ الحنث - أو يرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم" ثم رغبه فى أن يكون ابنه ولى العهد الثانى .

ثورة الحسين بن على بالمدينة :

أما عن العلويين ، فإنهم قاموا بالثورة فى المدينة ومكة وستفشل هذه الثورة فى الحجاز كما فشلت سابقتها من قبل ، ولكنها ستنتج فى بلاد المغرب الأقصى وتزعم هذه الثورة الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب المعروف بقتيل فخ عند مكة .

أما عن سبب اشتعال الثورة فهو أن والى المدينة وهو حفيد عمر ابن الخطاب اسمه عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب - أقام الحد على أحد العلويين الذى يعرف باسم الزفت وذلك لشربه النبيذ . واحتج العلوى وهو الحسين بن على على عقاب المتهمين وقال للوالى أن أهل العراق لا يرون به بأساً ، وكفل الحسين ابن على الثائر أبا الزفت "أى ضمنه" ولكن أبا الزفت تغيب عن العرض الذى كان يجب عليه أن يحضره وكان فى هذا حرج للضامن ، الذى لم يجد سوى الثورة رداً على إهانات الوالى وجاء العلويين صباحاً إلى المسجد فبايعوا الحسين على "كتاب الله وسنة نبيه للمرتضى من آل محد" وتمكن الثوار من هزيمة الوالى ونهبوا بيت المال ، إلا أن أهل المدينة لم يجيبوهم فخرجوا بعد أحد عشر يوماً . وذهب الحسين إلى مكة وتمكن من ضم كثير من العبيد حوله وذلك بعد أن أعلن تحريرهم . وكان فى مكة كثير من العباسيين ، وكان معهم الموالى والسلاح فاجتمع العباسيون "بذى طوى" وقادهم محمد بن سليمان بن على والى البصرة وقاتلوا العلويين وتمكنوا من الحاق الهزيمة بهم ، وقتل المطالب بالخلافة وتمكن كثير من الثوار من النجاة باختلاطهم بالجاج ، ويمكن أحد العلويين وهو ادريس بن عبد الله من الهرب إلى مصر وهناك حمله صاحب البريد الذى كان يتشيع إلى بلاد المغرب حيث وصل إلى مدينة "وليلي" فى منطقة طنجة وهناك استجاب له بربر أوربة وكون دولة الأدراسة وبنى مدينة فاس التى ستصبح عاصمة المغرب الأقصى .

الخورج :

أما عن الخورج فإنهم ثاروا بالجزيرة وهزموا الوالى قرب الموصل ولم يقض عليهم إلا بعد أن قتل زعيمهم غيلة .

الزنادقة :

أما عن الزنادقة فتقول الرواية أن المهدي أوصى الهادي بمحاربتهم دون شفقة وأنه كان قد أمر بإعداد ألف جذع لصلبهم ولكن الموت لم يمهلهم إذ خرج إلى الموصل وعاد منها شديد المرض ، والظاهر أنه لم يمت ميتة طبيعية بسبب معاودته التفكير فى خلع أخيه هارون من ولاية العهد . وهناك روايات يستشف منها أن الخيزران هى التى دبرت موته .

الرشيد

الخليفة أبو جعفر هارون بن المهدي محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي العباسي .

استخلف بعهد معقود له بعد الهادي من أبيهما المهدي في سنة سبعين ومائة بعد الهادي .

. روى عن أبيه وجدته ، ومبارك بن فضالة .

. روى عنه : ابنه المأمون وغيره .

وكان من أنبل الخلفاء ، وأحشم الملوك ، ذا حج وجهاد ، وغزو وشجاعة ، ورأي .

. وأمه أم ولد ، اسمها خيزران .

وكان أبيض طويلاً ، جميلاً ، وسيماً ، إلى السمن ، ذا فصاحة وعلم وبصر . بأعباء الخلافة ، وله نظر جيد في الأدب والفقه ، قد وخطه الشيب .

. أغزاه أبوه بلاد الروم ، وهو حدث في خلافته .

. وكان مولده بالري في سنة ثمان وأربعين ومائة .

قيل : إنه كان يصلي في خلافته في كل يوم مائة ركعة إلى أن مات ، ويتصدق بألف ، وكان يحب العلماء ، ويعظم حرمة الدين ، ويبغض الجدل والكلام ، ويبكي على نفسه ولهوه وذنوبه ، لا سيما إذا وعظ .

. وكان يحب المديح ، ويجيز الشعراء ، ويقول الشعر .

وقد دخل عليه مرة ابن السماك الواعظ ، فبالغ في إجلاله ، فقال : تواضعك في شرفك أشرف من شرفك ، ثم وعظه ، فأبكاها .

. ووعظه الفضيل مرة حتى شهق في بكائه .

. ولما بلغه موت ابن المبارك ، حزن عليه ، وجلس للعزاء ، فعزاه الأكابر .

. وكان يقتفي آثار جده إلا في الحرص .

قال أبو معاوية الضرير : ما ذكرت النبي -صلى الله عليه وسلم- بين يدي الرشيد إلا قال : صلى الله على سيدي ، ورويت له حديثه : وددت أني أقاتل في سبيل الله ، فأقتل ، ثم أحيي ثم أقتل فبكي حتى انتحب .

وعن خرزاذ العابد قال : حدث أبو معاوية الرشيد بحديث : احتج آدم وموسى فقال رجل شريف : فأين لقيه ؟ فغضب الرشيد ، وقال : النطع والسيف ، زنديق يطعن في الحديث ، فما زال أبو معاوية يسكنه ويقول : بادرة منه يا أمير المؤمنين ، حتى سكن .

وعن أبي معاوية الضرير قال : صب على يدي بعد الأكل شخص لا أعرفه ، فقال الرشيد : تدري من يصب عليك ؟ قلت : لا ، قال : أنا ، إجلالا للعلم .

وعن الأصمعي : قال لي الرشيد وأمر لي بخمسة آلاف دينار : وقرنا في الملاء ، . وعلمنا في الخلاء ، سمعها أبو حاتم من الأصمعي .

قال الثعالبي في "اللطائف" : قال الصولي : خلف الرشيد مائة ألف ألف دينار .

وقال المسعودي في "مروجه" : رام الرشيد أن يوصل ما بين بحر الروم وبحر القلزم مما يلي الفرما فقال له يحيى البرمكي : كان يختطف الروم الناس من الحرم ، وتدخل مراكزهم إلى الحجاز .

. وعن إسحاق الموصلي أن الرشيد أجازته مرة بمائتي ألف درهم .

قال عبد الرزاق : كنت مع الفضيل بمكة ، فمر هارون ، فقال الفضيل : الناس يكرهون هذا ، وما في الأرض أعز علي منه ، لو مات لرأيت أمورا عظاما .

يحيى بن أبي طالب : حدثنا عمار بن ليث الواسطي ، سمعت الفضيل بن عياض يقول : ما من نفس تموت أشد علي موتا من أمير المؤمنين هارون ، ولوددت أن الله زاد من عمري في عمره . قال : فكبر ذلك علينا ، فلما مات هارون ، وظهرت الفتن ، وكان من المأمون ما حمل الناس على خلق القرآن ، قلنا : . الشيخ كان أعلم بما تكلم .

قال الجاحظ : اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره ، وزراؤه البرامكة ، وقاضيه القاضي أبو يوسف ، وشاعره مروان بن أبي حفصة ، ونديمه العباس بن محمد عم والده ، وحاجبه الفضل بن الربيع أتية الناس ، ومغنيه إبراهيم الموصلي ، وزوجته زبيدة .

قيل : إن هارون أعطى ابن عيينة مائة ألف درهم ، وأعطى مرة أبا بكر بن عياش ستة آلاف دينار .

. ومحاسنه كثيرة ، وله أخبار شائعة في اللهو واللذات والغناء ، الله يسمح له

قال ابن حزم : أراه كان يشرب النبيذ المختلف فيه لا الخمر المتفق على حرمتها . ، قال : ثم جاهر جهارا قبيحا

قلت : حج غير مرة ، وله فتوحات ومواقف مشهودة ، ومنها فتح مدينة هرقلية ومات غازيا بخراسان ، وقبره بمدينة طوس ، عاش خمسا وأربعين سنة ، وصلى عليه ولده صالح ، توفي في ثالث جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين . ومائة .

وزر له يحيى بن خالد مدة ، وأحسن إلى العلوية ، وحج سنة (173)، وعزل عن خراسان جعفر بن أشعث بولده العباس بن جعفر ، وحج أيضا في العام الآتي ، وعقد بولاية العهد لولده الأمين صغيرا ، فكان أقبح وهن تم في الإسلام ، وأرضى الأمراء بأموال عظيمة ، وتحرك عليه بأرض الديلم يحيى بن عبد الله بن حسن الحسيني وعظم أمره ، وبادر إليه الرافضة ، فتنكد عيش الرشيد واغتم ، وجهاز له الفضل بن وزيره في خمسين ألفا ، فخارت قوى يحيى ، وطلب الأمان ، فأجابته ولاطفه ، ثم ظفر به ، وحبسه ، ثم تغل ومات ، . ويقال : ناله من الرشيد أربع مائة ألف دينار . وثار بالشام أبو الهندام المري

واصطدمت قيس ويمن ، وقتل خلق ، فولى موسى بن يحيى البرمكي ، فجاء ، وأصلح بينهم .

وفي سنة (175) ولّى خراسان الغطريف بن عطاء وولّى مصر جعفرا البرمكي ، واشتد الحرب بين القيسية واليمانية بالشام ، ونشأ بينهم أحقاد وإحن . إلى اليوم . وافتتح العسكر مدينة دبسة .

وفي سنة (77) عزل جعفر عن مصر ، وولي أخوه الفضل خراسان مع سجستان والري ، وحج الرشيد .

وفي سنة ثمان هاجت الحوف بمصر ، فحاربهم نائب مصر إسحاق ، وأمدّه الرشيد بهرثمة بن أعين ، ثم وليها هرثمة ، ثم عزل بعبد الملك بن صالح العباسي .

وهاجت المغاربة فقتلوا أميرهم الفضل بن روح المهلبى ، فسار إليهم هرثمة ، فهذبهم .

وثار بالجزيرة الوليد بن طريف الخارجي ، وعظم ، وكثرت جيوشه ، وقتل إبراهيم بن خازم الأمير ، وأخذ إرمينية ، وعدل ، عن الخبر .

وغزا الفضل بجيش عظيم ما وراء النهر ، ومهد الممالك ، وكان بطلا شجاعا جوادا ، ربما وصل الواحد بألف ألف ، وولي بعده خراسان منصور الحميري ، وعظم الخطب بابن طريف ، ثم سار لحربه يزيد بن مزيد الشيباني ، وتحيل عليه حتى بيته ، وقتله ، ومزق جموعه . وفي سنة (79) اعتمر الرشيد في رمضان ، واستمر على إحرامه إلى أن حج ماشيا من بطن مكة .

. وتفاقم الأمر بين قيس ويمن بالشام ، وسالت الدماء .

. واستوطن الرشيد في سنة ثمانين الرقة ، وعمر بها دار الخلافة .

. وجاءت الزلزلة التي رمت رأس منارة الإسكندرية .

. وخرجت المحمرة بجرجان .

وغزا الرشيد ، ووغل في أرض الروم ، فافتتح الصفصاف ، وبلغ جيشه أنقرة

.

واستعفى يحيى وزيره ، وجاور سنة . ووثبت الروم ، فسلموا ملكهم
. قسطنطين ، وملكوا أمه

وفي (183) خرجت الخَزْرُ ، وكانت بنت ملكهم قد تزوج بها الفضل البرمكي ،
فماتت ببردعة ، فقيل : قتلت غيلة فخرج الخاقان من باب الأبواب ، وأوقع بأمة
، وسبوا أزيد من مائة ألف ، وتم على الإسلام أمر لم يسمع بمثله ، ثم سارت
. جيوش هارون ، فدفعوا الخزر ، وأغلقوا باب أرمينية الذي في الدربند

وفي سنة (185) ظهر بعبادان أحمد بن عيسى بن زيد بن علي العلوي ،
وبناحية البصرة ، وبويع ثم عجز وهرب ، وطال اختفاؤه أزيد من ستين عاما

.

وثار بخراسان أبو الخصيب ، وتمكن ، فسار لحربه علي بن عيسى ابن
. ماهان ، فالتقوا بنسا ، فقتل أبو الخصيب ، وتمزقت عساكره

وحج سنة ست وثمانين الرشيد بولديه : الأمين والمأمون ، وأغنى أهل
. الحرمين

وفي سنة سبع قتل الرشيد جعفر بن يحيى البرمكي ، وسجن أباه وأقاربه ، بعد
أن كانوا قد بلغوا رتبة لا مزيد عليها وفيها انتقض الصلح مع الروم ، وملكوا
عليهم نقفور ، فيقال : إنه من ذرية جفنة الغساني ، وبعث يتهدد الرشيد ،
فاستشاط غضبا ، وسار في جيوشه حتى نازله هرقله ، وذلت الروم ، وكانت
. غزوة مشهودة

وفي سنة ثمان كانت الملحمة العظمى ، وقتل من الروم عدد كثير ، وجرح
. النقفور ثلاث جراحات ، وتم الفداء حتى لم يبق في أيدي الروم أسير

وفي سنة تسعين خلع الطاعة رافع بن الليث ، وغلب على سمرقند ، وهزم
عسكر الرشيد وفيها غزا الروم في مائة ألف فارس ، وافتتح هرقله ، وبعث

. إليه نقفور بالجزية ثلاث مائة ألف دينار .

وفي سنة (191) عزل والي خراسان ابن ماهان بهرثمة بن أعين ، وصادر الرشيد ابن ماهان ، فأدى ثمانين ألف ألف درهم ، وكان عاتيا متمردا عسوقا . وفيها أول ظهور الخرمية بأذربيجان .

وسار الرشيد في سنة اثنتين إلى جرجان ليهدب خراسان ، فنزل به الموت في سنة ثلاث .

وخلف عدة أولاد ، فمنهم تسعة بنين اسمهم محمد ، أجلهم الأمين ، والمعتمد ، وأبو عيسى الذي كان مليح زمانه ببغداد ، وله نظم حسن ، مات سنة تسع ومائتين . وأبو أيوب ، وله نظم رائع ، وأبو أحمد كان ظريفا نديما شاعرا ، طال عمره إلى أن مات في رمضان سنة أربع وخمسين ومائتين . وأبو علي توفي سنة 231 وأبو العباس ، وكان بليدا مغفلا ، دَمَنوه مدة في قول : أعظم الله أجركم ، فذهب ليعزي فأرتج عليه ، وقال : ما فعل فلان ؟ قالوا : مات ، قال : جيد ، وإيش فعلتم به ؟ قالوا : دفناه ، قال : جيد . وأبو يعقوب وتوفي سنة 223 ، وتاسعهم أبو سليمان . ذكره ابن جرير الطبري

نكبة البرامكة

وعلى الرغم من اهتمام المؤرخين بهذه الحادثة إلا أن أسبابها ودوافعها ظلت غامضة ومجهولة وأشار المؤرخون أمثال الطبري واليقوبي وأبو الفدا والمسعودي أن سبب غضب الرشيد على البرامكة وسخطه عليهم أمر مختلف فيه، وقد ذكر المؤرخون العديد من الأسباب واختلفوا في تعليلها وأخذوا ليترجعون بعضها على بعض .

و الأقرب إلى الواقع أن نكبة البرامكة ترجع إلى حد كبير إلى ذلك الصراع الخفي الذي كان قائما بين حزبي العرب والعجم والذي ظل مستمرا بعد ذلك

أيام الأمين والمأمون. في عهد الرشيد يظهر الصراع بين العرب والعجم بوضوح حينما عهد إلى ابنه الأمين بولاية العهد من بعده سنة 175هـ وذلك تحت تأثير الحزب العربي الممثل في زوجته زبيدة بنت جعفر وحاجبه الفضل بن الربيع، وكان الأمين في الخامسة من عمره مما يدل على أنها كانت لها دلالة خاصة وهي ضمان الخلافة للعصبة العربية ولم يرض الجانب الفارسي وعلى رأسه البرامكة بهذا الوضع فأخذوا يسعون لدى الرشيد حتى نجحوا في جعله يعهد إلى ولده المأمون بولاية العهد بعد الأمين سنة 182هـ على أن يتولى المأمون ولاية المشرق بعد وفاة أبيه بمعنى أن خلافة الأمين بعد وفاة والده تصبح على بلاد المشرق خلافة صورية والمعروف أن المأمون كان من أم فارسية ولهذا أيده البرامكة. وفي سنة 186هـ حج الرشيد ومعه ابناؤه الأمين والمأمون وهناك في البيت الحرام (أي الكعبة) أخذ عليهما الموائيق المؤكدة بأن يخلص كل منهما لأخيه وأن يترك الأمين للمأمون كل ما عهد إليه من بلاد المشرق، ثغورها وكورها وجندها وخراجها وبيوت أموالها وصدقاتها وعشورها وبريدها، وسجل الرشيد هذه الموائيق على شكل مراسيم وعلقها في الكعبة لتزيد في قدسيته، ويؤكد تنفيذها كما كتب منشورا عاما بهذا المعنى للآفاق. وبذلك ضمن العرب الخلافة للعربي النسب والعجم بزعامة البرامكة. للمؤمنوا الشرق لرجل أخواله عجم.

و لم يقف الأمر عند هذا الحد بل أخذ العرب يوغرون صدر الرشيد ضد البرامكة ويحذرونه من استبدادهم بالأمر وخلعهم له وصار الرشيد يتلقى رقاعا غفلا من التوقيع تصور خطورة الحالة، أدت كثرة الدسائس إلى إفزاع الرشيد وجعلته يشعر بأنه صار مغلوبا على أمره وأن البرامكة شاركوه في سلطانه بشكل أدخل بتوازن الدولة وسلامتها مما اضطره إلى التخلص منهم، والعباسيون عموما كانوا حساسين من هذه الناحية السياسية ولهذا قتلوا كل من شكوا في إخلاصه.

عاقب الرشيد البرامكة جميعا وزج بهم في السجن وصادر أموالهم ومنع الشعراء من رثائهم وتوفي يحيى والفضل في السجن قبل وفاة الرشيد، أما سائر البرامكة فقد عفا عنهم الأمين بعد ذلك. وهكذا تنتهي نكبة البرامكة بانتصار العرب هذه المرة، وقد تولى الوزارة بعدهم الفضل بن الربيع نصير الحزب العربي كما تولى الرشيد أمور الحكم بنفسه حيث كان ينتقل في أرجاء دولته ويقود الجيوش ضد الثائرين وضد البيزنطيين

ويقول العلامة مصطفى جواد في موقفه من البرامكة (العل أغرب ما وهم فيه المؤرخون فعمى عليهم سبب تدمير هارون الرشيد للبرامكة أنهم عدوا بني

برمك دعاة العلويين، والمشكلة التاريخية إذا استبهم جانب منها تشعبت فيها
الظنون واختلفت الآراء واضطربت الأحكام. ولو علم المؤرخون أن البرامكة
تقربوا إلى الرشيد بالسعي على العلويين والسعي بهم وتبغيضهم لوجدوا إلى
سبب تلك الفتنة الهامشية سبيلا، وعلى الجلية دليلا، وعلموا أنهم إنما حق
عليهم العذاب ودمرهم الله تدميرا، بل وان السبب الحقيقي وراء قضاء هارون
الرشيد عليهم، هو تدبيرهم لقتل موسى بن جعفر (رض). لم يكن الرشيد ملحدا
حتى لا يندم ولا يلبدا حتى لا نتبه ولا شقيا حتى لا يتوب ولا مقصرا حتى لا
يتدارك من شفيعهم إليه. وقد ولغوا في دماء بني علي وطلبوا الزلفى بتعذيبهم
وأعلوا مراتبهم بخفض العصبية الهاشمية واجتثاث الشجرة النبوية. ولقد
جرؤوا بالحادهم وسوء سيرتهم أن جعفرهم حز رأس حبيسه العلوي عبد الله
الشهيد بن الأفتس، في يوم النوروز وأهداه إلى الرشيد في طبق الهدايا، فلما
رفعت المكبة من فوق الطبق ورأى الرشيد رأس بن عمه استعظم ذلك، فقال له
جعفر: ما علمت أبلغ في سرورك من حمل راس عدوك وعدو آباءك إليك. وكان
الرشيد قد حبسه عند جعفر وأمره بأن يوسع عليه. وقال ذات يوم: اللهم أكفنيه
على يد ولي من أوليائي وأوليائك. فلم يجد هذا الشقي الكفاية إلا بقتله صبورا لا
سيف يزود به عن نفسه ولا بنو علي حوله يحوطونه ويكلاونه ولا شفيع يرد
عنه بؤم الزنادقة، وهو الذي شهد وقية "فخ" متقلدا سيفين يزود بهما عن
سيده. فلما أسر أخذه الرشيد وحبسه عند جعفر، فضاق صدره بالحبس، وكتب
إلى الرشيد رقعة يشتمه فيها شتما قبيحا فلم يلتفت الرشيد إلى ذلك، لأنه عالم
بالعزة العلوية والاستبسال الهاشمي، ولم يأمر إلا بالتوسع عليه والترفيه عنه
(فكان من أمره مع جعفر البرمكي ما كان

.. بين الخليفة العظيم هارون الرشيد و" كلب الروم" نقفور

يقول هارون الرشيد حين رأى غيمة في سماء بغداد تنطلق بعيداً : أمطري حيث شئت ، فسيأتيني خراجك .. يقولها وهو الخليفة العظيم الذي يحكم أعظم قوة في العالم آنذاك ، ويمتد سلطانه من المحيط الأطلسي غرباً إلى ما بعد المحيط الهندي شرقاً ، رقعة تضم عشرات الدول في هذا الزمان الرديء الذي نعيشه ، حيث تفرقنا أيدي سبأ ، وتجراً علينا الأعداء من كل حدب وصوب ، فسطوا على خيراتنا ، واستباحوا بلادنا ، وملكوا نواصينا .

قسماً العدو ممالك مفتتة ، فرضينا هذا التقسيم ، وعضضنا عليه بالنواجذ ، وسعينا إلى الحفاظ على هذا الوضع (القزم القميء) وكرسنا الحدود المصطنعة ، وناديننا بمبادئ إقليمية ما أنزل الله بها من سلطان ، وتحاكمتنا في تثبيت هذه الحدود إلى من وضعها ، كأنها قدر لا ينبغي تجاوزه ، وحكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وضعٌ هزيل كهذا لا يبني أمة عزيزة ، ولا يرفع قدرها بين الأمم ، إنما يقيدتها بالعدو القوي ، ويشدها إليه ، فيبقى السيد المطاع ، والحكم الفصل ، والمتصرف الأول والأخير في مقدرات الأمة سياسة واقتصاداً وثقافة وكيونة ! .

صار الأخ غريباً يعز عليه التنقل في أرض الله وبلاد المسلمين إلا بقيود تزداد يوماً بعد يوم ، وأضحى البعيد صديقاً يطوف أو يقيم في هذه الممالك دون قليل عناء . وهذا حال الضعيف المبهور بالسيد الغريب ، والمتعالى على بني جلدته النائي عن أخيه في العقيدة واللغة والأرض ، يرى أنسه وراحته في التقرب من الغربي ، ويكاد ينسلخ عن القريب إلا لحاجة أو غاية مؤقتة .

وأضحى الانتماء إلى الغرب فكراً وعادات وتقاليده مهوى القلوب وشغل العقول ، وكثرت المفردات واللكنات الغربية في التخاطب ، فهي علامة التقدم وسبيل الحضارة – في معتقد الفارغين – والدليل على الرقي الفكري الثقافي لدى التافهين . ! التافهين

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول " لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه ، قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ " ولو تأملنا قوله صلى الله عليه وسلم " جحر ضب " لعلمنا أي درك وصلناه في المسخ الفكري والهزيمة النفسية والخواء العقيدي والشخصية الاعتبارية المهزوزة ، إذ نتبع هؤلاء دون تفكير ولا تمحيص ، فهم القدوة التي نتأساها ، وهم القادة الذين نسلمهم زمام أمورنا، ونسير وراءهم ، ونتبع نهجهم .

رحم الله الخليفة هارون الرشيد ذلك القائد الفذ والمجاهد البطل الذي كان يغزو سنة ويحج سنة ، يحمي ثغور المسلمين ، وينشر العلم والامان معاً في النفوس والمرايع .

لقد كانت بغداد- حماها الله ونصرها ، وفك أسرها - والمدن الكبرى في عهده منارة العرفان ومناهل العلم ، يقصدها المسلمون وغيرهم ، يغترفون الآداب والعلوم ، ويستقون المعارف والفنون ، بينما كان الغرب يرقد في عميق الجهل ودياجير الظلام ، فكانت القرون الوسطى شمس الشرق وليل الغرب ، وما قصة الساعة التي أهداها هارود الرشيد لشارلمان ملك الروم الغربيين ، وظنها جلساؤه سحراً حين دقت في تمام الوقت ، فأوقعتهم في حيرة ، وهموا بكسرها . ، إلا إشارة واضحة لتقدم المسلمين وتأخر الصليبيين .

أما العزة التي افتقدناها بسبب جثوم حفنة من الفاسدين القائمين على صدور الأمة في أغلب بلاد المسلمين اليوم وغياب الإسلام القوي فقد كوى غيابها قلوبنا حسرة وألماً ونحن نرى هؤلاء المتنفذين أدوات في أيدي الغرب يحركونها دُمى تافهةً لحرب الإسلام وأهله ، فهم دعاة على أبواب جهنم يزينون السقوط فيها ، ويدفعون أهلها إلى الردة والانغماس في وحل الجاهلية . والارتكاس إلى وهدتها .

هارون الرشيد كان علماً قلّ نظيره ، يرفرف في سماء الكرامة ، فقد ضغط بجيشه الإسلامي المظفر على القسطنطينية التي حكمتها بين عامي ثمانين وسبع مئة للميلاد وثمان مئة وعامين / 780- 802 / الإمبراطورة إريني وفرض عليها الجزية ، فلما انتفض عليها نقفور - أحد أتباعها - ونصب نفسه إمبراطوراً أرسل كتاب تهديد إلى الخليفة هارون الرشيد يقول فيه : " من

نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب ؛ أما بعد ، فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مكان (الرخ) وأقامت نفسها مكان (البيدق) ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها ، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابي فأعد ما وصل إليك منها ، وافتد نفسك بمثله تنج من عقابي ، وإلا فالسيف بيني وبينك .

. الرخ " القلعة " والبيدق " الجندي الصغير " في لعبة الشطرنج "

فما كان من الخليفة المجاهد إلا أن كتب على ظهر الرسالة نفسها - استصغاراً للصلعوك نقفور - : " من أمير المؤمنين هارون الرشيد إلى نقفور " كلب " الروم " قد قرأت كتابك ، والجواب ما تراه ، لا ما تسمعه .

ثم شخص من يومه بجيشه المسلم البطل يدق باب القسطنطينية بعنف ، وأذل نقفوراً الكلب هذا الذي استطال على المسلمين فنال جزاءه ذلاً وضعةً ودفع راعماً ذليلاً ضعف ما كانت الأمبراطورة السابقة تدفعه .. فعلى الذكر ضعف ما على الأنثى من الغرامة والجزية

الرشيد وهدية العجيبة الى الملك شارلمان

كان في عهد **الرشيد** شارلمان بن باين وكان ملكاً على فرنسا واستولى على لمبارديا وقاد طوائف السكسون التي كانت في جرمانيا إلى الدين المسيحي بعد أن كانت وثنية واستولى على المانيا وإيطاليا وكان يرغب أن يكون له اسم كبير في الديار الشرقية لتكون درجته فوق درجة نقفور ملك القسطنطينية كان يرغب أن يكون حامياً للمسيحيين في البلاد الإسلامية وخصوصاً زائري القدس فأرسل إلى بغداد سفراء يستجلبون رضا **هارون الرشيد** وكان لشارلمان غرض من مصادقة **الرشيد** ايضاً وهو إضعاف الدولة الأموية بالأندلس ففاز سفير شارلمان برضا **الرشيد** فسر بذلك لأنه عده فوزاً على نقفور ولهذا لما قدم سفير **الرشيد** على شارلمان قابله بمزيد الإكرام واستفاد شارلمان من ذلك التودد فائدتين الأولى تمكنه من حرب الدولة الأموية بالأندلس وتداخله في مساعدة الخارجين عليها والثانية نيله رضا **الرشيد**.

قد أراد أيضاً أن يغتنم غنيمة علمية فإن أوروبا في ذلك الوقت كانت مهد جهالة لأنه بانقراض الرومانيين وغلبة الأمم المتبربرة على أوروبا انطفاً مصباح العلم

أما الحال في البلاد الإسلامية فكانت على العكس من ذلك علماً وعملاً سواء في ذلك بغداد وقرطبة فسعى شارلمان في إصلاح قوانين دولته مقلداً **هارون الرشيد** وذهب إلى أوروبا أطباء تعلموا في البلاد الإسلامية وكانوا من اليهود فانتخب منهم شارلمان رجلاً يقال له إسحاق وأرسله إلى **الرشيد** مصحوباً ببعض الهدايا

وبعد أربع سنين عاد إسحاق مع ثلاثة من رجال **الرشيد** ومعهم هدايا وهي ساعة وراغنون وفيل وبعض أقمشة نفيسة، فلما نظرها رجال شارلمان ظنوها من الأمور السحرية وأوقعتهم في حيرة

قد ارسل **الرشيد** لهم ساعة ضخمة من النحاس الأصفر مصنوعة بمهارة فنية مذهشة يبلغ ارتفاعها نحو أربعة أمتار وتتحرك بواسطة قوة مائية وعند تمام كل ساعة يسقط منها عدد من الكرات المعدنية يتبع بعضها البعض الآخر بحسب عدد الساعات فوق قاعدة نحاسية فتحدث رنيناً جميلاً يشيع البهجة في أنحاء القصر الإمبراطوري. ولكن الأهم من ذلك أن هذه الساعة التي

أهداها **هارون الرشيد** إلى الإمبراطور شارلمان كانت مصممة بحيث يفتح باب من الأبواب الإثني عشر المؤدية إلى داخل الساعة ويخرج منه فارس يدور حول الساعة ثم يعود إلى المكان الذي خرج منه فإذا حانت الساعة الثانية عشرة يخرج من أبواب الساعة اثنا عشر فارساً مرة واحدة يدورون دورة كاملة ثم يعودون من حيث أتوا وتغلق الأبواب خلفهم. وقد أثارت تلك الساعة دهشة الملك شارلمان وحاشيته إلى حد أن رهبان الملك اعتقدوا أن شيطاناً يسكنها ويحركها فحمل كل واحد منهم فأساً وجاءوا إليها ليلاً وحطموها

كانت المفاجأة التي تحولت إلى صدمة وندم عندما اكتشف هؤلاء الرهبان أن الساعة لا يوجد بها شيء سوي آلتها، وأن خرافة الشياطين والعفاريت التي تسكنها كانت سقطة كبيرة منهم! وقد حزن الملك شارلمان حزناً بالغاً واستدعي حشداً من خيرة العلماء والصناع المهرة لمحاولة إصلاح هذه الساعة وإعادة تشغيلها

ولكن المحاولة باءت بالفشل وعندما عرض عليه بعض مستشاريه أن يخاطب ، خليفة المسلمين **هارون الرشيد** ليبعث فريقاً عربياً لإصلاحها قال شارلمان ' إنني أشعر بخجل شديد أن يعرف ملك بغداد أننا ارتكبنا' عاراً' باسم فرنسا كلهم من . هذه القصة يتبين لنا مدى الحضارة في عصر **هارون** الذي اهتم بالعلم والعلماء

قد دفع هذا الإحساس بقيمة الوقت إلي حرص المسلمين الأوائل علي أن يكونوا من أسبق من اخترعوا الساعات الدقيقة التي بلغت درجة عالية من الإتقان أذهلت الدنيا في تلك العصور المبكرة

الصراع بين الأمين والمأمون

المقدمات :

بموت الرشيد أوشكت الدولة العباسية أن تنقسم إلى قسمين ينازع كل منهما الآخر : الجزء الغربي حيث مدينة الخفاء ، بغداد ، وعلى رأسه الأمين والجزء الشرقي أي خراسان والولايات الشرقية حيث يقيم المأمون بمدينة مرو . ويعود الفضل في هذا التقسيم إلى الرشيد كما رأينا بل ولربما تحقق الانفصال فعلاً بين مشرق الدولة ومغربها عقب وفاته مباشرة ولو أن كلا من الإبنين احترام وصية أبيه . والظاهر أن هذا الانفصال كان لا بد منه إذ أن المشرق الإيراني كانت له أمانيه وآماله السياسية التي يعمل على تحقيقها ، والتي ظهرت جلياً بقيام الدولة العباسية نفسها . وسنرى فعلاً أن المشرق الإيراني سيحقق استقلاله فعلاً – إن لم يكن شكلاً على عهد الطاهرين وعلى أيام المأمون .

ويفهم من لك أن مسألة الصراع بين أبناء الرشيد لن تأخذ شكل نزاع عائلي من أجل وراثة العرش بل سيكون لها شكل النزاع الشعبي أو العصبى بين العرب والفرس . وعلى ذلك فلن يكون للمطالبين بالخلافة رأى كبير في سير الحوادث هذا على أن ظفر المأمون ، وغلبته على الأمين ، إن هو إلا

انتصار للمشرق الإيراني على المغرب العربي يعيد إلى الأذهان قيام أمر العباسيين على اكتاف الخراسانية وزحف هؤلاء نحو الغرب وتغلبهم على العالم العربي الشامي ، أحس بذلك وزير المأمون الفضل بن سهل الإيراني الأصل . الحديث ، الإسلام "منذ خمس سنوات" فكان يشبه أصحابه بنقباء الحركة العباسية الأولى كان يقول للتميمي نقيمك مقام موسى بن كعب وللربيعي نقيمك مقام أبي داود ، وخالد بن إبراهيم نقيمك مقام قحطبة .

بدأ الاختلاف بين الأمين الذي له الخلافة وبين المأمون عندما رفض الأمين – بصفته صاحب السلطان – الاعتراف بما أوصى به الرشيد ، من أن يؤول عسكره وكل ما فيه من الأموال والأمتعة والعدد إلى المأمون . وعمل على أن يعود هذا الجيش بكل أثقاله إليه ، بفضل ابن الربيع الذي حضر وفاة الرشيد ، وغيره من القواد الذين أرسل إليهم بتعليماته . ولكي يخفف من روع المأمون كتب أيضاً يهون عليه من الأمر . ويأمره بترك الجزع وأخذ البيعة لهما ، وكذلك لأخيها القاسم "المؤتمن" .

وقام ابن الربيع بدعوة الجند إلى الانفضاض من حول المأمون والعودة إلى بغداد . فعلا أجابه كثير منهم رغم ما قام به قواد المأمون على رأسهم ابن سهل من تذكير الناس ببيعة المأمون وسؤالهم الوفاء وتحذيرهم الحنث "قال ابن الربيع إنما أنا واحد من الجند" نتج عن ذلك أن اشفق المأمون من حرج الموقف ولكن ابن سهل طمأنه ورسم له السياسة الواجب اتباعها ، والتي تتلخص أولاً في الاعتصام بخراسان ، إذ أن الخراسانية أخواله "المأمون" وهم بحكم قرابتهم هذه لن ينقضوا البيعة التي له في أعناقهم ، ثانياً انتهاج سياسة دينية رزينة بدعوة الفقهاء إلى الحق والعمل به وإحياء السنن . ثم الاهتمام شخصياً بأمور الدولة ورد المظالم واطهار النقشف والزهد . وبدأ تنفيذ هذا البرنامج بعمل موفق ، وذلك أنه وضع أو خفض ربع الخراج عن خراسان مما كان له وقع حسن عند أهل البلاد "قالوا ابن اختنا وابن عم نبينا" . كما أنه لاین الأمين في نفس الوقت الذي عمل فيه على توطيد مركزه في ولايته الشرقية ، بأن كتب إليه وعظمة وأهداه الهدايا .

أما عن الأمين فإنه من جبهته لم يرض عن موقف أخيه ، وعمل على إعادة الوحدة للدولة وعلى أن يحقق لنفسه السيادة الفعلية وبدأ ذلك على حساب الأخ الثالث ، وهو القاسم "المؤتمن" الذي كان يلي الجزيرة وما يتبعها بأن نحاه عن جزء كبير من ولايته وأقره على قنشرين والعواصم فقط وكانت هذه هي الخطوة الأولى في السنة التالية 194 هـ "810م" خطأ الخطوة الثانية وكان فيها تهديد مباشر للمأمون وما يمكن أن نسميه بتمهيد للإغارة على

حقوقه في وراثة العرش والخلافة . إذ أمر الأمين بإغراء وزيره الفضل بن الربيع بالدعاء لابنه موسى . الذي كان طفلاً صغيراً في خطبة الجمعة إلى جانب الدعاء لأخيه .

وكان من الطبيعي أن لا يسكت المأمون - تحت ضغط وزيره الفضل ابن سهل هو أيضاً - على هذا العمل غير الودي وأجاب عليه بالمثل بأن تجاهل خليفة بغداد ، وقطع كل علاقة به "اسقط اسمه في الطرز ومن النقود وقطع عنه البريد" . وزاد ذلك من تأزم الموقف ، إذ كشف الأمين عن نواياه وأرسل بعثة إلى المأمون يطالبه بالحضور عنده ببغداد وكان الهدف من هذه الزيارة هو الضغط عليه للتنازل عن بعض حقوقه في الوراثة "تقديم موسى بن الأمين عليه" وربما في ولايته للمشرق (صب إليه أن ينزل عن بعض كور خراسان وأن يكون عنده صاحب البريد يكاتبه بالأخبار) .

وكان من الطبيعي أن يرفض المأمون إجابة مطلب الخليفة كما لم يوافق حزبه اطلاقاً على خروجه من خراسان ، هذا رغم أن الموقف السياسي للأطراف الشرقية من ولايته كان ينذر بالخطر . فإذا كان رافع بن الليث قد مال إلى الاستسلام والطاعة فإن غيره كان قد أعلن العصيان مثل جابغو أو جبغوية الارلوق "على سيحون" وخاقان التبت ، وملك كابل الذي كان يستعد للإغارة على خراسان ، وملك اترار "مركز الغزو" الذي منع الضريبة .

واستطاع ابن سهل أن يدبر الأمور تدبيراً حسناً ، وأن يظهر مقدرة سياسية فائقة وذلك أنه بدأ بأن استمال أحد أفراد بعثة الأمين وهو العباس بن موسى بن عيسى "حفيد عيسى بن موسى الذي خلع على عهد المنصور والمهدى" - وعدة إمرة الموسم ومواضع من مصر - فأكن يكتب إليهم بالأخبار من بغداد ثم أنه شدد الحراسة على حدود خراسان ومنع العبور إلى ولاياته إلا للأشخاص المعروفين ، أما فيما يتعلق بملوك الأطراف من الوطنيين فإن الفضل نصح المأمون بإرسال خطابات لجابغو والخاقان يؤكد لهما سيادتهما على بلادهما ، ويعدهما بالمساعدة ضد أعدائهما وأن يرسل هدايا إلى ملك كابل وأن يعفى أمير اترار من جزية عام ، وفعلاً نجحت هذه الاجراءات في استتباب الأمن والسلام في هذه النواحي .

خلع المأمون :

حاول الأمين انفاذ الرسل لإقناع المأمون بالعدول عن موقفه ولكنهم منعوا عند الرى من حرية الاتصال بأهل البلاد : حفظوا في حال سفرهم وإقامتهم من أن يخبروا أو "يستخبروا" عندئذ رأى الأمين أن القطيعة قد تمت وعمل على أن يعيد توحيد الدولة عن طريق استعمال أساليب العنف . وفي

أوائل سنة 195 هـ أعلن خلع المأمون من ولاية العهد وأخذ البيعة لابنه موسى بدلاً منه ولقبه "الناطق بالحق" وجعل له ديواناً من شرطة وحرس ورسائل وعهد بغدارة شئونه وتأديبه إلى علي بن عيسى بن ماهان والى خراسان السابق ثم عهد لابنه الآخر عبد الله ولقبه "القائم بالحق" كما علق عدم صلاحية النقود التي ضربها المأمون والتي لا تحمل اسم خليفة بغداد للتداول .

واتبع الأمين ذلك بأن أرسل إلى الكعبة وأتى بكتابي العهد اللذين كتبهما الرشيد ومزقهما . وخرج من حيز الكلام إلى حيز العمل وكلف علي بن عيسى بن ماهان القائم بأمر ولي العهد الجديد بالسير إلى خراسان للقبض على ولي العهد المخلوع وتنفيذ ما اتخذته من إجراءات ضده .

ولا شك في أن اختيار ابن ماهان للقيام بهذه المهمة لم يكن اختياراً موفقاً فالرجل معروف بسوء السيرة في خراسان لجشعه في ابتزاز الأموال حتى اضطر الرشيد إلى عزله بعد أن جمع ثروة طائلة وبعد أن كان يقاسمه في استغلاله للبلاد ، والظاهر أن الأهواء الشخصية قامت بدورها في هذا الاختيار ، فأبن ماهان كان يطمع في العودة إلى منصبه القديم المغرى . وربما أراد الأمين أن يكيد لأهل خراسان فولاه هذا الأمر نكاية فيهم ، ولكن بلغ عدم التوفيق ، هذا ، حداً قيل معه أنه عينا للفضل ابن سهل هو الذي أشار بانفاذه حتى يقاومه أهل خراسان .

بداية الصراع :

سار علي بن عيسى على رأس 50 ألف رجل ، وخرج الأمين ووجوه أهل دولته لوداعه . واتجه جيش بغداد نحو الرى حيث كان طاهر بن الحسين قائد المأمون يعد العدة للدفاع ويستعد للقتال وحاول علي ابن عيسى أن يستغل معرفته السابقة للبلاد والاتصال بالملوك الوطنيين وإثارتهم ، هذا ولو أننا لا نعرف إلى أي حد نجحت هذه الخطة رغم ما يقوله الكتاب من أن هؤلاء الملوك أجابوه إلى قطع طريق خراسان . ولكن المحقق أن ابن ماهان استهان بأمر طاهر ، إذ تقول النصوص بأنه لما طلب إليه أصحابه بث العيون وعمل خندق ، قال : "مثل طاهر لا يستعد له" وخرج طاهر من مدينة الرى فى جيش قليل العدد (نسبياً 4 آلاف) حيث عسكر على بعد قليل منها "5 فراسخ" كما حرض جنده على القتال خالغاً الأمين داعياً بالخلافة للمأمون . وكان الغرض هو إعطاء موقف جيشه صفة شرعية حتى لا يخيل للجند أنهم يقفون موقف الخارجين على صاحب الأمر . واتخذ كل من الجيشين تشكيل القتال ووقف الواحد منهما أمام الآخر .

وبدأ طاهر بمظاهرة سياسية بأن حمل صاحب شرطته بيعة المأمون وعلقها على رمح ، ودعا على بن عيسى إلى تقوى الله في البيعة التي أخذها ولما خرج أحد أصحاب ابن ماهان علي بالسيف أظهر شجاعة فائقة ، إذ حمل عليه وأخذ منه السيف بيديه وصرعه ولهذا سمي طاهر ذو اليمينين .

وفي هذه الأثناء حدثت مفاجأة سيئة بالنسبة لطاهر ، وذلك أن أهل الرى اغلقوا باب المدينة دون عسكره ، ولكن يظهر أنه كان يتوقع مثل هذا منهم ولذلك فضل الخروج والقتال بعيداً عن المدينة فأمر أصحابه بالاشتغال بمن أمامهم فقط . وبدأ القتال في صالح على بن عيسى فهزمت ميمنته ميسرة طاهر هزيمة منكرة ، وعرجت ميسرته على ميمنة طاهر فزحزحتها عن مواضعها . ولكن طاهر أظهر كفاءة عسكرية عظيمة فلم يفت سوء الموقف في عضده ، فأمر أصحابه بالقيام بهجوم خاطف "حملة خارجية" على قلب على ابن عيسى . وبفضل ذلك الهجوم القوي تحول الموقف لصالح طاهر فانسحب جناح ابن ماهان ، وكثر القتل في أصحابه وسقط هو قتيلاً بضربه سهم في الميدان . ولم ينقذ المنهزمين إلا حلول الليل بعد أن التجأ كثيرون منهم إلى معسكر طاهر بعد أن أمنهم .

الزحف على بغداد :

كانت هذه الواقعة فاتحة سلسلة من الانتصارات قادت طاهر من الرى إلى بغداد تعيدي إلى الذهن الحملة المظفرة التي قام بها قحطبة بن صالح من خراسان إلى العراق . وتمكن طاهر بعد ذلك من هزيمة قائد الأمين عبد الرحمن بن جبلة الذي ولى همذان ، والذي كان يأمل أن يلي كل ما يفتحه من أرض خراسان . هزمه طاهر مرتين ، حاصر مدينة همذان حتى ضجر أهل المدينة ، فطلب عبد الرحمن الأمان وخرج عن المدينة ، ولكنه كان يضمر الغدر بطاهر إذ شن عليه هجوماً شديداً يائساً انتهى بقتله وهزيمة أصحابه كان هذا الرجل متعصباً للأمين ضد المأمون في أول الأمر فقال لا يرى أمير المؤمنين وجهة أبداً ، وبعد الاستيلاء على همذان عمل طاهر على تأمين ظهرية قواته عن طريق احتلال قزوین ، ولم ينتظر قائد الأمين وجيشه الكثيف وصول طاهر إذ

أنه رأى الجلاء عن البلاد ، فوضع طاهر حامية لمنع مرور أية قوات من هناك .

وبذلك خلت البلاد لطاهر فتقدم يحتل الكور والمدن حتى وصل إلى قرب حلوان ، حيث عسكر هناك وكان للانتصارين اللذين أحرزهما طاهر أثرهما الكبير في إضعاف الروح المعنوية لدى قواد وجيوش الأمين . فبعد أن بحث الفضل بن الربيع عن قائد عربي متعصب للعرب ، هو أسد بن يزيد ابن مزيد ، وبعد أن حرصه من أجل المحافظة على قوة الشعب العربي فشل في تسييره إذ كان للقائد العربي مطالب مالية لم يقابله بالرخص فقط بل أمر بحبسه كذلك وأخيراً نجح في تسيير عم أسد وهو أحمد بن مزيد لحرب طاهر وسير معه عبد الله بن حميد بن قحطبة ولكنهما لم يتقدما إلى أبعد من خانقين ، واكتفى طاهر بأن ظل في مكانه ودس عليهم الجواسيس والعيون لم يزل يحتال حتى وقع الاختلاف في معسكر أعدائه وقاتل بعضهم بعضاً حتى اضطر قائداً بغداد إلى الرجوع عن خانقين دون ملاقاته طاهر الذي تقدم ونزل حلوان نفسها .

الاضطراب في الشام :

في هذا الوقت بينما كانت الأمور مستقرة في خراسان ، وبينما كان أمر المأمون في تحسن مستمر بدأ مغرب الدولة ومركز الخلافة يضطرب وسارت الأمور على غير ما يشتهي الأمين حتى أنه وقع أسيراً بين أيدي الثوار ، وفقد خلافته لفترة ما . والغريب في هذا الشأن أن بلاد الشام ، وهي مركز الدولة العربية السابقة ومعقد آمال الشعب العربي وأمانيه في هذا الصراع العنصري كانت نهب الفتن والقلقل من البداية .

نفي سنة 194 هـ ثارت حمص على عامل الأمين فعزله ، ولكنه ولي آخراً مكان انتقم من أهلها حتى طلبوا الأمان ثم هاجوا بعد ذلك فاضطر إلى الانتقام من جديد . وفي السنة التالية سنة 195 هـ واثناء انهزام جيوش الأمين أمام طاهر ظن أهل الشام أن أمر العباسيين ودولة الفرس إلى بوار فثارت دمشق ودعت إلى عودة الأمويين "السفياني المنتظر" أعلنت أحمد حفدة معاوية ويدعى أبو العميطر "على بن عبد الله بن خالد" وكان علوى الأم "نفيسة بنت عبد الله" مشتغلاً بالعلم ، ويبلغ من المر 90 عاماً خليفة "ذى الحجة" وتمكن أبو العميطر من اخراج عامل دمشق وذلك بفضل معونة أحد موالى بني أمية وعندما سير الأمين لحربه الحسين بن علي بن عيسى ابن ماهان لم يسر هذا الأخير إلى دمشق بل اكتفى بالانتظار بالرقعة .

وأحسن السفياني السيرة أول الأمر ولكنه لم يكن ليستطيع القاء على الخصومات القديمة بين العصبية العربية من كلب وقيس أو التوفيق بينهما

ففى أول الأمر اتخذ أكثر أصحابه من كلب ولكنه عاد وخاصمهم واتفق مع قيس ولكن الزعيم الكلابى محمد بن صالح ابن بيهس أوقع به هزيمة منكرة وحاصره فى دمشق وقتل ابنه وأرسل رأسه للأمين . وحدث أن مرض ابن بيهس فعمل على الكيد للسفيانى فبايع أموياً آخر بالخلافة "مسلمة بن يعقوب" ونجحت خطته ، وتمكن الأموى الجديد من القبض على السفيانى وقرب القيسية فلما عوفى ابن بيهس من مرضه عاد وحاصر دمشق فسلمها إليه القيسية وهرب الأموى والسفيانى بعد أن دامت الفتنة حوالى 3 سنوات "محرم سنة 198 هـ) وظل ابن بيهس بدمشق حتى وصل إليها عبد الله بن طاهر .

وكان عبد الملك بن صالح ، الذى أخرجه الأمين من السجن عند ولايته قد حاول أن يجد علاجاً لنكبة الشام فطلب إلى الأمين أن يوليه إياها ومناه بأنه يمكنه ن يجيش أهل الشام لنجدته . ولكن فشل عبد الملك فى مهمته إذ قامت الفتنة بين الخراسانيين وأهل الشام بينما كان هو مريضاً ، وانتهت الفتنة بانهزام العرب ، فمات الرجل سنة 196 هـ متأسفاً لنكبتهم وضياح أمله فيهم .

ويئس كذلك الحسين بن على بن عيسى بن ماهان الذى كان أرسله الأمين إلى الشام من تقويم الحالة بعد موت عبد الملك فعاد إلى بغداد ولما أراد الأمين أن يحاسبه عما فعل رفع راية العصيان وهزم جند الخليفة وأعلن خلعه (11 رجب) وأخذ البيعة للمأمون . ولم ينقض يومان حتى كان الخليفة أسيراً هو وأمه زبيدة ، وتم ذلك بتدبير العباس من موسى بن عيسى الذى كان قد استماله الفضل بن سهل كما رأينا ولكن الحسين لم يستطع السيطرة على الموقف فثار به الجند وأطلق الأمين وأعيد إلى كرسي الخلافة ، وبذلك قدر للنزاع بين الأخوين أن يستمر مدة أطول .

وفى هذه الأثناء وقعت بغداد فريسة للفوضى وبلغ من حرج مركز الأمين أنه لم ينتقم من الرجل الذى خلعه بل عفا عنه وأكثر من هذا أنه لم يجد قائداً غيره للقيام بحرب المأمون فوجهه لذلك . ولكن الحسين كان قد فقد الثقة فى موقف الأمين فحاول الهرب إلا أنه أخذ وقتل وظهر الفشل فى حزب بغداد بهرب الفضل بن الربيع ، وكان القوة المحركة لهذا الحزب واختفائه بعد مقتل الحسين .

ظهر بجلاء إذن أن موقف بغداد ميئوس منه وكان من الطبيعى أن تتقدم جيوش خراسان بسهولة وألا يصادف طاهر بن الحسين عقبات خطيرة فتمكن من الاستيلاء على الأهواز بعد أن حاول واليها الدفاع عنها فلقى حتفه كما أن طاهر أصيب فى هذه المعركة بجراح بليغة "فقطعت يده" وباستيلائه على الأهواز تمكن من السيطرة على المنامة والحبرين وعمان "على الخليج

الفارسي من شبه جزيرة العرب" أرسل إليها عمالاً يلونها من طرفه واستمر تقدم طاهر المظفر دون مقاومة حتى اتى واسط التي استسلمت للخراسانية دون مقاومة هذه المرة ومنه أرسل أحد قواده إلى الكوفة وكانت قد خلعت الأمين واعترفت بخلافة المأمون "كان عليها العباس بن موسى صيعة ابن سهل ، ولم تفلح محاولات بغداد لاستردادها" .

وبذلك تم لطاهر الاستيلاء على كل الأراضي الواقعة بين واسط والكوفة كما أعلن والى البصرة خضوعه له ، وأعقبه والى الموصل . وبهذا أصبحت بغداد شبه محاصرة وانقطعت عن كل الولايات الشرقية والجنوبية ، وتم خروج كل بلاد العرب جميعاً من سلطان الأمين ، بدخول مكة والمدينة في طاعة المأمون . ورغم أن موقف الأمين كان لا يبشر بأى أمل إلا أنه ظل جامداً في تصرفاته لا يريد سوى التشبث بعاصمة الخلافة التي أصبحت محاصرة "لم يصبح لاه اتصال إلا ببلاد الشام المضطربة" فهو لا يريد الخروج منها - كما نصحه بعض الناس - ومحاولة تنظيم قواته من جديد بالشام ولا هو يحاول المرونة واستعمال السياسة ومفاوضة أعدائه في سبيل انقاذه ما يمكن انقاذه إذا كان هناك ما يمكن انقاذه .

في هذه الظروف تقدمت جيوش المأمون ، وصارت تقترب من بغداد شيئاً فشيئاً ، وكانت كلما قربت اضطربت أمر الجيوش البغدادية وانسحب أفرادها . هذا ما حدث بالمدائن "على بعد 4كم من بغداد" حيث نزل طاهر "بصرصر" وما حدث بالنهروان حيث نزل هرثمة بن أعين . كل هذا والأمين لا يفقد الأمل ، بل وربما اعقد في مقدرة بغداد وحدها على استعادة دولته المفقودة ففي محاولة أخيرة عمل على استمالة جيوش طاهر ببذل الأموال والتلويح ببريق الذهب ، ودس بينهم الجواسيس ونجحت التجربة جزئياً غن شغب بعض الجند على طاهر وانضم فريق منهم إلى جانب الأمين "حوالي 5 آلاف" ولكن النجاح لم يذهب إلى أبعد من ذلك إذ تمكن طاهر بسرعة من السيطرة على رجاله وهزم جيش بغداد الذي اقترب من مواقعه فلجأ إلى داخل المدينة التي أصبحت مطوقة تماماً من جميع الجهات وأفلت زمام اقواد - الذين كانوا يطلبون المال بجشع والحاح من يدى الأمين وعمت العاصمة الفوضى ، فنقبت السجون وخرج أهلها وثار العامة والغوغاء وساد النهب والسلب والاضطراب .

رغم حالة الفوضى التي عمت بغداد لم يكن من السهل أخذ المدينة التي بناها المنصور لتكون أولاً وقبل كل شئ معسكراً لجنوده وملجأ يستقر فيه في أمان من مفاجأة الأعداء . فللمدينة سوارها الضخمان ، والخندق الممتد

بينهما ، ثم هي مقسمة بعد ذلك إلى أحياء "أرباع" شبه منفصلة تتوسطها المدينة الملكية ، ويمكن لكل منها أن ينظم دفاعه الخاص . بعد ذلك هناك الأحياء والأسواق خارج الأسوار وهي مكتظة بالمباني والسكان ويمكن الاعتصام بها .

عرف طاهر ذلك وعمل على ضرب حصار محكم حول المعسكر الضخم . فقسم دائرة الحصار إلى أربع مناطق وعهد بكل منطقة إلى قائد . ونزل هرثمة بالمنطقة الشرقية "وراء دجلة" بينما نزل طاهر بالمنطقة الغربية من ناحية باب الأنبار "باب الكوفة" .

وصمم الأمين من جهته على المقاومة المستميتة دون النظر إلى العواقب مضحياً بمدينة الخلفاء العالمية . فلما أحوجه المال ضرب أنية الذهب والفضة ونفقها في أصحابه ولما خرجت عليه أحياء المدينة أمر بإحراقها رمياً بالنفط والنيران وبالمجانيق . ولم يتورع طاهر عن فعل مثل هذا أيضاً بالنسبة للأحياء التي ظلت تقاومه وسماها دار النكت "أهل الأرباض ومدينة المنصور وأسواق الكرخ والخلد ، لامتلانها بالعامية والغوغاء" كما أنه لجأ إلى أرباب الأعيان الذين لم يخرجوا إليه من الهاشميين وكبار القواد في أموالهم وأملاكهم فصار مزارعهم الموجودة خارج المدينة .

ولم يمض وقت طويل حتى انتهت المقاومة النظامية وانهارت مغنويات الجنود وضعفوا عن القتال . كما استأمن كثير من وجوه المدينة ومن القواد وظل الغوغاء وأهل السوق وباعة الطريق ، من أعداء النظام والأمن ينهبون ويسلبون ويقاومون جنود طاهر ، ورغم أنهم لم يكونوا مسلحين أو كانوا يحملون أسلحة بدائية مثل المخالي فيها الصخر والحجارة ، ومعها المقاليع فإنهم أمكنهم شل حركة جيوش طاهر النظامية لمدة ما ، بل وأكثر من هذا تمكنوا ثناء قتال الشوارع والبيوت من أن يلحقوا بهم في بعض الأحيان خسائر فادحة وأن يحرزوا بعض الانتصارات أيضاً . واتخذ طاهر إزاء هذه المقاومة إجراءات شديدة فأمر بهدم كثير من الدور والأحياء "ما بين دجلة ودار الرقيق ، وباب الشام ، وباب الكوفة إلى الصراه وربض حميد ونهر كرخايا" حتى عم الخراب واضطر الكثير من أهل المدينة إلى الجلاء عنها . وبعد ذلك عمد إلى منع الأقوات عن المدينة "صرف السفن التي يحمل فيها القوات إلى الفرات" فغلا السعر وأصبح الناس في ضيق شديد .

سقوط بغداد ونهاية الأمين :

وأخيراً تقدم طاهر من جهة الكرخ وتمكن من دخول المدينة عنوة واحتل أسواق الكرخ ثم عمل على حصار مدينة المنصور المدينة الملكية وسط بغداد حيث كان الأمين قد التجأ هو وأهله بعد أن فارقه كثير من جنده وجواريه ، وأحاط قصورها "قصر زبيدة وقصر الخلد" بالمجانيق . ورغم هذا الضيق الشديد الذى وقع فيه الأمين فإنه لم يتخل عن عاداته من الانصراف إلى الغناء والاستمتاع بالشراب والموسيقى – وربما وجد فى ذلك بعض التخفيف من محنته ، وكان هذا إيذاناً بالنهاية ، إذ لم يعد أمامه سوى الاختيار بين أحد شيئين : أمام القيام بمحاولة يائسة لاختراق صفوف المحاصرين بما تبقى لديه من الخيل وأما الاستسلام وطلب الأمان . ولما لم يكن الأمين من هؤلاء الرجال الذين يزدادون عزماً كلما ازدادت الصعاب شدة ، فإنه ركن إلى طلب الأمان . وكل ما فعله أنه لم يرض أن يكون استسلامه لطاهر بل فضل عليه هرثمة بن أعين .

وكان من الطبيعى أن يثير ذلك طاهراً صاحب الحصار . وتمكن الطرفان من ايجاد حل لذلك ، إذ اتفق على أن يدفع الأمين شعار الخلافة والخاتم والقضيب والبردة – إلى طاهر واتى هرثمة بحراقة فى دجلة ونقل الأمين إليها "وحده" ولكن طاهراً لم يكن ليرض أن يفوته شرف استسلام الخليفة . فدبر اغراق الحراقة بأيدى أصحابه تدبيراً سافراً . وتنتهى قصة الأمين نهاية مأساة روائية "تراجيدية" بأن يؤسر وهو شبه عريان ، ويحبس فى إحدى الدور . وفى ظلام منتصف الليل الذى تبدده بعض المشاعل يدخل عليه بعض الرجال من العجم ويذبحونه ذبح الشاة من قفاه "فى يوم الأحد 23 محرم 198 هـ" ويسيروا برأسه إلى طاهر الذى يرسلها بدوره إلى المأمون صاحب العرش دون منافس .

استسلمت بغداد بعد إذن وفى يوم الجمعة التالى "28 من المحرم" دخل طاهر بغداد وصلى الجمعة ودعا للمأمون . وكان المتوقع أن تهدأ الأحوال ويستتب الأمن وتستقر الأمور بعد موت الأمين وخلص الأمر للمأمون وهذا ما لم يحدث . فالمسألة كانت أكثر من ذلك تعقيداً ، إذ معنى انتصار صاحب الولايات الشرعية هو أن مركز الخلافة والحكم كان يتزحزح نحو المشرق . وفعلاً لن يدخل المأمون بغداد إلا بعد ست (6) سنوات قضاها فى عاصمة ولايته الشرقية . وخلال هذه السنوات الست ستعرف بغداد كما ستعرف الولايات الغربية ألواناً من الاضطراب وصنوفاً من الفتن والثورات وذلك حتى يعود الخليفة من جديد إلى عاصمة بغداد .

فبعد دخول طاهر بغداد لم تلبث الثورة أن شبت بالمدينة واشترك فيها الجند الذين طلبوا بارزاقهم ونادوا بموسى بن الأمين ، وظن طاهر أن فى الأمر مؤامرة فخرج عن المدينة وعزم على التنكيل بأهل الأرباض . ولولا تدخل الأعيان واعتذارهم إليه . وعندئذ حمل طاهر ولدى الأمين وهما موسى وعبد الله وأمر بتسييرهما إلى المأمون بخراسان .

خلافة المأمون

198 – 218 هـ

813 – 833 م

وحسب السياسة التقليدية للخلفاء العباسيين عمل الخليفة الجديد على التخلص ممن يستشعر خطره من كبار الرجال الذين مهدوا له الطريق إلى الملك فكان نصيب الفاتح الكبير طاهر بن الحسين أن أمر بالتخلى عن كل فتوحاته ، من كور الجبال والعراق وفارس والأهواز والحجاز واليمن للحسن ابن سهل أخى الوزير الخطير الفضل ، الذى استعمله المأمون – بايحاء الوزير من غير شك . ولم يفعل طاهر سوى مدافعتة بتسليم الخراج حتى وفى الجند أرزاقهم ، وبعد ذلك كان على طاهر أن يسير حسب أوامر الحسن بن سهل إلى الرقة على رأس قوات غير كافية لحرب أحد ثوار الشام من رجال الأمين ، وهو ابن شيبث "نصر بن سيار" الذى غلب على نواحي حلب وما جاورها من الجهات ، وعبر الفرات إلى الجانب الشرقى يبغي التغلب عليه وفى نفس الوقت ولى طاهر الولايات المضطربة ، والتي لم تكن قد دخلت فى الطاعة بعد ، وهى الموصل والجزيرة والشام والمغرب . أما عن هرثمة بن أعين فسيكون مصيره الموت بعد قليل .

العلويون وثورة أبى السرايا :

انتهز أعداء الدولة عدم الاستقرار هذا وعملوا على الاستفادة من الاضطراب والصيد فى الماء العكر ، كما يقال ، فظن العلويون ودعاتهم أن

الخلافة العباسية قد ضعفتها الصراع وأن الفرصة مواتية لقيام دولتهم المنتظرة وفي 10 من جمادى الثانية سنة 198 هـ أعلنوا إمامة أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن اسماعيل المعروف بابن طباطبا بالكوفة ، مركز العلويين ودعوا للرضا من آل محمد ، والعمل بالكتاب والسنة .

وربما كانت الظروف التي قامت أثناءها دعوة ابن طباطبا تدعو إلى التفكير في موقف قواد المأمون مثل طاهر وهرثمة ، وهل كان لهذا الموقف تأثير غير مباشر على الأقل على سير الحوادث في ذلك الاتجاه . فتتحية طاهر عما كان إليه نم الأعمال اتى أفتتحها ، والعهد بها إلى الحسن بن سهل أخى وزير المأمون القوى الذى أصبح يدعى ذا الرئاستين ، كان من شأنه أن دارت الشائعات بأن الوزير غلب على المأمون ، وكان من الطبيعى أن يثير ذلك بنى هاشم ووجوه الناس وأن يهيج الفتن . هذا عن طاهر ، أما فيما يتعلق بهرثمة فإن الرجل الذى قام بأمر حرب العلوى أى بقيادة جيوشه هو أبو السرايا الذى كان مخاطر أشبه ما يكون بزعماء العصابات والذى كان يعمل تحت قيادة هرثمة أثناء الصراع بين الأمين والمأمون . فلما استتب الأمن عاد الرجل إلى سيرته الأولى . هنا يمكن التساؤل عما إذا كانت علاقة هرثمة قد انقطعت نهائياً بهذا المغامر ؟ وهل لم يكن نم صالح هرثمة أن تقوم أمام منافسة طاهر بعض المصاعب ؟ ومن الصعب أن نجد أجوبة لهذه الأسئلة .

على كل حال التقى أبو السرايا بابن طباطبا وأصبح قائده . وعندما وجه الحسن بن سهل إليهما جيشاً تمكنا من هزيمة هذا الجيش في آخر جمادى الثانى ولكن فى الشهر التالى يموت ابن طباطبا . والظاهر أن أبا السرايا الذى كان يريد أن يكون صاحب الأمر الفعلى تخلص منه فسمه وقام مكانه غلاماً علويّاً "محمد بن زيد" فتحقق له ما كان يبغي وعندما أرسل الحسن بن سهل جيشاً ثانياً تمكن أبو السرايا من القضاء عليه قضاء تاماً .

وعندئذ أحس الطالبيون بقوتهم فانتشروا فى البلاد يبشرون بدولتهم ودعوا نصر بن شيبث بالشام إلى بيتهم فرفض ، "وقال : إنما حاربتم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم" وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة وسير قواته إلى البصرة وواسط ونواحيهما ، بل وأكثر من هذا ظن أن أطراف الدولة قد دانت له أو على وشك أن تدين ، فأرسل العمال والولاة إلى مختلف الجهات : إلى البصرة والى مكة حيث فسد موسم الحج هذا العام والى اليمن وفارس والأهواز وقد غلب رجاله على البصرة والأهواز والمدائن واليمن ، كما انسحبت أمام قائده جيوش الحسن بن سهل التى كانت بواسطة إلى بغداد ، حتى طمع فى دخول بغداد نفسها .

وعندما استفحل الخطر ، اضطر الحسن بن سهل إلى استدعاء هرثمة الذي كان قد سار نحو خراسان وهو مختلف مع الحسن . ورضى هرثمة بعد امتناع الذهاب لحرب أبي السرايا ، وتمكن من هزيمته بسهولة قرب المدائن فارتد أبو السرايا والطلبون إلى الكوفة حيث قاموا بأعمال انتقامية ضد من بها من بني العباس ، فهدموا دورهم وانتهبوا وخرّبوا ضياعهم . ولكن لم يلبث أبو السرايا أن خرج منها ودخلها هرثمة "في 16 من المحرم سنة 200 هـ" وانتهى الأمر بالقبض على أبي السرايا وقتله وتسيير رأسه إلى المأمون .

في هذه الفترة القصيرة التي عرف فيها العلويون سطوة الحكم والسلطان قاموا بأعمال انتقامية شنيعة ، كما أساءوا السيرة . فكما حدث في الكوفة حدث في البصرة حتى سمي زيد بن جعفر بزيد النار ، لكثرة ما أحرق بالبصرة في دور العباسيين . وفي اليمن أطلق على إبراهيم بن موسى جعفر "الجزار" لكثرة من قتل باليمن وسبى وأخذ من الأموال . وكذلك لم تسلم مكة والكعبة من فعالهم السيئة . فقام الأفضس "الحسين بن الحسن" عامل أبي السرايا بالاستيلاء ، على ودائع بني العباس هناك وأخذ أموال الناس ومال أصحابه على شبابيك الكعبة وأخذوا ما كان عليها من أساطين الذهب اليسيرة وما كان بخزانتها من المال . ولما بلغه موت أبي السرايا الح على محمد بن جعفر العجوز في قبول الخلافة وأجبروا الناس - لمي بيعته . وأخيراً تمادى الطلبون في غيرهم وانتهكوا الأعراض .

وأخيراً تمكنت جنود هرثمة مع جنود والي اليمن المطرود من هزيمتهم واعتذر محمد بن جعفر بأنها كانت فتنة عمت الأرض ، وخلع نفسه فسير به إلى المأمون بمرور سنة 201 هـ هكذا قضى تماماً على الفتنة العلوية التي ربما كان له ضلع في إثرتها نكايه في ابني سهل اللذين غلبا على الخليفة أو هنا ما سيتهمه به أعداؤه فيغضب عليه المأمون ويموت بعد أيام في حبس الفضل .

الاضطرابات في بغداد :

أما عن بغداد فكان من الصعب عليها أن تعيش مطمئنة بدون خليفة والقيت تبعة عدم مجئ الخليفة إلى العاصمة على ابن سهل وانتهاز الجند تأخر أرزاقهم بعض الوقت ، ثاروا ضد الحسن بن سهل وتمكنوا من طرده هو وعماله "ونادوا باسحق بن موسى الهادي نائباً للمأمون على بغداد" وحاول الحسن ارضاءهم بالمال بعد أن استعمل معهم العنف ، ولكن وصول خبر مقتل هرثمة وهروب بعض العلويين من سجن البصرة زاد من هياج الفتنة . وخرج قائد الحسن بن سهل عن بغداد . وسار الحسن نفسه من المدائن إلى واسط في أوائل سنة 201 هـ . وفكر الهاشميون وأهل بغداد من الغاضبين على الحسن

بن سهل في مبايعة منصور بن المهدي وعرضوا عليه الخلافة ولكنه كان مخلصاً للمأمون فأبى . وأخيراً رضى أن يضبط الأمور باسم المأمون أى أن يكون نائباً له ببغداد والعراق كانوا يقولون لا نرضى بالمجوسى ابن المجوسى .

المطوعة في بغداد :

إزاء اضطراب بغداد هذا ، وقيام الفتن بين الناس وانتشار السلب والنهب والمفاسد ، من قطع الطريق إلى أخذ النساء أو الصبيان علانية وقصور السلطات عن ضبط الأمور ، قامت حركة شعبية تهدف إلى نشر الأمن والطمأنينة وحسن المعاملة بين الناس ، واتخذ القائمون بهذه الحركة المبدأ الإسلامى الشهير : وهو "المر بالمعروف والنهي عن المنكر" شعاراً لهم . معنى ذلك أن الحركة كانت في أول أمرها عبارة عن دعوة إلى التقوى ولزوم أوامر الدين . هذه الدعوة ستعطى أعمال الجماعة عندما تضرب على أيدي الفساد صفة شرعية ، إذ أن هذا العمل من اختصاصات صاحب الأمر الشرعى . وأول ما فكر في تنظيم هذه الحركة رجل اسمه خالد الدريوش . دعا هذا الرجل جيرانه وأهل محلته إلى معاونته على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفعلاً قاتل الفساق وتمكن من هزيمتهم . كل هذا في حدود الاعتراف بسُلطان ولى الأمر . قام بعد ذلك رجل آخر اسمه سهل بن سلامة وعلق مصحفاً في عنقه ودعا الناس لمناصرتة في دعوته ، ولكن لما كان كثير من أصحاب هذين الداعين من عامة الناس وغوغائهم فإن منصور بن المهدي الذى دخل بغداد قاومها وهزم أصحابها . وفى هذا الوقت كانت هناك مفاوضات بين الحسن بن سهل وأهل بغداد من أجل تأمينهم على أن يعطى لهم وللجند من الثوار الأرزاق ، وفعلاً تم الاتفاق على ذلك وعاد الحسن بن سهل إلى بغداد "13 شوال سنة 201 هـ" إلا أن سهل ابن سلامة ظل على ما كان عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

العهد للعلويين :

في غرمة الحوادث الدامية هذه وجد المأمون أن الفضل في ما وصلت إليه الدولة من حالة الاضطراب التي تكاد تؤدي بالأسرة العباسية ، بل بالأسرة النبوية جميعاً ، يعود الى مشكلة وراثة العرش ، التي لم يستطع أسلافه ايجاد حل مرض لها ، وفكر هو في ايجاد حل لهذه المسألة . وربما كان المأمون خيالياً بعض الشئ . فيما فكر فيه ، وربما كان فيلسوفاً يريد أن يصل إلى أصل الداء . فعلى حين غرة أعلن العلوى على بن موسى الرضا والياً للعهد بعده ، وكان قد خلع أخاه المؤتمن قبل ذلك سنة 198 هـ .

ويمكن النظر إلى هذا الإجراء من وجهين :

1 - على أنه عمل سياسي صرف يرمى إلى ارضاء العلويين واتباعهم ومن يعطف عليهم في أنحاء الدولة المختلفة ، وهؤلاء كانوا عديدين في العراق والحجاز ارضاء مؤقتا ، ورغم سياسة القمع التي كانت الأسرة العلوية هدفاً لها لم تزل الأسرة تتمتع بنصيب كبير من التعظيم ، كما أن العباسيين كانوا يخشون أن يجلبوا لأنفسهم . عن طريق الشدة القاسية كراهية الشعب التي كانت نحساً وشوْماً على الأمويين .

2 - على أن المسألة أعمق من هذا ، وأنها تتصل بشرعية ولى الأمر وأحقية الفرع العلوي من أسرة النبي هو الآخر في الاشتراك في الحكم اشتراكاً فعلياً وهذه نظرة الفيلسوف الزاهد الذي يبحث عن الحقائق الصرفة دون اعتبارات أخرى . ويمكن التفكير في أن المأمون كان متأثراً في ذلك بآراء وزيره الفضل بن سهل .

ويؤيد وجهة النظر الثانية هذه أن المأمون زوج العلوي ابنته أم حبيب وزوج ابن ارضا وهو محمد ابنة أخرى وهي أم الفضل ، وفي هذا معنى تحقيق وحدة الفرعين العباسي والعلوي ، ثم أنه غير اللون الأسود لون العباسيين للرايات والخلع ، وأحل محله اللون الأخضر شعار العلويين "معنى ذلك حلا لمشكلة العلوية وقيام دولتهم المنتظرة وربما أيدها أيضاً تصرفات المأمون إزاء العلويين بعد وفاة الرضا .

نتائجبيعة الرضا :

ولكن هذا العمل السياسي الغريب بعكس ما كان يتوقع له في العراق ، فبدلاً من أن يؤدي إلى الهدوء أثار الغضب ، إذ احتج جميع العباسيين على اعتزال أو تنحي رئيسهم "قالوا لا تخرج الخلافة من ولد العباس" وفي بغداد رفضوا أداء البيعة للأمير العلوي وفكروا في خلع المأمون نفسه "كان أشدهم فيه منصور وإبراهيم أبناء المهدي" وفعلاً تنازعوا هذا الأمر أثناء خطبة الجمعة "27 ذى الحجة" . وتفرق الناس دون صلاة بعد أن نودى بعم المأمون . وهو المغنى الموسيقى الهاوى إبراهيم بن المهدي ، خليفة ولقبوه "بالمبارك" .

وتمكن إبراهيم من الاستيلاء على الكوفة مركز العلويين إذ أن هؤلاء من جانبهم لم يرضوا عن البيعة لعلی بن موسى للرضا بعد المأمون إلا أن تكون البيعة لرضا فقط . واستولى كذلك على السواد جميعه ، ثم أخذ قصر ابن هبيرة بفضل اختلاف بعض القواد الحسن ابن سهل "10 ربيع" وسير إبراهيم جنوده إلى واسط حيث كان عسكر الحسن متحصنين ولكنهم انهزموا . وفي بغداد نفسها قبض إبراهيم على سهل بن سلامة الذي كان يدعو على رأس رجاله إلى

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "كان قائده عيسى بن محمد بن أبي خالد يسميهم الفساق" فعاقبه وحبسه . وعندئذ عرف المأمون أن بغداد لا تستطيع أن تعيش بدون خليفة ، كما رأى عدم جدوى ولاية العلوي للعهد فقرر أن يعمل شخصياً . والظاهر أن وزيره أمده بمعلومات خاطئة عن الموقف بالعراق وأن صهره الطالبى هو الذى أوضح له الأمر "ابنا سهل أخفى عنه بيعة إبراهيم" .

وكان هناك خطر جديد يهدده فى المشرق فالحركات المذهبية التى بدأت بتعاليم أبى مسلم ، والتى تابعه فيها المقنع عن تناسخ الأرواح والحلول الإلهى كانت قد انتشرت فى اذربيجان بفضل من يسمى بابك الذى اكتسب كثير من الأتباع ، والذى ربما بلغت قوته إلى حد فصل الولايات الإيرانية عن الغرب لو قدر لحركته أن تتسع إلى أكثر من ذلك . فهم المأمون إذن خطورة الموقف وترك مرو وسار إلى بغداد . ولحسن حظه تمكن من الخروج من المأزق الذى دبره هو نفسه . ففى الطريق تحدث مأسا شتهر بها التاريخ العباسى إذ يغتال الفضل بن سهل ، ذو الرناستين بسرخس - بتدبير من الخليفة على ما تدل الظواهر . واتجه المأمون نحو طوس لزيارة قبر والده والتبرك بالصلاة عليه . وفى طوس مات صهره العلوى مصاباً بسوء هضم كما يقال "أكل عنباً وكان يحب العنب" ، ولكن من المحتمل أنه مات مسموماً "ابن الأثير لا يعتقد فى ذلك" ، ودفن إلى جانب قبر هارون ولما كان العلويون سيعتبرونه شهيداً فى القريب العاجل ، بنيت حول قبره مدينة طوس القديمة ، والتى تمثل الآن أكبر عتبات الشيعة المقدسة إلى جانب كربلاء .

ولما كان أخو الوزير وهو الحسن بن سهل بمنطقة واسط وكان غريباً بالنسبة للعراقيين فإنه سيجن بعد قليل ، كما يقال ويسجن بهذه الحجة وبناء على ذلك فإن أهل بغداد بدأوا يهجررون المطالب بالخلافة "إبراهيم بن المهدي" الذى اضطر إلى الاختفاء بعد أن تسلل قواده إلى قواد المأمون وفشل محاولاته للاحتفاظ بمركزه " فى 16 ذى الحجة سنة 203 هـ" كما اختفى الفضل بن الربيع أيضاً ثم أنه تحول إلى قائد المأمون وسمحوا للمأمون بدخول بغداد .

عودة المأمون إلى بغداد :

دخل المأمون بغداد فى صفر سنة 204 هـ / اغسطس 819 م وبصحبه طاهر بن الحسين الذى كان المأمون قد استدعاه من الرقة "للقدوم عليه بالنهروان" وكان المأمون يتخذ لون العلويين الأخضر شعاراً له ، لكنه لن يلبث أن يغيره إلى لون العباسيين الأسود . "حسب نصيحة طاهر الذى أصبح رئيس شرطة بغداد ، وعامل خراج السواد" . عمل المأمون على تهدئة العراقيين بأن خفف العبء المالية عن أهل السواد بعض الشئ "وهى نفس السياسة المالية

التي اتخذها عندما أعتصم بخراسان أول امره فقد أمر بمقاسمة أهل السواد على الخمسين وكانوا يقاسمون على النصف" .

طاهر إلى خراسان :

وفي السنة التالية سنة 205 هـ سار طاهر إلى خراسان بأمر الخليفة الذي ولاه على المشرق من مدينة السلام إلى أقصى عمل المشرق . إذ كانت الأحوال تنذر بالاضطراب والفتنة هناك . وبعد قليل من الوقت أصبح السيد الذي لا ينازع للولاية جميعاً . وولاية طاهر لخراسان بفضل تدبيره هو نفسه ، وذلك أن صديقه أحمد بن أبي خالد "الوزير" أثار شكوك المأمون حول مقدرة والي خراسان غسان ابن عباس "ابن عم الحسن بن سهل منافس طاهر" ، فقال : "أخاف أن تخرج فيه خارقة من الترك فتهلكه" وربما كان أحمد ابن أبي خالد مغرضاً . فعندما توجه إلى خراسان في أيام طلحة بن طاهر ليقوم بأمره وهب له طلحة 3 آلاف درهم وعروضاً بألفي ألف درهم ووهب لإبراهيم بن العباس كاتب أحمد 500 ألف درهم . وبعد مسير طاهر إلى المشرق حل ابنه عبد الله بن طاهر الذي خلفه في قتال نصر بن شيبث بالرقعة محله ببغداد كصاحب الشرطة كما ولاه المأمون من لرقعة إلى مصر وكذلك الجزيرة .

وبعد قليل سيشرع طاهر بقوته حتى أنه في "سنة 207 هـ / 822م" سمح لنفسه باهمال ذكر اسم الخليفة في خطبة الجمعة . ورغم أن هذا الإهمال أو السكوت كان معناه العصيان المكشوف أو اعلان الاستقلال عن الخلافة ومع أن الشكوك قالت عن طاهر الذي توفي عقب ذلك مباشرة أنه مات مسموماً بتدبير من الخليفة ، إلا أن المأمون عين ابن طلحة والياً لخراسان وسيظل أحفاد طاهر محتفظين بهذا المركز حوالي قرن - بينما شغل أفراد الأسرة وظائف مهمة في الغرب منها شرطة بغداد . وهكذا فقدت الدولة حقيقة ولايتها الشرقية المتطرفة . كما سبق أن فقدت الولاية الغربية (ولاية الأغالبة) .

حلب والموصل :

ورغم عودة المأمون إلى بغداد فإن الولايات المختلفة كانت قد تعودت على الاضطراب ، وسيؤدي عبد الله بن طاهر خدمات عظيمة للدولة فيما يختص بإدارة الولايات الغربية . وفي منطقة حلب حيث كان نصر بن شيبث وهو تابع الأمين المخلص والمتعصب للعرب قد رفض طاعة المأمون وغلب على الجهة ، فإن اطهر قام بمحاربتة ، ولكنه لم يستطع قهره إلا سنة 209 هـ / 825م وسير بابن شيبث إلى بغداد .

وانتهز أحد العباسيين من أتباع إبراهيم بن المهدي وهو المدعو "ابن عائشة" هذه الفرصة ودبر القيام بانقلاب في العاصمة ، ولكن كشف أمره وكان جزاؤه القتل والصلب بعد الضرب والحبس "وهو أول عباسي صلب في الإسلام" وفي نفس هذه السنة "210 هـ" قبض على إبراهيم بن المهدي نفسه "وكان متنقبا في زي امرأة ، ولكنه تمكن من نيل صفح المأمون وعفوه .

أما عن منطقة الموصل فكانت مضطربة كالعهد بها . إذ قامت الحرب بين واليها السيد بن أنس وبين علي بن صدقة المعروف بزريق . والى أرمينية واذربيجان وانتهت بقتل ابن أنس سنة 211 هـ . وفي السنة التالية أرسل المأمون أحد قواده "محمد بن حميد الطوسي" لحرب بابك وأمره في نفس الوقت أن يصلح أمر الموصل فتمكن من هزيمة زريق وأرسله للخليفة "وأصبح هو والياً للموصل" .

الحالة في مصر :

أما عن مصر فإنها عرفت الاضطراب هي أيضاً على عهد المأمون ، وكان علي عبد الله بن طاهر إقامة الأمن وانتاب النظام بها . إذ ثار النزاع القديم بين عرب الجنوب وعرب الشمال بمناسبة النزاع بين الأخوين : فأنضم القيسيون للأمين وأخذ الكلبيون جانب المأمون ، وتحققت وحدة الامبراطورية من جديد ولكن مصر ظلت مضطربة حتى اضطر المأمون نفسه إلى القدوم ليها سنة 216 هـ . ففي سنة 210 هـ وبعد أن تخلص عبد الله بن طاهر من نصر بن شيبث سار نحو مصر وكان قد تغلب عليها عبد الله بن سرى . تمكن هذا الرجل من مقاومة القائد الذي أرسله عبد الله بن طاهر . ولكن عندما توجه ابن طاهر نحو العاصمة المصرية انهزم ابن سرى ودخل المدينة واعتصم بها . ولكن ابن طاهر شدد عليه الحصار حتى استسلم وحمل إلى بغداد . ولكن حدث في نفس الوقت أن غزا من الأندلسيين "15 ألف رجل" الذين نفاهم الحكم صاحب الأندلس الأموي الاسكندرية واستولى عليها واثاروا الاضطراب من جديد . ولكن عبد الله تمكن بعد قليل من ارجاعهم على الانسحاب إلى جزيرة كريت وتسيير دولاب الإدارة من جديد "هذا الحادث يدل على ما يشبه الوحدة

الإسلامية في البحر المتوسط أيام الاضمحلال البيزنطي – سيظل الاندلسيون بكريت حتى يطردهم البيزنطيون منها سنة 961م".

وعاد عبد الله بن طاهر إلى بغداد فاستقبله المأمون وأهل المدينة استقبال الفاتحين . وبعد موت أخيه طلحة سنة 213 هـ تمكن من وضع يده على ممتلكات الطاهريين الوراثة في خراسان "قيل أنه ولي خراسان بعد أبيه ولكنه كان قد عهد بها إلى أخيه طلحة" وقام ولي العهد أبو أسحق المعتصم بإمرة مصر ولكنه أظهر عدم كفاءة إذ وثبت العصبية العربية من قيسية ويمنية بواليه وقتلوه "ربيع أول سنة 214 هـ" فاضطر إلى السير بنفسه وقتال الثوار وقمعهم بالقوة . ولكن الاضطرابات عادت من جديد "واشترك القبط في الثورة" حتى اضطر المأمون نفسه إلى المسير من دمشق إلى مصر في أواخر سنة 216 هـ كما قدم القائد التركي الأفشين إليها من بقرة . وأقام المأمون بمصر سنة 217 هـ حتى هدأت الأحوال "إذ ظفر الأفشين بأهل الفرما وقتل عبدوس الفهري الذي كان قد وثب بعمال المعتصم" وقيل أن المأمون هو الذي أمر بحفر التلثة التي في الهرم الأكبر .

وعن اليمن ، فقد قامت بها ثورة علوية ، فرغم المعاملة الخاصة التي حابي المأمون بها الطالبين ، دعا عبدا لرحمن بن أحمد العلوي لنفسه بالخلافة هناك سنة 207 هـ "للرضا من آل محمد" منتهزاً تذمر أهل البلاد من العمال . ولكن ما أن وجه المأمون أحد قواده "دينار ابن عبد الله" إلى هناك وخير الطالبين بين أمان الخليفة والحرب حتى أعلن الثائر الطاعة فاقْتيد إلى المأمون .

وكان لهذه الثورة أثرها في نفس المأمون فأمر بمنع الطالبين من الدخول عليه ، كما منعهم من ارتداء لونهم الأخضر ومرهم بلبس السواد ، وبدأ يكون حذراً بعض الشيء في معاملته له ، حريصاً على تعقب أبناء . فهو عندما تصله شائعات أنكرها عن ميل عبدا لله بن طاهر إلى العلويين لا يتورع عن أن يدس عليه رجلا يتظاهر بالدعوة للعلويين حتى يتأكد من صحة رأيه في ابن طاهر .

ولكن لم يكن هذا تغييراً جوهرياً في سياسته إزائهم فهو دائم العطف عليهم والمحابة لهم يفعل ذلك طبعاً لا تكلفاً ، كما تقول النصوص فهو في نفس السنة 211 هـ ينادى بالحط من شأن معاوية – عدو على اللدود – ويلعن من ذكره بخير أو فضله على أحد من أصحاب النبي . وفي السنة التالية 212 هـ يعلن تفضيل على بن أبي طالب على جميع الصحابة . وكما أنه قبل أن يموت في وصيته لأخيه المعتصم على أحسان صحبة بني عمله أولاد أمير المؤمنين على والتجاوز على مسيئهم .

بداية بابك الخرمي :

هذه الاضطرابات التي حلت بمختلف الولايات لم يكن لاه خطورة الحركة المذهبية الخطيرة التي ترأسها بابك بأذربيجان . هذه الحركة التي ظهرت سنة 192 هـ في أواخر أيام الرشيد ، بدأها رجل يسمى جاويدان بن سهل وستظل تقوى وتشتد طيلة عهدي الأمين والمأمون حتى تصبح خطراً داهماً على عهد المعتصم الذي سيتمكن بفضل قواد الترك من التغلب على الثوار . ولا شك في أن الانقسام الذي أضعف الدولة أيام الأمين والمأمون حتى تصبح خطراً داهماً على عهد المعتصم الذي سيتمكن بفضل قواد الترك من التغلب على الثوار . ولا شك في أن الانقسام الذي أضعف الدولة أيام الأمين والاضطرابات التي تلت موته كان من الأسباب التي مكنت الثوار من الاعتصام بجهتهم ومقاومة الحملات الضعيفة التي كانت تواجهها لهم الحكومة المركزية والحقيقة أنه لو قدر للرشيد أن يعيش بعض الوقت لقضى على الحركة في مهدها . إذ أنه في نفس السنة التي بدأت فيها الحركة "192 هـ" وجه إليهم قائد على س 10 آلاف رجل فنكل بهم . وكان الرشيد حازماً إزاء الثوار فأمر بقتل أسراهم وبيع سباياهم وظلت الحركة ضعيفة حتى سنة 201 هـ حين ظهر على رأسها رجل صعب المراس هو بابك الخرمي الذي أظهر إلى جانب كونه داعياً سياسياً ودينياً كفاءة عسكرية ممتازة فدوخ الجيوش تلو الجيوش .

ففي سنة 204 هـ كانت الحرب سجالاتاً بينه وبين قائد الخلافة بين بن معاذ . وفي سنة 206 هـ هزم عيسى بن محمد بن أبي خالد ، وفي سنة 209 هـ ولي المأمون زريق وهو على بن صدقة على أرمينية وأذربيجان وأمره بحرب بابك ، ولكن هذا اكتفى بأن أثار الاضطراب في الموصل والجزيرة كما رأينا وأرسل المأمون قائداً آخر (هو محمد بن حميد) فتك بزريق وتوجه إلى أذربيجان لملاقاة بابك ، وتوغل ابن حميد في البلاد الجبلية نحو معقل الثوار متخذاً الحيلة في سلوك الدروب والمفاوز وحراستها ، ولكن فاجأته قوات بابك في مضائق الجبال من كل وجه الهزم الجيش وقتل ابن حميد وظل الثائر معتصماً بجبال أذربيجان حتى وفاة المأمون سنة 218 هـ .

إلى جانب الثورة المذهبية المسلحة هذه عرف مركز الدولة حركة دينية أشبه ما تكون بحركة الزنادقة على عهد المهدي . وهي التي نسميها بمحنة خلق القرآن . إذ اهتم المأمون بالمسائل الدينية . تدخل في الجدل بين المعتزلة وأهل السنة . ومع أن العامة لم تهتم كثيراً بمسألة القضاء والقدر إلا أنها اهتمت اهتماماً بالغاً بمشكلة خلق القرآن ، غداً اعتنق المأمون رأى المعتزلة في أن القرآن مخلوق وأظهر ذلك سنة 212 هـ وبدأ يجبر القضاة والفقهاء والأئمة على إعلان "خلق القرآن" واتخذ إجراءات شاذة ضد من لم يعتنق هذه الفكرة فترك الاستعانة به وربما ذهب إلى أبعد من ذلك فعاقبه .

وكان الهدف من هذه الحركة مزدوجاً كما هي العادة . فالخليفة إلى جانب اهتمامه بالحياة الروحية لشعبه ورغبته في شغل رعيته بهذه المسألة واكتساب محبة الرعية أيضاً ، كان يعمل على أن تكون هذه المشكلة الدينية وسيلة لأن يتخلص "من أعدائه السياسيين ممن لا يدينون بهذه الفكرة" وعرف المأمون كيف يربط بين الجهاد في سبيل الله ضد بيزنطة وبين هذه الحركة الدينية . فهو يهتم بها اهتماماً جدياً في أواخر أيامه أثناء وجوده سنة 218 هـ في ثغور الروم ، تماماً كما حدث أيام المهدي من اهتمامه بأمر الزنادقة أثناء توجهه لحرب الروم ، فهو يكتب إلى بغداد في امتحان الفقهاء والقضاة وطلب انفاذ بعضهم إليه ليمتحنهم شخصياً .

ومن المهم متابعة استجابات هؤلاء الأشخاص المهرة الدين يبحثون عن أجوبة لا تجرح ضمائرهم ولا تضر بمبادئهم فعندما سئل بشر بن الوليد عن رأيه في القرآن قال : قد عرف مقالتى أمير المؤمنين غير مرة" فلما قيل له قد تجدد كتاب أمير المؤمنين قال : اقول القرآن كلام الله ، وعندما رد عليه بأنه لم يسأل عن هذا وإنما المطلوب معرفة ما إذا كان القرآن مخلوقاً قال : "الله خلق كل شئ" قيل له" فما القرآن شئ فقال "نعم" قيل له "فمخلوق هو" قال "ليس بخالق" .

ولما سئل أحمد بن حنبل ، ما تقوله في القرآن قال كلام الله قيل له "مخلوق هو" كلام الله ما ازيد عليها ، فامتحن .

وكتب اسحاق بن إبراهيم "الامتحن - خليفة المأمون ببغداد" مقالات القوم واحداً واحداً وأرسلها إلى المأمون فأجاب بأن ذمهم . ولكنه كتب إليه أن يمتحن بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدي "المدعى الخلافة ببغداد سابقاً" وأمره أن يضرب عنقهما إن لم يجيبا ، أما عن سواهما فيحملون إلى معسكره موثقين بالحديد . وفعلاً شد أحمد بن حنبل في الحديد ومعه أخوه "محمد بن نوح" ووجهها إلى طرسوس في انتظار عودة المأمون من أرض بيزنطة إلا أن خبر موت المأمون وصلهم وهم بالركة ، فعادوا إلى بغداد .

الحرب مع الروم :

أما عن سياسة المأمون إزاء بيزنطة فرغم أنه لم يكن معتاداً قيادة الحملات العسكرية شخصياً إلا أنه اضطر في آخر أيامه إلى القيام بالعمليات الحربية بنفسه ضد امبراطورية القسطنطينية . فبعد انقطاع الغارات الإسلامية بمناسبة الصراع بين الأمين والمأمون ربما كانت مساعدة البيزنطيين لبابك الذى ظل دائماً يرفع راية العصيان باذربيجان والذى ازداد خطره أخيراً سبباً في

أن يقوم بغارة كبيرة على آسيا الصغرى سنة 215 هـ - 830 م وخلال 3 سنوات متتابعة استمر الخليفة في الاشتراك في الصوائف .

ففي أول سنة 215 هـ توجه على رأس حملة كبيرة إلى ثغور الروم واستصحب معه ابنه العباس ، كما استدعى اخاه المعتصم من مصر ، والتقى به هذا الأخير قرب الموصل ، ومن الموصل اتجه إلى منبج ثم دابق ثم انطاكية ثم المصيصة وطرسوس . ومن طرسوس دخل إلى الأراضي البيزنطية في جمادى الأولى هذه الغارة عمت كثيراً من نواحي آسيا الصغرى ، فالعباس دخل من جهة ملطية يخرب ويدمر وفتح المأمون حصن ماجدة بالأمان ثم حصن قرّة عنوة وهدمه . ووجه القائد التركي اشناس إلى حصن سندس ووجه قائدين آخرين إلى حصن سنان ، فخضع قائد الحصنين لشروط المسلمين . وعندما حل الشتاء عاد المأمون إلى الشام "دمشق" .

ولما تحسنت الأحوال الجوية في السنة التالية 216 هـ رجع المأمون إلى أرض الأعداء وكان الأمبراطور قد قام بأعمال انتقامية ضد طرسوس والمصيصة وتمكن المسلمون من الاستيلاء على عدد كبير من الحصون "30 حصناً افتتحها المعتصم" لا سيما هرقلّة التي خرج أهلها عندها بعد أن أخذوا الأمان وكذلك مظمورة . واستمرت الصائفة 4 أشهر "جمادى الأولى - 14 شعبان" ثم عاد المأمون من جديد إلى الشام .

وفي سنة 217 هـ حاصر الخليفة أكبر الحصون البيزنطية على الحدود وهو حصن لؤلؤة طوال الصائفة تقريباً "100 يوم" ثم رحل عنه تاركاً أحد قواده "عجيف" على حصاره واضطر الباسيليوس تيوفيل إلى طلب السلم بعد سقوط الحصن صلحاً "أرسل ملك الروم يطلب المهادنة فلم يتم ذلك" .

وفي سنة 218 هـ سيعود المأمون إلى أرض ثغور الروم ويوجه ابنة العباس إلى طوانه ليحصنها بالحاميات ، وتم بناء الحصن فعلاً وأرسل إلى البلدان في طلب المقاتلة للحصن وأجرى لهم العطاء السخي "الفارس 100 درهم والراجل 40 درهما" ولو أن هذا لم يتم ففي هذه الأثناء مرض المأمون مرضه الذي مات فيه إذ فاجأته المنية قرب طرسوس حيث دفن .

المدارس التاريخية في العصر العباسي

استأثر الاهتمام الإسلامي بهذه المدرسة والسبب في ذلك يعود إلى أن المدينة كانت عاصمة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده ، ومركز تجمع الصحابة والبلد الأساس للدين الجديد صاحب الدولة وضروب التحرير والفتوح ، وحين احتاج المسلمون في أنحاء الدولة العربية الإسلامية

إلى معرفة أوسع بالدين وصاحب الرسالة والأحكام والحديث والسنن والتفسير وأحاديث الدعوة الإسلامية الأولى وتفصيل عن الهجرة والمغازي توجهوا أول ما توجهوا إلى من يغنون به تلك المعرفة وتصدى لإيضاح ذلك بالمقابل ، أبناء الصحابة أنفسهم وبشكل خاص المجموعة الأولى منهم.

وقبل أن نتكلم عن هؤلاء لا بد من معرفة من هو مؤسس هذه المدرسة والتي لعبت في المصادر التاريخية فحسب بل بقية فروع العلم آنذاك ، أنه عبد الله بن عباس ولد عبد الله بن العباس قبل وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بثلاثة عشر سنة وتوفي في الطائف سنة 78 هجرية وكان أبرز فقهاء المدينة ، وأوسعهم إطلاعاً وعلماً وكان يسمى البحر لا لكثرة علمه في الفقه فحسب ولكن لكثيرة ما لديه من الأخبار الماضية والنسب أيضاً ، إضافة إلى كونه كان له باع طويل في الشعر واللغة وتفسير القرآن والحساب والفرائض ، روى ابن سعد في الطبقات عن أبي رباح أحد تلاميذه بقوله "كان أناس يأتون ابن عباس للشعر وناس للأنساب وناس لأيام العرب ووقائعها فما منهم من صنف إلا يقبل عليه بما يشاء" ولعبد الله بن العباس مكانة في الرواية التاريخية وذلك واضح فيما روى عنه محمد بن جرير الطبري في تاريخه ، حيث ورد اسمه 286 مرة فيه أي في تاريخ الطبري. ولا تكاد تقرأ فصلاً من فصول الطبري إلا الجزء الخامس خاصة إلا وجدنا فيه قولاً أو أكثر لابن عباس في العرب البائدة أو الإسرائيليات أو المغازي وكثير من المؤرخين الآخرين أخذوا قليلاً أو كثيراً من هذه الأمور عنه ولعلمهم تزايدوا في الكثير من أقواله حتى لنجد الكثير من التناقض بين الروايات المروية عنه ، انظر كاكرا مصطفى / تاريخ العرب ص .150

أما من ناحية الكتب فلم يترك لنا عبد الله بن عباس كتباً ، إلا أنه ترك أقوله و معلوماته مكتوبة لدى بعض مواليه وبعض من تلامذته ، ويذكر أنه كان لدى كريب بن أبي مسلم مولى ابن عباس حمل بعير أو عدل بعير من كتبه وأقواله المكتوبة فكان علي بن عبد الله بن العباس إذا أراد الكتاب كتب إليه أبعث إلي بصحيفة كذا وكذا قال "فينسخها فيبعث إليه بأحدهما" وهذا يعني أن ابن عباس قد ترك صحفاً "أي مصادر" لورثته بعد وفاته ، وكانت من الكثرة بحيث يبلغ حجمها حمل بعير.

وأما تلامذة عبد الله ابن عباس فكان عندهم بدورهم ما يقومون بروايته ومن هؤلاء التلامذة عروة بن الزبير ومحمد بن كعب القرظي ووهب بن منية وسعيد

بن جبير وأنس ابن مالك ، وسعيد بين المسبب وغيرهم وعن هؤلاء التلاميذ أخذ الكثير مما نعرف من الأخبار بين أخبارهم والسير أمثال ابن أبي خيثمة وابن السائب الكلبى.

أما المجموعة الأولى من رواة مادة المصادر التاريخية من أبناء الصحابة منهم:

1- سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي ، ولد في المدينة في حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ولكنه لم يلتقي الرسول ورغم ذلك بعشرة البعض من الصحابة ، "ولعله من أوائل من دون أشياء عن حياة الرسول ، وربما بدأ هذا العمل أبوه سعد ثم جاء سعيد فعده وقد كانت النسخة الأصلية من تصنيفه موجودة عند حفيدة سعيد بن عمرو بن سعيد ، في أوائل العصر العباس" انظر شاكر مصطفى / التاريخ العربى ص 151.

أما معلوماتنا عن وفاة سعيد بن سعد بن عبادة فهي غير دقيقة لكن ابنه شرحبيل بن سعد وهو كتب في المغازي توفي سنة 123 هجرية 740 ميلادية وقد ناهز المائة عام.

2- سهل بن أبي خيثمة المدني الأنصاري ولد سنة 3 للهجرة النبوية الشريفة المصادف 625 للميلاد وتوفي في عهد معاوية ابن أبي سفيان وهو أيضاً كتب شيئاً عن حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ومغازيه بقي في حوزة حفيدة محمد بن يحيى بن سهل والذي روى عنه الواقدي كثيراً من الرواية وكان محمد هذا عندما يكتب أو يروي يقول "وجدت كتاب أبائي" "وقد بقيت شذرات عديدة من هذا الكتاب لدى البلاذري في أنساب الأشراف وابن سعد في الطبقات وكذلك الطبري.

3- سعد بن المسبب المخزومي ، ولد سنة 13 هجرية 634 ميلادية وتوفي في المدينة المنورة سنة 94 هجرية 713 ميلادية وهو نساية ومؤرخ فقيه محدث له مشاركة واسعة في الأدب والحديث والفقه وكان الزهري من تلامذته وقد كتب سعيد شيئاً عن حياة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، وعن الفتوح فقد استخدمه الطبري في تاريخه.

4- شرحبيل بن سعد مولى بني خزيمة ولد في أواخر عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه رغم أنه منهم في دقة ولا يعتمد المؤرخون الكبار مثل ابن اسحاق والواقدي أو ابن سعد ، ورغم ذلك أنه أعطى قوائم بأسماء الصحابة في المعارك الكبرى ، وكانت ترتبط هذه القوائم في عهده القيم الاجتماعية في المجتمع العربي الإسلامي هذا من جهة وجهة ثانية تعتبر تلك المعلومات التي قدمها عن دور الصحابة في المعارك الكبرى التي خاضوها من أجل الإسلام ونشر راية الحق بين الناس جميعاً تعتبر مصدر تاريخي مهم جداً.

5- أبو فضالة عبد الله بن كعب بن مالك الأنصاري ، قد وصفه ابن اسحق بأنه أحد كبار علماء الأنصار روى عن أبيه وكتب كتاباً في المغازي لعله لم يتوسع فيه وقد روى عنه ابن اسحاق ونقل عنه الطبري.

6- القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق "حفيد أبو بكر الصديق رضي الله عنه ولد حوالي سنة 37 هجرية 657 ميلادية توفي سنة 107 هجرية 725 ميلادية وكان من كبار العلماء في عصره وعلى ما يبدو أنه كتب في المغازي أيضاً وأخبار الخلفاء كتاباً أو أكثر من كتاب وقد حفظ لنا الطبري مقتبسات عديد منه وكذلك نجد بعض من هذه المقتبسات عند البلاذري والواقدي.

في الوقت الذي هذه الجماعة تهتم برواية وكتابة مصادره وتدوينه ، كانت هناك جماعة أخرى تهتم بتوضيح ما ورد في القرآن من قصص المواعظ ولما كان ذلك القصص متصلاً بالأنبياء الأول فقد كان المجال واسعاً لمن يعرف علوم أهل الكتاب في هذا الباب كي يتقدم للتفسير ومن هذا الباب دخلت الإسرائيليات إلى السيرة والتفسير.

7- وهب بن منبة ، بغض النظر عن الملاحظات التي وردت حول كتابه ورواية للمعلومات التاريخية والضعف الذي ينتاب رواية وكتابات ، إلا أنه له دور أو محاولة جادة في كتابة تاريخ عالمي في كتابه "المبتدأ" وهي أول محاولة في الدولة العربية الإسلامية من هذا النوع وذلك من خلال تاريخ الأنبياء والرسالات كما كتب كتاب "الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم" ورغم الأسلوب القصصي الذي ساق به رواياته دون سند وما تضمنت تلك الروايات من مادة أسطورية لا سيما عن تاريخ اليمن ،

وكذلك ما كان عنده من قصص شعبي يهودي ، ومن شعر موضوع أدخل الشك في كتبه ، في دقتها وصدقها فلم يأخذ العلماء أحاديثه مأخذ الجد واعتبر نموذج "الأخباري" ، ولكن رغم ذلك لم يمنعه من أن يكون ذا أثر في مدرسة المدينة التاريخية ولم يمنع الإسرائيليات التي جاء بها من أن تدخل السيرة والتفسير ومن أن تختلط بتاريخ العرب قبل الإسلام ، ورغم كل ذلك أخذ عنه ابن إسحاق كما أخذ عنه آخرون مثل ابن قتيبة والمسعودي والمقدسي والطبري والكسائي وثلعب.

وقد تلا المجموعة الأولى جيل ثاني برز منه مجموعة من المؤرخين والرواة أصحاب السير والمغازي ومن هؤلاء مجموعة سوف نتحدث عن بعضها في هذه المحاضرة وهم:

1- عبد الله بن أبي بكر بن أبي حزم ، وهو من عائلة ذات سلالة عريقة في الإسلام ، جده الأعلى عمرو بن حزم كان والياً على اليمن في زمن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وجدة محمد قتل دفاعاً عن المدينة المنورة في وقاعة الحرة وأبو بكر كان قاضي المدينة المنورة ثم ولي عليها لمرتين سنة 96 للهجرة و 118 للهجرة.

أما عبد الله هذا فقد شغل نفسه في الحديث والسيرة ، وقد رويت عنه أخبار تتصل بالمرحلة الأولى من حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وأعوامه الأولى وبالغزوات كما كانت له عناية بالوفود التي وفدت من قبائل العربي على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك أخبار الردة ، وروي أيضاً عن الأيام الأخيرة للخليفة عثمان بن عفان وكان يسند أخباره إلى رواها أحياناً ، وكان كغيره من الرواة يمزج بين الشعر والخبر ولعل من أهم ما جاء به عبد الله ما يلي:

أ- "لم ينقع بجمع الأخبار التي وصل إليها بل حاول أيضاً في ذلك الزمن المبكر ، أن يبتكر الترتيب السنوي للحوادث ، مجمع قائمة لغزوات النبي مرتبة الترتيب السنوي وقد استعارها ابن اسحق في سيرته ، ونقلها الطبري ، وهذا ما يجعله من أوائل إن لم يكن أول وضاح للمنهج الحولي في التاريخ الإسلامي منذ مطلع القرن الثاني" ، انظر شاكر مصطفى / التاريخ العربي / ص 156.

ب- عناية بالوثائق المدونة إلى جانب الأخبار مثال ذلك الرسالة التي كتبها النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى ملوك حمير ، وكذلك الوثيقة التي أعطاها النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى جده

الأعلى عمر بن حزم لكي يأخذها معه حين بعثه الرسول إلى أهالي نجران لكي يفقههم في الدين الإسلامي.

2- عاصم بن عمر بن قتادة ، وهو من الأنصار وقد حارب جده قتادة مع النبي محمد صلى الله عليه وسلم في معركة بدر الكبرى وكان حامل لواء القبيلة بني ظفر في حنين ، وكان والده من رواة الحديث ، رحل عاصم إلى دمشق على عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وقص حاجته وطلب منه أن يجلس في مسجد دمشق يحدث الناس بالمغازي ومناقب الصحابة ففعل ثم رجع للمدينة المنورة ، أما معرفة بالسيرة والمغازي فهي مشورة وفي ذلك يعد من الرواة الثقات ، فظل في مدينة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، يروي معارفه في الحديث والمغازي قرابة عشرية سنة حتى جاء أجله.

وهو في الرواية والسند وذكر الشعر لا يختلف بهذه الطريقة عن صاحبه عبد الله بن أبي بكر.

3- أبو روح يزيد بن رومان الأسدي المدني ، وهو من الموالى وكان التابعين المتأخرين توفي سنة 13 هجرية 747 ميلادية وقد روى عن عروة كما روى عن معاصرة الزهرية وتلمذ عليه ابن اسحاق والإمام مالك ابن أنس ، وقد ألف في المغازي كتاباً وصل إلى الواقي فاقتبس عنه كما نحد منه مقطعات لدى ابن سعد والطبري.

4- أبو الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل الأسدي وهو كذلك ربيب الزبيرين توفي سنة 137 هجرية 752 ميلادية تتلمذ على عروة ابن الزبير كذلك ، كما كان من تلامذة الزهري وبعض مؤرخي مصر مثل ابن لهيعة و الليث ابن سعد وقد وجدنا عند ابن حجر في كتابه الأصابة في معرفة الصحابة ما يقارب ثمانية وأربعون قطعة من كتابه في المغازي ، كما نجد بعض القطع لدى ابن سعد في طبقاته والبلاذري في تاريخه أنساب الأشراف وكذلك لدى الطبري وهذا ما يسهل من إمكانية دراسة هذا المؤرخ دراسة دقيقة.

المصادر التاريخية في العصر العباسي

إذا نحن استعرضنا مؤلفات الأخباريين الأوائل ومواعيد تأليفها وما تحتوي من المادة ومن المصادر واستعرض عنوان تلك المؤلفات في كتاب الفهرست لابن النديم مثلاً ما بقي منها قد يسمح لنا أن نلخص تلك المادة في النقاط التالية:

- 1- السيرة والمغازي.
- 2- أحداث التاريخ العربي الإسلامي منذ وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حتى عهودهم لا الأخبار السياسية فقط ، ولكن الحضارية أيضاً (من خطط ونظم مالية واقتصادية وولادة ونقود ورجال علم وفرق ومن غناء وجواز وفيات) وتوسعوا خاصة في أخبار الأدب والشعر.
- 3- أخبار العرب ما قبل الإسلام وخاصة من الأنساب والأيام والمرويات الأدبية ، وينسوا الأمور الحضارية من أديان وأحلاف ومناخرات وأسواق.
- 4- أخبار العرب قبل الإسلام وخاصة اليمن والحيرة.
- 5- تاريخ الأنبياء السابقين والأديان.
- 6- تاريخ الفرس وملوكهم وأخبارهم ونظمهم.
- 7- بعض تاريخ الروم والأمم الأخرى (من هنود وحيث وقبط وغيرهم).

ولم يحتاج العرب المسلمون إلى هذه المادة التاريخية كلها في وقت معاً ، وهذا يعني أنها لم تدون كلها في وقت واحد ، ولعل ترتيبها الذي أعطيناها إياه في هذا التعداد والذي تمت الإشارة له سابقاً يكشف تقريباً ترتيب تدوينها ، والذي يعكس في الواقع ظهور الحاجة إليها ، الفرق الوحيد هو أن تدوين تاريخ الأنبياء رافق تدوين التاريخ العربي لما قبل الإسلام ، فقد اهتم المسلمون العرب أولاً بالسيرة النبوية وتفسير القصص القرآني وأشاراته فكتبت السيرة منذ النصف الثاني من القرن الأول وكتب بعض أمور العرب ما قبل الإسلام ، كما نقلت بعض الإسرائيليات وأخبار الأنبياء وترتبت على الردة وحروب التحرير والفتوح أمور هامة في التشريع والحياة الإسلامية فرويت ودونت أخبار الردة والفتوح والتحرير في الوقت الذي ظهرت فيه الخلافات الشديدة حول الإمامة ورأس الدولة العربية الإسلامية فتتبع الناس وقائع الخلاف وآراءه وما نجم عن ذلك من وقائع حربية وجدل سياسي ودونوها ، ثم احتاجوا ، منذ أوائل القرن الثاني الهجري ، إلى معرفة خبرات الأمم الأخرى فتطوع الفرس لتقديم تلك الخبرات ، وأخيراً في مطلع القرن الثالث الهجري بحث العرب

المسلمين أنفسهم عن أخبار الرومان والروم وباقي الأمم إحقاقاً للتوازن في التاريخ العام القديم ونقلوا ذلك إلى التواريخ العربية.

أما مصادر تلك المعلومات فكان ذلك من السهل أن نعرف ينابيع المعلومات في السيرة والمغازي وقد أخذت هذه المعلومات عن الصحابة والتابعين.

أما أحداث التاريخ الإسلامي فقد تم أخذها عن شهودها ورواة أخبارها أولاً لأول فاءت تأريخ الأمور السابقة للإسلام كان يشكل مشكلة هامة في التدوين التاريخي ، فليس في اللغة العربية من تراث مكتوب تقرأ به تلك الأمور ولا كان في تواريخ الأمم الأخرى وهي مكتوبة بلغات غريبة فارسية ويونانية وسريانية من القيمة الفكرية والسياسية بالنسبة للعرب المسلمين ، ما يدفع إلى معرفتها والتبحر والتوسع فيها ، ظلت معرفتها إما قاصرة على أصحابها من السكان الأصليين في مصر والشام ووادي الرافدين وبلاد فارس ومكتوبة بلغاتهم السابقة نفسها وإما ترفاً فكرياً لا يطلبه ويبحث عنه إلا أصحاب التوق العلمي لمجرد استكمال المعرفة.

وقد حلت هذه المشكلة بالنسبة لكل موضوع منها على حدة ، فأما أخبار العرب ما قبل الإسلام بمجملها فقد أخذت مباشرة من العارفين بها وبأمورها وخاصة فيما يتعلق منها بتفسير إشارات القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وقد وجد من هؤلاء الرواة جماعة كبيرة منذ عهد الراشدي وعصر الأمويين في فترة الأولى وقد يكون معظم من يهتم بالنسب ومع ذلك كانوا قد حملوا معه الأخبار المختلفة ومنهم دغفل السروسي الذهلي النسائية والذي أدرك عهد معاوية بن أبي سفيان ووفد عليه والنسائية البكري النصراني وقد أخذ عنه رؤية بن العجاج ولسان الحمرة أبو كلاب ، وقاء بن الأشعر ، وعلاقة بن كريم الكلابي على أيام يزيد بن معاوية وكان عارفاً بأيام العرب وأحاديثها ، وهو أحد من أخذت عنه المأثر وصحار العدي الخارجي والشرقي بن القطامي أحد النسابين الرواة للأخبار والأنساب والدوواين وصالح بن عمران المعروف بالصفدي وكان عارفاً بأخبار الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وله كتب ومجالد بن سعيد الهمداني الذي روى

عنه الهيثم بن عدي الكثير لأنه كان رواية للأخبار ، وقد توفي سنة 144 هجرية وسعد

القصير مولى بني أمية الذي أخذ عنه العتيق أخبار أهله ومن قيمهم وشعرهم ويزيد ابن داب العالم بأخبار العرب وأشعراها وولداه عيسى ويحيى ، وكان

الغالب على آل داب جميعاً الأخبار وزهير بن ميمون الهمداني القرقي المتوفي سنة 155 هجرية ، وكان عالماً بالأنساب والأخبار وأيام الناس وأبو محمد جناد بن واصل الكوفي مولى بني أسد ، وكان أعلم الناس بأشعار العرب وأيامها.

وثمة ما يشير في مجموعة من الأخبار إلى أن ما حمله هؤلاء الرواة وأمثالهم من المعلومات كانت تسجل من قبلهم بشكل شخصي وذاتي ومنذ أواخر العصر الراشدي في بعض الصحف ، وهناك من يشير إلى وجود صحف محفوظة لدى كل قبيلة تضم أنسابها الخاصة ، وقد تعاون مع التاريخ على جمع أخبار العرب ما قبل الإسلام علوم القرآن والحديث والشعر واللغة والأدب وما أثر وسجل منها.

أما في الجزء الجنوب الغربي من جزيرة العرب "اليمن" كانت المصادر الأولى عن هذا الجزء من بلاد العرب بمجموعها ذات طابع أسطوري ، يا أننا نجد أن حوادث القرن السادس الميلادي وهي قريبة نسبياً مرتبكة فبد من أن تصل إلينا روايات متينة نجد الرواة مثل وهب بن منبه توفي سنة 110هـ/728م ويقال سنة 114 هجرية أي سنة 732 ميلادية وكذلك أيوه منبه الذي كان يسكن في خرسان "حرات" وكذلك عبيد بن شرية يورد قصص خيالية لتاريخ اليمن هي في واقع الحال مزيج من القصص الشعبي والإسرائيليات ، وحاولوا بذلك تمجيد عرب اليمن بأنهم نسبوا إليهم أمجاداً كثيرة في الحرب والصناعة واللغة والأداب ، وحتى في الدين ، وذلك لكي يدللوا في هذا أنهم سبقوا أخوانهم العرب في شمال الجزيرة العربية في هذا أو في أمجادهم ، وأنهم لا يقلون عنهم في ذلك.

وقد أورد هؤلاء أخبارهم ومآثرهم بأسلوب يشبه القصص أي أيام العرب مع نسبة متقدمة في جانب الشعر وذلك لكي يكون تأثير القصة قوي ، وقد ذكر بعض الرواة عن أخبار العرب في الحيرة في العراق وقالوا أنهم وجدوا أثر سجلات وكتب فيها وكذلك في اليمن وذكر من استخدم بعض الأخبار الأول مثل هشام بن الكلبي حيث قال يوجد سجلات من هذا القبيل في اليمن والحيرة.

أما ابن النديم في فهرسة فقد ذكر أن عبيد بن شرية نقل رواياته عن عدد من الرواة اليمانيين ويذكر منهم ، الكيس النمري ، واللسين الجرحي ، وعبدود

وزيد بن الكيس ، والذي يقلب بالجرهمي ، وكذلك علاقة بن كريم الكلابي من بني عامر بن كلاب ، وكان على أيام يزيد بن معاوية الأموي.

ولما كان هؤلاء الرواة ممن يروون الأخبار بشكل شفهي فلعلتهم كانوا في ذلك يعتمدون على شيء مكتوب ، وقد أثبت لنا بعض الأدلة التي تشير على وجود ذكر ووثائق ملكية وسجلات للدولة الحميرية وصحف مكتوبة في اليمن ظلت معروفة محفوظة لدى الأسر البارزة والناس حتى جاء زمن الهمداني الذي أشار إليها ونقل عنها في كتابه الأكاليل على أغلب ما سجل من تاريخ اليمن القديم على لسان الرواة لكنه على الأعم الأغلب كما ذكرنا سابقاً أسطورياً ومن نوع القصص الشعبي.

ومما لا شك فيه أن هناك كثيرون من أولئك الرواة القصاصين ، حيث لم معرفة تاريخ اليمن الحقيقي ممن عاشوا في عصر الراشدين وعصر بني أمية في الفترة الأولى من حكم الأمويين ، ولا هنا أن نقول أن بعض هؤلاء أصحاب القصص لديهم صحف مكتوبة بالخط السند الشائع في اليمن في الفترة التي سبقت ظهور الإسلام ، لكن حلول الرواة القصصيين والتي ينقلون قصصهم ورواياتهم شفاهناً حلوا محل العارفين بتاريخ اليمن المكتوب إن صح القول ، قد أضاع على التاريخ العربي فرصة ذهبية لا تعوض كان بإمكانها أن تساعد بشكل كبير جداً في فهم وإيضاح وإغناء النقوش الأثرية التي نستعملها اليوم ونستنتجها عن ذلك التاريخ لعرب اليمن ما قبل الإسلام ذلك التاريخ **المجيد والذي**

أما مصادرنا عن تاريخ الأنبياء والرسل فقد ورد بعضه في القرآن الكريم ، وأما تفاصيله والتوسع فيه وفي أخبار الأديان الأخرى مثل اليهودية والمسيحية والصابئة وغيرهم وقد توسع بشكل خاص في موضوع الديانتين اليهودية والنصرانية أو المسيحية ، الأمر الذي دفع على الاعتماد على أصحاب تلك الديانات ، وبشكل خاص ممن أسلم من هؤلاء وكان على شيء من العلم والمعرفة والإطلاع على بعض المعلومات عن دينه السابق ، وقد أخذ الأخباريون والمؤرخون العرب المسلمون من تلك الأخبار والروايات ما تفيد وتوافق مع العقيدة الدينية الإسلامية بشكل خاص.

وعلى الأعم الأغلب كانت البدايات بدايات تفسيرية ثم أخذ يتوسعون فيها وفي بعض الأحيان كانوا يأخذون عن الكتب المقدسة بشكل مباشر أو عن شروح تلك الكتب ، ومن أقدم من نقلت عنهم تلك المعلومات والأخبار هم:

- 1- كعب الأحبار.
- 2- عبد الله بن سلام.

- ومن ثم بعد ذلك عن:
- 1- محمد بن كعب القرظي.
 - 2- وهب ابن منية.

ولا بد من الإشارة أو القول بشكل واضح إلى أن أخبار الأنبياء والأديان السماوية التي سبقت الإسلام كانت معروفة عند العرب في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام وكانت مسطورة عند أصحاب تلك الأديان وهي أساطير الأولين والتي اتهم الرسول محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم زوراً وبهتاناً بالنقل عنها ، كما كان في مكة نفسها ، يشرب وخيبر ونجران وصنعاء والطائف وغيرها لذا أننا نجد من غمز من هذه الزاوية من المشركين حول صدق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في أنها توحى إليها وادعوا أنه إنما يأخذها عن بعض أصحاب الأديان الأخرى وبشكل خاص من المسيحيين الغرباء في مكة ولذلك كان الرد عنيف عليهم عندما قالوا يعلمه بحيرة الراهب أو صهيب الرومي ، حيث كان يشكل تحدي لهم وذلك في قوله تعالى "ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين" سورة النحل /آية 103.

على أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كان يعرف على ما يبدو الكثير من الأخبار الدينية التاريخية ، يروي أبو شامة في كتاب الروضتين نقلاً عن السنن لأبي دلول يقول ".... وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن بني إسرائيل حتى أصبح ما يقوم إلا إلى عظم صلاة".

وهذا دليل على معرفة العرب بقصص وأخبار المنطقة والأمم الأخرى ، وهذا شيء مهم لصحة المصادر التاريخية لأي موضوع من المواضيع المراد معرفة تاريخها.

دراسات تاريخية في العصر العباسي

وهنا نطلع على ملاحظة مهمة وهي أن هناك خبر هام من ناحية المعارف التاريخية للعرب قبل الإسلام "أو يذكرون أن قريشاً أرادت التثبيت من صدق رسالة الرسول فأرسلت النظر بن الحارث وهو العالم لديها يعلم الفرس وكتب أهل الكتاب مع عقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود المدينة يسألونهم عن محمد صلى الله عليه وسلم إن وردت صفاته في كتبهم (.... فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء) فذهب الرجلان ثم عادا بأسئلة سألاها للرسول وضعها الأحبار لامتحانه ، واثنان من الأسئلة الثلاثة تاريخيان يتعلقان بمعلومات من التاريخ : سأله عن أهل الهف وعن رجل طواف الدنيا وفتح العالم وعن الروح. وقد أجاب ذلك جاء في القرآن الكريم عن أهل الكهف "نحن نقص عليك نبأهم بالحق أنهم فتية آمنوا" وعن الرجل الطواف "ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً" وأما الروح فجاء "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي" ... وامتحان النبوة بمعلومات من التاريخ يعني قيمة هذه المعلومات فكرياً ودينياً في ذلك الوقت ، ولا شك أنه مع الأخبار التوراتية والإسرائيليات كانت إذن هناك بعض المعلومات التاريخية أو المعارف المختلطة بها في عصر الرسالة وإشارات القرآن الكريم واضحة في ذلك" انظر ، شاعر مصطفى / التاريخ العربي والمؤرخون ، ص 106.

ونرى أن هذه المعارف أخذت تزيد وتتراكم وتدع حتى بلغت درجة عالية من التراكم في عهد الراشدين ، ثم العهد الأموي بسبب تلك الإشارات خاصة ولما كانت معلومات أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين واسعة في هذه القصص فقد ظهرت جماعة منهم "تتصدى - بعد إسلامها لنشر تلك المعارف والذي يطلق عليهم ابن اسحاق أهل العلم الأول ويذكرون عن وهب بن منبه أنه قرأ من كتب الأنبياء "كتباً يختلف عددها في الروايات بين ثلاثين وبضعة وسبعين أو اثنين وتسعين كتاباً" شاكر مصطفى / المؤرخون العرب ، ص 107.

وهذا يعني أن هذه الكتب قد توفرت في البلاد العربية مثل جزيرة العرب والشام والعراق ، في القرن الأول من الهجرة النبوية الشريفة ، ولو أنها على ما يبدو في الأعم كانت بالسريانية والعبرانية ، وأن الكثير من المعلومات في هذه الكتب ، قد دخلت في كتب التاريخ العربي الإسلامي ، وكذلك في علوم الدين تحت اسم خاص بها وهو الإسرائيليات ويظهر ذلك واضحاً مما وجد في أوراق البردي الإسلاميين من أن ترجمة هذه الأمور والنصوص إلى اللغة العربية قد تمت في أواخر القرن الأول الهجري أي أوائل القرن الثامن الميلادي.

وهناك ملاحظة هامة لا بد من معرفتها وهي موضوع دخول تاريخ الأنبياء والأديان والإسرائيليات إلى التاريخ العربي الإسلامي وذلك لكون الإخباريين أخذوها في القرن الأول الهجري والثاني الهجري عن أهل الكتاب ترجمة أو روايتاً ومن ثم كان أولئك أهم الرواة لهذه الأمور بعد كعب الأخبار وهما وهب بن منبه ومحمد بن كعب القرظي ، ولذلك قد دخلت كثير من الإسرائيليات وقضايا اليهود إلى الثقافة العربية الإسلامية عن هذه الطرق.

وإذا كانت ثمة أدلة على أن الكتاب المقدس ترجم في العصر الأموي إلى اللغة العربية فإنه

ليس مجال للشك في أن ترجم في عهد الرشيد العباسي عن أهل الكتاب ، فقد ذكرت المصادر

عن المترجم أحمد بن عبد الله بن سلام مولى هارون الرشيد أنه ترجم كما قال عن العبرانية واليونانية والسريانية أخبار الصحف والتوراة والإنجيل والأنبياء ، وأن الذي نقل كان في معظمه أولاً بالرواية المنقولة عن أهل الذمة والذين ما لبثوا أن ظهر منهم في القرن الثالث والرابع الهجريين مؤرخون كتبوا باللغة العربية مواضع عن التاريخ اليهودي

أو المسيحي أو ترجموا الكتب المقدسة إلى اللغة العربية كما هي ، ولهذا أشار ابن النديم إلى كتاب ديوان الأيام وقبة سير الملوك من اليهود وأخبارهم إلى كتاب العبور وهو التاريخ كما أشار إلى ذلك ، وقد ذكر حمزة الأصفهاني كتابي تاريخ لمؤلفين يهوديين مجهولين وإلى كتاب آخر منسوب إلى فنحاس بن باطا العبراني ، وكذلك قد أشار أبو الفداء بين مصادره إلى كتاب البيان عن تاريخ سني زمان العالم على سبيل الحجة والبرهان لأبي عيسى المغربي أحمد بن علي المنجم من القرن الرابع الهجري.

هذا وهناك عدداً من المؤرخين ذهبوا إلى التوراة بشكل مباشر ليأخذ عنها وذلك لتوضيح أو

تأكيد أو إيجاد بعض القصص والروايات لأغراض شتى ، أما النصارى فهم بدورهم كتبوا

بعض التواريخ والتي ركزوا فيها على أمور خاصة منها تاريخ الروم ، وتاريخ الكنيسة ، والبطارقة ، وذلك لكونهم كانوا يعتبرون أنفسهم ما يزالون تابعين من الناحية الروحية للإمبراطورية البيزنطية ، وعن هذا الطريق أخذ عنهم لا التاريخ المسيحي فقط ولكن التاريخ الرومي وأيضاً إلى التاريخ العربي الإسلامي.

أما مادة التاريخ الفارسي فإن عناصر منه على الأقل كانت معروفة في مكة في أيام البعثة النبوية الشريفة حديث يذكرون عن النظر بن الحارث بن كلدة البشكري أنه قدم إلى الحرية وتعلم بها كلام من أحاديث ملوك فارس وكلام من أحاديث رستم واسبنديار فكان إذ جلس الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، خلفه فيه ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار وكان ينظر في كتب الفرس ويخالط اليهود والنصارى ، وكان يتهم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في أنه يأخذ عن أساطير الأولين فيما يقول صلى الله عليه وسلم.

وكان القريشيون يتابعون باهتمام ويصلون فيه إلى درجة الرهان حروب الفرس والروم ولمن تكون الغلبة في هذه الحروب ، كما أن تاريخ الفرس معروفاً في اليمن ، فإن الحملة الفارسية التي وصلت مع سيف بن ذي يزن توطننت في البلاد وولد لها "الأبناء" وليس هناك من شك أن هؤلاء حملوا بعض ثقافتهم وأخبارهم وتاريخهم إلى اليمن.

أما في العراق وفي الحيرة تحديداً فقد كان العرب يخالطون الفرس مخالطة سياسية وتجارية بل وحتى اجتماعية واسعة للدرجة التي جعلت منهم يعرفون الكثير عن الماضي للفرس ومن الوقائع والأحداث التاريخية لهم ولحكامهم الساسانيين.

وهناك نقطة مهمة وهي أن العرب في عهد الخلفاء الراشدين لم يهتموا بمعرفة أو بتدوين ذلك في التاريخ أي التاريخ الفارسي والذي أفوه ووجوده واستمراره خلال الفتح العربي لبلاد فارس ، وعلينا أن ننتظر حتى مطلع القرن الثاني الهجري لكي يبدي هشام ابن عبد الملك اهتماماً واضحاً بالتاريخ الفارسي ولكي يأمر بكتابة مؤلف له فيه ذهب ملون ، مصور ، وعلى ورق كبير وفخم لكي ينقل فيه ما في كتاب الفرس من تاريخ الملوك وأحوالهم ، وكلن هذا الاهتمام الرسمي للدول في هذا الجانب والذي مثله اهتمام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، لم يلق إقبالاً ورواجاً كبيراً من عامة الناس في الدولة العربية الإسلامية اللهم إلى من بعض ممن أسلم من الفرس أو من لم يسلم منهم آنذاك وبعض هذا الاهتمام كان لسبب شعوبي وخصوصاً في الفترة الأخيرة من العصر الأموي ومطلع العصر العباسي والمقصدية هنا النصف الأول من القرن الأول الهجري ، حيث تم ترجمة كتب عديدة عن اللغة الفارسية إلى اللغة العربية ومن بينها التاريخ الفارسي ، والتي كان أبرزها خدائي نامغ ، والتي كتبها ابن المقفع ، ثم كتب الكثير من الرسائل في مواضيع تاريخ الفرس مثل سيرة أزدشير ، وسيرة أنوشروان لمؤلفها أبان اللاحقي ، وكتاب أخبار الفرس ، للهيثم بن عدي ، وكذلك أخبار الفرس وأنسائها لأبي الحسين النسائي.

وعلى الرغم من المؤرخين قد استقبلوا هذه المعلومات باهتمام وقاموا بإدخالها في تواريخهم

العامة ، إلا أن اهتمام الناس كان باتجاه آخر أكثر من الاهتمام بالتواريخ وهو الاهتمام بالأدب السياسي للفرس وتناوله لا في كليلة ودمنة فحسب ولكن في كثير من الكتب الأخرى التي شاعت حكمها وأمثالها في كتب العصر وبعده.

أما تاريخ الروم فقد كان آخر المعارف والمصادر التاريخية دخولاً إلى التاريخ العربي الإسلامي وكان طلبه أو الذهاب إليه من قبل المؤرخين لمجرد المعرفة وفي إطار جو الترجمة وتمازج الثقافات خلال القرن الثالث للهجرة ، وعندما تعود إلى ابن النديم حول هذا الموضوع فإننا لا نجد سوى الإشارة إلى ثلاثة كتب حول الموضوع وهذا لا يعني عدم وجود غيرها لكن يعني ندرتها ويمكن

أن نقول أن ابن النديم قد فاته عدد آخر من الكتب على ما يبدو ويمكننا أن نعرض بعض هذه الكتب من مصادر أخرى مثل أبو الفرج الأصفهاني والمسعودي وغيرهما آخرون.

- ♦ أما الكتب التي تم الأخذ عنها تاريخ الروم فهي:
كتاب الألوفا لأبي معشر جعفر بن قدامة توفي سنة 272 هجرية ، وقد اشتهر بصلوغة في علم الفلك والنجوم ، لكن ابن صاعد الأندلسي يذكر عنه أنه كان أعلم الناس بسير الفرس وأخبار سائر العجم ، وأشار إلى ذلك الكتاب أي الألوفا المستشرق بروكلمان حيث قال أن في مكتبة باريس الأهلية نسخة خطية من كتاب الأدوار والألوفا . وإذا كان ابن النديم قد ذكره أي الكتاب بين كتب النجوم فإنه كان فيه الكثير من تاريخ الروم وغير ذلك ، وكان حمزة المسعودي قد أخذ عنه .
- ♦ أما وكيع القاضي وكتابه تاريخ الملوك ، فقد نقله عن ترجمة شفوية لتاريخ ملك من ملوك الروم ، وقد رتب أو تحدث عن التواريخ من ابتداء ملك قسطنطين إلى السنة الواحدة والثلاثمئة من الهجرة .
- ♦ أما أخبار اليونانيين من تأليف حبيبي بن بمريز مطران تينوي "الموصل" في أيام الخليفة المأمون العباسي ، مطلع القرن الثالث الهجري ، وهناك أيضاً كتب قبس الماروني وابن الفراهي المصري "ابن البطريق" ومحبوب المنبجي وكذلك أثنابوس الراهب المصري ويعقوب الكسركري وأبي زكريا النصراني ، وهناك أيضاً عدا هؤلاء آخرون مثل تاريخ يحيى بن عدي الفراماطيقي النحوي وإن كان في السريانية وكذلك تاريخ هرون بن عزوز وحنين ابن أسحق وإسحق بن حنين وقسطا بن لوقا وغيرهم كثيرين .
- ♦ أما تواريخ الأمم الأخرى فلم يتم أخذها مباشرة من تواريخ خاصة بها وإنما أخذ في الأعم الأغلب بشكل غير مباشر على شكل معلومات عامة من خلال كتب الروم والإسرائيليات والزيجات الفلكية أحياناً كثيرة .

موضوعات المؤرخين

كان الاهتمام بأقوال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وأفعاله والاهتمام بها ، أو الاعتماد عليه في التشريع والتنظيم الإداري للدولة العربية الإسلامية في عموم شؤون الحياة الضرورية كان لها ضرورة مباشرة وطبيعية لدى أهل العلم والفقه في الإسلام والدولة ، كما أن مغازي الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وغزوات أصحابه كانت مصدر اهتمام وتقدير واعتزاز كبير عند المسلمين ، وهذه هي الموضوعات المحببة في مجالس السمر ، هذا في جانب وفي الجانب الآخر كانت المشاركة في مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكافة الفعاليات التي قام بها عامل رفع في المنزلة الاجتماعية ، وعنصراً مهماً في تحديد عملية إعطاء الأرزاق في الديوان ، الذي قيدت فيه أسماء المسلمين الذين يأخذونها ، مما قوى الاهتمام بها ، وبعد ذلك أصبح الصحابة العظام هم القدوة لما بعدهم في أقوالهم وأفعالهم فصارت هذه مشمولة بالحديث ، ولما اتسع نشر الإسلام وأصبحت جميع أنحاء الجزيرة العربية تحت ظل الإسلام وتم تحرير الأرض العربية والتي كانت تحت الاحتلال الأجنبي مثل العراق والشام ومصر ، خلال القرن الأول الهجري "ليشمل فعاليات الأمة بكاملها" انظر عبد العزيز الدوري ، نشأة علم التاريخ عند العرب ص 19.

إن أول بداية لدراسة المغازي للرسول محمد صلى الله عليه وسلم عند العرب المسلمين

بدأت في المدينة المنورة وكانت ضمن دراسة الحديث ، ومع أن المحدثين أستمروا على

اهتمامهم بالمغازي ، إلا أن قسم أو بعض منهم أخذ منحى آخر وهو الاهتمام والعناية بدراسة

حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، بشكل يتعدى الاقتصار على نواحي التشريع ، علماً

أن رواد كتابة المغازي ودراستها وتاريخها كانوا من المحدثين ، ونجد هذا مؤيداً من خلال

النظرة التي نظر بها العلماء إلى مؤلفي المغازي تؤكد هذا الرأي ، وهذا ما يفسر أهمية الأسناد

أو سلسلة الرواة في تقدير قيم المغازي ويعني ذلك ربط قيمة الحديث أو الرواية

بمنزلة المحدثين أو الرواة ، وهذا الاتجاه ولد في فترة مبكرة نظرة ناقدة إلى الرواة

أو مصادر المعلومات وأدخل عنصر البحث والتحري في جميع الروايات ،
وكون أساساً

متيناً للمصادر التاريخية ودراستها ومن ناحية أخرى تنوقلت الأخبار والقصص
عن المغازي وتوسيع فيها القصص وجعل منه العرب المسلمين أديباً شعبياً

لهم ، وعلى الرغم أن

بعض هذه الأخبار والقصص وجد طريقة للتأليف والكتابة في بعض كتب السيرة
فيما بعد ،

إلا أن النظرة إلى الروايات وطرق نقدها بقيت في الأساس تسير على طريقة
أهل

الحديث وأن الدراسات الأولى لحياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم سميت
بالمغازي وهي تعني من الناحية اللغوية غزوات الرسول محمد صلى الله عليه

وسلم

وحروبه ، ولكنها في حقيقة الأمر كانت قد تناولت عصر الرسالة بكامله ولقد
قام بعض

أبناء الصحابة البارزين بهذا الدور من التأليف والكتابة في المغازي وحياة
الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن هؤلاء:

إيان بن عثمان بن عثمان رضي الله عنه توفي سنة 98 هجرية 716 ميلادية
فهو محدث له ميل لدراسة كتب المغازي ، وعلى الرغم من أن أحد تلاميذه كتب
مغازية ، إلا أنها تنصف بأنها من الحديث ولم يذكره كمؤرخ إلا بإشارة بسيطة
من قبل اليعقوبي ، فإننا لم نجد من بين المؤرخين من روى أن نقل عنه ، فحين
يروى عنه في كتب الحديث وعلماء يبد أن أبان بن عثمان يمثل مرحلة **انتقال**

لكن عروة بن الزبير توفي سنة 94 هجرية 712 ميلادية وهو فقيه ومحدث
مشهور كان مؤسس مدرسة المغازي ، إذ أنه أول من ألف كتاباً في المغازي.

حيث وصلت إلينا إشارات ومقتبسات وردت عن بعض المؤرخين مثل الطبري
والواقدي وابن اسحاق وابن سيد الناس وابن كثير ، وهذه الإشارات
والمقتبسات هي أقدم ما وصل إلينا من تاريخ المغازي ، حيث أنها تتناول

جوانب مختلفة من حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، مثل بدء نزول الوحي ، وبعض سرايا وغزوات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، والملاحظ عن عروة أنه لم يدخل تفاصيل القتال في المغازي في رواياته ، وقد كتب عروة بعض رواياته ، لكن بعض كتاباته التاريخية هي أجوبة مكتوبة عن أسئلة وجهت إليه من قبل الدولة الأموية ، وقد استعمل عروة الإسناد بشكل يعكس في ذلك نظرة عصره ، ويبدو أنه اعتمد على الأحاديث المكتوبة ، ولكنه قام بتقديم رواية أو قصة رائعة متسلسلة دون أن يذكر الإسناد ، وذلك لكون النظر إلى الإسناد في زمنه كانت ميزته ، حيث لم تكون القواعد والضوابط الدقيقة للإسناد قد ظهرت.

أما أسلوب عروة في التأليف فهو بسيط بعيد عن الإنشاء ، في حين أن نظريته واقعية وصريحة وخالية من المبالغات ، وقد مكنته منزلته الاجتماعية من الحصول على معلومات تاريخية من مصادرها الأولية وبشكل خاص عن السيدة عائشة رضي الله عنها وآل الزبير عائلته وقد حصل على بعض الوثائق ، كما أنه قد ذكر آيات قرآنية تتصل بالحوادث ، وكذلك كان يورد الشعر في بعض الأحيان ، إلا أن هذا ليس نتيجة لأثر أسلوب الأيام ، بل ذلك يعكس حبه للشعر ودور الشعر في تكوين الثقافة.

ولقد امتد اهتمام عروة بالتاريخ إلى عصر الخلفاء الراشدين فتناول مثلاً الردة وحروبها ومعركتي القادسية واليرموك وهذا ما يؤكد اهتمام المؤرخ العربي بأحداث الأمة بشكل مبكر.

"ولنلاحظ هنا أننا إذا أردنا أن نتفهم تطور الكتابة التاريخية يلزمنا أن نلاحظ ، أن الدراسات حتى في المغازي ، كانت أعمالاً جماعية ، وأن فعاليات الأفراد تكون جزءاً من مدرسة ، فكان كل واحد من حملة العلم يضيف دراساته وبحوثه إلى دراسات أساتذته ، وبذلك يحفظ علم المدرسة التي ينتمي إليها ويضيف إلى ما وصل إليه.

وكذلك يقوي وبعض هذا العمل التاريخي من المصادر أو المصدر التاريخي الذي نريد أن نطلع عليه أو الوصول لأحكامه.

ومن كتاب المغازي ومؤرخيها من الرعيل أو الجيل الثاني للمؤرخين نذكر
الزهري توفي

124 هجرية 741 ميلادية وهي يعتبر المؤرخ الأول للطبقة الثانية من مؤرخي هذا النوع

التاريخ لكن الزهري ، لم يقتصر في رواية للمغازي فقط كما فعل عروة بن الزبير ، بل قام ببحث واسع عن روايات المدينة وأحاديثها وكتب كل ما سمعه وتناقله الأخبار ، وقام بتمحص تلك الروايات ووضعها في متني وواضح ، ودراسة رواياته التي وصلت إلينا "تجعلنا نميل إلى أنه كان أول من أعطى السيرة" وهو التعبير الذي استعمله هيكلأ محمداً ، ورسم خطوطها بوضوح".

أما كيف بدأت خطته للسيرة يذكر بعض المعلومات عن عصر ما قبل الإسلام بالنسبة للعرب وما يتصل منها بحياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بشكل خاص ، ثم بعد ذلك

يتناول الفترة المكية الهامة في حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم الهجرة إلى يثرب "المدينة المنورة" وكذلك يتناول في المغازي فتح مكة وذلك بعد وفود السفارات التي أرسلها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إلى الحكام والملوك الأجانب أو التي دعاها من خلال العرب إلى الإسلام وكذلك الوفود التي وفدت على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، ويشير على فعاليات الرسول المختلفة ثم مرضه صلى الله عليه وسلم وانتقاله إلى الرفيق الأعلى.

أما ما هي مصادر الزهري عن السيرة فهي جميعاً استقت من الحديث النبوي الشريف ، وذلك لكوننا لم نعثر على أية أثر ولو كان بسيطاً للقصص فيما أرخ وكتب ، "وكما أننا نجد صدى ضعيفاً في مادته لقصص الأنبياء التي اهتم بها كما يبدو" وبالرغم من أن الزهري كان مولعاً بالشعر كما هو حال أبناء عصره ، بل متعمقاً في الشعر لم يكن رغم ذلك كان استعماله للشعر محدود في مغازيه ولذلك نراه بعيداً عن أسلوب الأيام في كتابته.

وكذلك تناول الزهري في دراساته عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم جميعاً ، حيث تناول بامعان الحوادث الهامة والمشكلات المرئية التي حدثت في عصرهم ، مثل طريقة انتخاب الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه ،

وتأسيس الديوان وجمع القرآن والتاريخ الهجري ، والشورى ، والفتنة ، ومقتل الخليفة الثالث عثمان ، وانتخاب علي بن أبي طالب "رضي الله عنه خليفة للمسلمين" وانتقال السلطة إلى الأمويين "وهو بذلك يظهر أهمية التجارب التي مرت بها الأمة".

ومن جانب آخر كان الزهري عالماً بالأنساب إذ ألف كتاباً في نسب قريش ، كما أن مصعباً يذكره مصدراً في كتابه المعروف نسب قريش. وكان الزهري يقوم بأسناد رواياته وقد اشتهر بقوة إسناده ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أنه لديه نظرة تمثل عصره ، حيث أنه يعد رواية التابعين أحياناً وأفية بشروط الإسناد. "ولكنه أدخل شيء جديداً هو الإسناد الجمعي ، حيث يدمج عدة روايات في خبر متسلسل ، وبذلك يسير خطوة مهمة نحواً لكتابة التاريخية المتصلة" انظر عبد العزيز الدور/ نشأة التاريخ عند العرب ص 22.

وقام الزهري بخدمة مهمة لدراسة المصادر التاريخية إذ أنه كتب رواياته بصورة منظمة وبذلك يعتبر الزهري هو أول من فعل ذلك وقد وجدت له مؤلفات عديدة في خزائنه الكتب عن الخلفاء الأمويين ، والتي فيها روايات يقال أنه أجبر على كتابتها فهي صدى لمناقشات مستفيضة لها بعد عدة عصور سابقة عن المؤرخ الذي اشتهر بتاريخ المغازي محمد بن مسلم بن شها الزهري ، والزهري هو من رواد مدرسة المدينة وأحد أهم المصادر التاريخية في مجال غزوات النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي هذه المحاضرة سوف نعرض على أبرز تلامذة الزهري واللذين لهم شهرة في مجال كتابة تاريخ المغازي وأبرز هؤلاء هم ثلاثة الذين ساروا على خطى الزهري من بعده وأول هؤلاء هو:

1- سوسن بن عقبة الأسدي المدني والذي روى المغازي تاريخ الخلفاء الراشدين

وكذلك تاريخ الخلفاء الأمويين حيث أخذ عن الزهري ، كما استخدم في مصادره أيضاً كتب عبد الله بن عباس وكانت حمل بعير على ما تذكر الروايات ، وكذلك نقل عن ابن سعد وابن اسحاق كما نقل عنه الواقدي والبطري ، وكان من تلاميذ مالك ابن أنس حيث يوثقه "كيداً بابن اسحق" ويقول ابن أنس عن سيرته "أنها أصح سير" وحقيقة الأمر أن ابن عقبة تميز بفكر تاريخي منهجي منظم سمح له ، وهو يبحث عن

مغازي الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وكذلك أخبار الخلفاء
الراشدين رضي الله عنهم والدولة الأموية أيضاً.

وتميز عقبة بما يلي:

- أ- أنه يفكر بوضع قوائم بأسماء صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين هاجروا إلى الحبشة ، أو المشاركين في بيعة العقبة وغيرهم.
- ب- أن يضع هو أيضاً كما فعل ابن حزم ، مادته التاريخية في تسلسل زمني حولي ، وهكذا قدمت مدرسة المدينة بعمل هذين المؤرخين أهم الخدمات لتطوير وتدوين التاريخ وتثبيت أهم مصادره والتي أخذ يعمل بها الخلف من بعدهم.

أما كتابة المغازي أي كتاب ابن عقوبة فقد لقي الكثير من الاهتمام فيما بعد لدقته واستيفائه واستخدامه من قبل الكثيرون أمثال أبو النعيم الأصفهاني والذي

كتب بخطه فاستخدم هذه النسخة نفسها بعد قرنين من الزمن ياقوت الحموي ، وكذلك

جمع قطعة منه ابن قاض شعبة الأسدي الدمشقي والذي توفي سنة 789 هجرية

المصادف 1387 ميلادية ، ثم جاء ابن حجز العسقلاني فاحتفظ لنا في كتاب الإصابة بقطع من هذه المغازي تزيد على ما يقارب 225 قطعة وهي التي تمثل القسم الأكبر منها.

أما ابن عبد البر فقد اختصرها في كتابه الدرر أي اختصر المغازي والسير ، وكذلك

ابن سيد الناس في كتابه عيون الأثر ، وتوجد إلى اليوم قطعة مخطوطة في متحف برلين.

2- أما المؤرخ الآخر والذي يعتبر من أهم مصادر المغازي وهو تتلمذ أيضاً على يد الزهري وهو معمر بن راشد البصري ولد هذا المؤرخ في صنعاء ، حيث انتقل من البصرة إلى اليمن ولم يرتحل إليها قبله أحد من المحدثين ، وكانت حركة وتنقله بين البصرة في العراق وصنعاء في

اليمن ، والتي أصبح من خلالها صلة الوصل بين المدرستين أي مدرسة العراق التاريخية ومدرسة اليمن التاريخية ، رغم أن مدرسة اليمن أقل مستوى من مدرسة العراق حيث هي من مصاف المدارس الصغرى وهذا ما سوف نأتي ثم استقر بشكل نهائي في صنعاء حتى وفاته فيها ، وقد كتب كتاباً في المغازي نقل

فيه عن الزهري وكذلك عن أهل الكتاب ثم نقل عنه الواقدي والبلاذري وأيضاً ابن

سعد والطبري ، وهناك ملاحظة وهي أن معمر ابن راشد لم يرتب مادة كتابه الترتيب الزمني ، كما فعل معاصره ابن عقبة إلا أنه اتبع الترتيب الموضوعي على غرار ما فعله هو نفسه في علم الحديث فإنه يعتبر من أوائل المحدثين والذين رتبوا الأحاديث في أبواب ومواضيع ، وعلى ما يبدو أنه لم يقتصر على سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في الكتاب ولكن أضاف سير الأنبياء الآخرين ، وتدلنا المقتطفات التي أخذها الطبري عنه إلى أنه أدخل الكثير من قصص أهل الذمة المتعلقة بالرسول على السيرة ، والمعروف عن ابن سعد أنه أخذ أخباره عن طريق تلميذ معمر ابن راشد عبد الرزاق بن همام المتوفي سنة 211 هجرية 826 ميلادية والذي كتب بدوره كتاباً في المغازي حيث يذكره ابن النديم في فهرسه ، ولربما يكون هذا الكتاب قد أخذه عن استاذه مع إضافة التعليق عليه ، وقد عرفنا قطعة من كتاب معمر على رق شديد القدم محفوظ في المعهد الشرقي بشيكاغو وقامت بنشر النص الباحثة نبيهة عبود ، كما أن هناك قطع قد وصلتنا هي الأخرى للكتاب ما تزال مخطوطة في بعض المتاحف الإسلامية والعربية مثل استانبول والرباط ودمشق ، أما نسخة استانبول فهي على رق من جلد الغزال نسخت سنة 363 هجري المصادف 973 ميلادية في طليطلة في الأندلس.

3- أحمد بن اسحق المطلبي فهو من أبرز وأهم الثلاثة وعمود مدرسة المدينة المنورة

في حفظ وتدوين المصادر والكتاب التاريخية ولد حوالي سنة 75 هجرية وتوفي

سنة 151 هجرية وتعتبر الكتابة التاريخية قد بدأت معه وقد كتب أقدم سيرة نبوية محفوظة الآن برمتها. جده يسار كان من سبي عين التمر في العراق وهو أول سبي وصل المدين المنورة في حروب التحرير والفتوح ، وقد تقص محمد الأخبار في هذا

البلد من أهله فيذكرون منه وحده أكثر من مائة راو كما روى ، وعن أهل الكتاب والموالي والأعاجم وعن الآيات والحديث والوثائق ومن القصص الشعبي العربي ومما رواه وهب بن منبه عن اليمن "فمصادر معلوماته كثيرة التنوع وتبلغ 114 شيخاً وكان هذا التقصي خلق له بعض المصاعب ، فقصده العراق في مطلع حكم المنصور وأهداه مغازيه التي كان كتبها في المدينة وسمع منه أهل الجزيرة والري حيث ظهر الكثير من رواته ولم يرو عنه أهل المدينة إلا القليل لأن عداء مالك بن أنس له واتهامه إياه بالدجل جعلهم يتخرجون من أمر توثيقه ، وقد جمع المستشرق فوك قائمة من 15 تلميذاً لابن اسحق معظمهم عراقيون وجزيريون ومن الري". انظر شاكر مصطفى / التاريخ العربي والمؤرخون / ص 160-161.

أما الواقي فكان له تلميذ هو محمد أبو عبد الله محمد بن سعيد بن منيع البصري الزهري ، ولد في البصرة سنة 168 هجرية 789 ميلادية وتوفي سنة 230 هجرية 945 ميلادية في بغداد عاصمة الخلافة العربية الإسلامية وهو ابن مولى من المدينة يلتحق ولاء بآل العباس ، عاش فترة من الزمن في المدينة ثم انتقل منها بين مدن أخرى وقد تعرف في بغداد على الواقي والتصق به وبالغرم من أنه درس على شيوخ آخرين كثيرين فإنه ظل على الارتباط بهذا الشيخ حتى آخر حياته.

وصلته الكبيرة بالواقي لم تعطه فقط لقت كاتب الواقي ولكنها أيضاً سمحت بن النديم صاحب الفهرست ، أن يقول أنه ألف كتبه من تصنيفات الواقي ولكنه لا يذكر له في الوقت نفسه إلا كتاب أخبار النبي ، ويظهر أن هذا الكتاب ليس غير القسم الأول من كتاب ابن سعد المعروف بالطبقات الكبرى مع أننا نجد أن هشاك الكلبى ، كان مصدر ابن سعد المباشر في تاريخ اليهود والنصارى كما استفاد من سيرة ابن اسحاق ومن كتاب نسب الأنصار لعبد الله بن محمد بن عمارة توفي سنة 200 هجرية فتلاميذ ابن سعد روى عنه أخبار النبي محمد صلى الله عليه وسلم وطبقات الصحابة على أنهما كتابان وقد حفظت الطبقات على صورتها المعروفة للمرة الأولى على يد الحسين بن فهم وقد أشرنا إلى هذا في محاضرة سابقة ، ثم جمع ابن معروف الكتابين حوالي سنة 300 هجري مشكلاً منها كتاباً واحداً تولى سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم القسم الأول من الكتاب.

وابن سعد آخر مؤلفي السيرة من المتصلين بالمصادر الأولى وثاني مؤلف بعد ابن اسحاق وصلنا كتابه عن السيرة والطبقات كاملاً ولم يأتي بعده مؤلف يأتي بجديد فيها ، أما أسلوبه التاريخي رغم أنه يحمل الملامح التي يحملها السابقون إلا أنه تميز بملامح خاصة ايضاً.

مصادر معلوماته تعتمد بخاصة على الواقدي وكان يعطي أحياناً تفاصيل أوفى منه ولا سيما في الفترتين المكية والمدنية للدعوة النبوية وعلى هشام ابن محمد بن السائب الكلبي ، فيما يتعلق فيما روي عن أهل الكتاب وعلى الوثائق فهو يكثر منها ، أما مصادره الأخرى فقد صدر المغازي بقائمة تحوي أهم رواته كما صدر كتاب الطبقات بقائمة أخرى وقد تميز منهجه بالعرض بتنظيم المادة وإلغاء الملاحظات الشخصية وإسناد كل قول إلى مرجعه وذكر الوثائق بنصوصها والاستشهاد بكثير من الشعر.

ولا يحمل مفهوم السيرة عند ابن سعد شيئاً كثيراً ، مما وراءها فقبل الإسلام لا يحتل إلا مجالاً ضيقاً فقط ، ولا مكان للرسالات الأخرى عنده ، وعنايته بالصحابة والتابعين وأحوالهم جرت به إلى العناية ايضاً بالصحابيات والتابعات وقد خصص الجزء الثاني كله من طبقاته لهن.

ولإكمال الصورة لعنا نستطيع أن نضيف أخيراً مولين آخرين من مؤلفي السيرة في الشام بعضهم عامر ابن سعد بعض المعاصرة وبعض تأخر عنه قليلاً ، وإن كان كتاب ابن سعد عنهم غني أحياناً أمثال هؤلاء محمد بن عائد الدمشقي وذلك سنة 233 هجرية 817 ميلادية وعبد الله ابن محمد بن علي النفلي الحراني سنة 234 هجرية 848 ميلادية وأبو زرعة عبد الرحمن بن عمرو بن صفوان النصري الدمشقي سنة 280 هجرية 894 ميلادية ، إن هؤلاء هم الذين يشكلون بقية

تلك الجمهرة الواسعة التي عملت على حفظ السيرة وتنظيمها وإشاعتها بين الناس في الشام وبجانب علمها في حفظ الحديث أو بسبب من عملها في حفظ الحديث.

الوزارة في المغرب الأقصى والقضاء في الأندلس

لم يعن المؤرخون ببحث نظام الوزارة في المغرب الأقصى في عهد المرابطين ، بل اتخذوا من الكتابة والوزارة نظاماً ثابتاً ، ويرجع السبب في ذلك إلى أن عمال الدولة كانوا يتمتعون بنفوذ طغى على نفوذ هؤلاء الذين كانوا يلونهم من كبار الموظفين ، على أنه مما لا ريب فيه أنه كان للمرابطين موظفون يرجعون إلى مشادتهم ، وأنه كان لهم كتاب يشرفون على الدواوين المختلفة ، كديوان الرسائل أو ديوان الإنشاء ، كما هم يسمونه ، مما جعل المؤرخون يخلطون بين هؤلاء وأولئك ، فيسمون هؤلاء المستشارين ، وزراء والآخرين كتاباً ، وكان عند المرابطين وزراء إقليميون ، لم يكونوا في الواقع غير أصحاب ديوان الإنشاء ، وكان لهم كذلك وزراء مركزيون يقيمون بمدينة مراكش.

ومهما كانت التقسيمات فالواقع لن يكون عند المرابطين مجلس للوزراء ، وإنما كانت عندهم هيئة استشارية تتكون من طائفة من الفقهاء والأعيان والكتاب. أما أهم الدواوين في المغرب العربي في تلك الفترة فهم ديوان الرسائل أو الإنشاء ، ويرأسه موظف كبير يعرف بال كاتب ، ولا يبعد ان يكون هناك دواوين مختلفة وعديدة يقوم بالإشراف عليها كاتب يقوم مقام الوزير ، وصلاحيات الوزير هنا محددة وعمله مقيد أي يمكن أن نسميها وزارة تنفيذ على عكس وزارة التفويض في عهد العباسيين والفاطميين وكذلك الحاجب في الأندلس.

ولم يكن في دولة المرابطين ما يطلق عليه رئيس الوزراء أو الوزير ، لأن السلطة كانت محصورة في يد أمير المسلمين نفسه ، وذلك لكون الدولة المرابطية كان تقوم على مشورة الفقهاء والذين هم على مذهب الإمام مالك ابن أنس أكثر ما تقوم على السياسة.

الوزراء في عهد الأمويين في الأندلس

لم يكن لقب الوزارة موجوداً في الدولة الأموية في الأندلس كما هو الحال في مشرق الوطن العربي الإسلامي بل كانت تطلق كلمة الحاجب على من ينقلوا الوزارة أو هو شائع الاستعمال تارة يطلق عليه لقب الوزير وتارة أخرى الحاجب.

وعليه فإن اسم الحاجب في الدولة الأموية في الأندلس لم يقصد به ذلك الموظف الذي يحجب الخليفة أو السلطان من عموم الناس من الخاصة والعامّة ، كما هو الحال عند الأمويين قبل سقوط دولتهم وبعد ذلك العباسيين في المشرق ثم الفاطميين في مصر ، وإنما المقصود هنا من يتولى الوزارة بمعناها المعروف فالحاجب كما يقول ابن خلدون في هذا الأمر أنه مشابه على عمل رئيس الوزراء اليوم أي الحاجب ويتولى رئاسة الوزراء والحكومة.

وقد وزعت مهام رئيس الوزراء كما نسميه اليوم على مجموعة من كبار الموظفين في الدولة للاستعانة بهم في تسيير أمور الدولة ، ويختار الأمير أو الخليفة من هؤلاء الموظفون الكبار يسميه الحاجب ويعين وزيراً للمالية و وزيراً للرسائل و وزيراً للمظالم وكذلك وزيراً لمتابعة أحوال أهل الثغور وهكذا.

ولكي تكون الأمور مرتبة ومنسقة صار لهم مكان خاص يجتمعون فيه وينفذون أوامر الخليفة أو السلطان كل حسب اختصاصه ودائرة عمله ، واختير أحدهم للتردد على الخليفة أو الأمير وكذلك النيابة عنه في أي وقت وعرف هذا الشخص باسم الحاجب ، واستمر الحال هكذا حتى وصل الأمر إلى ملوك الطوائف ، فأصبح اسم الوزارة عاماً لكل من يجالس ملوك الطوائف ويختص بهم ، وغدا الوزير الذي ينوب عن الملك يعرف بذوي الوزارتين.

ولم يكن مجلس الوزراء أو مجلس الحاجب هو الذي يدير شؤون الدولة والحكومة ، بل كان هناك إلى جانبه مجلس آخر يمس مجلس الشورى وهذا

المجلس يكون برأسة الخليفة أو الأمير ، أما فتكيله فتتكون من كبار رجال الدولة وبعض أمراء البيت الأموي في الأندلس.

وكان أول من لقب بذي الوزارتين هو أحمد بن عبد الملك بن شهيد في زمن الخليفة الأموي في الأندلس عبد الرحمن الناصر وذلك لجمعه بين عملي السيف والقلم ، ونتيجة لهذا تم مضاعفة راتبه وقد يقوم هذا الرجل في بعض الأحيان بواجبات الحاجب إذا أصبحت هناك أعمال كثيرة بعهدة الحاجب.

ولم تكن الوزارة في عهد الأمويين في الأندلس حكرًا على المسلمين فقط بل كان يتقلدها غيرهم من أهل الذمة كما فعل ذلك عبد الرحمن الناصر عندما عين حراي بن شيروط وزيراً وبعث به سفيراً إلى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة "أوتو".

وتغير دور الحاجب من تغير وضع الدولة الأموية في الأندلس ، وذلك قوة أو ضعفاً وعرفاه دورة عندما كانت الدولة الأموية قوية ، لكن الوضع تغير بعد ضعفها ، حيث ازداد نفوذ الحاجب ، حتى أصبح الخليفة ليس له حول ولا قوة في أمور الدولة بل الحاجب هو الذي يسيطر على الأمور ، وخير مثال لنا على هذا الحال هو المنصور بن أبي عامر الذي تخلص من جعفر المصحفي وخلفه في كرسي الحجابة ، والذي أصبح بدوره الحاكم المطلق للدولة الأموية في الأندلس ، حتى دعي له في المنابر وضربت السكة باسمه بعد الخليفة وكذلك نقش اسمه على الملابس المنسوجة بالذهب كما كان ينسج اسم الخلفاء.

القضاء في الأندلس

كان للقضاء مركز ممتاز في الأندلس كما كان في غيرها من البلاد العربية الإسلامية ، وكان الأمير أو الخليفة هو الرئيس الأعلى للقضاء ، وذلك لكون هذه الوظيفة متعلقة بالدين وكان قاض القضاة يسمى قاض الجماعة كذلك لأنه يقيم في حاضرة الدولة وكان هناك شروط للقاضي وهي:

- 1- أن يكون متبحراً في الفقه.
- 2- مشهوداً له بالنزاهة والاستقامة.
- 3- أن يكون عربياً خالصاً.

ولكن القاعدة الأخيرة أو الشرط الأخير كان يخترق بين فترة وأخرى بحيث كان للقضاء بعض الموالي والمولدون والبربر ، ومثالنا على ذلك بن يحيى الليثي قاض قضاة الأندلس ، وهو كان من أصل بربري ومن قبيلة معمودة وكان قاضي الجماعة يختار على الأعم الأغلب من قضاة الأقاليم الأندلسية والذين تقلدوا بعض مناصب الدولة الهامة.

وكان قاض الجماعة يقيم بقرطبة عاصمة الدولة الأموية في الأندلس ، ويعين من قبل الأمير أو الخليفة ، أما الأقاليم فكان ينوب قضاة يسمى كل واحد منهم مدد خاص.

أما مصادر التشريع في الدولة الأموية في الأندلس فهما القرآن والسنة النبوية الشريفة ، ويسير القضاة في الأندلس والمغرب وفق مذهب مالك بن أنس رضي الله عنه وإلى يومنا هذا ، وينفذ أحكام القضاة هم الحكام والولاة.

وهناك اختصاصات أخرى للقاضي منها الإشراف على موارد الأحباس وسجلات الفتاوى الفقهية والإشراف على الصلاة في أيام الجمع والأعياد بالمسجد الكبير بقرطبة أو مسجد الزهراء والذي بناه عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء وكذلك الدعاء في صلاة الاستسقاء ، وكان يسمى القاضي بـ "صاحب الصلاة" حتى فرق عبد الرحمن الناصر بين مسؤولية الصلاة "إقامة الصلاة" بحيث أفرد لها شخص آخر ولقضاة القضاء شخصاً آخر.

أما المظالم:

أما محكمة المظالم فهي بمثابة محكمة الاستئناف العليا في عصرنا ، تعرض عليها القضايا إذا عجز القاضي عن تنفيذ حكمه في قضية رجل من علية القوم ، أو إذا لجأ إليها المتقاض إذا اعتقد أن القاضي لم يحكم بالعدل ، وكان الغرض الأساسي من إنشاء محكمة المظالم وهو وقف تعدي وتجاوز أصحاب الجاه والحسب والنفوذ ولهذا السبب كانت المظالم لم تسند إلى رجل جليل القدر كثير الورع يسمى قاضي المظالم.

ولأهمية المظالم خصص لها ديوان خاص بها سمي بديوان المظالم ويسمى رئيس هذا الديوان بـ "صاحب المظالم" وسلطاته أوسع بكثير من سلطة القاضي.

أما الكيفية التي تعقد فيها محكمة المظالم فانعقادها يتم تحت رئاسة الخليفة أحياناً أو الوالي أو ينوب عن أحدهما ويعين صاحب المظالم يوماً محدداً يقصد فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى ، أما إذا كان صاحب المظالم لم يكلف بمهمة أخرى فإنه ينظر للمظالم على طول أيام الأسبوع.

وكانت محكمة المظالم تنعقد في المسجد ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات أو خمسة لجان أو مستشارين ، ويكون مجلس المظالم قد عقد وانتظم وكمل نصاب عمله بحضور هؤلاء الجماعات وهم:

- 1- الحماة والأعوان.

- 2- الحكام ويحيطون بالأحكام ويردون الحقوق إلى أصحابها.
- 3- الفقهاء والذين يرجع إليهم صاحب المظالم فيما أشكل عليه من مسائل.
- 4- الكتاب يقومون بتدوين أقوال المتخاصمين.
- 5- الشهود وهؤلاء يثبتون أو يقولون ما يعرفونه عن الخصوم ويشهدون على أن ما أصدره القاضي لا ينافي العدل.

ولقاضي المظالم اختصاصات ومن هذه الاختصاصات فهي:

- 1- النظر في الشكاوي والقضايا التي يتقدم بها الأفراد أو الجماعات على الولاة إذا انصرفوا عن طريق الصواب والعدل والإنصاف ، وكذلك عمل الخراج إذا اشتطور في جمع الضرائب ، وكتاب الدواوين إذا لم يكونوا دقيقين في إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة.

- 2- النظر في المظالم التي تحلق بصحاب الأرزاق إذا ما نقصت أرزاقهم أو تأخر دفعها.
- 3- تنفيذ ما يعجز القاض عن تنفيذه من الأحكام.
- 4- مراعاة إقامة العبادات كالحج والأعياد والجمع والجهاد.

سوسولوجيا العصر العباسي

يقصد بالحالة الاجتماعية في بلد من البلاد ذكر طبقات المجتمع في هذا البلد من حيث الجنس والدين وعلاقة كل من هذه الطبقات بعضها ببعض ، ثم بحث نظام الأسوة و حياة أفرادها . وما يتمتع به كل منهم بالحريّة . ثم وصف البلاد ومجالس الخلفاء ، والأعياد والمواسم والولائم والحفلات وأماكن النزهة . ووصف المنازل وما فيها من أثاث وشراب ولباس وما إلى ذلك من مظاهر المبحثين ، وكان الشعب في أواخر العصر العباسي الأول يتألف من عدة عناصر:

وهي العرب والفرس والمغاربة وقد ظهر العنصر التركي على مسرح السياسية في عهد الخليفة المعتصم والذي اتخذهم حرساً له ، وأسند إليهم مناصب الدولة العالية وأهمل العرب والفرس ، فأصبح الأتراك خطراً يهدد الخلفاء أنفسهم . حتى أن كثيرين من هؤلاء الخلفاء ذهبوا ضحية تأمرهم .

على أن بعض الخلفاء أدركوا خطر هذا العنصر فاستعانوا بالمغاربة والفراعنة وغيرهم من الجنود المرتزقة كالأكراد والقرامطة الذين بدأت الدولة العباسية تستعين بهم منذ أيام الخليفة الراضي (322 - 329 هجرية) إلا أن الخلفاء العباسيين لم يسلموا من خطر هذه العناصر التي كانت تنضم إلى أمراء الأمراء تارة وإلى الخلفاء أخرى .

ولما انتقلت السلطة إلى بني بوية قامت المنافسة بين الأتراك والديلم الذي كان البويهيون ينتسبون إليهم ويعتمدون عليهم في إقرار نفوذهم . ووقع بنو بوية قيماً وقع فيه العباسيون من قبل ، وأصبح الديلم خطراً يهدد كيان الدولة العباسية بسبب قيام المنافسة بينهم وبين الأتراك واستعانة البويهيين بهؤلاء تارة وأولئك تارة أخرى وقد أدرك معز الدولة هذا الخطر فأوصه ابنه بختيار مدادة الديلم والتودد إلى الأتراك . لكن بختيار ، على الرغم من استعانتة بالأتراك ، لم يسلم من شرهم فعزلوه وانضموا إلى ابن عمه عضد الدولة ومهما يكن من شيء فقد كان الجيش في عصر بني بوية يتألف من الديلم والأتراك والعرب والأكراد والفراعنة وغيرهم من المرتزقة .

وكان من أثر انقسام المسلمين في هذا العصر على شيوع وطوائف أن تعرض المجتمع الإسلامي إلى التفكك والتنازع فهناك النيون الذين كانوا يكونون السواد الأعظم ويتمتعون بقسط وافر من الحرية والطمأنينة في عهد نفوذ الأتراك وفي عهد أمرة الأمراء وهناك الشيعيون الذين قاسوا كثيراً من العنت والاضطهاد حتى استولوا بنو بنوية على العراق ، فتمتعوا بشيء غير قليل من الطمأنينة في ظل البويهيين المتشيعيين ومن ثم قامت المنازعات بين الشيعيين والسنيين فضرب يحيى بن عمر بن يحيى بن زيد ابن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي ابن أبي طالب وحبس في بغداد سنة (335 هجرية) ولم ينج من عنت هذا الخليفة إلا العلويين الذين لجئوا إلى مصر.

ومع ذلك أمر هذا الخليفة واليه على هذه البلاد بإخراج العلويين من مصر إلى العراق ، ثم أمر بإرسالهم إلى المدينة وقد خرج يحيى بن عمر العلوي على الدولة العباسية ولكنه قتل في عهد المستعين سنة (250 هجرية) كذلك ثار بطرستان الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب واستولى عليها وعلى جرجان ، وحكم البلاد عشرين سنة (250 - 270 هجرية) إلى أن مات فخلفه أخونه وكان يدعو إلى الرضا من آل محمد ثم خلفه الحسن بن علي الحسيني المعروف بالأطروش

ولم يكن هذا الاختلاف قائماً بين السنيين والشيعيين وحدهم. بل تعداه إلى بعض السنيين وبعض. فقد رأينا أن الحنابلة أصبحوا قوة يخشى بأسها.

حتى أنهم حالوا دون دفن محمد بن جرير الطبري سنة (310 هجرية) لأنه جمع كتاباً في اختلاف الفقهاء لم يذكر فيه أحمد ابن حنبل من بين هؤلاء الفقهاء كما رأينا كيف بلغ من تشدهم في الدين أن قاموا في وجه ذوي اليسار وكسروا أواني الخمر وحطموا الآلات الموسيقية وضربوا المغنين. ذكر السيوطي أن الحنابلة ثاروا ببغداد سنة (318 هجرية) لاختلافهم مع غيرهم من السنيين في تفسير قوله تعالى "على أن يبعثك ربك مقاماً محموداً" فقال الحنابلة أن المقصود من هذه الآية أن يقعد الله نبيه على عرشه وقال غيرهم بل هي الشفاعة واحتدم الجدل بسبب ذلك واقتتل الحنابلة مع خصومهم.

ومن طباق الشعب طبقة الرقيق وكانت مصر وشمال إفريقيا وشمال جزيرة العرب من أهم أسواق الرقيق الأسود وقد جلب إلى العراق كثير من الزيجات

اللائي عرفن بكثرة النسل كما جلب كثير من الزنج لفلاحة الأرض وحراسة الدور. وكثر الزنج في العراق وأدت كثرتهم إلى قيام ثورة الزنج الخطيرة التي دامت أكثر من أربعة عشر سنة (255 - 270 هجرية) وكلفت الدولة العباسية الكثير من الأموال والدماء.

وقد كثر شراء الرقيقات اللاتي أصبح منهن المغنيات وارتفع ثمنهن. وقد قيل أن ابن رائق اشترى حول سنة (325 هجرية) جارية مولدة موصوفة بحسن الغناء بأربعة آلاف دينار وارتفع ثمن الرقيق الأبيض بسبب انقطاع عبید الأندلس في القرن الرابع الهجري ، وتخريب النحور الغربية ، وكاد ينضب المصدر الوحيد الباقي من الرقيق وهو بيزنطية وأرمينية.

ومن الرقيق الأبيض الذين كانوا يسمعون العلماء ، الأتراك والديلم والأكراد الذين قاموا بدور هام في السياسة والحرب في هذا العصر ، وكانوا يكونون طبقة كبيرة من طبقات المجتمع العربي الإسلامي في العصر العباسي الأول. إذ كان اتخاذ الرقيق منتشراً انتشاراً كبيراً.

وكانت سمرقند التي كانت تعد من أكبر أسواق بيئة صالحة لتربية الرقيق المجلوب من بلاد ما وراء النهر ، كما كان أهلها يتخذون ذلك صناعة يعيشون منها.

ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة ازدراء. لأن كثيرين منهم كانت أمهاتهم من الرقيق وقد أولع الخلفاء وكبار رجال الدولة باتخاذ الإماء من غير العرب حتى أنهم كانوا يفضلونهم أحياناً على العربيات الحررات.

ومن طبقات الشعب في ذلك العصر أهل الذمة وهم النصارى واليهود وكانوا يتمتعون بكثير من ضروب التسامح الديني وقيمون شعائرهم الدينية في أمن ودعة.

وقد أوجت الحاجة على المعيشة المشتركة وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق بين المسلمين واليهود والنصارى نوعاً من التسامح ولم تتدخل الحكومة الإسلامية في شعائر أهل الذمة ، بل كان يبلغ من التسامح بعض الخلفاء أن يحضروا مواكبهم وأعيادهم ويأمروا بحمايتهم.

وكان للنصارى بطريق يعينه الخليفة بعهد خاص كما يعهد لكبار العمال ويطلق عليه اسم "الجائليق النسطوري" أي رئيس المسيحيين الشرقيين ، وكان يتمتع بنفوذ كبير بين أبناء أملته ، وكذلك عومل بطريقة اليعاقبة.

أما اليهود فكان لهم رئيس خاص يلقب أحياناً بلقب الملك ، ويدفع له أهل ملته الضرائب فيأخذ نصفها ويرسل النصف الآخر إلى بيت المال ، بخلاف ما كان عليه الحال بالنسبة إلى النصارى الذين كانوا يؤدون الضرائب على بيت المال مباشرة ، ويطلق على رئيس اليهود في بغداد "رأسي الجالوت" وقد امتد نفوذه إلى اليهود المقيمين في البلاد الواقعة شرقي الفرات وبلغ عدد اليهود في البلاد العربية الإسلامية (300.000) ولكما تقدمنا شرقاً زاد عدد اليهود ففي همدان مثلاً بلغ عددهم ثلاثين ألفاً وفي أصبهان خمسة عشر ألفاً وفي شيران عشرة آلاف وفي عزنة ثمانين ألفاً وفي سمرقند ثلاثين ألفاً ويظهر أن عددهم كان ضئيلاً في بلاد الشام ، وخاصة في أثناء الحرب الصليبية ، حتى أن عددهم في الحي الخاص بهم في بيت المقدس لم يتجاوز أربعة أنفس أو مائتين على ما ذكره بنيامين وشخصاً واحداً على ما ذكره بتاحيا.

أما في دمشق فقد بلغ عددهم ثلاثة آلاف ، وفي حلب خمسة آلاف ويقول المقدسي أنه كان بخراسان "يهود كثرة ونصارى قلة" ويقول عن بلاد الجبل "اليهود به أكثر من النصارى" وفي القرن الرابع الهجري اعترفت الدولة العباسية بالمجوس الذين لم يكن قد تم التغلب عليهم في البلاد البعيدة ، لتمسكهم في دينهم وتقاليدهم وكراهيتهم للإسلام بأنهم أهل الذمة مما كان لليهود رئيس ديني يلقب بألقاب الملوك ويدفع له أبناء نحلته الضرائب كما يفعل اليهود ، وكان منصبه وراثياً وقد كثر عدد المجوس في القرن الرابع في العراق وجنوبي فارس.

القضاء في العصر العباسي

لأجل تنظيم الدائرة القضائية في الدولة العربية الإسلامية وضع الفقهاء شروطاً اعتبرت قواعد أساسية لهذه الوظيفة فلا يمكن أن نسمي هذه المؤسسة "النظام" دون أن تتوفر لها هذه الشروط ، فهي قواعد أساسية حصرها الماوردي في خمسة.

القاعدة الأولى - المولى

وهو مصر الولاية ، أي رئيس الدولة (ال خليفة) فتقليد القضاء من قبله من الواجبات الأساسية لمنصبه ، لأن القضاء ، كما عده ابن خلدون من وظائف ومندرجا في عمومها.

ففي الدولة العربية الإسلامية تنحصر سلطة تعيين القضاء في الخليفة وحده ، وإذا كانت ثمة جهات رسمية تمارس هذه السلطة فنيابة عن رئيس الدولة (أي الخليفة) وتخويلاً منه. وذلك لأن المصادر أوردت ما يبشر إلى أن ولاية الأمصار مارسوا صلاحية تعيين القضاء وعزلهم كما مارسها في قاض القضاة وبعض الوزراء في ذلك العصر. إلا أن هذه الممارسات كانت بتحويل من الخليفة ورضاه ، "والمصادر لا تذكر إلا حادثة واحد تساهل فيها الخليفة في ممارسة هذا الحق ، فتم تعيين أحد القضاء دون رض (وهذا القاض هو أبو العباس ابن أبي الشوارب) ضمن المنصب من معز الدولة بمبلغ (200.000 درهم) ، دون أن يستطيع الخليفة أن يفعل شيئاً لكنه أمر بعد سنين بنقض جميع أحكامه واعتبر جميع سجلاته العدلية لاغية ، لأن تعيين القضاة لا يصح إلا من جهته" انظر الدكتور عبد الرزاق الأنباري، النظام القضائي ، ص 190.

القاعدة الثانية المولى

وهو القاض المعين من قبل السلطة التشريعية ، لأجل فصل وحسم الدعاوي الواقعة بين الناس وفق أحكام الشريعة السمحاء ، ويشترط في تعيين القاض أن يكون رجلاً ذا قدرة عقلية تمتاز

بحدة الذهن والفتنة ، كما اشترطوا فيه الحرية والإسلام والعلم بالأحكام ، إضافة إلى سلامة الحواس.

القاعدة الثالثة العمل

المقصود بالعمل هنا تحديد النطاق والمكان الذي يمارس فيه القاضي صلاحياته ، فرئيس الدولة الخليفة ، عندما يبعث قاضياً إلى مكان محدد مثلاً يقول له قلدتك قضاء الكوفة ليكون مجال عمله معلوماً.

القاعدة الرابعة - النظر

والمقصود بهذا أن يمارس القاض السلطة في الحكم فلا بد له أن ينظر في دعاوي الناس لكي تكتمل مقومات ونظره هذا إما أن يكون عاماً ينتهل جميع الأحكام وهي النظر في حقوق الأملاك وفي أموال الأوقاف والوصايا وفي شؤون موظفي مجلسه ، وإقامة الحدود ، والحكم بالقصاص ، إما أن يكون نظره خاصاً ، كأن يقلد النظر في دعاوي الديون دون غيرها أو الحكم في نصاب مقدار من المال لا يتجاوزه ، مثلاً على هذا ما ذكره أبو عبد الله الزبيري توفي سنة 317 هجرية 929 ميلادية قال لم يزل الأمراء عندنا في البصرة يستقضون على المسجد قاضياً يسمونه قاض المسجد يحكم فيما بين 200 درهم فما دونهما ويقرض النفقات ولا يتصدى بها موضعة ولا ما أقدر له.

القاعدة الخامسة العقد

ولا بد لصحة وسلامة النظام القضائي في توفر العقد بين المولى أي أنس الدولة العربية الإسلامية والمولى القاضي ، ليمارس الثاني مسؤولياته وفقط عقد. والذي يتضمن أربع شروط:

1- مقدمة العقد فيها أن يكون المولى عارف بتكامل شروط القضاء في المرشح لهذا المنصب ليصح العقد.

2- صفة العقد: ويتحقق هذا بذكر لفظ التقليد وصيغة يقول مثلاً وليتك ، قلدتك ، عهدت

إليك ، مع حضور المرشح شخصياً أمام رئيس الدولة (الخليفة) أو من ينوب عنه.

3- صفة العقد: يشترط أن يكون لفظ العقد صريحاً مثل (قلدتك القضاء) أو (استخلفتك على القضاء) مثال على ذلك نذكر أن الخليفة هارون الرشيد

كان إذا أراد تقليد أحدهم ، أرسل إليه طالب حضوره أمامه ، فإذا حضر
ولاه القضاء ، فلما ولى عبد الله بن أدرسي الأودي قضاء الكوفة قال : إن
أهل بلدك طلبوا مني قاضياً ، وسموك لي فيمن سموا ، وقد رأيت أن
أشركك في أمانتي وصالح ما أدخل فيه من أمر الأمة ، فخذ عهدك
وامضي.

ويشترط في "اللفظ" ذكر البلد الذي يتولاه وصفة الحكم من عموم وخصوص ،
وأخيراً قبول المرشح الترشيحة ، كقوله: قبلت ، أو قد تقبلت فيتم العقد"
انظر ، عبد الرزاق الأنباري ، النظام القضائي ص 161.

4- لزوم العقد: إذا تم العقد صار ملزماً للقاضي والناس الذين يحكم بينهم
فعليهم قبول
ولايته ، والالتزام بتنفيذ أحكامه لأن لزوم طاعة أهل البلد شرطاً في صحة
التقليد.

"وهذه المسألة ، رضا الناس وطاعتهم في الاحتكام إلى قاض الدولة الرسمي ،
في
العراق ، لم أجد في مصادر خروجاً عنها إلا مرة واحدة ، فقد رفض أهل
بغداد المعتز له وقالوا ، لا يلي علينا إلا من نرضى به ، فكتب الخليفة
المتوكل العهد مطلقاً ليس عليه اسم أحد وانفذه من سامراء مع أحد
رجال الدولة ، وقال له : أحضر الناس وأقرأ العهد فإن رضوا به
قاضياً فوقع في الكتاب اسمه فلما قدم بغداد صاح الناس : ما نريد غير
الواهي فوقع في الكتاب اسمه وحكم من وقته في الرصافة" والمقصود
هنا بالواهي هو القاضي عبد السلام بن عبد الرحمن (ت 249هـ/863م)
وكان على قضاء الرقة ، ثم أراده أهل بغداد على قضاء الرصافة
فاستجاب الخليفة للطلب" انظر عبد الرزاق الأنباري.

والآن قد عرفنا القواعد التي يشترط توفرها في الدائرة القضائية لكي تكسب
صفة النظام ، وكان من المستحسن أن يعطي رئيس الدولة أي الخليفة أو من
ينوب عنه أن يعطي القاضي كتاب عهد لكي يكون له دليل عمل ، وبرهاناً على
ولاية يدخل فيه القاضي المدينة ، فيقرأه على الناس ، في المسجد الجامع ، لكي
يشهر ولايته ، ويعلم الناس حدود صلاحياته ويفضل أن يحكم بعد هذا ولو بين
خصمين لتستقر قواعد وظيفته ويعلم كذلك الناس مقدار علمه.

طبيعة السلطة القضائية في الدولة العربية الإسلامية في عصر العباسيين

تقول لنا المصادر في العصر العباسي أن للخليفة سلطات واسعة في تطبيق تشريعات الدولة وبخاصة القانون الإداري ، كما أنه يستطيع أن يصدر هذه القرارات بنفسه ، كما يقر أحياناً قرارات الأمراء وتطبيقاتها في الأمصار.

وسلطات الأمراء في الأمصار مثل البصرة - الكوفة - والفسطاط والمدينة وغيرها سلطات واسعة لا يشاركهم فيها أحد سوى القاضي ، فللقاضي سلطة القضاء والحكم من الخلافات التي تظهر حول القوانين ، لكن الخلفاء والأمراء كانوا ينظرون غالباً فيما يتعلق بالقانون العام أما القضاة فكانوا ينظرون في القضايا المتعلقة بالأحوال الشخصية ، من مواريث ، وزواج ، أو طلاق ، أو ما يتعلق بشؤون اليتامى والأرامل ، أو المعاملات في الأسواق حيث أن السلطة القضائية في الإسلام يمارسها من يتولى الخلافة ، لأن القضاء من وظائف الخلافة متدرج في عمومها ، وقد مارس الخلفاء هذه السلطة بأنفسهم في حاضرة الدولة العربية الإسلامية (العاصمة) كما كتبوا إلى قضاة الأمصار أحكاماً قضائية معينة كان على القضاة تنفيذها والالتزام بها.

حيث كان السلطة القضائية في الدول العربية الإسلامية بين قطبين:

الأول: الأمير.

والثاني: القاضي.

ومن المعروف أن سلطة الأمير تفيض سلطة القاضي ، فهو مثل الخليفة ومنفذ القوانين التي تصدرها الدولة ، والمسؤول المباشر عن حفظ النظام والأمن في مصر لأن سيادته الدولة في الأمصار والأقاليم التابعة للدولة العربية الإسلامية تتمثل بالأمير ، ومما زاد في صلاحياته ونفوذه هو أن تعيين القاضي وعزله كانا من اختصاصه ، فالأمير لم يكن مجرد حكم بين الناس ، بل كانت له سلطة عليا لا يتمتع بها القاضي ولا غيره ، وقد عبر شريح قاض الكوفة عن هذه السلطة عندما ذكر : أن الأمير في الكوفة يأمر فيطاع ، والروايات التاريخية في

هذه الفترة تشير وتؤكد ارتباط القاضي الأمير (كانت ولاية البلدان إليهم القضاء يولون من أرادوا وكان يركب القاضي مركباً ولا يذهب في حاجة إلا استأذن أمير البلد ، لا، يطيب له الرزق) نقلاً عن الأنباري ، عبد الرزاق.

القضاء في العصر العباسي

إن تداخل سلطة الأمير مع القاضي في اختصاصاته لربما أربك المؤسسة الإدارية في الدولة العربية الإسلامية وفي الأمصار بشكل خاص ، مما دفع الأمر للقائمين عليه أن يتلافى هذا الموضوع في قضية التداخل الإداري وإرباك العمل في الأمصار التابعة للدولة العربية الإسلامية في عصر الخلفاء العباسيين.

فكانوا أن عهدوا للأمير بالقضاء أو للقاضي بالإمارة توحدت المؤسسة القضائية في مصر ، وجعلها تكتسب قوة وقدرة على التنفيذ في كثير من الأوقات كما كانت تناط مسؤولية الإمارة والقضاء بشخص واحد وكذلك الشرطة مما يكسبه قوة مركزاً مؤثراً بشكل كبير في الإدارة وتصريف الأمور "ففي سنة 110 هـ ولي خالد بن عبد الله على العراق ، فجمع الصلاة بالبصرة ، مع الشرطة والقضاء إلى بلال بن أبي بردة ، لا ريب أن الصورة الحقيقية والصادقة لسلطة القاضي والأمير معاً إنما تتجلى أكثر واقعية في الأمصار نفسها ، وليس في كتب الفقهاء" انظر الدكتور عبد الرزاق الأنباري.

ولعلنا نطلع على ما يجري من أحداث في الأمصار بقول الدكتور عبد الرزاق الأنباري "عين أياس بن صبيح المعروف بأبي مريم الحنفي قاضياً حتى توفي عتبة بن غزوان وهو الذي ولي أبا مريم الحنفي ، فلم يزل قاضياً حتى توفي عتبة بن غزوان ، وولي المغير بن شعبة فأقر بأمر أبا مريم على القضاء ، غير أنه ثم أمر بعزله لأنه صالح بين متخاصمين في دينار غرمه هو من ماله.

ولفترة قصيرة مارس أمير البصرة المغيرة بن شعبة القضاء في البصرة إلى أن اختار عمر كعب بن سور الأزدي فكان أول قاض على البصرة استقضاه خليفة".

أما في ولاية كعب بن سور على البصرة تورد المصادر معلومات عن لجوء العرب المسلمين وغير المسلمين إليه لفحصل الحكم بينهم فكانوا يترافقون في قضاياهم إليه فإذا أراد أن يستحلف المسيحين فإن كعب بن سور كان يأتي به المذبح ، ويضع على رأسه الإنجيل ويستحلفه بالله اما إذا أراد أن يستحلف يهودياً قال لأعوانه (أدخلوه الكنسية وضعوا التوراة على رأسه واستحلفوه بالله الذي أنزل التوراة على موسى).

لو رجعنا إلى هذه المعلومات لوجدناه كما يقول الدكتور عبد الرزاق الأنباري "أن هذه المعلومات ذات قيمة تاريخية كبيرة ، فهي تؤكد أن القاضي العربي كان ينظر في دعاوي الجميع وفي عهد مبكر سواء كان ذلك في البصرة أو الكوفة ، وهي تؤكد عدالته فإلا الأحكام وإلا لما اختاروا جميعاً يحتكمون لعدالته".

وهناك ظاهرة بارزة في قضاء البصرة وهي أنهم يذهبون لقاضي الكوفة ويشاورونه عن بعض القضايا والخصومات التي تحدث بين الناس ويلوح فيها الغموض وعدم الوضوح ، كما وأنهم كانوا في أحيان كثيرة يذهبون للتحكيم خارج القضاء ويرتضون له ، فإذا أبى أحد الخصمين الانصياع لقرار التحكيم كتب القاضي إلى صاحب الشرطة لينفذ قرار التحكيم.

واشتهر من قضاة البصرة إياس بن معاوية بن قرّة المزني ، والذي تولى القضاء في خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وقد شغلت أحكامه وفراسته في القضاء جانباً كبيراً من كتاب أخبار القضاء لو تبع وصارت أحكامه دلائل لتثبيت كثير من أراد الفقهاء وأحكامهم الشرعية حتى يمكن أن نعهده هو وشريح القاضي قاضي الكوفة منه أبرز وأهم من ساهموا في إغناء التشريع بالأحكام القضائية والتي امتازت على غيرها من أحكام الفقهاء بالتطبيق العلمي في ميدان القضاء الفعلي.

"لقد حكم إياس في قضايا تتعلق بالحدود والقصاص وكاد مجلس قضاائه في المسجد الجامع في البصرة كما قضى في السوق ، أما طريقته للنظر في الدعاوي ، فقد رتبها حسب حضور الخوصم من سبق إلى مكان أحق به ، وأجلس عليه ، فإذا قام فجلس عليه آخر فهو أحق به ، وكان راتبه 100 درهم شهرياً" عبد الرزاق الأنباري ، مصدر سابق.

وفي أواخر الحكم الأموي قامت في البصرة اضطرابات الإدارة القضائية ، وكان هذا الأمر نتيجة طبيعية لاضطراب الأمور ، منها عزل القضاة المستمر من قبل الولاة ، وكان آخر القضاة على القضاء على البصرة هو القاضي عباد بن منصور الذي جمعت له الصلاة والأحداث إضافة للقضاء ، واستمر الوضع على هذا الحال إلى سنة 120 هجرية 744 ميلادية والأحداث : هم قوة عسكرية

مدربة تمزج بين الأسلوب العسكري والمدني تحافظ على الأمن في البصرة
وينظم لها الشباب على شكل متطوعة للعمل على حماية مدينتهم.

أما في العصر العباسي وهو مجال محاضرتنا هذه فقد تغير الأمر ونشطت
الدائرة القضائية من جديد فقد أصبح تعيين القضاة يصدر من الخليفة بشكل
مباشر ، حيث يعين الخليفة العباسي أو جعفر المنصور سنة 140 هجرية
المصادف 757 للميلاد سوار أول من تشدد بالقضاء وعظم أمره ، واتخذ
الأمناء وأجرى عليهم الارزاق ، وقبض الوقوف وأدخل الأوصياء والأمناء
وطول السجلات ، وضم الأموال المجهولة الأرباب وسماها الحشرية
(والمعروف أن الأسناد كانوا من بين موظفي القاضي يأتهم في الحفاظ على
أموال اليتامى ، حيث تطور النظام القضائي في الدولة العربية الإسلامية على
عهد العباسيين إلى الحكم وهم يعلنون ويتعهدون أنهم سيحكمون بما أنزل الله
ويعملون بما في كتابه وأن تكون سيرتهم في العامة والخاصة سيرة رسول الله
محمد صلى الله عليه وسلم.

"وقد تأثرت المؤسسات القضائية أكثر من غيرها بالسياسة الجديدة للعباسيين ،
وهذا أمر طبيعي فإذا كان العباسيون ورثة بيت النبوة ، الراغبين في إحياء
السنة وأقامة العدل فالقضاء هو الميدان العلمي لتطبيق هذه السياسة وقد ظهر
اهتمامهم وعنايتهم به منذ وقت مبكر فقد عظم شأن القضاة وقوي مركزهم منذ
عهد الخلفاء العباسيين الأول ، الذين ما أن ظفروا بالملك حتى اشتدوا في شأن
القضاء وتخيروا للوظائف الشرعية صدور العلماء".

وقد حدد الخليفة العباسي المنصور أربعة ذو شيء لا يصلح بهم الملك وهؤلاء:

- 1- قاضي لا تأخذه الله لومة لائم.
- 2- صاحب الشرطة ينصف الضعيف من القوي.
- 3- صاحب الخراج.
- 4- صاحب البريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة وقال مرة أخرى ، الذي علي
للرغبة أن أختار قضاتهم وأعزلهم بالحق كي لا يصل ظلم بعضهم إلى
بعض وأن أرفع أقدار فقهاءهم وعلمائهم.

وقد وضع الدكتور عبد الرزاق الأنباري مظاهر التطور القضائي في الدولة العباسية في جملة أمور منها:

- 1- سلطة تعيين القضاة.
- 2- محاولة تغيير التشريع.
- 3- منصب قاضي القضاة.
- 4- ظهور طبقة الشهود العدول.
- 5- ظهور مهنة المحاماة.

وسوف نتحدث عن ظهور مهنة المحاماة:

إن التطور الأخير في النظام القضائي في الدولة العربية الإسلامية في ظل العهد العباسي هو ظهور وظيفة جديدة في المحاكم لم تكن موجودة في العصور التي سبقت في الدول العربية الإسلامية قبل مجيء العباسيين وتلك الوظيفة هي وظيفة المحاماة ، حيث أخذت المصادر تورد لنا منذ العصر العباسي الأول مهمة أسماء عدد كبير من الوكلاء (أي المحامين) تولى مهمة الدفاع عن موكلهم في المحاكم التي كانت تقام في عموم الدولة العربية الإسلامية في العهد العباسي. أو ذلك لقاء أجر متفق عليه بين الطرفين أي الموكل والوكيل.

حيث أخذ هذا العرف يتطور منذ عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد إذا أقيمت دعوى على شخص أن يحضر المحكمة هو أو يوكل عنه وكيلاً ينظر خصمه ، حيث توجد قوائم بأسماء هؤلاء الوكلاء الذين ترافعوا أمام القضاة في الدول العربية الإسلامية في العصر العباسي ، وما تقاضوه من أتعاب أو أجور جراء ما قاموا لهم من توكيل عن المتخاصمين ، وهذه الظاهرة ، أي ظاهرة المحاماة هي ظاهرة حضارية متقدمة جداً كان المبدع الأول لها العقل العربي في عصر ازدهار الدولة العربية الإسلامية.

مواكب الخلفاء العباسيين

فاقت مواكب الخلفاء العباسيين مواكب الخلفاء الأمويين في جانب الروعة والبهاء ففي أيام الجمع يسير الحراس على اختلاف طبقاتهم في مقدمة موكب الخليفة ، حاملين الأعلام ، ثم يليهم أمراء البيت العباسي على الخيول المطهمة ، ثم أن الخليفة ممتطياً جواد شديد البياض ، وبين يديه كبار رجال الدولة ، وكان الخليفة يلبس في تلك المواكب القباء الأسود ، ويتمنطق مرصعة الجواهر النفيسة ، وكان الخليفة العباسي الهادي هو أول من أدخل هذا النظام في الدولة العربية الإسلامية على عهد العباسيين ، إلا أن الخليفين الرشيد والمأمون كثيراً ما كانا يميلان لللباسة والتواضع ، فلم يكن يصحبهما غير حارس واحد أو حارسين ، ومن مظاهر سيادة الخليفة في بغداد أن يضرب على باب قصره بالطبول والدبابب والأبواق في أوقات الصلاة.

أما من أعظم مواكب خلفاء بني العباس فهو موكب الحج ، حيث يجتمع أهل بغداد من الحجاج والحجاج الذين يأتون إلى بغداد في طريقهم للديار المقدسة من الأمصار الشرقية الإسلامية التابعة للدولة العربية الإسلامية ، وخاصة أهالي العراق وفارس وخراسان والمناطق الأخرى ، وقد أعدوا عدتهم من الإبل والكساء والطعام الذي كان يتكون من الأقراص المعجونة باللبن والسكر والكعك والفواكه اليابسة وغيرها من طعام الحاج ومعهم مجموعة من الجنود لحراستهم ، ويسير في مقدمة هذا الموكب هوادج وهي التي توضع على ظهور الإبل تركب فيها إما النساء أو الشخصيات المهمة البارزة في الدولة للحماية من الحر والبرد والمطر ، يعلوها قباب مزوينة بالدجاج المطرز بالذهب يقيم في أحدها أمير الحج.

ذكر الماوردي أن أمير الحاج ينظر في عشرة أشياء وهي:
الأول: جمع الناس في مسيرتهم ونزولهم حتى لا يتفرقوا.

الثاني: ترتيبهم في المسير والنزل وإعطاء كل طائفة (أي مجموعة) منهم قائداً حتى يعرف كل فريق قائده إذا سار ، ويألف مكانه إذا نزل فلا يتنازعون فيه ولا يضلون عنه.

الثالث: أن يرفق بهم في المسيرة حتى لا يعجز عنه ضعيفهم ولا يضل عنه منقطعهم.

الرابع: أن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها ويتجنب أجربها وأوعرها.

الخامس: أن يرتاد لهم المياه إذا انقطعت والمراعي إذا قلت.

السادس: أن يحرسهم إذا نزلوا ويحوظهم إذا رحلوا حتى لا يختلطهم ذاعر ولا يطمع فيهم متلصص.

السابع: أن يمنع عنهم ما يصددهم عن المسير ويدفع عنهم من يحصرهم عن

الحج ، بقتال إن قدر عليه أو ببذل المال إن أجاب الحجيج إليه.

الثامن: أن يصلح بين المتشاجرين ويتوسط بين المتنازعين ولا يتعرض للحكم

بينهم إجباراً إلا أن يفوض الحكم إليه فيعتبر فيه أن يكون من أهله

فيجوز حينئذ الحكم بينهم فإن دخلوا بلد فيه حاكم جاز له ، ولحاكم البلد

أن يحكم فأيهما حكم نفذ حكمه ولو أن التنازع بين الحجيج وأهل البلد لم

يحكم بينهم إلا حاكم البلد.

التاسع: أن يقوم زائفهم ويؤدب فانتهم ولا يتجاوز التعزير إلى الحد.

والعاشر: أن يراعي اتساع الوقت حتى يؤمن القوات ولا تلجنهم ضيقة

الوقت إلى الحث على المسير ، فإذا وصل إلى الميقات أمهلهم للإحرام

وإقامة سنته ، فإذا كان الوقت متسعاً عدا بهم إلى مكة ليخرجوا مع

أهلها إلى المواقف ، وإن كان الوقت ضيقاً عدل بهم عن مكة إلى عرفة

خوفاً من فواتها فيفوت الحج بها.

فمن أدرك الوقوف بها في شيء من هذا الزمان من ليل أو نهار فقد أدرك الحج

وإن فاتته الوقوف بها حتى طلع الفجر من يوم النحر فقد فاتته الحج ،

وعليه إتمام ما بقي من أركانه وجبرانه بدم ، وقضاؤه في العام المقبل

إن أمكنه وفيما بعده إن قدر عليه ، ولا يصير حجه عمرة بالفوات ، ولا

يتحلل بعد الفوات إلا بإحلال الحج ، فإذا قضى الناس حجهم أمهلهم لأيام

التي جرت بها لاعادة في إنجاز علائقهم ولا يرهقهم في الخروج فيضير

بهم ، فإذا عاد بهم سار على طريق المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول

صلى الله عليه وسلم ، ليجمع لهم بين حج بيت الله سبحانه وزيارة قبر

رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم رعاية لحرمة وقياماً بحقوق

طاعته ، ثم يكون في عودة بهم ملتزماً فيهم من الحقوق ما التزمه في

صدرهم ، حتى يصل بهم إلى البلد الذي سار بهم منه فتنقطع ولايته عنهم بالعودى إليهم.

ويقول نخلة المدور "ولما صارت الشمس على ارتفاع قامة ، وقد غصت بالناس المواقف

وضاقت بهم المساحات ، ضرب البوق إيذاناً بركوب الخليفة ثم لم يلبث أن أقبل مرتفعاً على فيل أبيض ، قد استرسل عليه الفضة في الحلية الثقيلة ، وهو جالس في هودج مزين بالأصداف اللامعة ، وعلى القبة أستار من الديباج يتخللها رسوم من الذهب ، وفي يده قضيب الخلافة ، وفي الأخرى الخاتم وعليه جبة وش من فوقها بردة خضراء للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهي غير البردة التي كانت لملوك بني أمية ، يلقونها على أكتافهم في جلوسهم وركوبهم لأنها فقدت بفقدان الخلافة منهم ، وكان قد اشتراها معاوية من آل زهير بن أبي سلمى بأربعين ألف درهم ، وإنما هذه البردة هي التي أعطاها النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الأبله لتبقى عندهم بركة فاشتراها أو جعفر بثلاثمائة دينار ، واتخذها في شعار الخلافة موضع البردة التي كانت عند الأمويين ، وأما لفيلة فإنه لم يسبق لأحد من ملوك العرب إلى اتخاذها في المواقب... وأنه إنما اتخذها له لما كان من تعظيم الملوك السالفة إياها واقتنائهم لها ، وإعدادها للحروب والزينة في الأعياد وغيرها إذا كانت أوطأ مراكب الملوك وأمهدا ، وكان يصحب أبا جعفر جماعة من الأمراء ورجال بيت الخلافة ، ووراءهم الإبل التي يطعنها حريمه وأهل بيته ، وفيهم موسى ابن المهدي حاجاً ومعهم حرس خاص بهم يحملون الرايات السود".

وقد سن الخليفة العباس المهدي سنة كسوة الكعبة في كل عام ، فإنه لما قدم مكة وزع كسوة الكعبة وظلى جدرانها بالمسك والعنبر ، وألبسها كسوة جديدة من الحرير إذ خاف أن تنهدم لكثرة من عليها من الكسي ، التي ألبسها هشام بن عبد الله الأموي ، فأصبح ذلك سنة أتبعها الخلفاء الذين جاءوا بعد المهدي هي سنة إلباس الكعبة كسوة جديدة كل عام ، وأما البلد الذي اختص بصناعة هذه الكسوة فهي مصر ومنذ ذلك الوقت لما تمتاز به الصناعة المصرية وخاصة في جانب الأقمشة من الدقة والرصانة والروعة فلذلك كان يكلف بها المصريون أو ولاية مصر لصناعة كسوة الكعبة المشرفة وأصبح هذا تقليد سنوي في موسم الحج تبدل الكسوة سنوياً وإلى الوقت الحاضر.

أما حياة بعض الوزراء والأمراء فهي كانت حياة بذخ وهذه الحالة أو الظاهرة ابتدأت مع العصر العباسي الأول حيث يعيش هؤلاء عيشة قوامها البذخ والإسراف فهذا يحيى بن خالد البرمكي قد بلغ من كرمه وجوده وبذخه وإسرافه وكذلك عطائه الذي أصبح بالوصف ، أنه كان إذا ركب أعد بدرأ (أي جرراً) في كل منها مائتا درهم ، يقومون بإعطائها للذين يقفون في طريقه أو يتلمسون سؤاله لقضاء حاجاتهم ، وقد كثر الوافدون على دار خالد بن برمك وكانوا قبل ذلك يسمون سؤالا ، فقال خال: : أي استقبح هذا الاسم لمثل هؤلاء وفيهم الأشراف والأكابر فسماهم الزوار ، وكان خالد أول من سماهم بذلك فقال له بعضهم والله لا أدري أي أياديك عندنا أجل ، أصلتنا أم تسميتنا ، ولهذا اشتهروا البرامكة كما أسلفنا هذه صورة من المواقب في عهد العباسيين والتي ملئها العز والقوة والشموخ العربي والإسلامي.

الخلاصة: أرجو أن أكون قد قدمت لكم كافة المعلومات اللازمة التي تفيدكم في فهم هذا الموضوع.

ملاحظات حول فتح العرب لإسبانيا

لا شك أن موضوع فتح العرب لإسبانيا ، موضوع مطروق ومعروف من قديم " وقد لاحظ ذلك الوزير الغرناطي لسان الدين ابن الخطيب (توفي سنة 776 هـ - 1374 م) حينما قال (1) " وحديث الفتح وما من " الله به على الإسلام من المنح " وأخيار ما أفاء الله من الخير على موسى بن نصير ، وكتب من جهاد لطارق بن زياد ، مملول قصاص وأوراق ، وحديث أفول وإشراق ، وإرعاد وإبراق ، وعظم امتشاش (2) ، وآلة معلقة في دكان قشاش ! (2) والواقع أنني لست الآن بصدد كتابة تاريخ لهذه الفترة ، وإنما هي مجرد ملاحظات عدت لي من خلال قراءاتها لكتب التاريخ التي أرسخت لهذا الفتح العربي الكبير وقد حصرت هذه الملاحظات في النقاط التالية : -
أولاً - نشأة البحرية العربية وأثرها في فتح المغرب والأندلس .
كان احتلال المسلمين الأوائل للشام طعنة نافذة في جسم الإمبراطورية البيزنطية شعارتها إلى شطرين : الإمبراطورية الأم في آسيا الصغرى وما وراءها ، ثم الولايات التابعة لها مثل مصر وإفريقية .
ولم يعد هناك ما يصل بين أجزاء هذه الإمبراطورية إلا البحر المتوسط ، ولهذا لعب هذا البحر دوراً هاماً في محاولة . إنقاذ الإمبراطورية على يد البيزنطيين ، وفي محاولة تصفيتيها على يد المسلمين (1) .

فكلا الفريقين ركب البحر ليعلو خصمه ، وكان النصر بعد ذلك حليف العرب ، لأن إرادة التغيير المنبثقة من روح الدين الجديد قد أشعرتهم بذاتهم التي كانوا غافلين عنها ، ودفعتهم إلى تلك الحركة التوسعية التي شملت الشام ومصر وإفريقية وما يليها غرباً كنتيجة حتمية اقتضتها طبيعة الحركة الإسلامية . ولم يلبث المسلمون منذ خلافة عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان ، أن وجدوا أنفسهم مطلين على البحر المتوسط من شواطئ طويلة تمتد من طرسوس شمالاً إلى برقة وتونس جنوباً " ويواجهون أعداء الداء مثل البيزنطيين الذين دأبوا على شن الغارات على هذه الشواطئ الإسلامية .

لهذا أدرك المسلمون قيمة البحرية كسلاح حربي مضاد ، فأخذوا في إنشاء دور الصناعة لبناء السفن الحربية في معظم المرافئ الممتدة على طول هذه الشواطئ مثل صور وعكا وطرابلس ودمياط ورشيد وتيس والاسكندرية ثم برقة وتونس .

كذلك لجأوا إلى تحصين السواحل بالقلاع والمراقب والمناور ، كما عمدوا إلى نقل أهالي البلاد الداخلية إلى هذه الجهات الساحلية ، ومنحوم فيها الإقطاعات الواسعة بقصد تشجيعهم على ركوب البحر من جهة ، وتعمير هذه البلاد وزيادة عدد سكانها من جهة أخرى .

فيروى البلاذري أن معاوية نقل قوماً من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور وعكا ، ونقل من أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك إلى أنطاكية ، كما نقل قوماً من زط البصرة إلى السواحل ؛ وأنزل بعضهم أنطاكية (1) .

كذلك يؤثر عن معاوية أنه اعتمد على القبائل الكلبية اليمنية في العمليات البحرية في الشام لما عرف عنها من طاعة وتنظيم ، ولأنها كانت تفوق منافسيهما من القبائل القيسية في هذا المضمار (1) . كذلك اعتمد على القبط المصريين الذين تخصصوا في سد ثغرات السفن واستخدام المسامير الحديدية في بنائها التي ثبت أنها أفضل بكثير من السفن التي تشد بالحبال (2) . ولقد سار الأمويون على نفس هذه السياسة عند تعمير سواحل إفريقية ، وفي هذا المعنى يروي البكري عند كلامه عن تأسيس مدينة تونس ، أن الخليفة عبد الملك بن مروان (79 هـ - 84 هـ / 668 - 703 م) كتب إلى أخيه عبد العزيز وإلى مصر ، أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطي بأهله وولده ، وأن يحملهم من مصر ويحسن عولهم حتى يصلوا إلى ترشيش وهي تونس . وكتب إلى حسان بن النعمان أمير المغرب يأمره أن يبني لهم دار صنعة تكون قوة وعدة المسلمين ، وأن يجعل على البربر جر الخشب لإنشاء المراكب ليكون ذلك جارياً عليهم إلى آخر الدهر ، وأن يصنع بها المراكب ويجاهد الروم في البر والبحر ،

وأن يغاروا منها على ساحل الروم . وقد نفذ حسان أوامر الخليفة وأنشأ هذه القاعدة الحربية الإسلامية الجديدة التي عرفت بميناء تونس والتي صارت تخرج منها أساطيل المغرب تحمل راية الإسلام في غرب البحر المتوسط ، وهكذا أصبحت إفريقية مركزاً بحرياً إلى جانب الشام ومصر (1) .

هذا ويفهم من كلام المؤرخين المعاصرين سواء أكانوا عرباً أو بيزنطيين ، أن سياسة التوسع العربية التي قام بها الأمويون في شمال أفريقيا ، كانت تهدف في أساسها إلى غزو صقلية وجنوب إيطاليا وسواحل البحر الإدرياتي ودالمسيا ، أو بعبارة أخرى غزو الإمبراطورية البيزنطية من ناحية الغرب إلى جانب الحملات التي كانت سائدة عليها من ناحية الشام وآسيا الصغرى من جهة الشرق ، لكي يتم للمسلمين بذلك تطويق القسطنطينية وخنقها .

ويبدو أن أباطرة البيزنطيين قد أدركوا أهداف السياسة العربية بدليل أنهم بذلوا مجهودات لحماية هذه الأجزاء الغربية من الإمبراطورية لدرجة أن بعضهم مثل الإمبراطور قسطنطين الثاني خليفة هرقل ، اضطر إلى اتخاذ خطوة جريئة لم تتخذ من قبل وهي ترك عاصمته القسطنطينية سنة 42هـ سنة 662م والإقامة في روما وصقلية كي يعمل على تقوية وسائل الدفاع عن هذه الأجزاء الغربية من الإمبراطورية في حوض البحر المتوسط ، أو كما يقول هو نفسه لحماية الأم قبل حماية البنت ، ويعني بذلك حماية روما أم الملك ومركزه ، فهي أعظم من القسطنطينية بطبيعة الحال . وظل هذا الإمبراطور يعمل على مقاومة الخطر العربي إلى أن اغتيل بيد أحد قواده في مدينة سرقوسة شرقي صقلية سنة 668

م .

وخلفه ابن قسطنطين الرابع الذي سار على نفس سياسة والده في مقاومة غارات الأساطيل العربية (1) .

ولقد أدرك المؤرخون المسلمون هذه الحقيقة الهامة ، وأشاروا إليها في كتبهم ، ومثال ذلك قول ابن الأثير في كلامه من جزيرة صقلية : ، وعمرها الروم من جميع الجهات ، وعمرها فيها الحصون والمعازل ، وصاروا يخرجون كل عام مراكب تطوف بالجزيرة وتذب عنها وربما صادفوا تجاراً من المسلمين فيأخذونهم .

ثم يضيف في موضع آخر : " وكان الروم قد حصنوها وأنشأوا فيها أسطولاً كانوا يهاجمون به مراكب المسلمين وقطع البحر عنه (2) ، على أن هذه الاستعدادات الحربية العظيمة التي قام بها البيزنطيون في ممتلكاتهم الغربية وفي جزيرة صقلية بوجه خاص لم تحل دون تصميم المسلمين على غزوها وغزو غيرها من جزر الحوض الغربي للبحر المتوسط : فيروي ابن الخطيب أن أول من غزا جزيرة صقلية من أمراء إفريقية الموجهين إليها من قبل الخليفة

عثمان رضي الله عنه ثم معاوية بعده ، الأمير معاوية بين حديج الكندي سنة خمس وثلاثين أو سنة أربع قبلها ثم بعث إليها معاوية ، رحمه الله ، عبد الله بن قيس الفزاري ، ففتحها وغنم وأصاب فيها أصناماً من ذهب وفضة مكللة بالجواهر ، فحملت إلى معاوية بن أبي سفيان فرأى أن بيعها قائمة أكثر ثمنها فبعثها إلى الهند فأكر الناس عليه ذلك إنكاراً شديداً (1) .

كذلك يروي ابن عذاري رواية غريبة تفيد بأن الأندلس دخلها عبد الله بن نافع بن عبد القيس ، وعبد الله بن الحصين ، الفهريان ، من جهة البحر في زمن عثمان وأن ذلك كان سنة 27 هـ . وهذه الرواية - " إن صحت " - فإنها تدل على قوة البحرية الإسلامية في هذه الفترة المبكرة (2) .

على أن الذي يهمننا في هذا الصدد ، هو أنه لما تولى التابعي المشهور موسى بن نصير إمارة إفريقية سنة 85 هـ " تبنى مشروع غزو صقلية وما يليها غرباً من جزر الأعداء في حوض البحر المتوسط فاهتم موسى في بادئ الأمر بتحديد وتوسيع دار الصناعة بتونس التي أسسها حسان بن النعمان من قبل كما أمر بصناعة مائة مركب فيها (1) ثم أخذ يوجه حملات بحرية بعيدة المدى إلى صقلية وسردانية والجزر الشرقية أو جزر إيليا - (ميورقة ومينورقة ويابة) . ويفهم من كلام ابن قتيبة أن موسى وجه حملتين إلى صقلية : الأولى كانت سنة 85 هـ سنة (704 م) ، وفيها أمر الناس بالتأهب لركوب البحر وأعلمهم أنه راكب فيه بنفسه فرغب الناس وتسارعوا ، ثم شحن فلم يبق أحد إلا أن يرفع ، ديا برمح فعقد له ولده عبد الله بن موسى بن نصير وولاه عليهم ، وأمره ثم أثمره أن يرفع من ساعته . وإنما أراد موسى مما أشار من مسيره أن يركب أهل الجلد والنكاية والشرف ، فسقيت غزوة الإشراف . ثم سار عبد الله بن موسى في مراكبه فأصاب في غزوته تلك صقلية ، فافتتح مدينة فيها فأصاب ما لا يدري ، فبلغ سهم الرجل مائة دينار ذهباً ، وكان المسلمون ما بين الألف إلى التسعمائة ثم انصرف قافلاً سالماً (2) .

أما الحملة الثانية على صقلية فكانت في سنة 86 هـ (705 م) ، عقد موسى قياداتها لصاحب شرطته هياش بن أخيل الذي أغار على مدينة سرقوسة فغنمها وجميع ما بها وقفل سالماً غانماً . (1)

أما عن حملة موسى على جزيرة سردانية فيجعلها ابن قتيبة في سنة 89 هـ (807 م) ثم يقول : " وقام عبد الله بن مرة بطالعة أهل مصر على موسى في تسع وثمانين ، فعقد له موسى على بحر إفريقية فأصاب سردانية وافتتح مدائنها " فبلغ سببها ثلاثة آلاف رأس سوى الذهب والفضة والحرث وغيره (2) .

أما عن حملته موسى على الجزر الشرقية أو جزر البليار ، فروايات المؤرخين تشير إلى أنها كانت في نفس تلك السنة (89 هـ) وأنها كانت بقيادة موسى بن نصير نفسه أو ابنه عبد الله ثم عادت إفريقية محملة بالغنائم والأسرى .
ويبدو أن حاكم أو ملك جزيرة ميورقة البيزنطي كان من هؤلاء الأسرى بدليل أن المراجع التي تحدثت عن عودة موسى إلى المشرق أشارت إلى أن موسى اصطحب معه في هذه الرحلة ملك ميورقة وعشرين ملكاً من ملوك جزائر الروم ومائة من ملوك الأندلس . . . الخ . (1)

هذا ويضيف ابن قتيبة أن والي مصر عبد العزيز بن مروان ، وجه حملة بحرية إلى جزيرة سرديانية بقيادة عطاء بن نافع الهذلي (7) ، فأرسل في طريقه بميناء سوسة وأخرج إليه موسى الأسواق ، وكتب إليه : " إن ركوب البحر قد فات في هذا الوقت وفي هذا العام ، فأقم ولا تغزو بنفسك فإنك في تشرين الآخر (نوفمبر) ، فأقم بمكانك حتى يطيب ركوب البحر . غير أن عطاء لم يلتفت إلى نصيحة موسى ، وأبحر في مراكبه إلى الجزيرة المذكورة ، وأصاب فيها مغام كثيرة وأشياء عظيمة ثم انصرف قافلاً فأصابته ريح عاصف قرب شواطئ إفريقية ، وغرق عطاء وأصحابه ، وقذفت الأمواج بعض المراكب ، ومن نجا من البحارة ، فأدخلهم دار الصناعة بتونس (3) .

وعلى الرغم من أن المراجع المعاصرة لم تحدد لنا الوضع السياسي الذي كانت عليه كل من جزيرة سرديانية وجزر البليار في القرنين السابع والثامن الميلاديين ، إلا أن أغلب المؤرخين الأوروبيين يؤكدون بأنها لم تابعة لحكم القوط في إسبانيا ، وإنما كانت جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية ، وأن حكام هذه الجزر استطاعوا بمرور الوقت أن يتمتعوا بشيء الاستقلال الذاتي (1) .
ولعل هذا الرأي يفسر لنا مدى اهتمام المسلمين بمثل هذه الغارات البحرية ، التي كان هدفها الأساسي منذ البداية ، هو تصفية ممتلكات وقواعد الدولة البيزنطية في حوض البحر المتوسط قبل المضي في غزو إسبانيا .

وكيفما كان الأمر ، فإن النصوص السابقة تبين لنا بوضوح أن موسى بن نصير لم يكن قائداً برياً فحسب ، بل كان أيضاً قائداً بحرياً خبيراً بشئون البحر وأجوائه وتقلباته ، وأن نفوذه في حوض البحر المتوسط كان قوياً بفضل أساطيله وقواعده البحرية التي امتدت من مصر شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، هذا فضلاً عما كان يوجد تحت يده من الموارد اللازمة لبناء السفن ، كالحديد والأخشاب التي ما زالت توجد بكثرة كموارد طبيعية في بلاد المغرب .
ومن هذا نرى أن موسى بن نصير كان لديه من الإمكانيات ما يجعله يفكر في غزو روما أو القسطنطينية ، إما عبر صقلية وإيطاليا ، كما فعل حديثاً القائد الإنجليزي ، مونجمري في الحرب العالمية الثانية ، وإما عبر إسبانيا وأوروبا

كما فعل قديماً القائد القرطاجني هانيبال . وقد يؤيد ذلك تلك التصريحات التي أدلى بها موسى فيما بعد ، مثل قوله " أما والله لو تفادوا غليه " لقدتهم إلى روسيا ثم بفتحها الله على يدي إنشاء الله . " (1) وقوله : " تالله لو ساعدتموني ، لسرت بكم حتى أقف على باب رومة وقسطنطينية العظمى وافتتحها بإذن الله . " (2)

ومن الطريف أن بعض المؤرخين أمثال ابن بشكوال وابن سعيد والمقري نسبوا إلى الخليفة عثمان بن عفان تصريحاً مماثلاً يقول فيه بأن فتح القسطنطينية أو رومية إنما يكون من قبل الأندلس (3) .

وهذا التصريح وإن كان يبدو سابقاً لأوانه من الناحية الزمنية ، إلا أنه يدل على أن فكرة القضاء على الدولة البيزنطية من هذه الجهات الغربية كانت مختصرة في أذهان المسلمين قبل عهد موسى بن نصير كما سبق أن أشرنا . وكيفما كان الأمر ، فإنه يتضح لنا مما تقدم أن موسى قد استطاع بفضل قوته البحرية ، أن يشل حركة الأسطول البيزنطي في غرب حوض البحر المتوسط ، وأن يتجنب بذلك الخطأ الذي وقع فيه عقبه بن نافع منذ عشرين سنة بالحصول على أسطول مماثل ليحمي ظهره وجناحه مما أدى إلى مصرعه (1) . وهكذا استطاع موسى بفضل سياسته البحرية الحكيمة أن يقدم بكل اطمئنان على فتح أسبانيا بعد أن ضمن سلامة خطوط مواصلاته من خطر البيزنطيين .

ثانياً - التخطيط تفتح أسبانيا :

إذا تصفحنا كتب التاريخ التي تناولت الفتوحات العربية ، نلاحظ أنها أحاطت هذه الفتوح بهالة من الخيال والتبؤات ، ونسبت إلى المسلمين وقوادهم أعمالاً خارقة للبشر ، لأن العناية الإلهية كانت معهم تنقذهم وترعاهم رغم قلتهم ، وتقودهم إلى النصر دائماً كما لو كان الأمر يتعلق بمعجزة من المعجزات (2) . والحقيقة إن هذه الصورة ، لا تنطبق على الواقع التاريخي ، لأن القيادة العليا للمسلمين كانت حريصة كل الحرص على سلامة أرواح جنودها ، فلم تقدم على أي عمل حربي ، إلا بعد دراسة شاملة وتدبير محكم ووضع الخطط العسكرية الدقيقة المناسبة لجميع احتمالات النصر أو الهزيمة ، حفظاً لأرواح المسلمين . وكما كان فتح مصر على يد عمرو بن العاص ، نتيجة لخطة موضوعة أقرها الخليفة عمر بن الخطاب مع كبار قواده في اجتماع الجابية سنة 18 هـ ، كذلك كان فتح المسلمين لأسبانيا نتيجة لخطة موضوعة أيضاً ، أقرها الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بدمشق ، باتفاق مع قائده على المغرب موسى بن نصير . وفي ذلك يقول عريب بن مسعد : " فاستشار موسى الوليد بن عبد الملك إما مراسلة وإما نهض إليه بنفسه ، على خلاف في ذلك ، فأشار عليه الوليد بأن يختبرها بالسرايا ولا يغرر بالمسلمين " .

وتنفيذا لأوامر الخليفة ، قام موسى بعدة غارات استكشافية على جنوب أسبانيا لجس النبض ، فاستدعى في بادئ الأمر حليفة ومحرضه على غزو أسبانيا الكونت يوليان حاكم منطقة سبته وقال له : " إننا لا نشك في قولك ولا نرتاب ، غير أننا نخاف على المسلمين من بلاد لا يعرفونها ، وبيننا وبينها البحر ، وبينك وبين ملكك رودريق حمية الجاهلية وإنفاق الدين ، فجز إليه بنفسك وشن الغارة على بلاده ، واقطع ما بينك وبينه ، وإذ ذاك تطيب النفس عليك ، ونحن من ورائك إن شاء الله . فانصرف يوليان وحشد جيوشه ، وجاز في مركبين إلى الأندلس ، وشن الغارة على الساحل الجنوبي ، فسبا وقتل وغنم ورجع وقد امتلأت أيديهم خيراً ، وشاع الخبر في كل قطر فتحمس الناس للغزو (1) .

ولك يكتف موسى بهذه الغارة الاستطلاعية التي قام بها يوليان ، بل استدعى ضابطاً من ضباطه يدعى طريف بن مالك أو ملوك ويكنى بأبي زرعة (2) ، وأمره بشن الغازي على ساحل إسبانيا الجنوبي ، فعبر طريف المضيق في مائة فارس وأربعمائة راجل ، وذلك في رمضان سنة 91 هـ (يولييه سنة 70 م) ، وهناك في المكان المعروف باسمه حتى اليوم **tarifa** ، نزل طريف وجنوده وأغاروا على المناطق التي تليها إلى جهة الجزيرة الخضراء وأصاب سبباً ومالاً كثيراً ورجع سالماً (3) ، فتبين لموسى أن ما قاله يوليان عن ضعف المقاومة الإسبانية كان صحيحاً ، فبعد جيشاً كبيراً من سبعة آلاف محارب لغزو الأندلس ، بقيادة قائده طارق بن زياد (1) نائبه على طنجة .

من هذا نرى أن فتح المسلمين لأسبانيا ، لم يكن منذ البداية مغامرة حربية ارتجالية ، بل كان فتحاً منظماً حسب خطة موضوعة من قبل .

ثالثاً - عبور المسلمين إلى أسبانيا :

من المسائل الهامة التي نلاحظها في كتابات المؤرخين القدامى والمحدثين ، هي مسألة عبور جيوش المسلمين إلى أسبانيا . إذ يفهم من كلامهم أن الجيوش الإسلامية التي بعث بها موسى بن نصير إلى الأندلس سواء بقيادة طريف أو طارق ، كانت جيوشاً برية فقط ، وأن موسى اعتمد في نقلها عبر المضيق إما على مراكب للكونت يوليان (2) ، وإما على مراكب تجار الروم التي كانت تختلف إلى الأندلس (1) ، وأن الكونت يوليان هو الذي تولى عملية نقلهم في كلتا الحالتين . والواقع أن هذه الروايات تبدو غريبة من حيث الواقع التاريخي ، إذ أنها لا تتفق مع سياسة الدولة الأموية بوجه عام . ولا مع سياسة الخليفة الوليد بن عبد الملك بوجه خاص ، التي تقوم على قدم المغامرة بأرواح المسلمين في البحر أو البر إلا بعد اتخاذ الاحتياطات الحربية التي تكفل سلامتهم ، مثل إنشاء القواعد وبناء الأساطيل البحرية وإرسال البعث والسرايا قبل القيام بجهوم حربي .

والأحداث التاريخية السابقة لهذا الغزو الإسلامي لأسبانيا تشهد بصواب هذا الرأي ، خصوصاً بعد أن تبين لنا مدى إمكانيات موسى بن نصير وخبرته وبلائه في حوض البحر المتوسط .

والرأي الصائب في نظرنا هو أن موسى اعتد في فتح أسبانيا على أساطيله العربية التي كانت تحت قيادته ورهن إشارته على طول الساحل المغربي ، إذ لا يعقل أن تكونه أربع سفن فقط كافية لنقل جيش كبير عدته على أقل تقدير سبعة آلاف (2) محارب عدا الخيل والعباد . كما أنه لا يعقل كذلك أن يعهد موسى إلى شخص أجنبي - مهما خلصت نيته - بمثل هذه العملية الحربية الخطيرة التي تتوقف عليها سلامة أرواح آلاف من المسلمين .

وعلى الرغم من أن النصوص التي لدينا لا تساعدنا للأسف في تدعيم هذا الرأي ، إلا أنها مع ذلك تعطينا إشارات متفرقة تعبر عن النشاط البحري الذي بذله كل من موسى وطارق استعداداً لفتح أسبانيا . ومن أمثلة هذه العبارات :

" ووجه موسى بن نصير مولاه طارقاً إلى تلمسان وأمره أن يتعاهد سواحل البحر ومراسيه (1) " " وذكروا أن موسى بن نصير وجه طارقاً مولاه إلى طنجة وما هنالك فافتتح مدائن البربر وقلاعها ثم كتب إلى موسى إنني قد أصبت ست سفائن ، فكتب إليه موسى أن أتمها سبعاً ثم سيرها إلى شاطئ البحر واستعد لشحنها (2) " . . " ومضي طارق لسيته وجاز في مراكبه (كذا) إلى جبل فأرسى فيه فسمي جبل طارق باسمه إلى الآن (3) " وأمر موسى طارقاً بالدخول فحشد (بياض ولعله السفن) فلما دخل السفن مع أصحابه . . . (4) " فاختلفت السفن بالرجال والخيل وضمهم إلى جبل على شط البحر منيع فنزله طارق والمراكب تختلف . . . (1) " فلما استقرت لموسى القواعد ولم يبق بالبلاد من ينازعه ، كتب إلى طارق يأمره بغزو الأندلسي ، فامتثل طارق أمره ، وركب البحر إلى الجزيرة الخضراء (2) ، هذه العبارات وأمثالها وإن كانت قد وردت متناثرة في روايات مختلفة ، إلا أنها تحمل في طياتها نشاطاً واستعداداً بحرياً واعتماداً على القوى البحرية الذاتية في سبيل تحقيق هذا الفتح العظيم .

رابعاً - معركة جبل طارق

من الملاحظات الهامة التي تأخذها على الرواية الإسلامية بصفة عامة ، أنها لم تهتم بوصف عمليات نزول المسلمين بقيادة طارق بن زياد على الساحل الأسباني ، فقد أجمع معظمها وفي اختصار شديد على أن طارق قد حط في الجبل المنسوب إليه دون أن يلقي مقاومة تذكر . وهذه الرواية تحتاج إلى شيء من التفكير لأن هذا الجبل موقعاً استراتيجياً هاماً منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا ، فهو همزة الوصل بين عدوتي المغرب والأندلس ، والمتحكم في مضيق المجاز ضد أي عدوان على أسبانيا من هذه الناحية الجنوبية. ولقد أدرك

الفينيقيون من قديم أهمية هذا الموقع حينما احتلوا شواطئ عدوتي المغرب والأندلس ، فأقاموا على هذا الجبل أبراجاً للمراقبين ، ولم يسمحوا لأي دولة أخرى مشاركتهم في استغلال تلك المناطق الغربية ، وحددوا الساحل الشرقي الأسباني كأقصى حد يمكن الوصول إليه ، ولم يترددوا في إغراق كل سفينة تحاول عبور المضيق (1 non plus ultra) .

وأطلقوا على هذا الجبل اسم **mons calpe** وهي تسمية فينيقية بمعنى الجبل المجوف ، وهم يعينون بذلك تلك المغارة الكبيرة التي فيه ، والتي سماها الأسبان باسم القديس ميخائيل **san Miguel** ، كما يسميها الإنجليز مغارة القديس جورج **saint george** ، وقد أشار الحميري إلى هذا الغار وقال إنه كان يعرف بغار " الأقدام " لوجود آثار أقدام فيه (2) .

ولقد تداول حكم إسبانيا بعد الفينيقيين ، أبناؤهم القرطاجنيون ثم بعد ذلك الرومان ثم القوط ، فحرصوا جميعاً على بسط سيطرتهم على مضيق المجاز ، واتخذوا من جبل طارق قاعة حربية لهذا الغرض : ولا شك أن القوط في أواخر أيامهم كانوا على علم تام بمدى قوة المسلمين في الجانب المغربي المقابل لهم ، بل وربما كانوا على علم بنواياهم وخططهم المقبلة ، لأن مضيق المجاز الذي يفصل بينهما ، ذراع ضيق من الماء يبلغ عرضه في أضيق جهاته حوالي 15 كم ، وهي مسافة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكري بين الشاطئين المغربي والأسباني ، يضاف إلى ذلك أن الغارات التي شنها كل من يوليان وطريف على سواحل أسبانيا الجنوبية ، كانت بمثابة إنذار صريح للقوط كي يأخذوا حذرهم من أي هجوم يقع عليهم من هذه الناحية ، فلا يعقل بعد ذلك أن يغفل القوط - مهما بلغ ضعفهم - هذه القاعدة الاستراتيجية الهامة بدون حراسة أو مراقبة ؟ ! وهذا جعلنا على يقين من أن نزول المسلمين في هذا الجبل لم يتم بمثل هذه السهولة التي تصورها كتب التاريخ ولقد صدق حدسنا حينما وقفنا أخيراً على نص يؤيد هذا الاعتقاد .

وقد ورد هذا النص في كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، للمؤرخ التونسي أبي مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزري ، الذي عاش في أواخر القرن السادس الهجري ، وفيه يصف عمليات نزول المسلمين بقيادة طارق عند سفح هذا الجبل ، والمقاومة التي أبداها العدو ليحول دون نزول المسلمين هناك ، ثم حركة الالتفاف البارعة التي قام بها طارق وجنوده أثناء الليل حول العدو المرابط في الجبل ، والانقضاض عليه فجأة وإبادته عن آخره . وفي ذلك يقول : " فمضى طارق لسبته وجزاز في مراكبه إلى جبل فأرشى فيه ، فسمى جبل طارق باسمه إلى الآن ، وذلك سنة اثنتين وتسعين من الهجرة ، ووجد بعض الروم وقوفاً في موضع وطئ كان عزم على النزول فيه إلى ، البر فمنعوه منه ،

فعدل عنه ليلاً إلى موضع وعر ، فوطأه بالمجاذف وبراذع الدواب ، ونزل عنه في البر وهم لا يعلمون ، فشن غارة عليهم وأوقع بهم وغنمهم (1) .
هذا الوصف يذكرنا بعمليات الغزو الحديثة رغم اختلاف الوسائل والعصور ، كما أنه يدل بوضوح على عظم المقاومة التي لقيها المسلمون منذ بدء نزولهم في أرض أسبانيا لدرجة أنهم اضطروا إلى تغيير خططهم العسكرية التي كانت مقررة من قبل ، والنزول ليلاً في مكان آخر صخري وعر ، مستخدمين في ذلك برازع الدواب ومجاذف السفن كي تعينهم على خوض المياه وارتقاء الصخور بغية الالتفاف حول العدو والانقضاض عليه قبل أن يشعر بهم .

ولا شك أن هذا الانتصار الأول الذي أحرزه طارق عند نزوله ، قد مكّنه من احتلال هذا الجبل الذي حمل اسمه بعد ذلك عن جدارة واستحقاق .

هذا وتنبغي الإشارة هنا إلى أن المؤرخ المغربي ابن عذاري ، الذي عاش بعد ذلك في أواخر القرن السابع الهجري ، قد أورد بعض عبارات النص السابق ، ولكن دون أن يشير إلى هذه المعركة التي خاضها طارق مع القوط في سبيل احتلال هذا الجبل ، وفي ذلك يقول :

" وأول فتوحاته جبل الفتح المسمى بجبل طارق ، وذلك لما جاز المسلمون ونزلوا في المرسي وهم عرب وبربر ، حاولوا الطلوع في الجبل هو حجارة حرش ، فوطأوا للدواب بالبراذع ، وطلعوا عليها ، فلما حصلوا في الجبل بنوا سوراً على أنفسهم يسمى سور العرب (1) .

خامساً : حرق المراكب وخطبة طارق :

بقيت بعد ذلك تلك القصة الشائبة التي تقول بأن طارق بن زياد قد أحرق سفنه بعد نزوله للشاطئ الإسباني ، كي يقطع على جنوده أي تفكير في التراجع أو الارتداد ، ثم خطب فيهم خطبته الشهيرة الطويلة التي يقول في مطلعها : " أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللثام . . . الخ .

والرواية الإسلامية التي تشير إلى حادثة حرق السفن لم ترد - فيما أعلم - إلا في ثلاثة مراجع أحدها كتاب الأكتفا لابن الكردبوس ، والثاني كتاب نزهة المشتاق الشريف الأدريسي والثالث كتاب الروض المعطار للحميري .

فابن الكردبوس بعد أن يصف المعركة التي خاضها طارق لاحتلال هذا الجبل الذي سمي باسمه ، يقول في اختصار شديد : " ثم رحل طارق إلى قرطبة بعد أن أحرق المراكب وقال لأصحابه : قاتلوا أو موتوا " (1) .

أما الأدريسي فإنه يقول في شيء من التفصيل : " وإنما سمي بجبل طارق لأن طارق بن عبد الله بن ونمو الزناني ، لما جاز بمن معه من البرابر ، وتحصنوا

بهذا الجبل ، أحس في نفسه أن العرب لا تثق به ، فأراد أن يزيح ذلك عنه ، فأمر بإحراق المراكب التي جاز فتبراً بذلك عما اتهم به (1) .

ويكرر صاحب الروض المعطار رواية الإدريسي مع اختلاف بسيط ولكنه هام فيقول : " وإنما سمي بجبل طارق لأن طارق بن عبد الله لما جاز بالبربر الذين معه ، تحصن بهذا الجبل ، وقدر أن العرب لا ينزلونه فأراد أن ينفي عن نفسه التهمة فأمر بإحراق المراكب التي جاز فيها ، فتبراً بذلك مما اتهم به (2) .

ويفهم من رواية ابن الكردبوس ، أن طارق أراد بحرق سفنه أن يشد هم المقاتلة . أما الإدريسي والحميري ، فإنه يفهم من كلامها أن طارقاً أحس بأن العرب لا تثق به ، وقدر أنهم قد لا ينزلون معه إلى الجبل ، وهذا يعني أن خلافاً وقع بين طارق وبين جنوده العرب الذين يعملون تحن قيادته ، فعمد إلى إغراق سفنه كي يحول دون انسحابهم بها إلى المغرب ، فيتخلص بذلك من التهم التي يوجهونها عنده عند القائد الأعلى موسى بن نصير . وكيفما كان الأمر ، فإن جمهرة المؤرخين المحدثين يميلون إلى إنكار صحة هذه الرواية من أساسها كحدث تاريخي . إلا أننا في الواقع لا نستطيع نفيها أو إثباتها ، خصوصاً وأن هناك روايات مشابهة وردت في كتب التاريخ قديماً (1) وحديثاً تشير إلى وقوع أحداثاً مماثلة ، ولعل أقرب مثال لذلك هو تلك القصة التي يرويها أبو بكر المالكي من أن فاتح جزيرة صقلية المشهور أسد بن الفرات (212 هـ / 827 م) ، أراد هو الآخر حرق مراكبه حيثما ثار عليه بعض جنوده وقواده ، وطالبوه بالانسحاب من الجزيرة والعودة إلى القيروان ، بسبب المجاعة التي حاقت بهم . وفي ذلك يقول : إن أسد بن الفرات وابن قادم قد اختلفا ، وذلك أن أسد لما وصل بالناس في صقلية ، أضر بالناس الجوع حتى أكلوا لحكم الخيل ، فمتى الناس إلى ابن قادم فمضى إلى أسد وقال له : " ارجع بنا إلى إفريقية ، فإن حياة رجل مسلم أحب إلينا من أهل الشرك كلهم ، فقال له أسد : " ما كنت لأكسر غزوة على المسلمين وفي المسلمين خير كثير . " ، فأبى عليه الناس ذلك ، فأراد حرق المراكب ، فبدرت من ابن قادم كلمة سيئة ، فقال أسد : " على أقل من هذا القتل عثمان بن عفان ، ثم تناوله أسد وضربه ثلاثة أو أربعة أسواط ، وكأنه قد ضرب فيه دعوة التردد والهزيمة ، فتم له ما أراد وعادت العزيمة إلى الأنفس ، فقاتل الروم قتالاً شديداً حتى قتلهم وهزمهم (1) .

وهناك قصة مماثلة يقدمها لنا التاريخ الأسباني وبطلها هو القائد أرفان كورتس hernan cortes الذي فتح المكسيك سنة 1519 م ، فيروي أن هذا القائد الأسباني اكتشف مؤامرة دبرها جماعة من قواده للهرب بالسفن إلى أسبانيا ، عندئذ أمر كورتس بإنزال الجنود والأمتعة إلى الشاطئ الأمريكي ، ثم دس من خرق السفن وأغرقها ليلاً كي يحول دون تنفيذ هذه المؤامرة (2) .

وهذه الرواية تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن قصة حرق المراكب - إن صحت - كانت شائعة ومعروفة في أسبانيا لدرجة أن بعض القادة الأسبان قد تأثروا بها وحاولوا تطبيقها في بعض أعمالهم الحربية .

هذا ومن الطريق أن الأسبان ما زالوا يستعملون مثلاً شعبياً يقول :

He quemado todos mis naves .

ومعناه الحرفي أحرقت جميع سفني ، ولكنه يستعمل بمعنى بذلت كل ما في

وسعي . فهل لهذا التعبير الشعبي علاقة بحرق السفن أيضاً ؟

أما من ناحية الخطبة التي ألغاها طارق على جنوده فقد ، وردت في عدة مراجع مثل تاريخ عبد الملك بن حبيب (1) ، وكتاب نفح الطيب للقرى (2) ، وكتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة الدينوري (3) ، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان (4) . أما عامة المراجع الإسلامية فإنها تمر عليها بالصمت التام باستثناء عبارة ابن الكردبوس التي تلخص الخطبة في كلمتين فقط : " فأتوا أو موتوا (5) " .

ولقد شك معظم المؤرخين المحدثين في نسبة هذه الخطبة إلى طارق ، على اعتبار أنها قطعة أدبية فريدة لا يقدر طارق على صياغتها ، كما لا يقدر جنوده على فهمها لأنهم جميعاً - القائد وجنوده - من البربر .

على أن هذا التعليل وإن كان يبدو منطقياً ومعقولاً ، إلا أنه لا يمنع من أن طارقاً قد خطب جنده على عادة القواد والقاتحين في مختلف العصور . وإن كنا نعتقد في هذه الحالة ، أن الخطبة لم تكن باللغة العربية ، إنما كانت باللسان البربري أو الغربي - كما يسميه المؤرخون القدامى .

ثم جاء كتاب العرب بعد ذلك ، فنقلوها إلى العربية في شيء كثير من الخيال والإضافة والتغيير على عاداتهم . وقد يؤيد ذلك أن هناك خطباً كثيرة من هذا النوع قيلت في هذه المناسبات ، فأين صاحب الصلاة يشير إلى الخطب التي ألقاها الشيخ المرادي أو محمد عبد الواحد بن عمر في الجنود باللسان العربي تارة وباللسان الغربي تارة أخرى يحرضهم على قتال النصارى (1) . ويشير ابن الخطيب إلى شاعر المرينيين أبي فارس عزوز (ت 697) الذي خلط المعترب باللسان الزناتي في مخاطباتهم (2) . كذلك يشير المؤرخون إلى الكتب العديد التي ألفها المهدي بن تومرت بالعربية والبربرية ، لإفهام الناس تعاليمه ومذهبه ، مثل كتب الإمامة والقواعد والتوحيد (3) .

ولا زالت هذه العادة متبعة إلى اليوم في بلاد المغرب . فالخطب والأخبار ما زالت تذاع بالراديو بالعربية والبربرية التي تنقسم بدورها إلى لهجات متعددة مثل الشلحة وتمازرت والزناتية ..

ومن هذا نرى أنه ليس بعيداً بالمرة أن يكون طارق قد خطب جنوده البربر بلسانهم الغربي ، إذ أنه من غير المعقول أن يخاطبوا في ساحات الوغي وفي مقام الجد بلغة لم يتعلموها أو يفهموها ، فسكان استعمال اللسان البربري في هذا الموقف ضرورة لإحراز التأثير المطلوب والفائدة العاجلة .

سادساً - وقعة شذوقة :

أقام طارق بن زياد في جبل طارق عدة أيام ، بني خلالها سوراً أحاط بجيوشه سماء سور العرب (1) . كما أعد قاعدة عسكرية بجوار الجبل على الساحل لحماية ظهره في حالة الانسحاب أو الهزيمة ، وهي مدينة الجزيرة الخضراء **algeciras** التي سميت أيضاً بجزيرة أم حكيم ، على اسم جارية لطارق كان قد حملها معه عند الغزو ، ثم تركها في هذه البلدة فنسبت إليها .

ويلاحظ أن موقع هذه الميناء قريب وسهل الاتصال بمدينة سبتة على الساحل المغربي المقابل ، بينما يصعب اتصاله بأسبانيا ذاتها لوجود مرتفعات بينهما ، وهذا ما يدل على حسن اختيار طارق لهذا الموقع الاستراتيجي . كذلك أقام قاعدة أمامية أخرى في مدينة طريف بقيادة طريف بن مالك .

وفي ذلك يقول ابن خلدون : " فصيرهما عسكريين : أحدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح فسمى جبل طارق ، والآخر على طريق بن مالك النخعي ، ونزل بمكان مدينة طريف فسمى به ، وأداروا الأسوار على أنفسهم التحصن (1) " .

وعلم ملك أسبانيا القوطي وذريق **Rodrigo** خبر نزول المسلمين في بلاده ، وكان وقتئذ مشغولاً في إخماد ثورة قام بها البشكنس **vascos** سكان نافارا في أقصى شمال أسبانيا . ومن المحتمل جداً - كما يقول - سافدا **saavadra** أن تكون هذه الثورة مفتعلة وبياعاز من أعداء الملك لشغل أنظاره عن عمليات نزول المسلمين في أسبانيا .

وكيفما كان الأمر ، فقد أسرع الملك القوطي بالعودة جنوباً بجميع قواته ومعداته وأمواله لملاقاة المسلمين .

وفي خلال ذلك الوقت كان طارق قد زحف نحو الغرب ، متخذاً من المرتفعات الجنوبية الساحلية حامياً له من هذه الناحية الجنوبية ، كما اتخذ من بلدة طريف قاعدة يحمي بها مؤخرة جيشه ، ثم واصل زحفه حتى بلغ بحيرة تعرف باسم لاخندا **laguna de la janda** في كورة شذونة **sidonia** .

وهكذا نجد أن طارقاً قد اختار مكاناً مناسباً لجيوشه في هذه المعركة ، فقد جعل منطقة البحيرة أو المستنقعات حاجزاً بينه وبين القوط من ناحية ، كما ترك الطريق بينه وبين الجزيرة الخضراء مفتوحاً لينسحب منه إذا اضطرت الظروف إلى ذلك من ناحية أخرى .

ثم علم طارق من جواسيسه بأنباء الحشود الضخمة التي حشدها له ملك أسبانيا ، فانزعج طارق لهذا الخبر ، وقد عبر المؤرخون عن هذا الانزعاج بعبارات مختلفة مثل قول ابن قتيبة : " وكتب طارق إلى مولاه موسى : إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية فالغوث الغوث ! (1) ، وفي هذا المعنى أيضاً يقول صاحب كتاب أخبار مجموعة : " وكتب طارق إلى موسى يستغذه ويخبره بأنه قد استولى على الجزيرة والبحيرة وأن ملك الأندلس قد زحف إليه مما لا طاقة له به (2) " .

واستجاب موسى لنداء طارق ووجه إليه مدداً يقدر بخمسة آلاف جندي فصار مجموع المسلمين بالأندلس حوالي اثني عشر ألفاً .

ولقد أجمع معظم المؤرخين على أن المعركة الفاصلة التي دارت بين المسلمين والقوط والتي توقف عليها مصير أسبانيا في يد المسلمين ، حدثت في كورة شذونة في جنوب غرب أسبانيا ، وأنها دامت ثمانية أيام من الأحد 28 رمضان إلى الأحد 5 شوال سنة 92 هـ / 19 - 26 يولية سنة 711 م (1) ، ويصفونها بأنها كانت معركة قاسية اقتتل فيها الطرفان قتالاً شديداً حتى ظنوا أنه الفناء (2) ، وأنه لم تكن بالمغرب مقتلة أعظم منها ، وأن عظامهم بقيت في أرض المعركة دهوراً طويلاً لم تذهب (3) وكان النصر في النهاية حليف المسلمين .

على أننا نلاحظ بصدد هذه الواقعة ، أن الروايات الإسلامية والمسيحية وإن كانت قد أجمعت على وقوعها في كورة شذونة ، إلا أنها قد اختلفت حول المكان الذي دارت فيه من هذه الكورة الواسعة :

(1) فهناك فريق - أمثال ابن خلدون ، والحميري ، والمؤرخ الأسباني دي رادا الطليطلي jimenez de rada - يرى أنها حدثت شمال كورة شذونة عند وادي لكنه guadalete ، بالقرب من شريش jerez التي كانت قاعدة لهذه الكورة وتسمى أيضاً باسمها شذونة . ولهذا سموها بمعركة وادي لكة أو معركة شريش (1) .

(2) وهناك فريق آخر تزعمه المستشرق الأسباني سافدرا saavedra يرى أنها حدثت في جنوب كورة شذونة عند إقليم البحيرة ووادي البرباط rio barbate ، وهو النهر الذي يخترق هذه البحيرة ويصرف مياهها غرباً في البحر المحيط . ولكي يدعم رأيه افترض أن اسم وادي لكة الذي ورد في المصادر العربية ما هو إلا تحريف لاسم وادي لكة الذي كان يطلق أيضاً على وادي البرباط ، لوقوع قرية عليه - اندرست الآن - اسمها بكة فسمي باسمها .

(2)

(3) وهناك فريق ثالث وعلى رأسه المستشرق الفرنسي ليفي بروفنال ، يرى أن هذه المعركة حدثت عند البحيرة بالقرب من المكان السابق عند نهر سلاو rio salado ، وعلى هذا الأساس فسر كلمة وادي لكة على أنها تعريب لكلمة lago أو locus ومعناها البحيرة (1) .

(4) هناك رأى رابع يرى أن الملك القوطي وذريق قتل في مكان يسمى السواقي ، وقد افترض سافدرا أن هذا الاسم تحريف للفظ segoyueia وهو اسم بلدة في ولاية شلنقة Salamanca في شمال أسبانيا . وعلى هذا الأساس بنى نظريته القائلة بأن رذريق لم يمت في معركة البحيرة التي انهزم فيها أمام طارق زياد ، بل فر شمالاً إلى ولاية شلمنقة حيث التقى مرة أخرى مع جيوش المسلمين في معركة ثانية عند البلدة المذكورة آنفاً sagoyuela حيث انتهى الأمر بمقتله هناك سنة 713م (2) . غير أن هذه النظرية لم تلبث أن ثبت عدم صحتها بعد أن ظهرت نصوص جديدة لعريب بن سعد ، وابن الشباط ، ولمؤرخ مجهول الاسم في كتاب هل بعنوان فتح الأندلس ، تشير كلها بوضوح إلى أن السواقي اسم مكان في كورة شذونة وليس في شمال أسبانيا (3) . ورأينا في الموضوع بعد كل ما تقدم ، أن هذه المعركة التي توقف عليها مصير أسبانيا في يد المسلمين ، كانت أكبر وأعظم من أن تجده بمثل هذه الأماكن المحدودة الضيقة ، إذ يبدو - كما هو واضح من النصوص - أنها معركة واسعة النطاق بدأت طلائعها منذ نزول طارق أرض أسبانيا ، وحشد فيها ملك القوط كل ما يستطيع حشده من مال ورجال وسلاح ، لدرجة روعت طارق وأزعجته وجعلته يسارع في طلب المزيد من القوات . ولا شك أن معركة بمثل هذه الحشود الكبيرة ، وهذا الهدف الخطير ، وهذه المدة الطويلة التي استغرقتها في صراع وطراد ومتابعة ، لا بد وأن تكون معركة عظيمة تليق بهذا الفتح العظيم ، معركة لم تقتصر رحاها على جنوب شذونة أو شمالها بل شملت جميع أنحاء هذه المنطقة ، فهي معركة كورة شذونة بأسرها وليست معركة مدينة شذونة قاعدتها .

ومن هنا جاز لنا أن نقول بأن ما ورد في كتب التاريخ من تسميات مختلفة لهذه المعركة مثل : البحيرة ، وادي لكة ، وادي بكة ، وادي البرباط ، شريش ، السواقي ، ما هي في الواقع إلا تسميات لتلك الأماكن التي دارت وتشعبت عندها تلك المعركة الكبيرة في أراضي كورة شذونة .

هذا ، وقد يشفع لنا في هذا الرأي ، أن جميع المعارك التي حدثت بعد ذلك في بقية أنحاء أسبانيا ، كانت بمثابة مناوشات بسيطة بالنسبة لهذه العركة الفاصلة ، بحيث لم يستغرق استيلاء المسلمين على أسبانيا بعد ذلك ، وعورة مسالكها ،

وقسوة مناخها أكثر من ثلاث سنوات ، وهذا يدل على أن المقاومة كانت قد انتهت تقريباً .

سابعاً : اتهام فتح أسبانيا :

لا شك أن هذا النصر العظيم الذي حققه طارق في معركة شدونة ، قد فتح أبواب الأندلس للمسلمين ، فاتجه طارق بالجيش الرئيسي شمالاً نحو العاصمة طليطلة ، وفي أثناء زحفة اعترضته قلعة استجره **ecija** واستولى عليها . وفي الوقت نفسه أرسل أقساماً من جيشه إلى المناطق الجانبية ، فاتجه قسم إلى قرطبة بقيادة مغيث الرومي ، مولى عبد الملك بن مروان ، فاستولى عليها بعد حصار دام ثلاثة أشهر ، واتجه قسم آخر إلى البيرة ونواحيها واستولى عليها . وقد وجد طارق وقواده معاونة من اليهود المقيمين في أسبانيا بسبب اضطهاد القوط لهم ، ولهذا اعتمد طارق عليهم في حفظ البلاد المفتوحة ، في الوقت الذي كان فيه الجيش الإسلامي متفرغاً لعملية الغزو .

واستمر طارق في زحفه الخاطف نحو الشمال حتى بلغ العاصمة طليطلة ، فدخلها دون مقاومة تذكر ، إذ كان حكامها وأهلها قد فروا منها فكانت المدينة شبه خالية تقريباً (1) ، وهنا تشير المصادر العربية بإسهاب إلى الكنوز والذخائر التي غنمها المسلمون من كنائس المدينة وقصورها .

ثم خشي طارق أن يقطع عليه العدو الطريق في هذه البلاد الجبلية الوعرة ، لا سيما وأن فصل الشتاء كان قد اقترب ، وتعب المسلمون من الجهد الذي بذلوه ، وثقلوا بالغنائم التي جمعوها ، فاستنجد طارق بقائده موسى ابن نصير .

وفي شهر رمضان 93 هـ (يونيه 712 م) عبر موسى المضيق بجيش كبير من ثمانية عشر ألف مقاتل ، معظمهم من العرب بعصبياتهم القيسية واليمانية ومن بينهم عدد من التابعين ، ونقد عرفت هذه الجماعة العربية الأولى بطالعة موسى .

وسار موسى في طريق غربي غير الطريق الذي سلكه طارق ، واستولى على مدن أخرى لم يستول عليها طارق ، مثل قرمونة **carmona** واشبيلية **sevilla** ، وماردة **merida** ثم التقى بطارق عند نهر التاجر **tajo** بالقرب من العاصمة طليطلة .

ثم تابع القائدان سيرهما نحو جبال البرت **pixinios** في أقصى الشمال ، وأخذت المدن تتساقط في أيديهما تباعاً مثل سرقسطة **zaragoza** ووشقة **huesca** ولا ردة **lerida** ، حتى بلغا شاطئ البحر الشمالي **cantabrico** عند حدود فرنسا الجنوبية .

وهكذا انتهى كل من موسى وطارق من فتوحاتهما ، وكانت أوامر الخليفة الوليد بن عبد الملك قد قضت برجوعها إلى دمشق ، فرجع موسى ومعه طارق ، بعد

أن خلف على الأندلس ابنه عبد العزيز بن موسى بن نصير في أواخر 95 هـ (714 م) .

بقيت مسألة أخيرة يحسن أن نقف عندها قليلاً ، وهي ما أثارته بعض الروايات العربية من أن موسى لما علم بانتصار طارق ، حقد عليه وداخله الحسد والغيرة ، وخشي أن ينسب إلى طارق شرف هذا النصر ، فصم على الاشتراك في القتال ، وأبت عليه نفسه أن يسلك نفس الطريق الذي سلكه طارق من قبل ، فأقسم بأن يسير في طريق آخر آفة وكبرياء .

وواضح أن أصحاب هذه الرواية ، قد نظروا إلى مشروع هذا الغزو العظيم من زاوية شخصية ضيقة تافهة ، إذ لا شك أن كلا القائدين قد اهتم بمصلحة المسلمين العليا وسلامة أرواحهم قبل أي شيء آخر .

وواضح من تحركات الجيوش الإسلامية في الأندلس ، أن خطة الغزو كانت موضوعة ومدبرة تدبيراً محكماً ، وهي كما رأينا تشبه حركة الكماشة في المصطح الحربي الحديث : طارق يسير من طريق ، وموسى يسير من طريق آخر مقابل له ، وينتهي حركة الالتفاف أو التطويق هذه ، بالتقاء القائدين عند العاصمة القرطية نفسها .

وهكذا سقطت معظم شبه جزيرة أيبيريا iberia في يد المسلمين ، ولم يبق منها إلا بعض الأطراف الشرقية والشمالية الغربية ، وهي كلها تصفية ختامية لعملية الفتح الكبرى .

أما شرق الأندلس el levante ، فقد فتح على يد الأمير عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي خلف آباء على ولاية الأندلس ، وكانت المقاومة في هذه المنطقة قد تركزت في كورة تدمير " وقاعدتها الحصنة أور يولده orihuela . وقد سميت هذه الولاية بهذا الاسم نسبة إلى اسم صاحبها الأمير القوطي تيودومير الذي استطاع بفطنته وذكاء أن يحصل من عبد العزيز على شروط حسنة ضمنت له استقلاله بولايته في مقابل جزية سنوية . وتسوق الرواية الإسلامية في ذلك قصة طريفة تتلخص في أن تدمير حينما شعر بقلته رجاله وخطورة الغزو الإسلامي ، أمر النساء بنشر شعورهن ، والوقوف مع القلة الباقية من رجاله على أسوار حصن أور يوله والرمح في أيديهن ، فخيل المسلمين أن حامية المدينة ، كبيرة العدد فقبلوا مبدأ المفاوضة ، ونزل إليهم تدمير بنفسه على هيئة رسول ، وأخذ يفاوض عبد العزيز حتى استطاع أن يعقد معه صلحاً على نفسه وماله وأهل بلده . ولما تم الصلح كشف تدمير عن شخصيته ، وأدخل المسلمين المدينة ، فلم يجدوا فيها إلا عدداً قليلاً من الرجال . (1)

على أن الذي يهمننا في هذا الصدد هو نص هذه المعاهدة الذي وصل إلينا عن طريق المؤرخ الأندلسي الضبي (ت 1202) في كتابه بغية الملتمس (2) . وهذا أمر مهم في حد ذاته لأن المراجع العربية لم تحفظ لنا أمثال هذه المعاهدات القديمة التي يزخر بها التاريخ الإسلامي .

أما الركن الشمالي الغربي ، وهو الإقليم المسمى بأشتوريش **Asturias** ، في منطقة جليقية أو غاليسيا **Galicia** ، فإن المسلمين في الواقع لم يفرضوا سلطانهم تماماً على هذه النواحي لوعورة مسالكها وبرودة مناخها ، فأهملوا جانبها زهداً فيها واستهانة بشأنها . ولهذا استطاعت بعض فلول الجيش القوطي المنهزم بزعامة قائد منهم يدعى بلاي **pelayo** (ت 737 م) أن تعتصم بالجبال الشمالية في هذه المنطقة ، وهي التي يسميها الأسبان بقمم أوروبا **picos de europa** وهي عبارة عن ثلاثة جبال شامخة ، القمة الغربية منها تسمى أو نجا **onga** وبها مغارة تعرف بكهف أونجا **(1 covadonga)** ويسميها العرب صخرة بلاي لأنه اختبأ فيها هو وأصحابه حينما حاصرهم المسلمون ، وعاشوا على عسل النحل الذي وجدوه في خروق الصخر (2) . ولما أعي المسلمين أمرهم ، تركوهم وانصرفوا عنهم استخفافاً بشأنهم وقالوا : ثلاثون علجا ما عسى أن يجئ منهم ؟ (3) . والمصادر الأسبانية تجعل من انسحاب المسلمين عن كوفونجا نصراً عسكرياً وقومياً كبيراً للأسبان ، بل وتذهب إلى أن العناية الإلهية قد تدخلت في صالحهم ، فصارت سهام المسلمين ترتد إلى صدورهم ، كما انهارت عليهم قطعة من الجبل فقتلتهم عن آخرهم بما في ذلك قائدهم المسمى علقمة (1) . أما المصادر العربية فإنها وإن كانت تعترف بانسحاب المسلمين عن هذه المنطقة القاحلة الباردة ، إلا أنها لا تذكر شيئاً عن القائد علقمة ولا عن الأساطير الخرافية السالفة الذكر (2) .

وكيفما كان الأمر ، فالمهم هنا أن في هذه البويرة الصغيرة كوفادونجا ، نبتت نواة دولة أسبانيا النصرانية ، ونبتت معها حركة المقاومة الأسبانية التي أخذت تنمو وتتسع حتى استولت على مدينة ليون ، وسيطرت على جميع المنطقة الشمالية الغربية التي أخذت تنمو وتتسع حتى استولت على مدينة ليون ، وسيطرت على جميع المنطقة الشمالية الغربية التي صارت تعرف بمملكة ليون . ولقد أحاطت هذه المملكة الأسبانية نفسها بسلسلة من القلاع والحصون لحماية نفسها من هجمات المسلمين . وعرفت هذه الحصون في المصادر العربية باسم منطقة القلاع ، بينما أسمتها المصادر الإسبانية **gastellas** أي القلاع كذلك . وكان أمراء هذه القلاع تابعين لملوك ليون ، إلا أنهم كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال الذاتي كي يتمكنوا من محاربة المسلمين ، كذلك

كانت ليون نفسها ، إذ انتشر بين أهالي تلك المنطقة نظام الملكيات الصغيرة ، حتى يتمكن كل فرد منهم أن يدافع عن أرضه وأهله وأمواله . ولم تلبث هذه القلاع أن اتحدت في القرن العاشر الميلادي بزعامة أقوى أمرائها قرنان جونثالث **eernan Gonzalez** ، واستقلت عن مملكة ليون وصارت تعرف بإمارة **castille** وقد عرب المسلمون هذا اللفظ إلى قشتاله . ثم أخذت هذه المملكة الصغيرة ذات الأصل الساذج البسيط ، تنمو وتتسع شيئاً فشيئاً على حساب جيرانها المسلمين والمسيحيين على السواء ، حتى سيطرت على جميع أنحاء أسبانيا ، بل وامتد نفوذها بعد ذلك إلى أمريكا مع حركة الكشوف الأسبانية الحديثة ، وصارت لغتها القشتالية هي اللغة الأسبانية الرسمية السائدة في أسبانيا ودول أمريكا اللاتينية فيما عدا البرازيل التي تتحدث البرتغالية .

وقد يكون في هذا الكلام شيء من الاستطراء ، ولكنه استطراد مفيد ما دام يعبر عن المعنى التاريخي الكبير الذي يستتر وراء حادثة بسيطة مثل حادثة بسيطة مثل حادثة كوفدونجا ، ومن هنا تدرك السبب الذي جعل الأسبان يهتمون بعمارة هذا الموقع ، وجعله منطقة سياحية ويضعون بلاي في مصاف القديسين ، ويحجون إليه في كل عام ، لأن العبرة هنا ليست في التفاصيل المادية البسيطة لحادثة كوفادونجا ذاتها ، وإنما في الآثار والفوائد السياسية والقومية الكبيرة التي ترتبت عليها .

-2-

الخلافة في الغرب الإسلامي في العصر الوسيط
موضوع الخلافة موضوع قديم واسع متشعب ، وقد كثر الكلام والجدال فيه بين العلماء القدامى والحديثين : فبعضهم يقيم هذا النظام على العقل ، لأنه لولا الولاية لكان الناس فوضى مهملين ، والبعض الآخر يقيمه على الشرع دون العقل ، لأن أول اختصاص للخليفة هو حفظ الشرع . وهناك جدال حول الشروط المعتمدة في الخليفة ، وحول سلطة الجماعة أو أهل الحل والعقد ، إلى غير ذلك من الموضوعات التي لا أحب التعرض لها في هذا الموضوع ، وحسبي أن أحيل القارئ إلى بعض ما كتبه علماء الأصول في هذا الموضوع مثل الماوردي في أحكامه السلطانية ، وابن خلدون في مقدمته (1) ، وسعد الدين النفطازاني في مقاصد الطالبين ، وعبد القادر الفاسي في رسالته عن الإمامة ، والسيد رشيد رضا في بحثه القيم عن الخلافة والذي نشره بمجلة المنار القاهرة 1923 ، وقد ترجمه إلى الفرنسية ، المستشرق الفرنسي هنري لاوست (2) . هذا إلى جانب المستشرقين الذين كتبوا في موضوع الخلافة أيضاً مثل توماس .

المحاضرة 3 + 4 + 5 + 6

أرنولد (1) . ووليام يور (2) ، وغيره ، إذا لا يتسع المجال لذكر جميع أسماء من كتبوا هذا الموضوع ، فيكفي ما ذكرت منها على سبيل المثال لا الحصر . والنقطة التي أحب أن أتناولها في هذا الموضوع المتشعب ، هي نظام الخلافة في الغرب الإسلامي ، وما ترتب عليها من أحداث سياسية في العصور الوسطى

الخلافة ، والإمامة العظمى ، وإمارة المؤمنين ، ثلاث كلمات معناها واحد وهو رئاسة الحكومة الإسلامية الجامعة لمصالح الدين والدنيا ، وعلى هذا الأساس كان تعيين الإمام أو الخليفة واجباً حتمياً على الجماعة الإسلامية .

خلافة الخوارج والشيعة في المغرب :

كانت الدعوة في الغرب والأندلس . عقب الفتح الإسلامي ، قائمة لخلافة دمشق الأموية التي ما كاد ينتهي أجلها سنة 132 هـ (750 م) حتى سيطرت على تلك البلاد دويلات وخرافات إسلامية تدين بمختلف المذاهب .

وكان مذهب الخوارج في بادئ الأمر ، أكثر المذاهب انتشاراً بين قبائل البربر ، لأنه يقوم على مبدأ عدم حصر الخلافة في بيت معين أو جنس معين ، ويرى تركها لاختيار الأمة ، فهي التي تختار الشخص الصالح لها بغض النظر عن جنسه أو لونه ما دام مستوفياً لشروط الخلافة ، لهذا وجد البربر أن مذهب الخوارج يناسب وضعهم الاجتماعي والسياسي ، فاتخذوه عنواناً للمعارضة القومية ضد أي سيادة تفرض عليهم . وكانت الصفرية والأباضية أكثر مذاهب الخوارج رواجاً في المغرب ، وأكثرها اعتدالاً وتسامحاً مع المخالفين ، إذا قورنت بغيرها من المذاهب الخارجية الأخرى مثل مذهب الأزارقة في المشرق ، فالصفرية والأباضية لا يرون إباحة دماء ولا يرون جواز سبي النساء والذرية ، بل ولا يرون قتال أحد سوى جيش السلطان (1) .

وعلى أساس هذه المبادئ السابقة قامت في المغرب دولتان خارجيتان :

إحدهما تدين بالمذهب الصفري ، والآخرى تدين بالمذهب الإباضي .

أما الأولى فهي دولة بني مدرار آه بنى وأسول الصفرية التي قامت في منطقة سجنماسة (تافيلانت الحالية) في جنوب المغرب الأقصى سنة 140 هـ (757 م) ومؤسسها كان سودانياً أسود اللون يدعى عيسى بن يزيد المكناس الصفري

واستمرت هذه الدولة زمناً طويلاً ، ويلاحظ أن بعض ملوكها خطبوا للخلافة العباسية في بغداد أمثال أبي القاسم الزناني الصفري الذي يقول ابن خلدون بأنه خطب في عمله للمنصور ثم للمهدي من بني العباس (1) ، كذلك يلاحظ أن عدداً آخر من ملوكها ، ذعراً للخلافة الشيعية الفاطمية عندما قامت في المغرب

اتقاء لخطرها (7) ، وأخيراً جاء آخر ملوكها وهو محمد بن الفتح بن مدرار ، فاعتنق المذهب السني المالكي وتسمى بأمر المؤمنين سنة 342هـ وتلقب بالشاكر لله ، وضربت بذلك الدراهم والدنانير ، فكانت تسمى بالدراهم الشاكرية . ثم انتهت عنده الدولة على يد قائد الفاطميين جوهر الصقلي سنة 349 هـ (960 م) (3) .

أما الدولة الخارجية الثانية ، فهي الدولة الرسمية الإباضية التي قامت في المغرب الأوسط سنة 144 ق (76 م) . ومؤسس هذه الدولة رجل فارس الأصل - كما يقال - وهو عبد الرحمن بن رستم الذي بويع بالخلافة وصار يلقب بالإمام هو وأبناؤه من بعده ، كما ينص على ذلك ابن صغير والباروني فيما كنباه عن أئمة الرستميين (1) .

وكانت عاصمة هذه الدولة مدينة تاهرت التي بناها عبد الرحمن ابن رستم سنة 150 هـ (767 م) . وتقع تقريباً في مكان تياريت الحالية tlarat في ولاية وهران oran غربي الجزائر . ولم تلبث هذه المدينة أن ازدهرت وهاجر إليها التجار والعلماء والطلبة من جميع أنحاء العالم الإسلامي حتى صارت تسمى بالعراق الصغير تشبيهاً لها ببلاد العراق الصاخبة بمختلف الأجناس والملل والنحل (2) .

ولقد عمل عبد الرحمن بن رستم على تدعيم دولته ، فعقد تحالفاً مع الدولة الأموية في الأندلس ، وكذلك مع الدولة الخارجية الأخرى في سجلماسة وهي الدولة المدرازية الصفيرية ، ونتج عن هذا التحالف الأخير تلك المصاهرة التي تمت بزواج المنتصر بن اليسع بن مدرار على أروى (3) بنت عبد الرحمن . ولقد أنجب المنتصر من أروى ولدا سماه ميمونا ، وهو الذي خلفه في الحكم بعد ذلك (1) .

ولما توفي عبد الرحمن بن رستم سنة 168 هـ (784 م) ، ترك الأمر شورى في سبعة أشخاص من بينهم ابنه عبد الوهاب الذي مالت الأغلبية إلى مبايعته وسلمت عليه بالخلافة ، بينما اتخذ المخالفون جانباً معارضاً ، ولهذا سموا بالنكسار أو النكرية .

واستمرت هذه الدولة الرستمية تحكم المغرب الأوسط زمنياً إلى أن قضى عليها الفاطميون سنة 296 هـ (909 م) .

على أن سقوط هذه الدولة لم يكن معناه القضاء على مذهب الإباضية في المغرب ، بدليل ثورة أبي يزيد الخارجي التي قامت في جبال أوراس في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، وكادت أن تقضي على الدولة الفاطمية في المغرب . وقد تلقب هذا الزعيم الزناتي الخارجي بلقب شيخ المؤمنين ، واعترف بخلافة عبد الرحمن الناصر في قرطبة ، كي ينال تأييده ، غير أن

الفاطميين تمكنوا من إخماد ثورته وقتله بعد كفاح مرير طويل سنة 335 هـ (947 م) (2) .

على أن دعوة الإباضية استمرت ، رغم ذلك ، قائمة في المغرب ، بدليل أنهم ما زالوا يعيشون إلى اليوم في جنوب طرابلس بمنطقة مزاب وجبل نفوسة في ليبيا

وإلى جوار هاتين الدولتين السابقتين . قامت في المغرب الأقصى دولة علوية حسنية سنة 172 هـ (788 م) ، وهي دولة الأشراف الأدارسة ، ومؤسسها هو أبر العلاء إدريس بن عبد الله الأكمل بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، الذي فر إلى المغرب بعد هزيمة العلويين في موقعة فخ بأحواز مكة سنة 169 هـ (786 م) .

وهناك في المغرب الأقصى أقام إدريس الأكبر دولته ، وبنى عاصمته مدينة فاس التي أتمها ابنه إدريس الأصغر من بعده .

الادارسة

ويفهم من كلام المؤرخين أن الأدارسة في المغرب كانوا يلقبون بلقب الإمام (1) ، وأن هذه الإمامة انتقلت إليهم بوصاية محمد النفس الزكية لأخيه إدريس الأكبر ، على أساس أن محمد النفس الزكية انعقدت له الإمامة قبل بني العباس ، وأنه لهذا السبب كان مالك بن أس وأبو حنيفة يرجحان إمامته على بني العباس ، ويريان أن إمامته أصح من إمامة أبي جعفر المنصور لانعقاد هذه البيعة من قبل . كذلك يؤثر عن مالك أنه كان يفتي أهل المدينة خلال ثورة النفس الزكية سنة 145 هـ بأنه " ليس على مكره يمين أو طلاق " وهو يقصد بذلك أن من بايع أبا جعفر المنصور مكرهاً ، فهو في حل من بيعته ، وله أن يبائع محمداً النفس الزكية . وقد لحق مالك أذى كبير من جراء ذلك ، إذ ضربه العباسيون بالسياط ، ومنعوه من الخوض في هذا الحديث (1) ، ولا شك أن هذا الحادث جعل لمالك بن أنس ومذهبه مكانة في دولة الأدارسة بالمغرب ، بدليل ما رواه ابن خلدون من أن الإمام إدريس الأكبر قال في هذا الصدد : نحن أحق باتباع مذهب وقراءة كتابه - يعني الموطأ - وأمر بذلك في جميع عمالته (2) . هذا ويفهم من كلام المؤرخين كذلك - أن هذه الدولة العلوية الإدريسية ، كانت أيضاً موطناً للمعتزلة ، وأن قبيلة أروبا التي ساندت الإمام إدريس ، كانت

تدين بمذهب الاعتزال ، وأن عبد الله الكامل والد الإمام إدريس ، كان يعتبر في الطبقة الثالث من طبقات المعتزلة (3) .

ولقد امتد حكم الأدارسة بالمغرب من السوس الأقصى إلى تلمسان ووهران في المغرب الأوسط . وتوجد في خزانة الرباط وثيقة هامة ، وهي قطعة من رسالة للإمام إدريس الأول إلى أهل مصر ، يذكرهم فيها بفضائل أهل البيت النبوي الذي ينتمي إليه ، ويصف التضحيات الغالية التي بذلوها في سبيل حقهم الشرعي الموروث عن الرسول ، ويطالبهم بتأييده ومساندته (4) .

ورسالة الإمام إدريس أو المولى إدريس - كما يسمونه المغاربة - إن دلت على شيء ، فإنما تدل على أن الإدارية ، لم يفكروا في فصل المغرب عن بقية العالم الإسلامي كما يزعم البعض ، بل كانوا يريدون توحيد العالم الإسلامي تحت قيادتهم ، مستنئين في ذلك إلى أصلهم الشريف وشرعيتهم في الحكم . ويتضح من الأحداث التاريخية التالية ، أن الخلافة العباسية ، قد خشيت على نفسها من اتساع أهداف الدولة الإدريسية ، فأقامت دولة الأغالية في أفريقية (أي القطر التونسي) سنة 184 هـ (800 م) . لتكون حداً فاصلاً بين بلادها وبلاد الأدارسة .

ولكن على الرغم من هذا الحاجز الذي أقامه العباسيون في وجه المغرب ، حاول الأدارسة من جانبهم ، استمالة الأغالبة ، وكسب صداقتهم ففي هذا الصدد يقول لسان الدين بن الخطيب القسم الثالث من كتابه أعمال الأعلام :
" وكتب إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، القائم بالمغرب ، إلى إبراهيم بن الأغلب ، يستكفيه عن ناحيته ، ويذكره بقرابته من رسول الله (صلعم) . فأجابه عن كتابه وأودعه ، ولم تجر بينهما حرب " (1)

ويضيف ابن الخطيب في موضع آخر من كتابه السالف الذكر :
" ذكر أن الخليفة المأمون ، وجه إلى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب ، كتاباً يأمره فيه بالدعاء لعبد الله بن طاهر في مصر ، فلم يرض بذلك زيادة الله ، وأمر بإدخال رسول المأمون عليه ليلة وهو ثمل ، ونار عظيمة بين يديه في كوانين ، وقد احمرت عيناه ، فهال الرسول منظره " وكان من كلامه بعد تقرير شأنه وطاعة سلفه . يأمرني بالدعاء لعبد خزاعة ؟ هذا ما لا يكون أبداً ، ثم مد يده إلى كيس بجنبه فيه ألف دينار ، ودفعه للرسول وصرفه ، وكانت في الكيس دنائير من المضروبة بأسماء بني إدريس الظاهر ملكهم يومئذ بالمغرب ، ففهم المأمون مغزاه ولم يعاتبه أبداً " (1) .

وواضح من هذا النص ومن النصوص التي قبله ، أن الأدارسة قد اتصلوا بأهل مصر كما اتصلوا بأهل تونس ، لدرجة أن بعض ملوك الأغالية قد هدد فعلاً بمبايعتهم والانضمام إليهم .

ثم قامت خلافة العبيديين أو الفاطميين في المغرب سنة 296 هـ (900 م) . ولا شك أن دعوة العلويين الأدارسة ، رغم كونها لا تدين بالمذهب الإسماعيلي الشيعي ، إلا أنها مهدت السبيل لدعاة الفاطميين في المغرب ، وهيأت الأذهان بقبول دعوتهم لآل البيت . واستطاعت الدولة الفاطمية بفضل تأييد بعض القبائل المغربية ، أن تقضي على نفوذ الأغالية والرستميين والمدراريين بل والأدارسة أيضاً ، وأن تحقق وحدة مغربية قاعدتها مدينة المهديّة في أفريقية (2) . والخلافة أو الإمامة الفاطمية ، خلافة دينية وراثية تقوم على أساس المذهب الشيعي الإسماعيلي ، وتستند إلى أساسين هاميين : الأساس الأول هو العلم اللدني أو الإلهي الموروث عن النبي (صلعم) ، عن طريق علي بن أبي طالب ثم أورده من بعده إلى الفاطميين .

فالإمام عند الفاطميين على هذا الأساس ليس شخصاً عادياً بل فوق الناس جميعاً : وهو المنفذ ، ولا يسأل عما يفعل ، لأنه معصوم من الخطأ نتيجة لما ورثه من علوم لدنية عن النبي . وهناك نوعان من العلوم ، علم الظاهر وعلم الباطن أي ظاهر القرآن وباطنه ، وقد علم النبي ، علياً بن أبي طالب هذين النوعين من العلوم ، فاطلعه على خفايا الكون والسر المكنون من هذه العلوم ، وكل إمام ورث هذه الثروة العلمية لمن جاء بعده ، ولهذا كان الإمام معلماً أكبر .

ومن هذه النظرة الشيعية للإمام نفهم السر في سبب تقديس الناس له ، والركوع عند مروره " وتقبيل الأرض بين يديه . ولعل شعر ابن هانئ الأندلسي ، أكبر شاهد على ذلك ، مثل قوله في مدح الخليفة المعز لدين الله الفاطمي .

هذا ابن وحي الله تأخذ هديها عند الملائك بكرة وأصيلاً
وعلمت من مكنون سر الله ما لم يؤت في الملوك ميكائلاً (1)

أما الأساس الثاني للإمامة الفاطمية ، فهو مسألة الوصية أو النص على ولاية العهد . والمعروف في ذلك أن الخلافة الفاطمية خلافة رافضية أي أنها ترفض إمامة أبي بكر وعمر بن الخطاب ، وترى ، كما يرى الشيعة عموماً ، أن علياً

يستحق الخلافة بعد النبي لا عن طريق الكفاية وحدها ، بل عن طريق النص عليه بالاسم ، فالإمامة عندهم ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ، وإنما هي ركن الدين والإسلام ، ولا يمكن للنبي أن يتركها للأمة ، بل كان عليه تعيين إمام لهم معصوماً من الخطأ ، وأن علياً هو الذي عينه النبي إماماً بعده .

ويستشهدون في ذلك بوصية الرسول عقب حجة الوداع وفي مكان يسمى بالغدير حيث قال : " من كنت هؤلاء فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه " . وقوله : " على مني بمنزلة هارون من موسى ، " .

ومن هنا نشأت فكرة الوصية ، ولقب علي بالوصي ، بينما لقب من جاء بعده بالأئمة ، ومرتبة الوصاية عندهم أعلى من مرتبة الإمامة وتلى مرتبة النبوة . ثم انتشرت الوصية بين الشيعة عامة والفاطميين خاصة ، فقالوا . إن الإمامة تنتقل من الآباء إلى الأبناء ، ولا تنتقل من أخل إلى أخ بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين ، فالأب ينص على ابنه في حياته ، ولا يقوم النص في الإمامة على أساس تولية الأب الأكبر ، فالإمام يستطيع أن ينص على أي ابن له ، فهذا أمر يخصه وحده لأنه يتلقى علمه ووحيه من الله .

ولقد حاول الفاطميون فرض مذهبهم الشيعي الإسماعيلي على رعاياهم بقوة السيف ، كما حاولوا صيغ الوحدة المغربية بتلك الصبغة المذهبية المتطرفة . غير أن المغرب لم يقبل بهذه السيطرة المذهبية الشيعية التي لا تلائم مزاجه وطبيعته ، فخرج عن طاعة الفاطميين ، وأخذ يتطلع إلى خلافة سنية جديدة قامت في الأندلس في ذلك الوقت ، وهي الخلافة الأموية .

الخلافة الأموية بالأندلس

قامت الخلافة في الأندلس متأخرة زمن عبد الرحمن الناصر سنة 316 هـ (929 م) ، وذلك نتيجة للظروف السياسية التي أحاطت بالأندلس في ذلك الوقت . أما قبل ذلك التاريخ ، فقد مرت الأندلس في دورين أساسيين : -

الدور الأول : تمتد من سنة 92 - 138 هـ (71 - 756 م) أي منذ الفتح الإسلامي للأندلس إلى قيام الدولة الأموية بها وفيه كانت الأندلس إمارة غير مستقلة وغير وراثية ، تتبع الخلافة الأموية بدمشق ويحكمها والي يعرف بالأمير يتبع أمير أفريقية من الناحية الإدارية ، بمعنى أن أمير القيروان هو الذي كان يعين ولاية الأندلس في غالب الأحيان .

الدور الثاني : تمتد من سنة 138 - 316 هـ (756 - 929 م) أي منذ مجئ عبد الرحمن الأول (الداخل) الأندلس وينتهي بإعلان عبد الرحمن الثالث نفسه أميراً للمؤمنين وتلقبه بالناصر لدين الله .

وفي هذا الدور كانت الأندلس إدارة وراثية مستقلة سياسياً عن خلافة المشرق العباسية .

أما من الناحية الروحية فيفهم من كلام بعض المؤرخين أمثال ابن الكردبوس (1) وابن أبي دینار (2) أن جميع أمراء بني أمية الذين حكموا الأندلس قبل عبد الرحمن الناصر قد دعوا في خطبهم الدينية لخلفاء بني العباس ببغداد رغم العداء السياسي الذي كان قائماً بين هاتين الدولتين ، فقالوا في هذا الصدد :
وكان - أي الناصر - من تقدمه من آبائه يخطبون لبني العباس . "

غير أن هذه الرواية في الواقع لم يقم عليها دليل أو إجماع تاريخي خصوصاً وأن ابن أبي دینار السالف الذكر عاد ثانية وناقض عبارته الأولى بقوله :
ودانت لعبد الرحمن (الداخل) البلاد ، وبقي ملكاً ثلاثاً وثلاثين سنة ، وتداولتها بنوه من بعده ولم يخطب أحد منهم لبني العباس ولم يدخل تحت طاعتهم ، إلى أيام عبد الرحمن الذي تلقى بالناصر لدين الله وتسمى بأمر المؤمنين (1) .
أما ثقة مؤرخي الأندلس ، أمثال ابن حزم وابن الأبار والمقرئ فقد حددوا مدة الدعاة لبني العباس في الأندلس بفترة قصيرة فقط في بداية عهد عبد الرحمن الأول (الداخل) ثم قطع الدعاء لهم بعد ذلك .

فابن حزم في كتابه ، نقط العروس ، يقول أن الدعوة للعباسيين استمرت عدة سنوات ثم قطعها عبد الرحمن الأول (2) ، كذلك يقول ابن الأبار في كتابه " الحلة السيرة " وأقام عبد الرحمن (الأول) شهراً دون السنة يدعو لأبي جعفر المنصور . . . متقبلاً في ذلك يوسف الفهري في الدعوة للعباسيين (3) .
أما المقرئ ، فقد أورد لنا رواية طريفة لعلها نقلاً عن ابن حيان يبين فيها الظروف والملابسات التي تم فيها انقطاع هذه الدعوة للعباسيين فيقول : " وفر

من الشام الأمير عبد الملك بن عمر بن مروان الأموي خوفاً من المسودة (أي العباسيين) ، فمر بمصر ومضى إلى الأندلس وقد غلب عليها الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، فأكرمه ونوه به وولاه إشبيلية لأنه كان قعدد بني أمية . ثم إنه لما وجد الداخل يدعو لأبي جعفر المنصور العباسي ، أشار عليه بقطع اسمه من الخطبة ، وذكره بسوء صنيع بني العباس ببني أمية ، فتوقف عبد الرحمن في ذلك ، فما زال به عبد الملك حتى قطع الدعاء له ، وذلك أنه قال له حين امتنع من ذلك : إن لم تقطع الخطبة لهم قتلت نفسي ، فقطع حينئذ عبد الرحمن الخطبة المنصور بعد أن خطب باسمه عشرة أشهر . (1)

من هذه النصوص السابقة يبدو لنا أن ما يتعلق بدعاء بني أمية في قرطبة للعباسيين أمر مبالغ فيه ، وأن هذه الدعوة لم تدم أكثر من فترة قصيرة من بداية عبد عبد الرحمن الأول ثم قطعت بعد ذلك نهائياً .

على أنه يلاحظ أن أمراء بني أمية الذين حكموا قبل الناصر ، وإن كانوا قد قطعوا الدعاء لبني العباس ، إلا أنهم لم يلقبوا أنفسهم بلقب خليفة ، واكتفوا بتلقيب أنفسهم بأبناء الخلائف (2) وهناك فرق كبير بين لقب خليفة وابن خليفة بطبيعة الحال .

ولا شك أن السبب في ذلك هو شعورهم بأن الخلافة وحدة لا تتجزأ ولا تتعدد ، وأن الخروج عنها عصيان ، وأن الخليفة الشرعي هو حامي حمى الحرمين الشريفين ، أي المسيطر على الحجاز أصل العرب والملة ومركز العصبية (3) . هذا هو الأصل النظري للخلافة السنية " غير أن مصلحة العمل ومقتضيات السياسة وتغيرات الظروف فيما بعد ، حتمت الخروج عن ذلك الأصل النظري ووضع محل الاجتهاد . ومن ثم أجاز السنيون أنفسهم تعدد الخلافة ما دامت هناك مصلحة تقضي بذلك (1) ، واعترفوا بشرعية إمامين يتوليان الحكم في وقت واحد على شرط أن تكون بينهما مسافة كبيرة ومساحة شاسعة لمنع الاصطدام والفتنة بين المسلمين ، وقد يؤيد ذلك ما رواه صاحب كتاب الحال الموشية ، من أن الأندلسيين أنفسهم هم الذين بايعوا وحملوا الأمير عبد الرحمن بن محمد (الثالث) على حمل هذين الإسمين : أمير المؤمنين والناصر لدين الله ، وصاروا يخاطبونه باسم الخليفة قبل إعلانه رسمياً وفي ذلك يقول . " وكان بعض أولي الفضل والتأمل من الناس سموه بهذا الاسم قبل أن يلبسه دهره ، وخاطبه به كثير من خاصته في كتبهم وأشعارهم ، فكثرت ذلك عليه ووافاه من كل ثنية ، وجاءه من كل ناحية ، حتى اضطره إلى حمله ، وحاجره بأن يكون باخساً لنفسه في رفضه ، وهو قوي على مخالفة آبائه في اقتصارهم على سواه ، واستشهدوا عليه بما فهمه الله سليمان في الحكمة دون والده عليهما الصلاة والسلام (1) .

واضح مما تقدم أن نظرية الخلافة السنية قد تكيفت تكيفاً جديداً تبعاً للواقع وللضرورة السياسية ، والنظريات دائماً تتبع الواقع وتتأثر به .
وعلى أساس هذا المفهوم الجديد للخلافة ، أعلن عبد الرحمن بن محمد (الثالث) نفسه خليفة للمسلمين . ولا شك أنه كان مدفوعاً في ذلك بمصالح مختلفة في الخارج والداخل أهمها : -

- (1) قيام خلافة شيعية فنية معادية في المغرب ، وهي الخلافة الفاطمية التي كانت ترنو إلى الأندلس بعين لا تخلو من طمع وغدر .
- (2) ضعف الخلافة العباسية في المشرق أيام المقتدر ، واستبداد القواد الأتراك بها ، وعجزها عن حماية العالم الإسلامي .
- (3) ضعف مكانة الأمير الأموي في قرطبة نتيجة للثورات والفتن الداخلية التي شغلت عهود ثلاثة من الأمراء قبله ، بحيث أصبحت الحاجة ماسة إلى رفع مكانته ومنزله السياسية والدينية ، لا سيما وأن تلك الثورات الداخلية قد قضى عليها في بداية عهد عبد الرحمن الثالث .
- (4) الاستجابة لرغبة الأندلسيين في أن يكون خليفة للمسلمين .

يروى ابن عذاري أنه " في سنة 316 هـ ، قرر عبد الرحمن بن محمد أن تكون الدعوة له في مخاطباته والمخاطبات عنه في جميع ما يجري ذكره فيه ، بأمر المؤمنين لما استحقه من هذا الاسم ، فعهد إلى أحمد بن بقي القاضي صاحب الصلاة بقرطبة ، بأن تكون الخطبة يوم الجمعة مستهل ذي الحجة بذلك (1) ، وفي اليوم التالي 2 ذي الحجة سنة 316 هـ أصدر الخليفة الجديد منشوراً عاماً إلى عماله في الكور والمدن الأندلسية يقول لهم فيه :
وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين وخروج الكتب عنا ، وردودها علينا كذلك . إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه منه . وعلمنا أن التماذي على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا أضعناه واسم ثابت أسقطناه . فمر الخطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله " (1) .

كذلك أمر الناصر لدين الله بإثبات عبارة " الناصر لدين الله أمير المؤمنين " في إعلامه وطراره ودناتيره ودراهمه ، ونفذ الأمر بذلك (3) .

وهكذا تحولت الأندلس من إمارة إلى خلافة ، واستمر لقب خليفة في ذرية عبد الرحمن الناصر من بعده حتى سقوط الدولة الأموية سنة 422 هـ (1031 -

(م) .

ويلاحظ أن نظام الخلافة الأموية في الأندلس ، كان نظام ملك يقوم على أساس التوريث ، ويستند إلى السياسة أولاً ثم إلى الدين ثانياً ، فهي تختلف تماماً عن خلافة الإسلام الأولى أيام الخلفاء الراشدين ، التي كانت تقوم على الشورى

والانتخاب . على أننا مع ذلك إذا قارناً خلافة الأندلس بالخلافات الأخرى المعاصرة لها كخلافة العباسيين أو الفاطميين ، فإننا نجد أن الخلافة الأندلسية كانت أكثر ديموقراطية منها . فالخليفة العباسي كان يحكم بتفويض من الله وقد صرح بذلك أبو جعفر المنصور حينما قال : " إنما أنا سلطان الله في أرضه " ، وهذه العبارة تشبه تماماً نظرية الحق الإلهي في الحكم . **divine right of rule** التي كانت سائدة بين الفرس قديماً والتي سادت أوروبا في العصور الحديثة .

كذلك كان الخليفة الفاطمي يرى نفسه إماماً معصوماً من الخطأ ، ولا يسأل عما يفعل ، لانه وارث العلوم للمدينة بما فيها من سر مكنون وغامض مصون من خفايا الكون .

وهذه القداسة لا نجدها في الخلافة الأموية الأندلسية ، فالخليفة إنسان عادي ، قد يخطئ أو يصيب ، والناس أحرار في نقده وإن استطاعوا عزله عزله . ومن أمثلة هذه الروح الديموقراطية التي امتازت به الخلافة الأموية بالأندلس ، أن عبد الرحمن الناصر حينما بني مدينة الزهراء وصرف عليها جزءاً كبيراً من وقته ومن مال الدولة ، قامت عنده معارضة شديدة تزعمها قاضي قرطبة المنذر بن بن سعيد البلوطي ، فقد أخذ هذا القاضي يعرض بالخليفة في المساجد أيام الجمعة (1) ، وقد أثارت هذه المعارضة غضب الخليفة الناصر فأقسم ألا يصلي خلفه صلاة الجمعة أبداً ، ولكنه لم يستطع إيذائه أو عزله . ومثل هذه المعارضة نفس ظاهرة فريدة في نوعها في ذلك الوقت ، إذ أنه من المعروف أن أموال الشعب كانت في العصور القديمة والوسطى ملكاً لرئيس الدولة .

من هذا نرى أن نشأة الخلافة الأندلسية تخالف نشأة الخلافة في الممالك الإسلامية الأخرى ، من حيث أنها لم تستند على ما يسمى " بالحق الطبيعي الموروث ، الذي يأتي عن طريق فاطمة الزهراء بنت الرسول كما يقول الشيعة ، أو عن طريق الميراث عن العباس بن عبد المطلب عم النبي كما يقول العباسيون على أساس أن العم في الميراث مفضل على ابن البنت مثل قول شاعرهم :

ألى يكون وليس ذاك بكائن

لبنى البنات وراثه الأعمام !

أما في الأندلس فلم يحدث شيء من هذا التعقيد ، كل ما هنالك أن عبد الرحمن الناصر رأى أن يكون خليفة لأنه أحق من غيره بها ولا سيما الفاطميين ، وعرض الأمر على الأمة فقبل الناس بذلك وبايعوه ، فهي أشبه بعقد بين الحاكم والمحكوم .

ومن حسن الحظ أن وثيقة الإعلان التي وزعها الناصر على عمالة في هذا الشأن محفوظة لدينا في كتب بعض المؤرخين أمثال ابن عذاري " وصاحب الحلل الموشية ، وفي تاريخ لمؤلف مجهول (1) ، وقد أوردنا جزءاً منها آنفاً ، ويلاحظ فيها البساطة في العرض والطلب .

ويبدو أن الخليفة الناصر أراد أن يتم أبهة الخلافة الجديدة ويزيد في هيبتها فبنى قصرًا خلفاً أسماء الزهراء . وما زالت آثار هذه المدينة باقية إلى اليوم على نحو ثمانية كيلو شمالي غرب قرطبة . وهي تشهد برقي هذا العصر وبعظمة الخلافة الأموية .

أما من حيث المظهر العام للخليفة فإنه كان يشبه تماماً ما كان يحدث في خلافة بغداد أو القاهرة ، فالخليفة الأموي له حاشيته من خدم وحراس ، وله بلاط يستقبل رجال الدولة وسفراء الدول الأجنبية ويضم العلماء والشعراء وأهل الفن . وكثيراً ما تحاك فيه الدسائس والمؤامرات بين رجال الدولة وأحياناً تشترك فيها نساء القصر ، وقد أعطانا المؤرخون أمثال ابن حيان (2) وابن خلدون (3) وصفاً تفصيلياً للحفلات التي كانت تقام في قصر قرطبة أو قصر الزهراء ، بمناسبة استقبال ملوك أسبانيا ، أو ملوك وزعماء العدو المغربية وهي كلها تعبر عما كان يمتاز به عصر الخلافة الأموية من قوة وتقدم ورخاء .

الصراع بين خلافتي المغرب والأندلس :

لا شك أن قيام خلافتين متجاورتين ، وعلى أسس مدهية مختلفة ، كان من شأنه أن يحدث صداماً بينهما ، وهذا ما حدث فعلاً بالنسبة لخلافة الفاطميين الشيعية بالمغرب ، وخلافة الأمويين السنية بالأندلس ، فالفاطميون منذ قيام دولتهم في المغرب ، فكروا في غزو الأندلس ، ومهدوا لذلك بالدعاية الشيعية من جهة ، وبالجاسوسية من جهة أخرى ، لمعرفة أحوال تلك البلاد ومواطن الضعف والقوة فيها . وكان يقوم بتلك المهمة دعائهم وجواسيسهم الذين كانوا يخفون أهدافهم الحقيقية بستر من المصالح المشروعة كالنجارة أو العلم أو السياحة الصوفية . . وكان هؤلاء الرجال في العادة على قسط كبير من المهارة والخبرة بالطبيعة البشرية وما فيها من ضعف كي يتمكنوا من إحراز النجاح المطلوب . ومن بين الجواسيس الذين أرسلهم الفاطميون إلى الأندلس ، نذكر الرحالة أبا القاسم ابن حوقل النصيبي (ت سنة 367 هـ - 977 م) الذي يبدو أنه تستر بالتجارة عند دخوله الأندلس ، إذ يسميه ياقوت بالتاجر الموصل (1) . وقد اهتم ابن حوقل في تقريره الذي رفعه إلى الفاطميين ، بإظهار خيرات الأندلس الزراعية والمعدنية مع الإشارة إلى ضعف أهلها عن الدفاع عنها ، ليحمل هؤلاء على غزو تلك البلاد . ومثل ذلك قوله :

" وليس لجيوشهم حلاوة في العين ، لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها ، وإن شجعت أنفسهم ، ومرنوا بالقتال ، فإن أكثر حروبهم تتصرف على الكيد والحيلة ، وما رأيت ولا رأى غير بها إنساناً قط جرى على فرص فاره أو برذون هجين ورجلاه في الركابين ، ولا يستطيعون ذلك ، ولا بلغني عن أحد منهم لخوفهم من السقوط وبقاء الرجل في الركاب على قولهم ومن أعجب هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها ، وضعة نفوسهم ، ونقص عقولهم ، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ، ولقاء الرجال ، ومراس الأتجاد والأبطال ، وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها في نفسها ومقدار جبايتها ومواقع نعمها ولذاتها . (1) . ولا شك أن ابن حوقل كان متحاملاً على الأندلسيين في كلامه ، ومبالغاً في اتهامه لهم بالضعف ، ولهذا لم يظفر مشروعه بالتأييد من جانب الحكومة الفاطمية (2) .

على أن نجاح الدعاية الفاطمية في اجتذاب أنصار لها في الأندلس كان محدوداً ، وذلك لما كان للمذهب السني هناك من قوة متأصلة في نفوس الأندلسيين ، وإن كان ذلك لا يمنع القول من أن الفاطميين أفلحوا في ضم بعض الشخصيات الأندلسية إلى صفهم ، ومن أمثلة ذلك الثائر الأندلسي عمر بن حفصون الذي ثار بجنوب أسبانيا ضد الحكم الأموي أواخر القرن الثالث الهجري ، واعترف بزعامة الخليفة عبيد الله المهدي الفاطمي (297 - 322 هـ) ودعا له في مساجد بلاده ، وقد أمدّه المهدي بالذخيرة والأسلحة (1) ، كما أرسل له داعيين أقاما عنده ، وأخذ يحرضانه على التمسك بطاعة الفاطميين ، وإقامة دعوتهم . غير أنه يبدو أن ابن حفصون لم يكن مخلصاً للدعوة الفاطمية ، وإنما اتخذها وسيلة ليكايد بها الأمويين في قرطبة بدليل أنه في أواخر أيامه ، استغنى عن الداعيين ، وأعدهما بهدية إلى الخليفة الفاطمي (2) .

وهناك أيضاً القائد علي بن حمدون ، المعروف بابن الأندلس الذي ورد إلى المغرب من الأندلس ، واتصل بالمهدي ثم بابنه القائم (322 - 334 هـ) وقد عهد إليه هذا الأخير ببناء مدينة المسيلة ، وهي التي سميت بعد ذلك بالمحمدية ، ثم عقد له على ولاية الزاب في جنوب المغرب الأوسط . ولما قامت فتنة أبي يزيد الخارجي في جبال أوراس ، كتب الخليفة القائم على ابن حمدون يطلب منه المدد بقبائل البربر في الزاب ، فكانت لابن حمدون جولات مع أبي يزيد تجلى فيها جلده وقوة نفسه إلى أن سقط من بعض الشواهد فمات سنة 334 هـ . وعقد الخليفة اسماعيل المنصور (334 - 341 هـ) لجعفر بن علي بن حمدون على المسيلة والزاب فصارت له هناك

دولة مزدهرة ، وقصده العلماء والشعراء ، مثل الشاعر الغرناطي ابن هاني الأندلسي الذي مده بقوله :

المدنfan من البرية كلها جسمي وظرف بابل أحور
والمشركات النيرات ثلاثة الشمس والقمر المنير وجعفر (1)
وهذا الشاعر ، ابن هاني الأندلسي (ب 362 هـ) ، يعتبر أيضاً من الشخصيات الأندلسية الهامة التي فرت من الأندلس إلى المغرب حيث الحق بخدمة الخليفة المعز لدين الله الفاطمي (341 - 265 هـ) ، ويعتبر شعره في ح هذا الخليفة ، وثيقة هامة لنظريات العقيدة الإسماعيلية (2) .

ولقد زاد من خطورة الدولة الفاطمية ، أنها كانت تمتلك قوة بحرية منظمة في المغرب وصقلية ، ورثتها عن الأغالبة ، ثم عملت على تنميتها وتقويتها منذ قيام دولتها ، وبني الخليفة المهدي على الساحل التونسي بين سوسة وصفاقس مدينة المهديّة التي أشاد المؤرخون بدار صنعها التي نقرت في الجبل ، وبقوة أسوارها وضخامة أبوابها وكثرة مراجلها ، حتى إنه يقال إن المهدي لما فرغ من بنائها قال : " آمنت اليوم على الفاطميات ، وهذا دليل على حصانتها (3) . ولعل القصيدة التي أوردها الشاعر علي بن محمد الإيادي التونسي ، في وصف الأسطول الفاطمي على عهد الخليفة محمد القاتم ، تعطينا فكرة عن قوة الأسطول في ذلك العهد ، وفيها يقول :

أعجب بأسطول الإمام محمد وبحسنه وزمانه المستغرب
لبست به الأمواج أحسن منظر يبدو لعين الناظر المتعجب
شرعوا جوانب مجاذف أتعبت شادي الرياح لها ولما تتعب
والبحر يجمع بينها فكأنه قيل يقرب عقرباً من عقرب
وعلى جوانبها أسود خلافة تختال في عدد السلاح المذهب (1)
على أن الحكومة الأموية في الأندلس ، لم تقف مكتوفة الأيدي أمام أطماع الفاطميين في المغرب والأندلس ، إذ كان لها هي الأخرى عيون ووسطاء منبثون في أنحاء المغرب . وكان هؤلاء الجواسيس يوافقون حكومتهم بما يهمها من أخبار هذه البلاد . وساعد هؤلاء في مهمتهم وجود جاليات أندلسية على طول الساحل المغربي في طنجة ، ووهران oran ، وتنس tenes ، وبونه (عناية الحالية شرقي الجزائر) ، وبجاية ، ومرسى الدجاج . وكانت هذه الجاليات ، قوية التمسك بالعقيدة السنية ، شديدة الكراهية للمذهب الشيعي (2) .

وحسبي أن أضرب مثلاً لهذه المقاومة المالكية الداخلية ، بالنص الذي أورده المالكي في كتابه رياض النفوس ، تعقيباً على احتلال الإمام عبيد الله المهدي لإفريقية ، إذ يقول فيه بأن فقيهاً مالكياً يدعى جبله ، ترك رباطه بقصر

الطوب ، وأقام في مدينة القيروان ، فقيل له : أصلحك الله ، كنت بقصر الطوب تحرس المسلمين وترباط ، فتركت الرباط والحرس ، ورجعت إلى ها هنا " .
فقال : " كنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر ، فتركناه وأقبلنا نحرس الذي قد حل بساحتنا ، لأنه أشد علينا من الروم " .

فهذا النص يدل بوضوح على مدى الانقسام الديني الذي أحدثه حلول الفاطميين في المغرب (1) .

وكان يحكم الأندلس في ذلك الوقت ، رجل قوي الشخصية ، بلغت الأندلس في عهده ذروة القوة والاستقرار ، وهو الخليفة عبد الرحمن بن محمد ، الناصر لدين الله ، الذي حكم الأندلس مدة نصف قرن (300 - 350 هـ - 912 - 96 م) .

وقد اضطر هذا الرجل أن يقوم بخطوات إيجابية لمحاربة النفوذ الفاطمي ،

نلخصها فيما يلي :

أولاً : إعلان نفسه خليفة :

أعلن عبد الرحمن الثالث نفسه خليفة ، وتلقب بالناصر لدين الله أمير المؤمنين سنة 317 هـ - 929 م . وكان الدافع الأساسي لهذه الخلافة السنوية الجديدة ، هو - كما ذكرنا آنفاً - مقاومة الخلافة الشيعية الفاطمية في المغرب ، وقد اعتبر الفاطميون هذا العمل تعدياً على حق من حقوق أئمتهم ، ولهذا فرضوا قتاله ، واستحلوا دمه ، وفي ذلك يقول الخليفة المعز الفاطمي في خطاب له وجهه إلى الأندلس :

" وهو يزعم أنه أمير المؤمنين ، كما تسمى دون من سلف من آبائه ، وإمام الأمة بدعواه وانتحاله . ونحن نقول : " إننا أهل ذلك دونه ودون من سواه ، ونرى أن فرض الله علينا محاربة من انتحل ذلك دوننا وادعاء ، مع بين أسلافنا وأسلافه ومن مضي من القديم والحديث من آبائنا وآبائه ، من العداوة القديمة الأصلية والبغضة في الإسلام والجاهلية . . الخ " (1) .

واضح من هذه الرسالة وغيرها من المراسلات التي تبودلت بين الخلافتين أنه كان من المتعذر التوفيق بينهما .

ثانياً : تقوية الأسطول الأندلسي

اهتم الناصر منذ بداية حكمه ، بإعداد أسطول يجري كامل الإعداد والنفسيق وبذل في ذلك جهوداً جبارة لدرجة أن عمال دور الصناعة - كما يقول دوزي - لم يجدوا وقتاً للراحة . وبذلك استطاع أن يشحن موانئه بالسفن والعتاد الحربي والجنود . ولقد أصدر الناصر أموامر إلى الأسطول بفرض حراسة مشددة على مضيق جبل طارق ، ومنع وصول إمدادات الفاطميين إلى الثائر الأندلسي عمر بن حفصون الذي كان قد اعترف بخلافة الفاطميين ، وفي ذلك يقول عذاري : "

وفي سنة 301 هـ ، ألفت للمشارك عمر بن حفصون مراكب في البحر كانت تميزه من العدو ، فأحرق جميعها . " (2)

ثالثاً : تحصين الثغور الأندلسية الجنوبية التي كانت عرضة لأي غزو مفاجئ يقوم به الفاطميون من المغرب على بلاده . ويروي المؤرخون أن هذا الخليفة ذهب بنفسه إلى هذه المنطقة 302 هـ (914م) حيث أشرف على الأعمال الدفاعية في طريف **tarifa** والجزيرة الخضراء **algeciras** ولا يزال القصر الذي بناه في طريف باقية أثاره إلى اليوم (1) أما الجزيرة الخضراء فيروي الحميري أن الناصر بنى فيها دار صناعة للأساطيل ، أتقن بناؤها ، وعلا أسوارها ، لأن مرساها هو أيسر المراسي وأقربها من بر العدو ، ويحاذيه مرسى مدينة سبتة (2) .

ونظراً لأهمية موقعها الثغر وخطورته ، فقد حرص الأمويون على جعله هو وما حوله من ثغور ، في يد أمير من الأسرة الأموية . (3) رابعاً . احتلال الثغور المغربية المطلّة على المضيق .

استولى عبد الرحمن الناصر على بعض ثغور الساحل المغربي المواجهة لساحل بلاده ، فيروي البكري أنه في سنة 314 هـ (927 م) .

استولى الناصر على مدينة مليلة **melille** ، وبنى سورها ، وجعلها معقلاً

للزعيم المكناسي موسى بن أبي العافية المكناس موسى بن أبي العافية حاكم هذه المناطق الشمالية ، الذي انضم عليه وخلع طاعة الفاطميين ، وأرسل بعض أسراهم إلى قرطبة لعرضهم في شوارعها . وفي ذلك يقول المؤرخ المعاصر أحمد بن موسى الرازي :

والمك المكناسي موسى بن أبي العافية المكناس موسى بن أبي العافية حاكم	والمك الناصر دين الله
هذه المناطق الشمالية ، الذي انضم عليه وخلع طاعة الفاطميين ، وأرسل بعض	بنى لموسى عدة مدينة
أسراهم إلى قرطبة لعرضهم في شوارعها . وفي ذلك يقول المؤرخ المعاصر	ذلت لها تاهرت والأفرقة
أحمد بن موسى الرازي :	ولم يطف بنيانها العمالقة

وفي ربيع الأول سنة 319 هـ (931 م) (2) احتل عبد الرحمن الناصر مدينة سبتة **ceuta** على يد فاقده فرج بن عفيره وعمل على تحصينها لأهمية موقعها . وقد وصف ذلك ابن عذاري بقوله :

وشكها بالرجال ، واتقنها بالبنيان ، وبنى سورها بالكذان ، وألزم فيها من رضيه من قواده وأجناده ، وصارت مفتاحاً للغرب والعدو من الأندلس ، وباباً إليها ، كما هي الجزيرة وطريف مفتاح الأندلس من العدو المغربية ، وقامت الخطبة فيها باسم أمير المؤمنين لثلاث خلون لربيع الأول من العام المؤرخ . (3)

هذا وقد كان يشير البكري إلى أنه كان يعيش بسبته جالية أندلسية كبيرة من أهالي مدينة قلسانة **calsena** هاجروا إليها واستوطنوها أيام المحل (الجذب) الذي حل بالأندلس (131 - 136 هـ) ، وأنهم كانوا يؤدون الطاعة إلى قريش المدرة من الحسينيين (أي الأدارسة) ، حتى افتتحها عبد الرحمن الناصر . (4) .

وكان من الطبيعي بعد احتلال سبته ، أن يحتل الناصر ثغر طنجة المجاور لها ، وقد أشار ابن عذاري إلى التحصينات التي أقامها عاهل الأندلس في هذه المدينة . (1) .

كذلك يروي البكري أن عبد الرحمن الناصر ، حاول في سنة 320 هـ (922 م) احتلال موقع هام بالقرب من سواحل تلمسان في المغرب الأوسط ، وهو جزيرة أرشقول ، التي تسمى اليوم رشجون **rachjoun** أمام مصب نهر تافنا بالجزائر ، وهي جزيرة عالية منيعة ، تحصن بها أحد أمراء الأدارسة ، واسمه الحسن بن عيسى بن أبي العيش . فحاصرها الأسطول الأندلسي مدة طويلة حتى كاد أهلها يهلكون من العطش بن أن فرغت جبابهم من المياه ، ثم تداركهم الله بغيث وابل روى ظمأهم عندئذ اضطر الأسطول الأندلسي أن ينصرف عنهم عائداً إلى المرية (2) .

وعلى الرغم من فشل عبد الرحمن الناصر في احتلال هذه القاعدة الجزائرية ، إلا أنه استطاع عن طريق القواعد الأخرى مثل سبته وطنجة ومليه ، أن يسيطر على الملاحة في مضيق جبل طارق ، وأن يتدخل في سياسة المغرب لإثارة قبائل البربر ضد النفوذ الفاطمي .

خامسا : اصطناع ملوك ورؤساء القبائل في المغرب

عمل الناصر على اصطناع رؤساء الدويلات التي كانت قائمة وقتذاك في شمال المغرب الأقصى ، مثل دولة الأدارسة التي كان نفوذها بعد الغزو الفاطمي قد انحصر في المناطق الجبلية الشمالية بنواحي البصرة ، وأصيلاً ، وقلعة النسر أو حجر الفسر بين قبائل غمارة . ومثل إمارة لكور أو بني صالح ، وهي إمارة عربية سنية مالكية بمنطقة الريف ، وكان يحكمها في ذلك الوقت الأمير صالح ابن سعيد . وتنسب هذه الأسرة إلى قائد عربي يماني من قواعد عقبة بن نافع اسمه صالح بن منصور الحريري ، كان قد استقر في هذه المنطقة ودفن بها ، وصار قبره هناك يعرف بقبر العبد الصالح ، ثم خلفه أبناؤه من بعده في حكم هذه المنطقة - ولقد لعبت إمارة نكور دوراً كبيراً في نشر الإسلام واللغة العربية بين أهل الريف من بربر غمارة وصنهاجة ، كما أنها في الوقت نفسه قاومت تيار الخوارج والشيعة ، ولقيت من وراء ذلك عناء كبيراً خفف من حدته تأييد الأمويين في الأندلس لها (1) .

ولم يقتصر الناصر على محالفة هذه الدويلات المغربية الشمالية ، بل تخطاها إلى ما وراءها من قبائل البربر ولا سيما قبيلة زناته التي عمل على تحريضها ودفعها إلى قتال صنهاجة خليفة الفاطميين . وقد شرح لنا صاحب كتاب مفاخر البربر هذه السياسة بقوله : -

" وتخطاهم عبد الرحمن إلى من سكن خلفهم من زعماء قبائل البربر ، يستألفهم ، ويحمل أهل الطاعة على أهل المعصية منهم ، ممداً لمن عجز برجاله ، مقوياً لمن ضعف بماله ، متعهداً بوجوه رسله وخواصه ، إلى أن تميز أكثر بوادي زنانه في حزبه ، وأرقسموا بطاعته ، ولا سيما عند امتياز أصدادهم صنهاجة في حزب أعدائه بني عبيد الله ، وجرت بأسباب ذلك بين الطائفتين من أولياء الدعوتين حروب يطول القول فيها ، ووقائع يبعد تقصيصها ، وهلك باختلافها من ملوك الدعوتين ، وزعماء الطائفتين جماعة كبيرة (1) " .

سادساً : تأييد ثورة أبي يزيد الخارجي

عمل الناصر على تشجيع وتأييد جميع الثورات والحركات المعادية للدولة الفاطمية ، نذكر منها ثورة الخوارج الخطيرة التي قامت في تونس والجزائر بزعمامة أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي الخارجي ضد الدولة الفاطمية . وقد شغلت هذه الثورة عهد الخليفة محمد القائم ، وجزءاً من عهد ولده اسماعيل المنصور (2) (234 - 341 هـ) ، ولم يتردد خليفة قرطبة في تأييدها وإمدادها بالمساعدات المالية والعسكرية ، وفي مقابل ذلك اعترف أبو يزيد الخارجي بالسيادة الأموية ودعا للخليفة الناصر في البلاد التي خضعت له فيروي ابن عذاري أنه في سنة 233 هـ (944) ، أرسل أبو يزيد إلى الناصر وفداً يخبره بتغلبه على القيرون ورقادة وما جاورهما ، وهزيمته لجند القائم الشيعي ، ويظهر له خضوعه واعترافه بولايته ، وفي السنة التالية (334 هـ) أرسل أبو يزيد إلى الناصر سفارة ثانية من علماء القيروان برئاسة تميم بن المحدث المشهور أبي العرب التميمي . وفي السنة التي تلتها (335 هـ) أرسل سفارة ثالثة برئاسة ولد أيوب . فأكرمه الناصر ، وأنزله في قصر الرصافة وأمده بمبلغ كبير من المال لتعزيز مركز والده ، وعلى الرغم من أن هذه الثورة قد شكلت خطراً كبيراً على الدولة الفاطمية إلا أنها انتهت أخيراً بالفشل وبقتل صاحبها سنة 336 هـ (948) (1) .

سابعاً : التحالف مع أعداء الدول الفاطمية من ملوك أوروبا والمشرق لم يتردد الناصر في إبرام اتفاقيات تحالف مع ملوك الدول المعادية للفاطميين فتحالف مع ملك إيطاليا هوج دي بروفانس hugues de province الذي كان يريد الانتقام من الفاطميين بسبب تخريبهم لميناء جنوة . كذلك تحالف مع قسطنطين السابع امبراطور الدولة البيزنطية الذي كان يرغب في استعادة

جزيرة صقلية من حوزة الفاطميين . وهنا تشيد المصادر الأندلسية بالاحتفالات الفخمة البالغة التي استقبل بها الناصر رسل الروم في سنتي 344 هـ (945 م) ، 338 هـ (950 م) (1) أما المصادر الإسماعيلية فإنها تؤكد وجود اتفاق حربي مشترك بين الأمويين والبيزنطيين على حصار الفاطميين : هؤلاء من المغرب ، وأولئك من الشرق ، وفي ذلك يقول القاضي النعمان :

" وكتب (الناصر) إلى طاغية الروم يسأله النصر . وأهدى إليه هدايا وأرسل إليه رسلاً من قبله فأجابه إلى ذلك . وجاءت أساطيل الروم من القسطنطينية ، ومراكب بني أمية من الأندلس " .

والواقع أننا لا نستطيع على مثل هذا التواطؤ الحربي المشترك لا سيما وأن المصادر الأندلسية لم تشرح لنا تفاصيل تلك المعاهدات التي أبرمت بين الناصر والبيزنطيين . وأغلب الظن أنها كانت على غرار المحالفات السابقة التي أبرمت بين الأمير عبد الرحمن الثاني والإمبراطور تيوفيل 225 هـ (840 م) وهي تقوم على ترك الحرية للبيزنطيين في قتال أعداء الدولة الأموية ولكن دون الارتباط معهم في حمل حربي مشترك (2) .

كذلك حرص الناصر على توطيد علاقاته مع الأخشيديين ملوك مصر ، فأرسل إليهم عشرة آلاف دينار لتوزيعها على علماء المذهب المالكي لمحاربة الدعاية الشيعية هناك . وجدير بالذكر أن رئيس المدرسة المالكية في مصر في ذلك الوقت كان عالماً أندلسياً اسمه أبو إسحاق محمد بن القاسم ويعرف بابن القرطبي ، وكان هذا الفقيه يذم الفاطميين ويسبهم ويدعو على نفسه بالموت قبل مجئ دولتهم وقد توفي فعلاً في سنة 355 هـ أي قبل الغزو الفاطمي لمصر بنحو ثلاث سنوات (1) .

على أن النزاع بين الفاطميين والأمويين لم يقتصر على هذه الحرب الباردة القائمة على التسابق في التسلخ ، واحتلال المواقع الهامة وإثارة الفتن بين قبائل البربر ، وتدبير المؤامرات من وراء ستار ، بل تطور الأمر إلى اشتباك مسلح بينهما . وقد أعطانا ابن الأثير وصفاً لبداية هذا الاشتباك بقوله : -

وفي سنة 344 هـ (955 م) أنشأ عبد الرحمن الناصر الأموي ، صاحب الأندلس ، مركباً كبيراً لم يعمل مثله ، وسير فيه أمتعة إلى بلاد المشرق فلقي في البحر مركباً كبيراً لم يعمل مثله ، وسير فيه أمتعة إلى بلاد المشرق فلقي في البحر مركباً فيه رسول من صقلية إلى المعز لدين الله الفاطمي فقطع عليه أهل المركب الأندلسي ، وأخذوا ما فيه ، وأخذوا الكتب التي إلى المعز ، وبلغ ذلك المعز فعمر أسطولاً واستعمل عليه الحسين علي صاحب صقلية ، وسيره إلى الأندلس فوصلوا إلى المرية فدخلوا المرسى وأحرقوا جميع ما فيه من المراكب ، وأخذوا ذلك المركب ، وكان قد عاد من الاسكندرية ، وفيه أمتعة لعبد

الرحمن وجوار ومغنيات وصعد من في الأسطول إلى البر فقتلوا ونهبوا ،
ورجعوا سالمين إلى المهديّة (2)

واضح من هذا النص السابق ، أن السبب الأساسي للاشتباك المسلح بين
الدولتين ، هو تلك الرسائل التي كان قد بعث بها وإلى الفاطميين بصقلية إلى
الخليفة المعز بالمهديّة . وقد رجح دوزي أن تكون هذه الرسائل تتعلق بمشروع
هجوم فاطمي على الأندلس ، وأن قائد السفينة الأندلسية كان على علم
بخطورتها ولهذا لم يتردد في الاستيلاء عليها (1) .

ولقد كان رد الناصر على هذا الاعتداء . أن أمر عماله بإطلاق اللعن على ملوك
الشيعة بجميع منابر الأندلس ، كما أمر مملوكه غالب بن عبد الرحمن الناصري
بالإبحار فوراً والإغارة على سواحل الفاطميين في إفريقية . (2) إلا أنه يبدو أن
القائد غالب لم يوفق كثيراً في هذه الغارة ، إذ يقول ابن الأثير في هذا الصدد .

" فنزلوا ونهبوا ، ثم قصدتهم ، عساكر المعز ، فعادوا إلى مراكبهم ، ورجعوا
إلى الأندلس وقد قتلوا وقتل منهم " (3) على أن القائد غالب لم يتردد في
معاودة الكرة في السنة التالية (345 هـ - 956 م) ، فهاجم بأسطول من
سبعين سفينة ، مدينة الخرز - حالياً *la calle* - وكانت كما يقول

البكري ، قاعدة بحرية تبنى فيها المراكب الحربية (4) ، فأضرم النار فيها ، كما
خرب منطقة سوسة وطبرقة شرقي بنزرت . (5)

هذا ، ويعطينا ابن عذاري وصفاً طريفاً يصور لنا بروز إحدى هذه الحملات
الموجهة ضد الفاطميين ، من العاصمة قرطبة ، ومدى الحماس والهرج الذي
انتاب الأهالي والجنود خلال هذا الاحتفال الشعبي ، ومثال ذلك قوله : -

" وفي سنة 347 هـ ، في أول المحرم ، أمر الناصر صاحب الشرطة القائد
أحمد بن يعلي بالخروج غازياً في الأسطول إلى بلد الشيعي معد ابن اسماعيل
(المعز) صاحب أفريقية . فبرز ابن يعلي إلى محلة الربض لغزاته هذه ، يوم
الخميس لثمان خلون منه ، وكان بروزه فحماً خرج إليه من النظارة من أهل
قرطبة رجالهم ونساؤهم وأبناؤهم وولدانهم ، خلق لا يحصيهم إلا خالقهم ،

فانتشروا بأكتاف الربض على عاداتهم ، فأخذ السفلة منهم والغوغاء ، يتقاذفون
بالحجارة حاكين صفى القتال ، فدخل في عرضهم قوم من الطنجيين من جند
السلطان ، حشروا الضراب حتى حمى وطيسه ، وقد تكنف صفيهم من النظارة
بالرجال والنساء خلق عظيم فلم يك إلا ساعة ، ودارت بينهم جولة ظهر فيها
أحد صفيهم ، فمالوا على مغلوبهم وانبسطوا عليهم فامتد الطنجيون بغالب
شرهم وجهلهم إلى نهب مغلوبهم من الرجال وتخطوهم إلى من حولهم من
النظارة ، وانبسطوا على النساء فسلبوهن ثيابهن ... وشرح ذلك يطول (1) .

واستمرت الغارات ، والاشتباكات البحرية متبادلة بين الطرفين دون توقف تقريباً فيما تلا ذلك من سنين ، كما استمر الأمويون في إثارة البربر ضد الفاطميين عن طريق قواعدهم العسكرية وجالياتهم الأندلسية على الساحل المغربي .

واضطر الخليفة المعز الفاطمي في سنة 347 هـ (958 م) أن يبعث فاقده جوهر الصقلي أو المغرب الأقصى لإخضاع البربر لسلطان الفاطميين والقضاء على النفوذ الأموي بالمغرب ونجح جوهر في إخضاع البربر (1) ولكنه لم يستطع القضاء على القواعد الأموية الساحلية إلى حرص الأمويون على التمسك بها والدفاع منها ، وفي ذلك يقول ابن عذاري :

" وفي سنة 348 هـ ، أوصل الناصر إلى نفسه حريز بن منذر في جماعة من وجوه الموالي والعرفاء ورجال الجند ، يأمرهم جميعاً بالخروج إلى مدينة سيئة من أرض العدو مع بدر الفتى الكبير صاحب السيف ، لتنفيذ العدد فيها من أجل جولان جوهر ، قائد معد الشيعي صاحب القيروان بأرض العدو ، فنفذوا لأمره ومكثوا لذلك إلى أن أمنت الحادثة ، فانصرفوا مع القائد بدر ، آخر ذي الحجة من السنة (2)

ثم توفي الخليفة الناصر ، وخلفه ابنه الحكم الثاني المستنصر بالله (250 - 366 هـ = 961 - 976 م) الذي سار على سياسة والده العدائية نحو الفاطميين . فيروي ابن عذاري أنه في سنة 353 هـ تحرك الحكم بنفسه من قرطبة إلى ثغر المرية توقعاً لما يصدر من صاحب أفريقية المحاد لأهل الأندلس ، ولمعينة ما استكملة بها من الحصانة ، ومطالعة الرابطة القبطية -

حالياً **gabo de gata** ومشاركة حال الرعايا بتلك الجهة (3) ومن هذا كله ، يبدو أن الفاطميين شعروا باستحالة غزو الأندلس ، كما شعروا أن بقائهم بالمغرب أمر محفوف بالمخاطر أمام وثبات البربر وتقلباتهم ، وأما غارات الأمويين وفسائسهم ، ولعل هذا هو السبب الحقيقي الذي جعلهم

يصممون على إخلاء هذا الميدان والتحول إلى مصر . (1)

وفي عام 258 هـ (969 م) ، تمكن القائد من الاستيلاء على مصر وتأسيس العاصمة الجديدة القاهرة . وهذا الغزو من الاستيلاء على مصر وتأسيس العاصمة الجديدة القاهرة . وهذا الغزو يعتبر فريداً في نوعه ، إذ لم يسبق أن فتحت مصر من حدودها الغربية إلا في أيام الفراعنة ، حينما غزاها الليبيون أيام الأسرتين 22 ، 23 . ثم لحق الخليفة المعز بقائده جوهر في مصر سنة 362 هـ تاركاً حكم المغرب في يد حلفائه بني زري زعماء صنهاجه .

واستمرت السيادة الفاطمية والأموية في المغرب قائمة على مبدأ المنافسة بين قبائل صنهاجة وزناته وضرب بعضها ببعض . وأخيراً تمكنت صنهاجة ، أو

بمعنى آخر الدولة الزيرية ، من بسط سيطرتها باسم الفاطميين على جميع النصف الشرقي من المغرب ، أما القسم الغربي من نهر ملوية إلى طنجة ، فقد سيطرت عليه زنانة وحلفاؤها الأمويون .

وهكذا حدث نوع من توازن القوى بين الخلافتين المتنازعين وحلفاتهما في المغرب ، وبالتالي خفت وطأة الشيعة على المغرب الأقصى والأندلس (2) . على أن ابتعاد الخلافتين عن بعضهما . لم يحل دون استمرار العداء بينهما ولا أدل على ذلك من الخطاب الذي أرسله الخليفة العزيز بالله الفاطمي إلى خليفة الأندلس الحكم المستنصر يهجو فيه ، وقد رد عليه الخليفة الأموي بعبارة موجزة حسمة ، وقد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفنا لأجبنك ، (1) وفي هذا إشارة إلى الطعن في نسبه .

كذلك يرى من حجر السقلاني أن رحلاً أندلسياً حاول اغتيال قاضي قضاة مصر الحسين بن علي الفاطمي أثناء تأديته الصلاة في أحد مساجد ألقاه سنة 291 هـ واستند ذلك الوقت اضطر القضاة إلى اتخاذ حرس أم الصلاة . (2) هذا ولم يتردد الأمويون في إظهار نواياهم وأطباعهم في الاستيلاء على ملك الفاطميين في مصر والشام . ونجد ذلك واضحاً في شعر حاجبهم المنصور بن أبي عامر على عهد الخليفة هشام المؤيد مثل قوله :

عن قريب نرى خيول هشام يبلغ النيل خطرهما والشأما (3)
ومن الغريب أن ما تنبأ به المنصور من شعر هنا ، قد كاد أن يتحقق فعلاً بعد وفاته بقليل . إذ يروي المؤرخون أنه في عام 395 هـ (1005 م) . قامت في إقليم برقة ثورة سنية خطيرة ضد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي ، قام بها أحد أفراد البيت الأموي ، ويسمى الوليد بن هشام من ولد المغيرة بن عبد الرحمن الداخل ، ويلقب بأبي وكرة - وكان قد خرج من الأندلس مظهراً التصرف ، واشتغل بتعليم الصبيان ، ولما قوى أمره دعا على المنابر باسم الخليفة هشام المؤيد ، وكان يلعب الحاكم بأمر الله وآباءه ، واستولى على برقة ، وانتصر على الجيوش التي وجهها إليه الحاكم ، واستطاع في سنة 297 هـ (1007 م) ، أن يطارد الجيوش الفاطمية حتى أهرام الجيزة ، ولكنه انهزم أخيراً وأسر ، وعرضه الحاكم في شوارع القاهرة عرضاً مزرياً ، إذ جعل وراءه قرداً يصفه على رأسه ثم قتله وصلبه . (1)

علأنه يبدو أن هذه الثورة الأموية السنية ، وإن كانت قد فشلت في القضاء عن دولة الفاطميين في مصر . إلا أنها قد تركت آثاراً سنية معادية للفاطم في مناطق نفوذهم بالمغرب الأدنى ويظهر ذلك جلياً في سياسة المعز بن باديس الصنهاجي . ملك الدولة الزيرية ، حينما قتلك بالشيعة في ولايته سنة 408 هـ

(1017م) . ويقال في تعليل ذلك إن المعز وقع تحت تأثير أستاذ سني المذهب كان قد تولى تربيته منذ صغره (2) .

ويروى ابن الأثير ، أن المعز بن باديس كان ماشياً مع القيروان والناس يدعون له ، فاجتاز بجماعة هناك ، فقيل له هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر ، فقال المعز ، رضي الله عن أبي بكر وعمر ، فانصرفت العامة من فورها على هرب المقلّي بالقيروان ، وهو مكان يجتمع به الشيعة فقتلوا فيهم ثم انتشرت المذابح في أنحاء الدولة الزيرية . وكانت القيمة تسمى في المغرب بالمشاركة نسبة إلى عبد الله الشيعي الداعي الذي يعرف أيضاً بالمشركي لأنه جاء من المشرق . (

(1

ولم يقتصر أمير أفريقية على اضطهاد الشيعة بل أخذ بحمل الناس على اعتناق المذهب المالكي وترك ما دونه من المذاهب الأخرى حتى يتم له بذلك الانفصال الروحي أو المذهبي عن الدولة الفاطمية في مصر (7) . وهكذا نرى مما تقدم ، أن النزاع بين هاتين الخلافتين ، كان نزاعاً مذهبياً عنيفاً يتعذر حله ، ولا يرجى صلاحه ، ولهذا استمر قائماً بينهما إلى أواخر أيامها .
نهاية الخلافة الأموية بالأندلس :

استمرت الخلافة الأموية في الأندلس تجمع بين السلطتين الزمنية والروحية ، إلى أن جاء الحاجب المنصور بن أبي عام وأبناؤه من بعده فانتزعوا منها السلطة الزمنية على عهد الخليفة الأموي هشام المؤبد ، واستبدوا بالأمر على الخليفة الشرعي فكان مثلهم في ذلك مثل البويهيين والسلاجقة الذين سيطروا على الخلافة العباسية في بغداد ومثل أسرة بدر الجمالي التي سيطرت على الخلافة الفاطمية في القاهرة .

ولا شك أن هذا الفصل بين السلطتين الزمنية والروحية ، كان مقدمة لنهاية الخلافة الأموية بالأندلس ، لا سيما بعد أن طمع عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر (1) فيما لم يطمع فيه أبوه المنصور ولا أخوه عبد الملك المظفر من قبل .

ذلك أنه طمع فيما بقي للخليفة الأموي من سلطة روحية وأراد أن يستأثر لنفسه بالسلطة الشرعية في الدولة أي بالخلافة نفسها ، وكان الخليفة هشام رجلاً طيباً لا يرد طلباً فيتقدم إليه عبد الرحمن بأن يعهد إليه بولاية العهد . فوافق هشام وكتب عهداً بذلك مضمونه أن الخليفة لم يجد من هو أصلح لولاية العهد بعده من هذا القحطاني عبد الرحمن . وقد هز هذا الحادث الدولة الأموية هزاً عنيفاً ، وعز على المضربين أن ينتقل العرش إلى اليميين (1) وأن تبتعد الخلافة عن قریش فانبعث العصبية العربية ، وانتهز الأمويون والمضربون فرصة غياب عبد الرحمن العامري في الشمال وقاموا بحركة قوية فخلعوا

هشاماً عن العرش ، وولوا رجلاً من أحفاد الناصر ، وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ولقبوه المهدي بالله .
ولما بلغت الأخبار عبد الرحمن ، رجع من الشمال وكان كلما اقترب من قرطبة انفض عنه جماعة من جيشه حتى صار في قلة من أصحابه ، فاعترضه من خصومه معترض فقبض عليه وحز رأسه وحمله للمهدي وجماعته . ويموته انتهت دولة بني عامر سنة 399هـ . ويلاحظ أن نهاية هذه الدولة يدل على تعلق الناس بالخلافة ، وحرصهم على أن تكون من قريش (2) .
والفترة الباقية من العصر الأموي بالأندلس ، مليئة بالفتن والاضطرابات تصارعت فيها العناصر المختلفة في الدولة كالبربر والصقالبة وأهل قرطبة .
ويكفي الدلالة على مدى انقسام الدولة واضطرابها في هذه الفترة الأخيرة أن عدد الخلفاء الأمويين الذين حكموا فيها كان يزيد على عدد الخلفاء الذين حكموا قبلهم منذ بداية الدولة الأموية في الأندلس .

وفي سنة 422 هـ (1031 م) سقطت الدولة الأموية بعد نزل آخر خلفائها هشام الثالث المعتد بالله وإجلاء من تبقى من المروانية عن قرطبة وفي ذلك يقول ابن الخطيب : ومتى البريد في الأسواق والأرباض بأن لا يبقى أحد بقرطبة من بني أمية ، ولا يكنفهم أحد (1) . ثم أعلن الوزير أبو الحزم بن جهود انتهاء رسم الخلافة جملة لعدم وجود من يستحقها وصيرورة الأمر شورى وأيدي الوزراء وصفوة الزعماء أو ما أسماه بالجماعة .
وهكذا تحول الحكم في قرطبة إلى نظام شبيه بالحكم الجمهوري عرف في كتب التاريخ بحكم الجماعة (2)

تعدد الخلافة في عصر دول الطوائف

نتج عن سقوط الدولة الأموية أن انقسمت الأندلس أن دويلات صغيرة متنازعة ، واستقل كل أمير بناحيته ، وأعلن نفسه ملكاً عليها فدخلت البلاد بذلك في عصر جديد هو عصر ملوك الطوائف ، أو عصر الفرق كما يسميه ابن

الكرديبوس (2)

ولقد انضوت هذه الدويلات الطائفية تحت لواء ثلاثة أحزاب كبيرة عمل كل منها على بسط سلطانه على الأندلس :

الحزب الأول : ويمثله أهل الأندلس ، وهم أهل البلاد الذين استقروا فيها من قديم والذين تأسبنوا أو انصهروا في البوتقة الأسبانية بمرور الزمن وصاروا أندلسيين ، بغض النظر عن أصلهم العربي أو المغربي أو الصقلبي أو الأسباني وقد عرف هؤلاء بأهل الجماعة .

وكان من زعمائهم بنو عباد اللخميون (1) في إشبيلية وبنو جهوو في قرطبة وبنو هود الجذاميون في الثغر الأعلى سرقسطة وبنو صمادح أو بنو نجيب في

المرية ، وبنوا برزال في قرمونة ، ونبو خزرون في أركش ، وبنو نوح في مورور **moron** وعبد العزيز بن أبي عامر في بلنسية (7) . الخ أما الحزب الثاني فيمثلته المغاربة أو البربر الحديثو العهد بالأندلس ولا سيما الصناهجة الذين استقروا بها في أيام المنصور بن أبي عامر ، ومن زعماء هذا الحزب بتوزيري الصنهاجيون في غرناطة وهم فرع من بني زيري حكام الدولة الزيرية في إفريقية على عهد الفاطميين ، وكذلك بنو حمود الإدارة الحسنيون العلويون ، وهم من سلالة الأمير أبي حفص عمر بن إدريس الثاني الذي كان يحكم بلاد غمارة في شمال المغرب على شاطئ البحر المتوسط . وفي خلال الفتنة التي عمت الأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية انتهز أمير من سلالة الأمير أبي حفص عمر وهو ، علي بن حمودة وكان والياً على طنجة وسبته ، فاستولى على مالقة ثم تقدم إلى قرطبة وقتل صاحبها الخليفة الأموي سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن " الملقب بالمستعين ، وذلك سنة 407 هـ وأسس دولة الحموديين التي كانت قاعدتها مالقة (1) ويلاحظ أن هؤلاء الحموديين كانوا بحكم استقرارهم بين البربر في المغرب مدة طويلة قد صاروا منهم يتكلمون بلسانهم البربري ومثل ذلك ما يرويه ابن الخطيب من أن علي بن حمود السالف الذكر كان بربري اللسان وأنه حينما قتل سليمان المستعين قال : لا يقتل الزلطان إلا الزلطان " . (7)

أما الحزب الثالث فيمثلته كبار الصقالبة الذي استقلوا بشرق الأندلس **levante** وهؤلاء الصقالبة كانوا في الأصل رقيقاً أو عبيداً من سبي الشعوب السلافية الذين يبعوا إلى عرب الأندلس ، ولذا أطلق العرب عليهم اسم الصقالبة ثم توسع الأندلسيون في استعمال هذا الاسم ، وأطلقوه على مواليهم الذين جلبوا من مختلف البلاد الأوروبية بما في ذلك شمال أسبانيا المسيحي . وجاء أغلب هؤلاء الصقالبة أطفالاً من الجنسين إلى قرطبة حيث ربي الذكور منهم تربية عسكرية إسلامية واستخدموا في أعمال القصر والحرس والجيش ثم تدرجوا في الرقي حتى صار منهم الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة الأموية ، كما برز منهم الأدباء والشعراء وأصحاب المكتبات الكبيرة والضياع الواسعة . وفي أثناء اضمحلال الخلافة الأموية ، شارك هؤلاء الصقالبة في المؤامرات التي قامت في قرطبة وسائر البلاد وتزعمهم خيران العامري رئيس حزب الصقالية في العاصمة . وبعد سقوط الدولة الأموية ، تكونت من هذا الحزب الدويلات الإسلامية الصغيرة التي قامت في شرق الأندلس ، والتي كانت تجمعها رابطة تحالف وتسمى بالدولة العامرية الصقلبية ، لأن أصحابها كانوا من ممالك المنصور بن أبي عامر وأبنائه . ومن كبار زعماء الصقالبة الذين برزوا في هذه المنطقة نذكر مجاهد العامري الذي استقل بداية ثم استولى على الجزر

الشرقية (البليار) وغزا جزيرة سرداينا وسواحل إيطاليا وسيطرت أساطيله على غربي حوض البحر المتوسط () .

ولقد حاول كل فريق من هذه الأحزاب السابقة أن يحيط ملكة بسياح شرعي روعي ليستمد منه سلطانه وذلك بإقامة خليفة بجواره .

فينو عباد باعتبارهم أقوى ملوك الحزب الأول ، جاءوا بشخص فقير يسمى ، " خلف الحصري ، كان يعمل حصرياً في مصنع للحلفاء ، " كان شديد الشبه بالخليفة الأموي هشام المؤيد للشكوك في موته ، فأقاموه خليفة على أنه هشام صاحب الجماعة وموهوا به على الناس زمناً إلى أن أظهر موته للمعتضد بن عباد وقعه إلى رعيته سنة 455 هـ واستظهر بعهد عهده له الخليفة هشام المزعوم بأنه الأمير بعده على جزيرة الأندلس . (2)

أما الحزب المغربي في الأندلس ، فقد تزعمته خلافة بني حمود مستندة إلى أصلها العلوي الشريف . ولا شك أن تاريخ الأدارسة الطويل بالمغرب قد أكسبهم زعامة روحية بين المغاربة حتى صار الخليفة الحمودي يعرف بصاحب البربر ، وهو يقابل صاحب الجماعة في الحزب الأول . على أن فقر بن حمزة في الأندلس وإن كان قد امتد إلى قرطبة فترة قصيرة من الوقت ، إلا أنه كان قاصراً على منطقة مالقة والجزيرة الخضراء أي في الجزء الجنوبي من الأندلس المجاو . لممتلكاتهم في شمال المغرب ، ولم يلبث بنو حمود أن القسموا على أنفسهم ، وصار كل واحد فيهم يدعي الخلافة لنفسه ويلقب نفسه بلقب محلا في مثل المهدي والعالى والمستعلي والسامي والمتأيد . (1)

ولم يلبث نفوذ بني حمود أن انتهى في الأندلس بأن استولى بنو زيري ملوك غرناطة على مالقة ، كما استولى بنو عباد على الجزيرة الخضراء فأنتهى بذلك ملك الحموديين الذين عادوا ثانية إلى مقرهم الأصلي في العدو المغربية . أما الفريق الثالث ، هو الحزب الصقلبي ، فقد حاول بعض ملوكه كذلك إحياء الخلافة في مملكته ، ونذكر على سبيل المثال أبا الجيش مجاهد العامري الصقلبي الذي أقام في مملكته بدانية والجزر الشرقية ، خليفة قرشياً من إشراف قرطبة ينتسب إلى الأمويين وهو الفقيه أبو عبد الله بن الوليد المعيطي ، ولقبه بالمنتصر بالله ، وأثبت اسمه في سكنه وإعلامه سنة 405 هـ . ولكنه سرعان ما عزله وطرده من مملكته عندما علم بأنه قد تأمر ضده أثناء غيابه في غزو جزيرة سردانيا . وقد لجأ المعيطي إلى مدينة بجاية بالمغرب الأوسط حيث اشتغل معلماً لصبيان البربر إلى أن مات سنة 432 هـ (1)

وهكذا نجد أن الخلافة في الأندلس قد تعددت بتعدد ملوك الطوائف واصطدمت مصالحتها لقرب المسافات بينها ، وهذا يعبر مظهراً من مظاهر الفوضى وعملاً من عوامل الفتنة في تلك الفترة . وعلى الرغم من أن أئمة المسلمين قد أجازوا

تعدد الخلافة الضرورة والمصلحة وهي اتساع رقعة الإسلام وتباعد أطرافه وصعوبة المواصلات فيه " إلا أنهم اشترطوا في ذلك وجود مسافة كبيرة بين الخليفة والآخر منعاً للتصادم والتشاحن ، ولحماية المسلمين من شرور الفتنة ، ولكننا نرى أن الأندلس في هذه الفترة قد خرجت عن هذا الأصل الشرعي لأنها أجازت العقد لخلفاء عديدين في صقع متضايق الأقطار ، فتكبدت بذلك وزر هذا العمل من فتنة واضطراب ، ولعل خير تعقيب على ذلك قول أبي محمد بن حزم في هذا العدد : " اجتمع عندنا بالأندلس في صقع واحد خلفاء أربعة كل واحد منهم يخطب لهم بالخلافة بموضعه ، وتلك فضيحة لم ير مثلها ، أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام كلهم يتسمى بالخلافة وإمارة المؤمنين وهم : خلف الحصري بإشبيلية على أنه هشام من بعد اثنتين وعشرين سنة من موت هشام وشهد له خصيان ونران ، فخطب له على مقابر الأندلس وسفكت الدماء من أجله .
ومحمد بن القاسم خليفة بالجزيرة الخضراء ، ومحمد بن إدريس خليفة بمالقة وإدريس بن يحيى بن علي ببشتر " (1) .

ومن الغريب أن معظم هؤلاء الملوك الطائفيين قد عهدوا إلى تقليد الخلفاء العباسيين والفاطميين في حياتهم وفي ألقابهم ونعرتهم الخلافية وفي ذلك يقول الشاعر أبو الحسن بن رشيق القيرواني .

مما يزهدي في أرض الأندلس أسماء معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها كالمر يحكي انتفاخاً صورة الأسد (2)
هذا وقد بلغ من أمر تقليد هؤلاء الملوك لخلفاء الشرق أن بني حمود الأدارسة في مالقة كانوا إذا حضرهم شاعر أو زائر كان عليه أن يتكلم معهم من وراء حجاب أوستر ، والحاجب واقف عند الستر يجابوب بما يقوله الخليفة .

فيروى في هذا العدد أنه لما حضر الشاعر ابن مقاناً الأشبوني أمام الخليفة إدريس بن يحيى الحمودي وأنشده قصيدته النونية التي مطلعها :

وكان الشمس لما أشرقفت فأننت عنها عيون الناظرين

إلى أن قال : أنظرونا تقتبس من نوركم

إنه من نور رب العالمين

عندئذ وقع الخليفة الحمودي الستر بنفسه وقال : انظر كيف شئت وانبسط مع

الشاعر (1)

وهذا الحادث يرينا مدى الروح الديموقراطية التي ظلت تسود حكام الغرب الإسلامي رغ هذه القداسة المصطنعة التي حاولوا تقليد المشرق فيها .
المرابطون والخلافة العباسية :

وبينما كانت الأندلس تعاني من هذا التفكك السياسي والاجتماعي تحت حكم ملوك الطوائف ، إذا بالمغرب يتمتع بوحدة سياسية ودينية قوية في ظل دولة المرابطين وزعيمها أبي يعقوب يوسف بن تاشفين اللتوني الصنهاجي (2) : ولا شك أن تاريخ بلاد العدوتين المغربية والأندلسية ، الذي هو وليد جغرافيتها ، يجعلنا ندرك تماماً بأن هذه القوة المرابطة الفتية الطموحة ما كانت لنقف وجها لوجه أمام الأندلس مكتوفة الأيدي عند هذا الحد الشمالي للمغرب ، لأن منطق الأحداث التاريخية ، من قبل ومن بعد . كان يفرض عليها الانتشار والتوسع في العدو الأندلسية المقابلة ، خصوصاً بعد أن امتلك المرابطون ثغور المجاز المغربية مثل سبتة وطنجة ومليلة . وقد يؤيد هذا الكلام تلك القصة التي أوردها صاحب المعجب عن مخاوف الأندلسيين من هذا الغزو المرابطي منذ أن بدأت طلائعه تخرج من صحراء شنجيط (موريتانيا الحالية) وتتدفق نحو المغرب الأقصى (1) . إلا أنه يبدو أن الظروف السياسية قد خدمت المرابطين في هذه الناحية ، فجعلت الأندلس تحت ضغط الغزو المسيحي من الشمال هي السبابة في طلب المعونة من المغرب قبل أن تفرض عليها فرضاً ، وقد روى في هذا العدد أن المعتمد بن عباد حيثما عزم على الاستجداد بالمرابطين قال جعلته المشهورة التي عبرت عن شعور المسلمين في ذلك العصر : " رعى الجمال عندي خير من رعى الخنازير أ " . وهذا التصريح الجميل يدل بوضوح على أن المعتمد كان يعلم تماماً بأن ملكة ضائع سواء على يد المرابطين في الجنوب أو الأسيان في الشمال ، إلا أنه كان يفضل السيادة الإسلامية بطبيعة الحال

ثم عبر المرابطون الأندلس واقتصروا على ملك أسبانيا الفوفسو السادس في وقعة الزلافة سنة 479 هـ (1086 م) . ثم أعقبوا هذا الانتصار بالاستيلاء على الأندلس ، وخلع ملوك الطوائف بعد أن ثبت تخاذلهم وتواطؤ بعضهم مع العدو " وبذلك أصبح القطران (المغرب والأندلس) - ، يكونان دولة واحدة قوية عاصمتها مدينة مراكش . وعلى الرغم من ضخامة هذه المملكة المغربية فإن المرابطين لم يحاولوا تلقيب أنفسهم بلقب خليفة أو أمير المؤمنين بل اكتفوا بلقب أمير المسلمين ودعوا للخليفة العباسي ببغداد (1) وفي هذا العدد يقول صاحب الحل الموشيه : ولما ضخمت مملكة يوسف بن تاشفين واتسعت عمالته ، اجتمعت إليه أشياخ قبيلته وأعيان دولته وقالت له : أنت خليفة الله في أرضه وحقك أكبر من أن تدعي بالأمير ، بل ندعوك بأمير المؤمنين . فقال لهم : حاش الله أن تتسمى بهذا الاسم ، إنما يتسنى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة ولأنهم ملوك الحرمين : مكة والمدينة وأنا راجلهم والقائم بدعوتهم فقالوا له لابد من اسم تمتاز به فأجاب إلى أمير

المسلمين وناصر الدين وخطب له بذلك في المنابر وخطب به من العدوتين)
(1) .

وفي هذا المعنى أيضاً يقول السلوي الناصري : وإنما أحتاج أمير المسلمين إلى التقليد من الخليفة العباسي مع أنه كان بعيداً عنه وأقوى شوكة منه لتكون ولاته مستندة إلى الشرع . . . وإنما تسمى بأمير المسلمين دون أمير المؤمنين أدنا مع الخليفة حتى لا يشاركه في لقبه ، لأن لقب أمير المؤمنين خاص بالخليفة والخليفة من قريش (2) .

وبعض المؤرخين مثل ابن أبي روزع في كتابه روض القرطاس يرون أن يوسف بن تاشفين ، قد اتخذ لقب أمير المسلمين بعد انتصاره في موقعة الزلاقة سنة 479 هـ (086 م) وهذا الرأي مشكوك في صحته والدليل على ذلك هو الظهير الرسمي الذي أصدره يوسف بن تاشفين إلى رعيته لتلقيه بأمير المسلمين وناصر الدين ، وهذا الظير ينص على تاريخ صدره وهو نصف المحرم سنة 466 هـ أي قبل موقعة الزلاقة بثلاثة عشر عاماً . وقد ورد هذا الظهير في كتاب الحلل الموشية السالف الذكر (3) .

كذلك يروى بعض المؤرخين أن دعاء الرابطين للخليفة العباسي قد تم بعد موقعة الزلاقة أيضاً وهذا يبدو غير صحيح كذلك لأن النقود المرابطة تثبت لنا أنهم دعوا للخلفاء العباسيين ولقشوا اسمهم على السكة منذ سنة 450 هـ أي منذ بداية دولتهم في عهد الأمير أبي بكر بن عمر ، غير أنه يلاحظ أن اسم الخليفة العباسي المنقوش على السكة المرابطة كان يكتب في هذه الصيغة " عبد الله أمير المؤمنين (1) . وقد رجح البعض أن المقصود بهذا الاسم هو عبد الله بن ياسين مؤسس الدعوة المرابطة ولكن هذا الرأي غير صحيح كذلك لأن عبد الله بن ياسين لم يتخذ لنفسه لقباً خلافاً ولم يتجاوز سلطته كفقيه ، والرأي الصائب هو ما رواه العالم الأثري الألماني فإن برشم van berchem من أن الخلفاء العباسيين كانوا يكونون عن أنفسهم يلقب عبد الله في النقوش أو النقود ، ولم يذكروا أسماءهم المجردة ، وقد فعل المرابطون بالمثل فاكتفوا باستعمال صيغة عبد الله وهي كنية يمكن أن تخلع على أي خليفة عباسي ، ثم أضافوا إلى جانبها لقب " أمير المؤمنين (2) " .

هذا وينبغي أن نشير إلى أن المرابطين قد اتخذوا السواد شعاراً لهم في ملابسهم وأعلامهم - وهذا اللون الأسود كما هو معروف هو شعار العباسيين الذين أصبحت لهم السيادة الروحية على تلك البلاد الغربية بعد انقطاع طويل . بقت مسألة أخيرة تسترعي الانتباه والاهتمام وهي معرفة اسم الخليفة العباسي الذي أرسل إلى يوسف بن تاشفين تقليده واعترافه بشرعية حكمه على تلك النواحي الغربية ، وكذلك اسم الرسول الذي حمل الرسالة الخلفية إلى العاهل

المغربي . وقد قصى ابن خلدون على أن يوسف بن تاشفين خاطب الخليفة العباسي المستظهر بالله ، وأوفد عليه ببيعته ، عبد الله بن العربي وولده القاضي أبا بكر من مشيخة إشبيلية يطلبان ترقيته إياه على المغرب وتقليده ذلك ، فانقلبوا إليه بعهد الخلافة له على المغرب (1) .

وعلى الرغم من هذا النص الصريح الذي يحدد اسم الخليفة العباسي ، والرسول المغربي ، فإن بعض المؤرخين قد كتب اسم الخليفة على أنه المقتدى أو المستنصر بالله (2) ، كذلك نلاحظ أن المؤرخين والكتاب الآن ترجموا لحياة القاضي أبي بكر بن العربي ، قد تكلموا عن رحلته وأشيأه ومؤلفاته وأشعاره في شيء من التفصيل ، إلا أنهم لم يبرزوا الدزر السياسي إلهام الذي قام به هو ووالده خلال هذه الرحلة (3) . بل ويذهب عبد الحي الكتاني إلى إنكار هذا الدور السياسي من أساسه ، ونقض رواية ابن خلدون بقوله :

" وما ذكره ابن خلدون في هذا الصدد منقوض " فإن ابن العربي ووالده ذهباً للمشرق فراراً من يوسف بن تاشفين لما سقطت دولة المعتمد بن عباد بدليل أن عبد الله بقي بالمشرق إلى أن مات هناك إجماعاً (1) ، وولده أبو بكر بقي بعده ، ورجع لبلده لا لمراكش ، وفي مدة انتقالهما وجولاتهما بالمشرق ، اعتقلت أملاكها عليها إلى أن ربح أبو بكر فتشفع في ردها عليه الحافظ أبو علي الصديقي " (2) .

والواقع إن ما ظهر بعد ذلك من وثائق ونصوص حول هذا الموضوع ، يتفق مع ما جاء في كلام ابن خلدون ويناقض رأى عبد الحي الكتاني . فمن حسن الحظ أنه توجد لدينا الآن قطعة خطية من كتاب ، ترتيب الرحلة للرغيب في الملة ، لهذا العالم المشهور أبي بكر بن العربي للعافري المالكي قاضي قضاة إشبيلية ، على عهد المرابطين (468 - 542 هـ = 1076 - 1148 م) . ففي هذا الكتاب تحدث ابن العربي عن رحلته التي قام بها إلى المشرق صحية والده سنة 485 هـ وكان عمره إذ ذاك لم يتجاوز السبعة عشر ، كما أورد في كلامه خطابات ووثائق رسمية هامة تضمنت الحقائق التالية :-

أولاً : أن الغرض من هذه الرحلة هو طلب خطاب شريف من حضرة الخلافة يشتمل على تسليم جميع بلاد المغرب إلى الأمير ناصر الدين يوسف بن تاشفين ليكون رئيسهم ورؤوسهم تحت طاعته ، وأن من خالف أمره فقد خالف أمر أمير المؤمنين ابن عم سيد المرسلين ، ويتعين جهاده على كافة المسلمين . ثانياً : أن الخليفة العباسي في ذلك الوقت هو الخليفة أحمد المستظهر بالله (487 - 52 هـ = 1094 - 1118 م) الذي استجاب لهذا الطلب وسلم ابن العربي ووالده تقليده وعهده للأمير يوسف بن تاشفين موقعاً عليه بعلامته ، القاهر بالله .

ثالثاً . نص خطاب الوزير العباسي أبي منصور محمد بن جهير إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في هذا المعنى أيضاً .

رابعاً : نص الفتيا التي طلبها ابن العربي ووالده من الفيلسوف أبي حامد الغزالي العلوسي (450 - 505 هـ) حول المشاكل التي تتعلق بشرعية حكم الأمير يوسف بن تاشفين ، وإجابة الغزالي عليها ، ثم نص الخطاب الذي بعث به الغزالي إلى يوسف بن تاشفين . وقد أشارت الفتيا إلى الموقف العدائي الذي وقفه ملوك الطوائف في الأندلس تجاه يوسف تاشفين ورفضهم الجهاد معه لأنه ليس إماماً من قريش أو نائباً عن إمام ، واتهامهم له بالاحتيال لعدم وجود ما يثبت ذلك لديه . وقد نص الغزالي في إجابته على أن تأخر منشور التقليد الخلافي عن يوسف بن تاشفين . لاعتراض العوائق المانعة من وصوله ، لا يمنع من أن يكون ابن تاشفين نائباً عن الإمام بحكم قرينة الحال ، وأن على الإمام أن يتدارك مثل هذه الأحوال بالسرعة الواجبة منعاً لوقوع الفتن . هذه هي خلاصة بعض الحقائق التي تضمنتها الوثائق السالفة الذكر ونظراً لأهميتها رأينا أن ننشرها كضميمة في آخر هذا الكتاب .

خلافة الموحدين :

وخلفت دولة المرابطين في حكم المغرب والأندلس ، دولة مغربية أخرى هي دولة الموحدين . وقد قامت هذه الدولة على أساس دعوة دينية إصلاحية ، طابعها التجديد والعظمة وهدفها تحقيق وحدة إسلامية شاملة .

ومؤسس هذه الدعوة هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن تومرت الهرغي المصمودي السوسي . وواضح من اسمه أنه من قبيلة هرغي إحدى بطون مصمودة الساكنة في بلاد السوس بجبال أطلس .

رحل ابن تومرت في شبابه إلى المشرق ، وطاف بعواصم الحجاز والشام والعراق ومصر ، طلباً للعلم ، ونفس حالة الضعف التي كان يعانيها المجتمع الإسلامي في ظل الخلافتين الهرميتين : العباسية والفاطمية ، ونجاح الصليبيين في تأسيس إمارات لهم في الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس ، عندئذ لم يطق صبراً على ذلك ، وأنبري يهاجم الأوضاع السائدة بكل شدة وعنف : يروي ابن القطان في هذا العدد :

" ونزل المهدي مدينة الاسكندرية " فرأى بها مناكر فغيرها ، وأغلظ في أمرها ، فقامت عليه العامة ، والغوغاء ، وصاروا يقطعون عليه طريقه إلى مجلس أبي بكر الطرطوشي ، فلما فقده الطرطوشي بحث عنه حتى أعلم بمكانه ، فقصده إليه وهو في مسجد الأخضر على ساحل البحر ، فترامى عليه وصافحه ، وسأله عن سبب غيبته عن مجلسه ، فعرفه بشأن أولئك الغوغاء ، وأنه يريد الذهاب إلى المغرب ، فودعه وانصرف (1) . "

ثم يستمر ابن القطان في وصفه لرحلة ابن تومرت من الإسكندرية إلى المغرب بجرأ وبراً ، كذلك تجد وصفاً أكثر تفصيلاً لهذه الرحلة في كتاب أخبار المهدي ابن تومرت لأبي بكر الصنهاجي المكنى بالبيذق (2) وهو من تلاميذ ابن تومرت ، ونخرج من هذا الوصف وذاك ، أن ابن تومرت كان طوال رحلته سواء في تونس أو الجزائر أو المغرب الأقصى ، كان يعمل على محاربة البدع ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، وأنه كثيراً ما استخدم عصاه ، واصطدم بالأهالي وخرج هارباً ساخطاً من بلد إلى آخر .

ولا شك أن ابن تومرت ، قد أيقن بعد هذه الرحلة الطويلة في المشرق والمغرب ، أن علاج هذه الحالة يقتضي إنشاء خلافة إسلامية جديدة تضم تحت لوائها العالم الإسلامي كله " وتتولى علاجه وإصلاحه .

ومن ثم شرع ابن تومرت في نشر دعوته بين ذويه وعشيرته المصامدة في أقصى المغرب ، ولقب نفسه بالمهدي والشيخ وأمغار - ومعناها الشيخ بالبربرية - ، كما اتخذ قاعدته في بادئ الأمر في جبل ايجليز عند مدخل مدينة مراكش ، وكان يسمى أيضاً بالجبلين . ولما اشتدت حركته انتقل إلى قلعة حصينة منيعة في قلب جبال أطلس الكبير وهي قلعة تينملل (1) التي أشاد المؤرخون والجغرافيون بحصانتها .

وكان حكام المغرب والأندلس في ذلك الوقت هم المرابطون ، وهم جماعة سلفيه على مذهب أهل السنة والجماعة ، يتمسكون بمذهب مالك ابن أنس ، ويكرهون المتكلمين وعلم الكلام ، وينفرون من الرأي والتأويل والخوض في مسائل التوحيد . ويرون الاقتداء بالسلف في قبول النصوص على علاتها ، وإقرار المتشابهات كما جاءت والإيمان بها كما هي .

فالمهدي بن تومرت هاجم المرابطين وفقهاء المالكية من هذه الناحية ، وقال بضرورة تأويل النصوص ، ونفى الصفات والتشبيه عن الخالق ، واتهم المرابطين بالتجسيم والشرك لأنهم يقرون الصفات إلى الله تعالى وهي شبهة إشراك غيره معه ، بينما سمى أصحابه بالموحدين تعريضاً بالمرابطين في أخذهم بالعدول عن التأويل وهو يعني بذلك أن أصحابه هم الذين يفهمون معنى التوحيد الخالص ومعنى تستنزيه الذات الإلهية من الصفات المشبهة (1) . والواقع أن ابن تومرت قد تأثر في هذه الناحية بأراء المعتزلة الذين كانوا يسمون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد . ومذهب الاعتزال معروف من قديم في المغرب ، وقد أشار اليعقوبي والبكري والإدريسي إلى أن ابن تومرت قد تأثر في هذه الناحية بأراء المعتزلة الذين كانوا يسمون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد . ومذهب الاعتزال معروف من قديم في المغرب ، وقد أشار اليعقوبي والبكري والإدريسي إلى أن قبيلة أوروبة التي ساندت المولى إدريس ، كانت تدين

بالاعتزال ، وأن مملكة الأدارسة كانت موطناً للاعتزال وأن عبد الله والد المولى إدريس ، كان يعتبر في الطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة (2) . فابن تومرت من هذه الناحية لم يأت بشئ جديد على المغرب ، وإنما هو نوع من التجديد .

كذلك موج ابن تومرت دعوته بفكرة المهدوية والعصمة ، ولقب نفسه بالمهدي المنتظر والإمام المعصوم وعقيدة المهدوية كانت معروفة في المغرب من قديم ، واستغلها الفاطميون من قبل ، ونجحوا في تأسيس دولتهم بالمغرب . وكان لهذه العقيدة المهدوية إقبال ورواج في بلاد المغرب أكثر منه في بلاد المشرق ، وذلك بسبب ما أذاعه البعض من أحاديث نبوية ، لم تثبت صحتها تنبئ بظهور المهدي المنتظر في أرض المغرب وأنه يقوم برد الدين الصحيح . كذلك مزج ابن تومرت دعوته ببعض ما قال به الظاهرية ، والمذهب الظاهري كان أيضاً معروفاً بالمغرب على يد الفقيه الأندلسي أبي محمد ابن حزم الظاهري في القرن الخامس الهجري . وتنقسم دعوة ابن حزم إلى قسمين : القسم الأول : وهو الجانب الفقهي ، وفيه يرى ابن حزم عدم التقيد بأراء مذهب من المذاهب السنية المعروفة وهو ما يسمى بالتقليد أي ما تمسك به الآباء من المذاهب .

فابن حزم حارب التقليد ، وقال بأن كل إنسان حر في أن يحكم فكره فيما يراه مناسباً ، بشرط أن يستند في ذلك إلى حجج القرآن والسنة واستمرار العمل ، أي ما أجمع عليه الصحابة والتابعون . وعلى هذا الأساس هاجم ابن حزم فقهاء المالكية الذين كانوا قد تعاونوا مع السلطان وكونوا دكتاتورية مالكية في الأندلس

أما الجانب الثاني من دعوة ابن حزم ، فيتناول مسألة المقيدة . ويرى فيه ابن حزم ضرورة التفسير الحرفي للظاهر للقرآن والسنة ، وعلى هذا الأساس أنكر التأويل ، وهاجم المعتزلة القائلين به .

فالمهدي ابن تومرت ، رأى أن يستغل هذا المذهب الظاهري لصالحه ، وأن يأخذ منه ما يراه مناسباً لدعوته ، فترك الجانب الاعتقادي الظاهري ، لأنه يتعارض مع مذهب الاعتزال الذي يدين به ، وأخذ الجانب الفقهي الظاهري الذي يحارب التقليد والاحتكار المذهبي . وكان غرضه من ذلك هو محاربة فقهاء المالكية الذين قوى نفوذهم على عهد المرابطين (1) .

ومن الطريف أن المهدي بن تومرت ، قد وضع كتاباً أسماه موطأ المهدي ، وهو عبارة عن الأحاديث النبوية التي وردت في موطأ مالك بعد حذف معظم الإسناد منها للاختصار (2) وهذا يدل على أن ابن تومرت لم يكن يهدف إلى مهاجمة المذهب المالكي في حد ذاته ، وإنما أراد مهاجمة نفوذ فقهاء المالكية .

وخلاصة القول ، أن المهدي بن تومرت ، أراد أن يضمن لدعوته النجاح ، فيجعلها مزيجاً من هذه التيارات والأفكار الثقافية والفقهية والاعتقادية المختلفة التي كانت في المغرب ، ولكنها كانت في معظمها ممنوعة من الظهور ومحرمه على الناس (1) . فأحياؤه لها مجتمعة في دعوة إصلاحية جديدة يعتبر حركة من حركات التجديد في الإسلام .

وعلى هذا الأساس رأى الموحدون أنهم أحق الناس بالخلافة لأنهم أكرهم إيماناً ومعرفة واتحاداً ، ولأنهم دون غيرهم الموحدون المؤمنون فأقاموا لأنفسهم خلافة شرعية خاصة تستند إلى هذه العقيدة الموحدية الجديدة ، ولقبوا أنفسهم بأمرء المؤمنين . يقول صاحب كتاب المعجب :

وأقر المهدي على الجيش عبد المؤمن بن علي ، وقال : أنتم المؤمنون وهذا أميركم ، فاستحق عبد المؤمن من يومئذ إمرة المؤمنين (2) " . ولكن كان لابد أن تستند خلافتهم أيضاً إلى الأسس الشرعية اللازمة كالنسب النبوي أو الأصل العربي . لهذا قالوا بانتفاء كل من المهدي وعبد المؤمن إلى الرسول عن طريق الأدارسة ، واتخذوا اللون الأخضر شعاراً لهم كي يظهروا ميلهم إلى الدعوة العلوية ، كما تشبهوا بالرسول في تصرفاته وأعماله . وإذا تصفحنا مثلاً كتاب البيذق السالف الذكر نجد شجرة طويلة لنسب كل من المهدي وخليفته عبد المؤمن وكلها ترتفع إلى الرسول (1) .

أما من جهة الأصل العربي ، فيروي ابن الأثير أن ابن تومرت حينما سأل عبد المؤمن عن نسبه في أول لقاء لهما " أخبره بأنه من قيس عيلان ثم من بني سليم فقال ابن تومرت : هذا الذي بشر به النبي (صلعم) حين قال : إن الله ينصر هذا الدين في آخر الزمان برجل من قيس ، فقبل من أي قيس فقال من بني سليم ، وواضح أن سليم وقيس ينتميان إلى مصر التي منها قريش . كذلك يروي المؤرخون ، أن عبد المؤمن بن علي ، كان يقول لن يذكر له اسم قبيلة كومية البربرية التي ينتمي إليها ، وهي من بطون زنانة بنواحي تلمسان : " أنا لست منهم ، وإنما نحن لقيس عيلان ... ولكومية علينا - في الولادة بينهم ، والمنشأ فيهم ، وهم الأخوال (2) . وقد حرص مؤرخو هذا العصر وشعراؤه على إثبات هذا الأصل العربي في كتاباتهم فأطلقوا على عبد المؤمن كنية القيسي بدلاً من الكومي (3) .

كذلك استغل الموحدون هذا الأصل العربي في اصطناع القبائل العربية المقيمة في أفريقية ، للاشتراك معهم في جهاد المسيحيين في أسبانيا (1) . فنجد شعراء الموحدين يدعونهم بأبناء العم ، ويذكرونهم بصلة النسب ونتائج القرابي التي تجمع الموحدين مع العرب في قيس هيلان (2) . وكان لهذه الدعاية أثرها

في هجرات هذه القبائل العربية إلى المغرب الأقصى مما ساعد على تعريب هذه البلاد وصيغها بالطابع العربي .

وكيفما كان الأمر ، فإنه يبدو أن هذه الدعوة الموحدية الجديدة قد بهرت عقول المغاربة ، بدليل هذه السرعة العجيبة التي انتشرت فيها ، والنجاح العظيم الذي أحرزته على المرابطين في وقت قصير . كذلك كان لهذا النجاح صدى كبير بين المشاركة أيضاً بدليل كتابات المعاصرين لهذه الفترة . ومثال ذلك شاعر جنوب الجزيرة العربية نجم الدين عمارة اليماني الذي عاش بمصر في أواخر العصر الفاطمي ، فقد أراد هذا الشاعر أن يضرب مثلاً للأحداث الجارية في عصره فلم يجد فيها أعظم من شخصية بن تومرت الذي ارتفع في رأيه إلى أعلا درجات المجد والنفوذ فيقول :

هذا ابن تومرت قد كانت بدايته
كما يقول الوري لحماً على وضم
وقد ترقى إلى أن أمسكت يده
من الكواكب بالأنفاس والكظم
وكان أول هذا الدين من رجل
سعى إلى دعوته سيد الأمم (1)

وليس من شك في أن الموحدين قد عابرا كل دعائهم وأنصارهم وكتابهم للقيام بالدعاية اللازمة للخلافة الموحدية في العالم الإسلامي . ففي كتاب البيذق تجد باباً عن أصحاب المهدي المقيمين في مصر . وقد بلغ عددهم واحداً وخمسين رجلاً ذكر المؤلف أسماءهم واحداً واحداً ، ثم قال بأنهم كانوا بمثابة أعضائه وجسده ، سامعين لقوله ، مجيبين لأوامره ، مؤمنين بدعوته (2) . وهذا الكلام يدل على أن المهدي كانت له جمعية من أنصاره ودعاته على نشر دعوته في مصر وغيرها من بلاد الشرق الإسلامي .

وفي كتاب نظم الجان لابن القطان ، تجد صورة مقارنة بين الخلافتين الفاطمية بمساواتها ، والموحدية بمحاسنها ، يخرج منها المؤلف بنتيجة واحدة وهي أن الخلافة الموحدية هي أجدر الخلافات بحكم العالم الإسلامي (3) .

أما الرحالة الأندلس المشهور ابن جير الذي عاصر قيام دولة الموحدين وطاف بأحاء المشرف الإسلامي في تلك الفترة ، فقد وصف الحالة في تلك البلاد وقال بأن المصريين كانوا يترقبون مجئ الموحدين ، ويؤولون بعض الظواهر الطبيعية على أنها تعبير عن قرب مجيئهم لدرجة أن بعض فقهاءهم قد أعد خطاباً مناسباً لإلقائها بين يدي الخليفة الموحد عند قدومه (1) .

هذا ويقدم لنا ابن فرحون في كتابه الديباج المذهب ، دليلاً آخر عن الفكرة التي كانت سائدة بين الناس حول قرب سيطرة الخلافة الموحدية على العالم

الإسلامي . فيقول في ترجمة أبي الوليد القرطبي ، إنه قدم إلى مصر هارباً من عبد المؤمن ودولته لما ظهر على المغرب ، ثم خاف من استيلائه على مصر فقدم الحجاز ، فخاف أن يحج فدخل اليمن ، ثم خاف أن يظهر على اليمن ، فأراد أن يتوجه إلى الهند ولكنه مات يزيد (2) ، واستمرت فكرة الوحدة الإسلامية مسيطرة على عقول خلفاء الموحدين ولا سيما في عهد الخليفة يعقوب المنصور الذي ينسب إليه صاحب المعجب تصريحات تدل على رغبته في الرحلة إلى المشرق وتطهيره عن عيوبه (3) .

وقد عبر هذه الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس ابن عبد السلام الجراوي في بعض أشعاره فن قوله يمدح الخليفة يصف بن عبد المؤمن :

ستملك أرض مصر والعراقا

ويجري نحوك الأمم استباقاً (1)

وقوله في مدح الخليفة يعقوب المنصور :

إن الخلافة نالت من محاسنكم

أو في الحظوظ فأبدت منظرأً عجباً

أعلى المراتب من بعد النبوءة قد

حبا بها الله أعلى الخلق وانتخبا

سينظم السعد مصراً في ممالكه

حتى يدوخ منها خيله حلباً

إلى العراق إلى أقصى الحجاز إلى

أقصى خراسان يتلو جيشه الرعبا

هو الذي كانت الدنيا تؤمله

وكل عصر له ما زال مرتقباً (2)

في خلال هذا الوقت وفي عهد الخليفين يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور ، قامت في مصر والشام دولة صلاح الدين الأيوبي على أنقاض الدولة الفاطمية ، ويستفاد من بعض وصايا صلاح الدين إلى سفرائه ، أن الموحدين قد استأؤوا من قيام دولته ، وما ترتب على ذلك من ظهور شعار العباسيين من جديد في تلك البلاد (3) . وهذا الكلام صحيح في جوهره ، لأن الموحدين - كما ذكرنا من قبل - لم يعترفوا بخلافة العباسيين ، وكانوا يرون أن دار الخلافة الشرعية هي مدينة مراکش لا بغداد .

ويبدو أن صلاح الدين - رغم تبعيته للخلافة العباسية - قد حاول توثيق علاقته بالموحدين ، فأرسل سفيراً من قبله ، وهو الأمير عبد الرحمن ابن منقذ إلى خليفة المغرب يعقوب المنصور .

ويستفاد من كلام المؤرخين أن أغراض هذه السفارة أحييت بسرية تامة وغموض كبير ، فيروى ابن عذاري في كتابه البيان المغرب .

وفي شهر رجب سنة 586 هـ وصل إلى المنصور أمير المؤمنين ، مخاطبات السيد أبي زيد من أفريقية والسيد أبي الحسن من بجاية ، بوصول ابن منقذ إلى تلك البلاد ، وما قبلوه من المبرة وتوطئة المهاد ، والتعريف منهم بكتمانه لسبب وصوله . . . فروج السادات بالشكر على ما قبلوه به من الإكرام ، وأن لا يبحث عنه بشيء من الاستفهام ... ثم استقر الرسول بمدينة فاس ، فأقام بها إلى أن انقضت حركة المنصور في الأندلس . فاستدعى الرسول المذكور ، فوصل إليه ، وقعد بين يديه : وخلا به على اختصاص وانفراد ، فتلقى الجواب من المنصور محملاً ، وأحيل على ما يوضحه له الوزراء مفسراً ومكماً ،

وخرج الرسول من الحضرة بعد ذلك بخمسة أيام ولم يعلم به (1) .

أخذ المؤرخون بعد ذلك يعلقون على هذه السفارة بمختلف الآراء والتكهنات : فصاحب كتاب الاستبصار - الذي يظن أنه كان من كتاب المنصور - يعتقد أن هذه الزيارة لم تكن إلا لإعلان الولاء والخضوع من جانب صلاح الدين إلى الخليفة الموحي ، على حين يذهب غيره من المؤرخين إلى أن الغرض من هذه السفارة هو رغبة صلاح الدين في تدخل الأساطيل الموحدية لوقف الإمدادات الصليبية إلى الشرق . ثم يعود المؤرخون إلى الاختلاف فيما بينهم ، فبعضهم مثل السلاوي الناصري يقول إن الخليفة المنصور قد أرسل فعلاً جزءاً من أساطيله إلى الشرق للمشاركة في العمليات الحربية هناك (1) ، بينما يقول البعض الآخر - وهم الغالبية - إن المنصور قد رفض أن يجيب صلاح الدين إلى طلبه لأنه - أي صلاح الدين - لم يعترف بخلافة المنصور ولم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين في الخطاب الذي أرسله إليه مع رسوله عبد الرحمن بن منقذ (7) ، وهذه المسألة قد تكون لها أهمية خاصة على أساس أن الاعتراف بالخلافة الموحدية معناه الاعتراف أيضاً بصدق العقيدة الموحدية وبشرعية الدولة الموحدية .

وإذا أضيف إلى هذا أن الموحدين كانوا من أصل بربري ويريدون اكتساب الأصل العربي والنسب النبوي ، صار الأمر أشكلاً نفسياً أيضاً وقد تبدو هذه العقدة النفسية واضحة في المحنة التي نزلت بالفيلسوف أبي الوليد ابن رشد أيام المنصور الموحي حينما قال في شرح كتاب الحيوان لأرسطو ، إنه رأى الزرارة عند ملك البربر ، ويقال أنه عاد وقال عند ملك البرين ليخرج من هذه الورطة (1) . كذلك تبدو هذه الحالة النفسية أيضاً في صيغة الدعاء لخلفاء الموحدين في خطبة الجمعة : " اللهم وارض عن المجاهد في سبيلك المحي سنة رسولك الإمام أبي يوسف أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين " . (2) فهذا

الحرص على تكرار لفظ أمير المؤمنين دون ذكر أسماء الخلفاء قد يكون له صلة بهذه الحالة النفسية .

ومهما يكن من شيء ، فإن هذا الخلاف السياسي الذي وقع بين عاهل المشرق والمغرب لم يحل دون تعاون شعوبهما في السراء والضراء كما هو الحال في كل زمان ومكان ، فمن المعروف من كتب التراجم المختلفة أن عدداً كبيراً من المغاربة ، قد ساهموا في الحروب الصليبية إلى جانب إخوانهم المشاركة ، واستشهد منهم عدد كبير دفن في فلسطين .

ويشير الرحالة المعاصر ابن جبير إلى الضريبة الإضافية التي فرضها الإفرنج في الشام على تجار المغاربة دوناً عن سائر تجار المسلمين ، لأن طائفة من أنجاد المغاربة غزت مع السلطان نور الدين محمود زنكي أحد الحصون فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر ، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم ، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم . " ثم يشير ابن جبير في مكان آخر من كتابه إلى اهتمام الملوك وأهل اليسار والخواتين من النساء في الشرق العربي بفداء الأسرى من المغاربة : فكل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها ، إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم " . (1) ومن الطريف أن بعض الروايات الإسلامية ، أشارت إلى أن الخليفة يعقوب المنصور لم يمت بأرض المغرب وإنما مات في فلسطين بعد أن ترك خلقه وبلاده ورحل إلى الأراضي المقدسة لجهاد الصليبيين بل ويذهب ابن خلكان إلى أنه رأى في البقاع قبراً بالقرب من بلدة المجدل بفلسطين ، وأن الناس هناك يؤكدون على أنه قبر يعقوب ملك المغرب ويتباركون به (2) . ولا شك أن هذه الروايات لا تدخل إلا في نطاق الأساطير الشعبية ، وقد كذبها جمهرة من المؤرخين وعلى رأسهم الشريف الغرناطي الذي قال بأنها تخرص وأباطيل (3) ، بل إن ابن خلكان نفسه رغم روايته السالفة ، عاد وقال إن المنصور قد مات ودفن بالمغرب وهذا هو الثابت المعروف . ولا يسعنا في تفسير هذه الروايات إلا على أنها تعبير عن انطباعات شعبية لما كان يدور في خلد المسلمين من آمالي وآمال نحو إخراج الصليبيين المستعمرين من بلادنا شرقاً وغرباً ، ونحو التقاء المغرب بالمشرق من جديد .

خلافة الحفصيين بتونس

وبعد زوال دولة الموحدين بالمغرب والأندلس ، ظلت دعوتهم مستمرة في المغرب على أيدي أقربائهم الحفصيين حكام أفريقية أو البلاد التونسية . والحفصيون فرع من الموحدين ، وينتسبون إلى الشيخ أبي حفص يحيى بن عمر إنتى الهنتاتي شيخ قبيلة هنتانة إحدى بطون مصمودة التي قامت على

أكتافها دولة الموحدين . وكان هذا الشيخ الحفصي من كبار القائمين بدعوة المهدي بن تومرت ومن كبار المشيدين لسلطان الموحدين في المغرب والأندلس

وصلة الحفصيين بالبلاد التونسية ترجع إلى أيام ابنه محمد عبد الواحد ابن أبي حفص الهنتاتي الذي كان صهراً للخليفة المنصور الموحدي ، والذي ولاه بعد ذلك الخليفة الناصر بن المنصور على تآك البلاد التونسية سنة 603 هـ (سنة 206 م) .

وكانت أفريقية منذ بداية عصر الموحدين مركزاً للعناصر المعارضة لدولتهم ونخض بالذكر بني غاينة المسوفيين المرابطين حكام جزر البليار الذين كثيراً ما اتحدوا مع العناصر المقيمة في إفريقية مثل الأغزاز والأعراب الذي جاءوا من مصر واستقلوا بحكم عدد من المدن التونسية .

وقد اضطر خلفاء الموحدين الأوائل إلى محاربتهم وطردهم من هذه البلاد ، إلا أنهم كانوا يعودون إليها ثانية كلما سفتحت له الفرصة . وأخيراً رأى الخليفة الموحدي الناصر ، أن سلطان الموحدين لن يستقيم في إفريقية إلا إذا أقام عليها والياً دائماً من قرابته يكون مسموع الكلمة بين الموحدين ، وله مطلق التصرف في إدارتها كي يستطيع القيام بأعبائها . واختار لهذا الغرض ثقتة ووزيره الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن أبي حفص الهنتاتي السالف الذكر . وقد روى المؤرخون في هذا المعنى حواراً لطيفاً بين الخليفة والوالي يعبر عن بدأ ارتباط الحفصيين بهذه الولاية ، فيقولون إن الخليفة الناصر قال للشيخ عبد الواحد يا أبا محمد أنت تعلم ما تجشمناه من المشاق والصوائر في استنفاذ هذا الفطر ، ولا آمن عليه من عدو متوثب ، ولا يقوم بحمايته إلا أنا أو أنت . فامض إلى حفظ ممالكنا المغربية وأقوم أنا ، أو أقم أنت وأرجع أنا ، فأذعن الشيخ عبد الواحد للإقامة في إفريقية واشترط شروطه التي تخول له شبه استقلال بهذه الولاية ، وهي أن يقيم ثلاث سنين ريثما تترتب الأحوال وتنقطع أطماع الميورقي ابن غانية عنها ، وأن يحكمه الناصر فيمن يبقية معه من الجند ويرضاه من أهل الكفاية ، وأن لا يتعقب أمره في ولاية ولا عزل ، فقبل الناصر شروطه ، ومن هنا ورثت الملوك الحفصيون سلطنة تونس وإفريقية (1) . ولما هزم الموحدون أمام الجيوش الصليبية المتحالفة في موقعه العقاب las navas de tolosa سنة 609 هـ (1212 م) وأنهار نفوذهم في المغرب والأندلس بع هذه الكارثة ، أعلن الأمير أبو زكريا الحفصي (1) استقلاله بحكم إفريقية عن خلافة بني عبد المؤمن في مراكش سنة 626 هـ (1229 م (2)) ، ولكنه مع ذلك اقتصر على لقب الأمير حتى أنه زجر الشاعر الذي مدحه بأمير المؤمنين ، ولم يقبل قوله :

الأصل بالأمير المؤمنين فأنت بها أحق العالمين (2)
على أن هذه الإمارة لم تلبث أن توحدت إلى خلافة في عهد ولده أبي عبد الله
محمد (4) الذي تسمى بالمستنصر بالله أمير المؤمنين .
وهناك خلاف حول تاريخ إعلان الخلافة الحفصية السنية بتونس ، فالزر كشي
يقول :

وفي يوم الاثنين 24 ذي الحجة من سنة 650 هـ (1253 م) رأى المولى
المستنصر أن الاقتصار على لفظ الأمير قصوراً ، فتسمى بأمير المؤمنين ، وأمر
أن يذكر في الخطبة ويطبع بالذهب ، وفي ذلك اليوم نلقب بالمستنصر بالله (1)
أما محمد بن أبي القاسم الرهيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار ، فقد جعل
تاريخ هذه الخلافة في سنة 657 هـ (1259 م) عقب سقوط خلافة بغداد في
أيدي المغول ، ومبايعة شريف مكة لسلطان تونس بالخلافة (2) .
ويبدو أن رأى الزركشي هو الأصح نظراً لاتساع نفوذ الدولة الحفصية ومبايعة
أهل المغرب والأندلس لسلطانها قبل سقوط الخلافة العباسية .
وكيفما كان الأمر ، فلقد استند الحفصيون في إعلان خلافتهم الجديدة إلى
الأسس الشرعية اللازمة في هذا الصدد ، كالأصل العربي ، والنسب النبوي ،
إلى جانب قرابتهم للموحدين ، فزعموا أنهم من سلالة الخليفة أبي حفص عمر
بن الخطاب (1) ، وعمر كما نعلم من أشرف قريش وكانت إليه السفارة في
الجاهلية ، وقد تزوج النبي ابنته حفصة . فالحفصيون بحكم هذا الأصل القرشي
، وهذا النسب النبوي ، وبحكم قرابتهم للموحدين ، وجدوا في أنفسهم الشرعية
الكافية لأن يرثوا خلافة الموحدين المنهارة .
ولقد حرص الحفصيون على الاعتزاز بهذا الأصل ، وإظهاره في كل مناسبة .
ونجد ذلك واضحاً في أقوال كتابهم وشعرائهم ، التي أطلقت على دولتهم اسم
العصرية والفاروقية (2) أو كقول ابن خلدون في قصيدة يمدحهم بها .
يقوم أبو حفص أب لهم وما

أدراك ، والفاروق جد أول (3)

ولقد جاء إعلان الخلافة الحفصية في ظروف سياسية مناسبة ، إذ لم تمض
سنوات قليلة على قيامها حتى سقطت الخلافة العباسية في بغداد على أيدي
المغول وقتل آخر خلفائها المستعصم بالله سنة 656 هـ (1258 م) وعقب
ذلك أرسل شريف مكة وأهل الحجاز بيعتهم بالخلافة للخليفة الحفصي
المستنصر بالله ، واعتبروه وريثاً للخلافة العباسية المنهارة . ولا شك أن هذه
المبايعة قد دعمت أركان الخلافة الحفصية لأنها أكسبتها أساساً شرعياً وهو
الإشراف على الحجاز ، أصل العرب والملة ومقر الحرمين الشريفين (1) . وفي
ذلك يقول المستشرقين فإن برشم : أن الحفصيين قد ورثوا خلافة الموحدين في

الوقت الذي اكتسبوا فيه من سقوط بغداد شيئاً من هيبة الخلافة العباسية (3) . ولم يقتصر نفوذ الحفصيين على الأراضي الحجازية ، بل نجد أن الدعاء للخليفة الحفصي قد عم مساجد المغرب والأندلس فترة من الزمان ، فالأندلس بعد كارثة العقاب ، قد سقط معظمها في يد الأاسبان ولم يبق للمسلمين منها سوى منطقة غرناطة الجبلية في الركن الجنوبي الشرقي لأسبانيا ، حيث قامت هناك مملكة بني نصر أو بني الأحمر . وقد رأى سلطانها أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر (الغالب بالله) أن يعمل على تدعيم دولته الناشئة بمبايعة السلطان الحفصي أقوى ملك في المغرب في ذلك الوقت (1) .

وكما فعل بنو الأحمر في غرناطة ، فعل كذلك بنو زيان في تلمسان بالمغرب الأوسط ، وبنو مرين (أو بنو عبد الحق) في المغرب الأقصى . وهاتان الدولتان قامتتا على أنقاض دولة الموحدين في المغرب ، وكانتا في حاجة أيضاً إلى تأييد جارهما الحفصي ولو بصفة مؤقتة ، وفي هذا العدد يقول السلوي الناصري : " ولما ولما نبغ بنو مرين بالمغرب ، وغلبوا على الكثير من ضواحيه كانوا يدعون إلى أبي زكريا الحفصي تأليفاً لأهل المغرب ، واستجلاباً لمرضاتهم ، وإتيانا لهم من ناحية أهوائهم إذ كانت صبغة الدعوة الموحدية قد رسخت في قلوبهم . " ، ثم يضيف بعد ذلك أن السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني هو أول من قطع الدعوة للحفصيين (2) " وهكذا ظهرت في المغرب من جديد وبالقرب من حدود مصر الغربية خلافة قوية وهي الخلافة الحفصية التي امتد سلطانها الروحي على الحجاز شرقاً وعلى المغرب والأندلس غرباً ، وصارت عاصمتها تونس مركزاً سياسياً وثقافياً هاماً جذب السفراء والعلماء من مختلف أنحاء العالم .

ولقد شعرت مصر بخطورة أهداف هذه الخلافة الجديدة ، لأن السياسة المصرية كانت تهدف دائماً إلى مد سلطانها على الحجاز لأسباب دينية وسياسية واقتصادية أهمها السيطرة على البحر الأحمر وتجارته ، فجميع الحكام الذين استقلوا بمصر كالتولونيين والأخشيديين والفاطميين الأيوبيين والمماليك والعثمانيون ، فساروا على نفس هذه السياسة لدرجة أنهم لقبوا أنفسهم بلقب ، خدام الحرمين " (1) .

وكان يحكم مصر أيام الخليفة الحفصي المستنصر بالله (647 - 675 هـ - 1249 - 1277 م) ، السلطان الظاهر بيبرس البندقداري (658 - 676 هـ = 1260 - 1277 م) ، وهذا السلطان يعتبر من أقوى السلاطين الذين حكموا مصر ، إذ استطاع أن ينتصر على المغول عند الحدود العراقية . وعلى الصليبيين في الشام حتى صارت سيرته مضمراً للأمثال كما هو واضح في الملحمة الشعبية المعروفة بالسيرة الظاهرية .

" رأى السلطان بيبرس أن سياسة الدولة الحفصية تتعارض مع السياسة التقليدية المصرية ، ولهذا عمد إلى إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة 659 هـ (1261 م) ، فأتى بأمير من أمراء العباسيين الفارين من المغول وبايعه بالخلافة في احتفال كبير بالقاهرة ولقبه بالمستنصر بالله !

أمير المؤمنين . وعلى الرغم من أن المراجع العربية تنص على أن هذا اللقب هو لقب أخيه الخليفة المستنصر (1226 - 1242 م) باني المدرسة : المستنصرية ببغداد (1) إلا أننا نلاحظ أيضاً أن هذا اللقب هو نفس اللقب الحفصي بتونس ، وما أظن أن تطابق اللقبين ، مجرد مصادفة أو تورد خواطر ، ولكنه يبدو أنه نوع من باب التحدي أو المنافسة .

وكيفما كان الأمر فإن الخليفة الجديد بعد أن تمت مبايعته ، قام بدوره وقلد السلط أن بيبرس حكم مصر والشام والحجاز ، وما يغزوه من بلاد الأعداء . وهكذا اكتسب بيبرس بهذا العمل نفوذاً أدبياً وروحياً في الأوساط الإسلامية ، ولكن المهم هنا هو أن إحياء بيبرس للخلافة العباسية لم يكن عملاً روحياً محضاً لأنه نظر إلى النتائج المادية المترتبة على هذا العمل ، وهي انتزاع الحرمين من نفوذ الحفصيين ، ومد سلطانه باسم الخلافة على الحجاز والبحر الأحمر وذلك تمشياً مع السياسة التقليدية التي حرصت عليها مصر في كل وقت (2) . ولتنفيذ هذه السياسة عملياً ، قام بيبرس أولاً بعدة إصلاحات بالحرم النبوي الشريف وأرسل الكسوة إلى الكعبة ، كما أرسل الصدقات والشموع والزيت والطيب . . . الخ ثم أدى بيبرس فريضة الحج وأظهر خشوعاً وكرماً لا ينتهي . ولكنه لم ينس مصالحه السياسية إذ أزال أنصار الحفصيين ، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي على منابر الحجاز بدلاً من الخليفة الحفصي (1) كما أقام الأمير شمي الدين مروان شبه مندوب له إلى جانب شريف مكة (2) . ويبدو أن التنافس بين خلافة القاهرة وخلافة تونس ، قد دفع بعض الأمراء الطموحين إلى المفاضلة بين هاتين الخلافتين لتحقيق مآربهم الشخصية ، فيروي ابن خلدون مثلاً أنه في سنة 663 هـ (1264 م) ثار وإلى طنجة المدعو ابن الأمير ، وخطب للخليفة الحفصي صاحب أفريقية ، ثم خطب للخليفة العباسي في القاهرة . ثم خطب لنفسه ، وانتهى الأمر بقتله سنة 665 هـ (3) . وبعد مضي وقت قصير ، ضعف نفوذ كل من الخلافتين وصار سلطانها محدوداً في المنطقة التي تعيش فيها . فالخلافة الحفصية بعد انقضاء القرن السابع الهجري ، ضعف أمرها وتوقف الدعاء لها في المغرب والأندلس ، ثم لم تلبث أن دبت فيها الحروب الأهلية واستقلت بحماية عن تونس ، وانتهز بنومرين هذه الفرصة ، وأخذوا يتدخلون في شئون الدولة الحفصية واستولوا على تونس عدة مرات (4) وعلى الرغم من أن سلاطين بني مرين قد لقبوا أنفسهم

بلقب أمير المسلمين ، إلا أن بعضهم قد اتخذ ألقاباً خلافية من باب للتشريف ،
ومثل ذلك السلطان المريني أبو عنان فارس الذي يصفه ابن بطوطة بالإمام
الأكرم أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين أبي عنان (1) . كذلك يروي أن
الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب حينما ذهب في سفارة إلى هذا
السلطان المريني أبي عنان أنشده قصيدة مطلعها :

خليفة - الله ساعد القدر

علاك ملاح في الدجى قمر (2)

وكذلك قوله بعد ذلك في مدح السلطان - أبي زيان المريني :
يا ابن الخلائف يا سمي محمد * يا من علاه ليس يحصر حاصر
ألقت إليك يد الخلافة أمرها * إذ كنت أنت لها الولي الناصر (3)
وقد علق المؤرخ المعاصر ابن خلدون على هذا الوضع في أيامه بقوله : "
ولما انتقض الأمر بالمغرب وانتزعت زنانه (يقصد بني مرين وبني زياد) ،
ذهب أولهم مذاهب البداوة والسذاجة في عدم انتحال اللقب بأمر المؤمنين أدباً
مع رتبة الخلافة التي كانوا على طاعتها لبني عبد المؤمن أولاً ، ولبني أبي
حفص من بعدهم ، ثم نزع المتأخرون منهم إلى اللقب بأمر المؤمنين وانتحلوه
لهذا العهد استبلاغاً في منازع الملك وتتميماً لمذاهبه وسماته . (1)
وما يقال عن سلاطين بني برين ، يقال أيضاً عن ملوك بني الأحمر سلاطين
غرناطة الذين خوطبوا بألقاب الخلافة من باب التشريف ، وإن كان اللقب
الرسمي الذي اتخذوه هو ، أمير المسلمين ، (2) ونلاحظ ذلك في قصائد شاعر
الحمراء عبد الله بن زمرك الذي لا يزال ديوانه منشوراً بأحرف من ذهب على
جدران قصر الحمراء .

واقترى بهم في ذلك مولك بني زيان بتلمسان ، فلقبوا أنفسهم بلقب أمير
المسلمين . وفي خزنة الرباط (المكتبة الكتانية) مصحف نتسخه بيده السلطان
أبو زيان محمد الثاني سنة 801 هـ ووقع في آخره وصفه بأمر المسلمين .
ولعل كتاب نظم الدر والعقيان في بيان شرف ملوك بني زيان (3) للحافظ محمد
بن عبد الجليل التنسي ، لخير دليل على محاولة انتساب هؤلاء الملوك للأصل
النبوي الشريف رغم كونهم من زناتة ، ويعرفون أيضاً ببني يغمر اسن ومعناها
بالزنانية رئيس القوم .

أما الخلافة العباسية بالقاهرة ، فإنها هي الأخرى لم تكسب بإحيائها إلا كسباً
زائفاً ، إذ صار الخلفاء منذ ذلك الوقت سجناء تقريباً في أبراج قلعة الجبل وكان
عملهم قاصراً على حضور حفلات السلطان وتزيين مجالسه للوفود والسفراء .
ومن الغريب أن كثيراً من الدول الإسلامية الأخرى ، لم تعترف أصلاً بخلافة
القاهرة أو خلافة تونس ، وظلت على ولائها لخلافة بغداد حتى بعد زوالها وقتل

آخر خلفائها المستعصم بالله ، فالهند مثلاً ظلت تدعو للخليفة العباسي وتنقش اسمه على السكة مدة قرن من الزمان كما لو كان حياً يرزق (1) ، وكذلك كان الحال في اليمن ، إذ يروي الخزرجي الذي كان حياً سنة 798 هـ أن الدعاء للخليفة العباسي المستعصم بالله ، كان مستمراً في اليمن على أيامه أي في أواخر القرن الثامن الهجري (2) :

هذا ويبدو أن المصريين أنفسهم كانوا يشكون في صحة نسب الخلفاء العباسيين الذين أقامهم سلاطين المماليك في القاهرة ، ومن يتصفح كتب المؤرخين المعاصرين ، يجد عبارات تدل على هذا الشك في صحة نسبهم ، مثل قولهم الخليفة الأسود ، أو الزرابيني أو ذكر مبايعة شخص بالخلافة ، أو الخليفة المدعو فلان (3) . كذلك تجد في النسخة الخطية لكتاب ، الذيل على الروضتين لأبي شامة (1) ، وهو مؤرخ معاصر لإحياء الخلافة بالقاهرة ، يذكر بجوار اسم بعض الخلفاء عبارة أمير المنافقين بدلاً من أمير المؤمنين ، وقد ظن ناشر هذا الكتاب أن المؤلف أو الناسخ قد أخطأ في كتابة هذه العبارة وصححها في المتن إلى " أمير المؤمنين (2) " ، مع أنها قد يكون لها مدلول تاريخي عام كما هو واضح .

يتضح مما تقدم أن كلا من خلافة القاهرة أو خلافة تونس ، لم تسد الفراغ الروحي الذي تركته خلافة بغداد ، فلهذا بقي نفوذهما ضعيفاً ومحدوداً إلى أن قضى عليهما معاً الأتراك العثمانيون في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي (3) ، وصار السلطان العثماني بعد ذلك يجمع في يديه السلطتين الزمنية والروحية ، فكان ذلك إيذاناً ببداية عصر جديد .

الوزارة والحجابه
في المغرب والأندلس

الوزارة في الشرق :

بعد الخلافة تأتي الوزارة من حيث الأهمية الإدارية في الدولة : ونظام الوزارة فارسي قديم وليس من مستحدثات الإسلام . ولهذا اختلف اللغويون حول أصل وزير هل هو فارسي من كلمة (wi - chir 1) ، أي الرئيس الذي يحكم ، أم هو عربي من الوزر وهو الثقل والعبء ، أو من الوزر وهو الملجأ أو المعتصم ، بمعنى أن الوزير يحمل الثقل عن الخليفة أو أنه ملجأ يلجأ إليه الخليفة في الأمور الهامة (2) .

ومهما يكن من شيء ، فقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم (3) ، وعرفه العرب أيام الرسول (1) ، وفي عهد الخلفاء الراشدين ، خلفاء بني أمية (2) ، من حيث أن الخلفاء كانوا يرجعون إلى مستشارين ، أو أصحاب رأي فيما يحتاجون إليه من أمور . فهؤلاء الأشخاص كانوا يقومون بعمل الوزير ، إلا أنهم لم يحملوا هذا اللقب إلا نادراً .

ثم جاءت الدولة العباسية على أكتاف الفرس ، ومتأثرة بتقاليدهم ونظمهم ، فجعلت للوزارة اختصاصات معينة وقواعد مقننة ، من أهمها الإشراف على الشؤون المالية ، فالوزير هو المختص بحسابات الدولة من دخل وخرج ونفقات ، وهذا كان يتطلب منه دراية واسعة بإيرادات الدولة ومواردها الاقتصادية في مختلف الأقاليم والأمصار . وقد حفظت لنا المراجع الإسلامية عدداً من قوائم الخراج التي كانت تمثل إيرادات الدولة العباسية ، مثل قائمة الجهشيارى (3) (ت 331 هـ) في كتابه الوزراء والكتاب ، وهي تمثل الخراج في عصر الرشيد (170 - 193 هـ) وقائمة ابن خلدون في مقدمته ، وهي منسوبة إلى عصر المأمون (4) (189 - 128 هـ) ، وقائمة ابن خرداذبة في كتابه الممالك والممالك ، وهي تمثل خراج الدولة العباسية في القرن الثالث الهجري (1) ، وقائمة قدامة بن جعفر (337 هـ) في كتابه الخراج وصناعة الكتابة ، وهي تمثل الخراج الكلي للدولة العباسية (2) .

فالوزير بحكم اختصاصه كان هو المشرف على ديوان الخراج في الدولة (الدخل) ، كما كان هو المشرف أيضاً على ديوان النفقات (المنصرف) ، وهي النفقات المنصرفة على قصر الخلافة . وقدرة الوزير تظهر حينما يرى العجز في الميزانية بين الدخل والمنصرف ، فيتخذ التدابير اللازمة لتلافي الأمر وسد العجز . وإلى جانب هذه النواحي المالية والاقتصادية ، كان وزير أيضاً هو المختص بفن الإنشاء ، وذلك - كما يقول الماوردي - كي يسترق قلوب الرجال بخلاصة لسانه وحسن بيانه . لهذا جرت العادة أن يكون الوزير من بلغاء اللغة ، لأنه هو الذي يتولى بنفسه الإشراف على ديوان الرسائل الذي سمي فيما بعد بديوان الإنشاء ، وأيضاً على ديوان الخاتم الذي تختم فيه رسائل الدولة . كذلك كان على الوزير أن يلم بأصول الآداب السلطانية ليعرف كيف يعامل

الخلفاء ، وأن يكون دارساً كذلك لعقلية الجماهير ليعرف كيف يسوسهم . . . الخ . هذا وكان للوزير العباسي لباس خاص عرف بالسواد وهو شعار الدولة العباسية ، كما كانت له دار خاصة عرفت بدار الوزارة بجوار قصر الخلافة . وهكذا نجد أن الوزارة أيام العباسيين ، أصبح لها من حيث المظهر والاختصاص والتسمية ، طابع جديد لم يوجد من قبل (1) . وفي هذا يقول ابن خلدون :-

" فلما جاءت دولة بني العباس ، واستفحل الملك ، وعظمت مراتبه وارتفعت ، عظم شأن الوزير ، وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقدة ، وتعينت مرتبته في الدولة ، وعنت لها الوجوه ، وخضعت لها الرقاب ، وجعل لها النظر في ديوان الحسبان ، لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات في الجند ، فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه . وأضيف إليه النظر فيه . ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ، ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور ، وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذیاع ، ودفع إليه ، فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة ، حتى لقد دعي جعفر بن يحيى البرمكي ، بالسلطان أيام الرشيد ، إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة ، ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها إلا الحجابة التي هي القيام على الباب ، فلم تكن له لاستتكافه عن مثل ذلك . " (2)

هذا ويلاحظ أن معظم وزراء العباسيين كانوا من عائلات فارسية ، كأسرة البرامكة ، وبنی سهل ، وبنی طاهر ، وبنی الفرات ، وبنی الجراح ، وبنی خاقان ، وبنی وهب . . . الخ (1) .

وحيثما ضعف نفوذ الخلفاء العباسيين ، تحول السلطان والنفوذ من الخلافة إلى الوزارة ، وهنا أخذت الوزارة معنى آخر ، فبعد أن كانت وزارة تنفيذ ، أصبحت وزارة تفويض (2) ، أي بعد أن كان الخليفة يأمر والوزير ينفذ ، صار الخليفة يفوض إلى وزيره تصريف جميع أمور الدولة ، بينما بقي هو كالمحجور عليه . ولما استبد بالخلافة العباسية أسرة بني بويه الفرسى ، أنف هؤلاء من اتخاذ لقب وزير ، وطمعوا في ألقاب الإمارة والسلطنة ، فاتخذوا لقب أمير الأمراء ، ثم جاء من بعدهم الأتراك السلاجقة ، فغيروا هذا اللقب ، واتخذوا لقب سلطان ، وصار بيدهم ، كما حدث للبويهيين من قبل ، الأمور السياسية والحربية معاً . أما لقب وزير ، فقد ظل باقياً ، إلا أن مكانته انحطت بعد أن زالت عنه جميع اختصاصاته ، وصار عمله محدوداً ككاتب للخليفة أو كاتم لأسراره . وما يقال عن وزارة العباسيين ، يقال أيضاً عن وزارة الخلافة الفاطمية في القاهرة ، من حيث أنها بدأت هي الأخرى ، منذ خلافة العزيز بالله ، بوزارة

تنفيذ ، ثم أصبحت وزارة تفويض حينما ضعف نفوذ الخلفاء الفاطميين ، وسيطر على الدولة أمير الجيوش في أيام الفاطميين ، كان يشبه نظام إمرة الأمراء في عهد العباسيين .

هذا عن نظام الوزارة باختصار في المشرق الإسلامي .

الوزارة في المغرب :

أما في بلاد المغرب ، فنلاحظ أن الدول الإسلامية الأولى التي قامت هناك ، لم يظهر فيها لقب وزير ، باستثناء دولة الأغالبة التي اتخذ بعض أمرائها وزراء في دولتهم ، مثل الأغلب بن عبد الله المعروف يغلون الذي كان وزيراً لأخيه الأمير زيادة الله الأول بن الأغلب (2) ، ومثل نصر بن حمزة وزير أبي العباس محمد بن الأغلب (3) ، وعبد الله بن الصائغ الذي كان وزيراً وصاحب البريد في عهد زيادة الله الثالث الأعلى (4) ، إلا أنه يلاحظ أن نفوذ وزراء الأغالبة كان ضعيفاً ، حتى كاد لقب الوزير عندهم أن يكون لقباً تشريفياً . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن الأغالبة - رغم استقلالهم - كانوا يحكمون باسم خلافة بغداد ، وقد اعتادوا أن يكونوا عمالاً لها من قديم في هذه المنطقة مما جعلهم يباشرون أعمالهم بأنفسهم منذ بداية دولتهم .

أما الأدارسة في فاس ، والرستميون في تاهرت ، والمدراريون في سجلماسة ، والفاطميون إبان حكمهم في المغرب ، فعلى الرغم من أنهم استعانوا بمنعاونهم في الحكم ، إلا أنهم لم يطلقوا عليهم لقب وزير . فالفاطميون مثلاً لم يتخذوا الوزراء إلا في القاهرة ومنذ أيام الخليفة العزيز (365 - 386 هـ) ، وفي ذلك يقول المقرئزي : " وأول من قيل له الوزير في الدولة الفاطمية ، الوزير يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله " (1) . هذا ، وقد ذكر أستاذنا الدكتور حسن إبراهيم حسن (2) ، دون أن يشير إلى المصدر الذي نقل عنه ، أن الخليفة المعز لدين الله ، اتخذ جوهر الصقلي وزيراً له سنة 347 هـ بالمغرب . وأغلب الظن أن كتاب الخطط للمقرئزي ، هو مصدر هذه الرواية ، إذ يقول : " وجوهر هذا مملوك رومي ، وباء المعز لدين الله ، وكناه بأبي الحسين ، وعظم محله عنده في سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ، وصار في رتبة الوزارة ، فصيره قائد جيوشه " . (3) وهذه العبارة السالفة ، قد تعني أيضاً أن جوهر الصقلي ، قد ارتفع شأنه عند مولاه المعز حتى صار في مرتبة الوزير ، ولكنه لم يحمل لقب وزير ، بل كان قائداً لجيوش الدولة . وقد يؤيد ذلك قول ابن خلدون بصدد خطة الوزارة :

" ثم جاءت دولة الشيعة بإفريقية والقيروان ، وكان للقائمين بها رسوخ في البداوة ، فأغفلوا أمر هذه الخطط أولاً " .

على أن الفاطميين وإن كانوا قد أغفلوا خطة (2) الوزارة في المغرب ، إلا أنهم لم يغفلوا خطة الحجابة منذ قيام دولتهم . وقد أعطانا ابن عذاري قائمة بأسماء حجاب الخليفة عبيد الله المهدي بقوله :

" واستحجب أبا الفضل جعفر بن علي ، وأبا أحمد جعفر بن عبيد وأبا الحسن طيب بن إسماعيل المعروف بالحاضن وأبا سعيد عثمان بن سعيد المعروف بمسلم السجلباسي (3) " .

ويلاحظ أن معظم هؤلاء الحجاب كانوا من القادة العسكريين الذين شاركوا في الأعمال الحربية براً وبحراً ولا سيماً في صقلية . وهم في هذا يشبهون حجاب (4) الأغالبة الذين حكموا هذه البلاد قبل الفاطميين .

ولقد برز من حجاب الفاطميين ، أبو أحمد جعفر بن عبيد الذي غزا جنوب إيطاليا عن طريق صقلية في سنة 313 هـ (924 م) (5) وكذلك الحاجب أبو الفضل جعفر بن علي بن حمدون ، الذي استمر في منصبه في عهد الخليفة محمد القاتم (1) بن المهدي ، وشارك في إخماد ثورات الخوارج وغيرها من العمليات العسكرية الأخرى . ويروي المقرئ أن المعز لدين الله ، لما عزم على الرحيل إلى مصر استدعى جعفر بن علي ، وعرض عليه أن يكون نائبه في المغرب ، غير أن جعفر اشترط لقبول هذا المنصب شروطاً تجعله شبه مستقل عن مصر . وقد غضب المعز لذلك وقال له : " يا جعفر ، عزلتني عن ملكي ، واستبددت بالأعمال والأموال دوني ! قم فقد أخطأت حظك . " ثم استدعى يوسف بلكين بن زيري بن مناد زعيم قبيلة صنهاجة ، وأسند إليه ولاية المغرب بعد أن حد كثيراً من اختصاصاته . (2)

الوزارة في الأندلس :

أما في الأندلس ، فقد وجدت خطة الوزارة منذ قيام الدولة الأموية ، ويشهد بذلك ابن عذاري الذي أورد في ترجمة كل أمير أموي ، عدد وزرائه وأحياناً يذكر أسماءهم أيضاً (3) . وكان منصب الوزير في بادئ الأمر ، يشبه في مدلوله ما كان سائداً في بقية أنحاء العالم الإسلامي ، ثم جاء الأمير عبد الرحمن الثاني (207 - 238 هـ - 822 - 852 م) ، الذي أعاد ترتيب الجهاز الحكومي في الأندلس ، وأجرى تعديلات في الوظائف العامة التي كانت الوزارة واحدة منها ، فخصها بعنايته وقسمها إلى عدة وزارات مختلفة . وقد أمدنا كل من ابن حيان وابن خلدون ، وابن سعيد ، بمعلومات هامة عن هذه القاعدة الثانية في الدولة ، فقال ابن حيان : -

" والأمير عبد الرحمن ، أول من ألزم الوزراء على الاختلاف في القصر كل يوم والتكلم معهم في الرأي ، والمشورة لهم في النوازل ، وأفرد لهم بيتاً رفيعاً قصره مخصوصاً بهم ، يقصدون إليه ، ويجلسون فيه فوق آرائك قد نضدت لهم

. فكان يستدعيهم إذا شاء إلى مجلسه جماعة وأشتاناً ، ويخوض معهم فيما يطالع به من أمور مملكته ، ويفحص معهم الرأي فيما يبرمه من أحكامه ، وإذا قعدوا في بيتهم (أي بيت الوزارة) ، أخرج رقاعة ورسائله إليهم بأمره ونهيه ، فينظرون فيما يصدر إليهم من عزائمه . . . وجرى على ذلك من تلاهم " (1)

ويشير ابن عذاري إلى أن وزراء الأمير عبد الرحمن الثاني كانوا تسعة ، وإن رزق كل واحد كان ثلاثمائة دينار (2) ولم يحدد ابن عذاري المدة المستحقة لهذا الراتب ، وإن كان يبدو أنه عن كل شهر في الغالب (1) ، وهذا يعتبر قليلاً إذا قورن براتب الوزير في بغداد أو القاهرة أو في قرطبة فيما بعد (2) ، كما يعتبر في الوقت نفسه مناسباً إن قورن مثلاً براتب وزير الجنسيين في تونس (3) .
أما ابن خلدون ، فقد أمدنا ببعض التفصيلات عن اختصاص كل وزير في الخطة بقوله :-

" وأما دولة بني أمية بالأندلس ، فأبقوا (4) اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ، ثم قسموا خطته أصنافاً ، وأفردوا لكل صنف وزير ، فجعلوا لحسبان المال وزيراً ، (5) وللترسيل وزيراً ، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً ، وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً . وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم ، وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له ، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ، ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في وقت ، فارتفع مجلسه عن مجالسهم ، وحصوه باسم الحاجب . ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم (1) .

هذا ، ويضيف ابن سعيد المغربي ، أن مناصب الوزارة في الأندلس . كانت لأهميتها كالمتوارثة عندهم في البيوت والعائلات المعروفة (2) .
من هذه النصوص السابقة ، نفهم أنه كان يوجد بالأندلس على عهد الدولة الأموية ، وزارة متعددة المناصب ، لها رئيس وزراء وهو الحاجب الذي يتصل بالخليفة . وهذا التعدد في مناصب الوزراء ، لا نجده في نظام الوزارة بالشرق العربي ، حيث كانت السلطة مكرزة في يد وزير واحد وقلما وجد وزيران . أما في الأندلس . فكل ناحية من نواحي الإدارة العامة لها وزير مختص بها ، ثم هناك الرئاسة العامة وهي الحجابة ، وهناك بيت خاص لانعقاد مجلس الوزراء في قصر الخليفة . فالوزارة في الأندلس كانت قريبة الشبه ينظم الوزارات الحديثة ، وهو في هذا تختلف عن نظام الوزارة المعروف في المشرق في العصر الوسيط .

ومن الطريف أن ابن حيان حينما يتكلم عن وزراء الأمير عبد الرحمن الأوسط ، يذكر من بينهم وزيراً سكندرياً ذهب إلى الأندلس في صباه ، وظل يترقى إلى أن صار وزيراً ، فيقول : " ومن وزرائه عبد الواحد ابن يزيد الاسكندراني الذي حضر إلى الأندلس وهو فتى ، وكان يشدو شيئاً من الغناء على مذهب الفتيان ، فأمره الحاجب عيسى بن شهيد بقوله : أمسك عن الغناء البتة ، فإنه يريبك لدينا ، وتحقق بأدبك ، وتنبه لحظك ، فلك خصال تجذب بصنعك . ففعل عبد الواحد ذلك ، ولزم عيسى ، فظل يترقى في منازل الخدمة حتى رقى إلى الوزارة والقيادة (1) .

هذا ويلاحظ أن ابن حيان ، قد ذكر في موضع آخر من كتابه (2) ، اسم هذا الوزير السكندري ضمن قواد الأمير عبد الرحمن الثاني ، وهذا يثبت ما قاله آنفاً من أنه قد رقى إلى الوزارة والقيادة .

وفي عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، أطلق لقب " ذو الوزارتين " على بعض الوزراء والحجاب في الأندلس . وقد سبق أن استخدم هذا اللقب في المشرق أيضاً على عهد العباسيين ، ومثال ذلك الخليفة المأمون الذي منحه لوزيره الفضل بن سهل . والمراد بتلك النسمة هنا ، أن صاحبها يجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية معاً ، ولهذا يقال له أيضاً : صاحب السيف وصاحب القلم ، وقد يجمعان معاً فيقال ، ذو الوزارتين ، أو ذو الرياستين " (1) .

إلا أنه يبدو أن استعمال هذا اللقب في الأندلس ، قد اختلف في مدلوله عن المشرق ، إذ يلاحظ أن الخليفة عبد الرحمن الناصر ، قد أنعم به على وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد سنة 327 هـ (939 م) ، نتيجة للهدايا الثمينة الفاخرة التي أتشفه بها هذا الوزير الثري ، عندئذ ضاعف له الخليفة راتبه ولقبه بذى الوزارتين .

وقد وصف المقرئ هذه الحادثة نقلاً عن ابن حيان وابن خلدون بقوله : وكان الناصر قد استحجب موسى بن محمد بن حدير . واستوزر عبد الملك بن جمهور وأحمد بن عبد الملك بن شهيد . وأهدى له ابن شهيد هديته المشهورة المتعددة الأصناف ، وقد ذكرها ابن حيان وابن خلدون وغيرهما من المؤرخين ، قال ابن خلدون :

وهي مما يدل على الدولة الأموية ، واتساع أحوالها ، وكان ذلك سنة سبع وعشرين وثلثمائة ، لثمان خاون من شهر جمادي الأولى ، وهي هدية عظيمة الدان ، اشتهر ذكرها إلى الآن ، وأنفق على أنه لم يهاد أحد من ملوك الأندلس ، مثلها ، وقد أعجبت الناصر وأهل مملكته جميعاً . وأقروا أن نفساً لم تسمح بإخراج مثلها ضربة عن يدها ، وكتب معها رسالة حسنة بالاعتراف

للناصر بالنعمة والشكر عليها ، فاستحسنها الناس وكتبوها وزاد الناصر وزيره هذا حظوة واختصاصاً وأسمى منزلته على سائر الوزراء جميعاً ، وأضعف له رزق الوزارة ، ولفه ثمانين ألف دينار أندلسية ، وبلغ معروفه إلى ألف دينار ، وثنى له العظمة لثنيته له الرزق فسماه " ذا الوزارتين " لذلك ، وكان أول من تسمى بذلك بالأندلس امتثالاً لاسم صاعد بن مخلد وزير بني العباس ببغداد ، وأمر بتصدير فراشه في البيت ، وتقديم اسمه في دفتر الارتزاق أول التسمية .
فعظم مقداره في الدولة جداً . " (1)

واضح من هذا النص السابق أن لقب " ذي الوزارتين " الذي لقب به ابن شهيد لم يكن معناه صاحب السيف والقلم ، بل كان لقباً تشريفاً مثل لقب " ذو السيفين " الذي منحه الخليفة الحكم المستنصر لقائه غالب بن عبد الرحمن . بعد أن قلده سيفين عقب انتصاره على الأدارسة في المغرب سنة 364 هـ (1) ولما ضعفت الخلافة الأموية في الأندلس ، أخذ نفوذ الحاجب يقوى شيئاً فشيئاً حتى استبد بكل أمور المملكة دون الخليفة ، وصار اختصاصه يشمل الشؤون والعسكرية . وتتبعي الإشارة هنا إلى ما سبق أن بيناه آنفاً وهو أن الحاجب في الأندلس ، لم يكن ذلك الرجل الذي يقف بباب الخليفة ليحجبه عن الخاصة والعامة ، كما كان الحال في الشرق ، وإنما قصد به رئيس الوزارة أو ما يسمى بالوزير في المشرق (2) .

ولقد برز من هؤلاء الحجاب الأقوياء في الأندلس : جعفر بن عثمان المصحفي ثم المنصور بن أبي عامر وأبناؤه من بعده . وحسبنا أن نقتبس هنا بعض فقرات لابن عذاري يصف بها مدى النفوذ الذي بلغه المنصور بن أبي عامر بقوله :

وفي سنة 371 هـ تسمى ابن أبي عامر بالمنصور ، ودعى له على المنابر استيفاء لرسوم الملوك ، فكانت الكتب تنفذ عنه . من الحاجب المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر إلى فلان . وأخذ الوزراء بتقبيل يده ، ثم تابعتهم على ذلك وجوه بني أمية ، فكان من يدخل عليه من الوزراء وغيرهم يقبلون يده ، وينحنون له عند كلامه ومخاطبته ، فإنقاد لذلك كبيرهم وصغيرهم . . . فساوى محمد بن أبي عامر الخليفة في هذه المراتب ، وشاركه في تلك المذاهب ، ولم يجعل فرقاً بينهم وبينه إلا في الاسم وحده في تصدير الكتب عنه ، حتى تناهت حاله في الجلالة . وبلغ غاية العز والقدرة (1) " .

ويبدو أن لقب وزير في ذلك الوقت ، قد أخذت مكانته تضعف نتيجة لازدياد سلطة الحاجب في الدولة . وقد يدل على ذلك ما رواه ابن خلدون وصاحب الفرطاس ، من أن زعيم قبيلة مغراوه الزنانية ، زيري ابن عطية ، احتقر لقب الوزير الذي أنعم عليه به المنصور بن أبي عامر ، لدرجة أن صاح غضباً في

وجه أحد رجاله حينما ناداه بالوزير : وزير من يالكع لا والله إلا أمير بن أمير ، وأعجبا لابن أبي عامر ومخرقته ، لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ! ، والله لو كان بالأندلس رجل ، ما تركه على حاله (2) .

ولما سقطت الدولة الأموية ، وقامت على أنقاضها دويلات ملوك الطوائف ، ترفع هؤلاء الملوك عن استعمال لقب وزير ، واتخذ بعضهم لقب الحاجب مثل سابور الفارسي ، أول من استقل بمنطقة بطليوس ، وباديس من حبوس ملك غرناطة ، وأحمد بن قاسم أمير ولاية البونث **alpuente** من أعمال بلنسية (1) . كذلك زاد استعمال الألقاب التشريفية المزدوجة في أيام ملوك الطوائف مثل : ذو الوزارتين ، ذو الرياستين ، ذو السيادتين ، ذو المجدين ، بالإضافة إلى ألقاب الملك والسلطنة والخلافة وهكذا انحطت مرتبة الوزير عندهم ، وصارت تمنح للطبقة الوسطى من الموظفين والكتاب وشيوخ الفرى (2) .

الوزارة على عهد المرابطين :

ولما جاء المرابطون ، أعادوا لهذه الحطة مكانتها القديمة ، واحتل الوزير في أيامهم ، مكاناً بارزاً في الدولة . ويلاحظ أن كتابات المعاصرين - أمثال ابن عبدون والطرطوشي - قد أشادت بالمركز الممتاز الذي كان يحتله الوزير في نظم المرابطين ، على اعتبار أنه الشخص المقرب من السلطان ، والذي يحضر مجلسه ، فهو - على حد قول الطرطوشي - " بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه ، وفي الأمثال نعم الظهير الوزير (3) .

ومن المعروف أن دولة المرابطين ، كانت دولة إسلامية مجاهدة ، يقوم نظام الحكم فيها على أسس عسكرية ، فأمير المسلمين هو قائد الجيش الأهلي ، ومعالولوه هم قواد الجيش . لهذا كان الطبيعي أن يقسم منصب الوزير بالطابع العسكري كذلك . ولكن لما كان الأمر يتطلب من الوزير أيضاً ، كتابة الوثائق والمراسيم وصياغتها ، وهو ما يقابل عندنا في مصر كاتب ديوان الإنشاء في العصر الوسيط ، فقد وجد في دولة المرابطين صنفان من الوزراء :

(1) وزراء عسكريون من قادة الجيش ، وهم من قرابة السلطان عادة أو من قبائل لمتونة وصنهاجة التي قامت على أكنافها دولة المرابطين .

(2) وزراء كتاب وهم من الفقهاء .

وينبغي أن نلاحظ هنا أن كلمة فقيه في الإصطلاح العلمي الإسلامي ، هو العالم بالأحكام الشرعية إلا أنه لم يلبث أن تطور استعمال هذا اللقب في المشرق ، وصار يطلق على دارس الفقه عموماً من الطلبة . ومثال ذلك قول الذهبي متحدثاً عن المدرسة المستنصرية ببغداد : " وعدد فقائها مائتان وثمانية وأربعون فقيها من المذاهب الأربعة ، وأربعة مدرسون (1) " . فأطلق لقب الفقهاء على الطلاب فحسب ، وبمثل ذلك أطلق ابن السبكي

لقب الفقيه والفقهاء على الطلاب (2) ، أما في المغرب والأندلس ، فلم تكن كلمة فقيه قاصرة على المشتغل بالفقه فحسب . وإنما توسعوا في استعمالها ، فأطلقوها على الرجل المثقف بصفة عامة ، وفي ذلك يقول ابن سعيد : " وسمة الفقه عندهم جليلة " حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويره بالفقيه ، وهي الآن بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق ، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه لأنها عندهم أرفع السمات (1) .

بهذا المعنى العام لكلمة فقيه ، كان وزراء المرابطين الكتابيون وقضاتهم ، وقد نص صاحب كتاب الحلل الموشية على أن يوسف بن تاشفين ، اتخذ وزيراً عسكرياً وهو ابن عمه وصهره سير ابن أبي بكر (2) الذي قضى على ملوك الطوائف بالأندلس ، كما اتخذ وزيراً كاتباً وهو الوزير الفقيه أبو محمد بن عبد الغفور ، الذي كان - على حد قوله - " علم بلاغة به يهدي ، وإمام شرف قدمه العلم والندى ، وعاصر مجد هو الغاية والهنى " (2) ثم يضيف صاحب الحلال الموشية ، أن هذا الوزير الأخير ، هو الذي كتب باسم يوسف بن تاشفين نص ولاية العهد لابنه الأمير أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين (1) .

ولما ولى أمير المسلمين علي بن يوسف (500 - 537 هـ = 1106 - 1143 م) ، استوزر القائد ينتان أو ينتيان بن عمر الذي كان قائداً لفرقة الحشم ، ثم بعد ذلك في أواخر عهده ، استوزر ولده إسحاق بن ينتيان بن عمر الذي كان شاباً في الثامنة عشرة من عمره ، يتوقد ذكاءً ونيلاً وفهاءً فأعجب به أمير المسلمين إعجاباً كثيراً ، وجعل له أيضاً النظر في المظالم والشكايات ، ماتتفع به الناس . وقد تولى هذا الوزير في أواخر أيام دولة المرابطين ، قيادة الحملة التي استسلمت للخليفة الموحي عبد المؤمن بن علي (1) سنة 541 هـ (1147) .

كذلك أخذ السلطان علي بن يوسف ، وزراء ومستشارين عن الفقهاء وكبار العلماء ، وتخص بالذكر منهم الوزير الفقيه مالك بن وهيب الإشبيلي الذي شارك شارك في جميع العلوم ، ونظم اشعر ، وكتب مؤلفات في الفلسفة والتاريخ ، نذكر منها كتابه الذي سماه ، قراضة الذهب في ذكر لثام العرب " ، ضمنه لثام العرب في الجاهلية والإسلام ، وضم إلى ذلك ما يتعلق به من الآداب

ولقد كان لهذا الوزير موقفاً تاريخياً مشهوراً خلال المناظرة التي قامت في حضرة السلطان علي بن يوسف ، بين فقهاء المرابطين والفقيه محمد بن تومرت ، الذي كان ثائراً على الأوضاع الاجتماعية في الدولة المرابطية .

فيروي المؤرخون أن مالك ابن وهيب لما سمع كلام ابن تومرت ، استشعر حدة نفسه ، وذكاء خاطره ، واتساع عبارته . فأشار على أمير المسلمين بقتله أو

اعتقاله قبل أن يستفحل خطره ، لأنه رجل مفسد ولا يسمح كلامه أحد إلا مال إليه . غير أن علي بن يوسف توقف في قتله أو اعتقاله ، وأبى ذلك عليه دينه لعد ثبوت التهمة على (1) . وقد صح توقعه مالك بن وهيب ، إذ أنه على يد هذا الفقيه السوسي ابن تومرت ، قامت دولة الموحدين التي قعدت على دولة المرابطين في المغرب والأندلس .

الوزارة في عهد الموحدين :

ودولة الموحدين تشبه دولة المرابطين في وجود كبيرة ، إذ أنها قامت هي الأخرى على أسس دينية إصلاحية ، واصطبغت نظمها بالصبغة العسكرية ، وكان جهاد الصليبيين في الأندلس من أهم أهدافها . وفي بداية عهد هذه الدولة ، اعتمد المهدي ابن تومرت في إدارة حكومته على عدد من كبار اتباعه ، كانوا بمثابة وزرائه ، وعرفوا باسم العشرة أو أهل الجماعة وقد أورد صاحب كتاب الأنساب (2) بعض اختصاصات هؤلاء العشرة مع ذكر أسمائهم بقوله :

" فمن ذلك أهل الجماعة ، رضي الله عنهم : أمير المؤمنين أو محمد عبد المؤمن بن علي ، كان الإمام المهدي يسميه صاحب الوقت ، واختصه بفرس أخضر ، وسليمان آحزري وكان يكتب الرسائل عن إذن الإمام المهدي ، وأبو ابراهيم إسماعيل بن بلالي الهزوجي ، وكان يقضي بين الناس عن إذن الإمام ، وأبو عمران موسى بن تماري الجدميون ، وكان أمين الجماعة ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان وكان يؤم في الفريضة عن إذن الإمام ، وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني (1) واختصه الإمام المهدي بالارقة ودعا له بالبركة وأيوب الجدميوي وهو الذي تولى قسمة الإقطاع بين الموحدين في أول الأمر (2) . وفي عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي (524 - 558 هـ = 1130 - 1163 م)

تغير هذا النظام ، وصار للدولة وظائفها الإدارية المعروفة كالوزارة والكناية والقضاء ، ولكن بقيت مع ذلك مشيخة الموحدين للرأي والمشورة عند السلطان ، وقد عرفوا بأشياخ الرأي أو أشياخ البساط ، ولم يكن فيما يبدو له من آراء ما يحد من إرادة الخليفة ، إذ يقول العمري في ذلك :

" وكان لعبد المؤمن وأبنائه أشياخ من أعيانهم لا عدة لهم ولا جند ، كعدة الأمراء بمصر ، بل المرء منهم بنفسه فقط ، وإنما هم أعيان الجماعة ممن يحضر عند سلطانهم للرأي والمشورة ، ولكل طائفة مزوار وهو كبير لهم يتولى النظر في أحوالهم" (1)

وكان منصب الوزير من المناسب الهامة في الدولة الموحدية ، وقد شغله عدد من أبناء الخلفاء وإخوتهم من بني عبد المؤمن الذين كانوا يسمون بالسادة أو الأسياد ، كما شغله عدد من أصهارهم وقوادهم وكتابهم كما كان الحال أيام

المرابطين من قبل وكان الوزراء من السادة أي الأمراء يتخذون لأنفسهم في غالب الأحيان ، وزراء بين أيديهم تمييزاً لأنفسهم عن سائر الوزراء . وعلى الرغم . من أن المصادر التي لدينا لا تسعفنا في تحديد اختصاصات الوزير على عهد الموحدين ، إلا أنه كان وزير تنفيذ في غالب الأحيان وأنه كان يقوم بعمل الكاتب ، وبعمل الحاجب - بمدلوله الأصلي - أي كرئيس للتشريفات الذي يحجب الخليفة عن الخاصة والعامة ويأذن للوفود بالدخول عليه مع تقديم كل فرد بذكر اسمه ونسبه وبلده (2) . كذلك كان للوزير ، مع ذلك النظر في الحساب والأشغال المالية (1) ، وإن كان البعض يجعل هذه الشؤون المالية في يد شخص آخر يعرف بصاحب الأشغال (2) .

وكيفما كان الأمر ، فإن الوزير على عهد الموحدين لم يكن صاحب النفوذ الحقيقي في الدولة ، بل كان مجرد منفذ لأوامر الخليفة . أما أصحاب النفوذ الفعلي في الدولة فهم السادة أو الأمراء من بني عبد المؤمن الذين كان يعين منهم الولاة في المغرب والأندلس ، ويختار منهم نائب السلطان الذي ينوب عن الخليفة أثناء غيابه عن العاصمة مراكش . (3)

هذا ويروي ابن خلدون أن خلفاء الموحدين لم يتخذوا لأنفسهم حجاباً لاختصاص الوزراء بهذه المهمة ، ولهذا فإن اسم الحاجب لم يكن معروفاً في دولتهم (4) إلا أننا مع ذلك نجد في الكتب المعاصرة ما يفيد من وجود حجاب لخلفاء الموحدين منذ أيام أمامهم المهدي بن تومرت . ومثال ذلك أبو محمد وأسناور الذي اختصه المهدي لخدمته لما رأى من شدته في دينه وكتماته لما يرى ويسمع ، فكان يتولى وضوءه وسواكه والإذن عليه للناس وحجابته ، والخروج بين يديه . وكان رجلاً أسود من مدينة أغمات (5) أما حجاب خلفاء الموحدين بعد ذلك فأغلبهم كان من الموالي الخصيان أمثال كافور ، وعنبر ، وفضيل ، وريحان ، ومبشر وفارح (!) . وأغلب الظن أنهم كانوا من فتيان أو مماليك الخليفة ، وأن مهمتهم كانت قاصرة على خدمته وملازمته في جلوسه وفي غدواته وروحاته .

ومن أهم وزراء عبد المؤمن نذكر أبا جعفر بن عملية القضاة المراكشي ، وأصله القديم من طرطوشة في شمال شرقي أسبانيا . وقد جمع هذا الوزير بين الكتابة والوزارة في بادئ الأمر ، ثم انفرد بالوزارة بعد أن استكتب عبد المؤمن رجلاً من أهل بحماية يقال له أبو القاسم القالمي .

وكان ابن عطية في الأصل كاتباً لإسحاق بن علي بن يوسف في دولة المرابطين ، فلما انقرض أمرهم هرب وغير هيئته وتشبه بالجند ، وكان يحسن الرمي ، فانخرط في حملة للموحدين كانت متجهة إلى رباط ماسة في بلاد السوس جنوباً لإخماد ثورة هناك قام بها رجل ادعى الهداية اقتداءً بالمهدي بن تومرت ،

واسمه محمد بن هود الماسي ، ولما أخذت تلك الثورة وقبل صاحبها سنة 548 هـ ، طلب الشيخ عمر الهنتاتي قائد الجيش الموحي ، من يكتب عنه بأخبار هذا النصر إلى عبد المؤمن ، فعرف بابن عطية ، فأمر بحضوره فحضر وكتب عنه إلى الموحدين رسالة في شرح الحال ، استحسناها عبد المؤمن (1) ، فعينه كاتباً لدولته ، ثم ارتفعت مكانته عنده فاستوزره . وكان هذا الوزير متزوجاً أميرة لمتونيه تعرف ببنت الصحراوية وهي حفيدة عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين . وكان أخوها يحيى بن أبي بكر بن يوسف ، ويعرف أيضاً بابن الصحراوية من فرسان المرابطين المشهورين وله بلاء شديد في مقاومة الموحدين ، ثم القاد لهم أخيراً حين لم يجد بداً من الانقياد ، فعظمت مكانته عندهم ، وولوه قائداً على من وحد (بتشديد الحاء) من المرابطين . (2) ويبدو أن هذه الصلة السياسية والعائلية التي تربط ابن عطية بالمرابطين ، كانت أساس نكبته التي انتهت بقتله سنة 553 هـ . إذ استغلها أعداؤه واتهموه بالتعاون مع أعداء الدولة من المرابطين ولا سيما بني غالبية حكام ميورقة (3) ، وقالوا في ذلك شعراً يحرضون فيه الخليفة على قتله ، مثل :

قل للإمام أدام الله مدته	قولا تبين لذي لب حقائقه
إن الزرايين (1) قوم قد وترتهم	وطالب الثأر لم تؤمن بوائقه
وللوزير إلى آرائهم ميل	لذاك ما كثرت فيهم علائقه
فبادر الحزم في إطفاء نورهم	فربما عاق عن أمر عوائقه
الله يعلم أي ناصح لكم	والحق أبلج لا تخفى طرائقه
هم العدو ومن والاهم كهم	فاحذر عدوك واحذر من يصادقه (2)

كذلك يروي صاحب المعجب أنه نقل عن الفارس يحيى بن الصحراوية إلى عبد المؤمن أشياء كان يفعلها ، وأقوال كان يقولها ، أحنقته عليه وهم باعتقاله ، فرأى الوزير ابن عطية أن يحذر صهره ، فقال لامراته أخت يحيى المذكور : " قولي لأخيك يتحفظ ، وإذا دعوانه غداً ، فليعتل ويظهر المرض ، وإن قدر على الهروب واللحاق بجزيرة ميورقة فليفل ، فأخبرته أخته بذلك ، فتمارض وأظهر ألماً به ، فزاره وجوه أصحابه وسألوه عن علته ، فأمر إلى بعضهم ما بلغه عن الوزير ، فخرج ذلك الرجل الذي أسر إليه فنقل ذلك بحملته إلى عبد المؤمن ، فكان هذا هو السبب في قتل الوزير أبي جعفر بن عطية (3) . وواضح من كل ما تقدم ، أن نكبة الوزير كانت ترتبط بمسألة أمن الدولة وسلامتها ، بدليل أن الخليفة لم يقتصر على قتل أبي جعفر فقط ، بل قتل أيضاً أخاه أبا عقيل عطية بن عطية ، كما سجن يحيى بن الصحراوية إلى أن مات في سجنه ، وهذا يذكرنا بنكبة البرامكة وزراء العباسيين .

واستوزر عبد المؤمن بعد ذلك عبد السلام بن محمد الكومي نسبة إلى كومية
قبيلة عبد المؤمن (1) .

وقد كانت لهذا الوزير مصاهرة مع الأسرة الحاكمة حيث أن والد عبد المؤمن
تزوج أم الوزير عبد السلام ، وكانت له معها بنت اسمها " بنده " (2) أو
فنده ، لهذا كان هذا الوزير يدعي بالمقرب ، لشدة تقرب عبد المؤمن إياه (3)
ويبدو أنه قد اعتمد على هذه القرابة في تصرفاته كوزير ، إذ أخذ عليه
الاستبداد بعمله والاستئثار بالسلطة ، فضلاً ما اتهم به من الغول في غنائم
قابس ، وشكايات أهل الأندلس من العمال الذين وجههم هذا الوزير إليهم ،
الأمر الذي جعل عبد المؤمن يأمر باعتقاله وسجنه أثناء حملته التي دخل فيها
تلسان سنة 555 هـ .

ثم احتال في قتله بأن دس له سمّاً مسهلاً أفقده قواه ، حتى لم يبق فيه إلا عيناه
" ، على حد تعبير ابن صاحب العلاوة (1) .

وأخيراً وزر لعبد المؤمن ابنه السيد الأعلى أبو حفص عمر بن عبد المؤمن
الذي ظل في منصبه حتى وفاة والده (2) .

وفي عبد الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (558 - 580 = 1163
1184 م) ، استمر منصب الوزارة في يد شقيقه (2) أن حفص عمر مدة
يسيرة حتى استقرت الأحوال لأخيه ، فنحي عنها لأبي العلاء إدريس بن إبراهيم
بن جامع الذي كان يعمل في الوزارة تحت إدارته (بين يديه) منذ أيام عبد
المؤمن (4) .

وكان واد هذا الوزير ، إبراهيم بن جامع ، من أصل أندلسي ، نشأ بساحل مدينة
شريش في بلدة روطه على البحر المحيط ثم انتقل إلى العدو المغربية واتصل
بابن تومرت وصار عن جملة أصحابه (أهل الدار) .

وكان من أبنائه إدريس المذكور الذي وزر للخليفة يوسف بن عبد المؤمن () ،
وأبو محمد عبد الله بن جامع الذي ولى في ذلك العهد على مدينة سبتة بالإضافة
إلى ولاية الأسطور في جميع أنحاء الدولة (2) .

وباشر هذا الوزير عمله بمعرفة أخوته ، وبينه ، وكذلك عاونه شيخ الطلبة أو
محمد المالقي الذي كان عنده في مسلاخ - أي رتبة - وزير على حد قول ابن
صاحب الصلاة (3) وقد ورد ذكر الوزير ابن جامع ومعاونيه في مناسبات
عديدة في كتاب المن بالإمامة (4) ، وهي كلها تعطينا صورة من بعض مهام
الوزير في ذلك العهد ومثال ذلك قوله :-

" وركب الخليفة أبو يعقوب يوسف على جواده العتيق ، ووزيره أبو العلا
إدريس بن جامع راجلاً لصق ركابه ماشياً يحدثه ، ويأمر الخليفة بالأوامر فينفذ

إدريس المذكور فيها ثم يردع إليه . (5) ، وقوله حينما مرض الخليفة المذكور :

وكان يدخل إليه وزيره أبو العلاء إدريس بن جامع يعلمه بالمخاطبات الواصلة ، والأخبار المسلية السارة المتجاملة ، ويحضر معه الأطباء الأولياء أبو مروان بن قاسم وأبو بكر بن طفيل وغيرهما (6) .
وقوله عندما شفي الخليفة من مرضه :

" وجلس رضي الله عنه ، ودخل عليه أشياخ الموحدين وأشياخ طلبة الحضرة ، والوزير أبو العلاء إدريس بن جامع وأخوه أبو محمد عبد الله (1) قائمان بترتيب الدخول بالناس ، وسلموا عليه ودعوا له وهنوه على عافيته وشفائته " (2) .

وقوله يصف أول خروج للخليفة بعد شفائه في موكب رسمي :
" والوزير أبو العلاء إدريس بن جامع ، مدير لهذه الحال الشريفة ، لا يصدر شيء إلا عن رأيه " ولا تنتجز عدة من أمر الخليفة إلا عن شفاعته وسعيه ثم استوى أمير المؤمنين على صهوة فرسه الأشقر الأغر ، وهي أول ركبة خرج فيها من حين مرضه ، والوزير أبو العلاء راجلاً على قدميه بين يديه لصق ركابه ، على حجابيه ، مهما أراد أحد من الرافعين أو المتشكين أو من أهل الحاجات وذوي اللبانات كلاماً أو إشارة هـ ، خرج إليهم مستفهماً كلامه موصلاً لإعلامه (3) .

وإلى جانب هذه الأعمال المختصة بحجابه الخليفة ، كان الوزير في بعض الأحيان ، يكلف ببعض الأعمال الأخرى التي قد تقتضي سفره بعيداً عن العاصمة مراکش ، ومثال ذلك الوزير أبو جعفر بن عطية السالف الذكر حينما بعثه عبد المؤمن إلى الأندلس لمباشرة الأمور وإصلاح الأحوال هناك (1) .
وكذلك الوزير أبو العلاء إدريس بن جامع الذي كلفه أبو يعقوب يوسف بالإشراف على بعض أعمال البناء والتعمير في إشبيلية ، فكان هذا الوزير وابنه يحيى ملتزمين للخدمة بالجلوس على ذلك من وقت شروق الشمس إلى المساء حتى كمل البناء (2) .

وظل إدريس بن جامع وأخوته وبنوه محل تجلّة واحترام طيلة خمس عشرة سنة . وفي سنة 573 هـ على قول ابن عذاري (3) أو في سنة 477 هـ كما يقول عبد الواحد المركشي (4) ، سخط عليهم الخليفة أبو يعقوب يوسف ، فقبض عليهم وأصطفى أموالهم ، ثم أبعدهم إلى ماردة في الأندلس (5) .
ثم وزر لأبي يعقوب يوسف ابنه وولى عهده أبو يوسف يعقوب (المنصور) الذي اتخذ بين يديه أي تحن إدارته الوزير أبا بكر بن يوسف الكومي (1) ، وهذا يذكرنا بما فعله من قبل السيد الوزير أبو حفص بن عبد المؤمن من قبل

حينما اتخذ بين الوزير ادريس بن جامع في خلافة والده عبد المؤمن ، وفي بداية خلافة أخيه أبو يعقوب يوسف . ولعل الغرض من ذلك هو وضع الأمراء أقرباء الخليفة في مكانة تسمو عن الوزراء (2) .

ولقد اكتسب يعقوب المنصور من هذا العمل الوزاري الذي تولى أعباءه ، خبرة جلية ، نفعته في أيام خلافته بعد ذلك ، إذ يقول المعجب في هذا الصدد :
وولى الوزارة أيام أبيه ، فبحث عن الأمور بحثاً شافياً ، وطالع أحوال العمال والولاية والقضاة وسائر من ترجع إليه الأمور مطالعة أفادته في معرفة جزئيات الأمور ، فديرها بحسب ذلك ... وكان لا يكاد يظن شيئاً إلا وقع كما ظن ، مجرباً للأمر ، عارفاً بأصول الشر والخير وفروعهما (3) .

وفي خلافة يعقوب المنصور (580 - 595 = 1184 - 1199 م) ، شغل منصب الوزارة عدد من إخوته مثل السيدين أبي عبد الله ، وإبراهيم (4) ، كما شغلها أيضاً جماعة من أشياخ الموحدين وأعيانهم ومعظمهم من زعماء نبيلة هنتانة إحدى بطون مصمودة التي قامت على أكتافها دولة الموحدين .
ومن هؤلاء نذكر أبا يحيى بن الشيخ أبي حفص عمر الهنتاني ، الذي استشهد في موقعة الأرك **alarcos** المشهورة التي أحرز فيها المنصور نصراً حاسماً على الأسبان سنة 591 هـ (1195 م) (1) ويقول صاحب المعجب إن أمر الوزارة قد اضطرب قليلاً (2) بعد وفاة هذا الوزير القائد ، ثم وقع اختيار الخليفة المنصور لشغل هذا المنصب ، على ابن عم الشهيد اسمه أبو عبد الله ويلقب بالفيل ، فوزر أياماً يسيرة ثم ترك الوزارة مختاراً وهرب إلى نواحي اشبيلية ، فخلع ثيابه ولبس عباءة وتزهد ، فأرسلوا إليه من رده ، وأعفوه من الوزارة . ثم وزر للمنصور أبو زيد عبد الرحمن بن يوجان الهنتاني ، فلم يزل وزيراً إلى أن مات المنصور (3) .

وإلى جانب هؤلاء الوزراء ، هناك أندلسي أديب طبيب شاعر خدم في بلاد الموحدين ، وشارك في بعض أعمالهم المعمارية إلى جانب عمله كطبيب لهم ، وهو الوزير الأجل أبو بكر محمد بن الوزير أبي مروان عبد الملك بن الوزير أبي العلاء بن زهر الإيادي (4) (توفي سنة 595 هـ - 1199 م) وواضح من اسمه أنه من سلالة وزراء أطباء ، وكانت لهم شهرة وزعامة في عالم الطب والجراحة حتى صار اسم " ابن زهر " علماً معروفاً في الأوساط العلمية الأوروبية (1 **avenzoar**)

قال السلاوي : وهذا الوزير أبو بكر ابن زهر ، هو أحد أعيان وزراء الدولة الموحدية ، وزر للمنصور ولأبيه من قبله ، وكان يتكرر وروده على الحضرة بمراكش فيقيم بها ويرجع إلى الأندلس . وكان حاذفاً بصناعة للطب والجراحات وهو من أطباء الخليفة المنصور وله كتاب في طب العين (3) كما أن ما كتبه

من أرجال وموشحات يعتبر نموذجاً لهذين الفنيين (3) وعلى الرغم من المراجع المعاصرة لا تدرج اسم أبي بكر بن زهر في عداد الوزراء العاملين في الدولة ، إلا أنها تجمع على تلقيبه بالوزير ، فهل كان هذا اللقب لقباً تشريفياً ورثه عن أبيه وجده تقديراً لخدماتهم الطبية ؟ قد تكون الإجابة بنعم لو أن الأطباء الآخرين الذين خدموا معه في بلاط الموحدين أمثال بن رشد الحفيد ، وابن طفيل ، وأبي مروان بن قاسم ، قد حملوا لقب وزير ، ولكننا نجد أسماءهم خالية منه .

وأغلب الظن أن ابن زهر قد قال هذا اللقب نتيجة قيامه بأعمال شبيهة بأعمال الوزراء العاملين في الدولة . فلقد ذكر ابن صاحب الصلاة أن كلا من الخليفين أبي يعقوب يوسف (1) ويعقوب المنصور (2) ، قد عهد إلى ابن زهر بالإشراف على بناء جامع إشبيلية ومثال ذلك قوله :
وتعطل بناء الصومعة إلى أن وصل أبو بكر بن زهر من حضرة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين (أي المنصور) في عام 584 هـ . وقد أمر بإعادة بناء الصومعة المذكورة ، وبناء ما اختل في الجامع فشرع فيها ... ودام ذلك أعواماً يعمل في الصومعة أحياناً ، ويسافر عن إشبيلية فيتعطل في المدد التي كان يعاود فيها البناء . (3)

هذا الإشراف الفني الذي قام به زهر على مباني الموحدين ، يذكرنا تماماً بالوزير إدريس بن جامع حينما قام حينما قام بعمل مشابه في إشبيلية ذكرناه آنفاً . لهذا فإنه من المحتمل جداً أن يكون الموحدون قد منحوا أبا بكر بن لقب وزير نظير مشاركته لولاية إشبيلية في هذه الأعمال الإدارية الداخلية . وبد يؤيد ذلك وجود حالات متشابهة رواها ابن عذاري عند قوله :
وفي سنة 561 نظر (أبو يعقوب يوسف) في حديث إشبيلية ، إذ كانت تحتاج إلى والي ، فاختر لها الشيخ أبا عبد الله بن أبي ابراهيم ، وعقد له رايتين في مجلسه الكريم ، وعين له وزيراً يسوس أحواله وينظر أعماله وأشغاله وهو أبو

زكرياء بن سنان (1)

على أن وزارة أبي بكر بن زهر لم تقتصر مهامها على إشبيلية وحدها ، إذ كان كثيراً ما يتردد على العاصمة مراكش ، ويشارك في مجالس الخليفة المنصور وبأمر منه ، فيروي أبو الفضل التيفاشي أنه جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب يعقوب المنصور ، وكانت بين الفقيه أبي الوليد بن رشد المعروف بالحفيد ، والرئيس الوزير أبي بكر بن زهر بضم الزاي ، وكان الأول قرطبياً ، والثاني إشبيلياً ، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبه : " ما أدري ما نقول غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية (2) .

كذلك يروي المقري ، أن ابن زهر قال أثناء مقامه بمراكش ابيناً من الشعر يعبر فيها عن شوقه إلى ولد له صغيرة تركه بإشبيلية ، فلما سمعها يعقوب المنصور ، أرسل المهندسين إلى إشبيلية - من غير علم من ابن زهر - وأمرهم أن يحيطوا علماً ببيوت ابن زهر وحاتته ثم بينوا مثلها بحضرة مراكش ففعلوا ما أمرهم به في أقرب مدة ، وفرشها بمثل فرشته ، وجعل فيها مثل آلاته ، ثم أمر بنقل عيال بن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه إلى تلك الدار ، ثم احتال عليه حتى جاء إلى ذلك الموضع فرآه أشبه شئ ببيوته وحاتته ، فاحتار لذلك وظن أنه نائم وأن ذلك أحلام ، فقليل له : أدخل البيت الذي يشبه بيتك ، فدخله فإذا ولده الذي يتشوق إليه يلعب في البيت ، فحصل له من السرور ما لا مزيد عليه ولا يعبر عنه (!) .

وولى بعد وفاة المنصور ابنه محمد الناصر لدين الله (595 - 611 هـ = 1199 - 1214 م) ، فاستبقى وزير أبيه أبا زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان ، ثم عزله بعد مدة يسيرة وولاه بعد ذلك على مدينة تلمسان (2) ثم ولى الخليفة في الوزارة أخاه ابراهيم بن يعقوب المنصور الذي اتصل به المراكشي صاحب كتاب المعجب ، ومدحه بقوله : " وهتو خير أبناء أبي يوسف يعقوب وأجدرهم بالأمر (أي بالخلافة) لو كانت الأمور جارية على إثار الحق وإطراح الهوى ، لا أعلم فيهم أنجب منه ... وكان يذهب مذهب أبيه في الظاهرية " (3)

وبقي الأمير ابراهيم في الوزارة حتى سنة 605 هـ حينما ولاه أخوه الخليفة على إشبيلية ، وعين مكانه في الوزارة أبا عبد الله محمد بن موسى الضرير . وكان لهذا الوزير صلة نسب مع بني عبد المؤمن ، إذ أن عمته زينب بنت موسى الضرير كانت زوجة لعبد المؤمن بن علي ، وأنجبت منه أبا يعقوب يوسف جد الناصر (1) .

ويروي صاحب المعجب أن هذا الوزير كان من أحسن الوزراء سيرة وسريرة ، وأنه كان دائماً يحض على فعل الخير بجهد ونشر العدل حسب طاقته ، والإحسان ، إلى الرعية والأجناد فرأى الناس في أيام وزارته من الخصب وسعة الرزق وكثرة العطاء مثل الذي رأوا أيام أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أو قريباً منه (2) .

واستمر هذا الوزير مدة ثم عزله الناصر لأسباب لا نعرفها ، وولى مكانه أبا سعيد عثمان بن عبد الله بن ابراهيم بن جامع (3) . وهذا الوزير الجديد من عائلة معروفة في تاريخ الموحدين ، وقد سبق أن أشرنا إلى جده ابراهيم الذي كان من أصحاب المهدي بن تومرت ، ثم إلى والده عبد

الله الذي كان قائداً للأساطيل الموحدية ووالياً على سبته ، ثم إلى عمه أبي العملاء ادريس الذي كان وزيراً لكل من عبد المؤمن وأبي يعقوب يوسف بعده . واستطاع هذا الوزير أبو سعيد عثمان أن يسيطر على الخليفة الناصر وينال ثقته ، إلا أن عدداً من المؤرخين اتهموه بالفساد والخديعة وكرهه زعمان الموحدين والأندلسيين ، وجعلوه سبب الكارثة التي أودت بجيوش المسلمين في وقعة العقاب المشنومة **las navaa de tolosa** في صفر سنة 609 هـ (يوليو 1212 م) فيقول صاحب القرطاس والسلوي مثلاً ، وكان الوزير أبو سعيد قد تمكن من الناصر ، فأقصى شيوخ الموحدين وذوي الحنكة والرأي منهم عن بساطه ، وانفرد هو به ، فكان يشير على الناصر في غزوته هذه بأراء كانت سبب الضعف والوهن وجلبت الكرة على المسلمين (1) . والواقع أن أسباب تلك الهزيمة لا ترجع إلى فساد هذا الوزير ، بل إلى فساد الإدارة كلها في الدولة واضطراب الشؤون المالية فيها . وقد لاحظ ذلك صاحب المعجب عند قوله :

" وأكبر أسباب هذه الهزيمة اختلاف قلوب الموحدين : وذلك أنهم كانوا على عهد أبي يوسف يعقوب يأخذون العطاء ، في كل أربعة أشهر ، لا يخل ذلك من أمرهم . فأبطأ في مدة عبد الله هذا عنهم العطاء ، وخصوصاً في هذه السفارة ، فنسبوا ذلك إلى الوزراء . (1)

وقد يؤيد ذلك أيضاً ، حركة التطهير الشاملة التي أجراها الناصر قبيل هذه الموقعة ضد الفساد وسوء الإدارة في جميع أنحاء مملكته . وقد نكب في هذه الحركة عدد غير قليل من كبار عمال الدولة وشيوخها (2) وتجدر الإشارة هنا ، إنصافاً للوزير بن جامع ، أن الذي قام بعملية التطهير ، ونكب أشياخ الموحدين ، شخص آخر كان الخليفة الناصر قد فوض إليه مهمة الأشغال العملية أي الأمور المالية وهو صاحب الأشغال أبو محمد بن أبي علي بن مثنى ، الذي ضرب به المثل في ذلك فقالوا " مدها قل لابن المثنى يردها " . (

(2)

وهذا وينبغي أن نضيف إلى هذا العامل الداخل ، عاملاً خارجياً كانت له خطورته في تقرير مصير هذه المعركة . ذلك أن الأوضاع الساسية في العالم المسيحي عامة وفي أسبانيا خاصة . قد تغيرت في عصر الناصر عما كانت عليه في عصر والده المنصور ، فالممالك الأسبانية النصرانية في أيام المنصور كانت متعادلة ومتفرقة الكلمة ، وهذا مكن المنصور من أن ينفرد بأعدائه متفرقين ، وينتصر عليهم واحداً بعد الآخر . وكان لهذه الانتصارات ، ولا سيما انتصار الأرك - رد فعل شديد في الأوساط الأوروبية المسيحية دفع ثمنه غالياً بعد ولده الناصر . ذلك لأن ملوك إسبانيا وأحبارها قد استغلوا هذا الشعور المسيحي العام

ضد الموحدين ، في توجيه حركة الاسترداد الأسبانية **reconquista** إلى وجهة صليبية عالمية بعد أن كانت قاصرة على القوى الأسبانية المحلية في معظمها . وقد كلل مسعاها بالنجاح عندما نادى البابا إيوسنت الثالث **innocent iii** بتوجيه حملة صليبية عند هرب أسبانيا في الغرب على غرار الحملات الصليبية في الشرق ، كما أخذ يعمل في الوقت نفسه على تسوية الخلافات القائمة بين ملوك أسبانيا لتوحيد جبهتهم أمام أعدائهم . ولم تلبث جموع هذه القوى الصليبية ، وأكثرها من الإيطاليين والفرنسيين ، أن أخذت تفتال على أسبانيا ، انثيال الجراد في الكثرة والإفساد - على حد قول الناصر في إحدى رسائله (1) - ثم انضمت إلى قوات الممالك النصرانية الأسبانية المتحدة ، وتقدم الجميع نحو المسلمين وكلهم عزم على محو وصمة هزيمة الأرك ، بالانتصار على الموحدين يضاف إلى ذلك أن صناعة السلاح والدروع وفن الحرب بصفة عامة كان قد تقدم تقدماً كبيراً في غرب أوربا في ذلك العهد . وهكذا نجد أن هذه المعركة التي خاضها الناصر في وديان تولوسا عند قصر العقاب (2) ، كانت تختلف عن المعارك التي خاضها أسلافه من قبل في طبيعتها وأهدافها ، وهذا كان له دخل كبير في نتائجها المجزئة .

ولم يعش الخليفة محمد الناصر بعد هذه الكارثة سوى مدة قصيرة ، وتوفى في شعبان سنة 610 هـ وقد علق ابن الخطيب على وفاته بقوله : ولم يعد بعده إلى الأندلس أحد من ملوك الموحدين على أن انقرضت أيامهم (1) أما الوزير أبو سعيد عثمان بن جماع ، فإنه قد عاد بعد هذه الكارثة إلى سابق منصبه ، واستمرت وزارته بعد وفاة الناصر في خلافة ولده أبي يعقوب يوسف الثاني الملقب بالمستنصر بالله فقام بتدبير الأمر مع مشيخة الموحدين إلى أن عزل من الوزارة في سنة 165 هـ ، وولى بعده وزير اسمه زكريا بن يحيى بن أبي إبراهيم الهزوجي ، وكان أيضاً من ذوي القرابة للأسرة الملكية ، إذ أن والدته كانت ، من بنات يعقوب المنصور . (1) غير أن دولة الموحدين في الواقع كانت بعد هذه الكارثة قد ذهب ريحها وتهدم صرحها : ففي الأندلس ، أخذت معاول المسلمين تتساقط في يد الأسبان في كل جهة ، وفي المغرب ظهرت قوة زنانية فتيية كانت تسكن صحراء فجيج (2) في منطقة وجدة بشرق المغرب الأقصى على حدود الجزائر ، وهم بنو مريم الذين اقتحموا المغرب في عهد هذا الخليفة وأغاروا على مختلف نواحيه في تازا وفاس وبلاد الريف ، وهزموا الجيوش الموحدية التي تعرضت لهم . وتركوا جنودها عراة يخفون أجسادهم بأوراق نبات هناك يعرف بالمشعلة ، فسميت تلك السنة (613 هـ) بسنة للمشعلة . حدث كل هذا بينما كان الخليفة المنتصر الموحد ، قابلاً في قصره ، لاهياً بترويض أبقاره التي كان يستوردها من أسبانيا ، وكأنه يذكرنا بمصارعي

الثيران فيها . ولم تلبث حياته أن انتهت بين ثيرانه ، إذ طعنته بقرة شرود في صدره فقتلته في حينه سنة 620 هـ (1224 م) . وكانت وفاة المستنصر الفجائية دون أن يخلف حقبا ، سبباً في إثارة المنازعات بين بني عبد المؤمن حول العرش ، واستبداد الأشباح والوزراء بنواحيهم مما أدى إلى اضطرام فتن وحروب أهلية عجلت بسقوط دولة الموحدين .

ولقد قامت على أنقاض هذه الإمبراطورية الموحدية أربع دول مستقلة هي : -

(1) الدولة الحفصية في تونس سنة 627 هـ (1230 م)

(2) دولة بني عبد الواد في تلمسان ونواحيها بالمغرب الأوسط سنة 633 هـ (1235 م) .

(3) دولة بني مرين أو بني عبد الحق في فاس وهي الدولة التي استقلت

بالمغرب الأقصى بعد أن قضت على خلافة الموحدين نهائياً سنة 668 هـ (

1269 م) .

(4) مملكة غرناطة وهي آخر ما تبقى للمسلمين من ممتلكات في أسبانيا ، وقد

استقل بها بنو الأحمر أو بنو نصر سنة 635 هـ (1238 م) .

الوزارة على عهد الحفصيين :

للموحدين دولتان : المؤمنية في مراكش ، نسبة إلى عبد المؤمن بن علي ، والحفصية في تونس نسبة إلى أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاني شيخ قبيلة هنتانة المصمودية ، وأحمد القائمين بدولة الحفصية شعبة من دولة الموحدين كما هو واضح من أصلها .

وعلاقة الحفصيين بإفريقية ترجع إلى سنة 603 هـ (1206 م) حينما فوضى

الخليفة الموحدى محمد الناصر أمر أفريقية إلى وزيره وصهره الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاني ، ومنحه جميع السلطات التي تخول له حكماً مستقلاً بهذه الولاية . وهذا الحدث يعتبر في الواقع إيذاناً بانفصال أفريقية عن الدول الموحدية في مراكش . ثم حدث الانفصال الرسمي النهائي على يد

أبي زكريا بن عبد الواحد الحفصي سنة 626 هـ (1229 م) .

والسبب الحقيقي الذي شجع هذا الأمير على الاستقلال بولايته هو انهيار دولة بني عبد المؤمن في المغرب والأندلس عقب الهزيمة التي حاقت بجيوشها في موقعة العقاب سنة 1212 م . أما السبب المباشر لهذا الاستقلال فهو الإعلان (

1) الذي أصدره الخليفة الموحدى إدريس المأمون في مراكش سنة 626 هـ (

1229 م) . والذي رفض فيه تعاليم المهدي بن تومرت ، ثم أزال اسمه من

السكة والخطبة كما قتل المعارضين لسياسته من أشياخ الموحدين ، ومعظمهم

من هنتائه ، قبيلة الحفصيين . عندئذ ثار الأمير أبو زكريا الحفصي على

المأمون ، ورفض مبايعته ، واتخذ من هذا الإعلان ذريعة للخروج عن طاعة

بني عبد المؤمن والاستقلال بولايته ، كما اعتبر نفسه أحق بميراث المهدي بن تومرت منهم .

ولهذا حرص الحفصيون منذ بداية دولتهم على التمسك بتعاليم أمامهم المهدي ، وذكر اسمه في الخطبة والسكة ، كما طبقوا رسوم الموحدين واسمهم وتقاليدهم على دولتهم الناشئة . وإذا استثنينا بعض التعديلات التي اقتضتها ظروف الزمان والمكان ، فإن ما ورد في تاريخ الدولة الحفصية من أنظمة وتقاليد ، يعتبر استمراراً للدولة المؤمّنية لأن كلاهما من الموحدين .

وبدأت هذه الدولة كإمارة مستقلة في عهد أبي زكريا يحيى الأول ثم تحولت إلى خلافة في عهد ولده أبي عبد الله محمد المستنصر بالله أمير المؤمنين ،

واستمرت هذه الدولة مدة طويلة إلى أن سقطت في يد العثمانيين نهائياً سنة 981 هـ (1574 م) ، وكان نظام الملك فيها وراثياً ، وغالباً ما يكون بالعهد من السلطان السابق ، وأحياناً يكون بالغلبة والقهر من أحد القرابة .

أما عن حدود هذه الدولة ، فقد كانت تشتمل على الأراضي التي تقابلها اليوم طرابلس الغرب في ليبيا ، والجمهورية التونسية ، وجزء كبير من الجمهورية الجزائرية الذي يشمل ولايات بونه أو عناية (بلد العناب) وقسنطينة ، وبحاية وتدلّس التي تسمى حالياً دلس dellys غرباً ، وما بعد ورقلة في الصحراء الجزائرية جنوباً (1) .

وكانت مدينة تونس هي عاصمة المملكة الحفصية ، بينما كانت بجاية وأحياناً قسنطينة هي قاعدة المنطقة الغربية منها أي الجزائر الحفصية التي كثيراً ما استقل ، لأنها عن تونس واتخذوا الوزراء والحجاب والكتاب مثل سلاطين

تونس .

وكان يعاون السلطان في الحكم ، أقاربه وأشباه الموحدين الذين كانوا ينتمون إلى القبائل الموحدية التي قامت على أكتافها دولة الموحدين من قبل ، مثل هرغ التي ينتمي إليها ابن تومرت ، وهنتاتة قبيلة الحفصيين ، وأهل تيمال ، وجنفيسة وهكورة ، وهم جميعاً من المصامدة وموطنهم الأصلي جبال أطلس ، ثم قبيلة كومية التي ينتمي إليها عبد المؤمن بن علي الكومي ، وكان موطنها الأصلي منطقة ندرومة الحالية بالجزائر .

وكان لكل قبيلة مزوار أو أمزوار ، وهي كلمة بربرية معناها الابن البكر ، ثم صارت تستعمل في معاني كثيرة مثل كبير القبيلة ، وحاجب السلطان ، ورئيس الجند ، ونقيب الإشراف ، وموقت المؤذنين (1) والمعنى المقصود هنا هو شيخ القبيلة . وهؤلاء الأشياخ كانوا يكونون مجالس العشرة والخمسين التي كانت تحيط بالسلطان وتكون مشورته ، وكان برأسهم واحد منهم يسمى شيخ الموحدين أو الشيخ المعظم لسمو مكانته وارتفاع شأنه ، وهو وزير الرأي

والمشورة عند السلطان (1) ، ولهذا كان يختاره السلطان بنفسه ، ومن بين قرابته في أغلب الأحيان ، وكثيراً ما يعهد إليه بمهام خطيرة في الدولة مثل وزارة الجند أو الحرب أو خطه الحجابية أو هما معاً . هكذا نجد أن شيخ الموحدين كان بمثابة رئيس الوزراء في الدولة . ونذكر على سبيل المثال شيخ الدولة أبا سعيد عثمان بن محمد الهنتاني المعروف بالعود الرطب (2) (ت 673 هـ) ، وغائلة بني أبي هلال الهنتانية في عهد الخليفة المستنصر الحفصي ، وشيخ الدولة محمد المز دوري الذي أخذ البيعة للسلطان الحفصي أبي يحيى زكريا المعروف بالحلياني لطول لحيته (3) (711 - 717 هـ) . وإلى جانب طبقات الموحدين ، كانت هناك الجاليات الأندلسية التي هاجرت إلى تونس عقب سقوط بلادها في يد الأسبان . ونذكر من أعلامها ابن الآبار ، وابن الجنان ، وابن محرز ، وابن سيد الناس ، وابن عميره ، وحازم القرطاجني وغيرهم . وقد أحسن الحفصيون استقبال المهاجرين الأندلسيين ، واستعانوا بهم في إدارة دولتهم التي كانت ما تزال ناشئة وفي حاجة إلى رجال من ذوي الخبرة والاختصاص في مختلف الميادين . وقد أشار ابن خلدون إلى أن هجرة الأندلسيين إلى البلاد التونسية كانت أكثر من هجراتهم نحو البلدان الإسلامية الأخرى . وعلل ذلك باستفحال الدولة الحفصية . أما الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، فيعزل ذلك أيضاً بالعلاقة التي كانت موجودة من قبل بين الأندلسيين وبين أمراء الحفصيين الذين سبق لبعضهم أن باشروا الحكم في الأندلس في عهد الموحدين .

وكيفما كان الأمر . فإن هجرة الأندلسيين إلى الدولة الحفصية كان من أكبر العوامل التي ساعدت على تقدمها وازدهارها ، إذ أنهم أدخلوا فيها أساليب زراعية جديدة ، وأسهموا بقسط وافر في تدعيم الحياة الإدارية فشاركوا في مناصب القضاء والوزارة والحجابية ، كما شاركوا في نشر الحركة العلمية والأدبية مما أعطى هذه البلاد لوناً من الحضارة والتقليد الأندلسية (1) . ويكفي أن نحيل هنا على كتاب عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، لنرى مدى إسهام الأندلسيين في نشر الثقافة والحضارة في مدينة بجاية وحدها وقص على ذلك في بقية المدن الأخرى (2) . ومن المناصب الهامة التي شارك الأندلسيون في إدراتها إلى جانب الموحدين ، هي خطة الوزارة ، يروي العمري نقلاً عن ابن سعيد المغربي ، أن وزراء السلطان الحفصي كانوا ثلاثة وهم : وزير الجند وهو بمثابة الحاجب بمصر ، ووزير المال وهو المعروف بصاحب الأشغال ، ووزير الفضل وهو كاتب السر (1) .

أما وزير الجند أو الحربفكان في غالب الأحيان هو شيخ الموحدين فهو بمثابة رئيس الوزراء . ولهذا كان يلقب بألقاب تدل على منزلته مثل شيخ أو رئيس الدولة أو صاحب الدولة أو رئيس الدولة ، كما كان ينوب عن السلطان عند غيابه عن عاصمته : ويجلس بين يديه في مجالسه مع أشياخ الرأي والمشورة ، وله النظر في الولايات وقيادة الجيوش في الحروب (2) . أما وزير المال أو الأموال وهو المسمى أيضاً بصاحب الأشغال ، فهو - كما يقول ابن خلدون - المختص بالحسبان ، وبالنظر المطلق في الدخل والخرج ، ويحاسب ويستخلص الأموال ، ويعاقب على التفريط (3) . وقد ولى وزارة المالية في بادئ الأمر واحد من شيوخ الموحدين ، ثم شغلها بعد ذلك أناس من ذوي الاختصاص في الشؤون المالية ، من خارج في الشؤون المالية ، ومن خارج طبقة الموحدين .

وبعض هؤلاء الوزراء كانوا من الأفارقة أهالي البلاد الأصليين ، أمثال أبي العباس أحمد اللياني (1) على عهد الخليفة المستنصر ، أو من الموالي أمثال الملوك مدافع على عهد الواثق بالله بن المستنصر ، إلا أن أغلبهم كان من الأندلسيين أمثال أبي عثمان سعيد بن أبي الحسين الذي ينتمي لأسرة بني سعيد المشهورة في التاريخ أصحاب قلعة يحصب الأندلسية بجوار غرناطة (la alcala, la real) ، وقد تولى وزارة المالية في عهد المستنصر وأوائل عهد ابنه الواثق بالله (2) ، وأبي بكر محمد بن خلدون جد المؤرخ المعروف بن خلدون على عهد الخليفة أبياسحاق ابن الواثق ، ومثل محمد بن يعقوب ، وأبي القاسم بن طاهر وغيرهم ممن شغل هذا المنصب في أواخر القرن السابع وأوائل الثامن الهجري (2) . وكل هذا يدل على أن وزارة المال لم تكن شرطاً قاصراً على الموحدين الأولين كما يقول الزركشي (4) وابن خلدون (5) ، وإنما كانت تمنح لذوي المعرفة والدراية بالشؤون المالية .

ومن سوء الحظ أن وزير المالية أو صاحب الأشغال في هذه الدولة الحفصية ، كان عرضة دائماً للقتل أو السجن والتعذيب ومصادرة الأموال . فاللياني قتله المستنصر سنة 659 هـ (1261 م) ، وسعيد بن أبي الحسين قتله الواثق بالله وصادر أمواله سنة 676 هـ (1278) (2) ، وأبو بكر محمد بن خلدون قتله مغتصب العرش ابن أبي عمارة سنة 682 هـ (1283 م) ، وقد شرح حفيده ابن خلدون خبر مصرعه بقوله : " واستقل أبو إسحاق بملك أفريقية ، ودفع جدنا أبا بكر محمداً إلى الأشغال في الدولة على سنن عظماء الموحدين فيها قبله ، من الانفراد بولاية العمال وعزلهم ، وحسابهم على الجباية ، فاضطلع بتلك الرتبة . ولما غلب ابن أبي عمارة على ملكهم بتونس ، اعتقل جدنا أبا بكر محمد ، وصادره على الأموال ، ثم قتله خنقاً في محبسة (3)

ويبدو أن التنافس الذي كان سائداً بين المهاجرين الأندلسيين وبين بعض أشياخ تونس من الموحدين ، كان له دخل في هذه النكبات (4) .

ولقد استمر هذا المنصب يشغله صاحب الأشغال إلى أن حدث تغيير في تلك التسمية على عهد السلطان الحفصي أبي فارس عبد العزيز أو عزوز (796 - 837 = 1394 - 1433 م) ، إذ صار يطلق عليه اسم المنفذ أي صاحب الجباية والتنفيذ في الدولة . وكان يختار من بين كبار رجال الموحدين ويتمتع بنفوذ كبير في المملكة - (1) .

أما وزير الفضل أو كاتب السر ، فهو المختص بديران الإنشاء أي الذي يتولى المكاتبات والأوامر السلطانية ، وكذلك كتابة العلامة ، وهي جملة أو عبارة التوقيع التي تضاف إلى هذه المكاتبات ثم ترفع إلى السلطان ليضع خاتمه : عليها كذلك كان هذا الوزير يشرف على أرباب العلم وسائر فنون الفضل ولهذا سمي بوزير الفضل . وكان يشترط فيه أن يحسن الإنشاء ، ويحيد الترسيل باللغة العربية الفصحى ، وأن يؤتمن على كتمان الأسرار ، ولهذا سمي أيضاً بكاتب السر (2) . ولم يشترط الحفصيون النسب في صاحب هذه الخطة أي أن يكون من قرابتهم أو من طبقة الموحدين كعادتهم في معظم الولايات والمناصب الرئيسية ، وقد علل ابن خلدون ذلك بأن الكتابة والترسيل لم تكن من متحل القوم بسبب رطانة ألسنتهم ، وما يغلب عليهم من العجمة وتخلف الملكة (3) ولهذا نجد أن هذه الخطة شغلها عدد كبير من الأندلسيين الذين كانوا يجيدون هذا الفن من الكتابة .

هذا ويرى ابن سعيد والزرکشي ، أن علامة الحفصيين التي اختارها خليفتهم الأول المستنصر بالله ، كانت " الحمد لله والشكر لله " ، ثم رأى شيخ الموحدين في عهده أبو سعيد عثمان الهنتائي المعروف بالعود الرطب ، أن الأوامر السلطانية قد تنفذ بأمر صغيرة لا ينبغي الكتابة بمثلها عن الخليفة لعلو قدره ، ولهذا قسم العلامة إلى علامتين : كبرى وصغرى فالأوامر الكبيرة الصادرة عن الخليفة تكتب بالعلامة أو العبارة السالفة الذكر . أما الأمور الصغيرة التي يكبر قدر الخليفة عنها فتصدر بعلامة أخرى عن أمر نائب الخليفة . وكان صاحب العلامة الكبرى هو وزير الفضل ويوقعها السلطان نفسه ، وتكتب بعد البسملة بالقلم الغليظ في أعلا الصفحة أما العلامة الصغرى فتكتب في أسفل المنصور وتصدر عن وزير الجند الذي كان في العادة هو شيخ الموحدين أو نائب الخليفة . وللتمييز بينهما كانت كتب السلطان تصدر في ورق أصفر ، بينما كان ما يكتب عن وزير الجند يصدر ورق غير الأصفر . ومن عادة المغاربة كلهم أن لا تطول كتبهم ولا يبعد بين أسطرهم كما جرت به العادة في مصر والشام وإيران . (1)

ولقد أورد أبو الوليد بن الأحمر في كتابه مستودع العلامة أسماء كتاب العلامة على عهد الحفصيين إلى ما بعد سنة 855 هـ (2) .

ومن أبرز الكتاب الأندلسيين الذين تولوا هذه الخطة على عهد المستنصر الحفصي ، نذكر أبا عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي البلنسي المعروف بابن الآبار (595 - 658 هـ) وتذكر المراجع أنه كان يكتب العلامة بخطه المغربي ، ولكن السلطان رغب في أن تكون بالخط المشرقي ولهذا أمر بأن يكتب ابن الآبار بإنشاء المكاتبات ، ويدع العلامة للوزير أحمد بن إبراهيم الغساني ، فغضب ابن الآبار لذلك واستمر يكتب العلامة على ما ينشئه من رسائل ، فعوتب في ذلك وروجع ، فاستشاط غضباً ورمى بالقلم وأنشد متمثلاً بيت للمتنبي :
أطلب العز في لظى وذو الذل (م) ولو كان في جنان الخلود
وحمل الخبر إلى السلطان ، فعزله عن عمله . وأحسب ابن الآبار بخطأ تصرفه ، فكتب كتاباً بمثابة اعتذار للسلطان أسماه " إعتاب الكتاب " ، ويتضمن حكايات كتاب سبق إليهم غضب السلاطين ثم حلت بهم نعمة الرضا فأعتبوه . وعفا عنه السلطان بعد ذلك إلا أنه يبدو أن ابن الآبار ظل على كبريائه ومهاجمة خصومه ولا سيما الوزير أحمد بن إبراهيم الغساني فأوغروا صدر المستنصر عليه وأوهموه بأنه يتآمر ضده ، فأمر بقتله وإحراق مؤلفاته ، فقتل قعصاً بالرماح سنة 258 هـ (1260 م) (1) .

وإلى جانب هذه الأعمال ، كان يعهد إلى وزير الفضل في كثير من الأحيان ، الإشراف على مكتبة القصر الملكي ، والنظر فيما تحتاج إليه من كتب (2) . وقد ذكر الكاتب المعاصر أبو محمد عبد الله التجاني في رحلته أن أول من ابتداء في جمع هذه الخزانة أو المكتبة هو أبو زكريا يحيى الأول ، وأنه عهد إلى صاحب خطة العلامة الكبرى الحسن بن معمر الهواري الطرابلسي النظر في خزانة الكتب بالقصبة ، ثم إن الخليفة المستنصر بالله تغير عليه فنفاه إلى المهديّة سنة 667 هـ ، ولكنه عفا عنه السنة التالية ورجع ابن معمر إلى تونس . ولما مات المستنصر وبويع لولده الواثق ، استدعى الحسن ابن معمر وأمره بالنظر في خزانة الكتب وذلك في سنة 675 هـ . ويروي أنه لما مثل الحسن عن هذه الخزانة ، ذكر أنها كانت ثلاثين ألف سفراً حين كانت لنظره أولاً ، وأنه لما أعيد إليها واختبرها في هذه المرة ، فوجدها نقصر عن ستة آلاف سفر ، فسئل عن موجب ذلك ، فقال : المطر وأيدي البشر (1) . ويبدو أن ضياع هذه الخزانة الضخمة يرجع إلى الحفصيين أنفسهم . بدليل ما يرويه الزركشي وابن أبي دينار عن أن السلطان أبا يحيى زكريا بن أحمد بن اللحياني (711 - 717 هـ) لما رأى اضطراب ملكه ، وظهر له خروج الأمر من يده ،

باع جميع النفائس التي كانت بالقصبة ومن جملتها الكتب التي اقتناها أبو زكريا الأكبر ، وخرج من تونس إلى طرابلس واستوطنها عام 717 هـ (2) .
من كل ما تقدم نرى أن الوزارة الحفصية كانت تتألف من عناصر السيف والقلم والمال والعلم ، وأن السلطان كان يهيمن عليها ويجتمع بوزرائها في كل يوم تقريباً وقد أوضح ابن سعيد هذا اللقاء الذي كان يتم بين السلطان ووزرائه بقوله :

" وعادته في مدينة مملكته - يعني تونس - أنه يخرج كل يوم باكراً إلى موضع يعرف بالمدرسة ، ويبعث خادماً صغيراً يستدعي وزير الجند من موضعه المعين له ، فيدخل عليه رافعاً صوته بسلام عليكم ، من بعد أن يومئ برأسه . ولا يقوم له السلطان ، ويجلس بين يديه ، ويسأله السلطان عما يتعلق بأمور الجند والحروب ، ثم يأمره باستدعاء من يريده من أشياخ الجند والعرب أو من له تعلق بوزير الجند ، ثم يأمره باستدعاء وزير المال ، وهو المعروف بصاحب الأشغال ، فيأتي معه ويسلمان جميعاً من بعد علي السلطان ، وإن كان قد تقدم سلام وزير الجند ، ولكنه عادة الدخول عليه ، فيتقدم وزير المال إلى بين يدي السلطان ، ويتأخر وزير الجند إلى مكان لا يسمع فيه حديثهما ، ثم يخرج وزير المال ، ويستدعي من يتعلق به ، ثم يحضر صاحب الطعام بطعام الجند ويعرضه على وزيرهم لئلا يكون فيه تقصير . ثم يقوم السلطان من المدرسة إلى موضع مخصوص ، ويستدعي وزير الفضل ، يعني كاتب السر ، ويسأله عن الكتب الواردة من البلاد وعما تحتاج إليه خزانة الكتب ، وهما تجدد في الحضرة وفي البلاد مما يتعلق بأرباب العلم وسائر فنون الفضل والقضاة ويأمره باستدعاء من يخصه من الكتاب ، ويملي عليهم وزير الفضل ما أمر بكتابته ويعلم عليه وزير الفضل بخطه " (1) .

الحجاجة في الدولة الحفصية

أما خطة الحجاجة في هذه الدولة ، فقد مرت في أدوار مختلفة من ضعف إلى قوة ثم ضعف واضمحلال . ويذهب المستشرق الفرنسي روبرت بروولشفيج في كتابه القيم عن الحفصيين ، إلى أن هذه الخطة لم تظهر في الدولة الحفصية إلا في أيام السلطان أبي إسحاق إبراهيم الأول (678 - 683 هـ) الذي عاش في الأندلس فترة قبل إعلانه العرش ، فتأثر بهذه الخطة التي كانت شائعة هناك ، واتخذ في خلافته حاجباً أندلسياً وهو أبو القاسم بن الشيخ (1) تلميذ الكاتب الأندلسي المعروف ابن عميرة . إلا أنه يبدو أن هذه الخطة كانت قائمة في تونس قبل ذلك التاريخ ، إذ يروي ابن عبد الملك المراكشي أن أبا القاسم بن الشيخ كان حاجباً للخليفة المستنصر الحفصي جد أبي إسحاق المذكور (2) .

وكيفما كان الأمر ، فإن خطة الحجابة في بداية الحفصية ، لم يكن لصاحبها نفوذ سياسي كبير ، إذ كان عمله قاصراً على إدارة قصر السلطان أو كما يقول ابن خلدون : كان بمثابة قهر مان خاص بداره ، ينظر في أحواله ويجريها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة في المطابخ والإصطبلات وغيرهما ، وربما أضافوا إليه كتابة العلامة على السجلات إذا أنفق أنه يحسن صناعة الكتابة ، وربما جعلوه لغيره (2) .

ويستمر ابن خلدون في شرح تطور هذه الخطة في الدولة الحفصية فيقول : " واستمر الأمر على ذلك وحجب السلطان نفسه عن الناس ، فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين أهل الرتب كلهم ، ثم جمع له آخر الدولة السيف والحرب ثم الرأي والمشورة ، فصارت الخطة أرفع الرتب وأوعيتها للخطط ، ثم جاء الاستبداد والحجر مدة من بعد السلطان الثاني عشر منهم - أبي حفص عمر الثاني - ثم استبد بعد ذلك حفيده السلطان أبو العباس على نفسه ، وأذهب آثار الحجر والاستبداد بإذهاب خطة الحجابة التي كان سلماً إليه وبإشراكه أموره كلها بنفسه من غير استعانة بأحد والأمر على ذلك لهذا العهد . " (2) واضح من كلام ابن خلدون ومن الأحداث التاريخية لهذه الدولة ، أن الحجابة قد ارتفع شأنها بعد أن كانت قاصرة على نظارة قصر السلطان فصار صاحبها رئيساً للوزراء ، وحل محل وزير الجند وشيخ الموحدين من حيث الاختصاص ، أو بمعنى آخر صار شيخ الموحدين يلقب بالحاجب أيضاً . ثم تأتي بعد ذلك مرحلة استبداد الحجاب بالخلفاء وهذا يذكرنا بالحاجب المنصور ابن أبي عامر في الأندلس ، وكان صنوه في تونس هو الحاجب أبو محمد بن تفرجين (1) الذي استبد بكل من أبي حفص عمر الثاني بن أبي بكر (747 - 750 هـ) وأبي إسحاق إبراهيم الثالث (751 - 779 هـ) وسلم عليه سلام الملوك ، كما تزوج ابنته السلطان أبو إسحاق المذكورة سنة 766 هـ بصدوق قدره 12 ألف دينار و 30 خادماً وتوفى ابن تفرجين بعد ذلك في تلك السنة (2) . وبعد وقت قصير خلفه حاجب آخر وهو أحمد الياقي الذي استبد بالسلطان خالد بن إسحاق (770 - 772 هـ) ، ولم يترك له شيئاً (3) . ثم جاء بعده السلطان أبو العباس أحمد الثاني (772 - 796 هـ) فباشر الحكم بنفسه وقضى على كل نفوذ لهذه الخطة التي كانت مصدر الاستبداد والتغلب (4) .

هذا والجدير بالذكر أن المؤرخ ابن خلدون الذي أمدنا بهذه المعلومات القيمة قد توهها هو الآخر خطة الحجابة المطلقة لأمير بجاية أبي عبد الله محمد سنة 5761 هـ (1264 م) .

وقد شرح هو نفسه حدود عمله الجديد بقوله ، وكتب لي الأمير أبو عبد الله بخطه عهداً بولاية الحجابة ، ومعنى الحجابة في دولنا بالمغرب ، الاستقلال

بالدولة ، والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته ، لا يشاركه في ذلك أحد .)

(1)

وظل ابن خلدون حاجباً لهذه الإمارة الحفصية الجزائرية مدة عام تقريباً ، ثم اضطر إلى الفرار منها إلى مدينة بكرة قاعدة الزاب بالجزائر وذلك عقب مقتل خليفة الأمير محمد واستيلاء ابن عمه أبي العباس على بجاية سنة 767 هـ (2) ويضيف ابن خلدون أن ملك تلسان أبو حمو موسى الثاني ، كتب إليه يستدعيه من بكرة ليوليه حجابته (3) لما كان بعله من نفوذه في بجاية وما حولها من القبائل ، وأرسل إليه بالفعل مرسوم الحجابة ولكن ابن خلدون اعتذر عن قبول هذه الخطة ، وأرسل إليه أخاه الأصغر يحيى نيابة عنه (4) . وفي أواخر أيام الدولة الحفصية انفصلت الحجابة نهائياً عن رئاسة الوزراء وصار الحاجب - كما يقول الحسن الوزان المعروف باسم ليون الإفريقي - القرن 16 م ، في المرتبة السادسة في الدولة الموحدية الحفصية واقتصرت مهمته على الإشراف على فرش قاعة السلطان بالأبسطة والوسائد ، وتنظيم جلوس الحاضرين في الأماكن المخصصة لهم (1) .

الوزارة والحجابة في دولة بني عبد الواد

تنتمي هذه الدولة إلى قبيلة بني الواد إحدى بطون زنانة التي كانت تتراد جبال وصحراء المغرب الأوسط . ولما فتح الموحدون هذه البلاد ، كان بنو عبد الواد عوناً لهم على ذلك ، فنالوا ثقة الموحدين ، وحصلوا منهم على إقطاعات وفيرة بأحواز تلسان ، فاستقروا فيها منذ ذلك الوقت .

ولما انهارت دولة الموحدين ، استقل يغمراسن بن زيان ملك بني عبد الواد بهذه المنطقة سنة 633 هـ (1235 م) مؤسساً بذلك دولة بني عبد الواد التي عرفت أيضاً بدولة بني يغمراسن باعتباره أول ملوكها ، وبدولة بني زيان أو الزبانية نسبة إلى اسم والده (1) .

وكانت حدود هذه الدولة غير ثابتة ، إذ أنهما كانت تضيق وتتسع حسب قوة جيرانها من بني حفص شرقاً ، وبني مرين غرباً ، إلا أنه يمكن القول بأن حدودها كانت تمتد طويلاً من البحر المتوسط شمالاً إلى صحراء الجزائر جنوباً ، وعرضاً من جبال سعيدة ووادي مينة شرقاً إلى وادي ملوية ومدينة وجدة غرباً (2) .

وكثيراً ما كانت هذه الدولة في أيام قوتها تغير على جيرانها ، وتتوغل في أراضيهم شرقاً وغرباً ، إلا أنها في نفس الوقت كانت تعاني هي الأخرى من غاراتهم ولا سيما بني مرين الذين تمكنوا من احتلال عاصمتهم تلسان (بكر التاء واللام وسكون الميم) مرات عديدة .

ولقد كانت الصحراء جنوباً هي معقل بني عبد الواد ومأواهم الذي يحتمون به حينما تتعرض بلادهم لغزو جيرانهم المرينيين ، فيظنون بها إلى أن تزول حدة هذا الغزو بانسحاب السلطان المريني أو بموته ، وعندئذ يعودون إلى قاعدتهم تلمسان ويستردون ملكهم مرة أخرى .

ولم يخفف من متاعب هذه الدولة الزيانية سوى تأييد ملوك غرناطة لها لما كانوا يخشونه من أطماع بني مرين في ملك الأندلس كما فعل المرابطون والموحدون من قبل . ومن ثم عمل بنو الأحمر على تأييد إلى زيان بشتى الوسائل كي يظلوا شوكة في جنب الدولة المرينية فيشغلونها عنهم . وكان من نتائج هذه السياسة ، أن ارتبطت تلمسان بعجلة غرناطة في مختلف الميادين السياسية والحضارية حتى صار لها طابع أندلسي تلمسه بوضوح في مساجدها ومدارسها ومبانيها ، وقد ساعد على تدعيم هذه الروابط ، أن معظم ثغور هذه الدولة الزيانية كانت عامرة بالجاليات الأندلسية من قديم ، بل إن بعضها كان من بنائهم . ومن أهم تلك الثغور نذكر ، هنين (1) التي تقابل المرية **almeria** في شرق الأندلس ، ووهران التي بناها الأندلسيون وتقع شرقي تلمسان بقليل ، ومستغانم التي تقابل دانية **dania** في شرق الأندلس (2) . ولهذا كانت العلاقة بين البلدين محكمة وطيدة تولدت فيها السفارات

والهدايا والمراسلات السلطانية (3) .

أما عن ترتيب هذه المملكة ، فالظاهرة أنها تشبه مملكة تونس في الحال والترتيب أو قريب من ذلك (4) . وكان الحاجب عندهم هو الرجل الأول في الدولة ، ويشمل نفوذه اختصاص الوزارة والحجابه معاً ، وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك في مقدمته حين قال :

وأما دولة بني عبد الواد ، فلا أثر عندهم لشيء من هذه الألقاب ولا تمييز الخطط لبدواة دولتهم وقصورها ، وإنما يخصوتن باسم الحاجب في بعض الأحوال منفذ الخاص بالسلطان في داره كما كان في دولة بني أبي حفص ، وقد يجمعون له الحسبان والسجل كما كان فيها (1) .

وكلام ابن خلدون هنا ينطبق على معنى الحجابة المطلقة التي سيطرت على مملكة تونس فترة من الزمان . وقد شرح كذلك خطة الحجابة في تلمسان سلطانها أبو حمو الثاني في خطابه الذي أرسله إلى ابن خلدون يدعوه فيه إلى تولى حجابته ، وفيه يقول :

" وكانت خطة الحجابة بياناً العلي - أسماه الله - أكبر درجات أمثالكم ، وأرفع الخطط لنظرانكم ، قرباً منا ، واختصاصاً بمقامنا ، وإطلاعا على خفايا أسرارنا ، آثرناكم بها إيثاراً ، وقدمناكم لها اصطفاء واختياراً ، فاعملوا على الوصول إلى بابنا العلي ، لما لكم فيه من التنويه ، والقدر النبويه ، حاجباً لعلى

بابنا ، ومستودعاً لأسرارنا ، وصاحب الكريمة علامتنا ، إلى ما يشاكل ذلك من الأنعام العميم ، والخير الجسيم ، لا يشارككم مشارك في ذلك ، ولا يزاكمكم أحد الخ (2) .

ولك هذا يدل على أن مدلول الحاجب هنا هو الوزير أو رئيس الوزراء المستقل بالدولة والوسيط بين السلطان وبين أهل دولته (3) .

على أن الشيء الذي نلاحظه في هذا الصدد ، هو أن عدداً كبيراً من وزراء هذه الدولة كانوا من أهل الأندلس . ففي عهد أبي حمو موسى الأول (707 - 717

هـ = 1307 - 1318 م) ، ولي الوزارة على التعاقب محمد بن ميمون بن الملاح ، وولده من بعده محمد الأشقر ، فأبراهيم ، ثم عمها علي بن عبد الله . وكان بنو الملاح هؤلاء من مشاهير رجال المال ومن أسرة قرطبية الأصل اشتهرت بالعدل والصدق والتقوى . وقد انقرض أمر هذه الأسرة يوم اغتيال أبي حمو الأول سنة 78 هـ ، إذ قتلوا معه وانتهبت أموالهم . (1)

وفي عهد ولده أبي تاشفين عبد الرحمن الأول (817 - 387 هـ = 1318 -

1336 م) ولي الوزارة مملوك من أصل قطلاني إسباني اسمه هلال ، ولد في غرناطة وتربي في بلاط بني الأحمر ، ثم أهداه سلطان غرناطة إلى أبي حمو الأول الذي أعطاه بدوره إلى ابنه أبي تاشفين الذي ولاه حجابته حينما صار سلطاناً . وتصف المراجع هلالاً هذا بالغلظة والفظاظة والمهابة ، وقد انتهت

حياته في السجن سنة 729 هـ بعد أن غضب عليه سلطانه أبو تاشفين . (2) ويعتبر عصر أبي حمو موسى الثاني من أزهر عهود الدولة الزيانية (753 - 791 هـ = 352 - 1389 م) . وكان هذا السلطان قد ولد في غرناطة سنة

723 هـ (1323 م) ، وقضى فيها فترة شبابه ، عندما كان والده منفياً (1) ،

فتأثرت شخصيته بالحضارة الأندلسية الراقية التي كانت سائدة في غرناطة في ذلك الوقت ، مما كان له أثر كبير في ذلك الازدهار الحضاري الذي نعمت به

تلمسان حتى صارت صورة من غرناطة في عهده (2) ويبدو من تاريخ هذا السلطان أنه كان قبل كل شيء جندياً باسلاً ، إلا أنه كان في نفس الوقت أديباً فيلسوفاً وشاعراً فناناً . ويظهر ذلك بوضوح في كتابه ، نظم السلوك في سياسة

الملوك ، (3) الذي صنفه على شكل نصائح لولده وولى عهده أبي تاشفين عبد الرحمن . والكتاب في مجمله تلخيص ، لكتاب سلوان المطاع ، لابن ظفر

الصقلي (4) (ت سنة 555 هـ = 1160 م) ، إلا أن أبا حمر ضمنه الكثير من نظمه وما جرى له من الحوادث مع معاصريه من ملوك بني مرين ، ومشايخ

العرب ، وزعماء المغرب وغيرهم (1) . ولند أحاط هذا السلطان نفسه بطبقة

من العلماء والشعراء تخص بالذكر منهم بعض الأندلسيين أمثال الكاتب يحيى

ابن خلدون ، والشاعر أبي عبد الله محمد بن يوسف القيسي الأندلسي . (2)

وقد سبقت الإشارة إلى أن هذا السلطان في سنة 719 هـ (1369 م) دعا لحجابته المؤرخ المشهور عبد الرحمن بن خلدون ، ولكن هذا الأخير اعتذر عن تلبية رغبته وأتاب عنه أخاه أياً زكريا يحيى بن خلدون ، فشغلها مدة طويلة أنتج خلالها عدة أعمال أدبية تاريخية مثل كتاب " بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، وقصيدة في السيف والقلم ، ومراسلات سلطانية مع ملك غرناطة محمد الخامس الغني بالله ووزيره لسان الدين بن الخطيب (3) . وقد مات يحيى بن خلدون قتيلاً على يد ولي العهد أبي تاشفين سنة 780 هـ (1369 م) لمماطلته إياه بعقد ولاية وهران ، وكانت هذه المماطلة عن أمر السلطان أبي حمو (4) أما أخوه عبد الرحمن ابن خلدون ، فقد كان قبيل ذلك الوقت قد دعاه أبو حمو مرة أخرى للعمل معه سنة 776 هـ (1335 م) ، ولكنه امتنع وأثر التخلي عن السياسة ، والانقطاع للدرس والبحث ، فنزل بأهله قلعة ابن سلامة أو بني سلامة أو بني تاو غزوت في جنوب غرب مدينة فرندة frenda بمقاطعة وهران في الجزائر ، حيث أقام أربعة أعوام (776 - 780 هـ) كتب مقدمة تاريخه المشهورة (1) .

ولقد استطاع أبو حمو بفضل تدبير وزيره الحاج موسى بن علي بن برغوث ، أن يسيطر على بلاد المغرب الأوسط فترة من الزمان ، وأن يساعد مملكة غرناطة في جهادها مع الأسبان بالمال والمون والرجال ، إلا أنه لم يلبث أن أصيب بخيبة أمل كبيرة عندما ثار عليه ولده أبو تاشفين ، وتآمر ضده مع السلطان أبي العباس المريني ، فقام من فوره لإخماد ثورته ، ولكنه قتل في خلال المعركة إذ كبا به فرسه فسقط صريعاً سنة 791 هـ (1389 م) ، وبموته انتهت مملكة تلمسان كدولة مستقلة ، وصارت تابعة لسلطان فاس . (2)

(

الوزارة والحجابه على عهد بني مرين أو بني عبد الحق :
كان بنو مرين من القبائل الزناتية (1) التي لم تشأ الخضوع لنفوذ الموحدين على عكس أبناء عموماتهم بني عبد الواد . ولهذا آثروا الهجرة إلى الصحراء جنوباً على الدخول في طاعة الموحدين . وحياة الصحراء كانت ترافقهم لأنهم من البدو الرحل . وكانوا في فصل الربيع يرحلون إلى شمال المغرب الأقصى لرعي إبلهم ومواشيهم . فيقضون شهوراً من السنة نازلين بين فجيج (فكيك) وملوية ، حتى إذا اقترب فصل الشتاء رجعوا إلى بلادهم (2) .
وقد لاحظ بنو مرين أثناء ذلك ما بدأ يطرأ على جسم الموحدين من ضعف واختلال بعد هزيمة العقاب ، فشجعهم ذلك على الطموح لذلك والاستيلاء على البلاد وخيراتها (3) . وكان أول قيام بني مرين في سنة 613 هـ (1216

(م) ، على عهد أميره أبي محمد عبد الحق بن محيو الذي احتل مكناسة وتازا وأخذ يغبر غرباً على بلاد الهبط (4) في شمال المغرب ثم تدعمت أركان هذه الدولة في عهد عثمان بن عبد الحق سنة 616 هـ (1219 م) ، وأخيراً جاء أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني وقضى على آخر خلفاء الموحدين ، أبي دبوس ، واستولى على عاصمتهم مراكش سنة 668 هـ (1269 م) فانقرضت بذلك دولة الموحدين .

وقد نلقب يعقوب بعد ذلك بلقب أمير المسلمين بدلاً من لقب الأمير الذي كان يدعى به ، كما قطع الدعاء للخلافة الحفصية بتونس ، وبني في الناحية الغربية من مدينة ، فاس ، عاصمة للدولة الجديدة سنة 674 هـ (1275) صارت تسمى بالمدينة البيضاء وبالبلد الجديد وفاس الجديدة ، تمييزاً لها عن جارتها فاس البالية أو القديمة التي بناها الأدارسة من قبل (1) .

هذا ، ويلاحظ أن هذه الدولة المرينية ، لم تستند في قيامها إلى دعوة إصلاحية دينية خاصة كما فعلت الدول التي سبقتها ، بل قامت نتيجة للاضطراب والفساد الذي حل بالمغرب عقب كارثة العقاب ، فاتخذت من ذلك مبرراً كافياً لقيامها (2) . على أن هذا لا يمنع القول بأن هذه الدولة كانت مثل سابقتها ، دولة عسكرية مجاهدة ، جعلت من الجهاد في الأندلس هدفاً مباشراً لقيامها .

ولقد حاولت هذه الدولة الزناتية أن تجمع كلمة المغرب العربي ، وتعمل على توحيدة كما كان الحال في عهد بني عبد المؤمن ، ونجحت فعلاً في بعض فترات قوتها ، أن تمد نفوذها إلى نواحي كثيرة من القطر الجزائري بل والتونسي أيضاً ، إلا أنها اصطدمت هناك بمقاومة عنيفة من جانب بني عبد الواد والحفصيين ، واقتصر نفوذها آخر الأمر على بلاد المغرب الأقصى بين نهر ملوية شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً ، وسجل ماسة " تافيلالت " جنوباً . أما في الشمال ، فقد حرص المرينيون على الجهاد في أسبانيا ، ومساعدة مملكة غرناطة الإسلامية واقتضت منهم هذه السياسة العمل على الاحتفاظ بقواعد عسكرية في جنوب الأندلس مثل رندة وجبل طارق ، والجزيرة الخضراء ، وطريف ، المقدس ، إلا أنه يلاحظ في الوقت نفسه ، أن اهتمام المرينيين بهذه القواعد الأندلسية . لا يرجع فقط إلى الرغبة في مساعدة إخوانهم في الدين سكان غرناطة ، بل يرجع أيضاً على الدفاع عن نفوذهم في مضيق جبل طارق ، ومنع أي خطر يهدد المغرب من هذه الناحية الشمالية .

وقبائل بني مرين كانت كثيرة العدد ، نذكر منها : بني عبد الحق ، وبني عسكر ، وبني وطاس ، وبني الكاس ، وبني يابان ، وبني فودود ، وبني يرنيان الخ وكلها تنتمي إلى زنانة (1) ، إلا أن نظام الملك فيها انحصر في بيت بني عبد الحق لأنهم - كما يقول ابن الخطيب - يعوب زنانة (2) .

وكان العظماء من ملوك بني مرين يباشرون القضايا المهمة بأنفسهم بمشور
القصر الملكي بفاس الجديدة ، ويحيط بهم مجلس من الخاصة وأهل الشورى
من أشياخ بني مرين الذين كان يرأسهم كبير منهم يدعى بشيخ بني مرين (3) .
وهذا المجلس يذكرنا بمشيخة الموحدين على عهد بني عبد المؤمن والحفصيين

وقد أشار العمري إلى أن هؤلاء الأشياخ كانوا يجلسون مع السلطان متقلدين
سيوفهم ، بينما يجلس السلطان على فرش مرفوعة . وكان الجميع بما في ذلك
السلطان والجند ، يتعممون بعمائم طوال ، قليلة العرض من كنان ، ويعمل
فوقها إحرامات يلفونها على أكتافهم ، ويتقلدون السيوف تقليداً بدوياً ،
ويلبسون الخفاف في أرجلهم ، وتسمى عندهم السيوف تقليداً بدوياً ، ويلبسون
الخفاف في أرجلهم ، وتسمى عندهم بالأنمقة كما في أفريقية (أي تونس) ،
ويشدون المهاميز فوقها ، ويتخذون المناطق (وهي الحوائص) ويعبرون
عنها بالمضامات من فضة أو ذهب .

وربما بلغت كل مضمة منها ألف مثقال ، ولكنهم لا يشدونها إلا في يوم الحرب
أو يوم التمييز ، وهو يوم هزمهم على السلطان . ويختص السلطان يلبس
البرنس الأبيض الرفيع ، لا يلبسه ذو سيف غيره " (1) .

وإذا كانت السلطنة في دولة بني مرين قد انحصرت في بيت بني عبد الحق ،
فإنه يلاحظ أن خطة الوزارة أو رئاسة الوزراء قد استأثرت بها عائلات من
القبائل المرينية المعروفة السالفة الذكر ، فنسمع عن عدد كبير من الوزراء باسم
الفودودي أو اليرنياني أو الياباني أو السكري أو ابن الكاس أو الوطاسي ، بل
إن بعضهم كانت تربطه بملوك بني مرين روابط المصاهرة (2) ، ولهذا فإن
الوزير في عهد هذه الدولة كان يعتبر من أرباب السيف ، ومن أشياخ بني
مرين ، وقد شرح ابن خلدون اختصاصه بقوله : " وأما رئاسة الحرب
والعساكر فهي الموزير " (3) .

وبطبيعة الحال كان هؤلاء الوزراء ، باعتبارهم من القادة العسكريين ، يرافقون
السلاطين في غزواتهم سواء في المغرب أو الأندلس . وقد ذكر ابن مرزوق
أسماء من استشهد منهم في العمليات الحربية التي خاضها السلطان أبو الحسن
المريني في طريف والجزائر وتونس ، ووصفهم بأوصاف تدل على مكانتهم
الحربية كالبطولة والفروسية وسيوف الله المسلولة (1) . ويضيف ابن مرزوق
أنه كان من اختصاص الوزير أيضاً ، الإشراف على الجبايات والنظر في
الولاية . ورفع الشكايات للسلطان ومباشرة الحكم في بعضها (3) .

وبعد وفاة السلطان أبي عنان فارس سنة 579 هـ (1358 م) ضعف نفوذ
ملوك بني مرين لصغر سنهم وتحول النفوذ إلى الوزراء . وإذا استثنينا فترات

قصيرة تمكن فيها بعض المولك من الانفراد بالحكم ، فإنه يمكن القول بصفة عامة بأن كل نفوذ في الدولة قد صار بيد الوزراء حتى نهاية الدولة المرينية . أما من ناحية إدارة الشؤون المالية ، فقد كانت في يد كاتب يعمل تحت إدارة الوزير ، ويعرف بصاحب الأشغال أو كاتب الأشغال ، ويتولى حسابات العطاء والخراج ، كما يتولى ديوان الجيش ، فيشرف على إحصاء الجنود بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم ، وهو مسؤول أمام السلطان أو الوزير ، وخطه معتبر في صحة الحسابات في الجباية والعطاء (3) ويروي ابن مرزوق أن ديوان هذه الخطة ، كان يشتمل على كتاب الخراج ، وأهل الحساب والمساحة ، وأن من ملحقاته شهود بين المال الذين كانوا يشهدون على الحاصل في بيوت الأموال دخلاً وخرجاً ، وترجع إليهم سائر الأعمال ، وترفع لهم جرائد الحسابات وهي أشرف خطط العدالة (1) ومن توابع هذه الخطة أيضاً ، عمال الزكاة ، وهم الذين يخرجون للنواحي لاقتضاء ضرائب سكان البادية . وقد ذكر ابن مرزوق أسماء من تولوا خطة الأشغال في أيام السلطان أبي الحسن المريني ، أمثال أبي الحسن القائل ، وأبي محمد عبد الله بن أبي مدين العثماني ، وأبي الحسن علي محمد بن مسعود ، ووصفهم جميعاً بالحسب ، ونزاهة النفس والأمانة (2) ، ثم يضيف ابن مرزوق بأن من فضائل السلطان أبي الحسن المريني ، أنه لم يستعمل أحداً من أهل الذمة في هذه الخطة أو غيرها كما استعمله غيره في المشرق والمغرب والأندلس . وضرب مثلاً على ذلك بابن نغزالة أو نغزله اليهودي وزير باديس بن حبوس بن زبي ملك غرناطة (430 - 466 هـ) على عهد ملوك الطوائف ، وكيف أن العامة قتلته هو وأهل ملته على أثر القصيدة الحماسية التي قالها محرصاً ضد اليهود الشاعر الصوفي أبو إسحاق إبراهيم الإلبيري (3) .

والواقع أن هذه السياسية الحكيمة التي اتبعها السلطان أبو الحسن المريني إزاء أهل الذمة ، لم تكن قاعدة عامة عند جميع ملوك بني مرين فلقد سبق أن اتخذ كل من يوسف بن يعقوب بن عبد الحق (ت سنة 706 هـ) ، وحفيده أبي الربيع سليمان (ت سنة 710 هـ) حاجباً يهودياً يدعى خليفة بن حيون بن رقاصة (1) ، كذلك اتخذ عبد الحق (الثاني) ابن سعيد ، آخر ملوك بني مرين جماعه من اليهود مثل هارون الذي جعله وزيره ، وشاويل الذي عينه حاكماً على فاس . وقد عجلت هذه السياسة الأخيرة بنهاية الدولة المرينية ، إذ ثار الأهالي باليهود وسلطانهم وقتلوهم جميعاً سنة 875 هـ (1479 م) (2) . أما عن صاحب خطة الكتابة والإنشاء ، فقد ورد ذكره بصيغ مختلفة مثل صاحب القلم الأعلى (3) ، والفقير الكاتب (4) ، وشيخ الكتبا (5) أو رئيس الكتاب (6) ، وكاتب السر أو كاتب السر والإنشاء (7) .

وواضح من هذه التسمية واختصاصها ، أنها تشبه تماماً وظيفة وزير الفضل وكاتب السر على عهد الحفصيين ، فهي إذن في مرتبة الوزارة وإن كانت المراجع المرينية لم تشر صراحة إلى صاحبها كان يسمى بالوزير ، هذا ويشير ابن خلدون إلى أن هذه الخطة كانت أحياناً تجمع في شخص واحد . وأحياناً نفرق في عدة أشخاص (1) .

وكيفما كان الأمر ، فإن هذه الخطة كانت تعتبر من المناصب المرموقة في الدولة ، وكان صاحبها من المقربين للسلطان فيذكر العمري أن كاتب السر كان يقابل السلطان كل يوم ليعرض عليه الرسائل المختلفة وقصص أصحاب المظالم ، وقد يأمره السلطان بالمبيت عنده في الحالات الهامة (2) ، وكان له في كل يوم مثقالان من الذهب ، وله أيضاً قريتان يتحصل له منهما متحصل جيد ، مع رسوم كثيرة له على البلاد ، ومنافع وإرفاقات . ولكل واحد من كاتب السر وقاضي القضاة في كل سنة بغلة بسرجهما ولجامهما . وسبئية قماش يرسم كسوته كما لأشياخ (3) وكان زي الكتاب والقضاة والعلماء عموماً ، قريب الشبه من ملابس الأشياخ والجند السالفة الذكر ، إلا أن عمائمهم كانت خضراء اللون (4) .

ولم يشترط في صاحب خطة الكتابة أن يكون من بني مرين ، بل كانت تسند إلى من يحسنها من أهلها أرباب الفكر والقلم (5) ، ولهذا شغلها عدد كبير من الأندلسيين إلى جانب المغاربة وبعض حجاب إلى جانب المغاربة وعض حجاب السلطان الذين كانت لهم دراية بهذا الفن (1) .

ويلاحظ في هذا الصدد ، أن الدولة المرينية كانت دولة بربرية خرجت من بداوة الصحراء إلى حياة المدنية والحضارة . ولهذا عملت ، لسد هذا النقص ، على تشجيع العلم وإكبار العلماء وبناء المدارس ، مما كان له أثر كبير في اجتذاب عدد كبير من علماء أفريقيا الشمالية وغرناطة إلى بلادهم ، واستيطانهم فيها حتى صاروا يعتبرون من أبنائها .

وكان علماء غرناطة (أي الأندلس في ذلك الوقت) من أكثر العلماء إقبالاً على الهجرة سواء إلى المغرب أو المشرق .

وقد علل ابن خلدون ذلك بغلاء المعيشة وقوة الحياة في هذه المملكة نتيجة لصعوبة أرضها الجبلية وكثرة ما يبذل فيها من جهد وأموال وعناية لإصلاحها . ولهذا اضطر عدد كبير من أهلها إلى الرحيل عنها إلى مصر والمغرب حيث كانت فرص العمل أيسر ، ووسائل المعيشة أسهل وأرخص (2) . ولقد بلغ من كثرة عدد المسافرين من مدينة غرناطة ، أن سمي أحد أرباضها الخارجية باسم ، حوز الوجاع ، (1) ، وهو المكان الذي اعتاد فيه الغرناطيون توديع أهليهم وأحبابهم قبل رحيلهم (2) . وغير بعيد بالمرّة أن يكون هذا المكان هو نفس

المكان الذي يعرف حتى اليوم باسم **suspiro dei moro** أي زفرة العربي ، وهو الذي ترجمه الرواية الأسبانية إلى الملك عبد الله ابن الأحمر ، آخر ملوك غرناطة حينما غادر ملكه وبلاده ، ووقف يبكي في هذا المكان لإلقاء آخر نظرة على وطنه .

ومهما يكن من شئ ، فالذي يهمننا في هذا الصدد هو أن عدداً كبيراً من أهالي غرناطة ، قد رحل إلى قاس ، إما لطلب العلم فيها أو التدريس في جامعتها القروية ومعاهدها العلمية ، وإما للاشتغال في البلاد المريني ككتاب ، وفي المستشفيات المغربية كأطباء (3) .

ولا يتسع المجال هنا لحصر جميع الغرناطيين الذين عملوا كتاباً في بلاط بني مرين ، وحسبي أن أذكر بعضاً منهم على سبيل المثال لا الحصر .
فهناك مثلاً الشاعر أبو الحسن بن الصباغ الذي تولى خطة الكتابة في فاس منذ سنة 753 هـ (1352 م) حتى سنة وفاته 758 هـ (1357 م) (1) وهناك الشاعر الرحالة المحدث أبو اسحاق إبراهيم بن الحاج النميري الذي طاف ببلاد المشرق والمغرب ثم تولى مشيخة الكتاب وكتابة السر على عهد السلطان أبي الحسن وولده أبي عنان فارس . وقد أفرد له ابن الخطيب ترجمة وافية في إحاطته ، ذكر فيها أمثلة من شعره الذي وصفه بالعدوبة التي تجمع بين جزالة المغاربة ورقة المشاركة . كذلك وصف كتابه الذي دون فيه رحلته بأنه يتضمن العجب العجاب . ولقد عاد إبراهيم بن الحاج إلى وطنه غرناطة حيث ولى القضاء بها عقب وفاة السلطان أبي عنان المريني (2) .

وهناك الكاتب المالقي أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان التجاري الخزرجي الذي شغل منصب الكتابة وائتمن على خطة العلامة (3) أيام السلاطين أبي الحسن ، وأبي عنان ، وأبي سالم ، ولهذا الكاتب مراسلات عديدة مع صديقه الوزير الغرناطي لسان الدين أبي الخطيب (1) كما يوجد له كتاب في السياسة ونظم الحكم ، ألفه للسلطان أبي عتاب وبأمر منه ، وهو كتاب " الشهب اللامعة في السياسة النافعة ، (2) ، ويتضمن شذرات من كتاب السياسة لابن حزم ، وتوفى ابن رضوان سنة 783 هـ ودفن في مدينة آنفاً المعروفة اليوم بالدار البيضاء في شمال غرب المغرب (3) .

كذلك نذكر أبا القاسم محمد بن يحيى البرجي (4) الغاني الذي كان كاتباً للسلطان أبي عنان ثم لأخيه أبي سالم ، كما كان يرقد في السفارة إلى سلاطين مصر وملوك قشتالة ، وتوفي (5) سنة 786 هـ .

وهناك أيضاً الكاتب الأديب الشاب الغرناطي أبو عبد الله بن جزي على عهد السلطان أبي عنان وعلى الرغم من أن هذا الشاب قد توفي في سن مبكرة ، وهو في الخامسة والثلاثين من عمرة 755 هـ (1356 م) ، إلا أن مآثره

العلمية - كما يقول المقرئ - قد أثارت إعجاب معاصريه من أهل المشرق والمغرب . فمن ضمن أعماله المشهورة ، كتاب رحلة ابن بطوطة المسمى بتحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، فابن جزري هو الذي قام بصياغة هذه الرحلة مستعيناً في ذلك بمسودات صديقة الرحالة الطنجي ابن بطوطة . ويقال أنه قام بهذا العمل بناء على طلب السلطان أبي عنان ، وأنه أتمه في ثلاثة أشهر فقط (1) . كذلك كتب ابن جزري أثناء مقامه بفاس تاريخاً عاماً لبلده غرناطة ، ولكنه للأسف مات قبل أن يتمه . وقد صرح لسان الدين بن الخطيب بأنه قابل ابن جزري بمدينة فاس أثناء سفارته بالمغرب سنة 755 هـ وأنه قرأ كتابه وسار على منهاجه عند تأليف كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة . كذلك يذهب الملك الشاعر يوسف الثالث ملك غرناطة إلى أن ابن الخطيب قد نقل كثيراً في إحاطته من تاريخ ابن جزري (2) ، وهذا يدلنا على مدى قيمة هذا الكتاب المفقود . ولم يكن ابن جزري أدبياً ومؤرخاً فحسب بل كان شاعراً أيضاً ، وله شعر جيد أورده المقرئ في كتابيه أزهار الرياض ، ونفح الطيب (1) . أما الكتاب من المغاربة ، فأسماءهم لا حصر لها وكلها تنتمي إلى بيوتات معروفة، ويكفي أن نشير إلى بيت بني أبي مدين العثماني ، الذي انحصرت فيه كتابة الإنشاء وخطة العلامة مدة طويلة منذ أيام يعقوب ابن عبد الحق المريني وأبنائه من بعده (2) . وهم ينسبون إلى بني عثمان من بربر زوارة ببيجاية ، ثم استوطنوا القصر الكبير (قصر كتامة) في شمال المغرب الأقصى . ولا علاقة بين اسم هذه الأسرة واسم الولي الصالح شعيت بن الحسين بأبي مدين ، دفين قرية العباد بضواحي تلمسان سنة 594 هـ . فهذا الأخير أندلسي أشبيل من الخزرج ، وذلك من بني عثمان كما ذكرنا ، وإنما الأسمان توافقا وكلا الرجلين من الصالحين (2) . وهناك أيضاً الكاتب أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي ، وأصله من مدينة سبتة ، ثم اتخذ السلطان أبو سعيد المريني كاتباً له ثم رقيه إلى رئاسة الكتاب ورسم علامته في الرسائل والأوائل سنة 718 هـ ، ولم يزل على ذلك سائر أيام السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن ، فارتقت صناعة الإنشاء والترسيل على يديه ، وتوفى في وباء الطاعون الجارف سنة 749 هـ (4) .

كذلك نذكر المؤرخ المشهور عبد الرحمن بن خلدون الذي ولي خطة العلامة للسلطان أبي عنان (1) ، ثم كتابة السر والإنشاء لأخيه السلطان أبي سالم إبراهيم سنة 760 هـ . وقد نوه ابن خلدون بطريقته الجديدة في الكتابة التي تحرر فيها من قيود السجع بقوله :

" واستعملني - أبو سالم - في كتابة سره ، والترسيل عنه ، والإنشاء لمخاطبته ، وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل ، دون أن يشاركني أحد ممن ينتحل

الكتابة في ألا سجاع لضف انتحالها ، وخفاء العالي منها على أكثر الناس ، بخلاف المرسل ، فانفردت به يومئذ . وكان مستغرباً عندهم بين أهل الصناعة (2) .

ولقد آمدنا الأمير الغرناطي ، أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر النصري في كتابيه : روضة النسرين في دولة بني مرين ، ومستودع العلامة ، بأسماء كتاب الدولة المرينية حتى بعد سنة 800 هـ (1398 م) .

من كل ما نقدم نرى أن الوزارة في عهد بني مرين ، قد جمعت بين وزارة السيف والمال والقلم ، كما كان الحال في عهد الحفصيين ، وإن كان هذا الثالث الوزاري قد تغير منذ وفاة السلطان أبي عنان ، حينما ضعف ملوك بني مرين ، واستبد وزاره السيف بأمر المملكة حتى صار كل شيء في يدهم . ومن العجيب أن تنتهي دولة بني عبد الحق على أيدي وزرائهم وأبناء عمهم الوطاسيين حينما أعلن محمد الشيخ الوطاسي نفسه - لطانا على المغرب سنة 877 هـ (1472 م) مؤسساً بذلك الدولة الوطاسية .

الحجابه على عهد المرينيين

أما عن خطة الحجابه ، فقد اختلف المؤرخون حول تحديد اختصاصها واسم صاحبها . فابن خلدون نفى وجود اسم الحاجب في الدولة المرينية وذكر أن المتصرف بباب السلطان كان قائداً عسكرياً أشبه برئيس للحرس الملكي يدعى بالمزاور ، وذلك بقوله : " ولا أثر لاسم الحاجب عندهم وأما باب السلطان وحجبه عن العامة فهي رتبة عندهم فيسمى صاحبها عندهم بالمزوار ، ومعناه المقدم على الجنادة المتصرفين بباب السلطان في تنفيذ أوامره وتصريف عقوباته ، وإنزال سطواته ، وحفظ المعتقلين في سجونه ، والعريف عليهم في ذلك ، فالباب له ، وأخذ الناس بالوقوف عند الحدود في دار العامة راج إليه فكأنها وزارة صغرى " (1)

أما ابن الخطيب ، فقد أشار في معرض كلامه عن أحداث المغرب ، إلى وجود قائد عسكري بباب السلطان ، ولكنه أسماه بصاحب الشرطة العليا وذلك عند قوله :

وقصد إلى قيوم الرماة ، وصاحب الشرطة العليا بباب السلطان ثلثيخ عيسى بن الزرقاء ، المنتسب إلى الرؤساء من بني أشقيلول (2) ، القديم جنوحهم إلى هذه الإبالة اليعقوبية الخ .

ويفهم من كلام كل من ابن الخطيب وابن خلدون وابن خلدون أن صاحب الشرطة العليا أو المزوار كان من كبار رجال الدولة ، وأنه كان مكافاً بالنظر في الجرائم التي يرتكبها عليه القوم ، وتنفيذ أوامر السلطان الخاصة باعتقالهم

وسجنهم . وهو في هذا يختلف عن صاحب الشرطة الصغرى الذي كان ينظر في الجرائم التي يرتكبها العامة (2) .

أما أبو الوليد بن الأحمر ، فقد نص صراحة علو وجود اسم الحاجب في الدولة المرينية ، ولكنه أطلقه على فئات مختلفة من الناس :

فمرة يطلقه على بعض أهل الذمة من اليهود مثل خليفة بن حيون بن رقاصة الذي كان حاجباً للسلطان يوسف بن يعقوب المريني ، ولولده أبي الربيع سليمان (3) . ومرة أخرى يطلقه على بعض موالى السلطان من الخصيان إلا علاج أمثال عتيق ، وعنبر ، وفرج ، وفارح بن مهدي وهذا الأخير كان في الأصل من موالى بني زيان ملوك تلمسان ثم اصطنعه بنو مرين . (1) ومرة ثالثة يطلقه على بعض الكتاب الذين جمعوا بين العلامة والحجابه أمثال الحاجب محمد بن محمد الكناني وولده أبي المكارم منديل الكناني على عهد أبي سعيد عثمان (2) ، والحاجب عبد الله بن أبي مدين في أيام يوسف بن يعقوب (3) ، والحاجب محمد بن محمد بن أبي عمر التميمي الذي تغلب على سلطانه أبي عنان ، وبقي في تحجبه مطلق العنان (4) ويضيف ابن الأحمر أن هذا الحاجب التميمي لم يلبث أن تحول إلى خطة السيف وقدمه أبو عنان على الإمارة ببجاية . ومن الطريق أن ابن خلدون قابل هذا الحاجب بالبطحاء على مقربة من تلمسان ، وسماءه في كتابه التعريف باسم الحاجب (5) ، رغم إنكاره وجود هذا الاسم في الدولة المرينية كما أسلفنا .

وكيفما كان الأمر ، فإنه يبدو أن هذا التضارب في أقوال المؤرخين ناتج عن أن خطة الحجابه في الدولة المرينية لم تتخذ وضعاً ثابتاً لا في مدلولها ومعناها فحسب ، بل وفي أصحابها الذين تقلدوها ، مما دعا بعض المؤرخين أمثال ابن خلدون إلى عدم الاعتراف باسمها في بعض كتبه (6) وبعد ، فإن للدولة المرينية ، مكانة خاصة في التاريخ المغربي إذ ترجع إليها إلى حد كبير معظم التقاليد القومية والحضارية المغربية بل والشخصية المغربية الحالية حتى قيل في المثل المغربي . " من بعد بني مرين وبني وطاس ما بقار ناس ، أي أن الناس المتمدينين عم الذين كانوا أيام بني مرين وبني وطاس (!) .

الوزارة والحجابه في مملكة بني الأحمر بغرناطة :

هذه الدولة تمثل آخر عهد المسلمين بأسبانيا ، وقد انحصر ملكها في الركن

الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة أيبزيا ، حيث جبال البشرات (2)

alpujarras ، وجبال شلير (2) أو جبال الثلج sierra Nevada

(3550 متر) ، التي كونت منها قلعة حصينة يسهل الدفاع عنها . وكانت هذه المملكة تشتمل على الأراضي التي تقابلها اليوم ولايات غرناطة والمرية ومالقة ، وأجزاء من ولايات جيان وقرطبة وإشبيلية وقادس (1) . وكانت عاصمتها

مدينة غرناطة Granada ، وهي مدينة كبيرة مستديرة مرتفعة على سفح جبل شلير ، ويخترقها نهر شنيل genil أحد فروع الوادي الكبير ، وهو يعتبر وادياً صغيراً (211 ك . م .) إذا قورن بوادي النيل مثلاً (6500 ك . م .) ، ولكن كتابهم قدره بألف نيل ! (2) .

كذلك كان يثق مدينة غرناطة وادي حدره (3) (11 darro ك . م .) ثم يصب في شنيل . وكانت تقع عليه عدة قناطر مثل قنطرة القاضي التي ما زالت آثارها باقية إلى اليوم . وفي جنوب غرب غرناطة كانت تمتد مروجها الخصبة النضيرة التي كانت تسمى بالمرج أو الفحص أو البقاع ، ومن هذه الكلمة الأخيرة جاءت تسميتها الأسبانية vega التي انتقلت إلى أمريكا أيضاً (las vegas) .

وقلعة مدينة غرناطة ، هي مقر الحكم والسلطان ، وتعرف الحمراء ، وهو اسم قديم ورد ذكره لأول مرة في أيام ثورة المولدين التي قام بها عمر بن حفصون في القرن الثالث الهجري (1) . وواضح أن هذا الاسم راجع إلى لون تربة الهضاب التي بنيت عليها ، والتي سميت بالسبيكة لهذا السبب monte de la asabica ، وفي ذلك يقول ابن مالك الرهيني الغرناطي .

ترى الأرض منها فضة فإذا كنت بشمس الضحى عادت سبيكتها ذهب (2) ومن هذا نرى أنه ليس هناك ثمة علاقة بين اسم الحمراء واسم بني الأحمر الذين حكموها بعد ذلك ، فتشابه الاسمين وهو محض مصادفة . وتأسيس دولة بني الأحمر أو بني نصر كان في سنة 635 هـ (1238 م) على يد قائد عربي أندلسي شجاع من بلدة أرجونه arjona إحدى حصون قرطبة ، وهو الغالب بالله محمد (3) ابن يوسف بن نصر ... بن عقيل بن نصر بن قيس بن سعد بن عبادة .

وواضح من نسبه أنه ينتمي إلى سيد الخزرج سعد بن عبادة الذي علون الرسول في دار الهجرة . أما تسميته هو وأبناؤه من بعده بني الأحمر ، فنسبه إلى جده عقيل بن نصر ، الذي لقب بالأحمر لشقرة فيه (1) . وقد استمر هذا اللون الأشقر يظهر في بعض أفراد هذه الأسرة مثل محمد السادس الذي لقب في المصادر الأسبانية بالبرميخو bermejo ومعناه اللون البرتقال الضارب إلى الحمرة ، وهو لون شعره ولحيته (2) .

ومن الطريف أن هؤلاء الملوك قد اتخذوا من اللون الأحمر شعاراً لهم في قصورهم بالحمراء ، وأعلامهم (3) ، وقبابهم (3) أو خيامهم بل وفي لون الورق الذي يكتبون عليه رسائلهم السلطانية (5) .

ولقد حكم هذا السلطان محمد بن يوسف مدة طويلة (635 - 671 هـ) وكان يلقب بالشيخ وبأمير المسلمين ، وقد وزر له عدد من كبار قواده الذين ساعدوه

في تكوين مملكته مثل القائد يوسف بن صناديد زعيم مدينة جيان الذي مكنه من ناصيتهما (1) ، ومثل محمد بن محمد الرميحي الذي كان والده والياً من قبل الأمير محمد بن هود الجذامي على المريية ، ثم غدر بن ابن الرميحي فقتله بالسهم أو بمخدة سنة 635 هـ . ورحل إلى تونس فأتاح لابن الأحمر فرصة الاستيلاء على المريية ، وبنو الرميحي أصلهم من بني أمية ملوك الأندلس ، وينسبون إلى قرية رميمة من أعمال قرطبة فهم من بيت عريق (2) . كذلك وزر لابن الأحمر ابنه وسميه في الاسم أبو عبد الله محمد ، فاكتسب خبرة من ذلك (3) .

ثم توفي السلطان محمد الشيخ ، وخلفه ابنه المذكور محمد الثاني (671 - 701 هـ) الذي لقب بالفقيه لعلمه وفضله وإيثاره للعلماء . ويعتبر هذا السلطان هو الذي مهد الدولة النصرية ووضع ألقاب خدمتها ، وأقام رسوم الملك فيها (4) . وكان وزيره عزيز بن علي بن عبد المنعم الداني - نسبة إلى دانية - وبيته معدود في بيوتات الأشراف في شرق الأندلس (1) . ولقد استمر ملك غرناطة في بيت بني نصر أو بني الأحمر حتى نهاية هذه الدولة وسقوط غرناطة آخر معقل للإسلام في يد الأسبان سنة 897 هـ (1492 م) .

ويلاحظ أن سلاطين هذه الدولة ، كانوا يكتبون علامتهم وتوقيعاتهم بخطهم على السجلات كلها ، بمعنى أنه لم يكن لديهم خطة للعلامة كما كان لغيرهم من الدول (2) . وكانت علامتهم الغالبة هي : " صح هذا " ، وفي ذلك يقول شاعر الحمراء عبد الله بن زمرك في مدح السلطان محمد الخامس ، الغني بالله :
يا إماماً قد تخذنا (م) ه من الدهر ملاذاً
خط يمينك ينادي صح هذا صح هذا (3)

كذلك كانت بعض توقيعاتهم تمتاز بخفة الروح وحرارة النادرة ومثال ذلك توقيع السلطان محمد الفقيه على رقعته شخص كان يطلب صرف بعض الشهادات المخزنية (الحكومية) ويلح فيها :

يموت على الشهادة وهو حي إلهي لا تمته على الشهادة
وأطل الخط عند لفظ إلهي . إشعاراً بالضراعة عند الدعاء والجد (1) .
وكانت الوزارة هي القاعدة الأولى بعد رئاسة الدولة ، فالوزير هو الذي ينوب عن السلطان (2) . وهو الذي يهيمن على شئون الدولة المدنية والعسكرية إلى جانب إشرافه على الكتابة وديوان الإنشاء (3) ، لهذا كان كثيراً ما يلقب الوزير الغرناطي بألقاب تدل على قوة نفوذه مثل لقب الرئيس (4) ، وعماد الدولة (ابن الحكيم) (5) ، وذو الوزارتين (ابن الخطيب) (6) ، والحاجب

(رضوان) (7) . وكل هذه الألقاب لم تكن تشريفية بل كانت حقيقية في معناها ومدلولها لأن صاحبها كان يجمع بين سلطتي السيف والقلم (8) .
وبحكم هذه السلطات الواسعة ، كان الوزير كثيراً ما يحتج إلى الاستبداد على سلطانه (1) ، مما يضطر هذا الأخير إلى التخلص منه إما عزلاً أو قتلاً أو إقامة وزير آخر بجانبه ينزعه السلطة فالسلطان أبو الوليد إسماعيل (713 - 752 هـ) حينما استبد وزيره القائد أبو عبد الله محمد بن أبي الفتح الفهري ، أشرك معه في الوزارة قائداً من أعيان الحضرة وهو أبو الحسن علي بن مسعود المحاربي الذي ، جاذب رفيقه حبل الخطة ، ونازعه لباس الحظوة ، إلى أن مات الفهري (2) . أما ولده السلطان محمد الرابع بن إسماعيل (725 - 722 هـ) ، فإنه لما استولى عليه وزيره محمد بن أحمد بن المحروق ، وغلب عليه ، لم يتردد في قتله بمجلسه سنة 729 هـ ثم أقام في الوزارة مملوك أبيه أبا النعيم رضوان ، ولكنه لم يلبث أن زاحمه في الوزارة بمملوك يدعى عصاماً (3) . كذلك يذهب ابن خلدون إلى أن فرار الوزير لسان الدين بن الخطيب من غرناطة إلى المغرب سنة 773 (1371 م) ، كان بسبب شعوره بالخوف من سلطانه محمد الخامس ، الغني بالله ، 755 ، 760 ، 763 ، 793 هـ) بما كان له من الاستبداد عليه (أي على السلطان) ، وكثرة السعاية من البطانة فيه (4) .

وإذا نحن ألقينا نظرة عامة على وزراء بني نصر ، نجد أنهم كانوا أصنافاً من علية القوم : صنف من القادة الكبار أمثال بني مول (1) ، وبني أبي الفتح الفهري (2) ، وبني سراج (3) ، وكلهم كانوا من بيوت الأندلس الكبيرة من قديم ، وتربطهم بمملوك بني نصر صلات مكيئة وروابط المصاهرة .
والصنف الثاني من الوزراء كان من مماليك بني الأحمر وخاصتهم البارزين أمثال الحاجب أبي النعيم رضوان الذي وزر للسلطين محمد الرابع ، وأبي الحجاج يوسف ، ومحمد الخامس ، وصار بيده تنفيذ الأمور ، وتقديم الولاية والعمال ، وجواب المخاطبات ، وتدبير الرعايا وقود الجيوش (4) .
وقد انتهت حياة الوزير قتيلاً في الانقلاب الذي دبر لخلع السلطان محمد الخامس سنة 760 هـ إذ اقتحم المتآمرون بيته وقتلوه بين أهله وولده (5) .
كذلك نذكر الوزير خالد الذي كان في الأصل مملوكاً للسلطان محمد الخامس (الغني بالله) ثم وزر لولده [أي الحجاج يوسف الثاني سنة 793 هـ (1391 م)] . فاستبد بالأمر ، وقتل إخوة السلطان يوسف الثلاثة ثم حاول اغتيال السلطان نفسه بالسّم بالتفاهم مع طبيب القصر اليهودي يحيى بن الصانع ، فأمر السلطان بقتله بين يديه سنة 794 هـ كما زج الطبيب في السجن ثم قبله بعد ذلك (1) .

أما الصنف الثالث من وزراء غرناطة ، وهم الغالبية ، فكانوا من أهل العلم والفضل والأدب الذين مارسوا خطة الكتابة العليا في ديوان الإنشاء (2) قبل ترشيحهم للوزارة ، ثم ظلوا محتفظين بهذه الخطة إلى جانب عملهم كوزراء . ويلاحظ أن خطة الكتابة هنا كانت تسمى بالكتابة العليا (3) . وقد شرح ذلك ابن سعيد الغرناطي بقوله :

" وأما الكتابة فهي على ضربين : أعلاهما ، وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس ، وأشرف أسمائه الكاتب ، وبهذه السمة يخصه من يعظمه في رسالة . وأهل الأندلس كثير والانتقاد على صاحب هذه السمة ، لا يكادون يغفلون عن عثرانه لحظة ، فإن كان ناقصاً عن درجات الكمال ، لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الألسن في المحافل والطنع عليه وعلى صاحبه . والكاتب الآخر هو كاتب الزمام ، هكذا يعرفون كاتب الجهبذة " (1) . والجهبذة كلمة فارسية الأصل ومنها الجهبذ أي الناقد العارف ، ولكن الجهبذة هنا هي الإدارة المالية الخاصة بجباية الضرائب وجمع الخراج وتحصيله ، وكانت الجهبذة هو صاحب الزمام أو صاحب الأشغال الخراجية الذي كان بمثابة وزير للمالية (2) .

وقد ذكر ابن سعيد أن صاحب الأشغال الخراجية في الأندلس ، كان أعظم من الوزير وأكثر اتباعاً وأصحاباً وأجدي منفعة ، فإليه تميل الأعناق ، ونحوه تمد الأكف والأعمال مضبوطة بالشهود والنظار . " (3) أما ابن خلدون فإنه يذكر أن المختص بالحسابات وسائر الأمور المالية في الدولة ، كان يسمى في غرناطة بالوكيل (4) .

ويفهم من هذا وذاك أن الشئون المالية في الدولة كانت في يد موظف مختص آخر غير الوزير ، يختار من عظماء القوم ووجههم ، ويسمى بتسميات مختلفة كالوكيل وصاحب الأشغال وكاتب الزمام أو الجهبذة . غير أننا إذا استعرضنا الأحداث التاريخية لهذه الدولة ، نلاحظ أن الوزراء العظام فيها ، كان لهم إشراف على الشئون المالية واختصاص بمعرفتها ومثال ذلك الوزير محمد بن أحمد بن المحروق الذي كان وكيلاً للسلطان محمد الرابع (1) ، كذلك الوزير لسان الدين ابن الخطيب الذي داخله السلطان أبو الحجاج يوسف الأول في تولية العمال على يده بالمشارطات فجمع له بها أموالاً (2) ، ثم عهد إليه ولده محمد الخامس (الغني بالله) بالإشراف على بيت ماله ، والعمل على صيانة الجباية وتثميرها (3) . بل إنه مما كان يؤخذ على الوزير عبد الله بن زمرك الذي خلف ابن الخطيب في منصبه ، هو كما يقول أحمد معاصريه . " " قلة معرفته بتلك الطريق الاشتغالية ، وعدم اضطلاع بالأمور

الجبائية ، واتهامه للمشتغلين - على غير أساس - بأنهم احتجوا الأموال ،
وأساءوا الأعمال " . (4) .

كل هذا يدل على أن إشراف الوزراء على النواحي المالية وإمامهم بمعرفتها ،
كان يلعب دوراً هاماً في نجاح مهمتهم .

وكيفما كان الأمر ، فالذي يهنا في هذا الصدد ، هذا أن أصحاب الكتابة العليا ،
وليس كتاب الزمام ، هم الذين كانوا موضع الترشيح لمنصب الوزارة في الدولة
، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك عند قوله :

الطب والشعر والكتابة سماتنا في بني النجايه
هي ثلاث مبلغات مراتباً بعضها الحجابة (1)

ومن هؤلاء الكتاب الذين شغلوا منصب الوزارة تذكر الحاج المحدث أبا عبد الله
محمد ابن الحكيم الرندي اللخمي ، الذي ابتدأ كاتباً للسلطان محمد (الثاني)
الفقيه (671 - 701 هـ) ثم صار وزيراً لولده محمد الثالث (المخلوع) (701 - 708 هـ)
مع احتفاظه برئاسة القلم الأعلى (2) .

وقد انتهت حياة هذا الوزير قتيلاً سنة 700 هـ في مجلس السلطان أبي
الجيوش نصر (708 - 713 هـ) بسبب خلاف وقع بينه وبين القائد الوزير أبي
بكر عتيق بن الول الذي كان صديقاً وسنداً للسلطان نصر عند عزله لأخيه
محمد الثالث واعتلائه عرش السلطنة (3) . كذلك نذكر الفقيه أبا الحسن ابن
الجياب - شيخ ابن الخطيب الذي تولى الكتابة العليا للسلطين : أبي الجيوش
نصر ، وأبي الوليد اسماعيل (713 - 725 هـ) . ومحمد الرابع بن اسماعيل
(725 - 733 هـ) ، وأبي الحجاج يوسف الأول (733 - 755 هـ) . وقد
ولاه هذا السلطان الأخير رسم الوزارة إلى جانب رئاسة الكتابة عندما تغير على
وزيره أبي النعيم رضوان وعزله سنة 470 هـ .

وظل ابن الجياب وزيراً وكاتباً للدولة إلى أن توفي في سنة 749 هـ (1) .
فخلفه تلميذه لسان الدين بن الخطيب (2) في رسم الوزارة والكتابة حتى نهاية
عهد السلطان أبي الحجاج يوسف سنة 755 هـ .

ولما ولي ولده أبو عبد الله محمد الخامس ، الذي كان لا يزال شاباً حدثاً
استدعى من جديد مولى آبائه ووزيرهم أبا النعيم رضوان ، وأسند إليه وزراته
ونيايته كما أبقى ابن الخطيب في منصبه السابق كوزير ولكن تحت رئاسة
الحاجب رضوان نظراً لمكانة هذا الأخير وسنه واختصاصه بالوزارة من قديم .
وقد ذكر ابن الخطيب لأعمال التي كان يقوم بها في أوائل عهد هذا السلطان
وهي ، الوقوف بين يدي سلطانه في المجالس العامة ، وإيصال الرقاع ، وفصل
الأمر ، والتنفيذ للحكم ، والترديد بينه وبين الناس ، والعرض والإنشاء ،
والمواكلة والمجالسة ، جامعاً بين خدمة القلم ولقب الوزارة " .

ثم يضيف ابن الخطيب بأنه رغم وجود [أي النعيم رضوان فقد كان المنفرد بسر السلطان وسفيره لدى المغرب (1) . إلا أنه يبدو أن نفوذ ابن الخطيب لم يلبث أن تضاعف أمام طموح الحاجب رضوان واستثنائه بالسلطة ، وفي ذلك يقول أحد المعاصرين : " وعلى أثر وصول ابن الخطيب من الرسالة للسلطان أبي عنان " وجد الحاجب الخطير أبا النعيم رضوان قد استولى على وظيفة الحجابة والرياسة وأقنعة بالاسم من ذلك المسمى ، فأثر الانتباز وأخذ في تأليف كتابه الإحاطة " (2) .

وفي سنة 760 هـ (1359 م) وقع في غرناطة ذلك الانقلاب الذي أودى بحياة الوزير رضوان ، وانتهى بخلع السلطان محمد الخامس ونفيه إلى المغرب وتولية أخيه اسماعيل الثاني مكانه . وصحب السلطان المخلوع إلى المغرب بعض أفراد حاشيته ورجال دولته ونخص بالذكر منهم وزيره لسان الدين بن الخطيب وقد رحب بهم سلطان المغرب أبو سالم إبراهيم المريني ، وأنزلهم في بعض قصوره بمدينة فاس عاصمة الدولة المرينية . غير أن ابن الخطيب فضل أن يعيش بعيداً مرابطاً في ثغر سلا sale ، ومجاوراً لأضرحة ملوك بني مرين في ضاحيتها شالة chella .

وفي سنة 763 هـ (1362 م) عاد السلطان محمد الخامس إلى عرشه بعد حروب وخطوب شد أزره فيها كل من سلطان المغرب وملك قشتالة بدور الأول الملقب بالقاسي (1 pedro el cruel) .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن محمد الخامس كان في خلال هذه العمليات الحربية التي خاضها لاسترداد عرشه في الأندلس ، قد اتخذ وزيراً من قواده ، وهو قائد البحر أبو الحسن علي بن يوسف بن كماشة ، الذي كان من عتاق خدامه وخدام أبيه على قول ابن الخطيب . ولكن هذا الوزير لم يبق إلى جانب سلطانه أيام محنته ، إذ أنه حينما أرسله محمد الخامس من رندة إلى الباب المريني بفاس لاستجلاء بعض الأمور ، لم يعد إليه ثانية . ولما انتصر محمد الخامس على خصومه ، واستقر في عرشه ثانية ، هرع إليه ابن كماشة طامعاً في العودة على وزارته ، ولكن السلطان رده خائباً وأرسل في طلب ابن الخطيب من المغرب للقيام بأعباء وزارته (2) .

وعاد ابن الخطيب إلى سابق منصب كوزير ، ولكنه في هذه المرة انفرد بالحكم بدون منافس . وفي ذلك يقول ابن خلدون " وخلا لابن الخطيب الجو ، واغلب على هوى السلطان ، ودفع إليه تدبير الدولة ، وخلق بنية بند ماله وأهل خلوته ، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وعلقت به الآمال ، وغثى بابه الخاصة والكافة " (1) كذلك شرح ابن الخطيب سياسته التي سار عليها في دولة محمد الخامس الثانية يقوله .

ورمى إلى بعد ذلك بمقاليد رأيه ، وحكم عقلي في اختبارات عقله ، وغطى من جفائي بحله ، ورمى إلي بدنياه وحكمتي فيما ملكت يداه ، واستعنت بالله تعالى وعاملت وجهه في سد الثغور ، وصون الجباية ، وإنصاف المرتزقة ومقارعة الملوك المجاورة ، وإيقاظ العيون من نوم الغفلة ، وقبح زناد الرجولية ، وجعل الثواب غطاء الليل ، ومقعد المطالعة فراش النوم ، والشغل لمصلحة الإسلام " (2) .

وهذه العبارة الأخيرة تشير إلى ما عرف عن ابن الخطيب من أنه كان يخصص الليل للقراءة والتأليف العلمي ، يساعده في ذلك أرق أصابه بينما يخصص النهار لشئون الحكم والسياسة . ومن الغريب أن هذا الجهد الكبير الذي كان يبذله ابن الخطيب ، لم يحد من نشاطه وحيويته ، ولهذا لقب بذي العمرين . ولقد أفاد كل من الجانب العلمي والجانب السياسي صاحبه ، فالسياسة أتاحت لابن الخطيب فرصة الاتصال بسفراء لدول الخليفة ومعرفة أخبار بلادهم . والاطلاع على الوثائق والمراسلات الرسمية المحفوظة في أرشيف الدولة بقصر الحمراء . واستخدام كل هذه المادة التاريخية في مؤلفاته . أما العلم فقد أعطاه شهره ومكانة دعمت مركزه كوزير عن طريق قصائده ورسائله ونصائحه وحكمه التي كان لها تأثير كبير على ملوك الدول المجاورة من المسلمين والمسيحيين . وحسبنا أن نشير إلى ما أورده ابن الخطيب في إحاطته من أنه نصح ملك قشتالة بدور القاشي ، باعتباره صديقاً لسلطانه محمد الخامس ، بأن يضع أمواله وذخيرته وأولاده في حصن قرمونة المنيع خوفاً من أطماع أخيه هنري الثاني دي تراستمار **henrique de trastamara** الذي كان ينازعه العرش . ولقد استجاب الملك بدور لنصيحة ابن الخطيب وعمل بما أشار عليه به . وحينما تغلب هنري على أخيه بدور وانتزع العرش منه ، كان أول شئ اهتم به هو الاستيلاء على قلعة قرمونة **garinona** وما فيها من ذخائر وأموال ، فانصرف بذلك عن محاربة غرناطة لأنها كانت من أنصار أخيه ، وهذا ما كان يهدف إليه ابن الخطيب من وراء نصيحته السالفة الذكر (1) .

على أن نجاح ابن الخطيب في سياسته لا يرجع فقط إلى مكانته العلمية ، أو صدق فراسته السياسية ، بل يرجع كذلك إلى تمسكه في أحكامه بما جرت عليه الدولة من قواعد وعادات وقوانين ، حرصاً على استمرارها والمحافظة عليها ولدينا في هذا الموضوع نص طريف أورده الوزير والكاتب أبو يحيى محمد بن عاصم القيسي الذي عاش في القرن التاسع الهجري (15 م) والذي شبهه معاصروه بابن الخطيب في بلاغته ورئاسته ، قسموه بابن الخطيب الثاني ، فيقول (1) :

ولم يكن الوزير الكيس ابن الخطيب يجري من الاستقامة على قانون إلا بالمحافظة على ما رسم من القواعد ، والطابفة لما ثبت من العوائد ، وكان ذوو النبل من هذه الطبقة ، وألو الحدق من أرباب المهن السياسية يتعجبون من صحة اختياره لما رسم ، وجودة تميزه لما قصد ، ويرون المفسدة في الخروج عنها ضربة لازب ، وأن الاستمرار على مراسمها أكد واجب ، فيتحررونها بالالتزام كما تتحرى السنن ، ويتوخونها بالإقامة كما تتوخى الفرائض ، وسواء تبادر معناها ففهموه ، أو خفي عليهم وجه رسمها فجهلوه ، حدثني شيخنا القاضي أبو العباس أحمد بن أبي القاسم الحسني ، أن الرئيس أبا عبد الله بن زمرك ، دخل على الشيخ ذي الوزارتين ابن عبد الله بن الخطيب يستأذنه في جملة مسائل مما يتوقف عادة على إذن الوزير ، وكان معظمها فيما يرجع إلى مصلحة ابن زمرك ، قال الشريف : فأمضاها كلها له ما عدا واحدة منها تضمنت نقض عادة مستمرة ، فقال له ابن الخطيب : لا والله يا رئيس أبا عبد الله ، لا آذن في هذا ، لأننا ما استقمنا في هذه الدار إلا بحفظ العوائد (2) .

أما عن نهاية ابن الخطيب المؤلمة ، فتشبه إلى حد كبير نهاية الكثيرين من وزراء غرناطة الذين حكموا قبله أو بعده نتيجة لاستئثارهم بكل نفوذ في الدولة . على أنه يلاحظ أن ابن الخطيب حينما أحس بكثرة السعيات ضده ، وفساد الجو حوله ، انحرف بسياسة غرناطة انحرافاً كبيراً في أواخر حكمه ، إذ رسم لها سياسة ثابتة قوامها الارتباط فاس ، وإرضاء بني مرين في كل ما يطلبونه من مملكة غرناطة . وكان هدفه من وراء ذلك هو سكن المغرب والاستقرار فيه إذا ما عزل من منصبه . (1)

والواقع أن سياسة التقرب من المغرب ، كثيراً ما لجأت إليها غرناطة عند استصراخها لإخوانها المغاربة للجهاد معها عند المشركين ، إلا أنها في نفس الوقت كانت تتوجس خيفة من أطماع ملوك بني مرين في بلادها ، وتخشى أن يفعلوا معها مثل ما فعل المرابطون والموحدون من قبل (2) . كذلك كانت غرناطة حريصة على سلامة مصالحها المرتبطة مع جيرانها المسيحيين أمثال قشتالة وأراجون ، ولهذا لم تلتزم سياستها جانباً واحداً من هذه القوى المحيطة بها ، بل كانت تتغير وتتبدل في حرص وحذر حسب الظروف الخارجية المحيطة بها : فتارة تتقرب من قشتالة ضد المغرب ، وتارة أخرى تتقرب من المغرب ضد قشتالة وأراجون ، وتارة ثالثة تتقرب مق . ملوك أراجون ضد ملوك قشتالة أو العكس وهكذا . فهذه السياسة الماهرة الماكرة التي سلكتها غرناطة مكنتها من الاحتفاظ باستقلالها مدة تزيد على قرنين من الزمان ، لأنها عرفت كيف تستفيد من الحزازات القائمة بين هذه الدول لصالحها . ولقد أشاد المؤرخون بالدبلوماسية الغرناطية ، ووصفوها بصفة تدل على المرونة

والمهارة وهي " سياسة اللعب بالثلاث ورقات " juego de tres (1) . (Barajas)

من هذا نرى أن وضع هذه المملكة الصغيرة وسط هذه القوى الثلاث (قشتالة ، أراجون ، المغرب) قد جعل سياستها مرتبطة بتلك السياسية التي حولها . ولعل هذا هو السبب في أن عدداً من ملوك غرناطة ووزرائها ، قد راحوا ضحية تماديهم في التزام جانب سياسي واحد دون تقدير العواقب المرتبة على تجاهلهم للجوانب الأخرى ومثال ذلك الوزير محمد بن علي المعروف بابن الحاج المهندس الذي كان مداخلاً لملوك قشتالة ، عالماً بلغتهم وسيرهم وأخبارهم ومهتماً بشأنهم ، ولهذا نهج سياسة موالية لهم ، وانحرف في ذلك انحرافاً لم يقبله أهل غرناطة ، فثاروا ضده واتهموه بتحريض ملك قشتالة على الاستيلاء على حصن القبذاق **alcuadete** ، ومساعدته على تملكه ، وكادوا يقتلونه لولا أن سلطانه أبا الجيوش نصر أمر بعزله في الحال (2) .

ويبدو أن الخطيب قد وقع في نفس هذا الخطأ حيثما دفعته سياسته المغربية إلى رسم سياسة وحدة الغرب والأندلس دون أن يعمل حساباً لأنصار القوى السياسية الأخرى ، بل إنه لم يلبث أن تمادى في سياسته إلى أقصى حدودها خطورة حينما فر إلى المغرب وأخذ يحرض السلطان عبد العزيز على غزو غرناطة . وكان رد الفعل شديداً من جانب غرناطة ، ولا سيما بعد موت السلطان عبد العزيز ، إذ سارع السلطان محمد الخامس باحتلال جبل طارق وثرغ سبتة ليسيتر على المضيق ، ثم أخذ يتدخل في فاس نفسها يولى ويعزل من يراه من سلاطين بني مرين . وكان طبيعياً أن يكون نتيجة هذا التدخل هو القبض على ابن الخطيب وقتله وحرقة ومصادرة أمواله سنة 776 هـ (1374 م) (1) .

لقد كان فقد ابن الخطيب على هذا النحو خسارة فادحة ، إذ انقطع بموته أهم مصدر عربي لتاريخ غرناطة .

من تاريخ البحرية العربية في المغرب والأندلس

تمتاز شبه جزيرة أيبيريا بسواحلها الطويلة اليت تشرف على مياه البحر المتوسط والمحيط الأطلسي شرقاً وغرباً وجنوباً ، إلا أن هذا جعلها عرضة لأي غزو بحري يأتيها من هذه النواحي . . إلا أن هذا المسلمين أدركوا هذه المسألة منذ بادئ الأمر ، ورسموا لأنفسهم سياسة بحرية اعتمدوا فيها على دور الصناعة القديمة التي كانت منتشرة على تلك السواحل مثل طرطوشة **tortosa** ، وطركونة **tarragona** ودانية **deula** ، ولقنت **alicante** ، ويجانه **pechina** ، وإشبيلية **sevilla** والجزيرة الخضراء **algeciras** وغيرها .

كما أنهم لم يجدوا صعوبة في الحصول خامات الخشب والحديد وكل ما هو ضرورة لبناء الأساطيل ، فكل ذلك كان وما زال متوفراً في أسبانيا (1) . وعلى الرغم من الغموض الذي يحيط بأخبار هذه الفترة المبكرة التي تلت الفتح العربي بسبب الفتن والاضطرابات التي عمت الأندلس في ذلك الوقت ، إلا أنه يفهم من بعض الروايات أن الثغور الأندلسية كانت عامرة بالمراكب والسلاح والعدة ، فابن القوطية مثلاً حينما يتكلم عن طالعة بلج بن بشر ، وهم فرسان الشام الذين الذين حاصرهم البربر في ثغر سبته 123 هـ (731 م) ، ورفض والي الأندلس عبد الملك بن قطن أن يسمح لهم بالعبور إليه ، يقول " فلما ينس بلج بن بشر منه ، أنشأ قريات (بتشديد الراء وفتحها أي قوارب **caravos** وأخذ من مراكب التجار ، وأدخل فيها من رجاله من جاوره إلى دار الصناعة بالجزيرة الخضراء ، وأخذوا ما فيها من المراكب والسلاح والعدة وانصرفوا بها إليه ، فدخل بذلك الأندلس (2) .

ومن الطريف أن ابن عذاري يشير في الأحداث التالية إلى أن والي شرطة الخليفة مروان بن محمد بدمشق ، واسمه الرماحس بن عبد الرحمن قد لجأ إلى الأندلس بعد سقوط الدولة الأسرية في المشرق ، فولاه عبد الرحمن الأول (الداخل) ثغر الجزيرة الخضراء (1) . وهذا هو أول ذكر لمؤسس بيت بني الرماحس الذي اشتهر أفراده بقيادة الأسطول الأندلسي على عهد الأمويين (2) . لا شك أن إسناد ولاية هذا الثغر الجنوبي الهام إلى الرماحس ، فيه معنى القيادة البحرية أيضاً .

وكما اعتمد الأمويون في الشام على القبائل اليمينية الكلبية في شئونهم البحرية ، فكانوا النواة الأولى للبحرية العربية في الشرق (3) ، اعتمد كذلك الأمويون في الأندلس على اليمينيين الفضاعيين في هذه الأمور البحرية في بادئ الأمر ، فأنزلوهم في المناطق الساحلية الشرقية ، وجعلوا إليهم حراسة ما يليهم من البحر وحفظ الساحل ، وقد سعى هذا الإقليم أرش اليمن (4) ، أي أعطيتهم من الأرض أو الإقطاع . وكانت بلدة بجانة (بتشديد الجيم) (5) *pechina* ، هي أهم قاعدة لهم في هذا الإقليم ، لما تمتاز به من موقع حصن مأمون ، وأرض خصبه عند مصب نهر أندرش *andarax* ، المعروف أيضاً بوادي بجانة (!) .

إلى جانب هذه العناصر العربية ، اعتمد الأمويون كذلك في حماية سواحلهم وشن الغارات على أعدائهم ، على جماعات بحرية أندلسية من المولدين والبربر والمستعربين الذين كانوا يتكلمون بعجمية أهل الأندلس *romance* . ولقد انتشر هؤلاء البحريون في بلدان الساحل الشرق الأندلسي التي كانت تعرف أيضاً باسم البلاد البحرية (2) . وكانت لهم فيها مراسي ورباطات ودور صناعة ومن أهم قواعدهم أشكوبارس *escombreras* وبجانة التي جاؤوا فيها العناصر اليمينية (3) ، ولقنت *alicante* . وأقيله *aguilas* وكلها في شرق الأندلس كذلك انتشر هؤلاء البحريون في بعض جهات الساحل الإفريقي الشمالي على شكل جاليات أندلسية متفرقة . ومن أهم المدن التي أسسوها هناك نذكر مدينة تنس *tanás* سنة 262 هـ (875 م) ومدينة وهران *qran* سنة 290 هـ (902 م) في الجزائر ويشير البكري إلى أن بعض هؤلاء البحريين كانوا يترددون بسفنهم في كل عام بين شواطئ المغرب والأندلس ، فيقضون فصل الشتاء في المغرب والصيف في الأندلس (1) كذلك كان لهؤلاء البحريين الأندلسيين مغامرات ومحاولات في المحيط الأطلسي لكشف غيابه وظلمانه في منتصف القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ومثال ذلك ما أورده كل من البكري والحميري عن خشخاش ابن سعيد بن أسود الذي خاطر مع جماعه من الأحداث فركبها المراكب ودخلوا البحر وغابوا فيه ثم عادوا بغنائم واسعة وأخبار مشهورة (2) وكان بيت بني أسود من البيوت المشهورة في بجانة ، ولهم رباط على ساحلها عرف بقابطة بني الأسود ، ولعله رباط القابطة أو القبطة المشهور في كتب التاريخ ومكانه اليوم *cabo de gata* على ساحل المريه وقد ظهر اسم خشخاش ووالده سعيد بن أسود ، ضمن قادة الأساطيل التي قاتلت النورمانديين في عهد الأمير محمد الأول . وحديث خشخاش وأصحابه يذكرنا بحديث الفتية المغررين أو المغربين من أهل لشبونة *lesboa* الذين توغلوا كذلك في المحيط الأطلسي في منتصف

القرن الثالث الهجري أيضاً (3) ، وإن كان يبدو أنهم لم يذهبوا أبعد من جزر الخالدات (4) التي تعرف اليوم باسم جزر كناريا **canarias** ومنذ هذا الوقت المبكر أيضاً كان المسلمون واليهود يذهبون إلى مدينة براغ لشراء الرقيق والقصدير والفراء ثم يعودون عن طريق نهر الرون وقطلونية إلى بجانه حيث يخص الرقيق ، يباعون كخصيان بسعر مرتفع في الأندلس ، وكان البحر هو الطريق العادي لهذه الرحلة (1) .

أما عن النشاط الحربي لهذه الجماعات البحرية في حوض البحر المتوسط ، فقد أغفلته المصادر العربية ، بينما تكلمت عنه بأسباب المصادر اللاتينية والبيزنطية ، ووصفت أصحابه بأنهم قراصنة يعملون لحسابهم الخاص . والواقع أن أعمال القرصنة في ذلك الوقت لم تكن قاصرة على المسلمين وحدهم ، بل كانت شائعة ومنتشرة بين المسيحيين والرئيسيين النورمانديين أيضاً ، وكثيراً ما استعان أمراء الأندلس بخبرة رعاياهم البحريين في حماية سواحلهم ، وقيادة أساطيلهم ، كذلك يلاحظ أن السفارات التي كان يرسلها كل من أباطرة الدولة الكارولنجية والدولة البيزنطية إلى أمراء وخلفاء قرطبة كانت تنص على طلب الحد من نشاط واعتداءات هؤلاء البحريين باعتبارهم من رعاياهم وتحت سلطانهم .

ومهما يكن من شئ ، فإن ما ورد في هذه الحوليات الأوروبية ، يشهد ، بوضوح على أن هؤلاء المجاهدين الأندلسيين ، قد ركبوا البحر وعرفوا القتال فيه وحذفوه منذ أواخر القرن الثاني الهجري أي على عهد الأمير الحكم الأول الرضي (180 - 206 = 296 - 822 م) .

ومن أمثلة نشاط هذه الجماعات ، نذكر تلك الغارات التي شنوها على الجزر الشرقية أو جزر البليار سنة 182 هـ (798 م) لدرجة أن أهالي تلك الجزائر استجدوا بالإمبراطور شرلمان (768 - 84) ووضعوا أنفسهم تحت حمايته .

(1)

وفي سنة 190 هـ (806 م) هاجم الأندلسيون جزيرة كورسيكا وغنموا منها غنائم كثيرة ، وفي أثناء عودتهم طمع فيهم أمر **admer** أمير جنوه ، ونعقبهم بأسطوله . فرجعوا إليه وقتلوه وهزموا أسطوله وأسروا رجاله ، وبلغ ذلك شرلمان ففكهم من الأسر بقدية أداها عنهم (2) . ولقد عاود الأندلسيون هجومهم على جزيرة كوسيكما مرة أخرى سنة 198 هـ (812 م) ولكن في أثناء رجوعهم ، أكمل لهم أرمنجول **armengol** أمير أمبورياس (2) **ampurias** قرب جزر البليار قوة بحرية غنمت منهم ثمانية مراكب بما كان فيها من غنائم وأسرى . وقد انتقم الأندلسيون عن ذلك باجتياح سواحل جزر البليار وجزيرة سردانيا سنة 200 (815 م) .

مثل آخر لنشاط هذه الجماعات الأندلسية في البحر المتوسط جاء نتيجة لثورة داخلية قامت في الأندلس ، وهي ثورة أهالي ربض قرطبة على أميرهم الحكم الأول في أواخر القرن الثاني الهجري . وقد عاقبهم هذا الأمير بهدم ديارهم وحرق حيهم وحرث أرضه وزراعتها ، ونفيهم عن البلاد . فعبر بعضهم إلى المغرب حيث أستبقوا في مدينة فاس عاصمة الأدارسة الجديدة ، وشاركوا في بنائها وتعميرها . أما البعض الآخر وكانوا 15 ألفاً عدا النساء والأطفال ، فقد واصلوا سيرهم في البحر شرقاً حتى بلغوا شواطئ الإسكندرية فنزلوا في ضواحيها . وكانت الأحوال في مصر مضطربة ، إذ انتقلت إليها عدوى الخلافات التي نشبت بين الأمين والمأمون : ففريق كان يؤيد الأمين وفريق آخر مع المأمون ، وفريق ثالث بزعامة السرى بن الحكم وأولاده يعمل لحسابه الخاص ، ويضرب فريقاً بآخر بغية الاستقلال بمصر . فانتهاز الأندلسيون المهاجرون فرصة هذه الفتن ، واستولوا على مدينة الإسكندرية بمعاونة أعراب البحيرة ، وأسسوا فيها إدارة أندلسية مستقلة عن الخلافة العباسية دامت أكثر من عشر سنوات .

وعندما استتب الأمر للخليفة المأمون ، أرسل قائده عبد الله بن طاهر ابن الحسين إلى مصر لإعادة الأمور إلى نصابها سنة (212 هـ (828 م) (1) . فأرسل إلى هؤلاء الأندلسيين يهددهم بالحرب إن لم يدخلوا في الطاعة ، فأجابوه إلى طلبه حقناً للدماء ، واتفقوا معه على مغادرة الديار المصرية وعدم النزول في أي أرض تابعة للعباسيين . ثم اتجهوا في مراكبهم إلى جزيرة كريت وكانت تابعة للدولة البيزنطية ، فاستولوا عليها بقيادة زعيمهم أبي حفص عمر البلوطي سنة 825 م (2) . وهناك أسسوا قاعدة لهم أحاطوها بخندق كبير فعرفت بالخندق ، ثم انتقل هذا الاسم إلى الأوروبية على شك chandax ثم candia كانديا أو كندية وهو اسم المدينة الحالية التي تعرف أيضاً بالاسم اليوناني (2 herakieon) .

ومن الطريق أنه ينسب إلى هذه المدينة بعض المنتجات التي نالت شهرة شعبية في مصر مثل العسل والصابون الكندية (بكسر الكاف وتشديد الياء) . ولم تلبث كريت منذ ذلك الوقت أن صارت قاعدة بحرية هامة ، ومصدر تهديد مستمر لجزر وسواحل الدولة البيزنطية ، إذ أخذ الأسطول الكويتي يشن الغارات على جزر بحر أيجة ، وساحل تراقيا ، وجبل آتوس athos ، ومدينة ميتلين (862 م) ، واستطاع أن يوجه أقصى ضرباته في سنة 904 م عندما هاجم مدينة سالونيك ، وهي المدينة الثانية في الإمبراطورية البيزنطية ، وأسر آلافاً من سكانها اقتيدوا إلى مختلف الأقطار الإسلامية (1) . وظل مسلمو كريت مصدر رعب لأمن بيزنطة وتجارها بما تسبب عنه وقوع اضطرابات اقتصادية

وسياسية في داخل أراضيها . وقد حاول البيزنطيون استعادة هذه الجزيرة مرات عديدة ، ومن الطريف أن مئات من الجنود الروس اشتركوا في بعضها (2) ، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل . والسبب في ذلك يرجع إلى الإمدادات العسكرية التي كانت تقدمها مصر والشام وأفريقية إلى هذه الجزيرة المجاهدة باعتبارها حصناً أمامياً لها (3) ضد عدوان البيزنطيين (4) .

ومن الطريف أنه في نفس تلك السنة التي استولى فيها الأندلسيون على مدينة كريت أي سنة 212 هـ (827) غزا الأغلبة أيضاً بقيادة قاضي القيروان أسد بن الفرات بن سنان (1) ، جزيرة صقلية وثبتوا أقدامهم في مازره mazara ومينير mineo وغيرها من النواحي المواجهة للساحل التونسي جنوباً . وكان هذا الجيش الفاتح يتكون من عشرة آلاف فارس بعضهم من الفرس الخراسانيين - وأسد بن الفرات واحد (2) منهم - والبعض الآخر من الأفارقة ومن الأندلسيين المقيمين في إفريقية . وكان أبحارهم جميعاً من ميناء سوسة . ولقد استشهد هذا المجاهد الكبير عند أسوار مدينة سرقوسة syracuse شرقي الجزيرة سنة 213 هـ (828 م) بعد أن وطد الحكم الإسلامي في بعض نواحيها (3) . ولم تلبث هذه الجزيرة بعد قليل أن صارت كلها في يد الأغلبة الذين هددت جيوشهم وأساطيلهم جنوب إيطاليا حتى بلغت روما نفسها .

ولم يقتصر نشاط الأندلسيين على المساهمة في فتح صقلية تحت لواء أسد بن الفرات ، بل عملوا بعد ذلك بعامين على دعم جيوشها عندما اشتد ضغط البيزنطيين عليها ، فيروي كل من ابن الأثير وابن عذاري أن أمير الأندلس عبد الرحمن الثاني أو الأوسط (206 - 228 هـ = 822 - 853 م) وجه إلى تلك الجزيرة حملة بحرية خرجت من ميناء طرطوشة سنة 214 هـ (829 م) ، واتجهت إلى صقلية لتعزيز الحامية الإسلامية هناك (1) .

على أنه يبدو أن المساعدات الأندلسية لجزيرة صقلية لم تستثمر بعد ذلك طويلاً ، بسبب المعاهدة الودية التي أبرمت بين الإمبراطور البيزنطي تيوفل (2) وبين عاهل الأندلس عبد الرحمن الأوسط سنة 225 هـ (840 م) . وكان الدافع لها هو اجتماع البيزنطيين والأمويين على عداوة العباسيين الذين كانت صقلية تقع تحت سلطانهم . إلا أنه يلاحظ أن الأمير الأندلسي لم يلتزم في هذه المعاهدة بأي عمل مضاد لنشاط الأغلبة في صقلية رغم كونهم حلفاء للعباسيين بل اعتبرهم مجاهدين في سبيل الله .

هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أن السياسة التقريبية التي سلكها الأمويون في الأندلس نحو بيزنطة ، كانت تصاحبها سياسة عدائية نحو جيرانهم الكارولنجليين في قرب أ . إذ لم ينس الأندلسيون صراعهم الطويل مع هؤلاء

الفرنجة أمام شار ما قل (1) (690 - 741 م) وأنه يبين (752) pepin (761 -) م ، حفيده شرلمان (768 - 814) الذي تحالف مع أعدائهم العباسيين ، وحاول والأندلس في حملته الفاشلة على عهد الأمير عبد الرحمن الداخل سنة 162 هـ (779 م) ثم جاء ولده لويس الحليم أو التقى (84 - 840 م) ، فسار على سياسة أبائه العدائية نحو الأندلس ، وبسط حمايته على الجزر القريبة منها مثل جزر البليار وسردانية وكورسيكا .

ورأى الأمير عبد الرحمن الأوسط (822 - 852 م) أن البحر هو الميدان المناسب الذي يستطيع أن يقهر فيه خصومه الكارولنجيين ، إذ كان يعمل أن قوتهم الحقيقية تقوم أساساً على جيوشهم البرية ، فضلاً عن أن قوتهم البحرية المحدودة قد ازدادت ضعفاً على أيامه في عهد كل من لويس التقى وابنه شارل الأصغر (840 - 877 م) . ولهذا قام بحشد أساطيله على طول الساحل الشرقي الأندلسي ولا سيما في طرطوشة وبلنسية ، ثم أخذ يشن غارات مستمرة من سنة 838 إلى سنة 850 م على السواحل الكارولنجية في جنوب فرنسا حتى قضى على قواعد المقاومة فيها مثل مرسيليا وأول وما حولها ، بحيث استطاع مغامر والبحر من الأندلسيين اتخاذ جزيرة كامارج camargue عند مصب نم الرون ، قاعدة شبه دائمة للإغارة على الساحل الجنوبي والتغلغل في أراضيه عن طريق وادي الرون نفسه (1) ولم تقتصر غارات الأسطول الأندلسي على قواعد الفرنجة وسواحلهم الجنوبية بل شملت أيضاً جزر البليار التي كانت خاضعة لحمايتهم . ويبدو أن حكام هذه الجزر قد شعروا بعدم جدوى الارتباط بعجلة الدولة الكارولنجية ، فسارعوا بقبول سيادة الأمويين ، وتعهدوا بعدم التعرض لسفن المسلمين وفي ذلك يقول ابن حيان :

" وفي سنة أربع وثلاثين ومائتين أي (848 م) . أغزى الأمير عبد الرحمن أسطولاً من ثلثمائة مركب إلى أهل جزيرتي ميورقة ومنووقه لنقضهم العهد وإضرارهم بمن يمر إليهم من مراكب المسلمين ، ففتح الله عليهم ، وأظفر بهم ، فأصابوا سباياهم وفتحوا أكثر جزائرهم . وأنفذ الأمير فناء شنطير الحصى إلى ابن ميمون (2) عامل بلنسية ليحضر تحصيل الغنائم ، ويقبض الخمس ، وكان قد صالح بعض أهل تلك الحصون على ثلث أموالهم وأنفسهم وأحصيت رباعهم وأموالهم ، وقبض منهم ما عليه صولحوا . (3) ويضيف ابن عذاري متمماً رواية ابن حيان :

وفي السنة التالية 235 هـ (849 م) ، ورد كتاب أهل ميورقة ومنورقة إلى الأمير عبد الرحمن ، يذكر ما نالهم من نكاية المسلمين لهم ، فكتب إليهم ما جاء فيه :

أما بعد ، فقد بلغنا كتابكم تذكرون فيه أمركم ، وإغارة المسلمين الذين وجهناهم إليكم لجهادكم . وأصابتهم ما أصابوه عنكم من ذراريك وأموالكم ، وما أشقيتم عليه من الهلاك ، وسألتم التدارك لأمركم وقبول الجزية منكم ، وتجديد عهدكم على الملازمة للطاعة والنصيحة المسلمين ، والكف عن مكروهم ، والوفاء بما تحملون عن أنفسكم ، ورجونا أن يكون فيما عوقبتم به صلاحكم ، وتنعم عن العود إلى مثل ذلك الذي كنتم عليه ، وقد أعطيناكم عهد الله وذمته . (1) من هذه النصوص المتقدمة يتضح لنا أن الجزر الشرقية (البليار) قد خضعت لنفوذ حكومة قرطبة في سنة 234 هـ (848 م) ، وإن كان من المعروف أن هذه الجزر لم تضم إلى الأندلس نهائياً ، وتحكم حكماً مباشراً بواسطة عمال الدولة الأموية إلا منذ سنة 290 هـ (902 م) حينما أرسل إليها الأمير عبد الله ، قائده عصام الخولاني حاكماً عليها . (2)

على أنه ينبغي أن يلاحظ هنا أنه رغم هذه الانتصارات التي أحرزها الأسطول الأندلسي على خصومه الفرنجة وحلفائهم في حوض البحر المتوسط ، فإن البحرية الأندلسية في ذلك الوقت كانت لا تزال محدودة في إمكانياتها ووسائلها ، فلم تكن لديها القواعد والمحارس والسفن الكافية لحماية جميع سواحلها ولا سيما الغربية منها . ولهذا عجزت عن حمايتها عندما هاجمتها أساطيل النورمان أو الفايكنج (1) بتحركاتها السرية الخاطفة وأسهمها النارية ، وأشرعتها السوداء التي جعلت بعض المعاصرين يراها ، وكأنما ملأت البحر طيراً جوناً (2) ، كما ملأت القلوب شجواً وشجوناً (1) .

هذا ولم تكن غارات النورمانديين مركزة على مجموعة واحدة ذات قيادة موحدة ، بل كانت في مجموعات متعددة وفي أماكن مختلفة ، ولهذا كثيراً ما كانوا يغيرون في وقت واحد وفي أماكن متفرقة أو متقاربة ، ولعل هذا هو سبب اختلاف الروايات الإسلامية التي دونت أخبارهم (2)

كذلك عرف عن النورمانديين أنهم كانوا يتحاشون الأماكن المحصنة بوسائل الحراسة والدفاع ، ويهاجمون السواحل المكشوفة التي لا تعترض عمليات سلبهم ونهبهم . وكانت سواحل الأندلس الغربية من هذا النوع الأخير ، ولهذا لم يجد هؤلاء الشماليون صعوبة في اختراق نهر الوادي الكبير من مصبه ، والصعود فيه بسفنهم ، ثم احتلال مدينة إشبيلية عدة أيام . عاثوا خلالها قتلاً ونهباً وتخريباً 230 هـ (844 م) على عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (3) . ولما كان معظم الأسطول الأندلسي مرابطاً على الساحل الشرقي ، فقد اعتمد الأندلسيون في مقاومة هذا الخطر على جيوشهم البرية ، فأخذوا يضعون لهم الكمائن ، ويبنون لهم السرايا التي تحول بينهم وبين العودة إلى مراكزهم ، ويقذفونهم بالمجانيف من جنبي نهر الوادي الكبير . إلا أنه يبدو أن انسحاب

النورمانديين من إشبيلية لم يتم إلا بعد وصول وحدات الأسطول الأندلسي إلى مكان المعركة . يؤيد ذلك قول العذري : " ثم هبط للإمام عبد الرحمن (الأوسط) خمسة عشر مركباً بالمقاتلة والعدة ، فنزلوا إشبيلية ، فلما أحس المجرس بها لحقوا بلبله (1) (niebla) ، وقد انتهت هذه القارة بانهزام النورمانديين عند طلياطه tejada ، بين ليلة وإشبيلية (2) ، وانسحابهم عن الأندلس .

لا شك أن هذا الحادث الخطير قد نبه الأذهان إلى ضرورة اتخاذ إجراءات دفاعية ضد أي هجوم مفاجئ يقع على الأندلس من ناحية البحر . ولهذا قام الأمير عبد الرحمن الأوسط بعدة أعمال هامة في هذا السبيل ، ومثال هذا أنه أحاط مدينة إشبيلية بأسوار حجرية عالية كما بنى في مينائها دار صناعة لبناء السفن الحربية ، وزودها بالآلات ونم النفط (3) وبرجال البحر المدربين من سواحل الأندلس (4) .

والإشارة إلى استخدام النفط هنا تجعلنا نعتقد أن المسلمين في ذلك الوقت ، قد توصلوا إلى استخدام النار الإغريقية التي حرص البيزنطيين على الاحتفاظ بسرية تركيبها منذ أن اخترعوها (1) وقد يؤيد ذلك أنه قبيل هذا التاريخ بسنوات قليلة استخدم الأغلبة لأول مرة في أساطيلهم سفناً تقذف بلهب النفط تعرف بالحراقات ، وذلك وداً على النار الإغريقية التي استخدمها البيزنطيون .

(2)

وكيفما كان الأمر ، فإن تلك الجهود الكبيرة التي بذلها الأمير عبد الرحمن الأوسط في تقوية أسطوله وتحصين سواحله ، قد استمرت وأينعت في عهد ولده الأمير محمد الأول (238 - 273 هـ = 852 - 886 م) . فيروي المؤرخون أن هذا الأمير أنشأ في البحر سبعمائة غراب ، وأن جيش المسلمين في عهده بلغ مائة ألف فارس ، منهم عشرون ألفاً بدروع الفضة (3) .

وحيثما عاود النورمانديون هجومهم على السواحل الأندلسية سنة 245 هـ (859 م) ، استطاع الأندلس أن يردهم على أعقابهم بعد أن كبدهم خسائر فادحة . وقد أورد كل من العذري وابن حيان ، وصفاً مفصلاً لهذه العمليات البحرية التي دارت بين الفريقين ، تنقله هنا لأهميته (1) :

" وفي سنة خمس وأربعين ومائتين ، خرج المجوس - لعنهم الله - إلى ساحل الغرب من أرض الأندلس ، وهو خروجهم الثاني ، خرجوا في اثنين وستين مركباً ، فألفوا محروساً ، ومراكب الأمير محمد فيه جارية ما بين حائط (2) أفرنجة في الشرق إلى أقصى حائط غليسية في الغرب ، وتقدم من مراكبهم مركبان تلقتهما المراكب المنصوبة الجارية من حائط جليقية معافصة في بعض مراسي كورة باجه (beja) ، فغنمتها بما كان فيها من مال ومتاع وعدة

وحسبي ، ومضت سائر مراكب المجوس في الريف (3) حتى انتهت إلى مصب نهر إشبيلية (أي الوادي الكبير) وما يليها ، وذهب الرعب بهم كل مذهب ، وبادر الأمير محمد بإخراج الجيس إلى الغرب ، واستنفر الناس إلى العدو الطارق ، فنفروا من كل أرب ، وكان القائد لجيش السلطان نحوهم ، عيسى بن الحسن بن أبي عبدة الحاجب ، وتقدمت مراكب الكفرة من إشبيلية ، فاحتلت بالجزيرة الخضراء (1) ، وتغلبت على الحاضرة ، فاستباحتها عنها ، وأحرقت المسجد الجامع ، ثم أقلعت عن بر الأندلس تطلب العدو (أي المغرب) ، فاحتلت بناكور (2) ، واستباحت أريافها ، ثم عادت إلى ريف الأندلس الشرق . . وتوافت بساحل تدمير (مرسية) ، ودخلوا حصن أوريوله qrihuela ، ثم تقدموا إلى حائط إفرنجة ، فسبوا فيها ، وأصابوا الذراري . . وقد ذهب من مراكبهم أكثر من أربعين مركباً ، ولاقتهم مراكب الإمام محمد وعليها قرقاشيش بن شكوح ، وخشخاش البحري ، ومعها تيم النفط ، وأصناف العدة البحرية ، والتكثيف من الرماة بأوسع ما يحتاجون إليه من النقاب ، فأصابوا مركبين من مراكبهم بريف شذونه ، فيهما أموال كثيرة ، وأمتعة واسعة نقلها الله المسلمين ، ثم صدمهم ابن شكوح وخشخاش صاحبه ، رئيساً أسطول السلطان ، وقاتلاهم حتى غلباهم على مركبين آخرين ، فأحرقوهما بجمع من كان فيهما . فحمى المجوس عن ذلك على خشخاش ، فأحرقوا به . وضاربهم في صدر مركبه دراكاً حتى استشهد رحمه الله وقوم من المسلمين معه . ثم مضت بقية مراكب المجوس مصعدة إلى حائط بقبولونه ...

وفي سنة سبع وأربعين ومائتين (861 م) ، ظهرت مراكب المجوس في البحر ، فكتب إلى عمال الساحل بالاحتراس والتحفظ . فلم يكن للمجوس في هذه الكرة في الانبساط في البحر والأضرار بأهل السواحل ، ما جرت به عادتهم ، ولم يجدوا في السواحل مطمئناً لشدة ضبطها ، ولاقوا مع ذلك من البحر هولاً عطيت له من مراكبهم أربعة عشر مركباً بناحية البحيرة من الجزيرة ، فنكبوا عن حائط الأندلس ، واعتلوا إلى جهة الفرنجة فلم يلقوا ظفراً ، وأسرعوا الانصراف إلى بلادهم بالخيبة ، فلم يكن لهم بعد إلى الأندلس إلى اليوم عودة (1) . "

مما تقدم نرى ، كما هو واضح ، أن غارات النورمانديين على الأندلس في عهد الأمير محمد ، لم تحرز نجاحاً مثل النجاح الذي أحرزته في عهد والده عبد الرحمن الأوسط ، وذلك بسبب ارتقاء البحرية الأندلسية إلى المستوى الحربي المطلوب للدفاع عن أراضيها .

وفي خلال ذلك الوقت الذي كانت فيه أساطيل الأندلس وجيوشها في قتال النورمانديين وصد عدوانهم في البحر والبر ، لم يتوقف نشاط المغامرين من

رجال البحر الأندلسيين عن مواصلة قتال الكارولنجيين في حوض البحر المتوسط ، وشن الغارات على قواعدهم في أول ومرسيليا في جنوب فرنسا . ولقد كان لهؤلاء البحريين هناك قواعد شبه دائمة في جزيرتي كامارج **camargue** وماجلون عند مصب نهر الرون للإغارة منها على تلك الجهات . ومن المؤسف أننا لا نجد لنشاطهم أثر رواية إلا في الحوليات الأوروبية التي سجلت هذه الأحداث . وهذا شئ طبيعي إذ أنه من العيب أن نلتبس في كتابات مؤرخي المسلمين شيئاً عن هذه القرصنة بحكم كونها منظمة غير رسمية . أي أن الدولة الأموية لم تنظمها تنظيماً رسمياً إلا أنها كانت تشرف عليها وتشجعها (6) . ومن أمثلة ذلك حادثة رولان رئيس أساقفة آرل الذي أسره البحريون الأندلسيون سنة 860 م ، وساقوه إلى أحد مراكزهم ، وطلبوا فيه فدية كبيرة . ورضي أهل آرل بتقديم هذه الفدية ، وأخذوا في جمعها لإنقاذ أسقفهم ، ولكن حدث في أثناء ذلك أن مات الأسقف وهو لا يزال أسيراً ، فكتم الأندلسيون موته حتى يقبضوا المال . ولما تسلموا جميع الأشياء التي طلبوها ، أخرجوا جثة الأسقف إلى البر ، وألبسوها الثياب التي كانت عليه عندما كان حياً ، وأجلسوه على مقصد مرتفع وكان المسيحيون قد جاءوا جداً جمعاً عظيماً لتهنئة الأسقف بالخلاص ، فلم يجدوا سوى جثة هامة ، وتحول فرحهم مآتماً (1) . وأمام هذه الغارات المتواصلة ، اضطر ملك فرنسا شارل الأصغر أو الجسور ، أن يعقد صلحاً مهيناً مع الأمير محمد سنة 864م كي يتيح لسكان هذه المنطقة الفرنسية الجنوبية بعض الراحة من تلك الغارات (2) .

وبعد وفاة الأمير محمد ، تجددت غارات البحريين الأندلسيين على ساحل بروفانس في جنوب فرنسا ، في عهد ولديه المنذر (273 - 275 هـ = 886 - 888 م) ، وعبد الله (275 - 300 هـ = 888 - 912 م) . ولقد استطاع هؤلاء المجاهدون الأندلسيون في سنة 275 هـ (888 م) ، أن يؤسسوا على قمة جبل في خليج سانتروبين **saint tropez** ، معقلاً جديداً سماه المعاصرون باسم فراكسنيتم **fraxineturn** ، وقد ندرس هذا الاسم الآن ، وأغلب الظن أنه كان في نفس المكان الذي عليه الآن قرية جارد فرينه **garde - freinet** ، كما تسمى الغابة التي تحيط بها باسم غابة المور أي المسلمين . ويمتاز هذا الموقع المرتفع بأنه يشرف على سهول بروفانس وحدود إيطاليا (3) .

ولقد تحدثت جميع المصادر الألمانية والفرنسية والإيطالية عن نزول الأندلسيين في فراكسنيتم ، ووصفت الغارات التي شنوها من تلك القاعدة على البلاد الداخلية مثل دوفيني **dauphine** ، وبيومونت **plemont** ، وسافوي **savoy** ، ونيس ، وكيف أنهم تمكنوا من التحكم في المواصلات التي بين

إيطاليا وفرنسا ، واحتلوا جميع ممرات جبال الألب الموصلة بين البلدين فيما بين مونت ستي والبحر المتوسط لدرجة أنهم كانوا لا يسمحون لأحد بالمرور منها دون أن يدفع لهم رسماً معلوماً . وعلى الرغم من أن المصادر العربية لم تذكر شيئاً عن نشاط هؤلاء المجاهدين ، إلا أنها أشارت بإختصار إلى موقع فراكسنيتم ، الذي أطلقت عليه اسم جبل القلال بمعنى رؤوس الجبال (جمع قلة) . وينص ابن حوقل على أن هذا الجبل ، كان تابعاً لصاحب الأندلس (1) ، بينما يصفه الاصطخري بأنه كان في الأصل خراباً وفيه ماء ، ثم عمره المسلمون وثاروا في وجوه الإفرنجة ، لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم (2) . واستمرت قاعدة فراكسنيتم شوكة في جنب الفرنجة في هذه النواحي مدة قرن تقريباً ، واستطاعت وحداتها البحرية بالتعاون مع وحدات جزر البليار ، ووحدات موانئ الثغر الأعلى في الأندلس مثل طرطوشه أن تكون أسطولاً أندلسياً بديع التنظيم سيطر على غربي حوض البحر المتوسط في القرن الرابع الهجري (10م)

(3) .

حروب السيطرة على الغرب الاسلامي

ذكروا أن الغالب بالله محمد الشيخ مؤسس مملكة غرناطة ، كان له صهر من أهل بلدة أوجونة يعرف بأبي الحسن بن الحسن بن أشقيلولة (1) شاركه في فتوحاته وفي تأسيس ملكه فلما استقر الأمر الغالب بالله بغرناطة ، زعموا أنه عرض على صهره الأمر ، فقال له " أنا أمي ، لا أكتب ، وعزك من عزي ، وملكك من ملكي ، فأسكنه بالقصبة وقدمه على الجيش . ثم توفي الرئيس ابن اشقيلولة وخلف ولدين : أبا إسحاق ، وأبا محمد ، فصاهرهما السلطان على ابنتيه . مؤمنة وشمس ، وولى الأول على مدينة وادي آش **guadix** كما

ولى الثاني على مدينة مالقة **Malaga** ، وأنجبوا البنين والبنات وصارة أحوالهم مستقيمة ، وأمورهم تحت نعمة جدهم السلطان جاريه ، إلى أن كبر ابن السلطان وولى عهده محمد ، فنافس هؤلاء الأبناء بني اشقيلولة وقلق بهم (2) ولما مات السلطان محمد الشيخ وآل الأمر إلى ولده محمد الثاني المعروف بالفقيه (671 - 701 هـ - 1272 = 1302 م) زادت النفرة بين بني اشقيلولة وبين خالهم السلطان الجديد ، فأظهروا الامتناع والعصيان بمدينة وادي آش ومالقه ، ثم أعلنوا ولاءهم وتبعيتهم لسلطان المغرب أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني (656 - 685 هـ = 1258 - 1286 م) وانتهز - سلطان المغرب هذه الفرصة وأعلن تأييده للثوار واستولى على مدينة مالقة وأقامة بها عيد النحر سنة 675 هـ (1277 م) (1) وتخوف السلطان من أطماع سلطان المغرب وظن به الظنون ، وخشي أن يغلبه على بلاده كما فعل يوسف بن تاشفين مع المعتمدين عباد وغيره من ملوك الطوائف ، فلجأ إلى جيرانه المسيحيين ، وعقد مع سانشو الرابع **sancho iv** ملك قشتالة وخايمي الثاني **jaims ii** ملك أراجون معاهدات دفاعية ضد ملك المغرب . واستطاع كل من الملكين سانشو وخايمي أن يقتنع سلطان غرناطة بضرورة احتلالها بصفة مؤقتة لبعض قواعد المضيق مثل طريف **tarifa** والجزيرة الخضراء **algeoiras** التي كانت في يد المرينيين ، لأنها تعتبر رأس جسر لعبور القوات المغربية إلى الأندلس . ووافق سلطان غرناطة على ذلك بشرط أن تسلم له هذه القواعد بعد ذلك .

ثم نازلت أساطيل أراون وقشتالة مدينة الجزيرة الخضراء 677 هـ (1278 م) منيت بهزيمة فادحة أمام الأسطول المغربي والسبتي ، واضطرت إلى الإقلاع عنها خائبة السعي وتمكن سلطان المغرب من العبور بجيوشه إلى أسبانيا . وكانت مالقة في خلال ذلك الوقت قد استردها سلطان غرناطة بعد أن داخل واليها من قبل المرينيين وعوضه عنها بالمنكب وشلوبانية . فانزلها ملك المغرب وكانت عليها حرب عظيمة بلغت فيها حملات الجيش المريني إلى أن صادمت الأحوار رؤوس الخيل ، ولكنه عجز عن احتلالها ، واضطر سلطان المغرب إلى فك الحصار عن مالقة والعودة إلى الجزيرة الخضراء . واستمرت المناوشات والحروب قائمة بين الفريقين إلى أن تم الاتفاق بينهما على أن يتنازل سلطان غرناطة عن مدينة وادي آش قاعدة بني اشقيلولة لسلطان المغرب ، بينما يتنازل سلطان المغرب عن مدينة القصر الكبير (1) في شمال المغرب لسبتي اشقيلولة . وفي سنة 687 هـ هاجر بنو اشقيلولة بأموالهم وأهليهم ورجالهم إلى مدينة القصر الكبير وأعمالها ، واستقروا بها إلى أن انقرضت أيامهم في أواخر الدولة المرينية (2) .

على أن سلطان غرناطة رغم هذا الإنفاق السالف الذكر ، لم يأمن جانب بني اشقيلولة ، وتوقع أغراءهم به من صاحب المغرب وعودتهم إليه ، ولهذا استولى على مدينة وادي آش وطرد عامل المرينيين منهما ، كما استنجد بالقوى المسيحية الأسبانية لسد المضيق بأساطيلهم : وفي سنة 691 هـ (1292م) قام سانشو الرابع ملك قشتالة بمحاصرة طريف برا بينما حاصرها ملك أراجون بأساطيله من البحر . أما ملك غرناطة ، فإنه اكتفى بمهاجمة مدينة أسطبونة إحدى القواعد الأندلسية التابعة لسلطان المغرب ، وانتهت هذه العمليات بسقوط طريف في أيدي القشتالين بعد حصار دام ستة أشهر (3) . على أن ملك قشتالة لم يلبث أن نسي وعوده السابقة لملك غرناطة ، ورفض تسليمه ثغر طريف بل واحتفظ أيضاً بالحصون الغرناطية التي كان محمد الثاني قد سلمها إليه في مقابل تسليمه قاعدة طريف ، وثار تائراً سلطان غرناطة لهذه الخدعة ، ولم يجد وسيلة أمامه سوى العبور إلى سلطان المغرب أبي يعقوب يوسف سنة 692 هـ (1293 م) ليطلب منه الصّح على مسلكه السابق ، وليطلب منه أيضاً معونة حربية لاسترداد طريف (1) . واستجاب سلطان المغرب لطلبه . وهاجمت الجيوش والأساطيل المغربية والغرناطية قاعدة طريف ولكنها لم توفق في احتلالها ، وترجع المصادر الأسبانية هذا الفشل إلى بطولة قائد حامية المدينة قزمان الطيب **guzman el buene** الذي فضل أن يقتل المسلمون ولده أمام عينيه على أن يسلم المدينة (2) .

غير أن السلطان محمد الثاني ، وإن كان لم يوفق في استعادة طريف ، إلا أنه استطاع أن ينتزع من القشتالين مدينتين من أعمال جيان وهما قيجاطة **Quesada** سنة 695 هـ (1295م) () والقبذاتي **alcuadate** سنة 699 هـ (1299م) . ثم انتهت هذه الحروب بعقد صلح بين غرناطة وكل من قشتالة وأراجون سنة 702 هـ (1302م) .

وفي أوائل القرن الثامن الهجري (14م) قامت في بلاد المغرب ثورات واضطرابات داخلية ، ولم يلبث السلطان نفسه أبو يعقوب يوسف أن مات مقتولاً بيد بعض عبيده سنة 706 هـ (1306م) . ولقد حركت أنباء هذه الفوضى ، أطماع سلطان غرناطة الجديد محمد الثالث (702 - 709 هـ - 1302 - 1309 هـ) في السيطرة على المضيق ، فانتهز هذه الفرصة وأمر ابن عمه أبا سعيد فرج صاحب مالقة بالاستيلاء على سبته ، فافتحمها بأساطيله وجنده واستولى عليها سنة 706 هـ (1306 م) وقبض على ولاتها من بني العزفي وأرسلهم أسرى إلى غرناطة (2) .

و غضب سلطان المغرب أبو ثابت عامر (706 - 708 هـ) من هذا التدخل
الغرناطي في شئون بلاده ، وقام من فوره بتأسيس مدينة قطوان (3) جنوبي
سبتة لتكون قاعدة عسكرية ضد الجيوش الغرناطية في سبتة . ولم يعيش
السلطان أبو ثابت طويلاً لكي يحقق آماله ولكن ابنه أبو الربيع سليمان (708
- 710 هـ = 1308 - 310 م) واصل سياسته بضرورة استعادة سبتة وتحالف
مع مملكتي قشتالة وأراجون ضد غرناطة .

ورأى كل من ملك قشتالة فرناندو الرابع ، وملك أراجون خايمي الثاني ، أن
الفرصة باتت سانحة للقضاء على مملكة غرناطة ، فتحالفا على غزوها في
وقت واحد على أن تقوم الجيوش القشتالية بمهاجمة مينة الجزيرة الخضراء
من الجنوب ، بينما تهاجم الأساطيل الأراجونية مدينة المرية من الشرق ثم
يتقابل الجيشان في مدينة غرناطة العاصمة (!) .

و حينما علمت غرناطة بأنباء هذا العدوان المشترك على أراضيها ، ثارت ثائرة
أبنائها ، وأخذوا يستعدون للقتال . وساءهم أن يجدوا سلطانهم محمد الثالث قد
استنفد جميع المخزون من المؤن والغلال أثناء عملياته العسكرية في بلاد
المغرب ، فقاموا بثورة ضده ، انتهت بخلعه ونفيه إلى ثغر المنكب

almunecar ، وتولية أخيه أبي الجيوش نصر سلطاناً على غرناطة)

708 - 713 - 1309 - 1314 م (1) .

ورأى سلطان غرناطة الجديد ضرورة إعادة العلاقات الودية بين غرناطة وفاس
لتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الخطر المسيحي المنتظر . فعبّر إلى سلطان
المغرب أبي الربيع سلمان ، وتنازل له عن مدينتي رندة والجزيرة الخضراء ،
كما أعاد إليه ثغر سبتة الذي سبق أن استولى عليه أخوه ، ثم توج هذا كله بعقد
قرانه على أخت سلطان المغرب (2) .

ثم رأى سلطان غرناطة ، بعد أن ألقى عن عاتقه مهمة الدفاع عن الجزيرة
الخضراء ورندة ، أن يتقرب إلى ملك قشتالة فرناندو الرابع ، ويعرض عليه
بعض الحصون الغرناطية مقابل تخليه عن حليفة ملك أراجون . غير أن ملك
قشتالة رفض هذا العرض ، وأعلن الحرب على غرناطة وعلى سلطان المغرب
أيضاً لأنه ، كذلك عليه وعلى ملك أراجون (2) .

وفي عام 709 هـ (1309 م) هاجم ملك قشتالة جبل طارق وتمكن من
الاستيلاء عليه . ثم تقدم نحو الجزيرة الخضراء محاولاً احتلالها ولكنه فشل
واكتفى بحصارها . وفي الوقت نفسه (709 هـ) حاصر ملك أراجون خايمي
الثاني بجيوشه وأساطيله ثغر المرية .

غير أن هذا الهجوم المزدوج انتهى بالفشل إذ استطاعت كل من المدينتين
الصمود أمام العدوان ولا سيما مدينتي المرية التي تعرضت في هذه الحرب

لأشد هجوم معرفته في تاريخها . ولهذا اهتم به المؤرخون القدامى والحديثون وكتبوا عنه في شئ من التفصيل . (1) .

ولقد انتهى هذا المشروع الحربي الفاشل بأن عقدت كل من قشتالة وأراجون صلحاً مع غرناطة والمغرب ، وقامت بعد ذلك علاقات طيبة بين هذه الدول الأربع تشهد بها مجموعة المراسلات المتبادلة بينها ، والمحفوظة الآن في أرشيف تاج أراجون بمدينة برشلونة . (1)

وفي سنة 713هـ (1314م) حدث انقلاب داخلي في مملكة غرناطة انتهى بخلع سلطانها أبي الجيوش قصر ونفيه إلى مدينة وادي آش وتوالية ابن عمه أبي الوليد اسماعيل الأول (703 - 725هـ - 1314 - 1325 م) . وقد حاول السلطان اسماعيل أن يحافظ على العلاقات الودية التي تربط غرناطة بقشتالة وأراجون . غير أن محاولاته باءت بالفشل وخصوصاً مع قشتالة التي أظهرت تأييدها لذلك نصر المخلوع وأعلنت الحرب على غرناطة . (2)

ثم قام الأميران بدور وخوان ، الوصيان على ملك قشتالة الطفل الفونسو الحادي عشر ، بحملة على مملكة غرناطة أحرزت بعض النجاح في منع السلطان اسماعيل من استعادة جبل طارق ، ولكنها انتهت بمقتل الأميرين القشتاليين في مروج غرناطة سنة 719هـ (1319م) وتذهب الرواية الأسبانية إلى أن الأميرين المذكورين ماتا موتة طبيعية في هذه المعركة ، الأول (بدور) مات بالسكتة القلبية ، والثاني (خوان) مات من الحرب والعطش (1) . ولكن هذا يتعارض مع الحقيقة التاريخية التي نراها واضحة في رواية الوزير ابن الخطيب عند قوله ، وتقدم لتربيته والنيابة عليه عمه دون بطره **pedro** ، وهو الذي وقعت عليه وقيمة المرج بظاهر بظاهر غرناطة ، وسيقت جثته إلى البلد ، وجعلت في صندوق خشب ببعض الأبراج ، عن يمين الصاعد إلى الحمراء لصق باب يعقوب ، وصارت الصبيان يرمون ذلك التابوت بالحجارة أن غطته ، واحتج إلى بناء البرج ، وأنا نائب عن السلطان إذ ذاك . واضطر إلى الكشف عن التابوت ، فألقى قد عفن ، واستؤذنت فيما يفعل بتلك الرمة ، فأمرت بأن يتخذ لها تابوت جديد ، وينقلها نصارى السلطان المستخدمون في المباني حسبما يريده أساقفهم . فلما أخرجت الرمة لتتنقل إلى التابوت ، ألقى بين الفقرات منها سنان صغار الجرم قد أثبتته فيها يد مجاهدة يوم الواقعة ، كانت سبباً للفتح . فاستعيرت رقة ، وقبلت ذلك السلاح الكريم ، وأمرت برده بمكان بنائه وأعدت الصندوق لحاله ، لما رأيت في ذلك من التذكير بأيام الله ونكايه الكفار إذا مروا به ، وتقليد الفخر للدين ما شاء الله . (2) .

وسارعت قشتالة بعد هذه الكارثة إلى عقد صلح مع غرناطة سنة 720هـ (1320م) ولكنها نكبت في العام التالي بوفاة الملكة ماريادي مولينا **maria**

de mlina جدة الملك القاصر الفونسو الحادي عشر والوصية عليه بعد وفاة أعمامه . وادي موتها إلى قيام منازعات داخلية بين أمراء قشتالة حول الوصاية على العرش . وانتهز سلطان غرناطة اسماعيل هذه الفرصة واستولى على بعض المدن القشتالية مثل بسطة baza وأشكر huescar سنة 724هـ (1324 - 1325 م) . وتتبعي الإشارة هنا إلى أنه في احتلال هذه المدينة الأخيرة استخدم الغرناطيون المدفع لأول مرة في الأندلس . وقد أورد ابن الخطيب وصفاً هاماً لهذا السلاح الجديد وما أحدثه من ذعر في صفوف الأعداء وهذا الوصف يعتبر في الواقع من أقدم النصوص التاريخية عن استعمال الأسلحة النارية وفيه يقول :

نازل السلطان أشكر ونشر الحرب عليها ، ورمي بالآلة العظمى المتخذة بالنفط كرة محماة طاقة البرج المنيع ، فعاشت هيات الصواعق السماوية ونزل أهلها قسراً على حكمه . وفي ذلك يقول شيخنا الحكيم أبو زكريا ابن هذيل : وظنوا بأن الرعد والصعق في السما فحاق بهم من دونها الصعق والرعد غرائب أشكال سما هرمس بها مهندسة تأتي الجبال فتهد ألا أنها الدنيا تترك عجائباً وما في القوى منها فلا بد أن يبدو (1) ومن الطريف أن المصادر الأسبانية المعاصرة في وصفها لأحداث هذه الحرب ، أشارت إلى هذا السلاح الرهيب ففي مدونة ثوريتا نجد العبارة التالية : " وانتشرت الإشاعات في مدينة لقتت alicante بأن ملك غرناطة يمتلك سلاحاً جديداً عبيداً " (1) .

ورأى أمراء قشتالة أن خير وسيلة لحسم منازعاتهم الداخلية ، هي أن يباشر الملك الفونسو الحادي عشر حكم بلاده بنفسه رغم صغر سنه (15 سنة) وقد تم ذلك فعلاً في أغسطس سنة 1325م . وفي السنة التالية هاجم هذا الملك مملكة غرناطة منتهزاً فرصة الاضطرابات التي حلت بها نتيجة لمقتل سلطانها اسماعيل وتولية ابنه محمد الرابع (725 - 733 هـ = 1326 - 1333 م) . وأمام النجاح الذي أحرزه الهجوم القشتالي في الأراضي الغرناطية ، أسرع محمد الرابع إلى سلطان المغرب أبي سعيد عثمان الثاني ، واتفق معه على التعاون عسكرياً ضد قشتالة . وقد رد ملك قشتالة على ذلك بأن عقد اتفاقاً مع ملك أراجون ضد خطر الغزو المغربي ، وهي اتفاقية طركونة tarragona سنة 1328م .

ثم بدأت الحرب في صيف 730هـ (1330م) ، وكانت شديدة في الجهة القشتالية ، ضعيفة في الجبهة الأراجونية ، ويبدو أن الفونسو الرابع ملك أراجون لم يكن جاداً في هذه الحرب ، إذ لم يهاجم ميناء المرية كما كان متفقاً عليه ، واقتصر على إرسال حملة إلى منطقة لورقة (2 lorca) أما قشتالة

فقد تحملت عبئ القتال وحدها ، واستطاع الفونسو الحادي عشر أن يحتل عدة حصون غرناطية ، ولكن الجيوش الغرناطية بالتعاون مع الأساطيل المغربية التي أرسلها السلطان أبو الحسن علي المريني (731 - 749 هـ - 1331 - 1348 م) بقيادة ولده أبي مالك تمكنت في نفس الوقت من استرداد جبل طارق سنة 733 هـ (1333 م) وحاول ملك قشتالة إنقاذ هذه القاعدة الهامة ولكن بعد فوات الأوان (3) ومن المؤسف أنه بينما كان سلطان غرناطة محمد الرابع في طريق عودته إلى عاصمته بعد هذا النصر ، إذ به يقع صريعاً بيد بعض المتآمرين من جنوده ، وخلفه على عرش غرناطة أخوه أبو الحجاج يوسف الأول (732 - 755 هـ = 1333 - 1354 م) . واستطاع أبو الحجاج أن يصل إلى اتفاق مع ملك قشتالة ، وأن يعقد معه معاهدة اشترك فيها سلطان المغرب أيضاً أبو الحسن المريني سنة 734 هـ (1334 م) وكان من شروط هذه المعاهدة أن يسود السلام بين هذه الدول الثلاث مدة أربع سنوات ، على ألا تمر قوات مغربية إلى الأندلس اللهم إلا ما يتعلق باستبدال جنود الحاميات المغربية في الأندلس . وفي نفس تلك السنة عقدت معاهدات سلمية مماثلة مع ملك أراجون (1) .

على أن كل هذه المعاهدات ، لم تحل المشكلة القديمة القائمة ، وهي مشكلة السيطرة على مضيق جبل طارق ، فكل من أسبانيا والمغرب لم يقل كلمته الأخيرة بعد . وانتهاز كلهما فرصة السلام للتسابق على التسليح والاستعداد للحرب وكان اهتمام كل فريق موجهاً نحو تقوية بحريته لأنها الضمان الأساسي للسيطرة البرية بعد ذلك . ورأى سلطان المغرب أبو الحسن المريني أن يستعين في هذا المضمار بخبرة الملاحين الجنوبيين وبأصهاره الحفصيين ملوك تونس (2) ، بينما رأى ملك قشتالة الفونسو الحادي عشر أن يستعين بأساطيل ملك أراجون . وقد أعده بالفعل بدور الرابع ملك أراجون بأسطول تحت قيادة **gilabert de gruyilles (1)** ، بينما أرسل الخليفة المتوكل أبو يحيى الحفصي أسطولاً من ست عشرة قطعة إلى المغرب بقيادة زيد بن فرحون قائد أسطول بجاية . ويذكر ابن خلدون أن أساطيل المغرب وتونس التي تجمعت بمرسى سبتة كانت تناهز المسائة ، وأن السلطان أبا الحسن المريني عقد عليها لمحمد بن علي العرفي حاكم سبتة (2) ، بينما تذكر المصادر القشتالية أن أساطيل المغرب بلغت مائتين وخمسين شراعاً .

وكيفما كان الأمر ، فقد بدأت المعركة في ربيع 740 هـ (1340 م) عندما حاول القائد الأراجواني **gilabert de gruyilles** عبور المضيق والاتصال بقائد الأسطول القشتالي **Alonso jofre tenorio** في مياه اشبيلية عندئذ تصدى له الأسطول المغربي ليحول دون هذا الاتصال ، ودارت

بينهما معركة عنيفة في مياه الجزيرة الخضراء انتهت بغرق معظم الأسطول الأراجوني وقتل قائده ، وانسحاب فلوله إلى برشلونة بقيادة نائب القائد المقتول

: pwdro de moncada

ولا شك أن انسحاب الأسطول الأراجوني من ميدان المعركة ، كان ضربة قاضية للأسطول القشتالي الذي لم يستطع الصمود وحده أمام أسطول المغرب ، فمني هو الآخر بهزيمة ساحقة وقتل قائده **Alonso jofre tenorio** واستولى المسلمون على بعض قطعة . وبهذا النصر الباهر أصبح السلطان أبو الحسن المريني سيداً بلا منازع على مضيق جبل طارق ، وصار من السهل عليه نقل قواته إلى أسبانيا في في سهولة ويسر .

واتجهت أنظار هذا المجاهد الكبير إلى مدينة طريف القاعدة الباقية في أيدي الأسبان من ثغور المضيق . فلو أنه استولى عليها لصار المضيق كله في يده ، كما صار الطريق أمامه مفتوحاً إلى قانس وأشبيلية لهذا عول على احتلالها وأجاز إليها بجيوشه وأساطيله وأحاط بها من كل جانب براً وبحراً في المحرم سنة 741هـ . واشترك معه في هذا الحصار سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف الأول بجيوشه أيضاً .

وشعر ملك قشتالة الفونسو الحادي عشر بخطورة الموقف ، فاستنجد يملك أرجوان بدور الرابع ، كما استنجد بصهره ملك البرتغال الفونسو الرابع ، وهرع الجميع إلى ساحة طريف بغية إنقاذها ، وفي 7 جمادي الأولى سنة 741 هـ (أكتوبر سنة 1340 م) دارت بين الفريقين معركة حاسمة انتهت بهزيمة المسلمين وقتل عدد كبير منهم . وسميت هذه الموقعة في المصادر العربية باسم موقعة طريف ، أما المصادر الأسبانية فقد سمتها بوقعة نهر سلاو **del rio salado** على اسم النهر المجاور لطريف في جنوب أسبانيا ، كما سمتها أيضاً بوقعة الملوك الأربعة (1 **de los cuatro reyes**) .

ولدينا نص مختصر عن سبب هزيمة المسلمين أورده ابن الخطيب الذي فقد أباه وأخاه (2) في هذه المعركة . يقول فيه : " ودون الفنش - ملك البرتغال - هو الذي أمد صاحب قشتالة يوم طريف بنفسه . وكان مصافه بإزائنا أهل الأندلس وحملنا عليه وكدنا نفضه لولا أنهم جعلوا جيئاً وراءهم فاصلاً عن الملكين ، يمد من ظهر به اختلال وتضعض : فبادر إلى عدونا فقراء وسبب له الظهور (3) . ويضيف ابن الخطيب ، في موضع آخر سبباً ثانياً لهذه الهزيمة وهو خروج أهل البلد المحصور واشتراكهم في القتال ضد المسلمون فيقول . وكان اللقاء بظاهر طريف ، وساء التقدير . واختل مصاف المسلمين وأضاعوا الحزم ، وخرج أهل البلد المحصور وهم شوكة ، وضيقت مجال القتال ، وأجفان الروم ناضجة بأساليب السهام حتى دخل البلد فرسان الروم فوقعت الهزيمة التي حصدت

شوكة المسلمين وأهلكت نفوسهم واكتسحت أموالهم ، وأسلم السلطان مضاربه ، ومن جملة ما بها أزواجه من بنات الملوك ، وقعت بهم المثلة بعد القتل ، وكان الخطب على الإسلام قل أن يجتمع مثله " (1) .
وانتهز ملك قشتالة فرصة الاضطرابات التي حلت بجيوش المسلمين بعد هذه الهزيمة ، وواصل هجومه على غرناطة فاستولى على قلعة يحصب (2)
alcala la real وياغو priego ثم حاصر أخيراً مدينة الجزيرة الخضراء سنة 743هـ (1342 م) ودام هذا الحصار مدة طويلة تقرب من السنتين ، وذاعت أنبأؤه في أنحاء أوروبا ، وسارع إليه عدد كبير من الفرسان الإنجليز والألمان والفرنسيين للمشاركة فيه . وسقط بعضهم قتلى بسيفوف المسلمين (3) كذلك شاركت أراجون في هذا الحصار بجزء من أسطولها بقيادة الأثير (4 bernardo de gabrera) .

وحاول كل من سلطان المغرب وسلطان غرناطة إنقاذ هذه القاعدة الهامة بشتى الطرق السلمية والحربية ، ولكن محاولتهما باءت بالفشل ، وانتهى الأمر باستسلام الجزيرة الخضراء في ربيع سنة 744 هـ (5) (1344م) ثم عقدت معاهدة سلمية بين قشتالة وغرناطة والمغرب مدتها عشر سنوات (1) .
وقبل انتهاء أمد هذه المعاهدة ، حاول الملك الفونسو الحادي عشر تحقيق أمنية طالما فكر في تحقيقها وهي الاستيلاء على جبل طارق . فأناخ عليه بجيوشه وأساطيله وأحاط به من كل جانب ، ولكن وباء الطاعون انتشر في معسكره ، ولم يلبث هو نفسه أن راح ضحية لهذا الموت الأسود في مارس سنة 1350م (751هـ) .

وحينما علم السلطان أبو الحجاج يوسف بخبر وفاته ، أمر جنوده بعم التعرض للجيوش القشتالية العائدة بجثمان مليكها إلى إشبيلية (2) . وقدر ملك قشتالة الجديد بدور (3) ، لسلطان غرناطة والمسلمين هذا الصنيع ، فعقد معه معاهدة ود وصداقة (4) . كذلك عقدت أراجون مع ملك غرناطة معاهدة سلمية مماثلة وتبادلت معه خطابات ودية (1) .

وما كادت غرناطة تنعم بالسلم والهدوء من جانب جيرانها المسيحيين حتى دب نزاع جديد بينها وبين سلطان المغرب أبي عنان فارس (2) (749 - 759هـ : 1348 - 1358م) والسبب في هذا النزاع يرجع إلى أن اثنين من إخوة أبي عنان وهما الأميران أبو الفضل وأبو سالم ، خرجا عن طاعة أخيهما السلطان ، وهربا إلى سلطان غرناطة ملتجئين حمايته ، وقبل أبو الحجاج يوسف طلبهما وأواهما في بلاطه - وقد آثر هذا العمل غضب السلطان المريني ، فأرسل إلى سلطان غرناطة خطاباً شديداً بالهجة ، مليئاً بعبارات الاحتجاج والتهديد ، وكان رد السلطان يوسف عليه واضحاً ، إذ أوعز إلى الأمير أبي الفضل بالسفر إلى

قشتالة وطلب معونة من ملكها بدور الأول لمحاربة أخيه وانتزاع الملك منه .
ووافق ملك قشتالة على طلب الأمير المغربي أبي الفضل لأنه كان متوخفاً من
أطماع أبي عنان ، فأمدّه بالأساطيل والأموال وأنزله بنواحي السوس في جنوب
المغرب كي يشعل حرباً أهلية ضد أخيه وثارت تائرة السلطان أبي عنان لهذا
العمل العدائي ، وطلب من ملك أراجون أن يتعاون معه على محاربة غرناطة
وقشتالة (1) . غير أن الظروف سرعان ما هدأت من روعه عندما مات أخوه
أبو الفضل أثناء حروبه بالمغرب ، وقتل سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف
أثناء تعاديته لصلاة عيد الفطر في شوال سنة 755 هـ (2) (أكتوبر سنة
1354م) .

وولى عرش غرناطة بعد أبي الحجاج يوسف ولده السلطانة محمّج الخامس
الغنى بالله (755 - 760 هـ 763 - 793 هـ = 1354 - 1359 - 1362 -
1391 م) . وحاول هذا السلطان الجديد أن يعيد العلاقات الودية بين غرناطة
والمغرب بعد أن تآزمت في عهد والده ، فأرسل إلى فاس سفارة لهذا الغرض
برئاسة وزيره لسان الدين بن الخطيب الذي يبدو أنه نجح في سفارته . إذ
يروى أنه حينما مثل بين يدي السلطان وقبل أن يسلم عليه ، أنشده قصيدة يقول
في مطلعها :

خليفة الله ساعد القدر علاك ملاح في الدجى قمر

فاهتز أبو عنان لأبياتها وقال لابن الخطيب : " ما ترجع إليهم إلا بجميع
طلباتهم ، وقد علق أحد الحاضرين على ذلك بقوله . لم نسمع بسفير قضى
سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا (3) .

غير أن السلطان أبا عنان لم يلبث أن راودته أحلامه القديمة بغزو الأندلس ،
والسيطرة على المضيق ، خصوصاً بعد أن تم له ضم المغرب الأوسط إلى
ملكه . وقد لاحظ أن خلدون ذلك عند قوله : " وكان أبو عنان يؤمل في ملك
الأندلس ، (1) رأى أبي عنان أنه من الصعب عليه تنفيذ مشروعه ما دام هناك
حلف قائم بين غرناطة وقشتالة . ولهذا حاول أن يقنع سلطان غرناطة بالتخلي
عن هذا الحلف الذي جعله يدين بالتبعية لملك قشتالة ويدفع له الجزية ، غير أن
محمد الخامس رفض هذا العرض لأنه كان يجنح دائماً إلى مسالمة قشتالة (2)
، أو لأنه ، كما يبدو ، كان يشك في نوايا سلطان المغرب . عندئذ رأى أبو
عنان أن يتحالف مع بدور الرابع ملك أراجون الذي رحب من جانبه بهذا
المشروع لأنه كان فعلاً في حرب مع قشتالة ، ووقع الاتفاق بين الملكين
سرقسطة في يوليو سنة 1357 م (3) (758 هـ) .

ويبدو أن الاستعدادات للحرب قد بدأت فعلاً بدليل قول ابن خلدون بأن الأساطيل
المغربية والأراجونية قد أخذت تتجمع في مضيق جبل طارق منتظرة الأمر

بالهجوم ، وأن السلطان أبا عنان أرسل إلى حليفة ملك أراجون هدية فاخرة عربوناً لصداقته وامتنانه (1) .

غير أن هذه المشروعات الحربية لم تلبث أن توقفت فجأة نتيجة لوفاة أو مقتل السلطان أبي عنان (2) . في سنة 759هـ (ديسمبر 1358 م) . إذ انتهز ملك تلمسات المخلوع أبو حمو الثاني هذه الفرصة واستعاد ملكه بالمغرب الأوسط ، بينما سادت المغرب الأقصى حروب أهلية بين أولاد السلطان المتوفي طمعاً في العرش . ورأى الوزير حسن بن عمر الفودودي أن يستأثر بالنفوذ في الدولة غدیر من قتل ولي العهد أبا زيان ، واختار طفلاً من إخوته يدعى السعيد أبو بكر ، فأقامه سلطاناً على المغرب وصار يحكم باسمه .

على أن هذا الاختيار لم يعجب الكثيرين من زعماء المغرب ، فاتجه بعضهم بعضهم إلى غرناطة وبايعوا الأمير أبا سالم إبراهيم المريني الذي سبق أن التجأ إليها فراراً من أخيه أبي عنان ، وظن أبو سالم أن غرناطة سوف تساعد على تحقيق آماله في ملك المغرب نظراً للعداء الذي كان بينها وبين حكومة فاس على عهد أخيه ، ولكن سلطان غرناطة فضل أن يسلك سياسة محايدة في تلك الظروف المضطربة ، واضطر أبو سالم إلى الفرار إلى ملك قشتالة بدور الأول بمدينة اشبيلية طالباً مساعدته في الوصول إلى عرش المغرب . وكان رأي المستشارين في البلاط القشتالي عدم الموافقة على مساعدة الأمير المغربي ، لأن من مصلحة قشتالة أن يكون سلطان المغرب طفلاً قاصراً مثل السعيد أبي بكر ، ولكن الملك بدور لم يستجب لهذا الرأي ، وقرر مساعدة الأمير أبي سالم بعد أن أخذ عليه الضمانات

والمواثيق بالوقوف إلى جانبه ضد أراجون . ثم أمده بالأموال وبالأساطيل التي عبرت به إلى الساحل المغربي ، وهناك تمكن أبو سالم بعد أحداث وحروب من التربع على عرش المغرب في شعبان 760 هـ (يونيو سنة 1359 م) (1) . وكان من الطبيعي أن تتجه سياسة هذا السلطان الجديد نحو مخالفة كل من قشتالة وغرناطة ، والتخلي عن سياسة التحالف مع أراجون التي رسمها أبو عنان من قبل . وكانت الحرب وقتئذ قد استمرت بين هاتين المملكتين الإسبانيتين قشتالة وأراجون ، وصمم ملك قشتالة على مهاجمة خصمه في مياهه الإقليمية ليثبت له أنه قادر على منازلته في البحر الذي هو ميدانه . واستعان في ذلك بحليفه محمد الخامس الذي لم يتردد في إمداده بأسطول غرناطي من عشر شواني حربية بجميع بحارتها وأسلحتها كما سمح له باستخدام آلة واعد البحرية الغرناطية ليستعين بها في تموين أساطيله (1) . وبينما كان ملك قشتالة منهمكاً في غاراته البحرية ضد ميناء برشلونة وغيرها من الموانئ الأراجونية (2) ، إذا بخليفة محمد الخامس يعاني انقلاباً داخلياً في

مملكته انتهى بخلعه وتولية أخيه أبي إسماعيل الثاني مكانه وذلك في رمضان سنة 760 هـ (أغسطس سنة 1359م) (3) . وتمكن السلطان المخلوع من الفرار ليلاً على ظهر جواده إلى مدينة وادي آش **guadix** التي تعهدت بحمايته . ومن هناك بعث محمد الخامس إلى حليفه سلطانه المغرب يطلب منه قبوله كلاجئ سياسي في بلاطه . وقبل السلطان أبو سالم هذا العرض لأنه رأى أن وجوده بجانبه يفيد كسلاح ضد حكومة غرناطة وضد أمراء بني مرين المقيمين في كنفها إذا ما فكروا يوماً في غزو المغرب ، وفي هذا المعنى يقول ابن خلدون : " وأراد أن يعده زبوناً (أي حرباً وقوة) على أهل الأندلس ويكف به عادية القرابة المرشحين هنالك متي طمحووا إلى ملك المغرب " (1) .

ثم أرسل السلطان أبو سالم رسولاً خاصاً من قبله ليصحب محمد الخامس في رحلته إلى المغرب بعد أن أقنع المتغلب على غرناطة بذلك . وفي ذي الحجة سنة 760 هـ (نوفمبر سنة 1359م) خرج محمد الخامس من مدينة وادي آش ومعه وزيره لسان الدين بن الخطيب وشاعره عبد الله ابن زمرك وجماعة من مماليكه واتباعه متجهاً إلى ميناء مزبلة **marbella** ، ومن هناك أبحر عبر مضيق جبل طارق إلى مدينة سبتة ثم سار إلى العاصمة فاس حيث استقر بها تحت كنف السلطان أبي سالم ورعايته (2) .

ولم يكد يمر عام على هذا الوضع حتى عانت مملكة غرناطة انقلاباً آخر طوح برأس سلطانها أبي الوليد اسماعيل الثاني في شعبان سنة 761 هـ (يونيو 360 م) . وتولى مكانه قائله وهو زوج أخته وأحد أبناء (1) عمومته محمد أبو سعي المعروف في المصادر الأسبانية باسم البرميخو - **el bermejo** ومعناه اللون البرتقالي للضارب إلى الحمرة ، وهو لون لحيته وشعره (2) . ورأى هذا السلطان المغتصب أن التحالف مع قشتالة أمر يتعذر تحقيقه نظراً للصدقة التي تربط ملكها بالسلطان المخلوع محمد الخامس ولهذا اتجه نحو بدرو الرابع ملك أراجون ، والضم إليه في حروبه ضد قشتالة (3) .

وقدر ملك قشتالة ، بعد انضمام غرناطة إلى أراجون ، صعوبة الحرب في جبهتين في آن واحد ، ولذا اضطر إلى أن يستجيب لوساطة البابا بعقد صلح مع أراجون في 13 مايو سنة 1361 ، كي يتفرغ بذلك لمحاربة غرناطة (4) .

ولكي يبرر ملك قشتالة شرعية هذه الحرب ، أعلن نفسه مدافعاً عن حقوق السلطان الشرعي المخلوع محمد الخامس ضد الغاصب أبي سعيد البرميخو (5) . وعلى هذا الأساس طلب من سلطان المغرب أن يسلمه سلطان غرناطة المخلوع كي يساعده في العودة إلى عرشه ولكن السلطان أبا سالم تلكأ في تنفيذ هذا الطلب ، إذ يبدو أنه اتفق مع البرميخو سراً على منع محمد الخامس

من العبور إلى أسبانيا في مقابل أن يقوم البرميخو باعتقال جميع أمراء بني مرين المقيمين عنده بغرناطة (1) .

و غضب ملك قشتالة من موقف سلطان المغرب ، وهدده بالحرب والاستيلاء على جميع القواعد المغربية في أسبانيا إن لم ينفذ مطلبه . واضطر السلطان أبو سالم أمام إصرار بدور القاسي وتهديده أن يرضخ لمطالبة ، فأمر أساطيله بالتجمع في مضيق جبل طارق أمام ميناء سبتة ، متظاهراً بحرب الأسطول الأراجوني ، بينما كان غرضه الحقيقي هو إجازة السلطان المخلوع إلى الساحل الأندلسي . وفي الوقت نفسه وصلت الأساطيل القشتالية إلى ميناء سبتة للقيام أيضاً بمهمة إجازة السلطان محمد الخامس إلى أسبانيا ، وهنا نترك المؤرخ المعاصر لسان الدين بن الخطيب يصف لنا رحيل سلطانه من فاس إلى الأندلس كما شاهده بنفسه ، فيقول (2) .

وألح سلطان قشتالة في تسليم السلطان أبي عبد الله إليه ، (3) ليتولى شد أزره ، ويجتهد في جبر حالة . وألقيت إليه المعاذير فتبا عنها سمعه ، ورفق عن غرضه في رفع السلم عند إخفاق مطلبه ، ولم يقبل العوض من ضروب ملاطفته فترجح الرأي على توجيهه إلى الأندلس . وقد كان الأسطول (1) تألف بفرضة المجاز من سبتة موريا بجهد من ظهر به من عدو برشلونة . ووصلت أساطيل الروم (2) المفخرة في غرض إجازته ، قد أركبها ملك النصارى (3) وجوه خدامه : فقعد السلطان أمير المسلمين بالمغرب (4) في قبة العرض المتدخلة بجنة المصاراة . ووقع البربح ببروز الناس إلى الفضاء الأفيح ، واستحضرت البنود والطبول وأوعية المال صبيحة يوم السبت السابع عشر من شهر شوال من عام التاريخ (5) . واستحضر السلطان (6) فصعد على القبة ثم نزل وقد ألبس خلعة الملك ، وقيدت له فرس شقراء مطهمة ، حليها ذهب بحث " ونشرت حوله الألوية " وقرعت الطبول ، وركب السلطان (7) مشيعاً إياه غلوة ثم انصرف عنه وقد التف عليه كل من جلى عن الأندلس من لدن الكائنة الواقعة بها في جملة كثيفة . وبلى من رقة الناس وأجاشهم وعلو أصواتهم بالدعاء ما قدم به العهد ، إذ كان مظنة ذلك سكوناً وعفافاً وقرباً قد ظلله الله برواق الرحمة وعطف عليه وشائج المحبة إلى كونه مظلوم العهد ، منتزع الحق فتبعته الخطط وحميت له الأنفاس وحث السلطان أمر عبد الله ابن نصر الموجه إلى الأندلس ركابه إلى سبتة ، لا يصدق بالإفلات ولا يثق بالنجاة ، فعارت له خيل ونفقت حموله لشدة السير ، واستقر بسبتة ، واستعجل الجواز ، وحل بحبل الفتحة بعد مراوضة كبيرة لقواد الأسطول (1) الرومي ومحاوره ، إذ تبرعوا بإجازته ، ولم يسمحوا في خلاف ذلك ليجلبوا الفخر لسلطانهم وينسبوا الحركة إليه . فأعملت الحيلة ولققت الحجة وقطع السلطان أسنتهم بمال بذلك

مكارمة لهم ، وأركب أجفائهم طائعة من كبار قرابته واستقر بجبل الفتح ، وطال به مقامه تتردد الرسل بينه وبين ملك الروم . ثم ارتحل نحوه (2) في لمحة من مماليكه ووجوه قرابته . وتحفي السلطان - بدرو - بمقدمة ، وبالغ في بره ، وأفرط في التنزل لوجهته ، وأبعد المادا في خطأ تنقيه ، وأرجل الأكابر لأداء حقه ، توسع في نزله ، وعم بالملاحظة جميع من في صحبته ، وإعطاء صفقة يمينه بالمظاهرة والمعاضدة ، وسلفه ثلاثين ألف دينار من الذهب العين لنفقته ، وشرط له أن لا يبزره حصناً ، ولا ينقصه فتحاً ، ولا يعلق به طماعية ، وأنه على السلم مدة حياته ، ويتركه وصية في عقبه ، وانصرف مجبوراً قرير العين ، منشرح الصدر ، فلحق بسائر الجيش المريني ومن تحلف عنه من قومه بظاهر رنده (1) .

واتخذ محمد الخامس من مدينة رندة (2) ronda مقراً له ولحكومته المؤقتة ، وكانت في ذلك الوقت ، تابعة لسلطان بني مرين ، ومن هناك أخذ محمد الخامس يكتب زعماء غرناطة ويحرضهم على ترك طباعة البرميخو والانضمام إليه ، كما أخذ يعد العدة لمحاربة هذا السلطان المغتصب ، وقد أمده سلطان الغرب بست سفن حربية ، كما أمده ملك قشتالة بخمس أخرى ، ووعده بمزيد من الأساطيل والجيوش لاسترداد ملكة . ويضيف ابن الخطيب أن محمد الخامس أخذ يرصد رجاله لقطع الطريق على رجال البرميخو وسفاراته المتجهة إلى المغرب . ومن الطريف أن من بين الذين وقعوا في أسره الفقيه محمد بن علي بن محم البنسي الذي كان مقرباً في قصره أيام سلطنته ، وقد اضطر محمد الخامس إلى العفو عنه حيناً إلى حسن تلاوته (3) .

ولدرأ هذا الخطر ، رأى السلطان المغتصب أبو سعيد البرميخو أن يستجد بحليفه ملك أراجون فكتب له خطاباً بتاريخ 3 من ذي القعدة سنة 762هـ (4 سبتمبر سنة 1361م) يخبره فيه بأنه تفادياً لشروط المعاهدة المبرمة بين قشتالة وأرجوان ، فإنه يرى أن يتكفل الأسطول الأراجون بمقاومة هجوم سلطان المغرب ، بينما يتكفل الأسطول الغرناطي بمحاربة الأسطول القشتالي (1) .

ولم يكتف البرميخو بهذا التكتيك الحربي بل صمم على إرسال بعض المرشحين لعرش المغرب من أمراء بني مرين المقيمين عنده إلى المغرب لإشعال نار الحرب الأهلية ضد السلطان أبي سالم جزاء مساعدته لمحمد الخامس ، واختار لهذا الغرض اثنين من أولاد عم سلطان المغرب وهما عبد الحليم وعبد المؤمن . وحاول هذان الأميران الإبحار من ثغر المنكب almunecar على ظهر سفينة حربية غرناطية ، غير أن أسطول المغرب وقشتالة المكلف بمساعدة محمد الخامس وحراسة مضيق جبل طارق ، هاجم هذه السفينة

واضطر بحارتها إلى غرسها في الرال فتعذر سيرها بعد ذلك . على أن ركاب السفينة انتهزوا حلول الليل ، وغياب الأسطول المشترك لقضاء حاجته من زاد الماء ، وأبحروا تحت جناح الظلام على ظهر سفينة أخرى صغيرة واتجهوا نحو ثغر هنين بالقرب من تلمسان بالمغرب الأوسط (2) . وهناك رحب بهم أبو حمو الثاني ملك تلمسان وآواهم عنده . ثم نادى بعبد الحليم سلطاناً على المغرب الأقصى لأنه أكبر سناً من أخيه عبء المؤمن ، وأمده بالمال والرجال . وكان الملك أبو حمو يهدف من وراء ذلك أن يثير حرباً أهلية بين بني مرين الذين طالما شردوه وشردوا بآءه أبني زيان من قبل ، وضموا تلمسان إلى ملكهم بالمغرب الأقصى (1) .

ونجحت سياسة كل من غرناطة وتلمسان في بث سمومهما في قاس ، ففي 22 ذي القعدة سنة 762 هـ (23 سبتمبر سنة 1361 م) اغتيل السلطان أبو سالم المرين على أثر انقلاب داخلي دبره وزيره عمر بن عبد الله (2) . وكان لهذا الحادث نتائج سريعة أثرت في الأحداث السياسية بمنطقة المضيق إذ صدرت الأوامر إلى الأساطيل المغربية المكلفة بحراسة المضيق والإغارة على السواحل الغرناطية ، بالعودة إلى قواعدها فوراً .

كذلك صدرت أوامر مماثلة إلى الجيوش المغربية المقيمة مع محمد الخامس في رندة ، تطلب منها التخلي عن مساعدته ولم يلبث الخامس أن وجد نفسه فجأة وحيداً خصوصاً بعد أن تخلى عنه أيضاً أقرباؤه واتباعه وفروا هاربين إلى غرناطة أو المغرب (2) واضطر الغني بالله في غمرة يأسه أن يترك مدينة رندة التابعة لبني مرين ، وأن يتجه بمن تبقى معه من رجال إلى إشبيلية لكي يتدبر الأمر مع صديقه بدرو الأول ملك قشتالة . ورأى الملك بدرو أن الموقف قد تعقد بسبب موت أبي سالم حليفها الثالث ، وبسبب اقتراب حلول فصل الشتاء ، فاعتذر لمحمد الخامس عن عدم إمكان مساعدته في هذه الظروف الصعبة ، ولكنه عمل على إكرامه وتطبيب خاطره ، وأنزله هو واتباعه في ضيافته بمدينة استجة ecija الجميلة المطلة على الثغور الغرناطية (1) .

وكان المغرب الأقصى في خلال ذلك الوقت يعاني فتنة داخلية ، إذ لم يرض الناس بسلطنة تاشفين بن أبي الحسن (الموسوس) ، الذي خلف أخاه أبا سالم ، لضعف قواه العقلية . ورأى الوزير المستبد عمر بن عبد الله أن يستبدله بابن أخيه أبي زيان محمد بن أبي عبد الرحمن بن أبي الحسن المقيم ببلاط ملك قشتالة بإشبيلية . واستعان الوزير المذكور في تنفيذ ذلك بمحمد الخامس نزيل استجة كي يتوسط لدى صديقه بدرو الأول في أن يسمح للأمير أبي زيان بالعبور إلى فاس وقبل محمد الخامس القيام بهذه الوساطة واشتراط في مقابل ذلك تسليمه مدينة رندة التي كانت تابعة لبني مرين ووافق الوزير عمر بن عبد

الله على هذا الشرط تحت تأثير صديقه المؤرخ المعروف عبد الرحمن بن خلدون ، وانتهى الأمر بأن نجحت الوساطة وانتقل محمد الخامس إلى رنذة كما اعتلى أبو زيان محمد الثاني عرش المغرب في صفر سنة 763 هـ (نوفمبر 1361 م) . (1)

وفي ربيع تلك السنة 763 هـ (1362 م) قام ملك قشتالة بغارات متلاحقة على حدود مملكة غرناطة ليشغل جيوشها ، بينما اخترق محمد الخامس الأراضي الغرناطية واستولى على الشقيرة *antequera* ولوشه *loja* ، وبليش *velez* ، وقمارش *comarex* ، والحمة *al hama* ، ثم استولى على مآلقه العاصمة الثانية لمملكة غرناطة . (2)

ولما رأى السلطان أبو سعيد البرميخو أنه لا فائدة من المقاومة صمم على الهرب فجمع ما في خزانته من أموال وذخائر ، وفر ليلاً إلى أشبيلية دون اتفاق سابق مع ملكها كما يقضي العرف بذلك (3) . وكان البرميخو يؤمل أنه بهذا العمل سوف يكتسب رضا الملك بدرو وعفوه وحمايته غير أن بدرو القاسي أو العادل لم يغفر للبرميخو ما اقترفه من آثام وذنوب فقتله كما قتل سبعة وثلاثين من فرسانه في طلياطة *tablada* بضواحي إشبيلية في رجب سنة 763 هـ (إبريل سنة 1362 م) (1) .

وحرص السلطان محمد الخامس بعد عودته إلى عرشه ، على أن يظل حليفاً مخلصاً لملك قشتالة ، وقد نوهت المصادر الإسلامية والمسيحية بهذه الصداقة ، وأشارت إلى أن ملك قشتالة بعث إلى محمد الخامس برأس البرميخو ورؤوس فرسانه الذين كانوا معه ، فأمر السلطان بتعليقها على أسوار قصر الحمراء .

وفي الوقت نفسه أعاد محمد الخامس إلى الملك بدرو جميع الأسرى القشتاليين الذين كانوا في مملكته كما قدم له الهدايا الفاخرة رمزاً لصداقته وامتنانه . (2) أما سلطان فاس أو زيان محمد ، فإنه حاول استرجاع رنذة إلى سلطان بني مرين وطالب السلطان محمد الخامس يردها مهدداً بمنع أسرته التي كانت لا تزال بالمغرب ، من المودة إلى غرناطة . ويذكر ابن الخطيب الذي كان مقيماً هو الآخر بالمغرب ، في ذلك الوقت ، أنه تدخل لدى المسؤولين في المغرب في هذا الشأن واستطاع حل هذه الأزمة والعودة إلى غرناطة صحبة الأمير سوف ولي عهد غرناطة وبقيّة الأسرة الملكية . ولم يذكر ابن الخطيب كيف حلت هذه المشكلة ، ولكن من الثابت أن رنذة ظلت تابعة لمحمد الخامس بدليل أن الخطابات التي تبودلت بينه وبين ملوك قشتالة وأراجون كانت تنص صراحة على اسم رنذة بين البلاد الخاضعة له (1) .

وكيفما كان الأمر ، فإن هذا الحادث لم يؤثر في العلاقات الودية خبين فاس وغرناطة إذ لم ينس أبو زيان محمد المجهودات التي بذلها كل من محمد الخامس وبدرو الأول في توليته عرش المغرب . ولهذا حرص على توطيد علاقة بهما ، فأوفد إليها في سنة 765 هـ (1362م) المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون كسفير له في هذا الغرض . وقد نجح ابن خلدون في مهمته ، قصد أول الأمر بلاط غرناطة حيث احتفى به السلطان محمد الخامس وأكرمه وأقطعته قرية البيرة بضواحي غرناطة وقد تسرى ابن خلدون بجارية أسبانية تدعى عند ، وبعث إليه صديقه الوزير الغرناطي ابن الخطيب برسالة من الأدب المكشوف في هذا الموضوع نقلها المقري في نفحه (2) .

ثم اتجه ابن خلدون بعد ذلك إلى بلاط اشبيلية حيث حظى بقاء بدر الأول ، ويقول ابن خلدون أن ملك قشتالة طلب منه البقاء في إشبيلية ووعده بأن يعيد إليه أملاك أجداده بإشبيلية ولكنه اعتذر وعاد إلى غرناطة ومنها إلى فاس (1) .

ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى شغل ملك قشتالة بثورة داخلية ضده قام بها أخوه الغير شرعي هنري دي تراستامارا **henrique de trastamara** واستطاع هذا الأمير الثائر أن ينال تأييد كل من الباب ، وملك فرنسا شارل الخامس ، وملك أراجون بدر الرابع ، الذين اعترفوا به ملكاً على قشتالة في مارس سنة 1366 ، وأمدوه بالمال والرجال لمعاونته ضد أخيه . وحاول ملك أراجون أن يضم الغرب الإسلامي إلى هذا الحلف ، فأرسل كتبه وسفراءه إلى كل من سلطان فاس وغرناطة محاولاً إقناعهما بمهاجمة قشتالة ، مقدماً لهما جميع التسهيلات الممكنة من مال وسلاح وأساطيل (1) وكان غرضه من وراء ذلك هو عزل مملكة قشتالة ، وأحاطتها بشبكة منت الأعداء . غير أن محاولات ملك أراجون في هذا السيل لم تلبث أن فشلت تماماً أمام الصدارة القوية التي كانت تربط كلا من ملك غرناطة وفاس بملك قشتالة بدر الأول .

هذا ولم يكتف السلطان محمد الخامس برفض التحالف مع أراجون بل سارع إلى إمداد صديقه بدر بقوة من خيرة فرسانه بقيادة القائد الغرناطي أبي الفرج رضوان المعروف في المصادر الأسبانية المعاصرة باسم دون فرج الكابثاني (1) **el - cabezani** ولعل معناها ، ذو الرأس الصلبة أو الكبيرة " . على أن الملك بدر ، رغم ذلك ، لم يستطع مقاومة الجيوش المتحالفة ضده ، واضطر إلى ترك البلاد لمنافسه ، والالتجاء إلى ملك البرتغال ثم ملك إنجلترا طلباً للمعونة الحربية .

وشعر ملك غرناطة بخطورة موقفه بعد أن تخلى عنه حليفه ، فكتب إلى ملوك المغرب والجزائر يعلمهم بحقيقة الموقف ويخبرهم بأن الجيوش الفرنسية والأساطيل الأراجونية قد وضعت خطة عدوانية تحت إشراف البابا للقضاء على أملاك المسلمين في المغرب والأندلس (7) . وكان لهذا النداء صدى عميق في نفوس أهل المغرب والجزائر ، إذ سارعت أساطيلهم محملة بالجنود والأقوات والأسلحة إلى غرناطة (1) . ثم قامت الجيوش الإسلامية مجتمعة تحت قيادة محمد الخامس بهجوم خاطف على المواقع الاستراتيجية القشتالية المهددة للملكة غرناطة قبل أن يستتب الأمر لذلك القشتالي الجديد هنري دي تراستمارا . واستطاع المسلمون في شعبان سنة 767 هـ (إبريل 366 م) الاستيلاء على حصني برغه bargo ، وباغو prigo ، اللذين كان القشتاليون يغزون منهما مدينة رندة وأحوازها (2) وفي الشهر التالي استولوا على حصن أشر (3 iznajar) . المنيع الذي يقع عند نقطة الالتقاء بين حدود المقاطعات الثلاث : غرناطة ، وقرطبة ، وإشبيلية ، كذلك استولوا على حصن السهلة بالقرب من جبل طارق . وقد لعبت الجيوش الجزائرية دوراً بارزاً في احتلال هذا الحصن الأخير (4) .

أما أراجون ، فإنها انتهزت هذه الفرصة ، وشنت هجوماً بحرياً على السواحل الغرناطية ، واستطاعت في ربيع الثاني سنة 768 هـ (أواخر سنة 1366 م) أن تأسر سفينة غرناطية متجهة إلى ثغر هنين (5) وعليها هدايا ثمينة أرسلها السلطان محمد الخامس إلى صديقه أبي حمر الثاني ملك تلمسان (1) . ورأى سلطان غرناطة ، بعد أن ضمن سلامة حدوده ، أن يلجأ إلى الحلول السياسية لمداواة أعدائه ودفع شرهم ، فأرسل سفراءه إلى ملكي أراجون وقشتالة (2) ، مبدياً لهما استعداداه لعقد سلم دائم معها أن توقفا عن مهاجمته ، ونجحت غرناطة في سياستها إذ فضل كل ن بدرو الرابع ملك أراجون وهنري دي تراستمارا ملك قشتالة قبول هذا العرض مؤقتاً حتى يتفرغاً لحل مشاكلهما الداخلية . (2)

وفي خلال ذلك الوقت كان ملك قشتالة المخلوع بدرو الأول يسعى لدى ملكي البرتغال وإنجلترا للحصول على معونة عسكرية تعيده إلى عرشه ولم يستطع ملك البرتغال تحقيق رغبته بينما وافق ملك إنجلترا ادوارد الثالث على مساعدته لأن بلاده كانت في حرب مع فرنسا (حرب المائة عام) فأمدّه بجيش بقيادة ابنه وولى عهده أمير الغال ادوارد الرابع المعروف بالأمير الأسود نسبة إلى لون درعه . وكان هذا الأمير في ذلك الوقت مقيماً في مدينة بوردو محارباً للفرنسيين في بلادهم (1) .

واستطاع الجيش الإنجليزي أن يحرز نصراً كبيراً على الجيوش الفرنسية والأرجوانية المتحالفة في موقعة ناجر **najera** شمال أسبانيا في شعبان سنة 768 هـ (إبريل 1267 م) (2) وبهذا النصر استعاد الملك بدرو عرشه من جديد ولكنه ظل مع ذلك في حالة حرب مع أخيه وحلفائه . ولقد ساء موقف الملك بدرو بعد ذلك عندما انسحب الأمير الإنجليزي بجيشه من أسبانيا نتيجة لمرضه ولعدم قدرة بدرو على دفع نفقات حملته .

واضطر بدرو أن يطلب مساعدة صديقة محمد الخامس بعد أن أصبح وحيداً في الميدان . ولم يتردد ملك غرناطة في إمداده بألفين من خيرة فرسانه بقيادة أبي الفرج رضوان وكان عرضه من ذلك أن يزيد الحرب اشتعالاً بين الأخوين فيكفا عن مناوأة المسلمين (2) .

ولم يكتف محمد الخامس بذلك ، بل انتهر فرصة انشغال الأخوين بحروبهما ، وقام بهجوم واسع النطاق على قرطبة وجيان سنة 770 هـ (1386 م) . وقد اشترك معه في هذا الهجوم جيش من المتطوعين المغاربة بقيادة شيخ الغزاة الأمير عبد الرحمن بن علي بن أبي يفلوسن ، وقد أشادت المدونات القشتالية (1) المعاصرة بشجاعة هذا القائد المغربي **abenfaluz** أي ابن يفلوسن . وذكرت أنه استطاع أن يخترق حصون قرطبة وأنه لولا هطول الأمطار وكثرة الأحوال لتمكن المسلمون من الاستيلاء على عاصمتهم القديمة (2) .

كذلك يشير ابن الخطيب عند كلامه عن الحملة التي شنها الغرناطيون على مدينة جيان **jaen** سنة 1367 م ، أن صيحة المسلمين في هذه الحرب كانت : " والثارات أهل الإسكندرية " (3) . وهذه الصيحة تعبر عن موجة الغضب التي أثارها بالأندلس تلك الغارة الوحشية التي شنها ملك قبرص بطرس لوزجنان **lusignan** على مدينة الإسكندرية سنة 767 هـ (1365 م) كما أنها تحمل في طياتها معاني الأخوة والتضامن بين الشعوب الإسلامية أمام الغدر والعدوان مهما بعدت بينها المسافات .

وكيفما كان الأمر فإن هذه الحروب التي قامت بين بدرو وأخيه هنري انتهت بهزيمة بدرو ومقتله عند بلدة مونتيل **montiel** وتولية هنري عرش قشتالة سنة 1369 م . ولما كان هنري ابناً غير شرعي لألفونسو الحادي عشر ، فقد أثار توليته معارضة ملوك البرتغال ونافاراً وإنجلترا ، إذ أن كلا منهم كان يرى نفسه أحق بملك قشتالة من هنري بسبب أوامر القربى التي تربطهم بالأسرة الملكية الشرعية . ولم تلبث هذه المعارضات أن تحولت إلى حروب بين الملك هنري ومعارضيه .

ولقد انتهز السلطان محمد الخامس هذه الفرصة وعقد حلفاً مع ملك البرتغال فرناندو الأول ، ومع سلطان المغرب عبد العزيز بن أبي الحسن المريني (768 هـ - 774 هـ = 1366 - 1372 م) .

على أن يقوم ملك البرتغال بمهاجمة قشتالة من جهة غاليسيا في الشمال (6) ، بينما يهاجم سلطان غرناطة مدينة الجزيرة الخضراء في أقصى الجنوب يعاونه في ذلك أسطول سلطان المغرب من جهة البحر (2) ونجحت هذه الخطة ، وسقطت الجزيرة الخضراء في أيدي المسلمين في ذي الحجة سنة 770 هـ (يوليو 1369 م) وإن كان السلطان محمد الخامس قد عمد إلى تدمير حصونها وأسوارها خوفاً من سقوطها في يد العدو مرة أخرى (1) .

ولقد انتهت هذه الأحداث المتشابكة بعقد صلح دائم بين كل من : قشتالة وأراجون وبين غرناطة والمغرب في سنة 771 هـ (1369 - 1370 م) وتبودلت السفارات الودية بينهما .

على أنه يبدو أن انتهاء المشاكل والأخطار الخارجية بالنسبة لغرناطة ، كاف من العوامل التي شجعت وزيرها وراسم سياستها لسان الين بن الخطيب على الفرار إلى المغرب حينما أحس بكثرة السعيات ضده ، وفساد الجو بينه وبين سلطانه . وقد صرح ابن الخطيب نفسه بأنه لم يغادر غرناطة إلا بعد أن وطد أمورها ، وتأكد السلم بينها وبين جيرانها (2) .

غير أنه يلاحظ أن ابن الخطيب كان في أواخر حكمه قد ربط سياسة غرناطة بعجلة قاس ، وحرص على تنفيذ أوامر سلطان المغرب عبد العزيز المريني ، وتحقيق رغباته في كل ما يطلبه من غرناطة (3) . وكان هدف ابن الخطيب من وراء ذلك هو سكنى المغرب (4) والاستقرار فيه إذا ما عزل عن منصبه . وقد أثارت هذه السياسة شكوك السلطان محمد الخامس - الذي كان يخشى من أطماع السلطان المريني في بلاده خصوصاً بعد أن ضم المغرب الأوسط إلى ملكه وأصبح قوة يخشى خطرهما . ثم جاءت الأحداث بعد ذلك مؤكدة لهذه المخاوف والشكوك ، إذ يقول ابن خلدون : " فأجمع - ابن الخطيب - التحول عن الأندلس إلى المغرب ، واستأذن السلطان في تفقد الثغور ، وسار إليها في لمسة من فرسانه ، فلما حاذى جبل الفتح (1) فرضة المجاز إلى العدو مال إليه ، فخرج قائد الجبل لتلقيه ، وقد كان السلطان عبد العزيز أو عز إليه بذلك ، وجهز له الأسطول من حينه ، فأجاز إلى سبتة ، وتلقاه ولاتها بأنواع التكرمة وامتثال المراسم ، ثم سار لقصد السلطان ، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة (1371 م) بمقامه من تلمسان ، فاهتزت له الدولة ، وأركب

السلطان خاصته لتلقيه ، وأحله من مجلسه بمحل الأمن والغبطة ، وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبي مدين سفيراً إلى صاحب الأندلس في طلب أهله وولده ، فجاء بهم على أكمل حالات الأمن والتكرمة ، ثم أكثر المنافسون له في شأنه ، وأغروا سلطانه بتتبع عثراته وإبداء ما كان كامناً في نفسه من سقطاته ، وإحصاء معايبه . وشاع على السنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزندقة أحصوها عليه ونسبوها ، ورفعت إلى قاضي الحضرة أبي الحسن النياهي ، فاسترعاها ، وسجل عليه بالزندقة ، وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه ، وبعث القاضي أبو الحسن إلى السلطان عبد العزيز في الانتقام منه بتلك السجلات ، وإمضاء حكم الله فيه ،

عن ذلك ، وأنف لذمته أن تخفر ولجواره أن برد " قال لهم : هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ؟ وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ا كان في جوارى ثم وفر الجراية والإقطاع له ولبنيه ولمن جاء من أهل الأندلس في جملته (1)

ويضيف ابن خلدون بعد ذلك بأن ابن الخطيب حرض السلطان عبد العزيز على ملك الأندلس ، وحمله عليه ، وتوعدوا لذلك عند رجوعه من تلمسان إلى المغرب ، ونمى ذلك إلى ابن الأحمر (محمد الخامس) فبعث إلى السلطان عبد العزيز بهدية لم يسمع بمثها (2) .

زغير أن السلطان عبد العزيز لم يعيش بعد ذلك طويلاً إذ مات سنة 774 هـ (1372 م) وخلفه ابنه زيان محمد السعيد وكان طفلاً في الرابعة من عمره ، فاستبد بالأمر وزيره أبو بكر بن غازي الذي كان صديقاً لابن الخطيب .

على أن هذا الوضع السياسي الجديد الذي اقتضى إقامة سلطان طفل على عرش المغرب ، قد أتاح الفرصة لظهور عدد كبير من الأمراء الطامعين في الملك ، وكانت النتيجة أن دبت الفوضى والحروب الأهلية في المغرب ، واستولى بنو عبد الواد على تلمسان والمغرب الأوسط ففقد المغرب بذلك وحدته وقوته . وهنا يجد السلطان محمد الخامس الفرصة سامحة لتحطيم سياسة ابن الخطيب وأبعاد الخطر المريني عن بلاده . فعمل أولاً على تأييد استقلال بني عبد الواد - أعداء بني مرين - بتلمسان ، ثم ألغى من مملكة غرناطة منصب شيخ الغزاة الذي كان يشغله أحد أمراء بني عبد الحق (أبو بني مرين) وتولى هو وأولاده قيادة الجنود الغزاة أو المتطوعين المغاربة في غرناطة ، ثم أخذ بعد ذلك يتدخل في شؤون العدو المغربية فبعث ببعض الأمراء المرينيين المقيمين عنده إلى المغرب ملوحاً لهم بالعرش المغربي ومقدمات لهم جميع المساعدات الممكنة .

وواضح أن هدف السلطان محمد الخامس من وراء ذلك هو إثارة الفتن والقتل ضد الوزير المستبد بحكم الغرب أبي بكر بن غازي صديق ابن الخطيب .

" أول أمير أرسله سلطان غرناطة ، هو الأمير عبد الرحمن ابن يفلوسن المريني الذي سبق أن سجنه في غرناطة بإيعاز من السلطان عبد العزيز .

ونزل هذا الأمير بساحل غساسه أو بطوية عند مصب وادي ملوية بنواحي مليلة ، واتخذ من الجبال هناك قاعدة عسكرية لقواته وأعلن عن مطالبته بعرش المغرب . وفي نفس هذا الوقت اتجه السلطان محمد الخامس بجيوشه إلى جبل طارق الذي كان تابعاً لبني مرين في ذلك الوقت ، فشدد الحصار حوله وحشد جيوشه على السواحل الأندلسية مظهراً العبور إلى المغرب (1) .

وأمام هذا الخطر المزدوج ، رأى الوزير ابن غازي أن يعمل على حماية مدينة سبته ، قفل العدوتين ، من أي هجوم يقع عليها من الأندلس . فأرسل ابن عمه محمد بن عثمان بن الكاس على رأس جيشه كبير لحاية هذه المدينة وما حولها من قواعد عسكرية بما في ذلك جبل طارق ، بينما اتجه هو إلى محاربة المطالب بعرش المغرب الأمير عبد الرحمن ابن يفلوسن .

ورأى السلطان محمد الخامس أن يلجأ إلى سياسة الحيلة والدهاء لتنفيذ أغراضه ، فاتصل من جنوب الأندلس يحاكم سبته الجديد محمد ابن عثمان بن الكاس ، واستطاع إقناعه بأن من الخير للغرب وأهله أن يكون سلطانه رجلاً راشداً بدلاً من هذا الطفل الذي لا يدرك شيئاً ، واتفق معه على إقامة الأمير المريني أبي العباس أحمد بن أبي سالم سلطاناً على المغرب ، على أن يكون هو - أي ابن الكاس - وزيره في المستقبل ، ووعده بكل المساعدات المادية والعسكرية لتنفيذ هذه الخطة . وفي مقابل ذلك اشترط محمد الخامس على محمد بن الكاس أن يسلمه ثلاثة أشياء :

(1) جبل طارق .

(2) لسان الدين بن الخطيب .

(3) الأمراء المرينيين .

وتنفيذاً لهذه الاتفاقية سلمت قاعدة جبل طارق إلى سلطان غرناطة الذي أرسل بدوره جيشاً غرناطياً صحبه الأمير أبي العباس ووزيره محمد بن عثمان بن الكاس لاحتلال عاصمة المغرب فاس (1) .

وعلم الوزير أبو بكر بن غازي بخيانة ابن عمه محمد بن عثمان ، فأسرع لملاقاته ومنعه من دخول فاس ، ولكنه هزم عند جبل زرهون سنة 776 هـ (1374 م) .

وهكذا أصبح المغرب تحت رحمة الأميرين المرشحين لعرش المغرب : أبي العباس أحمد ، وعبد الرحمن بن يفلوسن وهما من أحفاد السلطان أبي الحسن المريني . وبطبيعة الحال قام نزاع بين هذين الأميرين حول أحقية كل منهما في عرش المغرب ، واضطر سلطان غرناطة إلى التدخل بينهما لتسوية هذا النزاع ، فطلب من عبد الرحمن الخضوع لأبي العباس ومساعدته في احتلال فاس على أن يستقل هو بحكم عاصمة المغرب الثانية مراكش .

وهكذا صار السلطان محمد الخامس هو الحاكم الحقيقي للمغرب يولي ويعزل من يراه من أمراء بني مرين . وكان طبيعياً أن يكون نتيجة هذا التدخل هو القبض على غريمه لسان الدين وقتله وحرقة بعد امتحانه وتعذيبه ومصادرة أمواله وضياعه وذلك سنة 776 هـ (1374 م) (1) .

ولم يكد السلطان أبو العباس أحمد تستقر له الأمور في فاس حتى طمع في توحيد ملك بني مرين تحت سلطانه ، فدخل في صراع طويل مع منافسه عبد الرحمن بن يفلوسن سلطان مراكش ، وانتهى الصراع بين هاتين العاصمتين بانتصار فاس على مراكش ومقتل عبد الرحمن سنة 784 هـ (1382 م) . ولم يكنف أبو العباس بهذا النصر الذي جعله سلطاناً بدون منازع على جميع المغرب الأقصى ، بل اتجه بصره نحو المغرب الأوسط يريد ضمه إلى ملكه كما كان الحال في عهد آباءه . واستنجد سلطان تلمسان أبو حمو الثاني بسلطان غرناطة محمد الخامس الذي كان يحرص بدوره على بقاء المغرب الأوسط مستقلاً عن نفوذ المرينيين . ولهذا حاول سلطان غرناطة إقناع سلطان فاس بترك مشاريعه التوسعية في المغرب الأوسط ولكن دون جدوى واستولى أبو العباس على تلمسان وفر صاحبها أبو حمو إلى الصحراء . وكان رد سلطان غرناطة على هذا العمل ، أن أرسل إلى سبته أميراً مرينياً من أبناء أبي عنان يدعى موسى ، وزوده بالرجال والأموال والأسلحة كما أرسل معه كوزير له مسعود بن ماساي ، واستطاع موسى أن يحتل العاصمة فاس ويعلن نفسه سلطاناً على المغرب سنة 786 هـ (1384 م) كما أعلن في الوقت نفسه أن مدينة سبته تابعة لسلطان غرناطة . (1) أما أبو العباس فإنه لم يلبث أن قبض عليه في تلمسان ، وأرسله أسيراً إلى غرناطة حيث عامله السلطان محمد الخامس معاملة كريمة حسنة .

ولم يعيش السلطان موسى أكثر من سنتين ، إذ مات سنة 788 هـ (1386) ، وحاول سلطان غرناطة أن يقيم مكانه أميراً مرينياً آخر يدعى بالواثق ، ولكن

الوزير مسعود بن ماساي ثار على هذا الوضع وقبض على هذا السلطان الجديد وعلى جميع من معه من الجنود الغرناطيين ورفض أن يطلق سراحهم إلا بعد تسليم سبتة . ورد سلطان غرناطة على هذا التهديد بأن أرسل المغرب السلطان المخلوع أبا العباس أحمد ليكون سلطاناً للمرة الثانية ، وأرسل معه جيشاً أندلسياً بقيادة أحد قواده البارزين ، وهو أبو الفرج رضوان الذي سبق له أن اشترك هو وفرسانه في صفوف ملك قشتالة بدور الأول ضد أخيه هنري وحلفائه الأراجونيين والفرنسيين واستطاع أبو العباس بهذه القوة الغرناطية أن يستولي على فاس ويقتل الوزير ابن ماساي ويعلن نفسه سلطاناً على المغرب سنة 789 هـ (387 م) . (1)

ولقد حرص السلطان أبو العباس في هذه المرة على أن يوطد علاقاته مع سلطان غرناطة ، فأخذ يتبادل معه الهدايا والسفارات ، ويفهم من قصيدة للشاعر الغرناطي المعاصر عبد اللن بن زمرك (ت 796 هـ) ، أن السلطان محمد الخامس زار مدينة سبتة (2) في خلال هذه الفترة مما يدل على قوة نفوذه في منطقة المضيق .

ثم توفي محمد الخامس الغني بالله سنة 793 هـ (1391 م) وخلفه على عرش غرناطة ابنه يوسف الثاني ولا شك أن هذه الوفاة قد أثارت مطامع أبي العباس القديمة ، فيشير السلاوي إلى أنه استطاع مد نفوذه إلى تلمسان بالمغرب الأوسط ، وأنه يطمع في مملكة غرناطة نفسها ، ولكنه مات قبل أن يدرك غرمنه سنة 796 هـ (1293 م) (1)

وتوالى على عرش غرناطة والمغرب عدد من ملوك بن مرين ، لم تكن لهم قوة أسلافهم ولا حذرهم وحيطهم وشعورهم بالخطر المحدق بهم فعاشوا عيشة ترف ولهو . ومن تصارييف القدر العجيبة أنه في الوقت الذي أخذ الضعف فيه يدب إلى كل من غرناطة وفاس ، كانت القوة قد بدأت تتجمع في كل من أسبانيا والبرتغال .

فالبرتغال قد سرت فيه نهضة حربية وملاحية كبيرة وخاصة منذ عهد الملك خوان الأول (1385 - 433 م) مؤسس أسرة أفيس (2 avis) التي حكمت البرتغال بعده . ولقد أبدى هذا الملك اهتماماً خاصاً بالبحرية والأساطيل ، واحتلال القواعد البحرية التي تسيطر على منافذ البحار وطرق التجارة في منطقة المضيق .

وانتهز هذا الملك فرصة اضطراب الأحوال في المغرب ، وهاجم بنفسه مدينة سبتة ceuta بأسطول كبير من مائتين وعشرين سفينة ، واستولى عليها وعلى منطقة جباله في أغسطس سنة 1415 م (818 هـ) ، وفر حاكمها

المدعو صلاح بن صلاح ، وقام أمكانه حاكماً من قبله اسمه بدور منسس

. fedro meneses

وذكر محمد القادري في كتابه نشر المثاني ، قصة في كيفية استيلاء لبرتغاليين على سبته ، تشبه قصة قيصر (1) مع الزبء قال رأيت بخط من يظن به التثبث والصدق أن النصارى جاءوا بصناديق مقلدة يوهمون أن بها سلعاً وأنزلوها بالمرسة كعادة المعاهدين ، وذلك صبيحة يوم الجمعة من بعض شهور سنة ثمان عشرة وثمانمائة وكانت تلك الصناديق مملوءة رجالاً عددهم أربعة آلاف من الشباب المقاتلة ، فخرجوا على حين غفلة من المسلمين واستولوا على

البلد (2)

وحاول المسلمون استعادة هذه القاعدة الهامة سنة 1419 م (822 هـ) ، فهاجمها سلطان المغرب أبو سعيد المريني من البر ، بينما هاجمها سلطان غرناطة محمد الثامن من البحر ، ولكن البرتغاليون تمكنوا من إحباط هذه المحاولة .

وولى بعد خوان الأول ابنه الأكبر أدوارد duarte سنة 1433م الذي حاول احتلال طنجة ، وأرسل لهذا الغرض حملة بقيادة أخويه دون فرناندو ، ودون هنري سنة 1437 م (841 هـ) ونزلت الحملة في مدينة سبته ثم اتجهت إلى طنجه ، وهاجمها هنري من ناحية البر بينما هاجمها أخوه فرناندو من البحر (1) . وخشي المسلمون أن تتكرر مأساة سبته من جديد فدافعوا عن المدينة دفاع المستميت . وكان سلطان المغرب في ذلك الوقت طفلاً صغيراً يدعي عبد الحق بن أبي سعيد المريني ، ويدير شئون دولته وزيره أبو زكريا يحيى الوطاسي المعروف بأبي زكري . ولم يتردد هذا الوزير حينما بلغته أنباء طنجة في إرسال الإمدادات إلى المدينة المحاصرة واضطرت القوات البرتغالية أمام شدة المقاومة إلى الانسحاب إلى سبته ولكن الجيوش المغربية تمكنت من اللحاق بها وتطريقها وأسر الأير فرناندو وعدد كبير من البرتغاليين . واشترط المغاربة في مقابل إطلاق سراح الأسرى ، أن ينسحب البرتغاليون من سبته . ورأى ملك البرتغال أن تسليم سبته تضحية لا تقدر بثمن ، ولهذا رفض هذا العرض ، وبقي أخوه فرناندو في الأسر إلى أن مات بفاس في 5 يونيو سنة 1443م (2) .

وفي خلال ذلك الوقت ولى عرش البرتغال الملك الفونسو الخامس الذي سار على سياسة أسلافه التي ترمي إلى السيطرة على مضيق جبل طارق واحتلال القواعد المطلة عليه واتجهت أنظار هذا الملك الجديد نحو ميناء القصر مصمودة الذي يقع بين سبته وطنجة .

وكان هدفه من احتلال هذا الموقع هو التمهيد لاحتلال طنجة بالإضافة إلى تدعيم النفوذ البرتغالي في سبته .

وفي أكتوبر سنة 1458م خرج الملك الفونسو الخامس على رأس حملة مكونة من 280 سفينة و 25 ألف جندي ، واستولى على القصر الصغير بدون صعوبة كبيرة وعين عليها حاكماً يدعي (1) **duarte de meneses** ثم رأى الملك البرتغالي أن يحاول من جديد احتلال طنجة ، فوجه إليها ثلاث حملات فيما بين سنتي 1463 - 1464م قاد بعضها بنفسه ، ولكنها فشلت كلها ولا سيما الحملة الثالثة التي قتل وأسر فيها عدد كبير من خيرة رجاله حتى صارت طنجة ، على حد قول دي كاستري ، مقبرة للنبلاء البرتغاليين (2) . على أن المغرب لم يلبث بعد قليل أن قتل سلطانه عبد الحق المريني في رمضان سنة 869 هـ (مايو سنة 1465 م) وبموته انقرضت الدولة المرينية في المغرب ، وقام نزاع على الملك بين الشريف الإدريسي محمد بن علي وبين قائد مدينة أصيلاً **arizla** محمد بن الشيخ الوطاسي وهو ابن الوزير السابق أبي زكري .

ابن خلدون ونظريته الاجتماعية في الإسلام

قبل إن نطلع على النظريات الحديثة في علم الاجتماع لابد من الرجوع إلى بعض النظريات والرواد العمالقة في هذا العلم هذا في جانب إما في الجانب الآخر لابد من الاستناد إلى قاعدة نظرية اجتماعية لها جذور وهي نظرية ابن خلدون تتمتع بهذه الصفة بالإضافة إلى أنها لا زالت لصيقة وذات علاقة ببعض النظريات الحديثة في علم الاجتماع ولعلنا لا نجانب الحقيقة في ذلك حول الدور الذي قام به هذا المؤرخ العربي ابن خلدون في وضع نظرية علمية للتاريخ وطورت كثيرا هذا العلم وقبل الخوض في دورة العلمي في الاجتماع والكتابة لابد إن نعرف من هو ابن خلدون : هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون عربي الأصل ولد في تونس سنة 736 هجرية 1332 ميلادية وتوفي سنة 808 هجرية 1406 ميلادية درس في تونس وتعلم أصول الفقه والأدب والنحو والتاريخ على يد والده وبعد ذلك ذهب إلى المدارس النظامية في تونس لإكمال تعلمه في علوم الفلسفة والتاريخ والأدب خلال مكوثه في تونس التقى بإعداد كبيره من العلماء والمفكرين العرب من مختلف المناطق في ذلك الوقت ولما بلغ

العشرين من العمر سافر إلى المغرب الأقصى وتقلد فيه عدة مناصب ثم بدأت رحلاته وأسفاره بين المغرب العربي والغرب الإفريقي والأندلس ومصر والشام والحجاز وقد استفاد فائدة كبيرة من أسفاره ورحلاته هذه وهي التي ساعدت على صقل مواهبه وقدراته وتكوين خصائصه وابن خلدون مفكر ومؤرخ متزن لا يميل على الهوى بل نراه يسجل استنتاجاته كلها بما هو مشاهد في الاجتماع الإنساني وبما عرفه أو بلغه من الأحوال أو بما تضافرت عليه الأوله ومن الأمور التي دفعت ابن خلدون للتأليف الأخطاء التي وقع بها المؤرخون منذ كتابة التاريخ إلى زمانه وعليه سوف نشير إلى الأهمية التاريخية لفكر ابن خلدون الاجتماعي بمقدار ما يسعنا الوقت بالنسبة للمحاضرات القادمة وحسب متطلبات المادة العلمية للتوضيح أو الإضافة

وهنا تستطيع إن نلخص الأسلوب الذي استعمله ابن خلدون في كتابه وذلك عن طريق المقارنة بين طريقة كتابة للتاريخ والطريقة التي كتب بها المؤرخون الذين سبقوه أو الآخرين والذي انتقد أسلوب كتابتهم أو دراستهم للتاريخ أمثال الطبري وابن الأثير وإسحاق والمسعودي وابن هشام والغزالي وبين الكتابات التاريخية التي دونها في كتابه المقدمة تجزيه الثاني والثالث حيث تناول في الجزء الثاني منه تاريخ العرب المسلمين وفي الجزء الثالث تناول فيه تاريخ البربر

فالتاريخ الذي كتبه ابن خلدون والذي يعتبر المؤرخ الأول بحق يتعلق بظهور الممالك والدول والحضارات وسقوطها وكذلك ظهور الشخصيات التاريخية كالزعماء والمفكرين والحكام والأمراء والقادة وكيفية أفول نجم الحكام والأمراء والملوك وسقوطهم وأيضا نشوب الحروب والمعارك ونتائجها وكذلك التسلسل الزمني والتاريخي للدول التي ظهرت على مسرح التاريخ وعندما درس ابن خلدون التاريخ تطرق إلى جميع هذه الأشياء ومن ثم أضاف إليها معلومات جديدة وهي تاريخ الحضارة العربية الإسلامية وتشتمل عليه الحضارة من عناصر أساسية مثل الاقتصاد والعملية أو النقود والتجارة والزراعة والصناعة والتطبيقات الاجتماعية والتي كانت موجودة في الإمارات والدول والممالك القديمة إضافة إلى دراسة الفنون والعلوم والأدب والفلسفة والدين والأخلاق وكذلك قام إضافة إلى ذلك بدراسة المدة من حيث السكان والزيادة والنقصان فيها وكذلك دراسة العوامل التي أدت إلى نشوئها والعوامل التي أدت إلى انهيارها وسقوطها وانحلالها

إن قيام ابن خلدون بدراسة للربط التاريخي الجدلي الموزون بين حالة وحالة أخرى فعندما درس ابن خلدون للعوامل التي أدت إلى سقوط دولة بني أمية واعتبر دولة بني العباس امتداد تاريخي لدولة بني أمية بحيث لا يوجد فصل

تاريخي قاطع بين الدواتين بينما كتابات المؤرخين الذين قام بنقدهم ابن خلدون تفصل الواقع أي أنها لا تجعل للواقع دور بين الإمارات والدول والممالك والتي

ظهرت على المسرح الحياة

فعليه إن هناك أسلوب كان قد استعمله ابن خلدون في كتابة التاريخ وهو انه درس النظم أو مجالات العمران كما هو يسميها أي ابن خلدون والحضارات والدول والإمارات والممالك والتكامل بين النظام الأسري والدين كما انه ارجع العوامل التاريخية على عوامل جغرافية وبيئية وطبقية وسياسية واقتصادية وعسكرية

وفي كل هذا لم يدخل ابن خلدون أهوائه ونزعاته وميوله اتجاه رأيه في الحاكم أو الأمير أو أين من هؤلاء لأي سبب عند كتابة التاريخ بل كتب التاريخ من اجل الحقيقة علما أراد الحكام إن يكتب ابن خلدون التاريخ وفقا لتصوراتهم لكنه رفض

• المنهج التاريخ عند ابن خلدون :

فإننا نرى أنه يقوم على ثلاثة محاور رئيسية

1. العلاقة بين السبب والنتيجة إذا لكل شيء سبب فلا توجد حادثة

تاريخية ما لم يكن لها سبب وعليه فان ابن خلدون يربط بين السبب والمسبب ويركز على الموضوع التاريخي الاجتماعي

2. التشابه بين المجتمعات الإنسانية

3. التفاضل بين المجتمعات الإنسانية

• المنطق التاريخي

في الواقع باستثناء مقدمة ابن خلدون التي جاءت نتيجة عبقرية تجاوزت حدود عصرها وباستثناء فيكو الايطالي الذي لم يكن إلا إرهابا من الإرهاسات التي سبقت هيجل لم يكن للتاريخ فلسفة قبل هيجل ولم يكن ثمة شيء اسمه المنطق التاريخي

إما وقد عاش العالم في القرنين الأخيرين بشكل خاص عصرا حافلا بالتطورات والتغيرات السريعة أصبح من المحتم النظر إلى التاريخ لا من حيث هو حركة دائمة فحسب بل من حيث هو الحقيقة الأساسية في كل موضوع يتصل بالإنسان من قريب أو بعيد

فما كان يبدو حقائق ثابتة حيث كان الإنسان عمره كله دون إن يلحظ تغيرا أساسيا في حياته يميزها عن حياة إبنائه وأجداده وعن حيا أبنائه وأحفاده أصبح قابلا للتغير والتطوير بل للانقلاب الجذري في عموم الحياة بحيث لم تبقى حقيقة ثابتة سوى حقيقة التغير نفسها لم تعد ثمة مقدسات أخلاقية غير قابلة للتغيير لم يعد ثمة علم غير قابل للتغيير لم يعد ثمة مسلمة اجتماعية وسياسية

وثقافية وقانونية غير قابلة للتغير وأصبح معنى أي مفهوم من هذه المفاهيم معنى تاريخيا بمعنى انه جزء من تاريخية لها ما قبلها وما بعدها أصبحت الحقيقة حقيقة أي موضوع هي الحقيقة تتغير وتتطور حتى الكلمات نفسها وهي التي تبدو وكأنها وضعت لتدل على مدلول ثابت المفهوم والمحتوى وأصبحت حروفها هي الثابتة إلى حد كبير في الوقت الذي تغير فيها مدلولها تغير كبير فالدين والالديمقراطية ولا القانون ولا الأخلاق تحمل نفس المفاهيم في كل الأوقات وفي كل العصور ديمقراطية أثينا غير ديمقراطية البرلمان البريطاني غير ديمقراطية روسيا شورى الصحابة رضي الله عنهم غير شورى العرب المسلمين لان أخلاق الصحابة غير أخلاق المماليك غير أخلاق العصر العثماني غير أخلاق القرن العشرين أو الحادي والعشرين الكلمة تبقى في كل هذا ثابت ولكن مدلولها في تغير مستمر وليس سهلا على الإنسان لن يقبل هذه الحقيقة في يسر فهو من اجل إن يعيش حياته اليومية ومن اجل إن يفهم ومن اجل إن ينجح في حياته العملية مضطر إلى التمسك بشيء ثابت حتى ولو لم يكن في ثبات هذا الشيء الحقيقة كل الحقيقة

إن عقل الإنسان في رأي برغسون مضطرا إلى تثبيت ما لا يثبت من اجل إن يفهمه عقليا ومن اجل إن يمتد علميا على الرغم من إن هذا التثبيت فالعقل في راية عاجزا عن الانطلاق مع الزمن الذي هو الحقيقة الأساسية انه مضطر إلى إن يكتفي بصورة فوتوغرافية ثابتة لعملية مستمرة وان يستنتج من هذه الصور التي تتضمن الحقيقة قوانينه ومعلوماته وإدراكه العام وتحقيق الحقيقة والمنطق وعلى الإنسان إن يستخلص المنطق التاريخي فالتاريخ في رأي كروتشه ليس حوادث التاريخ وإنما هو عملية فهم وإدراك تحفزها مقتضيات الحياة اليومية وهو ليس منفصلا عن الحياة العملية فالتاريخ وفكره يولد من خلال عملية جدلية دقيقة ومعقدة من عواطف الحياة العملية ليتعالى عليها ويتحرر منها ويصل إلى حكم صافي وعليه فان النظرية الكلية الشاملة تستدعي بالضرورة النظرة التاريخية الشاملة

تأثير العرب الاجتماعي في اسبانيا وأوروبا

بعد إن دانت اسبانيا للمسلمين في معظمها على يد القائدين العربيين موسى بن نصير وطارق بن زياد حاول من جاء بعدهم من الولاة نشر الإسلام فيما وراء جبال البرنس في غاليا " فرنسا " فاستطاعوا في فتره وجيزة فتح إقليم سبتمانيا واتخذوا من مدينة " اربونه " سنة 99 هجرية قاعدة عربية إسلامية جديدة أقام بتا السمح بن مالك بن حولان وذلك سنة 102 هجرية وهي أول حكومة إسلامية لولاية جديدة خلف جبال البرنس ووزع الأرض على العرب والسكان المحليين وفرض الجزية على المسيحيين الذين ترك لهم حرية العبادة والاحتكام إلى شرائعهم وبعد استشهادهم في معركة تولوشه " أي تولوز " عاصمة ولاية اکتبانيا إلى الغرب من إقليم سبتمانيا استطاع خليفته على الأندلس عتبة بن سميم الكلبى وذلك سنة 107 هجرية إن يند بنفوذ الدولة العربية الإسلامية إلى معظم جهات غاليا الجنوبية الشرقية لا سيما إقليمي سبتمانيا وبروفانسى حتى مدينة اوتان في قلب غاليا وربما كان هدف العرب من هذه الفتوحات لا ينحصر في نشر الإسلام فحسب بل يهدف أيضا إلى حماية السيادة العربية الإسلامية في الأندلس من مؤامرات أعداء الإسلام فيما وراء جبال البرنس من الأمراء والزعماء المستقلين عن السلطة الميروفنجية المركزية الذين كانوا في كل الأوقات يولون الممالك الشمالية الاسبانية على مقاومة الوجود العربي في الأندلس يقدمون لهم العون والمساعدة المادية والبشرية وكان من أكثر هؤلاء عدوانية على العرب والمسلمين في الأندلس الدوق اودو اکتبانيا والذي عرف بولاته التخريبية والعدوانية والمتكررة ضد العرب المسلمين في الأندلس وفي دعمه لجميع العناصر الخارجة على النظام والقانون والسيادة العربية في شمال اسبانيا وعندما عين عبدا لرحمن الغافقي واليا على الأندلس وذلك سنة 113 هجرية كان يمثل " تصميما عربيا جديدا على سحق هذه البؤر ما وراء جبال البرنس ونشر الإسلام فيها وذلك لما عرف عن الغافقي في الأندلس من مواهب قيادية عظيمة في مجال الإدارة المدنية والعسكرية خلال عمله مع السمح بن مالك في غزواته لبلاد الفال وبعد استشهاد الأخير في تولوز

ويعتبر تعين عبد الرحمن الغافقي عهدا جديدا في الأندلس حيث توحدت فيه كلمة القبائل العربية الإسلامية وظهرت همة عالية للجهاد واخذ الثار لهزيمة العرب المسلمين في تولوز حملة تأديبية ضد الدوق اودو أمير اکتبانيا بدأت الحملة التي يقودها القائد العربي المسلم عبد الرحمن الغافقي ضد الأمير اودو في أواخر شعبان سنة 114 هجرية بجيش يقارب الثمانون ألف مقاتل وكانت خطة سيره اختراق إقليم إلباسك سالكا طريقا وعرا محاذيا للمحيط الأطلسي

وكان يستهدف من ذلك قلب ولاية اكتباتيا وعاصمتها بوردو وبعد بنجاح الذي حققه الغافقي في اكتساح ولاية اكتباتيا وعاصمتها بوردو جعل اودو ينسحب إلى الشمال مهزوما اضطر بسبب الهزيمة الاستنجد بشارل مارتل حاجب الدولة الميروفنجية الذي كان هو الآخر يتحين الفرصة لقهـر اودو وإخضاع اكتباتيا لسيطرته وبعد هذا النصر العظيم استمر عبد الرحمن الغافقي بالتقدم مع قواته من تمكن من الوصول إلى الثور واحتلها ثم قرر التراجع عنها بسبب الظروف المناخية حيث الإمطار الخريفية الغزيرة الأرض الرخوة الطينية والمستنقعات الكثيرة وفيضانات الأنهار بسبب الإمطار والغابات الكثيفة والتي يصعب التقدم من خلالها ولا سيما وان الحملة قد أدت الغرض المطلوب وهدفها الأساس الذين كان تأديب الدوق اودو أمير اكتباتيا وعند عودته من خلال الطريق الروماني القديم بين مدينة تور وجوانب على نهر كلين على فرعي نهر اللوار اصطدمت قوات عبد الرحمن الغافقي بقوات شارل مارتل والذي كان قد كمن له على الطريق ودارت بينهما مناوشات دامت سبعة أيام استشهد فيها عبد الرحمن الغافقي بسهم مجهول مما دفع العرب المسلمين بالانسحاب ليلا وبشكل منظم إلى القواعد في سبتمانيا وقد سميت العركة تلك والمنطقة التي وقعت فيها ببلاط الشهداء عند العرب تيمنا بالشهداء الذين سقطوا فيها بعد انتهاء هذه الحملة التاديبية التي هادها البطل العربي المسلم الشهيد عبد الرحمن الغافقي أصبحت هذه المعركة رهينة روايتين متناقضتين كما يقول الأستاذ الدكتور محمد سعيد رضا " الرواية العربية الإسلامية التي تجاهلتها و عدتها مجرد مناوشات اعتيادية وقعت بين جيشين متحاربين استشهد فيها القائد بطريق الصدفة والرواية الأوروبية التي تشوبها المبالغة والتحامل والتعصب كما تنقصها الدقة ويضفي عليها الطابع الأسطوري الخرافي لذا جاءت مليئة بالأغلاط كزعمها إن عدد قتلى المسلمين بلغ " 1375 " ألف قتيل حيث قتل من الفرنج سوى 1500 شخص ذلك ببركة البابا الذي أرسل ثلاثة مناديل من المناديل المستخدمة في المذبح من التبرك بتا فقطعت إلى أجزاء صغيرة وأطعمت للجند كي تحميهم بركتها من الجرح أو القتل عملا بشعوذة الكنيسة ورجالها في العصور الوسطى وتمجيذا لأثرها في الحملات التي كانت تشنها أوروبا ضد الإسلام والمسلمين ومما يدحض هذه المزاعم إن الرواية الأوروبية تدعي في بعض جوانبها بان جيوش الفرنج كانت أكثر عددا وشجاعة من جيوش المسلمين خاصة وان جميع المصادر تؤكد إن عدد المسلمين الذين دخلوا اسبانيا منذ الفتح وحتى تاريخ المعركة لم يصل إلى هذا الرقم الكبير والدليل الأخر على عدم صحة الرواية ودقتها هو إن هذه المعركة لم تكن خاتمة الفتوح الإسلامية في فرنسا بل استمر نشاط العرب الجهادي في السنوات اللاحقة

للمعركة " بلاط الشهداء " ومنها على سبيل المثال حملات عبد الرحمن بن قطن سنة 115 هجرية ثم حملات عقبة بن الحاج السلولي سنة 116 هجرية سنة 120 هجرية وسنة 121 هجري كما إن الروايات التاريخية حتى اللاتينية منها تؤكد محافظة المسلمين على مواقعهم في بلاد الفال بعد انسحابهم المنظم إلى " اربونه " التي بقيت قاعدة التمويل جيوش المسلمين ما وراء البرنس حتى سنة 139 هجرية تاريخ تأسيس الدولة الأموية في الأندلس تقع اسبانيا في الجزء الجنوبي الغربي من شبه جزيرة ايبيريا والتي هي اسبانيا والبرتغال تشكلانها وهكذا اسم اسبانيا عند اليونان وأما اسمها الذي تحمله اليوم جاء من الرومان الذين حكموها فترة من الزمن ولما غزاها الوندال فأصبحت تعرف باسم بلاد الوندال أو فاندالوسيا ومنها اشتقت كلمة الأندلس والتي تم فتحها على يد العرب المسلمين

فتح الأندلس : الأسباب والطريقة

هناك أهداف إنسانية دفعت العرب للقيام بفتح هذه البلاد هذا في جانب وفي جانب آخر بعد إن وصل الإسلام إلى الغرب العربي بتحرير تلك الأرض العربية من أيدي البيزنطيين ومن ثم الجهاد في سبيل الله لنشر الإسلام وإعلاء كلمة الحق قام هؤلاء العرب المسلمين من البحر الأبيض المتوسط من البصرة والاستبعاد البيزنطي لهم وفي الوقت الذي كانت فيه اسبانيا تعيش حياة تمزق وفرقة وتناحر كان العرب المسلمين قد أتموا تحرير المغرب الأقصى وأشرفوا على شواطئ بلاد الأندلس من الضفة الأخرى من البحر بعد جهاد دام ما يقارب سبعين سنة من 21 هجرية إلى سنة 91 هجرية ولم يبق إمام العرب المسلمين غير ثغر سبته وكان موسى بن نصير يتوق إلى فتح هذا الثغر المنيع وتطهير إفريقيا من البقية الباقية من العدو البيزنطي المحتل وبينما هو يرقب الفرص لتحقيق هذه الأمنية الغالية إذ جاءت رسالة من حاكم سبته الكونت جوليان نفسه يعرض فيها تسليم الثغر ويدعو إلى فتح الأندلس

فخاطب موسى بن نصير الخليفة الوليد بن عبد الملك حول الموضوع فجاء الجواب بالإيجاب على تنفيذ هذا المشروع الخطير إما موسى بن نصير فليس عنده من الزمن بطبحة يهيب عدة الفتح فجد جيش من العرب الزاحفين من

الشرق من اجل الجهاد وأبناء المنطقة المقاربة وبلغ عدد هذا الجيش ما يقارب سبعة آلاف مقاتل بقيادة البطل العربي طارق بن زياد والذي اظهر بطولة فائقة وشجاعة نادرة وبراعة فنية حربية عند تحرير الغرب والذي أصبح بعد ذلك والي طنجه وعليه قرر موسى بن نصير تنفيذ الحملة الكبرى حيث عبر طارق بن زياد البحر الأبيض المتوسط بجيشه يوم الاثنين المصادف للخامس من رجب عام 93 هجرية على سفن من اسطولة في غرب البحر المتوسط ونزل ليلا في البقعة التي لا زالت تحمل اسمه إلى اليوم وهي جبل طارق في عملية عبور وصفت بالدقة والمهارة والإتقان بعد قيامه بعملية التفاف ناجحة على القوات القوطية المتعرضة المتواجدة على الساحل الاسباني

ثم اخترق الجزيرة الخضراء بعد إن هزم شرادم القوط تصدت لقواته الزاحفة محاولة إيقاف تقدمها وكذلك هزم قائد الذي أرسله لزريق ملك اسبانيا آنذاك والذي كانت مهمة إيقاف تقدم جيوش طارق بن زياد على أمل إن يقوم لزريق بإكمال استعداداته العسكرية للمواجهة كاسحة بين الطرفين

استعد الجيشان للمعركة الفاصلة التي تأخذ أهميتها من خلال التحصينات التي قام بتا طارق بن زياد لمواجهة أعدائه القوط وقد ذكر ابن خلدون إلى إن طارق بن زياد قد قام ببناء قاعدتين عسكريتين الأولى بجوار الجبل على الساحل سماها الجزيرة الخضراء والأخرى أمامية في مدينة طريف وعلى ما يبدو إن إجراءات طارق بن زياد هذه لحماية ظهرة والاستعداد لما هو طارئ واسوا وقد يكون طارق خطط للتراجع السوقي في حالة ضغط العدو عليه أو ما كان يعرف عند العرب المسلمين الكر والفر تنظيم الصفوف يسمون ذلك بالقتال السيار إضافة إلى إن طارق بن زياد طلب مدد من موسى بن نصير فبعث له خمسة آلاف جندي وفعلا قد وصلوا فأصبح عدد المقاتلين اثني عشر ألف إما جيش القوط فكان يتألف من مئة مقاتل

وفعلا دارت معركة طاحنة في اللقاء بين جيش العرب والمسلمين بقيادة طارق وبين الجيش القوطي وكان اللقاء في سهل شرييش شمال شدوذه على ضفاف وادي لكة في معركة هائلة دامت أربعة أيام كان الجيش القوطي فيها رغم العددية جيش مختل النظام خائر القوى لا يقوى على القتال إمام الجيش العربي المسلم التماسك القوي واحد هذه الأسباب التي أظهرت القوط إلى هذا لضعف خلال المعركة هو إن أكثر الزعماء والأمراء في قياداته من الناقمين الذين تظاهروا بالإخلاص وقت الخطر وكلهم يتحين الفرصة لإيقاع بالملك المغتصب فكانت الخيانة تمزق جيش العدو أو القوط شر ممزق وفي القابل كان الجيش العربي الإسلامي قد تميز بالثبات والتماسك ووحدة العقيدة والإيمان بتحقيق

النصر أو الشهادة من اجل إعلاء كلمة الحق لا اله إلا الله رغم قلة عدد جيش العرب المسلمين قياسا إلى جيش القوط والذي كان يقوده الملك لزريق وفعلا تم النصر لجيش العقيدة والجهاد جيش العرب والمسلمين طارق بن زياد الذي هزم القوط شر هزيمة والت قتل فيها ملكهم لزريق ويقال انه اغرق نفسه مع حصانه في النهر ويورخ المؤرخون إن المعركة التي دارت على ارض كورة شذوذه هي المعركة الفاصلة بين العرب المسلمين وبين الأسبان وأما المعارك التي قامت بعدها أو التي دارت ولمدة ثلاث سنوات فهي مناوشات قياسا لتلك المعركة ليس إلا أو أنها كانت لقضاء على بعض جيوب المقاومة للوجود العربي إن أصبح التعبير من قبل بعض أفراد كانت لهم مصالحهم بعدم وقف المعارك

وعلى اثر النصر الكبير العظيم في هذه المعركة صار الالتحاق بالجيش العربي الإسلامي سواء العرب من المشرق أو من الغرب العربي في سيل من المجاهدين لا ينقطع إما طارق فقد واصل سيره باتجاه الشمال نحو طليطلة عاصمة القوط ملحقا الهزائم بالأعداء وقام بفتح مدن عديدة منها قرطبة وغرناطة ومرسية وكان العرب يضعون في كل مدينة يفتحونها حامية صغيرة لحفظ الأمن والنظام وبهذا تمهد الطريق نحو طليطلة والتي فر منها أهلها ولم يبقى فيها سوى اليهود وقليل من النصارى واستولى عليها طارق بن زياد وابقى أحوال أهلها على ما هي عليه لمن بقي من سكانها حيث ترك عدد من كنائسها ومعابدها وأعطاهم حرية شعائرهم الدينية

سوسولوجيا تاريخ المغرب والاندلس

اشتهر الغرب العربي والاندلس بزراعة قصب السكر وصناعته وكثرت زراعة قصب السكر في عهد السعديين كثرة عظيمة حتى إن السلطان احمد المنصور ال 1 ذهبي جلب الأعمدة الرخامية التي استعملها لبناء قصره البديع بمدينة مراكش من البلدان لأخرى مقابل كميات كبيرة من السكر التي اشتهرت المغرب بصناعته وكذلك اشتهرت المغرب والاندلس بزراعة الزيتون واستخراج الزيت منه كما اشتهرت بلاد المغرب العربي والاندلس بصناعة العقاقير أي الأدوية والتي يتم استخراجها من النباتات المختلفة وأيضا اشتهرت بزراعة القمح والشعير والذرة والكتان والقطن والتوت لتربية دودة القز واستفاد الأمويون استفادة كبيرة من الأندلس من مياه الأنهار الكبيرة كنهر تاجه والوادي الكبير ووادي يانغ وابرو فأقاموا عليها السدود وشقوا الجداول والترع ووضعوا تقويما للمواسم الزراعية والذي عرف بالتقويم القرطبي والذي اعتبر دليلا وأساسا لزراعة النباتات في مواعيدها والذي أخذته الأمم الأخرى عن عرب الأندلس

وبمقدار كبير اهتموا بالنباتات الطبية حيث أسس محمد بن علي بمدينة غرناطة حديقة للنباتات وسمح للأطباء بالدخول فيها ودراسة النباتات النادرة وقد حاول المسلمون العرب في المغرب وصقلية زراعة بعض النباتات التي لا تنمو إلا في المناطق الحارة كالتوابل والقطن وقصب السكر والتوت ولكن زراعة أشجار التوابل لم يقدر لها النجاح وقد وجد العرب في ارض صقلية تربة ملائمة ومناخ مناسب لزراعة أشجار التفاح والبنديق والجوز إضافة إلى المعادن التي تكثر فيها مثل الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزنبق وغيرها إما في مصر فقد اهتم الفاطميون بالزراعة وقسموا الإنتاج إلى دورتين دورة صيفية وأخرى شتوية ولا يزال هذا التقسيم ساري المفعول إلى يومنا هذا وقد أشار ابن مماتي في كتابه فوائين الدواوين إلى أسماء المحاصيل الشتوية وهي القمح الشعير وال فول والحمص والعدس والكتان والبصل ولبرسيم والثوم والكمون والكرابيا إما الصيفية فقط أشار إلى البطيخ الأخضر والبطيخ الأصفر واللوبيا والقطن وقصب السكر والقلقاس والبادنجان والسهم كما اهتم الخلفاء الفاطميون بزراعة الفواكه على اختلاف أنواعها الأشجار مثل الكروم والتين والتفاح والتوت والخوخ والمشمش والموز والنخيل كما عنى الفاطميون بزراعة الورود مثل الياسمين والريحان وغيرها وكان لوفرة المياه وخصوبة التربة والعناية بتا احد اهم العوامل التي طورت الزراعة في عهد الفاطميين حيث اعتنى الفاطميون عناية كبيرة بالأرض

وبجودتها وكذلك لاهتمام بالري وتنظيمه من خلال فتح وصيانة الجداول والترع وصيانة الجسور والقناطر وكانت هذه الجسور على نوعين الأولى سلطانية وتقييمها الدولة إما الثانية فكانت أهلية يقيمها الفلاحون وهو ما يشبه السدود إما الأولى أي السدود السلطانية فكانت تقييمها الدولة لتنظيم الماء في نهر النيل وتحسين الفائدة وكانت الدولة الفاطمية تفرض الضرائب على الأراضي الزراعية لصيانة الجسور والمحافظة عليها إما الجسور التي يقيمها المواطنون فكانت تقام في القرى والأرياف الزراعية ويتولى مسؤولية الإدامة والمحافظة عليها الاقطاعين والفلاحين من أهل القرى والمتقنين منهم وتوزع نفقات إقامة الجسور على الأفراد توزيعا عادلا ويلتزم صاحب كل دار برعاية قسم معين من الجسر ونتيجة لهذا الاهتمام بالجسور للاستفادة من مياه نهر النيل في الزراعة وضعوا مقاييس للقياس ارتفاع وانخفاض مياه النهر لان ذلك ضروري جدا لقيام زراعة جيدة في المواسم وكذلك كلما ارتفع ماء النيل زاد الإنتاج وعمت الوفرة الجميع وبالنسبة للدولة يزداد الخراج عند زيادة الإنتاج وسعة الأرض المزروعة فإذا كان ماء النيل ستة عشر ذراعا كان ذلك تمام الخراج وخصب البلاد إما إذا بلغ ثمانية عشر ذراعا كان ذلك نذيرا بحلول الفيضانات إما إذا نقص الماء عن أربعة عشر ذراعا كان ذلك نذيرا بحلول مواسم القحط وما يصحب ذلك من مشاكل وأزمات اقتصادية

إما أداء الجزية وهو كل ما يفرض على المسيحيين اليهود ويقال لهم أهل الذمة وهي كانت تعطى مقابل حرية العقيدة وأقامت الشعائر الدينية ومن رغب بدخول الإسلام منهم رفعت عنه الجزية وأصبح حاله حال أي مسلم آخر في جميع الحقوق والواجبات وفي هذا يقول المؤرخ الأمريكي سكوت انه في اقل من أربعة عشر شهرا قضي على مملكة القوط قضاء تاما وفي عامين فقط وطدت سلطة المسلمين فيما بين البحر الأبيض المتوسط وجبال البرنس ولا يقدم لنا التاريخ مثلا آخر اجتمعت فيه السرعة والكمال والرسوخ بمثل ما اجتمعت في هذا الفتح

يقول الأستاذ محمد سعيد رضا كان فتح المسلمين للأندلس فاتحة عصر جديد وبدء تطور عظيم في حياتها العامة وفي نظمها الاجتماعية في أعوام قلائل إن يقيموا عناصر الشر والفوضى وان ينظموا إدارة البلاد المفتوحة وان يبيت في الجزيرة روحا جديدة من العزم والأمل فنشطت الزراعة والصناعة والتجارة وبعد ركودها وهبت رياح من رخاء والدعة على المجتمع أضناه الضعف والفاقة على مد العصور فالإسلام عندما وصل إلى الأندلس قضى

على نظام أو سلطان الطبقات الممتازة فتنفس الشعب الصعداء وخفف عن كاهله ما كان ينوء به من إعياء المغار حيث فرض العرب المسلمون ضرائب بين الناس بالعدل والمساواة وامن الناس على حياتهم وحررياتهم وأموالهم لرعاياهم الجدد من إتباع قوانينهم وقضائهم أي تطبيق حرية العقيدة والعمل والحرية الشخصية وعدم التدخل في حياة أي فرد من هذه الناحية وكان الحكام العرب يختارون الحكام من أبناء جلدتهم أي اختيار الحكام بالنسبة للسكان الأصليين فكان العرب مثلا للتسامح في جوانب الدين والعقيدة وعدم سلب الآخرين حررياتهم في هذا الجانب أو اضطهادهم أو إلزامهم بشيء بدون رغبتهم فقد لعب ذلك الاستقرار الاجتماعي وتنظيم الحياة الاجتماعية في المغرب العربي والأندلس دورا كبيرا في تطوير الحياة ورفاهية الإنسان وهناك حيث سادة العدالة الإنسانية وتطبيق القيم الإسلامية العربية بشكلها الصحيح والسليم وعدم التفرقة بين الناس بين ذمي ومسلم بين اسود وابيض بل المساهمة في بناء الحياة وعدم التجاوز على الآخرين جعل الحياة الاجتماعية في هذا الجزء من الديار الإسلامية يتجه نحو الاستقرار والسكينة والهدوء والذي جعل بدوره الحياة تتفتح وتورق وتزهر وتعطي ثمارا يانعة ثمار تجربة تاريخية عاشها العالم من خلال مدرسة الأندلس والمغرب الأقصى في التسامح والوحدة الاجتماعية وعرفها الاوروبيين بشكل خاص من خلال تواجد العرب المسلمين في الأندلس وعموم اسبانيا وأجزاء أخرى من الامبراطوريات والدول الأوروبية مثل فرنسا والبرتغال رأت التسامح وعدم التعسف ضد الغير بل كل يأخذ مكانه الطبيعي في المجتمع سواء من خلال العبادات وفي ممارسة حقوقه الدينية وطقوسه التي يؤمن بتا بشكل حر وبدون تدخل أو ضغط من الدولة الحاكمة أو من الأغلبية المسلمة وكذلك التسامح العربي الاسباني في استعمال لغتهم اليومية

كل هذا ولد حياة جديدة ونقل الناس نقله نوعيه اجتماعية كبيرة فآخذوا يبحثون عن التطور والنمو فازدهرت الزراعة والصناعة وتقدم العمران من خلال توفر المياه لها والاهتمام بالمشاريع الروائية والدورة الزراعية كما عرفنا من خلال هذه المحاضرة كذلك عرفنا التقدم الصناعي وتطور العوامل الإنتاج في مختلف مناحي الحياة وكذلك تقدم الطب والعلوم الطبية وإنتاج الأدوية وتطوير زراعة النباتات التي لها علاقة بالصحة العامة وكذلك الاهتمام العامة للناس وتقدم أيضا في جميع العلوم حتى أصبح هذا الجزء من العالم شعلة من التقدم العلمي ونموذج للاستقرار الاجتماعي .

طبقات المجتمع الاسلامي

يقصد بالحالة الاجتماعية في أي بلد من البلاد ذكر طبقات المجتمع في هذه البلد من حيث الجنس والدين وعلاقة كل من هذه الطبقات ببعضها البعض ثم بحث نظام الأسرة وحياة أفرادها وما يتمتع به كل منهم بالحريية ثم وصف البلاط ومجالس الخلفاء والأعياد والمواسم والولائم والحفلات وأماكن النزهة ووصف المنازل وما فيها منناتث وشراب ولباس وما إلى ذلك من مظاهر المجتمع وكان الشعب في أواخر العصر العباسي الأول يتألف من عدة عناصر وهي العرب والفرس والمغاربة

وقد ظهر العنصر التركي على مسرح السياسة في عهد الخليفة المعتصم والذي اتخذهم حرسا له واسند إليهم مناصب الدولة العالية وأهمل العرب والفرس فأصبح الأتراك خطرا يهدد الخلاء أنفسهم حتى أم كثيرين من هؤلاء الخلفاء ذهبوا ضحية تأمرهم على إن بعض الخلفاء أدركوا هذا العنصر فاستعانوا بالمغاربة والفراعنة وغيرهم من الجنود المرتزقة كالأكراد والقرامطة الذين بدأت الدولة العباسية تستعين بهم منذ أيام الخليفة الراضي (322 - 329 هجرية)

إلا إن الخلفاء العباسيون لم يسلموا من خطر العناصر التي كانت تنضم إلى أمراء الأمراء تارة وإلى الخلفاء تارة أخرى ولما انتقلت السلطة التي بني بويه قامت المنافسة بين الأتراك والديلم والذين كان البويهيون ينتسبون إليهم ويعتمدون عليهم إقرار نفوذهم ووقع بنو بويه فيما وقع فيه العباسيون من قبل وأصبح الديلم خطرا يهدد كيان الدولة العباسية بسبب قيام المنافسة بينهم وبين الأتراك واستعانة البويهيون بهؤلاء تارة وبوئلك تارة أخرى وقد أدرك معز الدولة هذا الخطر فأوصى ابنه بمدارة الديلم والتودد إلى الأتراك على الرغم من استعانتة بالأتراك لم يسلم من شرهم فعزلوه وانظموا إلى ابن عمه عضد الدولة ومهما يكن من شيء فقد كان الجيش في عصر بني بويه يتألف من الديلم والأتراك والعرب والأكراد والفراعنة وغيرهم من المرتزقة

كان من اثر انقسام المسلمين في هذا العصر إلى شيع وطرائق إن تعرض المجتمع الإسلامي إلى التفكك والتنازع فهناك النيون والين كانوا السواد الأعظم ويتمتعون بقسط وافر من الحرية والطمأنينة في عهد نفوذ الأتراك وفي عهد الأمراء وهناك الشيعيون الذين قاسوا كثيرا من العنت والاضطهاد حتى استولوا بني بويه على العراق فتمتعوا بشيء غير قليل من الطمأنينة في ظل البويهيين

المتشيعين ومن ثم قامت المنازعات بين الشيعة والسنين فضرب يحيى بن عمر بن يحيى بن زيد بن علي زين العابدين بن علي بن أبي طالب وحبس في بغداد سنة (335 هجرية) ولم ينج من عنت هذا الخليفة إلا العلويين الذين لجؤا إلى مصر

ومع ذلك أمر هذا الخليفة واليه على هذه البلاد بإخراج العلويين من مصر إلى العراق ثم أمر بإرسالهم إلى المدينة وقد خرج يحيى بن عمر العلوي على الدولة العباسية ولكنه قتل في عهد المستعين سنة (250 هجرية) كذلك ثار بطرستان الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب واستولى عليها وعلى جرجان وحكم البلاد عشرين سنة (250 - 270 هجرية) وإلى إن مات فخلفه أخوه وكانا يدعوان إلى الرضا من إل محمد ثم خلفه الحسن بن علي بن الحسين المعروف بالاطروش بيد إن الشيعة انتعشوا في عهد بين بويه وأصبحوا يقيمون شعائرهم في شيء كثير من الطمأنينة وإن كانت مساكنهم لم تتعد المكان المحيط بسوق الكر غربي بغداد إلا في أواخر القرن الرابع الهجري وسنة (349 هجرية) قامت فتنة بين العامة في بغداد وتعطلت صلاة الجمعة في مساجد السنين على حين أقيمت في مسجد يراثا الشيعي ولم تلبث هذه الفتنة إن سكنت بعد إن اعتقل معز الدولة جماعة من السنين وفي السنة التالية احتفل الشيعة بيوم عاشوراء الذي جعلوهن أيام الحزن عندهم وفي الثامن عشر من ذي الحجة احتفل الشيعة بيوم غدیر جم وأمر معز الدولة بإظهار الزينة في بغداد فرحا بعيد الغدير وضربت النادب والبوقان ولم يكن هذا الاختلاف قائما بين السنين والشيعة وحدهم بل تعداه إلى بعض السنين بعض فقد رأينا الحنابلة أصبحوا قوة يخشى بأسها حتى أنهم حالوا دون دفن محمد بن جرير الطبري سنة (310 هجرية) لأنه جمع كتابا في اختلاف الفقهاء لم يذكر فيه احمد بن حنبل من بين هؤلاء الفقهاء كما رأينا كيف بلغ من تشددهم في الدين إن قاموا في وجه ذوي اليسار وكسروا أواني الخمر وحطموا الآلات الموسيقية وضربوا الغنيين ذكر السيوطي إن الحنابلة ثاروا في البلاد سنة (318) مع غيرهم من السنة في تفسير قوله تعالى " عسى إن يبعثك ربك مقاما محمودا " فقال الحنابلة إن المقصود من هذا إن يقعد الله نبيه على عرشه وقال غيرهم بل هي الشفاعة واحتدم الجدل بسبب ذلك واقتتل الحنابلة مع خصومهم

ومن طبقات الشعب طبقة الرقيق وكانت في مصر وشمال أفريقيا وشمال جزيرة العرب من اهم أسواق الرقيق الأسود وقد جلب إلى العراق كثير من الزنجيات اللاتي عرفن بكثرة النسل كما جلب الكثير من الزنجي لفلاحة الأرض وحراسة الدور وكثر الزنجي في العراق وأدت كثرتهم إلى قيام ثورة الزنجي

الخطيرة التي دامت أكثر من أربعة عشر سنة (255 - 270 هجرية) وكلفت الدولة العباسية كثير من الأموال والدماء وقد كثر شراء الرقيقات اللاتي أصبح منهن المغنيات وارتفع ثمنهن

وقد قيل إن ابن رائق اشترى سنة (325) جارية مولدة موصوفة بحسن الغناء بأربعة آلاف دينار وارتفع ثمن الرقيق الأبيض بسبب انقطاع عبيد الأندلس في القرن الرابع الهجري وتخريب الثغور الغربية وكاد ينقض المصدر الوحيد الباقي من الرقيق وهو بيزنطة وأرمينية

ومن الرقيق الأبيض الذين يسمعون العلماء الأتراك والديلم والأكراد والذين قاموا بدور هام في السياسة والحرب في هذا العصر وكانوا يكونون طبقة كبيرة من طبقات المجتمع العربي الإسلامي في العصر العباسي الأول إذ كان اتخاذ الرقيق منتشر انتشارا كبيرا

وكانت سمرقند التي تعد من أكبر أسواق بيئة صالحة لتربية الرقيق المجلوب من بلاد ما وراء النهر كما كان أهلها يتخذون ذلك صناعة يعيشون منها ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة ازدراء لأن كثير منهم كانت أمهاتهم من الرقيق وقد أولع الخلفاء والأمراء باتخاذ الإماء من غير العرب حتى أنهم كانوا يفضلونهن أحيانا على العربيات الحرائر

ومن طبقات الشعب في ذلك العصر أهل الذمة وهم النصارى واليهود وكان يتمتعون بكثير من ضروب التسامح الديني وقيمون شعائرهم الدينية في أمن ودعة وقد أوجدت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغي إن يكون فيها من وفاق بين المسلمين واليهود والنصارى نوعا من التسامح ولم تتدخل الحكومة الإسلامية في شعائر أهل الذمة بل كان يبلغ من التسامح بعض الخلفاء إن يحضروا مواكبهم وأعيادهم ويأمرؤا بحمايتهم

وكان النصارى بطريق يعينه الخليفة بعهد خاص كما يعهد الكبار العمال ويطلق عليه اسم (الجائليق النسطوري) أي رئيس المسيحيين الشرقيين وكان يتمتع بنفوذ كبير بين أبناء ملته كذلك عومل بطريقة اليعاقبة إما اليهود فكان لهم رئيس خاص يلقب أحيانا بلقب الملك ويدفع له أهل ملته الضرائب فيأخذ نصفها ويرسل نصفها الآخر إلى بيت المل بخلاف ما كان عليه الحال عند النصارى الذين كانوا يؤدون المال إلى بيت المال مباشرة على رئيس اليهود في بغداد " رأس الجالون " وقد امتد نفوذه إلى اليهود المقيمين شرقي لفرات وبلغ عددهم في البلاد العربية " 300000 وكلما تقدمنا شرقا ازداد عدد اليهود ففي همدان مثلا بلغ عددهم ثلاثين ألفا وفي اصبهان خمسة عشر ألفا وفي شيراز عشرة آلاف وفي عزنه ثمانين ألفا وفي سمرقند ثلاثين ألفا ويظهر إن عددهم كان ضئيلا في بلاد الشام وخلصه في أثناء الحرب الصليبية حتى إن عددهم في الحي

الخاص بهم في بيت المقدس لم يتجاوز أربعة أنفس أو مائتي على ما ذكره بنيامين أو شخصا واحدا على ما ذكره بتا حيا إما في دمشق فقد بلغ عددهم ثلاثة آلاف وفي حلب خمسة آلاف ويقول المقدسي انه كان بخرسان يهود كثير ونصارى قلة ويقول إن بلاد الجبل اليهود به أكثر من النصارى وفي القرن الرابع الهجري اعترفت الدولة العباسية بالمجوس الذين لم يكن تم التغلب عليهم في البلاد البعيدة لتمسكهم في دينهم وتقاليدهم وكراهيتهم للإسلام بأنهم أهل ذمة كما كان لليهود رئيس ديني يلقب بألقاب الملوك ويدفع له أبناء نحلته الضرائب وكان منصبه وراثيا وقد كثر عدد المجوس في العراق في القرن الرابع وجنوبي فارس القران الكريم

التغيرات الاجتماعية بعد عهد الراشدين رضي الله عنها
عندما نريد الكلام عن المجتمع العربي الإسلامي بعد عهد الراشدين
لا بد لنا إن لا نفكر إن المجتمع العربي الإسلامي دخل مرحلة جديدة
وتغيرت أوضاعه بسرعة بعد عصر الخلفاء الراشدين جاء خلف " ابتزوا
ملكهم واستباحوا دينهم " ومنذ وقت مبكر في عهد الخلافة الأموية
ظهرت مسحة قوية من الترف أدت إلى تسرب تيار من الإسراف بعيدا عن
روح الإسلام ومبادئه وقد اشرنا إلى هذا في المحاضرات السابقة لكننا
سوف نعيد بعض الفقرات منه وذلك لكوننا نريد إن نكمل الموضوع برمته
ولم يلبث إن اخذ الغناء يحل محل تلاوة الشعر كما حلت مجالس المنادمة
ومغامرة الخمر محل مجالس الأدب واخذ الناس يحكمون الخلفاء في
حياتهم الاجتماعية وكان بعض خلفاء بني أمية لا يظهر ون للندماء بل

كان بينهم حجاب حتى لا يطلع الندماء على ما يقوم به الخليفة من أعمال تتنافى أصلا مع مركزه الديني والاجتماعي كما هم يزعمون في ذلك ولأجل إن لا يراه احد وضع ذلك الحجاب لكي تظهر حركاته وهو نشوان أو هو قد أشغلت لخمرة رأسه بحيث لا يطاع على مثل هكذا أمورا إلا الخواص من جواريه , وبعضهم بالغ في المجون والخلاعة في جلسات السمر والشراب مثال ذلك يزيد بن عبد الملك بن مروان حيث كان يسكر ويترنح ويعطي الخمره مجالها لان تذهب فيه مذهبها إضافة إلى ذلك سمح للندماء بحضره وإذن لهم في الكلام والضحك والهزل في مجلسه .

" وانتقلت العدوى بوضوح إلى الناس و الرعية في عهد الوليد الثاني فكلفوا بالموسيقى و الغناء وأسرفوا في ذلك إسرافا ملحوظا فأنفقوا ببذخ على المغنين المشهورين والموسيقى الين كان الخليفة يدعوهم إلى دمشق في أقصى البلاد وكان للقيان دور ملحوظ في تقدم الغناء في العصر الأموي ومن الآلات الموسيقية التي استعملها المغنون و الموسيقيون في ذلك العصر النضج والطنبور والمزمار وغيرها " .

واخذ هذا التيار الغير مؤلف في ديار الإسلام اخذ يمتد تدريجيا إلى كافة أنحاء الدولة العربية الإسلامية في الشرق والغرب منها على حد سواء وقد وصف ابن عذاري المراكشي بعض حكام المسلمين في المغرب والأندلس بأنه " عصر الخلوات , صريع الشهوات لهج بالفكاهات كثير الكذب والعدوان شنيع الفجور و العصيان " .

وارض الرسالة ومهبط الوحي ارض الحجاز أخذت تتأثر بشكل طفيف بالموجة الجديدة فلذلك اخذ يحدث تطور للحياة تطور غير مؤلف في ذلك الوقت كأنك ترى شيء متناقض تماما بحيث إلى جانب الفقهاء والمحدثين و العلماء ظهر في المجتمع المغنون والشعراء إلى جانب تلك الحياة المترعة بالإيمان والعلم والزهد والتقوى وجدت اللهو والمرح والمتعة والدعاية بعيدا عن حياة الجد والكرامة والدعاية البريئة ومن ذلك أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني من إن مكة المكرمة والمدينة المنورة وضواحيهما امتلأت بالمغنيين والمغنيات الذين كانوا يخرجون إلى الحج فيجتمع الناس لرؤيتهم وصار في مكة مذهب في الغناء وللمغنيين في المدينة مذهب وان صح التعبير نقول مدرسة مكة للغناء مقابل مدرسة المدينة للغناء . وكانت بين الفريقين مغامر يسر الناس لمشاهدتها ومع الغناء التناذر والفكاهة الحلوة ويقال إن أكثر المغنيين في قصور بني أمية تخرجوا من مدرسة الحجاز ويعلل ذلك المرحوم الأستاذ احمد أمين هذه الظاهرة برقة شعور أهل الحجاز من

ناحية و ارسنقراطية العرب وهم العنصر المحرر والفاآح والذي حصل على آيرة الجوارى من ناحية أخرى فضلا عما يقال من إن البدو آحضروا ونالوا بسطة فى العىش أسرفوا فى اللهو من ناحية آالآة . هذا مع ملاحظة إن الآياة فى الآجاز ظلت دائما ملتزمة بقدر من الاعتدال بحيث لم تصل إلى حد الإسراف الذى وصلت إليه آاضرة الدولة العربية الإسلامية دمشق فى عصر العباسيين ولذلك أطلقنا على بعض الآركات والآورات الآى قابلها الصحابة فى الآجاز وذلك تعبيرا عن استيائهم وآآمرهم من السلوك المنآرف الذى يقوم به الأمويين فى دمشق والآلفاء منهم بشكل آاص.

ومن آهة أخرى ط فإننا إذا قلنا إن آغيرا محدودا أصاب الآياة الآآتماعية فعلىنا إن نآذكر إن الإسلام كان دائما بعيدا عن الآزمت والآرمان والآكبت وأنه طالب المسلم بالآ ينسى نصيبه من الدنيا وإن يتمتع بكل ما آلآة الله له من ضروب ألمآعه بشرط إن يلتزم بالآلال ويبآعد عما آرمة الله وبشرط الآ يسرف آتى فى آآعه الآلال " أنه لا يحب المسرفين " قد سئل آاحد شيوخ بني أمية بعد إن ذهب عنهم الملك " وما كان سبب زوال ملكهم ط فقال ط اشتغلنا بلذآتنا عن آفقد ما كان نعقده يلزمنا فآظلمنا رعيتنا فىنسوا من إنصافنا وآمنوا الراحة منا" وهذه هى الآآيقة فى آكم بني أمية للدول العربية الإسلامية بالرآم من بعض الآسنات لبعض الآلفاء فى الأمور العامة والآقوية الدولة واآآصادها وكذلك هناك من يآرج عن الآعميم مثل الآليفة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه . .

يقول الأستاذ سعيد عبد الفآاح عاشور فى موضوع آروب الآآير والآفآوحات الآى قامت فى زمن الأمويين " ولا يشفع لذلك الفريق من آلفاء بني أمية القول بان الدولة الإسلامية بلغت فى العصر الأموى أقصى اتساعها وإن الفآوح الإسلامية برا وبآرا أدركت أقصى مداها شرقا وآربا . ذلك إن هذا الدفعة كانت فى الواقع دفعة الإسلام لا دفعة الآكام فالإسلام هو الذى دفع المسلمين إلى الآهاد وكان من الآآعذر على آركة الفآوح الإسلامية الآى بدأت فى عهد الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام إن آآوقف قبل إن آسآنفذ طاآقتها وآبلغ الدولة الإسلامية حدودها الطبيعية فى المشرق والمغرب وآسبنا إن نشير هنا إلى إن آبا بكر الصديق رضى الله عنه ما كاد يبلغ بالآلآفة إلا وقف فى المسلمين قائلآ ط لا يدع قوم الآهاد فى سبيل الله إلا قوم ضريبهم الذل " فالآهاد هنا عقيدة وسياسة أمة لا سياسة دولة " إما المرأة فى ذلك العصر فى الإسلام وآدر الإسلام منه بشكل آاص الملاحظ وهذا هو الواقع العملى إن

الإسلام حرر المرأة عما كانت تعانيه من امتهان وأعطاه حقوقها كاملة في مباشرة حياتها الخاصة و العامة إلا إنها في ذلك لا تخرج من إطار العفة و الحياء ويتفق هذا مع روح الإسلام وأدابه وإذا ما عدنا إلى القرآن الكريم عندما نادي بان الرجال قوامون على النساء فيجب إن نعرف إن هذا ليس بالمطلق اى القوامة ليست مطلقة بل إنما محددة بدرجة واحدة " ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف و للرجال عليهن درجة " والهدف من هذا التفضيل المحدد صلاح المجتمع و صلاح الأسرة وذلك لمراعاة طبيعة الرجل ومسؤوليته ومنذ عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم شاركت المرأة العربية المسلمة في الحروب ونهضت فيه بالدور الذي يتفق وطبيعتها في تضמיד مجاهدي الحرب المسلمين وحثهم على الجهاد في سبيل الله ط ومن المعروف إن النساء كانت لهن بيعه مثل بيعه الرجل ط يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبایعنك على إن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا ياتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفرلهن الله إن الله غفور رحيم ط

إما في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم فقد اختلفت النساء مع الرجال لسماع خطب الخلفاء ومع التطور الذي أصاب المجتمع العربي الإسلامي في عصر خلفاء بني أمية أخذت الأميرات يتدربن على ركوب الخيل ويشتركن في السباق ويرجع اتخاذ الحريم إلى عهد الوليد بن عبد الملك الذي ادخل كثيرا من تقاليد وعادات الروم وأكثر من اتخاذ الخصيبات في قصر الخلافة الأموية في دمشق " وهكذا أخذت الحياة الاجتماعية تتطور تدريجيا نتيجة تفاعل مستمر بين بعض العناصر التي إلفها العرب منذ عصر ما قبل الإسلام من ناحية وعناصر وضوابط بناءة انبثقت عن الإسلام وروحه وتعاليمه من ناحية أخرى ثم بعض المؤثرات الأجنبية التي تطرقت إلى المجتمع الإسلامي من الحضارات التي استوعبتها الدولة الإسلامية وبخاصة حضارتي الروم والفرس .

تطور المجتمع الاسلامي

واخذ هذا التطور الذي يمر به المجتمع العربي الإسلامي يسرع الخطى في العصر العباسي وذلك ناتج عن ازدياد دور العناصر غير العربية في الدولة العربية الإسلامية , مع كثرة الأموال , وفي العصر العباسي وتحديدا في القرنين الثالث والرابع للهجرة النبوية الشريفة , بلغت الحضارة العربية الإسلامية أوجها , حيث بلغت مرحلة النضج وذروة الانتعاش والتطور الخلاق والإبداع المنقطع النظير , سواء في الجوانب الفكرية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو العلوم الطبيعية وغيرها من مناحي التطور والرقى الحضاري والإنساني , وفي ذلك العصر صارت الدولة العربية الإسلامية صورة العالم المعروف .

وانتعاش الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي واستتاب الأمن بين أرجائها مع سعتها إلى أنها غدت مجمع لمختلف الأعراق والأجناس والعناصر والأديان والطوائف الدينية وغير الدينية , ونتج عن هذا الخليط الذي يستظل بالإسلام ودولة الخليط المتنوع من الناس الكبير والمتعدد الأصول والدماء والألوان واللغات والعادات والتقاليد والمذاهب إلى كسب الحياة الاجتماعية لونا خاصا مزيدا داخل بوتقة الحضارة العربية الإسلامية .

إما من ناحية السكان , هناك أمر لا بد من قوله وهو إن الدولة العربية الإسلامية في عصر بني العباس قد سمحت للعناصر غير العربية للمشاركة في الدولة وفي بعض الأحيان مشاركة فاعلة مثل الفرس في العصر العباسي الأول من تاريخ بني العباس وقد تركت هذه التطورات الجديدة في الدولة بصماتها لكن هزالا يعني إن الفرس لا يردعون عن تجاوزهم حدودهم وهناك قصص ومواضيع معرفة في هذا الجانب وهي ليست مجال حديثنا, نقول ذلك التفاعل الحضاري الذي دعمه الانفتاح العربي وعدم التعصب والانغلاق بل فسح المجال لكل من يريد ويرغب بالمساهمة في تطور الدولة العربية الإسلامية وبنائها بغض النظر عن العرق واللون واللغة أو المذهب والدين , بل كما هو الحالي في

الدولة المدنية المعاصرة المواطنة هي الأصل وهكذا كانت الدولة العربية الإسلامية في ظل راية الاسلام وقيادة العرب المسلمين لها , وعليه أنتج هذا التفاعل الحضاري والذي صهرته بوتقة الاسلام واتت تلك الحضارة العملاقة الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى , والتي كانت لمجتمع متماسك متحرر.))

حيث ظهر ذلك التمازج والتفاعل الحضاري والاجتماعي , بمظاهر الترف , مثل بناء القصور وتعدد وتنوع الأزياء , وظهور الألوان المختلفة من الأطعمة , ثم الاحتفال ببعض الأعياد لبعض تلك الأمم والشعوب مثل النيروز والمهرجان وغيرها , يضاف إلى ذلك انتشار مجالس الغناء واللهو والشراب , وغيرها من المجالس اصطبغت في العصر العباسي بصبغة ذلك التنوع والتمازج الحضاري والاجتماعي , حيث ظهرت بمظاهر مختلفة وفي كل أنواع الحياة الاجتماعية وفي مختلف حاجات الحياة الاجتماعية اليومية من الملابس والمأكلة والمشرب والحلي والتي تنوعت بتنوع تلك الأمم والشعوب فامتزجت جميعها في مظهر حضارة واحد في لباس شخص واحد وطبق طعام واحد إلا انه منوع ومنسجمون الوحدة والتنوع في ذلك الوقت .

وكان لكل عنصر مؤثرات مختلفة في هذه الحياة مثل الفرس و الأتراك حيث كان في العصر العباسي الأول النفوذ الفارسي كما اشرنا ولكن في العصر العباسي التالي أي في القرن الثالث الهجري اخذ نفوذ الأتراك يزداد في المجتمع العربي الإسلامي ووفدوا على الدولة من المشرق الإسلامي حاملين معهم دماء عديدة وعادات وتقالييد جديدة وسرعان ما تركوا أثرا في المجتمع العربي الإسلامي وذلك من خلال السلوك العنيف ومصادرة الأموال العائدة للناس " وإشاعة الفوضى فضلا عن ازدياد الجوارى التركيات آتت امتلأت بهت قصور الخلفاء والأمراء ورجال الدولة والأثرياء وبصرف النظر عما اشتهرت به الجوارى التركيات من حسن وجمال فائق فأنهن لم يتصفن بصلاية الرؤى والعناد مثل الجوارى الروميات هذا إلى إحساس الجوارى التركيات بجمالهن جعلهن يعتنين بزينة وجوههن ويبالغن في التأنق في الملابس مما أدى إلى نشر فن التجميل وابتكار الأزياء في المجتمع " .

على إن زيادة نفوذ العناصر غير العربية من أتراك وفرس في المجتمع العربي الإسلامي هذا القضاء أو إقصاء العنصر العربي أو يخفت دورة في الحياة الاجتماعية العربية الإسلامية في هذه المرحلة نعم انه فقد أكثر امتيازاته لكن فقد امتيازات لم يوقف دورة الذي كان عليه إن يقوم به رغم كل الظروف وعلى إن نتذكر إن الدولة العربية الإسلامية قد ازدهرت في زمن بني العباس بشكل كبير جدا في الوقت الذي انتشرت فيه كثير من القبائل العربية في

مختلف إرجاء الدولة العربية الإسلامية وقد اختلفت درجات التأثير في تلك الحياة سلبا و إيجابا حسب درجة الوعي والتحضر فمثلا العرب البدو كانت لهم صورة تختلف عن العرب سكان المدن والمتحضرين وذلك كل حسب بيئته العرب من البدو تركوا اثر سينا في الحياة الاجتماعية ينشر الاضطرابات و الاعتداء على المدن والقوافل ونبها فضلا عن التمسك بروح العصبية القبلية بكل ما في ذلك من إضرار اجتماعية لكنها في الوقت نفسه حافظت على الانتماء العربي في تلك المناطق التي رحل إليها العرب في ذلك المحيط البشري والذي اغلب سكانه من غير العرب .

والعرب المتحضرين كان لهم حضاري واجتماعي في الوله العربية الإسلامية مثل ذلك بني حمدان في الموصل وحلب فكانوا عنصرا بناء في مجال الحضارة ودعامة من دعائم لاستقرار الاجتماعي في الدولة العربية الإسلامية ويقول الأستاذ عاشور " وأيما كان العرب بدوا أو حضرا فان تأثيرهم الاجتماعي كان قويا في دولة الاسلام حتى ولو تضاعل وزنهم السياسي ويكفي إن العنصر العربي هو الذي وقف صلبا ضد تيار الزندقة وحافظ على كثير من المثل والتقاليد المرتبطة بتراث العروبة من ناحية وأدب الاسلام من ناحية أخرى , والمرأة الربيعية هي التي حافظت على عفتها وشرفها وأبت إن تسقط إلى مستوى الجوارح الأجنبية وتبذلهن ولا شك في إن هذا وذاك أدى إلى تماسك المجتمع الإسلامي والحد من تفشي تيار التدهور والرذيلة " .

فإذا انتقلنا من التركيب العرقي للسكان وذهبنا إلى ناحية أخرى من نواحي ذلك المجتمع وجدنا أنفسنا في المجتمع الربيعي الإسلامي في الدولة العربية الإسلامية إما تنوع آخر لهذا المجتمع الواحد القوي المتماسك حيث إننا نقف إمام تعدد الطوائف الدينية من مسلمين وأهل الذمة من يهود ونصارى وكذلك من صابئة ومجوس وبوذيين وغيرهم ومع انتشار الاسلام وقيمة السمحاء تدريجيا صار المسلمين هم الإغلب الساحة وصارت لهم الغلبة السياسية والاجتماعية وبمعنى إن أدب الاسلام ومثله وتقاليد غدت هي المهيمنة على المجتمع بوجه عام .

ومن الطبيعي إن يحظى البيت النبي محمد صلى الله عليه وسلم بمكانه خاصة في المجتمع العربي الإسلامي وقد أطلق عليهم اسم الإشراف وصاروا طبقة مرموقة تشمل بني هاشم من العباسيين والعلويين على حد سواء لكن العباسيين صارت لهم المكانة الاولى في العصر العباسي وذلك لكونهم بنت الدولة وحكامها فاحتفظوا لانفهمهم بامتيازات لم يشاركهم فيها احد في خبا أمر العلويين بسبب موقفهم العدائي من الحكم العباسي ولهذا تعرضوا

لضربات على أيدي العباسيين كما كانوا قد تعرضوا لضربات على أيدي الأمويين سابقا ورغم هذا كان نقيب واحد لبني هاشم من العباسيين والعلويين وذلك حتى القرن الرابع هجري العاشر الميلادي حيث كان يطلق على هذا النقيب نقيب الإشراف حيث يراعي شؤون الإشراف ومصالحهم ويعاقب من يخرج منهم عن حدود اللياقة ثم حدث بعد ذلك إن صار لكل واحد من العباسيين والعلويين نقيب وذلك بسبب تباعد الفريقين عن بعضهما البعض علما بان النقيب كان يعين بتقليد من الخليفة وقد يجمع النقيب بين النقابة ووظيفة أخرى كالقضاء وغيره .

لكن المجتمع العربي الإسلامي لم يبقى على تماسكه في ذلك العصر حيث انقسم على نفسه بسبب الصراعات الطائفية واعتقد إن سبب ذلك الانقسام هو العنصر الأعجمي الذي دخل حلبة الصراع الطائفي وهو في حقيقة أمره صراع سياسي و تنافسي على مواقع السلطة و الحكم والامتيازات , فاستثمرت الأفكار أو المذاهب من قبل هؤلاء لتأجيج الصراع داخل مؤسسة الدولة و المجتمع " إذ لم يقتصر الأمر على ما كان هناك من تطاحن وتضارب بين الفريقين وإنما تعدى ذلك إلى تماسك كل فريق بالسيادة " وهذا دليل واضح على ما قلناه قبل قليل وإلا من أين الأعياد للمسلمين غير التي حددت بالقواعد و الضوابط الإسلامية وما جاء بتا التشريع الإسلامي - القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة وما اتفق عليه الصحابة والفقهاء والعلماء مثل عيد المولد النبوي الشريف وكذلك الهجرة النبوية المطهرة - إما تلك الأعياد المختلفة فهي ما جاء كل فريق بتا إلى الاسلام ولم تكن عربية أو إسلامية فأجج الصراع وكما قلت لأسباب سياسية ومواقع السلطة ليس إلا .

وإمعان زرع بذر التفرقة داخل المجتمع العربي الإسلامي والابتعاد عن خط سيره الصحيح هو إن كل طرف اخذ يتلاعب إلى أعيادة ومناسباته والمبالغة في إحياء تلك الأعياد والتمسك بتقاليد خاصة. يرى فيها كل فريق تحديا للفريق الأخر وقد ظهر ذلك بوضوح في الدولة الفاطمية التي قامت في شمال افريقية ومصر والشام في القرن الرابع الهجري العاشر للميلاد واتصف عصرها بنشاط الحياة الاجتماعية وكثرة الأعياد والأفراح و الولائم والتفنن في الزينات وألوان الأطعمة .
أهل الذمة

وعندما نذهب إلى أهل الذمة أو أهل الكتاب من نصارى ويهود وكذلك من صابئة وغيرهم , وجد أنهم حظوا بقر كبير من الحرية وفسحة دينية كبيرة وتسامح منقطع النظير في المجتمع العربي الإسلامي ذلك الأمر الذي جعلهم يمارسون حياتهم الخاصة دون خوف أو وجل أو سلطة أو رقيب وكذلك العمل في جميع المهن الحرة الموجودة في الدولة العربية الإسلامية آنذاك إضافة إلى تقلد توأله مؤهلاته وقدراته مناصب رفيعة ومهمة في الدولة الربيع والإسلامية من دون تمييز وكان البعض منهم مقرب من الخلفاء " ونسمع إن كثيرين من أهل الذمة كانوا أطباء وتجار وصيارفة ومهندسين " إلى غير ذلك من الأعمال دون إن تتدخل الدولة العربية الإسلامية في شؤونهم العملية أو في حياتهم الخاصة العمة أو في شؤونهم الدينية أو العقائدية أو في العبادات إما السلطة الدينية لهؤلاء فكانت بأيدي رؤسائهم الروحانيين وبيوت عبادتهم لم تمس بل تزداد وتتطور حسب الحاجة الخاصة بهم والرأي الديني هو الذي يراعي شؤونهم العبادية ومما يزيد من حرمتهم وعدم المساس بهم هو إن كل رئيس روعي لأية طائفة يتقلد منصبه بعهد من الخليفة نفسه بالتسامح وبالعدل وفي عهد قوة الإسلام وتطبيق قيمة ومبادئه وعندما كان العرب هم سراه هذه الدولة وقادتها لكننا في بعض الأحيان نرى تفكير لهذا الصفو وهو التدخل في شؤونهم وإن كانت هذه لفترات قصيرة ومحددة واستثناء عن القاعدة العامة وهي التسامح و المساواة في ظل الإسلام .

ولربما من يقول لماذا إذن تأخذ الجزية من هؤلاء أي أهل الذمة فالجواب إذا كانت الجزية قد فرضت على أهل الذمة فإن ذلك جاء من أجل إعفائهم من الخدمة العسكرية من الرجال الأصحاء الأقوياء القادرين على حمل السيف أو القادرين على القتال في الحرب والمعفي منها الشيخ والأطفال والنساء والعجزة والمجانين والمرضى والمعوقين و الرهبان وكذلك الفقراء الذين لا يمكن المال أو الذين ليس لديهم القدرة على الدفع وفي كل الأحوال لا تتعدى إن تكون مبلغ زهيد وقليل جدا لا يؤثر على إمكانيات دافعة من الناحية المالية والاقتصادية .

في الوقت يطالب جمهور المسلمين بدفع الزكاة بنظام تصاعدي أو تعتقد إن فرض الجزية على أهل الذمة مقابل الزكاة على المسلمين وهو الغاية الاجتماعية لكي تتعادل مسألة المساهمة المادية في المال العام لكي طرفي المجتمع مع العلم أم الأغلبية المطلقة فيه من المسلمين وهي عملية ما يشبه

اليوم ما يقوم به دافعي الضرائب لكل قادر وموئل وعلية ضريبة وهذه موازنة اجتماعية عادلة بين أبناء المجتمع الواحد .

وكلنا يعلم إن العلاقات الاجتماعية في ظل الإسلام والدولة العربية الإسلامية بين المسلمين وأهل الذمة في ظل تعاليم الإسلام فسمح بزواج المسلم من أهل الكتاب أو الكتابيات من دون إن تجبر الزوجة الكتابية على ترك دينها والدخول إلى الدين الإسلامي وكذلك لا يسمح للمسلمين إن يعتنق الدين اليهودي ولا لليهودي إن يتنصر , واقتصر التغيير في الدين على الدخول في الإسلام " واحل الله عز وجل " طعام أهل الكتاب للمسلمين كما احل طعام المسلمين لأهل الكتاب (وطعام الذين أتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم) وفي ظل سماحة الإسلام قويت الروابط الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة فيشارك كل طرف الطرف الآخر في أعيادة واحتفالاته وخالط أهل الذمة المسلمين في ملابسهم ومظهرهم وتبادا الفريقان الهدايا والمأكولات في المناسبات الدينية وغير الدينية .

وفي المجتمع العربي الإسلامي يتواجد من غير أهل الذمة طوائف أخرى اقل عددا مثل الصابئة عبده الكواكب والمجوس عبده النار إضافة إلى طوائف أخرى مثل الزنادقة والملاحه ولكن الغالب إن هؤلاء صاروا أقليات ضئيلة ليس لهم تأثير فعال في المجتمع العربي الإسلامي إذ عاشوا في شبه عزاه لا يختلفوا بغيرهم ولا يصاهرون من لا يكون من دينهم . وعند تأكيد التعامل الأخلاقي والإنساني والقيمي مع أهل الذمة والتي تستقي من الإسلام وعقيدته السمحاء في إن نعود لما وضعة واختطه وبناه أصحابه الأول للرسول محمد صلى الله عليه وسلم في العلاقة مع أصحاب الأديان الأخرى وغيرهم وكذلك ما ينسجم مع الروح العربية السمحة الكريمة العفوة المتساهلة السمحاء والتي ارتوت من ينبوع الإسلام الصافي والذي تفاعل مع الواقع العربي الإنساني والذي أثمر تلك الروح الخيرة للحضارة العربية الإسلامية والتي أشعت نورا وخير ليس للعرب والمسلمين فقط بل للإنسانية جمعاء .

ولا بد من العودة إلى نصوص تؤكد حرص العرب المسلمين على حسن العلقه مع غير المسلمين من أهل الأديان الأخرى ومنها عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أهل بيت المقدس . وهذا نص عهد أهل بيت المقدس الذي أعطاه لهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

" بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمتها وبريئتها وسائر ملتها . انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من غير أموالهم ولا يكرهون

على دينهم ولا يضار احد منهم ولا يسكن بايلياء معهم احد من اليهود وعلى أهل ايلياء إن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن وعلى ما في ها الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية شهد ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة خمسة عشر " . وبهذا نرى موقف الإسلام والمسلمين من أصحاب الأديان الأخرى .

وكذلك كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أهل اللد حيث جاء في كتابه : " بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسيقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من خيرها ولا مالها ولا من صلبهم ولا من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار احد منهم وعلى أهل لد من دخل معهم من أهل فلسطين إن يعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشام وعليهم إن خرجوا مثل ذلك الشرط إلى آخره ط .

إن العهد الذي اخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أهل الشام كان في غاية الاعتدال فلا قسوة ولا ظلم ولا اضطهاد ولا تعصب للدين فقد أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم ومنع هدم الكنائس أو اتخاذها سكنا ومنحهم حرية الإقامة والهجرة وكان لبيت المقدس نظرة خاصة عند العرب المسلمين لا لأنه مهد الرسالات التي سبقت الدين الإسلامي ومهبط الأنبياء الين سبقوا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وموئل الأديان التوحيدية اليهودية والمسيحية بل لأنه كان قبلة الإسلام الأولى ولان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قد اسري به من المسجد الأقصى ومنه عرج إلى السماء العلا علاقة الباري عز وجل , وكذلك فيه وقف البراق هذه العوامل كلها جعلت للشام بشكل عام وفلسطين بشكل خاص قدسية ومكانه خاصة عند العرب و المسلمين قديما و حاليا أي على مر العصور .

هذه صور للتسامح الإسلامي مع أصحاب الديانات الأخرى وتمثل بال خليفة نفسه عمر الفاروق رضي الله ع

الفارابي والمجتمع الاسلامي

من هو الفارابي هو أبو نصر محمد الفارابي الملقب بالمعلم الثاني , أي المعلم الذي يأتي بعد المعلم الأول أرسطو وقد سماه البعض معلم الصرب والمسلمين ولد الشيخ المعلم أبو نصر سنة 158 هجرية _87 ميلادية في مدينة فاراب في آسيا الوسطى وتعلم اللغة التركية والعربية والفارسية , وبعد إن تعلم هذه اللغات تخصص في عدة علوم أو اخذ يعمل في علوم مختلفة مثل الفلسفة والسياسة والآداب والقانون والاجتماع والشريعة والدين وكذلك الموسيقى والفنون فهو رجل موسوعي بحق , واشتغل بالتعليم وكذلك تأليف الكتب وعمل في جانب الإدارة في الدولة توفي بتاريخ سنة 229 هجرية 950 ميلادية .

ومن اهم مؤلفات الفارابي العلمية :

1- كتاب السياسات المدنية .

2- كتاب أهل المدينة الفاضلة .

وفي كتابه أهل المدينة الفاضلة يتحدث الفارابي عن بيان الحاجة إلى الاجتماع البشري ويقول إن الإنسان هو اخو الإنسان في قيام العلاقات الروحية والاجتماعية والبشرية. علما بان إشباع متطلباته الأساسية والاجتماعية والروحية يعتمد على توافر القوام المادي والكمال المعنوي في المجتمع الإنساني والذي تحدث عنه الفارابي يقول الأستاذ الدكتور حسان محمد الحسن في هذا الصدد ((ولا شك انه رجع في هذا الصدد إلى أرسطو ينشد حكمته وينقل عنه قضية الأساسية وهي إن الإنسان مدني بالطبع وهو بفطرته محتاج إلى الناحيتين المادية والمعنوية إلى أشياء كثيرة ليس في وسعه إن يستقل بأدائها ولا يقوى على تحقيقها منفردا حيث قال (وكل واحد من الناس مفطور على انه يحتاج في قوامه وفي إن يبلغ أفضل كما لأته إلى أشياء كثيرة لا يمكنه إن يقوم بها كلها وحدة , بل يحتاج إلى قوام يقوم له واحد منهم بشيء مما يحتاج إليه, وكل واحد من كل واحد بهذه الحالةولهذا كثرت أشخاص الناس فحصلوا في المعمورة من الأرض فحدثت منها الاجتماعات الإنسانية)) .

وهذا يعني ألان الإنسان عليه إن يتعاون مع أخيه الإنسان لتحقيق الغاية التي يصبوا إليها وهي تكوين المجتمع الإنساني أو البيئة الاجتماعية التي تلم الجميع في حضنها وتظل الجميع في ظلها.

وتحقيق سعادة الإنسان ((ولعل الكمال الذي يقصده الفارابي هو السعادة وهي فكرة منقولة كذلك عن أرسطو)) .

لان السعادة لا تتحقق للإنسان وحدة بل ضمت المجتمع وكذلك لا تتحقق هذه السعادة في الجانب المادي فقط بل هناك عوامل أخرى تعمل باتجاه تحقيق السعادة للإنسان وهي العوامل الروحية أو عوامل فكرية على اعتبار إن

السعادة إنما تتصل بأفضل القوى الإنسانية وأكملها وهي قوته الطائفة , لان السعادة هي عملية تكوين خارجي بقبول داخلي ويمكن إن نقول القبول الداخلي ينعكس على الوضع الخارجي للإنسان أي المجتمع ولذا العقل هو الذي يحدد هذا الأمر والموضوع ليس بل هناك عوامل وهي إن ((.. رغبة الإنسان في تحقيق السعادة لنيمكن إن تتم إذا استطاع تكويني هيئة أو سلطة سياسية منظمة تتولى القيام بوظائف عديدة للإفراد , ومثل هذه الوظائف ينبغي إن تجلب السعادة للمجتمع وتحقق أمانى الأفراد وإذا ما انتشرت السعادة في المجتمع وكان انتشارها يعتمد مبدأ العدالة والمساواة فإن المدينة الفاضلة التي كتب عنها الفارابي ستظهر للعيان وقد تكلم الفارابي بإسهاب عن المدينة الفاضلة وهي المدينة التي يتعاون أفرادها واحدهم مع الأخر لغرض نيل السعادة , كما يجب على كل واحد منهم القيام بعمل معين والتخصص به)) انظر القصور إحسان محمد الحسن / من رواد علم الاجتماع

والفارابي عندما ينطلق في نظرية الاجتماعية حول الإنسان إن الإنسان هو اجتماعي بالطبع وذلك لكون الغريزة الاجتماعية فطرية عند الإنسان وذلك هذه الغريزة مسيطرة عليه , وان هذه الغريزة الاجتماعية أو العوامل الاجتماعية هي التي تدفعه لتكوين تلك العلاقات الاجتماعية وذلك التضامن مع الغير يظهر أنماط اجتماعية تعاونية مختلفة منها الاقتصادية والسياسية والدينية والروحية والثقافية وكذلك بناء وتحديد العلاقات القيمية . وعن الاجتماع البشري عند الفارابي يقول الدكتور محمد الحسن ((وبخصوص حقيقة الاجتماع البشري يتكلم الفارابي عن طبيعة العلاقات بين الفرد والجماعة فيقول إلى الفرد هو الوحدة الأساسية في المجتمع , ولولاه ولولا وجوده لما ظهر المجتمع ولما استطاع إن يتطور وينمو ويتقدم في معالم الثقافة والحضارة , والفرد يحتاج إلى المجتمع لان الأخير هو الذي يمكن الفرد من تحديد طموحاته وأمانيه وأهدافه , وانه أي المجتمع يزود الفرد بالمهارات والقابليات ويعلمه العادات والتقاليد والقيم ويلقنه اللغة التي يتكلم بها والدين الذي يؤمن به ويحميه عندما تداهمه المخاطر والتحديات . ومن جهة أخرى يرى الفارابي بان المجتمع يحتاج إلى أفراد يعتبرون بمثابة الوحدات العاملة التي تحقق أهدافه وتدافع عن مصالحه وتتخذ الاحراءات والمواقف التي من شأنها إن تطور المجتمع وتدفع حركه إلى الإمام)) .

إما خصائص المدينة الفاضلة فهي عند الفارابي كما يلي:

- 1- يكون مبدأ التعاون هو الأساس بين الفئات الاجتماعية في المدينة الفاضلة.
- 2- تقسم العمل بين سكان المدينة الفاضلة وهذا التقسيم يعتمد على الصنف او النقاية والوراثة , ولكن نوع العمل الذي يمارسه الفرد في أي نوع من أنواع العمل.
- 3- لا تكون هناك سعادة في المدينة الفاضلة إلا إن يقوم كل فرد بعمله و واجبه على أحسن ما يرام , ولن يتدخل فرد في شؤون وعمل الفرد الأخر .
- 4- تتكون المدينة الفاضلة من عدة طبقات اجتماعية مثل الحكام والقادة ورجال الدين , وكذلك طبقة العسكرية وطبقة الصناع والفلاحين .
- 5- المدينة الفاضلة تتكون نظام متكامل فهي تشبه الكائن الحيواني مع اختلاف في الجانب الحياتي والجانب الوصفي للمسائل التي تتكامل بتا المدينة الفاضلة السياسية والاقتصادية.....
- 6- لا تكون هناك مدينة فاضلة ما لم يضحى الجميع من سعادة الجميع , والفرد من اجل الجماعة والجماعة من اجل الأفراد , العمل بنكران الذات .
- 7- المدينة الفاضلة غير ساكنة بل تنمو وتتحوّل وتتطور بمرور الوقت والزمن . حيث تتحوّل من مجتمع صغير إلى مجتمع كبير لكن يبقى التجانس هو , هو .
- 8- والراية في المدينة الفاضلة هي اهم موقع واهم عمل يكون في المدينة الفاضلة . ومنزلة الرئيس من الأفراد في المدينة الفاضلة مثل منزلة القلب من الجسم كما يرى الفارابي.
- 9- ((تركز المدينة الفاضلة على أسس دينية وفلسفية مستنبطة من تعاليم وممارسات الإسلام لاسيما ما يتعلق منها بالمبادئ والمثل والقيم التي يؤكد عليها الإسلام كما جاء ذلك في الآيات القرآنية الكريمة و الأحاديث النبوية الشريفة الإسلامية)) .
- 10- يقول الدكتور إحسان محمد الحسن حول الرئيس في المدينة الفاضلة - ((يعتقد الفارابي بان المجتمع الفاضل هو الذي يقوده رئيسا متميزا بصفات فطرية ومكتسبة نادرة , وان المجتمع لا يكون فاضلا إلا إذا سار أعضاء وه على غرار رئيسهم بحيث أصبحوا صورة منه , وان الرئيس لا يعد مؤديا لرسالته إلا إذا وصل بهم هذا المستوى الرفيع وهنا يقول الفارابي بان أجزاء المدينة الفاضلة أي أهلها وإفرادها . ينبغي تحثي بأفعالها مقصد رئيسها)) .

- ووضع الفارابي صفات للقائد منها :
- 1-إلا يوجد نقص في عقله أو حواسه .
 - 2-سريع البديهة والفهم بالطبع
 - 3-ذو ذاكرة حادة وقوية حافظه .
 - 4-ذكي وفطن ولبيب .
 - 5-قوي العبارة حسن اللسان .
 - 6-محباً للعلم والعلماء ومشيعاً له ويكون هو النموذج لهم .
 - 7-معتدل في الأكل والمشرب ومتواضع في الملبس محافظاً على الوقت .
 - 8-صادقاً ويحب الصادقين ويعزز قيم الصدق.
 - 9-عنده كبرياء غير متعالي أي عزة نفس .
 - 10-إلا يكون محباً لجمع الأموال والأطيان.
 - 11-عادل مع الناس ومع الخاصة والعامة لا يفرق بين احد يكره الظلم والجور.
 - 12-قوي شجاع وقت حاجة القوة ليس سهل وقت المرونة.

سوسولوجيا التاريخ الاسلامي

تميز المجتمع العربي الإسلامي في مرحلة النضج بطبقاته المتباينة وعلى رأسها الطبقة التي تتألف من الخلفاء والأمراء والوزراء وقادة الجند وغيرهم وهذه تسمى طبقة الحكام وهؤلاء اتجهوا في العصر العباسي نتيجة :

1. التفاعل الحضاري مع اهم وشعوب أخرى .
2. سعه الدولة و اطلاع على عناصر حضارية مختلفة
3. كثرة موارد الدولة المالية للدولة في العصر العباسي
4. عامل الاستقرار وبعد العمليات العسكريةين اغلب مناطق القلب في الدول العربية الإسلامية بل كانت حروب الفتوح تدور في الأطراف البعيدة أو الثغور

هذه العوامل كلها دفعت الطبقة المشار لها في ذلك العصر إن تميزه ببناء القصور الفخمة والعظيمة وتأثيرها بأفخم الأثاث والرياش حتى غدت حياة القصور سمة بارزة في حياة ذلك العصر وسمات المجتمع في تلك المرحلة أي مرحلة العصر العباسي ولكن هذا الموضوع لا يعمم على خلفاء بني العباس بل كان لبعض الخلفاء تميزه بالتقوى والبساطة والتثقف مثل المهدي إلا الغالبية

نزعت إلى حياة الترف حتى غدت قصور الخلفاء والأمراء العباسيين في بغداد مادة لكثير من القصص الذي امتزجت فيه الحقيقة بالخيال ويقال إن المتوكل الخليفة العباسي بني في سامراء تسعة عشر قصرا له شخصيا وشق الترع والقنوات لتوصل الماء إليها ولأي ما حولها من حدائق وبسلتين وكان المتوكل يقضي وقته متنقلا بين القصور التي بناها وهو يردد " علمت الآن إني ملك " وان ما تفيض به مصادر التاريخ المعاصرة من أوصاف لتلك القصور وما كان يجري فيها وما ازدانت به من ذهب وفضة وفسيفساء ورخام وما فرشت به من بسط فاخرة وستائر من الديباج الموشح ليدل على مدى ما غرقت بعض الحكام من ترف عندئذ " .

وكانت العيشة في تلك التي عاشوها الخلفاء العباسيين وحاشيتهم وحریمهم عيشة تتصف بالبذخ والترف فارتدوا الملابس الفاخرة المصنوعة من الأقمشة الثمينة الموشاة بالذهب و الفضة والمرصعة بالجواهر وتفنت النساء داخل تلك القصور في اختيار أزيائهن الثمينة المحلاة بخيوط الذهب والجواهر وعلى رؤوسهن العصائب المرصعة بالدر والياقوت والأحجار الكريمة مع التزين بالقلائد والأكاليل والتيجان والمناطق والخلاخيل الثمينة .

إما الحياة داخل هذه القصور فقط اتصفت بالنشاط و ابذخ وتنوع الحفلات التي تقام لشتى المناسبات كالزواج والختان وغير ذلك وفي تلك الحفلات تعرض صواني من الذهب الخالص مرصعه بالجواهر المختلفة والخدم يأتون بأوعية وسلال مملوءة بالدرهم والدنانير يصبونها على أيدي المدعويين وهم يطلقون الصيحات والأصوات ويقولون ط إن أمير المؤمنين يقول لكم : ليأخذ من شاء ما شاء " ويقال إن أمير الأمراء ابن رائق انفق خمسة عشر ألفا من الدنانير في حفل زواجه وهو مبلغ ضخم بالنسبة لمستوى المعيشة والأسعار في ذلك الوقت وأنواع المواد المتوفرة على اختلافها فهي قليلة حتما " الذي يحكي عنه الخطيب البغدادي فيقول انه سمع من يردد " رأيت في زمن أبي جعفر كبشا بدرهم وحملا بأربعة دوانق .. والدانق سدس درهم والتمر ستين رطلا بدرهم والزيت ستة عشر رطلا بدرهم والسمن ثمانية أرتال بدرهم ... وكان ينادي على لحم البقر تسعين رطلا بدرهم ولحم الغنم ستين رطلا بدرهم "

وهناك ميزة أخرى لتلك القصور وهي تميزها بتنوع المجالس التي كانت تقام فيها حيث تعددت أنواعها وكان من أهم تلك المجالس مجالس الغناء والطرب والموسيقى ومجالس القصاصين أو القصاص ومجالس الوعاظ إما فنون الطرب من الغناء والموسيقى وغيرها فقد تطورت في العصر العباسي تطورا مهما وواضحا وذلك للأسباب التالية :

1. الاختلاط بالعناصر الأعجمية من فرس وروم
2. كثرة الجواري من تركيات وفارسيات وغيرهن
3. تشجيع الخلفاء العباسيين للغناء وللمغنين وبذل العطاء لهم وإكرامهم
أكراما يقف عنده المرء .

ومن المغنين الذين اشتهروا في تلك الفترة ابراهيم الموصلي واسحاق ومخارق وزمام الزامر وعسرب إما الجواري فيشتهر منهن واللاني يقمن بالعزف على الآلات الموسيقية فعددهن كبير جدا نذكر منهن للمثال وليس للحصر شاجية جارية عبد الله بن طاهرو عبيدة الطنبورية .
وكان الربط قوي بين مجالس الغناء والشرب في الأعم والأغلب لكن في بعض الأحيان وفي أوقات كثيرة كان للشرب مجالس خاصة وكانت تنفق على هذه المجالس أموال طائلة و ربما يقضي فيها الندماء وقتا طويلا يناقشون فيها أنواع السراب وخصائص كل نوع و للرقص نصيب في هذه القصور وفي هذه المجالس وبشكل خاص في حفلات الأفراح المختلفة حيث ترتدي الراقصات الثياب المزركشة ويحملن الزهور والرياحين ويؤدين رقصاتهن على إيقاع الموسيقى .

فإذا عدنا إلى مجالس القصاصين فإن منها ما يعقد داخل القصور ومنها ما يعقد في الأماكن العامة وكان المفروض منها إن تكون ذات هدف تربوي وتحدث على السير في الطريق القويم والصحيح وتعلم ذلك للناس وذلك بترديد القصص الديني وأخبار السلف الصالح لكن القصاصين ما لبثوا إن انحرفوا عن هذا الهدف وأصبح هدفهم الأول تحقيق الكسب المادي عن طريق التحدث بالقصص الخرافي الذي يرضي ويتلاءم مع أذواق المستمعين له وكثيرا ما كان يجلس القصاصون في المساجد أو الطرقات أو الأسواق و المقابر يرددون قصصا لا تخلوا من نزعة مغضومة ماجنة الأمر الذي أدى إلى غضب الأتقياء والعلماء ورجال الدين لذلك دعوا إلى وقف نشاط القصاصين وفعلا استجاب الخليفة العباسي المعتد بالله فأصدر أمرا بمنع القصاص من الجلوس في الطرقات ثم شدد حيث امر سنة 367 هجري 977 ميلادي بمنع القصاص من الظهور في الأماكن العامة اطلاقا بل إن الخليفة العباسي القادر بامر الله امر سنة 1017 ميلادي بضرب القصاص واتخذت إجراءات مشددة للقضاء عليهم .

ولمجالس الوعاظ موقفها في ذلك العصر وارتجى منها إن تكون ذات صبغة دينية بناءة يشرح فيها الوعاظ المسائل الشرعية ويجيبون الحاضرين على أسئلتهم ومما لا شك فيه إن هذه المجالس بدأت بداية طيبة حسنة فنهضت بأعباء رسالة لها خطورتها وهي توجيه الناس إلى الطريق القويم وعمل

الخير والتوجيه نحو الرشاد لكنها أخذت تتغير وخصوصاً في القرنين الثالث والرابع الهجري والذين يقابلان القرنين التاسع والعاشر للميلاد حيث تحولت مجالس الوعظ إلى وسيلة للكسب ونتج عن هذا التوجه عنه ما يأتي :

انحطاط المستوى الفكري للوعاظ

1. تحولت إلى وسيلة للارتزاق

2. كثرت في أحاديث الوعظ الخرافات والبدع

3. أصبحت عنصر فرقة وإثارة المشاكل وذلك لإثارة فرقة على فرقة من

الفرق الإسلامية التي ظهرت في تلك الفترة من العصر العباسي مما

جعلها تدفع إلى المشاكل .

أصبحت تلك المجالس بالصبغة السياسية وذلك لاستغلالها من قبل بعض الحكام ضد خصومهم.

ولما أحست الدولة العربية الإسلامية بخطر أمر هؤلاء وخصوصاً في عهد

الخليفة العباسي القادر بأمر الله صدرت التعليمات إلى الوعاظ بعدم

الخوض بالمسائل المختلفة وتحديدًا مجال وعظهم في مجال واحد محدد

وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكان ذلك في أواخر القرن الرابع

الهجري القرن العاشر الميلادي

مولد المجتمع الاسلامي

ولد المجتمع الإسلامي مع مولد الدولة العربية الإسلامية وذلك بهجرة

الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة

وجاء مولد ذلك المجتمع بين أحضان المجتمع العربي الكبير والذي شمل

الجزيرة العربية وبعض من استخدمها والذي كان مزيجاً من التنقضات

الخلقية، والعادات والتقاليد المتباينة .

والإسلام لم يلجأ إلى الفطرة في الغير والإصلاح وإنما عالج الأوضاع

الاجتماعية عند العرب بطريقته تدريجية بناءة فأقر ما هو صالح منها وعدل ما

يتطلب التعديل وأبطل ما رآه غير صحيح وغير سليم أو يتعارض مع روح

الإسلام ومبادئه ومثله وآدابه .

وقد اتصف المجتمع العربي الإسلامي الجديد في صدر الإسلام بالحرص الحنيف حيث اتسم المجتمع العربي الإسلامي حتى نهاية حكم الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم جميعاً بالبساطة الشديدة والمطلقة حيث كان الزهد والتقوى والتسامح الحقيقي مع المبادئ الدينية فجوة بين حاكم ومحكوم ولا بين قوي وضعيف ولا بين عربي وأعجمي والمقياس الوحيد لتفضيل مسلم على مسلم آخر هو التقوى بمعناها الكبير الواسع كذلك عمل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم عقب الهجرة مباشرة على رسم الخطوط العريضة للعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين وبشكل خاص أهل الذمة من اليهود والنصارى وذلك وفقاً لأحكام الله وما جاء في كتابه المبين .

وظل الحج إلى بيت الله الحرام يمثل عن راية الإسلام أكبر لقاء بين المسلمين حافلاً له طابعه الاجتماعي الواضح وهو ما يشبه مؤتمراً سنوياً كبيراً يجمع مندوبي الأقاليم والولايات والأمصار والقبائل يأتون من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات وفي هذا المؤتمر الكل سواء بين يدي الله سبحانه وتعالى لا فرق بين أبيض وأسود ولا بين أصفر وأحمر أو بين صغير وكبير وتحت مظلة الإسلام يتفاعلون بعضهم مع بعض اجتماعياً ويتداولون أمورهم وأمور دينهم ودنياهم ثم يعودون إلى بلادهم بعد انقضاء شعائر الحج وقد حملوا إلى إخوانهم المسلمين في بلدانهم كثيراً من الأفكار والآراء والأخبار وربما العادات والتقاليد .

ولم يكن منتظراً مع بداءة حروب التحرير والفتوحات التي قام بها العرب المسلمين أن يحدث تغير سريع ومفاجئ في أوضاع المجتمع العربي الإسلامي لأن العرب المسلمين كانوا عندئذ قريبي عهد بالرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم وتعاليمه يحكي ابن خلدون ابن خلدون أن العرب ملكوا فارس وعلى الرغم من الغنائم الضخمة التي أصابها العرب المسلمون الأوائل في حروب تحريرهم وفتوحاتهم، إلا أن بساطة الإسلام وبساطة المنبت ظلت غالبية عليهم فكان الفارس الواحد يقسم له في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب أو نحوها فاستولوا من ذلك على ما لا يأخذه الحصر، وهم مع ذلك على خشونة عيشهم، فكان عمر يرفع ثوبه بالجلد وكان علي يقول يا صفراء ويا بيضاء، غري غيري، وكان أبو موسى الأشعري يتجافى عن أكل الدجاج لأنه لم يعهدها للعرب لقلتها يومئذ، وكانت المناخل مفقودة عندهم بالجملدة وإنما كانوا يأكلون الحنطة بنخالها، ولكن واقع الأمر قد تغير على عهد عثمان بن عفان وذلك

لكون الوضع الاقتصادي أخذ يرتفع والمستوى المعاشي أخذ يتغير بسبب عوائد حروب التحرير والفتح وكثرة الغنائم أخذ بعض الصحابة يقتني الضياع والأموال، ولكن هذا الأمر قد تم داخل إطار الدين ولم يكن هناك شيء فعلوه يعتبر خرق للدين الإسلامي وتعاليمه، لأنه مال حلال، أتى عن طريق غنائم وفيؤ أهلها الله، ثم أنهم قاموا للأداء ما عليهم من الزكاة، علماً إنهم لم يتصرفوا بأموالهم بعتو وإسراف وهكذا فإن الثروة الكبيرة المفاجئة لم تفلح في تلك في تغيير الملامح الأساسية العامة للمجتمع العربي الإسلامي الفتي .

تطور المجتمع الاسلامي

فالدولة الأموية التي قامت على أسس من السياسية والسيف اتخذت خطأ من شأنه أن يبتعد بالمجتمع العربي الإسلامي تدريجياً عن بساطته الأولى والتي تحلى بها، مما لاشك فيه أن نقل عاصمة الدولة العربية الإسلامية إلى دمشق بدل من المدينة المنورة جعل الحكام الجدد من الأمويين يبتعدون عن المذيع الأول للإسلام والذي يجعل بالمثالية والقيم والبساطة والسمو، وينقسمون في المجتمع ينطق كل أثر فيه بترف الروم وبذخهم والصبغة المادية والتي اصطبغت بها الحضارة الرومانية، هذا إلى جانب أن حركات التحرير والفتوح العربية الإسلامية وانتشار الإسلام في أوسع رقعة من الكرة الأرضية ودخول الإسلام أمم وشعوب مختلفة من غير العرب، لأن هذه الحركة بلغت ذروتها في العهد الأموي، ولذلك القسم الأكبر من هذه المكاسب والأموال على عاصمة الدولة العربية الإسلامية دمشق، هذا من جهة فإن انتشار الإسلام ودخول شعوب وأمم مختلفة لها ثقافتها وتراثها وحضارتها، وعاداتها وتقاليدها، هنا ندرك ما حدث من تفاعل اجتماعي عن بعيد المدى بين العرب الناشرين للدين

الإسلامي والمحربين للشعوب، وأخذ ذلك دوراً تفاعلياً إيجابياً على ضوء هدى الإسلام لأن المسلمون أخوة وبأن الناس جميعاً لأدم، وأدم من تراب .

"وفي المسيرة الاجتماعية للدول والأمم والشعوب يبرز مبدأ عام يتحكم في توجيه تلك المسيرة، خلاصته أن الناس على دين ملوكهم، بمعنى أن المحكومين مولعون بمحاكاة حكامهم، وأن المؤثرات الاجتماعية تنتقل من أعلى إلى أسفل ومن الطبقات العليا إلى ما دونها من طبقات " .

ولذا فإن ما يقال من أن التطور الذي شهده المجتمع العربي الإسلامي في عصر الخلافة الأموية كان تطوراً طبيعياً، قد أملت الظروف الجديدة التي أحاطت بالدولة العربية الإسلامية من اتساع وثراء وتنوع في تركيبها البشرية، ورغم من كل هذا لا يمكن لأحد أن يعفي بعض الحكام في العصر الأموي من مسؤولية دفع عملية ذلك التطور، وتقول بعض الحكام حتى نحتفظ بحق البعض الآخر من الخلفاء الصالحين، أمثال الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وما احتله من مكانة سامية في التاريخ .

وفي واقع الأمر أن المؤرخ المدقق لا يستطيع أن ينكر أن المجتمع العربي الإسلامي قد دخل مرحلة جديدة وتغيرت أوضاعه بسرعة بعد عصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، إذ ومنذ وقت مبكر كانت قد ظهرت في العصر الأموي مسحة قوية، من الترف والبدخ أدت إلى تسرب تيار من الإسراف، بعيداً كل البعد عن روح الإسلام ومبادئه، ولم يلبث أن أخذ الغناء يحل محل تلاوة الشعر، كما حلت مجالس الشرب محل مجالس الأدب . وعليه بعد هذا الاتجاه الجديد الذي ظهر في الدولة العربية الإسلامية على عصر بني أمية جعل الناس يحاكون ما يجري الأوائل أن يقوموا بنقد خلفاء بني أمية نقداً مرأ .

من ذلك ما يذكره المسعودي في كتابه مروج الذهب من أن يزيد بن معاوية " كان صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب... وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق " .

أما الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك فقد بالغ في التفنن في زينته وملبسه، حتى إنه في يوم الجمعة من ولايته لبس الفاخر من الثياب، وتعطر، وأمسك بالمرأة وجمع الجمعة، وخطب خطبته، وقد أعجب بنفسه، فوقف على

المنبر يردد " أنا الملك الشاب، السيد المهاب، الكريم الوهاب " ومثل هذا يقال عن يزيد عبد الملك بن مروان، وقعته معروفه مع سلامة القس والتي شغف بها حباً، ثم مع حباية ... أما هشام بن عبد الملك بن مروان فقد شغف بالخيل وسباقها ولأجل ذلك أقام حلبه، فاجتمع فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف وهكذا حتى كان الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان في أواخر العصر الأموي، فوصفته المصادر بأنه " صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغذاء، وهو أول من حمل المغنين من البلدان إليه، وجالس الملهين، وأظهر الشراب والملاهي والعزف " أما الطبري فقد وصفه بأنه " تمادى في الشراب وطلب الملذات فأفرط " .

الفلسفة في المغرب والاندلس

كان المغرب يسير على وفق عقيدة أهل السلف وظلوا هكذا على هذه العقيدة حتى ظهور المهدي محمد بن تومرت صاحب الدعوة الموحدية، إذ كانت دعوة هذا الرجل توحيد محض، فلذلك تحدى علماء المرابطين ورماهم والمتشابهات وظل يقاومهم حتى سقطت الدولة المرابطية وقامت على أنقاضها الدولة الموحدية والتي تحمل مذهباً جديداً دعى إليه ابن تومرت .

وفي ذلك يقول المراكشي " كن جل إليه ابن تومرت علم الاعتقاد على طريق الأشعرية . وكان أهل المغرب ... ينافرون هذه العلوم ويعادون من ظهرت عليه شديداً أمرهم في ذلك " .

وليس هناك من شك من أن ابن تومرت قد كون أو شكل عقيدة من المذاهب الإسلامية التي سبقته ولكنه خرج في النهاية بعقيدة توحيدية متميزة خاصة به، فأذن ما هي هذه العقيدة الجديدة لو التموميريه إن صح القول، فهذه العقيدة هي مزيج من المذاهب الكلامية، فهي ليست أشعرية خالصة كما ذكر ذلك كلاً من المراكشي وابن خلدون ولا خارجية كما رآها علماء المرابطين، ولا

في اعتزالية نسبة إلى المعتزلة والتي تقول بالأدلة العقلية وحدها، وهي بالسلفية والتي تنأى عن الرأي والتأويل المذاهب التي أشرنا إليها وغيرها، وهناك اتجاه مه في هذه العقيدة ولم يشير له المؤرخون وهو الاتجاه أو المذاهب الحزمية نسبة لابن حزم الأندلسي قد توافرت في هذه العقيدة الجديدة التومرتية .

فقد كان ابن تومرت متأثراً إلى حد ما بمذهب العلامة الأندلس ابن حزم وهذا ما يرجح الأمر القائل بأن تومرت قد قص شطراً من حياته الدراسية بالأندلس قبل أن يقصد إلى معاهد الشرق وأنه نهل إلى حد ما من معين الثقافة الحزمية التي كانت تتألف حينئذ في قرطبة عاصمة الخلافة الأموية في الأندلس

ولكي نرى مدى تأثير ابن حزم على ابن تومرت في جانب عقيدة نرى بعقد مقارنة كما يقول الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن " كان من الضروري أن نعقد مقارنة بينهما في هذا الصدد، ولكنه من العسير أن نعقد مقارنة كاملة بين الإمام ابن حزم وبين المهدي بن تومرت في ميدان التوحيد لسبب أساس وهو أن ابن حزم له مذهب كلامي منفصل واضح المعالم محدد المنهج، إذ ناضل المعتزلة والأشعرية والخوارج والشيعية والمرجعة وانتهت من هذا النضال إلى نتائج تميز مذهبهم، وتعين مدرسته وتبرز شخصيته وبهذا الجهد المتواصل انفصلت شخصية المذهب الحزمي عن شخصية المذهب الظاهري الذي فضله ابن حزم على جميع المذاهب وأعجب به .

ويضيف أنا المهدي ابن تومرت فلم يناضل المذاهب الكلامية نضالاً علمياً، ولم يقدم لنا نظريات وأراء نستطيع بها أن نبني له مذهباً خاصاً .

وكل ما يمكن أن عمله من مقارنة هو مقارنة عقيدته المدونة بكتابة أعز ما يطلب بأراء غيره في ميدان العقيدة، لنرى مدى التشابه أو المخالفة بينه وبين أهل المذاهب الكلامية المفصلة مثل ابن حزم .

وأنا نعتقد أن سبب عدم ترك ابن تومرت كتاباً دون فيه فكره وعقيدته كما فعل أغلب أصحاب العقائد مثل الأشعرية والمعتزلة والحزمية وغيرهم كثيرون من أصحاب الملل والنحل والعقائد، هو لكونه خاض صراع حربي مرير مع المرابطين والذين أخذوا صراع الأغلب من وقته في القتال معهم .

" والتفنن في كيفية قهرهم، وصرف الناس عن اتباع مذهب السلف الذي قد يجر معتقيه إلى التشبيه والتجسيم" لكن هناك حقيقة يجب أن يقال عن ابن تومرت وهي أن هذا الرجل من الناحية العلمية يعتبر من الشخصيات العلمية البارزة في التاريخ العربي الإسلامي، حيث انتهت دعوة بإسقاط دولة عنيدة وإقامة دوله مكانها .

أما ابن حزم فقد فشل في نشر مذهبه ف حياته وذلك :

1- لما تعرض له من اضطهاد من قبل السلطات الحاكمة .

2- موقف أصحاب المذهب الأوسع في المغرب العربي والأندلس من مذهبه وعقيدة وهي الوقوف ضدها .

مما دفع المعتمد بن عبا بحراق كتابه والضغط عليه وتحجيمه إلى أن مات رحمه الله مهيب الجناح .

وابن تومرت مصلح ديني أكثر منه صاحب نظرية وعقيدة مذهبية وإن لم يترك مذهباً كلامياً كما يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن وإليك أيها القارئ نص من عقيدة المهدي ابن تومرت كما دونها وثبتها في مؤلفه أو كتابه أعز ما يطلب والذي قال فيها ابن تومرت وهي تحت عنوان { توحيد المخلوقات لا إله إلا الذي دلت عليه الموجودات، وشهدت عليه المخلوقات بأنه جل وعلا وجب له الوجود على الإطلاق، من غير تقييد ولا تخصيص ولا صورة ولا شكل ولا مقدار ولا هيئة ولا حال .

أول، لا يتقيد بالقبلة، آخر، لا يتقيد بالبعدية، أحد، لا يتقيد بالأينية، حمد، لا يتقيد بالكيفية، عزيز، لا يتقيد بالمثلية، لا تحده الأذهان، ولا تصور الأوهام، ولا تلحقه الأفكار، ولا تكيفه العقول، لا يتصف بالحيز أو الانتقال، ولا يتصف بالتغير والزوال، ولا يتصف بالجهل والأضرار، ولا يتصف بالعجز والافتقار، له العظمة والجلال، وله العزة والكمال، وله العلم والاختيار، وله الملك والافتقار، وله الحياة والبقاء، وله الأسماء الحسنى .

وأحد في أزلته، ليس معه شئ غيره، ولا موجود سواه، ولا أرض
وسما، ولا ماء ولا هواء، ولا خلاء، ولا ملاء، ولا نور ولا ظلام، ولا ليل ولا
نهار ولا أنيس ولا حسيب .

ولارز، ولا همس، إلا الواحد القهار، انفرد في الأزل بالوحدانية، والملك
والألوهية، ليس معه مدير في الخلق ولا شريك في الملك، ليس معه مدير في
الخلق ولا شريك في الملك، له الحكم والقضاء وله الحمد والثناء، لا دافع لما
قضى ولا مانع لما أعطى، يفعل في ملكه ما يريد ويحكم خلقه ما يشاء، لا
يرجوا ثواباً ولا يخاف عقاباً، ليس فوق أمر قاهر ولا مانع زاجر ليس عليه
حق ولا عليه حكم، فكل نعمة منه فضل، وكل نعمة منه عدل، لا يسأل عما
يفصل وهم يسألون " .

أما ابن حزم فقد تأثر بمذهب داود الظاهري في الفقه والعقيدة على
السواء، بل لقد زاد عليه في تمسكه الشديد والعقيدة على السواء، بل لقد زاد
عليه في تمسكه الشديد بظاهر القرآن الكريم والحديث الشريف في العقيدة فكان
ابن حزم لا يقول بصفات الله ولا يقول بالتأويل ولذلك حمل دلو المعتزلة ودلو
الأشعرية في غير هوادة .

المعتزلة والمجتمع

أما عن البعد الاجتماعي لفكرة الحرية، والاختيار عند المعتزلة، فهناك الكثير من الأفكار الأولية التي تسير إليها والتي كانت قد تناثرت في مصنفاتهم والتي ساعد القدر في وصولها إلينا .

ويمكن أن نحدد الفكر الاجتماعي عند المعتزلة ذلك من خلال :

1- وجود ما هو مثبت عن الفكر الاجتماعي في التراث العربي الإسلامي ومن البواكير الأولى له .

2- بعض القضايا الاجتماعية التي عالجها المعتزلة وبشكل خاص في موضوع الحرية والاختيار .

الفكر الاجتماعي ووجوده ودوره

إن الحديث عن العدل الاجتماعي في فكر المعتزلة لم يكن بدءاً بالأمر الغريب، فهم بشر يعيشون في مجتمعات تشهد ألواناً من الصراع بين قوى اجتماعية مختلفة، تجتمع وتتفرق من حول مصالح تعرضها طبيعة الحياة والناس .

ولقد كان الحديث عن العدل الاجتماعي معناه والمدى الذي لا بد للناس من بلوغه منه، ومشاكل الأرض المحررة والمفتوحة وثرواتها، وطريقة توزيعها دار حولها الصراع منذ زمن خلافة عثمان بن عفان .

ومن الأدلة على ذلك قول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لعثمان بن عفان، وهو محاصر في بيته من قبل الثأريين على أوضاع الدولة الاقتصادية وسياسة عثمان وولاته حيث قال له الإ ما علي (الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتك، ولا يرضون إلا بالرضى) ومن الأمور التي عيب عليها عثمان بن عفان " حمى الحمى عن المسلمين (أي حبس ومنع عنهم المراعي العامة" مع أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم جعلهم سواء في الماء والكلاء.

بل أن دور العوامل المادية وقضايا المال ومعضلات الاقتصاد في الأحداث السياسية، لد كان محل ملاحظة وانتباه ودراسة بعض رجالات المعتزلة أو أهل العدل والتوحيد أولئك الذين رأوا خلف الشعارات والجوانب الفكرية لصراعات علي ومعاوية مواقف اجتماعية ساهمت في تحديد المعسكرات ومواقف الكثيرين من الذين نزعوا عمليات هذا الصراع .

وأشاروا إلى الجوانب الاقتصادية والمادية وجمع الثروات ولحق بها متطورات اقتصادية مستحدثة في المجتمع العربي الإسلامي، والأموال التي حيزت مؤخراً، والخروج عن منهج الإسلام في العدالة الاجتماعية، ودور كل ذلك مناصرة معاوية ضد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وهو الحق أن يناصر على معاوية الذي تجاوز على المثل والقيم المتبعة في الخلافة العربية الإسلامية " وذكروا أن من أسباب اختلاف البعض مع علي بن أبي طالب بعد بيعتهم له، الملزمة لهم " أنه عليه السلام قسم بينهم بالسوية ولم يفاضل، فغضب عند ذلك القوم " وشقوا عليه عصام الطاعة، ولكنه لم يعبأ بعصيائهم، وخطب عليه السلام قائلاً " أأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه " ... لو كان المالك لي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله " .

كما وردت في مصنفات أهل العدل والتوحيد المعتزلة إشارات إلى دور المال وأثره في الصراع وأهمية الثروات في تحريك بعض القادة الكبار في هذا النزاع، فلقد قيل مثلاً، أن الغنائم والأموال قد لعبت دوراً في طلحة والزبير ضد الإمام علي بن طالب، فقد روي وهب بن جرير : قال رجل من أهل البصرة

لطلحة والزبير : أن لكما صحبة، وفضلاً، فاخبراني عن مسيركما هذا وقتالكما الشيء أمركما به النبي صلى الله عليه وسلم، أم رأى رأيكما ... فأما طلحة فسكت وجعل يركض الأرض، وأما الزبير فقال ويحك أخبرنا أن ههنا دراهم كثيرة فجننا لناخذ منها .

ومهما يكن من دور للأحقاد والإحن، التي خلقتها هذه الصراعات، في صياغة مثل هذه الأخبار وتلك الآراء، إلا أن الذي يعيننا بالدرجة الأولى هي النظرة الاجتماعية التي نظر من خلالها هؤلاء المفكرون لدور قضايا المال ومعضلات الاقتصاد والثروات أحداث السياسة وصراعات وتحريك جيوش، وكذلك ذكرهم في مصنفتهم ولو كان شيء يسير وقليل فيها فكر اجتماعي لا سبيل إلى تجاهله أو نكرانه بحال من الأحوال .

ب- بعض القضايا الاجتماعية والتي عولجت في ضوء فكر الحرية الاختيار

هناك في ما كتب المعتزلة نصوص كثيرة متناثرة لكنها إذا جمعت تمت ما يمكن أن تطلق عليه " الفكر الاجتماعي المعتزلي " " أقامت بناء فكريا يمثل لنا العبد الاجتماعي لفكر الحرية والاختيار عندهم وسنختار هنا مجموعة من النصوص التي عالجوا بها مجموعة من القضايا الاجتماعية، كنماذج للدلالة على صدق ما ذهبنا إليه : -

1- في رسائل العدل والتوحيد، التي جمعناها، وحققتها يتحدث الإمام القاسم الرسي عن الأموال والثروات التي تتكون في ظل المجتمعات التي يسودها الظلم والفساد، فيرى أن هذه المجتمعات تلوث تلك الثروات بنسب من الظلم ولاغتصاب والاستغلال، ولذلك فإن نقاء هذه الثروات وطهارتها وحلها ليست كاملة، ويترتب على ذلك أن حرية الإنسان في التمتع بها ليست قائمة ولا مشروعة، فحقوق المستضعفين المغتصبة قد تحولت إلى قيود على حرية تعرف الحائزين والمختصين لهذه الأموال، وهذه الظروف التي تحد من حرية الحائز للثروة هي في نفس الوقت بمثابة الظروف التي تمد نطاق حرية أصحاب هذه

الأموال الشرعيين كي يطالبوا باسترداد حقوقهم المسلوبة واسترجاع أموالهم من المغتصبين .

والنص الذي يمكن أن يعطينا هذا المعنى، يقول " أن التغلب بالأموال والتجارات والمكاسب في وقف ما تعطل فيه الأحكام وينتهب ما جعل الله للأرامل والأيتام والكافيف والزمناء وسائر الضعفاء، ليس من الحل والإطلاق كمثلة وفي وقت ولاية العدل والإحسان والقائمين بحدود الرحمن " .

2- ونرى في نفس هذه الرسائل، يتحدث الإمام يحيى بن الحسين فيفيض فقي تقرير هذا المعنى الذي قدمناه، وذلك عندما يتعرض للموقف من الأرزاق، أمقدره هي أم غير مقدره ... ومقسومة هي ؟ أم غير مقسومة ومن الذي قدرها وقسمها ... فيرى أن حيازة المال لا تعني أن يطلق الشرع حرية التصرف فيه لحائزة، إذا هنا تكون أوسع نطاقاً من حرية الحائز له، ولو مضت أزمان طويلة على هذا الاغتصاب والاستغلال، وكذلك يستنكر الإمام يحيى بن الحسين ما قاله الحسن بن محمد بن الحنيفة من أن الأموال (رزق) للحائزين لها ويقول " كيف يقول الحسن بن محمد : أن الله رزق هؤلاء الظالمين المعتدين الفاسقين رزقاً، ثم صيره لهم، وسلمه في أيديهم، ثم يعذبهم عليه ويحاسبهم فيه ؟ ... أم كيف يجترى ويقول أن الله ... جعله لمن حكم له به من ضعفه المسلمين، ثم انتزعه منهم فجعله رزقاً للأغنياء الفاسقين ... فكيف يكون ذلك، والله سبحانه وتعالى، يقول (لكيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم) (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) .

فعلم أن في خلقه من سيأكل مال اليتامى عدواناً وظلماً فنهاهم عن ذلك، وحرمه عليهم، وحكم بالسعير لمن استخار ذلك فيهم، أفيقول المبطلون : أن الله سبحانه وتعالى جعل أموال اليتامى لمن نهاه عن أكلها، رزقاً، ثم نهاهم عن أكل مار رزقهم وأتاهم ؟ ... ثم يقال لهم ما تقولون فيمن غصب مالا فأخذه ... أتوجبون عليه الزكاة، أم توجبون رده إلى صاحبه عليه ؟ ... فقد كان يجب في قياسكم، ... أنه رزق له رزقه الله إياه وقدره له، ولولا ذلك لم يأخذه ... فإن كان كما يقولون فلن يجب عليه أبداً رده، ولا أن ينازعه فيه ضد ... وهو له ملك ... فليؤد ما أوجب الله على أهل الأموال في الأموال من الزكاة والحج والإنفاق " .

أذن فأبعاد الحرية والاختيار هنا ثلاثة : للظالم
استطاعة وحرية واختيار، بها يمكن من اغتصاب ما
للآخرين من أموال، ولذلك فليس كل ما أحتازه من الأموال
معدوداً في عداد الرزق الذي قدره الله له، أي أن حرিতে
تتعدى نطاق ما قدره الله له من رزق، والمظلوم حرية
السعي الدائم الدائب في المطالبة برد حقوقه إليه من
المغتصب مهما طال الأمد على تاريخ الاغتصاب .

وللحاكم الحرية في أن يأخذ من المغتصب ما اغتصب
ليرده إلى صاحبه الشرعي، لا بل هو مطالب بهذا الأمر،
فهذا هو حكم الشرع في مثل هكذا أمور، ولا تصح عليه
بشكل مطلق أي نوع من الزكاة والصدقات في هذه
الأموال .

وفي نفس المعنى ونفس الاتجاه وعلى نفس القضية أي قضية
الأرزاق يقول الإمام يحيى بن الحسين عن مسؤولية المغتصب عن اغتصابه،
وهي هنا مترتبة على حرিতে واختياره والتي اغتصب، فالحرية هنا قائمة في
نطاق التصرفات المالية والاقتصادية غير قاصرة على النطاق الضيق الخاص
بذات الإنسان الفرد، فالله سبحانه، قد حكم للفقراء والمساكين ... بحقوق في
الأموال عندما قال (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها
والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب) وقول يحيى بن الحسين (فحرمهم ذلك
الفاسقون، وأكله دونهم الظالمون ... وخالف على ذلك الفاجرون فجعلوه
دولة بين أغنيائهم ... فأخذوا ما جعل الله لغيرهم ... ولا شك من كان لسبه
سالماً وكان بأمر الله عالماً أنهم على ذلك معذبون، وإنهم على مخالفته فيهن
مسؤولون) .

ابن خلدون

يزدحم تراثنا العربي الإسلامي بنخبة ممتازة من المفكرين الكبار ومن الصفوة ذات الكفاءات العالمية الممتازة والتي أثرت في تطور وأزهار الحياة العلمية الإنسانية على المستوى العالمي ومن تلك الشخصيات العلمية ومن النخبة البارزة في هذا المجال المفكر والعالم الاجتماعي العربي الكبير عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، والذي يمتاز بسعة علمه واطلاعه على ما كتبه الأقدمون وعلى أحوال البشر وكان قادراً على استعراض الآراء ونقدها بشكل علمي وعقلاني واضح .

دقيق الملاحظة مع حرية في التفكير وأنصاف بالسبغة لأصحاب الآراء المخالفة لمريئته ولقد كان لاختباره الواسع في الحياة السياسية والإدارية وفي القضاء إلى جانب أسفاره الكثيرة المترامية بين الأندلس وشمال أفريقيا وغربها إلى مصر والحجاز والشام أثر كبير في تكوين خصائصه .

ثم أن ابن خلدون مفكر متزن لا يميل على الهوى بل نراه يقيد استنتاجاته كلها بما هو مشاهد في الاجتماع الإنساني، أو بما عرفه أو بلغه من الأحوال أو بما تضافرت عليه الأدلة .

أما في حياة الشخصية فإن ابن خلدون أشعري السلوك يعتقد أن العقل قاصر عن إدراك الحقائق ألما وراء الطبيعة والغيبية لذلك نراه في حياته الشخصية والعملية يعول على الشرع وحده أما في حياته العقلية وتأليفه بخاصة فهو معتزلي التفكير يعتمد على العقل والأقيسة المنطقية وطبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار .

وابن خلدون عالم اجتماعي وهو بحق واضع علم الاجتماع على أسسه الحديثة ولم يسبقه إلى ذلك أحد من قبل وقد أدرك علماء الاجتماع في العصر الحديث قيمة الآراء الصائبة وطرافة القوانين الشاملة وبعد النظر الثاقب فيما بسطه ابن خلدون في مقدمته المشهورة مقدمة ابن خلدون وهو بحق كما نرى

أبرز وأميز المؤرخين العرب قاطبة لما يتمتع به من ثقافة واسعة وأدراك سليم للحدوث والأشياء وقدرة كبيرة على التحقيق العلمي والتعليل المنطقي، وابن خلدون هو أول عالم ومؤرخ واجتماعي اعترف بأن التاريخ علم من العلوم الفلسفية وموضوعه الاجتماع الإنساني، واعتباره من العلوم الفلسفية وذلك لأن التاريخ يوجب تعليل الحوادث ويربط بعضها ببعض مع تميز الخير الصادق مع الخير الكاذب والترجيح بين الأسباب كما أن موضوعه الاجتماع الإنساني ذلك أن التاريخ يجب بتناول وصف التطور في البيئة الاجتماعية بكل ما فيها من سياسية وحروب وصناعة وتجارة وعلم وفن ومن حركات اجتماعية عامة وأدبية أو اقتصادية أو فكرية أو دينية، لذا وجب أن يكون المؤرخ ملم بعلوم كثيرة، فإذا كان لا يعرف إلا التاريخ رواية الأخبار وكان قاصاً فقط .

توفي ابن خلدون سنة 805 هجرية 1406 ميلادية ووضع في كتابه العبر بفض عنوانه التعريف بأن خلدون ذكر فيه نسبه وسيره وما يتصل به من أحداث زمنه ولابن خلدون كتب ومؤلفات عديدة منها كتاب شرح البردة كتاب الحساب ورسالة المنطق كما كان يجيد النظم وله شعر مذكور في كتبه .

وكذلك ذكر أيام العرب والعجم والبربر ويقول ابن خلدون " ولما طالعت القوم وسيرت الأمس واليوم، نبهت عين القريحة الناشئة من الأجيال حجاجاً وفعلته في الأخبار والاعتبار باباً وأبدت فيه الأولية الدول والعمران عللاً وأسباباً ... ورتبه على مقدمة وثلاث كتب .

سوسولوجيا المجتمع الاندلسي

كان شعار العرب الفاتحين هو العدل والتسامح والمساواة فلم ير الإسلام باساً من أن يعيش النصارى واليهود جنب إلى جنب مع المسلمين في مجتمع واحد وتكون المساواة في ما بينهم هي أصل العلاقة في المجتمع في الحقوق والواجبات بين الجميع وكذا لم يرى الإسلام ضرراً من أن تقوم الكنائس والبيع إلى جانب المساجد ... وعين الفاتحون العرب المسلمون بتنظيم شؤون الحكم والإدارة فتم تقسيم الأندلس في الناحية إلى أربع ولايات كبيرة على رأس كل ولاية منها حاكم محلي يعينه الحاكم العام ويسأل أمامه أي يعينه الأمير .

وهذه هي الولايات :

1- الأولى هي الولاية التي تمتد بين البحر الأبيض المتوسط ونهر الوادي الكبير وما يلي هذا النهر مدنها قرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة وجيان .

2- أما الولاية الثانية فتشمل على جميع إسبانيا الوسطى من البحر الأبيض المتوسط شرقاً إلى حدود البرتغال غرباً ثم إلى نهر دويره شمالاً وأشهر مدنها طليطية وبلنسة ودانية .

3- والولاية الثالثة فهي جليقية والبرتغال القديمة وأشهر مراكزها ماردة وباجة ولشبونة .

4- أما الولاية الرابعة فهي تتكون من نهر دويره إلى جبال البرنس وغرباً إلى خليقية وأشهر مراكزها سرقطة وبرشلونة .

وفي هذه الولايات والقواعد الجديدة تفرقت القبائل العربية الإسلامية فنزلت قبائل دمشق بقرطبة والبيرة وحمص بأشبيلية ولبلة، وكذلك في قنسرين وجيان أما قبائل الفلسطينيين فقد سكنوا في بشدونه والجزيرة والأردن برية ومالقة وقبائل اليمن بطليطلة، وقبائل المغرب العربي بقلنسية والجزيرة الخضراء وريا، أما العراقيون فقد نزلوا بغرناطة، والمصريون بتدمير وماردة واكشونية وباجة في جنوب البرتغال الحالية والحجازيون استقروا بالقواعد الداخلية .

" ومن الجدير بالذكر أن هذه المجاميع السكانية تمثل العرب المسلمين الذين دخلوا الأندلس في فترات لاحقة من تاريخ الفتح العربي الإسلامي للأندلس، لأن الفاتحين الأوائل الذين رافقوا حملة طارق بن زياد وموسى بن نصير والذين أطلقوا عليهم اسم (البلدين) تميزاً لهم عن غيرهم استقروا على امتداد الطريق التي سلكها كل من القاندين العربيين منهم المستقرون الأوائل من المسلمين " .

ولقد كان لجهود العرب المسلمين بشكل عام الحكام منهم بشكل خاص الأثر الواضح في حصول الاستقرار في الأندلس وذلك التنظيم الاجتماعي

الراقي ومثالنا على ذلك الجهود المبولة من قبل عبد العزيز بن موسى بن نصير والذي استلم ولاية الأندلس سنة (95هـ) بعد رحيل والده إلى المشرق فكان أول ولاية الأندلس من المسلمين قضى في ولايته ما يقارب السنتين عني فيها بتخصيص الثغور وقمع الخروج والعصيان، وقام بفتح عدة أماكن وحصون وأيدي همة كبيرة في تنظيم الحكومة الجديدة وإدارتها وإنشأ ديواناً لتطبيق الأحكام الشرعية وتنسيقها لتوافق مشارب الرعايا الجدد ولتجمع حولها كلمة المسلمين من مختلف القبائل وكذلك شجع الزواج بين العرب والأسبان، معبراً في ذلك عن الصورة المبكرة للاستقرار الذي شهدته الأندلس تحت ظل الحكم العربي الإسلامي الجديد .

ولما كان العرب قد استقروا في الأندلس وأخذوا يلاحظون بعض مصادر القلق من بعض المناطق هذا من جانب ومن جانب آخر هم حملة رسالة وأمانة فكان لا بد من العمل على نقل الإسلام خارج الأندلس .

حيث بدأ الجهد العسكري العربي ينطلق خلف جبال البرت من سياسة " الفتح العربي الإسلامي التي كانت ترمي بالدرجة الأولى إلى هدم صرح الأنظمة المدنية الاجتماعية للعالم القديم التي قامت على أصول وثنية ونصرانية وأن تقيم فوق أنقاضه في الأمم المفتوحة نظاماً حديثاً تستمد روحها من الإسلام وقيمه السامية سواء بنشر الإسلام بين الشعوب المفتوحة أو بإخضاعها من الوجهتين المدنية والاجتماعية لنفوذ الإسلام وسلطانه لذلك كان امتداد الإسلام وسلطانه لذلك سريعاً ومدهشاً، فلم يمض على وفاة الرسول الكريم محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) نصف المتسلطين في المشرق وحرروا معظم الأقطار الخاضعة للدولة البيزنطية الشرقية من الشام إلى أقصى المغرب . وقامت دولة الخلافة راسخة الدعائم فيما بين السند شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً، ثم دفعت الخلافة فتوحها إلى أقاص الأناضول من المشرق وجازت إلى إسبانيا من المغرب - وإذا كانت جبهة المشرق عجزت أن تعبر إلى الغرب عن طريق فتح القسطنطينية في محاولتين لها سنتي 49 هـ و 98 هـ فكانت جيوش العرب المسلمين جازت الغرب عن طريق إسبانيا وأشرقت من هضاب البرنس على باقي أمم أوروبا النصرانية " .

مجدد الأمل ... سيف الدين قطز

لقد شهد تاريخ الإسلام سلسلة متطاولة من المعارك الفاصلة .. ولكن يبقى لمعركة عين جالوت ثقلها وأهميتها وخصوصيتها.. ذلك أنها جاءت وظلام الإعصار الوثني المتحالف مع الصليبية يكاد يطبق على نور التوحيد فردت على القوة بالقوة، وقارعت سيف الشيطان بسيف الله، وعلمت الناس كيف يكون الإيمان الجاد المعزز بالرؤية الواعية والتخطيط المدروس، قديراً على تحقيق الانتصارات.. وإنه قد آن الأوان لكي نتعلم من التاريخ.. وأستاذ الحلقة :سيف الدين قطز.

:حالة العالم الإسلامي

كان التتار قد احتلوا من الصين إلى إيران وطوى الدولة الخوارزمية واعتبر ابن الأثير ذلك نعيًا للإسلام ثم بغداد سنة 656هـ وقد أجمل ابن طباطبا ما نزل بأهل بغداد في قوله: "فجرى من القتل الذريع والنهب العظيم والتمثيل البليغ ما يعظم سماعه جملة فما الظن بتفصيله".

وفي الغرب سقطت قرطنة 636هـ وإشبيلية 646هـ وتطلع الناس إلى ظهور المهدي لاستحالة أن يتحقق نصر إلا بمعجزة وأفصح الملوك والأمراء المتصارعون على السلطة عن نياتهم ووالوا التتار وتآمروا على قطز وسلم بعضهم مفاتيح القلاع للتتار ليأمن غوائلهم واشربأب النصارى في بلاد الإسلام وطمعوا في القدس التي حررها صلاح الدين وانخرطوا في جيش هولاكو الذي جعل قواد جيشه من النصارى وقام الشيعة بدورهم المعروف في الخيانة والتأليب كما حدث من ابن العلقمي .. والخلاصة أنه لم يعد سبب للبشرى فقد منح النصر الكاسح هؤلاء المغيرين سلاحاً نفسياً خطيراً قبل أن تلمع السيوف.

سيف الدين قطز

تروي بعض المصادر أنه ينتمي إلى البيت الخوارزمي، واسمه محمود بن ممدود، خاله السلطان جلال الدين خوارزم شاه الذي ضاع ملكه على يد المغول، وأن قطز كان ضمن أطفال خطفهم التتار وباعوهم في أسواق النخاسة. بيع من يد إلى يد حتى انتهى إلى "عز الدين أيبك" من أمراء ممالك البيت الأيوبي بمصر. وتدرج في المناصب حتى صار قائداً لجند أيبك، ثم قائداً للجيوش عندما تولى "عز الدين أيبك" السلطنة مع شجرة الدر، ثم صار وصياً

على ابنه "المنصور علي بن عز الدين أيبك" (15 سنة) بعد مقتله ومقتل زوجته شجرة الدر من بعده.

ومما لا شك فيه أن لأسلوب تربيته الأثر الأكبر في هذا الموقف، حيث حرص بنو أيوب على جلب عدد كبير من المماليك في سن صغيرة وتربيتهم تربية دينية وعسكرية خاصة، يحفظ فيها المملوك القرآن ويتلقى تعاليم الدين الحنيف، ويحاسب حساباً شديداً على تطبيقها، فإذا اشتد عوده تعلم ركوب الخيل وفنون الرماية والقتال، وتشرب حب الدين والجهاد،
مُلك مصر

واتفقت الكلمة على عزل المنصور وتولية قطز للتمكن من مواجهة التتار ووعدهم قطز إن لم يستشهد تنحى عن العرش بعد هزيمة التتار ليختاروا من يشاءون لأن الرجل كان يعتبر نفسه صاحب مهمة، وأن له دوراً في صناعة التاريخ، وتغيير الواقع الأسيف الذي يحيط بالمسلمين من كل جانب.

وتعلل البعض بقلّة المال واقترح فرض ضرائب على الشعب فوقف العلماء وعلى رأسهم الشيخ "العز بن عبد السلام" رحمه الله- أمام الأمراء وقادة الجند، وهم في سبيلهم لجمع الأموال للإعداد للحرب، فقرروا ألا يؤخذ من الناس شيئاً إلا إذا كان بيت المال فراغاً، وأخرج الأمراء والتجار وأغنياء الناس من أموالهم وذهبهم وتساوى الجميع، فنزل قطز على حكم العلماء .

في الطريق إلى مصر:

بلغت طلائع التتار بقيادة "بيدار" عسقلان وغزة ، وعسكرت هناك ، ريثما وصل ركب رسل المغول إلى القاهرة ، يحملون رسالة هولوكو وقائده كتبغا إلى سلطان مصر المملوكي "سيف الدين قطز.. وفي هذه الظروف السياسية والنفسية راسل هولوكو قطزاً قائلاً "إنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه وسلطانا على من حل به غضبه،... فأى أرض تأويكم؟ وأي طريق تنجيكم؟ وأي بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يُسمع..".

من اختار الجهاد يصحبنى!

كانت الرسالة بمثابة التحدي النهائي لآخر قيادة إسلامية،.. كل المؤشرات كانت تقود إلى الاستسلام للتحدي والإذعان.. ولكن الإيمان له منطلق آخر..

قرأ سيف الدين قطز الرسالة وبعد حوار مع المماليك عزم على الحرب بعد أن أفهمهم أن جيش مصر ليس لها وحدها وإنما هو لأمة الإسلام وبغداد وفلسطين جزء من الأمة الإسلامية وإقامة الجهاد مسئولية الجميع فأيد الأمراء كافة هذا الرأي.. وكان على قطز أن يتخذ قراره.. وقد اتخذته فعلاً.. قتل الرسل وعلق رؤوسهم على باب زويلة أياماً.. فسار بالأمة في طريق اللاعودة ، وأصدر أوامر بالتجهز للجهاد.

نادى "قطز" في البلاد للخروج لحرب التتار، فاستجاب له جند من مصر ومن الشام، واجتمع تحت يديه قرابة الأربعين ألفاً من الجند، فتقدم بهم إلى منطقة البقاع إلى أرض الشام. فوصل الخبر لأحد قائد التتار بالشام ويسمى "كتبغا نوين"،

وكان إذا رأى تردداً وجبناً ونكوصاً من عدد من الأمراء ألقى كلمته المؤثرة: «يا أمراء المسلمين! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبنى، ومن لم يختار ذلك يرجع إلى بيته وقال: أنا ألقى التتار بنفسى.

الأمة.. وثقافة الجهاد :

فقد صار الجهاد ثقافة شعبية يوجهها إعلام قطز من خلال قيادات شعبية مختلفة مثل: العلماء ذوو الرأي والهمة ، وعلى رأسهم العزيز عبدالسلام ذلك العالم الجليل الذي لم يهب سلطاناً ولا حاكماً ، ولم يكتف رأياً بين يدي حاكم. وكذلك شاركت فتية الفداوية ، الذين اشتهرت مواقعهم مع الصليبيين في دمياط والمنصورة ، أيام حملة لويس التاسع – 646هـ - 1248م ، وما بعدها ، وعلى رأسهم عز الدين شياح صاحب الحيل والملاعب الخداعية والفدائية الباهرة التي أوقعت بلويس التاسع وجنده (ولم تكن حركة شياح ضد الأيوبيين والمماليك إذ لم تعتبرهم الحركة محتلين غزاة كما يصور الإعلام) .

الخطة و فرق الجند :

وخرجت الجيوش مشيعة بدعاء العامة بالنصر ، وفي صفوف الجيش كان لكل فرقة قائدها من أمراء المماليك ، وإمامها من العلماء والدعاة ، يلهبون عزائم المقاتلين بسير المجاهدين الأولين ، ويقضون رداً من الليل بين الذكر وتلاوة القرآن والصلاة.

سوق السلاح :

وفي شارع سوق السلاح - خلف سوق الرماحة بحي القلعة - سهر السلاحيون ليل نهار في صناعة السيوف ورؤوس الرماح والسهام ، وضربت الدروع والخوذات ، وقصمان الزرد ، ودبابيس المبارزة ، ومعاول الحصار ، حتى يكون السلاح والعتاد جاهزاً بين يدي الحملة وقد صنع محلياً .

اليوم الفصل :

انطلقت القوات الإسلامية بقيادة سيف الدين قطز واجتازت سيناء باتجاه غزة سالكة الطريق المحاذي للبحر، وتولى الظاهر بيبرس قيادة المقدمة. ولم يكن في غزة سوى قوة صغيرة من المغول بقيادة بايدر الذي أرسل إلى القائد المغولي كتبغا الذي أنابه هولاًكو لإتمام الغزو غرباً، يخطره بحركة الجيش الإسلامي، غير أن المسلمين اكتسحوا عساكره قبل أن تصل إليه النجدة. فعبر كتبغا نهر الأردن وتوجه صوب الجليل الشرقي، فبادر قطز على الفور إلى "عين جالوت" من أرض فلسطين، وقد كان ذلك في 25 رمضان 658هـ - 6 سبتمبر 1260م.. ووقع الصدام ثقيلاً في يوم شديد الحرارة ، لم يستعد له التتار بتعبئة المياه ، التي لم يعرفوا مصادرها ، بينما كانت الجيوش الإسلامية قد تزودت لذلك اليوم الكريه ، واختاروا موقع النزال والصدام.

فلم يلبث الجيش المغولي بأسره أن جرى تطويقه فجأة، وجرت بين الطرفين معركة طاحنة، واضطربت قوات المماليك بعض الوقت، فدخل قطز المعركة لجمعهم، ولم تنقض سوى بضع ساعات حتى بدأ تفوق المسلمين في الميدان، وسحقت زهرة القوات المغولية ووقع قائدهم نفسه أسيراً. وبأسره انتهت المعركة، إذ جرى حمله مقيداً بالأغلال إلى السلطان حيث احتز رأسه!

والإسلاماه:

ويذكر أنه عندما اصطدم العسكران اضطرب جناح عسكر السلطان وانتقض طرف منه فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته: وإسلاماه!

يا الله انصر عبدك قطز على التتار! « وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة فأيده الله بنصره.. فلما انكسر التتار نزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها، وصلى ركعتين شكراً لله- تعالى ثم ركب، فأقبل العساكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم .. وأتم الملك المظفر السير بالعسكر حتى دخل دمشق، وتضاعف شكر المسلمين لله- تعالى على هذا النصر العظيم، فإن القلوب كانت قد ينست من النصر على التتار لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام، فابتهجت الرعايا بالنصرة عليهم .

من نتائج المعركة :

ارتفعت مؤشرات الثقة بالنفس والإيمان بالنصر والقدرة على تجاوز الهزائم والنكسات والتي كادت تصل بالمسلمين إلى نقطة الصفر..

قال المؤرخ الإنجليزي المعاصر ستيفن رنسيمن في كتابه الحروب الصليبية يقول: "تعتبر معركة عين جالوت من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ... ولو انتصر كتبغا النصراني، لازداد عطف المغول على النصارى ولأصبح للنصارى السلطة لأول مرة منذ سيادة النحل الكبيرة في العصر السابق على الإسلام.."

كما حققت المعركة الفاصلة وحدة بين مصر والشام وأوجدت الدرع الذي يقى المسلمين هجمات المغول الشرسة، ويمكن في الوقت نفسه من مجابهة التحدي الصليبي ومحاولة استئصال وجوده من الأرض الإسلامية... لقد ملأت المعركة الفراغ المخيف الذي كان يمكن أن يتمخض عن سقوط الخلافة العباسية

وفتحت آفاقاً علمية جديدة وليس كما يقال من أن عالم الإسلام دخل عصر الظلمة بعد سقوط بغداد.. وليس ابن خلدون وابن كثير وابن تيمية وأبو الفدا والسيوطي والسخاوي وابن القيم والجزري.. وغيرهم كثيرون، سوى إشارات على طريق هذا التحقق المبدع الذي شهدته حضارة الإسلام بعد عين جالوت..

دخول المغول في الإسلام:

ولعل من أبرز نتائج عين جالوت دخول التتار في الإسلام فقد بدأ الأمراء المغول يدخلون في دين الله ، وبدؤوا في عمران ما خربوا من مدن الإسلام ، فبدؤوا يشيدون المساجد والمدارس والمشاهد في سمرقند وبخارى وخوارزم ، ما تزال مآذنها في جمهوريات آسيا الوسطى شامخة وقبابها لامعة ، وأهلها يقاومون نظم الماركسية الغازية إلى أن شاء الله.

استشهاده:

وفي طريق العودة إلى القاهرة شاعت الأقذار أن يسدل الستار على حياة بطل عين جالوت بشكل مأساوي، حارت في تفسيره أقلام المؤرخين، إذ دبرت لبيل مؤامرة لاغتياله وكان ذلك بالقرب من الصالحية في 16 من ذي القعدة عام 658هـ/ 1260م، وإن كنا نرجح أن يببرس لم يشترك بشكل مباشر في الاغتيال.. وبعيداً عن الخوض في أسباب هذا الحادث الذي أدمى القلوب، فقد

رحل قطز، تاركاً رسالة واضحة لمن جاء بعده من حكام المسلمين، مفادها: أن مكانة القادة في قلوب الرعية فالتاريخ لا يعتد بحساب الأزمان والأيام، وإنما يعتد بحجم التأثير الذي يتركه الرجل وإن كانت حياته قصيرة؛ فكثير من أمراء وحكام أمضوا عشرات السنين دون أن يلتفت إليهم التاريخ أو ترتبط حياتهم بوجودان الناس ومشاعرهم، والدليل على هذا أن مدة حكم قطز كانت عشرة أشهر قبل المعركة وخمسين يوماً بعدها!!! رحم الله سيف الدين قطز وهياً للأمة مثله لتتخلص من وساوس الشيطان .

قائمة المصادر

- ❖ ابن الأثير، محمد بن محمد بن عبد الواحد الشيباني (ت 630هـ) .
الكامل في التاريخ ، ط 10، 2ج، (تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي)، دار
الكتب العلمية، بيروت، 1995.
- ❖ الأدفوي، كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب، (ت 748هـ) .
الموفي بمعرفة التصوف والصوفي، ط 1، حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور
محمد عيسى صالحية)، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، 1988.
- ❖ الإسنوي، جمال الدين أبو محمد عبد الرحيم بن الحسن بن علي
(ت 772هـ).
طبقات الشافعية، ط 1، 2ج، (تحقيق كمال يوسف الحوت)، دار الكتب
العلمية، بيروت، 1987.
- ❖ ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة
(ت 668هـ) .
عيون الأنباء في طبقات الأطباء، (شرح وتحقيق الدكتور نزار رضا).
دار مكتبة الحياة، بيروت، (د. ت.).
- ❖ الأصفهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت 430 هـ) .
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط 10، 1ج، دار الكتب العلمية، بيروت،
1988.
- ❖ الأعرابي، أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد بن بشر (ت 340 هـ) .
كتاب فيه معنى الزهد والمقالات وصفة الزاهدين، (تحقيق خديجة محمد
كامل)، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1998.
- ❖ ابن بطوطة، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللوات
الطنجي
(ت 779 هـ) .
تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ط 2، 4ج، (تحقيق
الدكتور علي المنتصر الكتاني)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405 هـ.
- ❖ البنداري، الفتح بن علي (ت 643 هـ).

سنا البرق الشامي، وهو مختصر لكتاب البرق الشامي للعماد الأصفهاني المتوفى سنة 597 هـ، ط (بدون)، (تحقيق دكتورة فتحية النبراوي)، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1979.

❖ التادفي، محمد بن يحيى الحنبلي (ت 963 هـ).
قلائد الجواهر في مناقب تاج الأولياء ومعدن الأصفياء وسلطان الأولياء الشيخ محي الدين عبد القادر الجيلاني، ط 2، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، 2004 م.

❖ التلمساني، أحمد بن محمد المقري (ت 1041 هـ).
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ط بدون، ج 8، (تحقيق الدكتور احسان عباس)، دار صادر، بيروت، 1988.

❖ ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم الحراني
الدمشقي
(ت 728 هـ).

الخلافة و الملك، ط 2، ج 1، (تحقيق حماد سلامة و مراجعة الدكتور محمد عويضة). مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، 1994م.

❖ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت 255 هـ).
البيان و التبيين، ط 7، ج 4، (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون)، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998.

الحيوان، ط 2، ج 8، (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون)، شركة مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ج 1-3/1965، ج 4/1966، ج 5 /غير متوفر، ج 6/1967، ج 7/1968، ج 8 /1969.

❖ الجامي، الملا نور الدين عبد الرحمن بن أحمد (ت 898 هـ).
نفحات الأنس من حضرات القدس، ط 1، ج 2، ج 2م، (تحقيق محمد أديب الجادر)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.

❖ ابن جبیر، أبو الحسين محمد بن أحمد الأندلسي، (ت 614 هـ).
رحلة ابن جبیر، (د. ط.)، ج 1، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، بيروت، مصر، (د. ت.).

❖ ابن أبي جرادة، كمال الدين عمر بن أحمد (ابن العديم) (ت 660 هـ).

بغية الطلب في تاريخ حلب، ط 1، ج 10، (تحقيق الدكتور سهيل زكار).
دار الفكر، بيروت، 1988.

زبدة الحلب من تاريخ حلب، ط 2، 1 ج، 2م، (حققه وقدم له الأستاذ الدكتور سهيل زكار)، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، 1997.

❖ ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت 597 هـ).

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط 10، 1 ج، دار صادر، بيروت، 1358هـ.

صيد الخاطر، ط 1، (تحقيق عبد القادر أحمد عطا)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.

تلبيس إبليس، (د. ط.)، 1 ج، (تصحيح و تعليق ادارة الطباعة المنيرية). دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت.).

صفة الصفوة، ط 2، 4 ج، (تحقيق محمود فاخوري، محمد رواس قلعه جي)، دار المعرفة، بيروت، 1979.

شذور العقود في تاريخ العهود، ط 1، 1 ج، (دراسة وتحقيق أبي الهيثم الشهبائي، الدكتور أحمد عبد الكريم نجيب)، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، (د. م.)، 2007 م.

❖ الجيلاني، محي الدين أبو صالح عبد القادر بن موسى (ت 561 هـ).

الغنية لطالبي طريق الحق، ط 1، 2 ج، 1م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ت.).

الفتح الرباني و الفيض الرحماني، ط 1، (ضبطه و قدم له الدكتور محمد الصباح)، دار مكتبة الحياة، (بدون بلد)، 1995م.

فتوح الغيب، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، 2004م.

❖ حاجي خليفة، (ت 1067 هـ).

كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون، ط(بدون)، 2 ج، (عني بتصحيحه وطبعه وتعليق حواشيه محمد شرف الدين يالتقايا، المعلم رفعت بيلكه الكليسي)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ت.).

❖ ابن الحنبلي، أبو الفرج ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم الأنصاري (ت 634).

الإستسعاد بمن لقينته من صالح العباد في البلاد، في: شذرات من كتب مفقودة من التاريخ، استخرجها وحققتها الدكتور احسان عباس، 2 ج، (ج 1، ط 1) (ج 2، ط 3). دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.

❖ الخطيب البغدادي ، أبو بكر أحمد بن علي (ت 463هـ).
تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ط 1، 14ج، يلحقه ديول بارقام اخرى،
(دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا)، دار الكتب العلمية، بيروت،
1997.

❖ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هـ) .
المقدمة، وهو الجزء الأول من كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام
العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط 4، دار
الكتب العلمية، بيروت، 1978.

❖ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ، (ت 681
هـ) .

وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، ط (بدون)، 8ج، (تحقيق إحسان
عباس)، دار صادر، بيروت، (ج 5، ج 8 / 1977)، و باقي الأجزاء (د.
ت.) .

❖ ابن الدمياطي، أبو الحسين أحمد بن أبيك بن عبد الله الحسامي، (ت
749 هـ).

المستفاد من ذيل تاريخ بغداد للحافظ ابن النجار البغدادي، ط 1، 1ج، 1م،
(دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا)، منشور مع كتاب تاريخ بغداد
للخطيب البغدادي في المجلد رقم 21، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.

❖ ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد القرشي، (ت 281هـ).
الأولياء، ط 1، (تحقيق محمد السعيد بن بسيوني الزغلول)، مؤسسة
الكتب الثقافية، بيروت، 1993.

❖ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت 748
هـ).

المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله بن الدبيثي (ت 637
هـ)، ط 1، 3ج، 1م، (دراسة و تحقيق مصطفى عبد القادر عطا)، منشور مع
كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي في المجلد رقم 15، دار الكتب العلمية،
بيروت، 1997.

العبر في خبر من غير، ط 1، 4ج، (تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن
بسيوني زغلول)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985.
تاريخ الإسلام و وفيات المشاهير و الأعلام، ط 1 (عدا ج 1، ج 9: ط 2)،
52 ج و ذيل، (تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري)، دار الكتاب العربي،
بيروت، 1988 – 2000.

- ❖ الرفاعي، أحمد بن علي، (ت 578 هـ).
البرهان المؤيد، ط (بدون)، 1 ج، (جمع و تحقيق إبراهيم الرفاعي)، دار آل
الرفاعي، دار التراث العربي، قنا - مصر، (د. ت.).
- ❖ ابن رجب، زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي، (ت
795 هـ).
الذيل على طبقات الحنابلة، ط (بدون)، 2 ج، 1 م، (تصحيح محمد حامد
الفاقي)، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1952.
- ❖ ابن الساعي، أبو طالب علي بن أنجب تاج الدين الخازن (ت 674 هـ).
الجامع المختصر في عنوان التواريخ و عيون السير، (الجزء التاسع و هو
من تاريخ بلغ فيه مؤلفه إلى سنة 656 هـ)، (عني بنسخه ونشره وإصلاح
تصحيحه وتعليق حواشيه وعمل فهرسه، مصطفى جواد)، المطبعة السريانية
الكاثوليكية، بغداد، 1934 م.
- مختصر أخبار الخلفاء، ط (بدون)، 1 ج، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة،
1309 هـ.
- ❖ سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي،
(ت 654 هـ).
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ط 1، (القسم الأول من الجزء الثامن
1 و قايح سنة 495 - 589 هـ)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية،
حيدرآباد الدكن، الهند، 1951.
- ❖ السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي (ت 771 هـ).
طبقات الشافعية الكبرى، ط 2، 1 ج، (تحقيق الدكتور عبد الفتاح محمد
الخلو، الدكتور محمود محمد الطناحي)، هجر للطباعة والنشر والتوزيع
والإعلان، الجيزة، 1992 م.
- معيد النعم و مبيد النقم، ط 2، (تحقيق محمد علي النجار، أبو زيد شلبي،
محمد بوالعيون)، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1993.
- ❖ السراج، أبو نصر عبد الله بن علي الطوسي، (ت 378 هـ).
اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي، ط 1، (ضبطه وصححه كامل مصطفى
الهنداوي)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001 م.
- ❖ السلامي، أبو المعالي محمد بن رافع، (ت 774 هـ).

تاريخ علماء بغداد المسمى منتخب المختار، ط 2، ج 1، (صححه وعلق حواشيه المحامي عباس العزاوي)، دار العربية للموسوعات، بيروت، 2000م.

❖ السلمي، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد، (ت 412هـ).

ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات، ط 1، ج 1، (تحقيق الدكتور محمود الطناحي)، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1993.

الفتوة، ط 1، (تحقيق الدكتور إحسان ذنون الثامري، و الدكتور محمد عبد الله قدحات)، دار الرازي، عمان، 2002م.

طبقات الصوفية، ط 3، ج 1، (تحقيق نور الدين شريبة)، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م.

❖ السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي، (ت 562 هـ).

الأنساب، ط 1، ج 5، (تقديم و تعليق عبد الله عمر البارودي)، دار الجنان، بيروت، 1988.

❖ السهروردي، شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد، (ت 632هـ).
كشف الفضائح اليونانية و رشف النصائح الإيمانية، ط 1، (تحقيق وتعليق الدكتورة عائشة يوسف المناعي)، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 1999م.

عوارف المعارف، ط 2، (ضبطه وصححه محمد عبد العزيز الخالدي)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005 م .

❖ السهروردي، ضياء الدين أبو النجيب عبدالقاهر بن عبد الله بن محمد بن عمويه، (ت 563 هـ).

آداب المريدين، ط (بدون)، (تحقيق طه عبد الرؤوف سعد)، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، (د. ت.).

❖ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت 911هـ).
حسن المحاضرة في تاريخ مصر و القاهرة، ط 1، ج 2، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1967م.

❖ أبوشامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي،

(ت 665 هـ).

تراجم رجال القرنين السادس و السابع المعروف بالذيل على الروضتين، ط 2، 1ج، (صححه محمد زاهد بن الحسن الكوثري، عني بنشره و راجع أصله عزت العطار الحسيني)، دار الجيل، بيروت، 1974م.

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية و الصلاحية، ط 1، 4ج، (تحقيق ابراهيم الزبيق)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م.
❖ ابن شاهنشاه ، محمد بن تقي الدين عمر، (ت 617 هـ).
مضمار الحقائق و سر الخلائق، ط 2، (تحقيق الدكتور حسن حبشي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2005 م.

❖ الشريف الجرجاني، علي بن محمد، (ت 816 هـ).
كتاب التعريفات، ط (بدون)، 1ج ، مكتبة لبنان، بيروت، 1985م .
❖ الشطنوفى، نور الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن اللخمي، (ت 713هـ).

بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في بعض مناقب القطب الرباني محي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلاني، ط 1، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة ، 2001 م.

❖ الشعراني، أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشافعي المصري، (ت 973هـ).

الطبقات الكبرى المسماة بلوائح الأنوار في طبقات الأخيار، ط 1، 2ج، 1م ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء - المغرب، 1999م.

❖ ابن الصابوني، جمال الدين أبو حامد محمد بن علي المحمودي، (ت 680 هـ).

تكملة إكمال الإكمال، ط (بدون)، 1ج، (حقيقه وعلق عليه الدكتور مصطفى جواد)، المجمع العلمي العراقي، بغداد، (د.ت.).

❖ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك، (ت 764 هـ).
الوافي بالوفيات، ط 1، 29ج، (تحقيق أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى)، دار احياء التراث العربي، بيروت، 2000م.

نكت الهميان في نكت العميان، ط 1، 1ج، (تحقيق الأستاذ أحمد زكي بك)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ، 2007م.

❖ الطرسوسي، أبو عمرو عثمان بن عبد الله بن إبراهيم (ت هـ).

- سير الثغور، في: شذرات من كتب مفقودة من التاريخ، (تحقيق الدكتور احسان عباس)، 2 ج، (ج 1: ط 1)، (ج 2: ط 3)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م.
- الطرطوشي، أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد المالكي، (ت 520 هـ).
سراج الملوك، ط (بدون)، 1 ج، مطبعة بولاق، مصر، 1872م.
- ❖ العجلوني، إسماعيل بن محمد الجراحي، (ت 1162 هـ).
كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، ط 3، 2 ج، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م.
- ❖ ابن عجيبة، أحمد بن محمد، (ت 1224 هـ).
إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عطاء الله السكندري، ط (بدون)، 1 ج، دار الفكر، بيروت، (د. ت.).
- الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية لابن البنا السرقسطي، منشور مع كتاب: ابن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عطاء الله السكندري، ط (بدون)، 1 ج، دار الفكر، بيروت، (د. ت.).
- ❖ ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن الشافعي، (ت 571 هـ).
تاريخ مدينة دمشق، ط 1، 80 ج، (دراسة و تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي)، دار الفكر، بيروت، 1995 - 2000.
- ❖ ابن عقيل، أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد البغدادي الحنبلي، (ت 513 هـ).
- التعليقات المسماة كتاب الفنون، ط (بدون)، 2 ج، (حققه و قدم له و علق عليه جورج مقدسي)، دار المشرق، بيروت، 1970 - 1971م.
- ❖ ابن العماد، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي، (ت 1089 هـ).
شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط 11، 1 مجلد، (تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرنؤوط)، دار ابن كثير، دمشق، 1986 - 1993م.
- ❖ العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله، (ت 749 هـ).
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ط (بدون)، السفر الثامن طوائف الفقراء الصوفية، (تحقيق بسام محمد بارود)، المجمع الثقافي، أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة، 2001 م.
- ❖ الغزالي، حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي (ت 505 هـ).

أصناف المغرورين، ط (بدون)، 1 ج، (دراسة وتحقيق وتعليق عبد اللطيف عاشور)، مكتبة القرآن، القاهرة، 1986م.

المنقذ من الضلال، في: مجموعة رسائل الإمام الغزالي، ط 1، 1 ج، دار الفكر، بيروت، 2003.

روضة الطالبين و عمدة السالكين، في : مجموعة رسائل الإمام الغزالي، ط 1، 1 ج، دار الفكر، بيروت، 2003.

❖ ابن فرحون، برهان الدين أبو الوفاء إبراهيم بن نور الدين علي المالكي، (ت 799هـ).

الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ط 1، ج 1، (دراسة و تحقيق مأمون بن محي الدين الجنان)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م.

❖ ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد المعروف بابن الفوطي الحنبلي، (ت 723 هـ) .

تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، (الجزء الرابع: الأقسام الأول والثاني والثالث في ثلاثة مجلدات)، (تحقيق الدكتور مصطفى جواد)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، القسم 1: 1962، القسم 2: 1963، القسم 3: 1965. 1962 - 1965م.

❖ ابن قاضي شهبه، تقي الدين أبو بكر بن أحمد بن محمد الدمشقي، (ت 851 هـ).

طبقات الشافعية، ط 1، 4 ج، (اعتنى بتصحيحه و علق عليه ورتب فهرسه الدكتور الحافظ عبد العليم خان)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد الدكن، الهند، 1979 - 1980م.

❖ القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، (ت 674 هـ).
آثار البلاد و أخبار العباد، ط (بدون)، 1 ج، دار صادر، بيروت، (د. ت.).

❖ القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، (ت 465 هـ). الرسالة القشيرية، ط (بدون)، 1 ج، دار التربية، بغداد، (د. ت.).

❖ القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت 821 هـ).
صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، ط (بدون)، 14 ج، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م.

❖ ابن الكازروني، ظهير الدين أبو الحسن علي بن محمد البغدادي، (ت 697 هـ). مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني

- العباس، ط (بدون)، 1 ج، (حقيقه وعلق عليه الدكتور مصطفى جواد)،
وزارة الإعلام، بغداد، 1970م.
- ❖ الكاشاني، عبد الرزاق بن أحمد، (ت 736 هـ).
رشح الزلال في شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأنواق والأحوال، ط
(بدون)، 1 ج، (تحقيق و تقديم سعيد عبد الفتاح)، المكتبة الأزهرية للتراث،
القاهرة ، 1995م.
- ❖ الكتبي، محمد بن شاکر، (ت 764 هـ) .
فوات الوفيات و الذيل عليها، ط (بدون)، 5 ج، (تحقيق الدكتور احسان
عباس)، دار صادر، بيروت، (د. ت.).
- ❖ ابن كثير، الحافظ أبو الفداء اسماعيل الدمشقي، (ت 774 هـ).
البداية والنهاية، ط 1، 14 ج، (تحقيق علي شيري)، دار إحياء التراث
العربي، بيروت، 1988م.
- ❖ الكلابادي ، تاج الاسلام أبو بكر محمد بن إسحاق البخاري، (ت
380 هـ).
- التعرف لمذهب أهل التصوف، ط (بدون)، 1 ج، (تحقيق و تقديم الدكتور
عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور)، دار إحياء الكتب العربية عيسى
البابي الحلبي وشركاه، القاهرة ، 1960.
- ❖ مجهول، (مؤلف من القرن الثامن الهجري).
كتاب الحوادث، وهو الكتاب المسمى وهماً بالحوادث الجامعة و التجارب
النافعة والمنسوب لابن الفوطي، ط 1، 1 ج، (حقيقه و ضبط نصه و علق
عليه الدكتور بشار عواد معروف، الدكتور عماد عبد السلام رؤوف)، دار
الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م.
- ❖ أبو مدين، شعيب بن الحسين، (ت 594 هـ) .
أنس الوحيد و نزهة المرید، (وهو ملحق بكتاب عنوان التوفيق في آداب
الطريق لابن عطاء الله السكندري)، ط 1، 1 ج، (تحقيق الدكتور خالد
الزهري)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م.
- ❖ ابن المعمار، أبو عبد الله محمد بن أبي المكارم البغدادي الحنبلي،
(ت 642 هـ).
- كتاب الفتوة ، ط 1، 1 ج، (حقيقه و نشره الدكتور مصطفى جواد، الدكتور
محمد تقي الدين الهلالي، الدكتور عبد الحليم النجار، أحمد ناجي القيسي)،
مكتبة المثني، بغداد، 1958.

- ❖ المقدسي، المطهر بن طاهر، (ت نحو 355 هـ).
البدء و التاريخ ، ط (بدون)، 6 ج، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ت.).
- ❖ المقرئزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت 845 هـ).
المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئزية، ط 1،
3 ج، (تحقيق الدكتور محمد زينهم، مديحة الشرقاوي)، مكتبة مدبولي،
القاهرة، 1998م.
- ❖ ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي المصري، (ت
804 هـ).
طبقات الأولياء، ط 2، 1 ج، (تحقيق نور الدين شريعة)، دار المعرفة،
بيروت، 1986م.
- ❖ المناوي، عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي، (ت 1031 هـ).
الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية أو طبقات المناوي الكبرى، ط
(بدون)، 4 ج، 2 م، (تحقيق الدكتور عبد الحميد صالح حمدان)، المكتبة
الأزهرية للتراث، القاهرة، (د.ت.).
- ❖ ابن النجار، محب الدين أبو عبد الله محمد بن محمود بن الحسن البغدادي،
(643 هـ).
ذيل تاريخ بغداد، ط 1، 5 ج، 5 م، (دراسة و تحقيق مصطفى عبد القادر
عطا)، منشور مع كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي في المجلدات الخمسة
ذوات الأرقام 16، 17، 18، 19، 20، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
- ❖ نظام الملك ، الحسن بن علي الطوسي، (ت 485 هـ).
سياست نامه أو سير الملوك، ط 2، 1 ج، (ترجمة الدكتور يوسف حسين
بكار)، دار الثقافة، الدوحة - قطر، 1987.
- ❖ ابن نقطة، أبو بكر محمد بن عبد الغني الحنبلي البغدادي، (ت 629
هـ).
كتاب التقييد لمعرفة الرواة و السنن و المسانيد، ط 2، 1 ج، (تصحيح
وتعليق أطفاف حسين، تنقيح محمد عظيم الدين)، مطبعة مجلس دائرة
المعارف العثمانية، حيدر اباد الدكن - الهند، 1983م.
- ❖ الهجويري، أبو الحسن علي بن عثمان الغزنوي، (ت 465 هـ).
كشف المحجوب، ط (بدون)، 1 ج، (دراسة وترجمة و تعليق دكتورة سعاد
عبد الهادي قنديل)، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1974.
- ❖ الهروي، أبو الحسن علي بن أبي بكر، (ت 611 هـ).

الإشارات الى معرفة الزيارات، ط 1، ج 1، (تحقيق الدكتور علي عمر)،
مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002م.

❖ اليافعي، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي اليمني المكي، (ت
768 هـ).

مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان،
ط 4، ج 1، (وضع حواشيه خليل المنصور)، دار الكتب العلمية، بيروت،
1997م.

نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية
الملقب كفاية المعتقد ونكاية المنتقد، ط 2، ج 1، (تحقيق وتصحيح ابراهيم
عطوه عوض)، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة،
1990م.

روض الرياحين في حكايات الصالحين، ط (بدون)، ج 1، (تحقيق محمد
عزت)، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د. ت.).

❖ ياقوت الحموي، (ت 626 هـ).

معجم الأدباء ارشاد الأريب الى معرفة الأديب، ط 1، ج 7، (تحقيق الدكتور
احسان عباس)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.

معجم البلدان، ط (بدون)، ج 5، دار الفكر، بيروت، (د. ت.).

قائمة المراجع العربية و المترجمة / الكتب

المراجع العربية

• البغدادي، السيد محمد سعيد الراوي (ت 1354 هـ/1936 م)، (1997).

تاريخ الأسر العلمية في بغداد، ط 1، 1 ج، (حققه وعلق عليه الدكتور عماد عبد السلام رؤوف)، بغداد: وزارة الثقافة والإعلام (دار الشؤون الثقافية العامة).

• الجالودي، عليان عبد الفتاح محمد، (1996).

تطور السلطنة و علاقتها بالخلافة خلال العصر السلجوقي (447 هـ/ 1055 م – 590 هـ / 1193 م). رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

• جواد، الدكتور مصطفى، وسوسة، الدكتور أحمد، (1958).
دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد قديماً وحديثاً، ط (بدون)، 1 ج، بغداد: المجمع العلمي العراقي.

• الحسين، الدكتور قصي، (1993).

من معالم الحضارة العربية الاسلامية، ط 1، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات.

• حسين، يحيى أحمد عبد الهادي، (1992).

الفتوة في بغداد في العصر العباسي الأخير (575 – 656 هـ). رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الاردنية، عمان.

• الدسوقي، عمر، (د.ت.).

الفتوة عند العرب، ط (بدون)، 1 ج، القاهرة: مكتبة نهضة مصر بالفجالة.

• الدوري، الدكتور عبد العزيز، (2007).

دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ط 1، 1 ج، (سلسلة الأعمال الكاملة للدكتور عبد العزيز الدوري رقم 4)، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

• السوداني، مزهر عبد، (1980).

الشعر العراقي في القرن السادس الهجري، ط (بدون)، 1 ج، بغداد: دار الرشيد للنشر.

- عفيفي، الدكتور أبو العلا، (1963).
التصوف الثورة الروحية في الإسلام. ط 1، 1 ج، القاهرة: دار المعارف.
- العمادي، الدكتور محمد حسن عبد الكريم، (1997 او بعدها).
خراسان في العصر الغزنوي، ط (بدون)، 1 ج، اربد - الاردن : مؤسسة حماده للخدمات والدراسات الجامعية ودار الكندي للنشر و التوزيع.
- عواد، كوركيس، (1986).
خزائن الكتب القديمة في العراق منذ اقدم العصور حتى سنة 1000 للهجرة، ط 2، 1 ج، بيروت: دار الرائد العربي.
- الكيلاني، الدكتور ماجد عرسان، (2002).
هكذا ظهر جيل صلاح الدين و هكذا عادت القدس، ط 3، 1 ج، دبي - الامارات العربية المتحدة: دار القلم للنشر والتوزيع.
- محبوبة، دكتور عبد الهادي محمد رضا، (1999).
نظام الملك الحسن بن علي بن إسحق الطوسي (408 / 485 هـ) كبير الوزراء في الأمة الإسلامية : دراسة تاريخية في سيرته و أهم أعماله خلال استيزاره، ط 1، 1 ج، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.
- محمد، الدكتور عبد العزيز، (د. ت.).
الفتوة في المفهوم الاسلامي: دراسة في الاخلاق الاسلامية، ط (بدون)، 1 ج، الاسكندرية: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع.
- مجموعة من الباحثين، (2000).
بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.
- النجار، الدكتور عبد المجيد، (1983).
المهدي بن تومرت: حياته و آراؤه و ثورته الفكرية و الاجتماعية وأثره بالمغرب، (رسالة دكتوراة منشورة). ط 1، بيروت: دار الغرب الاسلامي.

المراجع المترجمة الى العربية

- بروكلمان، كارل، (1968).
تاريخ الشعوب الاسلامية، ط 5، 1 ج، (نقله الى العربية نبيه أمين فارس، منير البعلبكي)، بيروت: دار العلم للملايين. —، (د. ت.).
- تاريخ الأدب العربي، 6 ج، (نقله الأجزاء 1، 2، 3 الى العربية الدكتور عبد الحليم النجار، ونقل الجزء 4 الى العربية السيد يعقوب بكر، و رمضان عبد التواب)، ج 1/ ط 5، ج 2 / ط 4، ج 3، 4 / ط 3، ج 5 / ط (بدون)، ج 6 / ط

(بدون)، القاهرة: دار المعارف.

• جيب، هـ. أ. ر.، والعواء، عادل، (1977).
علم الاديان و بنية الفكر الاسلامي، ط 1، بيروت- باريس: منشورات
عوبدات.

• خاتشاتريان، الكساندر، (1998).
أهل الفتوة و الفتیان في المجتمع الاسلامي، ط 1، 1 ج، بيروت: المركز
العربي للابحاث والتوثيق.

• دوزي، رينهارت، (1980 – 2000).
تكملة المعاجم العربية، ط 1، 11 ج، (نقله الى العربية و علق عليه
الدكتور محمد سليم النعيمي)، 1980 (ج 1، ج 2)، 1981 (ج 3، ج 4)،
1982 (ج 5)، (ج 6 د. ت.)، 1991 (ج 7)، 1997 (ج 8)، 1999 (ج
9)، 2000 (ج 10)، (ج 11؟)، بغداد: وزارة الثقافة والاعلام.

• سزكين، فؤاد، (1991).
تاريخ التراث العربي، ط (بدون)، 10 ج، 3 م، (نقله إلى العربية محمود
فهيم حجازي، راجعه عرفه مصطفى وسعيد عبد الرحيم)، السعودية: جامعة
الإمام محمد بن سعود الاسلامية.

• شترك، الحسيني، السيد عبد الرزاق، الدوري، عبد العزيز،)
(1984).

بغداد. ط 1، 1 ج، كتب دائرة المعارف الإسلامية رقم 15، (لجنة ترجمة
دائرة المعارف الإسلامية: ابراهيم خورشيد، الدكتور عبد الحميد يونس،
حسن

عثمان)، بيروت: دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة.

• شيميل، آنا ماري، (2006).
الأبعاد الصوفية في الاسلام و تاريخ التصوف، ط 1، 1 ج، (ترجمة محمد
اسماعيل السيد، ورضا حامد قطب)، كولونيا – المانيا: منشورات الجمل.
ظهرت الطبعة الانجليزية الاولى سنة 1975 و الالمانية سنة 1979.

• لسترنج، كي، (1985).
بلدان الخلافة الشرقية. ط 2، 1 ج، (نقله إلى العربية وعلق عليه ووضع
فهارسه بشير فرنسيس، كوركيس عواد)، بيروت: مؤسسة الرسالة.

- العث، الدكتور يوسف، (1991).
دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في
العصر الوسيط. ط 1، (ترجمه عن الفرنسية نزار أباطة، محمد الصباغ)،
بيروت: دار الفكر المعاصر.
- ماسينيون، لويس، (2004).
آلام الحلاج. ط 1، 4 ج، 1م، (ترجمة الحسين مصطفى الحلاج)، بيروت:
شركة قدمس للنشر و التوزيع.
- مقدسي، جورج، (1994).
نشأة الكليات معاهد العلم عند المسلمين و في الغرب. ط 1، 1 ج، (ترجمة
محمود سيد محمد)، جدة: جامعة الملك عبد العزيز، مركز النشر العلمي.
- — ، (1984).
خطط بغداد في القرن الخامس الهجري. ط (بدون)، 1 ج، (ترجمة الدكتور
صالح أحمد العلي)، بغداد: المجمع العلمي العراقي.
- نيكولسون، رينولد أ.، (1947).
في التصوف الإسلامي و تاريخه. ط (بدون)، 1 ج، (نقلها إلى العربية وعلق
عليها أبو العلا عفيفي)، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

مراجع باللغة الانجليزية و الفرنسية

Arburry, A. J., (1970).

Sufism: an account of the mystics of Islam.

New York: Harper & Row.

The Encyclopaedia of Islam (New Edition), B. Lewis, CH. Pellat and J. Schacht (ed.'s). Vol. II (C- G).

Leiden: E. J. Brill, 1965.

(Futuwwa), pp, 961- 969, by: FR. Taeschner.

The Encyclopedia of Islam and The Muslim World, II Vol., Richard C. Martin (ed.), Macmillan Reference USA, New York, 2004. (Vol.1 A-L. Vol.2 M-Z)

Makdisi, George, (1963).

Ibn 'Aqil et la Resurgence de l' Islam Traditionalist AU XI^e SIECLE (V^e siecle de l' Hegire).

Damas: Institut Francais de Damas.

Muhamad, Abdul Munim Rashad, (1963).

The Abbaside Caliphate (575/ 1179- 656/ 1158).

Unpublished thesis submitted for the degree of Doctor of Philosophy. The School of Oriental and African Studies, The University of London (SOAS), London.

Saunders, J. J., (1965).

A History of Medieval Islam.

London & New York: Routledge.

Trimingham, J. S., (1965).

Islam in The Sudan.

London: Frank Cass & Co. Ltd.

Trimingham, J. Spencer, (1971).

The Sufi Orders in Islam.
London: Oxford University Press.
الموسوعات و الدوريات و المجلات العربية و المترجمة

- الألويسي، عادل، (1973).
مدخل لدراسة الربط الاسلامية. مجلة المورد العراقية، السنة الثانية،
حزيران (2)، وزارة الاعلام، بغداد، ص 23 - 32.
- دائرة المعارف الاسلامية، تحرير هوتسما، م. ت.، باسيت، أرنولد ر.،
هارتمان، ر. (إعداد وتحرير: إبراهيم زكي خورشيد، أحمد الشنتناوي،
الدكتور عبد الحميد يونس)، مركز الشارقة للابحاث الفكرية، الشارقة،
(د. ت.). المواد:
ا. (التصوف).
ب. (طريقة).
ج. (الزاوية).
د. (الخرقة).
هـ. (درويش).
و. (الرباط).

- الدوري، الدكتور عبد العزيز، (1959).
نشوء الأصناف و الحرف في الاسلام. مجلة كلية الآداب، حزيران (1)،
بغداد. ص 1 - 37.

- * - (1997).
دور الوقف في التنمية.
مجلة المستقبل العربي، 20 (221)، 4 - 26.
- شابي، بروفيسورة جاكلين، (1998).
عبد القادر الجيلاني بين الحقيقة التاريخية و الأسطورة الأدبية.
(ترجمة الدكتور حسن سحلول)، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر
عن اتحاد الكتاب العرب، السنة (18) كانون الثاني (70)، دمشق. نسخة
الالكترونية طبعت بتاريخ 14 / 9 / 2004.
- يوسف، شريف، (1975).

تاريخ فن العمارة العربية الاسلامية: مدارس هذا الفن و الفترات الكبرى
لتطوره. مجلة المورد العراقية، المجلد 4 (2)، وزارة الاعلام، بغداد. ص
33-25.

سيرة الباحث الدكتور جمال الدين فالح الكيلاني

ا.د. ابراهيم خليل العلاف

أستاذ التاريخ الحديث - جامعة الموصل

صديق عزيز ، أتابع منذ فترة طويلة ، نشاطاته العلمية، ولي معه علاقة تبادل علمي هو جمال الدين بن فالح بن نصيف بن جاسم بن أحمد الحجية بن عبد الكريم بن عبد الرحيم بن خميس بن ولي الدين محمد بن عثمان بن يحيى بن حسام الدين بن نور الدين بن ولي الدين بن زين الدين الكبير بن شمس الدين بن شرف الدين بن محمد الهتاك بن عبدالعزيز بن الباز الاشهب الشيخ عبدالقادر الكيلاني بن ابي صالح موسى بن عبدالله الجيلي بن يحيى الزاهد بن محمد المدني بن داود امير مكة بن موسى الثاني بن عبدالله الصالح بن موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن المجتبي بن اسدالله الغالب علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنهم اجمعين، من الأسرة ((الكيلانية، ذرية الشيخ عبدالقادر الجيلاني

من مواليد 1972، ومنذ طفولته أولع بحب التاريخ، و قراءة الكتب المتنوعة، تأثر بوالده الأستاذ فالح الحجية الكيلاني -الأديب والشاعر، وأخذ عنه حب

الأدب والمعرفة وتذوق الشعر، وبحكم نشأته في الخالص وعلاقة القرابة التي تربطه بالعلامة سالم عبود الالوسي، تعرف بالعلامة مصطفى جواد وتراثه، واهتم منذ بواكير حياته العلمية بالتراث القادري والذي بات تخصصه الدقيق، ويعد نفسه من تلاميذ الأستاذ الدكتور عماد عبد السلام رؤوف ومدرسته التاريخية، مارس التدريس في التعليم الابتدائي والمتوسط والثانوي، كما حاضر في جامعة بغداد والجامعة المستنصرية واتحاد المؤرخين العرب وجامعات القادسية والبصرة وواسط .

حصل على شهادة البكالوريوس في التاريخ من كلية التربية - ابن رشد - جامعة بغداد . كما نال شهادة (دبلوم) في اللغة الانكليزية من معهد المعلمين

لم يقف عند هذا الحد ، بل غد السير ، وأكمل دراسته وحصل على شهادة (دكتوراه) فلسفة في التاريخ الإسلامي من جامعة سانت كلمنتس العالمية. ولحبه التاريخ والدراسات التاريخية انتمى إلى " معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا التابع لاتحاد المؤرخين العرب ببغداد " ، وحصل على شهادة ماجستير آداب في التاريخ والحضارة العربية الإسلامية . حصل على لقب "باحث علمي" من مركز دراسات التاريخ والوثائق والمخطوطات سنة 1998 .

والدكتور الكيلاني عضو اتحاد المؤرخين العرب 1996 وعضو الهيئة العربية لكتابة تاريخ الأنساب 1998 وعضو جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق 1995 وعضو (شرف) لجنة الدراسات القادرية المغرب 1997. مشرف مركز دراسات الإمام عبد القادر الجيلاني المتخصص بالتراث والتاريخ والأنساب القادرية 2011 .

كرم بالعديد من الشهادات التقديرية من المجمع العلمي العراقي 1996 والهيئة العربية لكتابة تاريخ الأنساب 2000 ، والهيئة العامة للآثار 1997 وجامعة

بغداد 1999 وغيرها

اهتم بتاريخ الأنساب وشغل نفسه بهذا اللون المهم من الدراسات التي تحتاج إلى معرفة بأمر كثيرة. وقد أجز في مجال دراسة وتدقيق الأنساب من ثلة من الأساتذة العراقيين المعروفين أمثال الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف والأستاذ سالم عبود الالوسي والأستاذ اللواء احمد خضر العباسي والأستاذ الشيخ خليل الدليمي والأستاذ جمال الراوي. ومنذ قام الدكتور الكيلاني بدراسة وتدقيق العشرات من شجرات النسب ومن كافة أنحاء العراق وبموجب كتب رسمية من الهيئة العربية لكتابة تاريخ الأنساب وغيرها ، ويفخر بأنه حضر عدة جلسات للعلماء الأعلام كل من الشيخ العلامة عبد الكريم محمد المدرس-مفتي الديار العراقية-والعلامة الدكتور حسين علي محفوظ والعلامة الدكتور علي الوردني و-العلامة الدكتور حسين أمين

كما أن لديه العديد من البحوث والدراسات والكتب. من كتبه المنشورة: كتاب الإمام عبد القادر الجيلاني -تفسير جديد مراجعة الأستاذ الشاعر فالح الحجية الكيلاني، مكتبة المصطفى، القاهرة، 2009. وكتاب الشيخ عبد القادر الكيلاني رؤية تاريخية معاصرة تقديم الدكتور عماد عبد السلام رؤوف، مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي - بغداد 2011. وهو بالأصل رسالة باشراف الدكتورة لقاء الطائي والدكتور رؤوف وكتاب " بهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشطنوفي، دراسة وتحقيق "، تقديم الدكتور حسين أمين شيخ المؤرخين - نشر على نفقة السيد احمد الكيلاني، الجزائر 2011. وكتاب " أصول التاريخ الإسلامي "، مراجعة الدكتور حسين علي محفوظ (مخطوط) 1999. وكتاب " تنقيحات دراسة تحليلية لنسب الإمام عبدالقادر الجيلاني "، مراجعة الدكتور عبد القادر المعاضدي (نشر محدود) منه نسخة محفوظة في المكتبة القادرية 1996. وكتاب " دراسات في التاريخ الأوربي "، تقديم الدكتور كمال مظهر (احمد) (معد للنشر

ومن بحوثه ودراساته: عرض كتاب الإمام عبد القادر الجيلاني - تفسير جديد في مجلة فكر حر 2009. وعرض مخطوطة مهجة البهجة ومحجة اللهجة (كتاب) منشورة في جريدة الصباح 2005. ومقالة مصطفى جواد ومخطوطة نادرة عن الكيلاني جريدة الصباح 2006. ومقالة رشيد عالي الكيلاني ابن ديبالي المشورة في جريدة العراق 2002. ومقالة المقدادية أصل التسمية

المنشورة في جريدة العراق 2002. ومقالة " الشرق الأوسط واصل التسمية"
المنشورة في مجلة كلية الاداب جامعة عين شمس 2009. ومقالة عن "
براغماتية السيد عبد الرحمن الكيلاني النقيب "، مجلة فكر حر 2009. ومقالة
عن " الشيخ عبدالقادر الكيلاني: جيلان العراق لا جيلان طبرستان، مجلة كلية
الآداب جامعة عين شمس 2009. وتفسير الجيلاني – دراسة في نسبة التفسير
للمؤلف، مجلة رؤى 2010. و"المؤرخ هشام جعيط – دراسة في رؤيته
للسيرة النبوية " ، مجلة رؤى 2010

هذا فضلا عن عشرات المقالات المنشورة على شبكة الانترنت وضمن مواقع
كثيرة ومن الموضوعات التي كتبها موضوعات ، عن عصر الرسالة وعصور
الراشدين والأمويين والعباسيين والعثمانيين والعصر الحديث والمعاصر
والشخصيات العربية والإسلامية وبعض الشخصيات الغربية ، مثل مقالات تدور
حول الشيخ عبد القادر الجيلاني وذريته في العالم ، وأهمية ثورة الحسين في
التاريخ العربي الإسلامي، و إبان بن عثمان المؤرخ المبكر، والإمام الغزالي،
والإمام الرفاعي، والإمام أبو مدين ، والإمام البخاري ، والشيخ ابن تيمية
وقوميته، والشريف البعقوبي، الأمين والمأمون والميكافلية ، والطريقة القادرية
المبكرة ، و معنى الباز الأشهب، والتراث الصوفي – دراسة أولية والإمام أبو
إدريس البعقوبي، والمغول، وجنكيز خان، وهولاكو خان، وتيمورلنك، والدولة
الفاطمية وخلفاءها، وبغداد، وسمرقند، وكابول، ودلهي، والمقدادية أصل
التسمية، والناصرية العراقية، والصويرة العراقية، والعزيرية العراقية، وال
بابان، وال سعدون، ومحمد الفاتح ،وسليمان القانوني ،ومراد الرابع، وعبد
الحميد الثاني، والشرق الأوسط، والمكنا كارتا، وعبد القادر الجزائري، وجمال
الدين الافغاني ،وعبد الكريم قاسم ،والحبوبي الشاعر والإمام، والسيد محمد
باقر الصدر، والمؤرخ الدروبي وجهوده في تدوين تاريخ الأسرة القادرية في
العهد العثماني، والرينسانس ،ومتريخ، وبسمارك، وهتلر، وميكافلي
والميكافلية، وونستون تشرشل، وجان جاك روسو ،والثورة الفرنسية، ولويس
الرابع عشر ،ولويس السادس عشر، وماري انطوانيت ،ونابليون الأول
،ونابليون الثالث، وقراءة في كتاب-لينين-خطوة إلى الإمام خطوتان إلى الورا،
وتلخيص كتاب قصة الفلسفة للمؤرخ ويل ديورانت، وتاج محل ،والأزهر،
والقرويين، وبدر شاكر السياب، و" الصراع السياسي والديني في اليمن قبل
الاسلام -نجران نموذجا . "

درس التاريخ على أيدي العديد من أساتذة التاريخ في العراق منهم الأساتذة
الدكاترة عماد عبد السلام رؤوف وكمال مظهر احمد وفاروق عمر ,وعبدالرزاق
الانباري وعبد القادر المعاضيدي وخاشع المعاضيدي وعبد القادر الشبخلي
وجعفر عباس حميدي ويقظان سعدون العامر وحمدان الكبيسي وقحطان عبد
الستار الحديثي وهاشم يحيى الملاح وعبد الامير العكام وصادق ياسين الطو
ومفيد كاصد الزيدي ومحمد احمد الشحاذ وعبد الامير دكسن وعبد الجبار ناجي
وفاروق عباس وهيب وخضير الجميلي وطارق نافع الحمداني ومحمد جاسم
المشهداني ومحمد ياقر الحسيني ومزاحم علي عشيش البعاج وناهض
عبدالرزاق القيسي ومحي هلال السرحان.

من آراءه" أن التاريخ لايعرف اليوم والأمس والغد وإنما هو نهر الحياة يمضي
الى الاجل المضروب الذي قدره علام الغيوب، فالتاريخ كله تاريخ معاصر، نعم
له تقسيمات علمية، ولكنه يعيش معنا ويهمنا وعلينا أن نستفاد منه في حياتنا
كلها ويستند في هذا الرأي على أن استقراء التاريخ خير من التجارب، وان
اختيار سنة بعينها أو حدث بذاته لتحديد نهاية عصر من عصور التاريخ أو
بداية عصر آخر، يبدو، امرا بعيدا عن الحقيقة والواقع لان التطور التاريخي
يمتاز دائما بالتدرج والاستمرار وتداخل حلقاته بعضها ببعض، وان وقائع
التاريخ الكبرى عائمات جليد طرفها ظاهر فوق الماء، وكتلتها الرئيسية تحت
سطحه ومن يريد استكشافها عليه أن يغوص في الأعماق،والفرق بيننا وبين
الغرب اننا نعيش في التاريخ فقط وهم يفهمونه ويستغلونه لتحقيق مصالحهم،و
التاريخ هو طريق الإنسانية الى الحضارة، لأنه ضوء ينير الماضي لرؤية
الحاضر و المستقبل، فجزور أنظمتنا السياسية، والاقتصادية والاجتماعية
".والدينية والعلمية،تمتد عميقا في تربة الأجيال الماضية

:ايمل الباحث

jamalalgilany@gmail.com
jamaluden2010@gmail.com

مكتبة المصطفى للنشر
القاهرة 15-11-2012